# الفولكلور والبحر

تأليف : هوراس بيك
ترجمة : أحمد محمود
مراجعة وتقديم: صفوت كمال






المشروع القومي للترجمة

617

المشروع القومى للترجمة

# الفولكلور والبحر

تأليـف : هوراس بيك

ترجمـة : أحمد محمود

مراجعة وتقديم : صفوت كمال

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠٠٣

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد :
- الفولكلور والبحر
- هوراس بيك
- أحمد محمود
- صفوت كمال
- الطبعة الأولى ٢٠٠٣

هذه ترجمة كاملة لكتاب :

FOLKLORE & THE SEA

by

HORACE BECK

Wesleyan University Press

Middletown, Connecticut

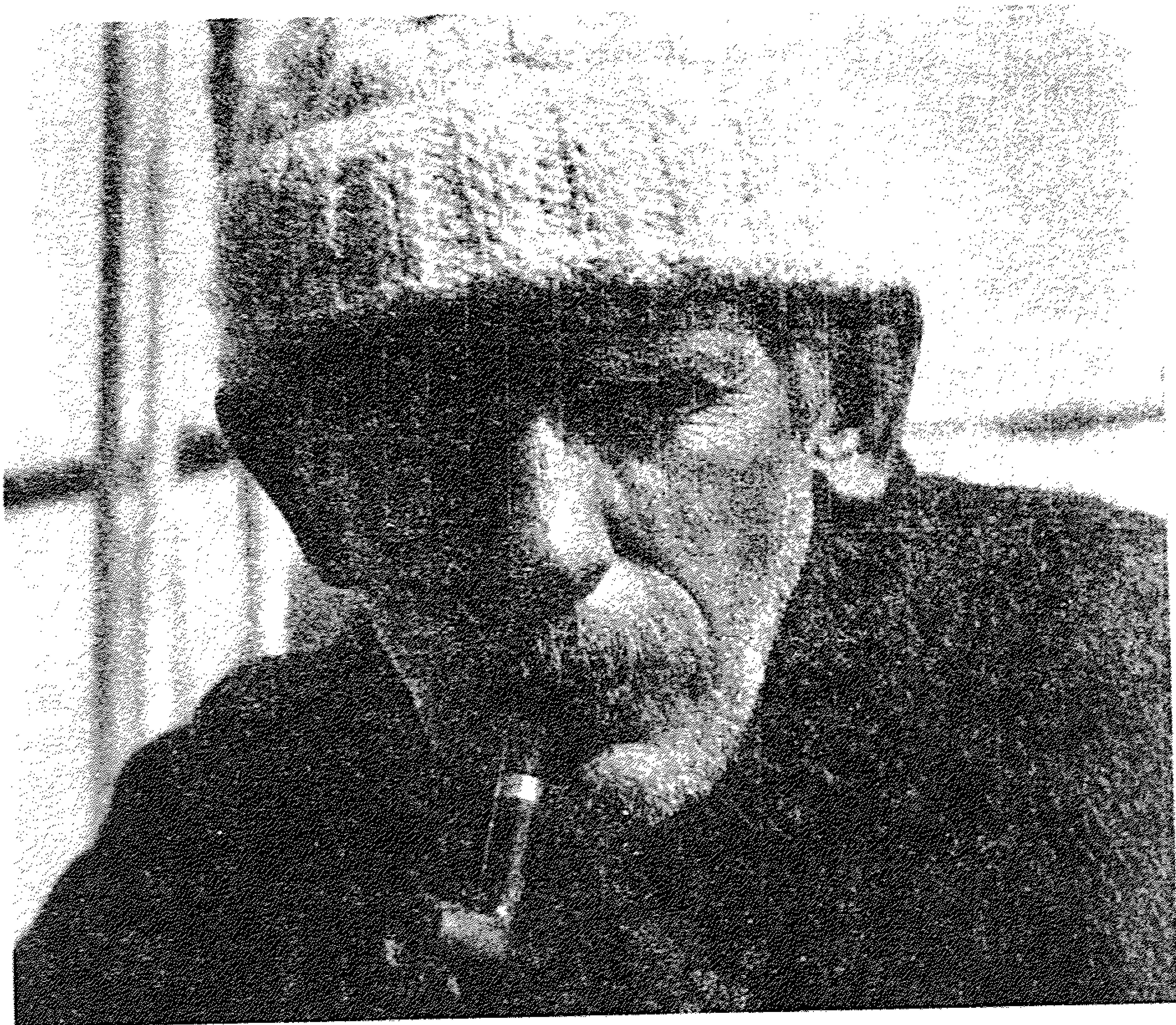
1977

---


شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084



هوراس بيك

# المحتويات

# تقديم المراجع وتحليله

## المؤلف :

مؤلف هذا الكتاب، هوراس بيك (١٩٢٠/١ - ٧ - ٢٠٠٣) ولد في منطقة رود أيلاند بأمريكا، منتمياً إلى الطبقة الأرستقراطية في مدينة نيويورت القديمة. وكان والده طبيبا علمه الكثير عن إدارة الأعمال، والرياضة، وخدمة الأسرة والوطن. ويقول عن والده: «كان أبى يشعر أنه من الكافى للصبى أن ينال ما يوازى الدرجات العلمية، بمجرد إشراكه فى تفاصيل الحياة اليومية للأسرة. وكان يقول إن التعليم شبيه بالاستثمار».

ويقول عن نفسه : «لقد نشأت فى بيئة تقليدية، وفعلت ما كان متوقعا منى.» وقوله هذا يكشف عن تواضعه ؛ فقد كانت نشأته أبعد ما تكون عن النشأة التقليدية.

فبجانب حياة الرفاهية التى عاشها، عاش تجربة أخرى، حيث كانت أسرته تملك مزرعة تديرها والدته. ويقول: «فى المزرعة كنت خادما، أحلب الأبقار، وأقوم بالحرث والغرس والبناء والحصاد وبيع الفاكهة والقش والطهى، وكذلك صيد الأسماك مرة فى الأسبوع. لقد كنا نتمتع بالاكتفاء الذاتى تماما.. وببلوغ عامى السادس من العمر كنت أقوم بالصيد وصيد السمك والإبحار وحدى.» ويضيف قائلا : «إن الاستماع إلى قصص الكبار كان مصدرا آخر للمتعة، فكنت أجلس على ركبتى العديد من البحارة التجاريين والرجال السود فى بيتنا ممن أسهموا فى نشأتى، وأعتقد أننى أصبحت باحثا إثنولوجيا أو فولكلوريا منذ السادسة من عمرى. ويمثل التدريس الجانب الآخر الذى ينافس حبى الأول الذى ذكرته».

والتحق هوراس بيك بجامعة بنسلفانيا وتخرج فى الجامعة نفسها، وبعد قضاء فترة قصيرة فى القوات البحرية قام بالتدريس فى الجامعة نفسها حتى عام ١٩٥٠ ثم انضم للتدريس فى جامعة تمبل حتى عام ١٩٥٥. وعلى الرغم من صلاته الحميمة بالجميع

فى جامعة بنسلفانيا إلا أنه كان يشعر بضرورة التغيير حيث كان يريد التدريس لمجموعات أصغر من الطلاب وأن يجمع المواد مستخدما قاربه الخاص. كما أنه - على المستوى الشخصى - كان يود الحياة فى الريف مرة ثانية و«أن أمارس الزراعة وأبنى بيتى بنفسى وأثثه، وأن أكون فى مكان يمكننى من الصيد».

ومن هنا كانت كلية ميدلبرى Middlebury هى المكان الأمثل فى عام ١٩٥٥. وكان معظم الأساتذة على معرفة بالمواد التى يدرسونها وكانوا مدركين الحاجة إلى السفر والترحال مثل رجال النهضة. على الأقل إلى البلاد التى يتخصصون فى دراستها. وكان سفرهم من أجل البحث والدراسة.

ويقول هوراس بيك : «ولحسن الحظ قرب نهاية الستينيات لم أكن جزءا من سياسات الكلية. فكنت أقوم بالتدريس ثم البحث ثم الكتابة. قمت بجمع مواد من الدول الإسكندنافية، وتتبع المادة عبر أيرلندا والجزر التابعة لإسكوتلندا، وذلك بالتردد على بيوت تعيش فيها عائلات على مدى ٩٠٠ عام، كما تنقلت بين جزر الأزور وأفريقيا وعبرت الأطلنطى إلى منطقة الكاريبى، حيث تعرفت على عالم جيد، هو عالم صيد الحيتان. وفى الوقت الذى لم أكن أكتب فيه كتاب حياتى، كنت أقضى أوقاتى الخاصة فى دراسة الأساليب البدائية لصيد الحيتان فى منطقة جنوب المحيط الهادى».

ويقول لويس بيكون الذى تخرج فى كلية ميدلبرى ١٩٧٩ «إن استقلالية وتحدى هوراس وسلوكياته الخاصة تميزه عن معاصريه. مثله فى ذلك مثل شخصيات الرحالة فى الأدب الأمريكى. فهو يمثل النموذج الكلاسيكى للبطل الأمريكى الذى يعانى من مجتمعه، مع رضاه عن ذاته. ومع مضى الوقت فإن معظم المحاضرات والمدرسين يتلاشون تدريجيا من ذاكرتنا. إلا أن سعداء الحظ منا ممن تمتعوا بمحاضرات هوراس يجدون أن ما تعلموه منه يصبح أكثر وضوحا مع مرور الزمن وتزايد الخبرة».

لقد قام هوراس بيك بأسفار عديدة باعتبار أنه باحث فولكلورى. وجمع معلومات ومادة من ثقافات متعددة، وقام فى جامعة بنسلفانيا - حيث نال درجة الدكتوراه عام ١٩٥٢ - بجمع المواد الفلولكلورية من ولايتى كارولينا الشمالية والجنوبية، وصولا إلى لابرادور، بما فى ذلك الثقافة الشعبية الخاصة بالهنود الحمر، وكذلك الأساطير والأغانى الخاصة بالسود فى أمريكا.

بالإضافة إلى أبحاثه الأكاديمية وكتاباته ومحاضراته، فإن هوراس بيك كان يعيش حياة غريبة على غالبية طلابه وزملائه. فقد كان يخرج فى رحلات صيد منذ طفولته. وقام بالإبحار حول العالم للعمل والمتعة. وكما يقول عنه جورج كارى وهو خريج عام ١٩٥٨ وأستاذ متقاعد للفولكلور «إن هوراس يشعر براحة وهو على متن قاربه تفوق الراحة التى تشعر بها وأنت فى حجرة بيتك».

كما شهدت مرحلة ما بعد بلوغه سن التقاعد تخصصه فى أعمال الأخشاب، حيث قام ببناء مركب خاص به طوله ٣٥ قدما.

وقد تقاعد هوراس بيك عن العمل فى كلية ميدلبرى فى عام ١٩٨٣، ولكن حياته ازدادت نشاطا، حيث قام بتقديم تعليقات فى برامج إذاعية تابعة لإذاعة فيرمونت العامة. وقام بتحرير عدد تذكارى لزميله ماك إدوارد ليتش أحد أساتذة علم الإثنولوجيا الثقافية المرموقين. كما قام بالتدريس لفصل دراسى واحد فى جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس. إضافة إلى إبحاره فى رحلات عديدة عبر الأطلنطى خمس مرات.

مع ذلك كله فإنه كان يجد الوقت الكافى معلما ومرشدا للطلاب الذين يسعون إليه طلبا للاطلاع على مكتبته المتخصصة فى علم الفولكلور بما تضمه من عشرة آلاف كتاب متخصص. إضافة إلى تقديم النصح لهم من واقع تجربة حياته التى جمعت بين البحث والمغامرة كما يسعى إليه طلابه السابقون مثل لويس بيكون الذين يشعرون «أن التعليم الحقيقى يتجاوز الدروس والمحاضرات، بل يتضمن أن تتجسد المعرفة فى المعلم. ومن النادر حدوث هذا التداخل بين المعلم وموضوع البحث والتجربة، مثلما كان الحال لهوراس بيك وهو يعلم تلك الفئة المحظوظة ممن حضروا محاضراته». (*)

(*) راجع Rachel Morton, "The charismatic, the controversial HORACE BECK," Middlebury Mogazine On-line, http://cat. middlebury. edu / - publish / middmag / features / beck / beck,. html

و :

"Folklore and the Sea by Horace Beck," Books, http:/www. amazon. com/exec/obidos/tg.

أما كتاب حياته فهو «كتاب الفولكلور والبحر» الذى صدر لأول مرة عام ١٩٧٣. والذى صدر فى عدة طبعات تالية. ويجد القارئ العادى والمتخصص فى هذا الكتاب ثراء معرفيا كبيرا. عن حياة البحر والبحارة ، تراثا ومأثورا ، واقعا وخيالا.

وحينما بدأ هوراس بيك العمل فى هذا الكتاب كان فى الحسبان أن يكون موجزا تاريخيا عاما لفولكلور البحر، لكن المادة التى جمعت أصبحت كبيرة جدا، لذلك تم تضييق منطقة البحث لتشمل دراسة فولكلور البحر بالنسبة للناطقين باللغة الإنجليزية.

## هذا الكتاب :

كتاب له خصوصيته العلمية فى دراسات الفولكلور، بما يزخر به من مادة غزيرة متنوعة من عادات وتقاليد ومعتقدات شعبية وأساطير وحكايات خوارق وكائنات بحرية. ومغامرات ربابنة وقراصنة ومعارك بحرية بين رجال السلطة والمهربين وقصص لها واقع، وإن لعب الخيال فيها دوراً يجمع بين التراث الشفاهى والمأثور الشائع وبين الحدث الواقعى والتصور الحالم. وأغان يترنم بها البحارة فرادى وجماعات ومواقف مأسوية وأخرى ساخرة.

وتزاوج بين عالم الجان وعالم الإنسان ، وعلاقات خرافية يصنعها الإنسان من خلال الوهم والخوف أحيانًا ، أو من أجل أن يثير الطمأنينة فى نفسه وسط الضباب وعواصف البحر وثورات موجه أحيانًا أخرى . فحياة البحر حياة متقلبة، وهى حياة تموج بالأعاصير وغرائب الموجودات وعجائب الطبيعة. حياة كل ما فيها فى حركة دائمة بين مد وجزر، وصعود وهبوط، ما بين أمطار وسكون وضباب، ما بين برد قارص وهدوء يثير الأوهام، ما بين رؤية واضحة وغموض مخيف، ما بين ضوضاء صاخبة وأصوات غريبة رهيبة وصمت عميق تقشعر منه الأبدان، وجليد تتجمد به الأجسام. والبحارة على علم تام بما يحوط حياة البحر من أخطار، وما فى الأعماق الرهيبة من مخلوقات قابعة، وما تحمله العواصف من قسوة وموت ودمار للسفن.

ولأن البحر عنيف كما يقول هوراس بيك فإن مأثورات (فولكلور) البحر كثيراً ما تتسم بالعنف. وتشبه حياة الفولكلور البحرى حياة الموجة العارمة. فحياة البحر تتجمع،

وتعلو وتعلو، ثم تبلغ أعلى ارتفاع لها، وتندفع فى اتجاه الشاطئ وتتحطم، ثم تعود، وتشكل نفسها من جديد. وكذلك الفولكلور ينبع من أحداث صغيرة، ومأثورات دقيقة، وعناصر عديدة، تتجمع عليها أحداث وأحداث أخرى، يتجمع بعضها مع بعض فى كتلة لها كيانها الخاص ثم تتفتت تلك الكتلة إلى قطع صغيرة، ولكن هذه القطع الصغيرة تتشكل من جديد فى شكل مغاير لما كان. وتتكرر العملية.

وعند دراسة هذه المادة تتضح أمور عدة، منها ما هو قديم قدم الإنسان نفسه، لا نعرف لها بداية فيما قبل التاريخ وليس لها مكان محدد، فهى متداخلة بين أجناس وأماكن متنوعة. فالبحر حمل ما حمل من البشر، ونقل ما نقل من خبرات الناس من مكان إلى مكان ومن لغة إلى لغة، تتداخل وتتواصل عناصرها بما تحمل من إبداعات الأجناس والشعوب.

وتتعدد المقولات بين الواقع المعاش والخيال، كما هو مفترض حدوثه بالنسبة السياق العام للأحداث، وبين مهارات الرواة الفنية فيما يروون وصياغة ما يتذكرون، وما يضيفون من تصورات وإسقاطات ذاتية، أو ما يحملون من موروثات ثقافية تجمع ما بين الأسطورة والأحداث الخارقة والخرافة، وبين عالم الأشباح والأوهام. ولقد آثر الأستاذ أحمد محمود أن يترجم مصطلح Legend بالأسطورة وجعل لفظ الخارقة هو الترجمة العربية للفظ Myth باعتبار أن عالم الميثولوجيا هو عالم الأشباح الذى يموج أيضا بكل ما هو خارق للطبيعة.

والمادة التى أوردها المؤلف فى هذا الكتاب مادة عايشها واحتفظ بها فى ذاكرته. مادة جمعها من رواة حفظوا ما عرفوا وهو أيضا حفظها وحافظ عليها، على مدى ثلاثين عاما يجمع ويدون، بالإضافة إلى خبرته هو الشخصية، مع المعرفة المنقولة من الكتب والوثائق والمراجع والدراسات التى أوردها موثقة فى ختام كتابه.

والمادة المجموعة فى هذا الكتاب جزء من كل. وكما يقول المؤلف : «لو حاول الإنسان مناقشة كل هذا القدر الكبير من المادة وتجميعه وتقييمه لاحتاج إلى ما يزيد عن عمره، حتى وإن ساعده فى ذلك الكمبيوتر، ولكانت النتيجة قاموسا للغة البحر، ومصطلحاته، وخرافاته، ومعتقداته، وعاداته، وأغانيه، وأساطيره، وليس كتابا عن الفولكلور البحرى».

وفى الواقع إن عالم البحر ملىء بالعجائب والغرائب، ولقد التفت إلى ذلك علماء العرب القدامى. فإذا تأملنا ما ورد فى كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزوينى (٦٠٠ - ٦٨٢هـ)[1] وما تضمنه من حكايات وقصص ووصف لأحداث نقل بعضها عن المسعودى (أبو الحسن) توفى (٣٤٦هـ - ٩٥٦م) نجد وصفا للعديد من أنواع السمك والحيوانات العجيبة التى تعيش فى البحار.

وحينما نتناول كتاب هوراس بيك عن المأثورات البحرية نجد أنه كتاب زاخر بالمعلومات التى تحدد موضوعات عجيبة عن عالم البحر، وهى معلومات لها ثراؤها الخاص وطبيعتها المعرفية النادرة، ومكوناتها الثقافية التى ترتبط بعادات وتقاليد ومعتقدات وطقوس وممارسات وشعائر تخرج من إطار الفعل الاجتماعى والمعتقد الدينى إلى مجال السحر ومخاطبة كائنات مغايرة للكائن الإنسانى، ومن مسميات لمكونات من الطبيعة وعناصر طبيعية إلى مكونات تفوق عالم الطبيعة وعوالم الحياة. فالكتاب ليس وصفا لحياة بل هو كشف عن حيوات لها خصوصيتها فى الثقافة الإنسانية لم نعرف عنها الكثير بل إن ما نعرفه محدود، وما استلهم من عناصرها فى مجال الأدب والفن جزء صغير، بل وفى منتهى الصغر. فعالم البحر عالم كبير وكما يقول الربان العربى الشهير أحمد بن ماجد (القرن ١٥) «إن البحر أكثر من البر، وعلم البحر أكثر من علم البر.. وينبغى لعارف هذا العلم أن يسهر الليالى ويجتهد فيه غاية الاجتهاد ويسأل عن أهله ومن جربه...»[2].

والقارئ لهذا الكتاب يجد بين عناصره عناصر تماثل ما قد نعرفه من تجربة الإنسان العربى مع عالم البحار. رحلات سفر وتجارة ورحلات غوص فى الأعماق

(١) راجع القزوينى، زكريا ، (١٢٠٣ - ١٢٨٣)، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، قدم له وحققه، فاروق سعد، دار الآفاق الحديثة ، بيروت ، ١٩٧٣ . والمسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، بيروت ١٩٧٣.

(٢) أحمد بن ماجد، ثلاث أزهار فى معرفة البحار، تحقيق ونشر تيودور شومونسكى، ترجمة وتعليق د. محمد منير موسى ، عالم الكتب القاهرة، ١٩٦٩، ص٧٩ وما بعدها .

راجع أيضا: شهاب الدين أحمد بن ماجد النجدى، كتاب الفوائد فى أصول البحر والقواعد، تحقيق إبراهيم خورى، وعزة حسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق ١٩٧١ ص٥-٨.

لجمع المحار الكامن فيه اللؤلؤ. ولكن ما ورد لنا من تجارب ومغامرات وتصورات عن عالم البحر لهذا التراث العربي لم تلق من الدراسات الفولكلورية والإنسانية بعامة ما يجب أن تحظى به. وفي تاريخ غير معلوم، لكنه يسبق الإسلام بقرون مديدة درج العمانيون على ابتناء سفن من خشب الساج، يخيطون ألواحها بحبال مصنوعة من لحاء شجر النارجيل (جوز الهند) ثم يطلون قيعانها بالشحوم»[1].

وحينما نتخيل أبعاد التاريخ «حينما صنع الإنسان السفينة يطفو بها فوق سطح الماء وهي خبرة غير يسيرة، خرج بها من عالم الثبات إلى عالم الحركة، ثم غاص في الأعماق، فانتقل بوجوده الحسي، من عالم المرئي والمدرك، إلى عالم المجهول وغير المرئي وغير المدرك أحيانا. وإلى عالم الخيال أيضا، فأسقط من ذاته وخبراته المسبقة على عالم البحر، ما كان قد اكتسبه من عالم البر، وانتقل بعمارة سفنه البسيطة إلى سفن معقدة التركيب سوية الشكل، ومن سكون الموج إلى هيجانه، ومن عالم البحار إلى عالم المحيطات.. «وأدرك الإنسان من نظام عمله في صنع السفينة والعمل عليها أن التكامل لا يتحقق إلا من خلال نظام ثابت وطاعة وتعاون لربان محنك وبحارة أوفياء مدربين. فانتظم بذلك عقد العمل الجماعي وحددت القواعد تحت فكر موحد فتحققت الفوائد»[2].

وتاريخ العرب في علوم الملاحة والبحار تاريخ عريق قديم. فالتراث السومري في أسطورة جلجامش يوضح كيف صنع السومريون القدماء سفن الإبحار من الشمال إلى الجنوب في رحلة جلجامش لجلب زهرة الحياة التي تمنح الإنسان الخلد، ورحلات الفينيقيين القدماء من المشرق إلى المغرب عبر البحر المتوسط، ورحلات المصريين القدماء من الشمال إلى الجنوب، وكل له سفنه ومراكبه . وتطور صناعة السفن وتاريخ البحرية في مصر الإسلامية زاخر بخبرة المصريين في صناعة السفن منذ أقدم العصور وسفن الشمس الرابضة الآن في متحفها بهضبة الأهرام

(١) د. عبادة كحيلة، عن العرب والبحر، توزيع مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م ص٤٥.

(٢) راجع ، صفوت كمال، ثقافة البحر الشعبية في التراث العماني، دراسة منشورة في المجلد السادس مطبوعات مركز عمان للموسيقى التقليدية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

إلى غير ذلك من تصاوير وآثار تحكى برؤية مباشرة قصة الملاحة وخبرة الإنسان فى البحر(1).

## بناء السفن :

من خلال نسق متكامل فى العمل الذى حددته طبيعة العمل البحرى يتحقق نسق ثقافى خاص يرتبط بعالم البحر. كما أن عملية الوعى الثقافى فى تحويل الفكرة إلى واقع ملموس ووجود محسوس تتحقق فعلا فى عملية بناء السفن، مثلها مثل العمارة التقليدية على الأرض. فمنذ أن يبدأ بنّاء السفينة المسئول عن كمالها والمشرف على عملها فى تحديد مواصفاتها وتحديد هيكلها الأساسى الموجود فى مخيلته والمرسوم فى ذاكرته والمخطط بخبرته وفق مقاييس محددة تعلمها شفاهة من أساتذة سبقوه ومعلمين أسسوا قواعد بناء السفن بأحجامها المتنوعة وأشرعتها المفردة أو المتعددة ومجاديفها المحدودة أو العديدة، حتى يصنع عمودها الفقرى من كتلة خشب صلد ثم أضلاع السفينة على جانبيها التى تحدد شكلها العام وبنيتها التى تميزها. وحينما يثبت كل ذلك بمسامير يصنعها الحداد أو النجار ثم يقلِف «يقلفط» الجسد بألواحه الخشبية ليسد كل الثقوب ثم إقامة «الدقل» (صارىَ السفينة) إلى غير ذلك من أجزائها ودفتها ليكتمل الشكل بكل تفاصيله ولتستوى بعد ذلك على سطح الماء كيانا معماريا يتكامل

(1) انظر أيضا، صفوت كمال، الحكايات الشعبية الكويتية، دراسة مقارنة، وزارة الإعلام، الكويت ط1، 1986، وبخاصة ما ورد فى الباب الثانى من حكايات البحر والصياديين والغواص ص111 - 113.

- أ. د. شوقى عبد القوى عثمان، تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية ، 41هـ -904هـ، 661م - 1498م. سلسلة عالم المعرفة العدد 15 ـ المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، يوليو 1990.

- أ. د. سعاد ماهر، البحرية فى مصر الإسلامية، وآثارها الباقية، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة 1967.

- أ. د. أحمد مختار العبادى، وأ. د. السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام، جامعة بيروت العربية، 1972.

فيه الشكل قوى البنيان مع الوظيفة المرجوة من صنع السفينة. يتم كل ذلك بخبرة واعية وذاكرة تحفظ كل التفاصيل. فتتواكب الخبرة المادية مع الإدراك العقلى، وتتواءم مع ما تعلمه المعلم شفاهة ونقله عمن سبقوه. فالمادة الشفاهية الفولكلورية تتناقل تلقائيا(١).

ويرى هوراس بيك فى الفصل الأول من كتابه الذى خصصه لموضوع بناء السفن أن تصميم السفن يهدف إلى واحدة من ثلاث خواص، بناء سفينة من القوة بحيث لا تتغلب عليها ريح عاتية ومن الخفة بحيث تقفز فوق أشرس البحار، ومن السرعة بحيث تراوغ العاصفة.

ويقدم الكاتب فى هذا الفصل الأول من كتابه حكايات وقصص ترتبط بصناعة السفن جمعها من رواة لهم تجاربهم فى هذا المجال، وما يصاحب ذلك من طقوس وشعائر لتطهير المنطقة التى تبنى فيها السفن من أى آثار شريرة والتفاؤل بأحسن الأيام. فمثلا فى إسكوتلندا يفضل البدء فى بناء السفينة حينما يكون المد جيداً أو الشمس مشرقة والريح غربية.

ولكل مجتمع ما يتفاءل به أو يتشاءم منه. وهو أمر شائع فى المجتمعات الشرقية مثلما هو شائع فى المجتمعات الغربية، فمثلا يتشاءم بنَّاء السفن من وجود النساء وخاصة العذارى فى مواقع بناء السفن.

كما تؤدى طقوس معينة وشعائر دينية فى كل مرحلة من مراحل بناء السفن تبعا لأهمية كل مرحلة إلى مرحلة إنزالها الماء وتدشينها. وكذلك التبرك بوضع تماثيل للقديسين فى كوات تعد خصصيا لذلك فى السفينة، أو نحت رءوس حيوانات أو كائنات بحرية على السفينة.

وتدشين السفن له جذور تعود إلى آلاف السنين. وكان هذا الطقس يمارس بأهمية شديدة، وتعد وليمة كبيرة وتزين السفينة، ويقوم رجال الدين بتلاوة الصلوات ونثر الماء المقدس عليها، وتنشد أغانى خاصة. وعادة إنزال السفينة إلى الماء أول مرة والاحتفال

(١) صفوت كمال، مرجع سابق.

بطفوها على سطح الماء له أنماط متنوعة من الاحتفال وتؤدى خلال الاحتفال ألحان خاصة وأغانى معينة ولكل بلد احتفالاته وتقاليده وعاداته التى ترتبط بموروثات ثقافية ومعتقدات دينية. ولقد أتيحت لى الفرصة بأن أحضر احتفال إنزال إحدى السفن الشراعية الكبيرة التى تبحر عبر الخليج، وكان ذلك فى دولة الكويت حيث يؤدى فى هذه المناسبة لحن متميز بإيقاع قوى وأغانى محددة لا تقال ولا تؤدى إلا فى هذه المناسبة(١). وهو أمر شائع أيضا فى بلدان الخليج.

والكتاب بما يتضمنه فى هذا الفصل المهم عن بناء السفن يثير تساؤلات عديدة حول ما يصاحب هذا البناء من رواسب ثقافية قديمة وتصورات تراثية عتيقة مثلها فى ذلك مثل الأسماء البحرية وما يرتبط بهذه الأسماء، حيث تتناقل الأسماء من مكان إلى مكان. وقد يتمخض الاسم عن اسم آخر مثل مكان يسمى بالرجل العجوز فإذا بمكان آخر يسمى المرأة العجوز، أو الجزيرة الخضراء فإذا بجزيرة أخرى بجوارها تسمى الجزيرة الخضراء الصغيرة. ومن الأسماء ما يكون لها أحيانا حكايات هامشية ترتبط بها وتساعد على تذكرها أو تشرح ما بات غير مفهوم من اسمها.

ويقدم المؤلف نماذج عديدة، بل قد تكون الأسماء بسبب عدم القدرة على تحديد أسماء المكان بما يحتويه من متغيرات طبيعية قد تفوق قدرة الإنسان على إدراك حقائقها وعوامل تغيراتها.

والأسماء البحرية بما قد يكون فيها من سحر، ليست سوى جزء من لغة ما، هى لغة البحر، ويعتقد هوراس بيك أن هذا المجال من الفولكلور البحرى قد حان وقت بحثه ؛ أملا فى العثور على بعض الأسس التى تقوم هذه الأسماء عليها وتطويرها. فالمصطلحات البحرية لا يساء استخدامها فحسب، بل يسىء أهل البر فهمها. فلغة البحر ذات دلالات مغايرة للفظ الشائع بين أهل البر. وهذا التغيير يرتبط بوظيفة اللفظ باعتبار أن اللفظ وظيفته الحياة اليومية، وأن كل مهنة لها مفرداتها الخاصة.

(١) راجع: دراستنا ، مدخل لدراسة الفلولكلور الكويتى، وزارة الإعلام الكويت، ط٢ ١٩٧٣. ودراسة الدكتورة حصة السيد زيد الرفاعى، أغانى البحر، دراسة فولكلورية ، دار ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٥.

ويتناول المؤلف هذا الجانب المهم فى البناء اللغوى للغة البحر، باعتبار أن المسميات المستخدمة فى السفينة وطبقات الصوت وطريقة الكلام لها دلالتها، وهى لغة لها ضوابطها بل تتميز اللغة البحرية بأنها مفهومه فى أكثر الظروف سوءاً أو من على مسافة كبيرة. ولكى تكون معظم المفردات البحرية مؤثرة، نجدها قصيرة ورنانة ومميزة عن بعضها. ويقدم المؤلف نماذج من هذه العبارات والمفردات المرتبطة بحياة البحر. ومبحث «اللغة» فى مأثورات البحر وتراثه، مبحث مهم ودراسته لها نظمها الخاصة فى بناء الأفعال وتصريفها، أو استخدام مسمياتها بتنويعات صوتية ولهجات خاصة سواء فى مجال العمل أو الراحة أو الطعام أو الترفية. ومن الملاحظ أنه بينما تميل جدلية أية مهنة إلى البقاء داخل المهنة وحسب، نجد أن البحار يوسع مجال اللغة البحرية كى تفى بمتطلبات غير تلك التى فى البحر، فهو يطبق دون قصد منه المصطلحات البحرية على أشياء فى البر.

وللطقس دور كبير فى حياة البحارة. والتنبؤ بالطقس هو أمر ضرورى بالنسبة للبحار يفوق أهمية التنبؤ به بالنسبة لغيره. فالتنبؤ بالطقس تنبؤاً صحيحا قد يعنى الفرق بين الحياة والموت. وكشأن الكثير من عناصر الحياة البحرية، ليست مأثورات الطقس البحرية سوى تعديل للمأثورات البرية.

وطبيعى أن المشكلة الكبيرة التى تواجه البحار عند التكهن بما سيقع فى المستقبل، هو أن أنماط الطقس فى أحد أنحاء العالم كثيرا ما تختلف عن تلك التى فى أنحاء سواها.

ولون الشمس والقمر وحجمهما مهمان فى الاستدلال على ما قد يكون من متغيرات فى الطقس وكذلك المطر والريح. فمثلا يقال : «حين يسبق المطر الريح اخفض الأشرعة العليا واطوى الشراع الرئيسى. وحين يسبق الريح المطر انشرها واستأنف المسير».

ويقدم المؤلف العديد من أمثال هذه الصيغ المنظومة التى تشرح وتعلم، وتنذر وتتنبأ بحالات الطقس.

وكائنات البحر والطيور والحيوانات والحشرات التى تعيش حول السفينة أو عليها منبئ آخر بتغيرات الطقس، وكذلك بعض الأشخاص والسحرة لهم القدرة على التنبؤ بالطقس.

والكاتب فى كل فصل من فصول كتابه هذا حريص كل الحرص على أن يقدم مواد المأثورات البحرية التى جمعها وعايشها بتعاطف جميل وتوثيق دقيق. فلقد أمضى فيها من عمره زمنا غير قليل يقرب من نصفه. والملاحة عنده كمأثورات البحر، علم وفن. وهو يقدم ذلك بمنهجية علمية انتهجها فى إعطاء المادة المأثورة الأولوية فى العرض الدقيق وشرح معانيها ودلالاتها.

وهو فى كل ما يقدمه من مأثورات البحر، يقدم معلومات تكشف عن رؤية الإنسان للعالم خارج ذاته من خلال ذات الإنسان نفسه حيث يقوم الموروث الثقافى بدور أساسى فى تشكيل معالم رؤيته للعالم خارج وجوده هو.

وحب المؤلف لمادة بحثه التى سعى لجمعها جعله يؤثر المأثور على الجدل العلمى. ولولا نظره المنهجى هذا ما كان فى الإمكان تقديم مادة كتابه هذا «الفولكلور والبحر» وما كان لنا أن نتعرف على هذه المادة متنوعة المجالات ودور مواد المأثورات الشعبية فى حياة البحارة والملاحين.

والملاحة هى علم قيادة السفن من مكان إلى آخر - ويحتاج البحار إلى أدوات معينة لكى يتمكن من اتخاذ وضعه بدقة فى عرض البحر. ويروى المؤلف قصصا وأخبارا عن ربابنة عظام ممن أبحروا فى سفن شراعية دون الاعتماد على أدوات وخرائط، وكيف كانوا يبحرون ليلا، ويقيسون أعماق البحر ويسبرون غوره بأساليب ابتدعوها، وكان لها من الدقة ما يرشدهم إلى ما يجب عمله.

وحكايات قباطنة السفن وقصص مغامراتهم وأحداث رحلاتهم رغم واقعيتها فإنها تفوق الخيال. وما واجهه الملاحون الشجعان من صعوبات يكشف عن مدى الجهد الذى بذله هوراس بيك فى جمع وعرض مادة هذا الكتاب فى نسق متميز وتسلسل بليغ، كما أن ما بذله مترجم هذا الكتاب الأستاذ أحمد محمود يكشف عن مدى ما تكبده لكى يقدم للقارئ العربى مادة علمية أضاف إلى متنها هوامش وتفسيرات وتعليقات أثرت مجال المعرفة بالمأثورات البحرية فى الولايات المتحدة وإسكوتلاند أو أيرلندا أو جزر الهند الغربية. وقد حرص المؤلف على أن يقدم مادته للناطقين باللغة الإنجليزية، وإن لم يغفل أن يقدم معلومات ذات فائدة كبيرة عن بلاد الشمال الأوربى ممن عايشوا حياة البحار وخالطوا عجائبها وغرائب موجوداتها.

ولقد قدم المؤلف معلومات جمة عن إبداعات البحارة وطقوسهم وممارساتهم خلال الحياة اليومية فى البحر وعلى الشاطئ. ونظر إلى هذه الإبداعات نظرة الفنان الباحث وقدمها بدقة الباحث الفنان، فعرض فى الفصل السادس من كتابه عددا من أغانى البحر وسياق هذه الأغانى فى الحياة اليومية للبحار سواء أكان ذلك فى أثناء العمل أم فى الراحة.

وأغانى البحر الشعبية هى أكثر أنواع الإبداع الشعبى شيوعا، وهى الأغانى التى ترتبط بالعمل منذ لحظة الاستعداد للإبحار إلى العودة إلى الشاطئ وأيضا أغانى عنبر البحارة التى تؤدى أثناء الراحة ووقت الفراغ، وهى أيضا تنقسم إلى أغانى البحارة للمسافات القصيرة، ومنها ما نشأ فى البحر أصلا ومنها ما ولد على الشاطئ ثم عدلت وانتقلت إلى البحر لتتلاءم مع البيئة البحرية. والبحث فى الأغانى البحرية هو مبحث مهم وصعب فى الدراسات الفولكلورية. كما أن مشكلة تدوين النصوص الغنائية وتشابه الكثير منها وبخاصة مطالعها أو مخارجها يزيد الأمر صعوبة. ولقد كانت الأغانى البحرية نشطة حينما كانت السفن الشراعية هى التى تعبر البحار وتجوب المحيطات.. أما مع ظهور الآلة والمحركات وعلو صوت الآلة على صوت الإنسان، فقد توارت الأغانى البحرية وأصبح من غير السهل جمع وتسجيل أغانى البحارة القدامى الذين لا يزالون على قيد الحياة ويمكنهم غناء الأغانى البحرية القديمة التى يتذكرونها من الأيام الخوالى الماضية، وبخاصة تلك التى عايشوها على المراكب الكبيرة فى رحلات الصيد أو الإبحار للتجارة.

ولقد واجهتنى هذه الصعوبة حينما كنت أعمل خبيرا للفنون الشعبية فى دولة الكويت، رغم ما أمكن جمعه وتسجيله من البحارة والغواصين كبار السن الذين عايشوا رحلات الغوص على محار اللؤلؤ أو رحلات السفر والتجارة عبر الخليج إلى المحيط فى سفن شراعية. ولقد حرصت مجموعة من الباحثين فى دول الخليج على دراسة هذه الأغانى، ومنهم من اهتم بذلك فى دراساته الأكاديمية والعدد غير قليل ومواد البحث والدراسة ساعدت أيضا فى التعرف على العديد من هذه الفنون الغنائية البحرية فى الخليج. كما يضم أرشيف مركز رعاية الفنون الشعبية بالكويت كمًا غير قليل من هذه الأغانى مسجلة على أشرطة صوتية، ومنها ما أعيد تسجيله على أشرطة سينمائية. كما

حرص مركز دراسات الفنون الشعبية بالقاهرة بالتعاون مع معمل الصوتيات فى كلية الآداب جامعة الإسكندرية على جمع وتسجيل نماذج من الأغانى البحرية فى الإسكندرية وكذلك مجموعة أخرى من أغانى البحارة والصيادين فى مدينة رشيد. ورغم ما واجهته من صعاب فى ذلك - وكان ذلك فى أوائل الستينيات - إلا أن هذه المادة مازالت لها حيويتها ومازالت مصدرا أساسيا من مصادر البحث العلمى والفنى فى خصائص الأغانى البحرية.

والواقع أن المادة التى قدمها هوراس بيك فى كتابه هذا تتميز بثراء مهم وشرح بليغ سواء للنص الأدبى نفسه أم للحنه الموسيقى وفنية أدائه. فأغانى العمل على السفينة لها عدد من السمات المفردة وأول هذه السمات «النظم المفتوح»، وقد تناول المؤلف هذه الأغانى بنظر فنى نقدى محللا لألفاظها وتنوع لهجاتها وطرق أدائها الصوتى.

ويتميز هذا الفصل من الكتاب الذى خصصه المؤلف للأغانى ببيان موضوعات وسياق هذه الأغانى ووظيفتها فى الحياة البحرية، وبخاصة تلك التى تروى قصصا وتحكى مخاطر البحر وتعبر عن معتقدات البحارة وخرافاتهم.

ومن هذه الأغانى ما يقدم تأريخا لأحداث معينة. فمثلا أغنية من الأغانى التى تروى أحداثا عن صيد الحيتان فى جرينلاند تصف الرحلة بما فيها من مغامرات وتحدد التاريخ. «ففى عام ألف وثمانمائة وواحد (١٨٠١) فى العشرين من مارس (٢٠/٣) نشرنا جميع الأشرعة العليا، وأبحرنا إلى جرينلاند، أيها الأولاد الشجعان، وأبحرنا إلى جرينلاند.»

وتواصل الأغنية رواية الأحداث وتصف الرحلة وكيف أنه حين أصيب الحوت.. سحبت حبالنا.. ضربنا ضربة بذيله. جعلنا نفقد خمسة من بحارتنا الرائعين.

ولم نمسك بالحوت أيها الأولاد الشجعان.

ولم نمسك بالحوت...!!

وتواصل فقرات الأغنية، لتروى أسماء بحارة شجعان. وهوراس بيك حينما يقدم مادة بحثه التى أمضى السنين فى جمعها، لا يقدمها كمادة خام باردة بل يقدمها

كمادة حية دافئة يعايشها من الداخل ويعرف أسرارها ويستشعر مكوناتها. وهو أمر نلحظه وندركه بوضوح تام حينما يتناول أشكال التعبير الفنى الأخرى من مواد يشكل بها البحار رؤيته لمناظر من واقع حياة البحر وكائناته هو لسفنه. ويرسم ذلك ويصوره على قطع من قماش أو جلود كائنات من البحر وأسماكه أو ينحته على قطع من الخشب أو من عظام حيوانات البحر وأسنانها.

كما تتضمن سجلات السفينة نفسها رسوما كروكية ورسوما وتصويرا للمعالم غير المعتادة التى يمر بها الربابنة والبحارة، أو عمل نماذج من السفن ومنها نماذج دقيقة مكتملة الشكل تكون كل أجزاء السفينة فى أحجام مصغرة.

والفن البحرى، أى ما يصنعه البحارة أو ما يرتبط بعالم البحر، تتضافر فيه الوظيفة والفن تضافرا رائعا.. كما أن فن عمل العقد من الحبال له طبيعة فنية خاصة. والبحار الفنان تقيده مواده وأدواته وقدرته الشخصية وثقافته.

والواقع أن مواد الفنون التشكيلية وغيرها من مواد الثقافة المادية الشعبية لم تحظ بنظر أشمل مثلما حظيت به فنون التعبير الأدبية الأخرى.

ومن الفنون التشكيلية التى يهتم بها البحارة فن الوشم، باعتبار أنه فن الرسم على جلد الإنسان.. وقد أخذ هذا الفن أيضا فى الكُمون.

والوشم من أشهر الفنون التصويرية التى ترسم على جسد الإنسان وهو فن منتشر بين البحارة وله رموزه وطقوسه. وهى رموز تخرج من إطار المعتقد الدينى والتميمية إلى مجال التعبير عن حالة نفسية خاصة واحتياج إنسانى خاص.

والوشم على جسد البحارة له دلالاته التى تختلف عن دلالاته على جسد من يعيشون فى البر، وله تقنياته وأصباغه وله موضوعاته ولا يمكن عزله عن حامله.

وحينما ينتقل المؤلف من عالم الفن البحرى إلى عالم كائنات البحر يفرد فصلا خاصا عن الفقمة (عجل البحر) والرجال الضخام. فالفقمة لها فى عالم الخيال الإنسانى مجالات رحبة. فقد أسقط الإنسان من ذاته على هذا الحيوان تصورات غريبة ونسج حوله قصصا عجيبة.

ويستهل هوراس بيك هذا الفصل الثامن من كتابه بذكر تجربة مر بها حينما كان يبحر على امتداد ساحل مين[1] ، حينما شاهد جثة فقمة صغيرة رضيعة مقتولة. فصيادو الأسماك في مين يكرهون الفقمة لأنهم يعتقدون أن الفقمة تأكل في اليوم الواحد قنطاراً من سمك الرنجة الذي يقومون بصيده، فهي تقطع عليهم رزقهم. ولكن الواقع غير ذلك، فالعداء بينهم وبين الفقمة يرجع إلى تصور قديم يفترض أن الفقمة تحيط نفسها بهالة من السحر.

ويرى المؤلف كباحث فولكلور أن للفقمة دورا مهمًا في المأثورات الشعبية البحرية والمعتقدات الشعبية، فالفقمة في التصور الشعبي لها وجود خارق يتصل بالعالم الخارجي، ولها وجود مادي يتصل بالتجارة. ويقدم هوراس بيك حكايات ومرويات عن الفقمة، حيث إنها بطبيعتها الفيزيقية من حيث الشكل العام لها ارتباط بالبشر. كما أنها حيوانات أليفة، وهي الباقية بين كل مخلوقات الجزر الشمالية، حيث لم يكن هناك قرد قط . وحيث إن الدببة قد اختفت منذ زمن بعيد، كما أن الفقمة تشبه الإنسان إلى حد ما، فالأنثى ترضع وليدها وهو على صدرها، وهي اجتماعية إلى حد كبير، وترقد على الصخور الدافئة في الشمس «كما يفعل المصطافون على البلاج»، وهي برأسها المستدير يخالها الناظر إليها من الماء إنسانا يسبح، كما أنها شرسة وتعض بقسوة وقوة.

وهناك اعتقاد خرافي بأن حيوانات الفقمة لها القدرة على التحول إلى كائنات بشرية على البر ثم تعود إلى ذواتها الأصلية في البحر. وحكايات الفقمة في عالم المرويات الشعبية تتوافق في كثير من عناصرها مع حكايات عرائس البحر. كما توجد حكايات تربط بين الفقمة والجنيات. وحكايات الفقمة تحمل عناصر وموروثات ثقافية قديمة.

وبجانب المأثورات التي ترتبط بعالم الفقمة يقدم المؤلف ساكنا آخر من سكان المحيط وكان له وجود كبير قديمٌ عند سكان المحيط وما زال الناس يتداولون حكايات عن هذا الكائن الغريب الذي يركب قارب من الجلد، وتبدو مقدمة القارب كمؤخرته.

(١) للمؤلف دراسة عن فولكلور تلك المنطقة نشر عام ١٩٥٦ هو :

Beck , Horace, Folkore of Main, Phladelphia, 1956.

وقدم المؤلف تفسيرات كثيرة عن هذا الكائن الغريب الذى كان يطلق عليه أهل الجزر الغربية وجزر شتلاند وجزر أوركنى اسم الفنلندى أو الرجل الضخم Muckle.

وقدمت تفسيرات عديدة عن هذا الظهور الغريب. وأشار باحثو الفولكلو إلى أنهم إسكيمو «متسربون» وصلوا إلى مواقع متقدمه من القارة الأوروبية. أو أنهم بقايا الشعب البكتى. وهو شعب قديم أصله غير معروف سكن أجزاءً من شمال بريطانيا ورأى ثالث يذهب إلى أنهم كانوا بالفعل شماليين.. وقد ناقش المؤلف هذا الموضوع مناقشة جيدة كما أورد الأستاذ المترجم أحمد محمود أيضا هوامش شارحة أضافت لنص الكتاب معلومات مفيدة.

ومع الحكايات التى أوردها المؤلف عن هؤلاء الرجال وكذلك عن جيرانهم اللابيين (شعب اللاب) ساكنى الشمال الذين يعبرون ما بين القطب الشمالى وشمال فنلندا على زلاجاتهم، أورد حكايات أخرى تفترض أن أهل الشمال هؤلاء مختلفون عن أهل أوربا وأن لهم قدرات سحرية يمكن بها السيطرة على عناصر الطبيعة، ويتصور البحارة أن كل فنلندى ساحر يمكنه إثارة العواصف بإشارة من إصبعه.

روايات عديدة تروى عن هؤلاء الرجال الضخام رواها المؤلف فى كتابه هذا الذى يموج بالمغامرات والمخاطر وحكايات الأهوال ويفيض بقصص الخيال العاطفى وأحداث اللقاء بين عالم البشر وكائنات البحر. لقاء تثيره تجربة الإنسان فى عالم يمتد وكأنه بلا نهاية، وكائنات لا تحصى ولا تعد.

والدارس لما ورد عن عالم البحر وغرائبه وكائناته العجيبة سوف يترى على ذاكرته ما قرأه عند القزوينى من وصف لسمكة بوجه إنسان(١).

ولقد أوضحت العلوم البيولوجية بما لاجدال فيه أنه لا وجود لمثل هذه الكائنات الغريبة والمخلوقات العجيبة باستثناء الفقمة.. ولكن مازال الاعتقاد والتصور بوجود هذه الكائنات الغريبة العجيبة وقدراتها التى تفوق قدرات البشر بعامة، بسماتها الخاصة

(١) راجع القزوينى ـ مرجع سابق.

وحكاياتها التى تثير خيال السامعين لها، والتى تخرج على الشاطئ متنكرة فى هيئة البشر. وأن لها قدرات فائقة فى معايشة البشر. وأن عروس البحر غالبا ما يكون لها عينان زرقاوتان وشعر أصفر ومعها مشط ومرآة، وعادة تكون مشغولة بتمشيط شعرها. والمشط والمرآة هما أهم ما يميز عروس البحر مع الحزام أو الكيس. وامتلاك أنماط من هذه الأشياء يفقدها قوتها.

وعروس البحر قد تكون طيبة عطوفة أو شريرة وخائنة ولكنها دائما تكون قادرة على تحقيق النبوءات.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن الأصول القديمة لحكايات عروس البحر ترجع إلى أصول شرقية ذات توجه خاص بالشرق الأدنى، عند الإغريق والبابليين والمصريين. ويقدم المؤلف شرحا لذلك ويضرب أمثلة ترتبط بهذا الافتراض الفولكلورى، وما حملته تلك الحكايات من عناصر درامية ذات أبعاد أسطورية، ومع عروس البحر التى لها مكانة متميزة بين كائنات البحر من غرانق الماء (ذكر عرائس البحر) وحصان الماء، إلى غير ذلك من كائنات. وحينما نتابع بعض الحكايات المرتبطة بعرائس البحر وكائناته، نتبين أن بعض عناصرها تتماثل مع عناصر أخرى لحكايات شائعة فى بلاد الشرق الأدنى وليس فقط فى إسكوتلندا أو أيرلندا وجزر الهند الغربية أو بين أهل الشمال فالإنسان يبدع من مخيلته كائنات يتوهم وجودها من خلال رؤيته غير الواضحة لعناصر من الطبيعة. وحكايات عرائس البحر لها انتشارها فى التراث الإنسانى بعامة.

وحكاية (بدر باسم بن الملك شهرمان وبنت ملك السمندل) التى تشتمل عليها الليالى (٧٣٣ - ٧٥١) من ليالى ألف ليلة وليلة هى حكاية متميزة بين حكايات البحر التى اشتمل عليها التراث العربى الروائى، حيث تجمع فى مكوناتها بين عالم «إنسان الأرض» وعالم «إنسان البحر» فى بنية واحدة تتمثل فى التزاوج بين أبناء الأرض وبنات البحر حيث ينجبان إنسانا جديدا يجمع فى موروثاته الحيوية والثقافية بين مكونات وخبرة وقدرات إنسان البر وإنسان البحر فى بنية واحدة، وكينونة خاصة.

وتروى الحكاية كيف يتزوج الملك شهرمان الأميرة جلنار ابنة أحد ملوك البحر وتنجب له ولدا يفوق غيره من الغلمان فى الحسن والذكاء والشجاعة وقوة الاحتمال كما

يجمع فى بنائه العضوى بين قدرات أهل الأرض وقدرات أهل البحر، وكيف شب هذا الولد «بدر باسم» فى رعاية والده ووالدته وخاله صالح أحد أمراء البحر وكيف يتزوج بدر باسم بعد ذلك من الأميرة جوهرة بنت ملك السمندل أحد ملوك البحر الأقوياء.

كما أن «القصتان البحريتان المتميزتان والممتازتان» «عبد الله البرى» و«السندباد البحرى» تفوقان بتفردهما الفنى كل القصص البحرية لا فى الأدب العربى فحسب، ولكن فيما أبدع من قصص بحرية فى آداب العالم»[١].

وتعتبر الحكايات الشعبية المصدر الأساسى لكل الروايات، إذ تحمل من ملامح التراث الشعبى أكثر مما تحمل مرويات أخرى من التراث الشفاهى للشعوب[٢].

وتكثر الحكايات البحرية عن حيات ووحوش البحر. ويضم أرشيف الفولكلور بجامعة نيوفاوندلاند التذكارى حكايات وروايات عن وحوش البحر وصراع الإنسان مع هذه الوحوش، ومنها ما يحمل عناصر أسطورية أو يرتبط بمعتقدات قديمة.

والمتأمل لما أورده هوراس بيك من حكايات وما تحمله حكايات شعوب أخرى تبعد عن المناطق التى جمع منها مادته سوف يجد تماثلات عديدة فى التصور الإنسانى لكائنات هذه الحكايات. وحينما يتأمل الباحث الفولكلورى هذا الإرث العظيم من مأثورات الشعوب، وتراثها الحى، يجد أن الإنسان فى سابق الزمان كانت قدرته الإبداعية لتصور العالم المحيط بالإنسان تصورا يفوق قدرته التخيلية المعاصرة. فالإنسان أصبح متلقيا أكثر من كونه مبدعا.

(١) د. حسين فوزى، حديث السندباد القديم، طبعة دار الكتاب اللبنانى، دار الكتاب المصرى، ١٩٧٧، ص١٨٦. وراجع أيضا تعقيبه على قصة السندباد ص٢٥٦ - ٣٦٢، من حيث إن قصة السندباد هى قصة جغرافية تلخص المعارف البحرية العربية فى القرون الوسطى. راجع أيضا: عباس خضر، عجائب البحر فى ألف ليلة وليلة، مجلة العربى ع٢٩٨، فبراير ١٩٨٣، وصفوت كمال ، دراسة عناصر الحكاية الشعبية، من حكايات البحر فى الكويت، مجلة التراث الشعبى، ع٧، بغداد ١٩٧٨، ص٩-٣٦.

(٢) صفوت كمال ، الحكايات الشعبية وأهمية دراستها ، مجلة الفنون الشعبية ، ع٤، القاهرة، أبريل ١٩٦٥.

وعلى الرغم من أن الحكايات الشعبية لبعض الشعوب تتماثل عناصر منها مع غيرها من حكايات شعوب أخرى إلا أن فكرة الجزيرة المسحورة ملك خاص للشعوب الشمالية لا ينازعها فيها أحد.

وحينما يخصص المؤلف الفصل العاشر من كتابه عن الوحوش والحيّات البحرية والجزر المسحورة فإنه يحدد أيضا بأنه من الصعب القضاء على خيال الإنسان، فإن لدينا الأطباق الطائرة، والعفريت الجوى. بل حتى علماء الرياضيات يعطون أملا. فهم يقولون إن قانون الاحتمال يشير بقوة إلى أنه لابد أن تكون هناك حياة فى مكان ما من الكون !

وحينما يتناول هوراس بيك موضوع الخرافة والعادة والمعتقد يحرص على تحديد دلالات كل مصطلح من هذه المصطلحات الثلاثة التى تشكل جانبا مهمًا من المأثورات الشعبية وبخاصة فى مجال الفولكلور والبحر. وعلى نفس النهج الذى انتهجه هوراس بيك يقدم مجموعة من الحكايات والمرويات التى ترتبط بالخرافة والعادة والمعتقد مما يعايشه أهل البحر ويمارسونه، وبخاصة ما يرتبط بعالم الجنيات وكذلك الاعتقاد بأن الأموات غالبا ما لا يختفون اختفاء تاما. فهم يعودون فى صور جسدية ليترددوا على البقعة التى ماتوا فيها.

ويقدم المؤلف مرويات تحمل هذه المعتقدات. والباحث فى هذا الميدان من ميادين المأثورات الشعبية لا يستطيع أن يحدد أصول الخرافات أو العادات أو المعتقدات أو أن يوثق مصادرها، كما يشيع الاعتقاد بأن الموتى يتخذون أشكالا أخرى وخاصة أشكال الطيور. كما يقوم تفسير الأحلام بدور درامى فى حياة البحارة. فكثيرا ما تصدق أحلام البحارة.

وفى أيرلندا وأجزاء من إسكوتلندا لا يزال هناك اعتقاد كان شائعا فى أنحاء أوربا بأن ما يريده البحر سوف يناله. ويعتقد الصيادون فى البحر الكاريبى أنه إذا أراد البحر شخصا ما وأنقذوه فإنه لا يكون سوى خلاص مؤقت، ذلك أن البحر سيناله فى النهاية وربما أخذ معه من أنقذه. حكايات وأغنيات بحرية عديدة تروى عن أحداث ترتبط بهذا الاعتقاد. «ما يريده البحر سوف يناله».

مع حياة البحر وعالمه العجيب الغريب وكائناته المتنوعة المتعددة يقدم الكتاب جانبا آخر من جوانب الحياة البحرية وهو ما يروى عن القراصنة ومغامراتهم وجهود بحارة المجهود الحربي في محاريتهم ومعاركهم أيضاً ضد المهربين. وكلها حكايات تتدافع فيها المغامرات وتموج أيضا بالشجاعة وتفيض بالقسوة والعنف. وحياة القراصنة مشوقة رغم ما يصاحبها من دماء وتدمير. وأسماء القراصنة المشهورين ومغامراتهم استلهمها أدباء وفنانون وأنتجت عنها أفلام سينمائية لقيت نجاحا كبيرا.

كما يقدم المؤلف مجالا آخر من مجالات الحياة البحرية وهو مجال الحرب والمعارك البحرية... ومن قباطنة السفن الحربية من نال شهرة كبيرة. وتزخر الفترة الزمانية من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر بمعارك ومواجهات بحرية، وكيف أن حياة القراصنة لم تخل بأن يكون من بينهم امرأة وهى جريس أومالى التى كانت تقيم فى أيرلندا وذاع صيتها تحت اسم جراناويل، ملكة الغرب، أو «قرصانة الكاريبى».

ولحياة جريس أومالى جانبان، أحدهما الجانب التاريخى والآخر الجانب الشفاهى الذى حفظه التراث الشعبى، وكلا الجانبان يساعدان على الكشف عن العقلية الشعبية مما خلق الأسطورة والحكايات الخارقة عن بطل ما.

ولاشك أن دراسة العلاقة القائمة بين الواقع التاريخى والإبداع الشعبى فى صياغة بطولة أسطورية هو أمر له أهميته. وفى الدراسات العربية المصرية نجد أن هذا المنهج وضع أسسه وطبقه الأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس فى دراسته عن سيرة الهلالية. كما انتهج نفس النهج بتوسع وإضافة الأستاذ الدكتور قاسم عبده قاسم فى الكشف عن العلاقة بين الفولكلور والتاريخ[1]. أما عن شخصية جريس أومالى فقد قدم هوراس بيك فى كتابه الذى بين أيدينا ترجمة لحياة جريس أومالى.

(١) عبد الحميد يونس، الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى، ط٢، القاهرة، دار الكتب المصرية . وقاسم عبده قاسم ، القراءة الأسطورية للتاريخ، مجلة الفنون الشعبية ، القاهرة ، ع ٥٦، ٥٧، سبتمبر ١٩٩٧. وقاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفلولكلور ، الهيئة العادة لقصور الثقافة ، القاهرة ، يناير ١٩٩٧.

أما ما ذكر عن كنوز القراصنة والخرائط الملغزة التى تحتاج إلى من يعرف سرها ويحل رموزها، فقد عرض ذلك المؤلف بأسلوبه المشوق ورشاقة طريقة عرضه المادة التى قام بجمعها.. ويروى المؤلف فى هذا المجال عدداً من الحكايات المثيرة عن الكائنات التى تحرس الكنز. وكذلك عن السفن التى كانت تحمل ذهبا وغرقت بسبب العواصف والحكايات التى تروى عن أشخاص رأوا فى منامهم شبحا لشخص ميت يدلهم عن مكان الكنز أو أن يظهر الميت شخصيا وليس فى الحلم. وهذا أمر شائع فى المأثورات الشعبية فى الجزر البريطانية وأيرلندا أو قد تقوم الجنيات بالإرشاد إلى مكان الكنز أو باستخدام عصا الاستنباء التى ترشد إلى مكان الكنز. وهى مثل العصا التى يستعين بها البعض لمعرفة أماكن وجود الماء أو المعادن فى مكان ما تحت الأرض.

وفى إسكوتلندا والولايات المتحدة تكثر أيضا حكايات ترتبط بالتهريب. وتتواصل الحكايات المرتبطة بعالم المغامرات والقرصنة والتهريب من جيل إلى جيل تواصلا فنيا يمتزج فيه الواقع بالخيال.

ويبالغ البحارة فى تصوير أحداث حياتهم ويحتفظون بها فى ذاكرتهم لغرابة أحداثها، مثل حكاية مطحنة الملح التى تفسر لماذا ملوحة ماء البحر.

كما أن العلاقة بين الشمس والقمر، وهى ما يرتبط بعالم الأساطير الكونية مازال لها وجود فى التراث الشعبى الأيرلندى وأيضا ما هو كائن فى التراث الإسكوتلندى.

ومن الحكايات ما قد يستغرق روايتها ثلاث ساعات أو ٢٤ ساعة. وللعادات والتقاليد والمعتقدات وجود حى فى المأثورات الشعبية. ويحمل فولكلور كل مجتمع أنماطا متنوعة من الحكايات المفسرة لتلك المعتقدات حكايات ترقى إلى مستوى الأسطورة بما تتضمن تلك الحكايات من أحداث خارقة.

كما أن بعض الحكايات تقوم فيها بعض الأدوات بأدوار أساسية فى تشكيل أحداثها، مثل الأجراس والصفارات والمزامير والشخاشيخ. وبخاصة أن للأجراس دورا مهمًا فى ممارسة بعض الطقوس الدينية وحكايات الخوارق بما فيها من عناصر أسطورية يميل عامة الناس عادة إلى ترديدها لأنها ترضى جانبا وجدانيا ورومانسيا فى الحياة ، مثل حكاية موبى ديك التى تصور البطولة الخارقة للإنسان وترقى بعناصرها إلى مرتبة الأسطورة.

بجانب هذه الحكايات نجد حكايات عن السفن الأشباح، وهى شائعة فى جزر الهند الغربية بل فى العالم أجمع. ويفسر المؤلف حكايات «السفن الأشباح» بأن الطقس فى البحر والضباب وشدة البرودة تقوم بدور كبير فى قلب الصور، بل إن «السراب» سراب البحر له دور كبير فى تخيل البحارة لمثل هذه السفن وتعتبر أسطورة الهولندى الطائر نموذجا لمثل هذا التصور عن السفن الأشباح.

ويقدم هوراس بيك رؤية أخرى عن تحول الموضوعات وتغيرها. فمع تغير الزمن تحولت فكرة السفينة الشبح إلى السيارة الشبح والأتوبيس الشبح وهو ما تناقلته الأفلام السينمائية، بل شاعت أيضا بين وسائل النقل البرية، التى تهيم فى الطرق السريعة المشهورة فى الولايات المتحدة، مثل هذه التصورات.

فمع حركة الزمان تتداخل عناصر الحكايات بعضها مع بعض ليظهر من هذا التداخل حكايات جديدة قديمة تحمل من عناصر ما كان، بناء جديدا، وشكلاً آخر له وظيفته الخاصة.

ويحتوى أرشيف الفولكلور فى جامعة نيوفاوندلاند كل أنواع الحكايات الخاصة بالسفن الأشباح، بما فى ذلك سفينة شبح يقطرها زورق شبح، وهو أمر فريد.

وفى ختام حديثه عن السفن الأشباح.. وحكايات السفن الأشباح يقول هوراس بيك فى نهاية الفصل الرابع عشر آخر فصول الكتاب : «وحكايات السفن الأشباح تقل عاماً بعد عام وتموت المأثورات القديمة وينتقل البحارة العواجيز إلى العالم الآخر».

صحيح هذا القول حيث يتحول المأثور المعاش إلى تراث وتاريخ. وينبع من جديد مأثور جديد يتوافق مع واقع الحياة فى العالم الجديد فى تواصل ثقافى حى.

**صفوت كمال**

# مقدمة المترجم

كانت مصادفة عجيبة. لم أكن أدرى حين انتهيت من ترجمة هذا الكتاب فى شهر يوليو من عام ٢٠٠٣ أن حياة مؤلف هذا الكتاب هوراس بيك، التى دامت اثنين وثمانين عاماً، قد انتهت فى الأول من الشهر نفسه، أى قبل أيام معدودات من إنجازى للترجمة. إذ حدث أثناء بحثى على الإنترنت عن مزيد من المعلومات عن المؤلف أن كانت أول مادة تطالعنى بين المواد الخاصة به هى خبر وفاته. لقد أمضى هوراس بيك حياته الطويلة بين جمع المأثورات الشعبية ودراستها وتدريسها. وهو لم يكن من هذا الصنف من الباحثين الفولكلوريين الذين يعتمدون على الكتب، بل إنه عاش وسط الناس الذين يبحث مأثوراتهم، وهم البحارة والصيادون وسكان الجزر والسواحل. وهذا الكتاب هو ثمرة ذلك الجهد المضنى والبحث الدءوب.

قد يسأل سائل عما دفعنى إلى ترجمة كتاب عن الفولكلور وعن علاقتى بالفولكلور، أو المأثورات الشعبية. ردى على ذلك هو أن لى اهتماماً بهذا الجانب من الثقافة، وعدد كبير من أصدقائى من المشتغلين بالبحث فى هذا المجال، بل وأحمل بطاقة عضوية انتساب لمجتمع الفولكلوريين. والذى أعطانى الكتاب وطلب رأيى فى ترجمته هو الصديق العزيز الدكتور شوقى عبد القوى حبيب المدير السابق لمركز الفنون الشعبية، ولم أتردد لحظة فى أن أترجمه. وبهذا فأنا والقارئ العربى مدينان له. وحين عرضت الفكرة على الأستاذ الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة وافق على ترجمته ضمن المشروع القومى للترجمة. وكان لابد بعد الانتهاء من الترجمة أن تكون مراجعتها وتقديمها لأستاذنا وصديقنا الكريم صفوت كمال خبير الفولكلور المعروف الذى له اهتمام بالمأثورات الشعبية الخاصة بالبحر، سواء فى رشيد أو فى الكويت أو فى عُمان، حيث تناولت بحوثه فى تلك المناطق مأثورات البحارة والصيادين وصناع السفن وغواصى اللؤلؤ.

أما لماذا هذا الكتاب بالذات، فلأنه نموذج للبحث فى مجال فولكلور البحر يفيد باحثينا فى أبحاثهم التى تتناول هذا المجال، وهى قليلة جداً. كما أنه يقدم للقارئ العربى جزءاً مهماً من الثقافة الشعبية الخاصة بالعالم الغربى، ليكتشف التشابهات الكثيرة بينها وبين ثقافتنا الشعبية. فرغم خصوصية كل ثقافة، لا تزال هناك أمور تتسم بالعمومية تشترك فيها الثقافات كافة. فكما هو الحال عندنا، فإنهم يؤمنون بالخرافات وبالأشباح وبالأرواح ويتفاءلون من أشياء ويتشاءمون من أشياء أخرى. فهناك أشخاص يتفاءل المرء عند رؤيتهم فى الصباح وآخرون يتشاءم منهم وكذلك الحال بالنسبة للطيور والحيوانات وغيرها من الأشياء. وإذا كانت الأم فى الريف المصرى "تشحت" قروشاً لتضعها حول رقبة ابنها منعًا للحسد والعين الشريرة، فإن القطعة المعدنية التى يدقها الصياد على سكينه لتكون سلاحه ضد الأشباح والشياطين يفضل أن يكون قد أعطاها له أحد. وإذا كنا نذبح ذبيحة أمام المنزل الجديد والمحل الجديد والمصنع الجديد، بل ويلطخ أصحاب السيارات سياراتهم الجديدة بدم ذبيحة، فهم يفعلون الشىء نفسه مع السفينة الجديدة. إن أوجه التشابه كثيرة وسيطلع عليها القارئ بنفسه.

بسبب غرابة جغرافيا مادة الكتاب وتاريخها وثقافتها عنا، كان لزاماً علىَّ أن أهتم اهتماماً شديداً بوضع الهوامش التى تعين القارئ العربى على فهم بعض الأمور التى اعتمد المؤلف فيها على الخلفية الثقافية لقارئه الناطق بالإنجليزية، فلم يكلف نفسه عناء بيان أمور يعرفها قارئه هذا. كما حرصت كذلك على وضع أسماء الأعلام باللغة الإنجليزية عند ورودها لأول مرة فى الكتاب، ضماناً لأن ينطقها القارئ العربى نُطقها الصحيح.

وفى الختام أرجو أن يثرى هذا الكتاب المكتبة العربية وأن يكون ذا فائدة للباحث العربى ومشوقًا للقارئ غير المتخصص ونافذة للمبدع العربى على مأثورات البحر عند الغرب.

# مقدمة المؤلف

يتطلب الفولكلور مناخًا شديد الخصوصية كي يبقى وينتعش. وهو يتغذى على العزلة، والأمية، والامتداد من تراث إلى تراث قبله، إلى أن نصل إلى أكثر أركان القدم عتمةً وعتقًا. وهو ينمو فى الجهل وفى العنف. كما أنه يبقى لأنه يؤدى وظيفة بصورة أو بأخرى. وتقوم البيئة بدور كبير فى خلقه، وتشكيله، والحفاظ عليه. ومناطق قليلة من العالم هى التى أفضل من البحر فى الحفاظ على الفولكلور وخلقه.

فالإنسان منذ ما قبل فجر التاريخ وهو يركب البحر. فقد سافر على امتداد الشواطئ، واصطاد السمك فى مصاب الأنهار والخلجان، وبعدت به عن البر رياح وعادت به إلى البر رياح غيرها. وغرق بعض الرجال، وحُرق البعض الآخر، وفاز غيرهم بالعودة إلى الوطن ليعيشوا آخر أيامهم على الشاطئ يحلمون بالأيام الخوالى. وهناك آخرون، قبل فجر التاريخ، سافروا إلى آخر الدنيا حيث تغرب الشمس فى مياه تفور وتغلى. البعض منهم عاد، والبعض الآخر غرق، وقليلون هم الذين وجدوا ملاذًا فى أراض غريبة. وهؤلاء الذين عادوا رووا الحكايات عن مغامراتهم، وصار من لم يعودوا إلى ديارهم موضوعات لرجم الغيب والحكايات.

ومع ذلك، فالإنسان لا يشعر بالراحة والاسترخاء، أبدًا، وهو فى البحر. بل إن أشجع البحارة وأكثرهم جرأة وإخلاصًا تنتابه لحظات ضعف مفاجئة بخصوص مهنته فى بعض الأحيان، وإن كان البعض، مثل بلكنجتون Bulkingon فى رواية "موبى ديك" Moby Dick، لا يشعرون بالراحة إلا وهم فى المياه العميقة، وهو ما يعود إلى أن أخطارًا أشد وطأة على الشاطئ تجبرهم على ذلك. ولأن البحر ليس موطن الإنسان، فهو ليس موطن الفولكلور بحال من الأحوال. ذلك أن أغلبية هذه المادة أتت من البر وعُدِّلت بحيث تتلاءم مع الجو المائى. فذلك الذى ينتمى إلى البحر خُلِق تبعًا لأسلوب المأثورات البرية.

خلاصة القول أن فولكلور البحر هو ما ألقت به الأمواج على الشاطئ من فولكلور جاء من بلاد كثيرة، ومن شعوب كثيرة، عبر قرون عديدة، حيث غُمِر فى ماء المحيطات المالح وأصبح منتجًا يختلف عن المنتج الأصلى اختلاف الراتينج الذى غُمِر فى ماء البحر فصار عنبرًا.

ولو حاول إنسان مناقشة كل هذا القدر الكبير من المادة وتجميعه وتقييمه لاحتاج إلى ما يزيد على عمره وإن ساعده فى ذلك الكمبيوتر، ولكانت النتيجة قاموسًا للغة البحر، ومصطلحاته، وخرافاته، ومعتقداته، وعاداته، وأغانيه، وأساطيره، وليس كتابًا عن الفولكلور البحرى.

أما ما أهدف أنا إليه هنا فهو بحث هذا القدر الضخم من المادة، واختياره والسؤال عن كيفية ظهوره وربما افتراض هذه الكيفية، وما له من أهمية، إن كانت هناك أية أهمية، ووضع قواعد بشأن تكوُّن فولكلور البحر وانتشاره وقدرته على البقاء، إن كان هناك لذلك من سبيل. وسوف أعالج العديد من جوانب ثقافة البحر، وسوف أختار الأمثلة لتوضيح النقاط المعروضة - وهى أمثلة مختارة على أساس من الأهمية، أو طول مدة بقائها، أو الانتشار الواسع، أو الصفات الفريدة فى إطار المادة ذاتها – ولكن دعونى أدرس البحر أولاً ثم ارتياد البحر ثانيةً.

يرى البعض الجبال جميلة، ويراها غيرهم قبيحة، إلا أن كثيرين ينظرون إليها بعدم اكتراث. وعدم الاكتراث مصطلحٌ قليلاً ما يُستخدم لوصف صلة الإنسان بالبحر. فهو فى المقام الأول أكثر تقلبًا من البر. فكل الجبال جبال؛ قد تلقى السحب بظلالها عليها، وقد يجعل الضباب رؤيتها غير واضحة، وقد يحيل الجليد لونها إلى البياض، ولكنها تظل جبالاً - تلك الكتل الضخمة الموجودة فى أماكن معروفة – وأسماها أوليفر ويندل هولمز Oliver Wendell Holmes الجسئيات (*) وقال إنها غير مؤذية. كما شبَّه هولمز المحيط بأحد السنوريات(**) أو أحد الزواحف.(***) وقال إن البحر مميت.

(*) الحيوانات ذات الجلد السميك كالفيل والخرتيت (المترجم).

(**) الأسود والنمور وما شابهها (المترجم).

(***) التماسيح والسحالى والثعابين وما إلى ذلك (المترجم).

فهو فى وقت من الأوقات هادئ وأزرق وشديد السكون، حتى إن المرء ينظر عبره ويتخيل حافة الأرض. وبعد ساعة واحدة يصير رمادياً، وينساب الضباب عبره فى هدوء ثم يختفى داخل حزن رطب. وتزداد سرعة الريح وتغطيه الأمواج ذات الزبد التى تتكسر على الشاطئ. وفى اليوم الساكن المشرق، تأتى من أعماقه أمواج طويلة لا انقطاع لها تسير برهبة إلى الشاطئ، حيث تتكسر وهى تهدر، ثم ترتد على أعقابها حيث خرير الماء على الصخور وهو يعود إلى البحر. وتحوم طيور النورس على البر وتظهر فى السماء سحب رقيقة عالية. وعند منتصف الليل تهب رياح عاتية ويعلو البحر ويغمر الشاطئ ويكون صوته أعلى من قصف المدافع. وعند الظهر تلامس المياه الصخور بلطف، ولكن ما إن يحل المساء حتى يكون قد انسحب إلى داخله كأنه ثعبان التف حول نفسه وترك الشاطئ عارياً وقد غطته الأصداف والطين والحطام الآتى من بلاد بعيدة والشهادة الصامتة على الكارثة على الشاطئ. كل أنواع الحياة حبست فى البرك الصغيرة، ومع ذلك لا يمكن لإنسان أن يشرب ماءها ويكون لديه توق للبقاء. وما هذا كله إلا مشهد من زاوية رؤية واحدة على الشاطئ، وفى فصل واحد. أضف إلى ذلك رياح الربيع والخريف، والثلوج والجليد فى الشتاء، والمد والجزر الضخم عند الاعتدالين، ونبدأ فى فهم حجم الظاهرة المسماة بالمحيط فهماً أفضل.

ابتعد عن الشاطئ فى سفينة صغيرة وستزداد الصورة وضوحاً. ففجأة تكون فى المحيط الكبير؛ حيث يلقى خيط سبر الأغوار وما من قاع. ومن المحيط تبرز جزر، وفوقه تطفو جبال الثلج. وتجرى عكس مسارك تيارات غريبة فتحملك بعيداً. ويتغير لون الماء؛ فهو أزرق، وأخضر، وشبه معتم، وصاف. وتمر أسراب خنزير البحر، وتقفز الأسماك الطائرة فى الهواء. وتظهر أمامك الحيتان والفقمة، ويلهو الحبار الضخم فى ضوء القمر. وفى لحظة تجد نفسك وسط ريح عاصفة، وفى لحظة أخرى تبقى ساكناً لعدم وجود ريح، وكأنها سفينة مرسومة على محيط خطه رسام، ويطول الحال أياماً، وأسابيع. وتجد نفسك فى منطقة تهب فيها الريح دائماً من نفس الاتجاه. وترى طيوراً غريبة تحوم بأجنحة ثابتة فوق سفينتك بالليل والنهار دون أن تستريح، وبلا أى مجهود. وتمر عبر أفدنة من أعشاب البحر، وفى الليل تترك السفينة خلفها أثراً فوسفورياً. وقبالة الرءوس الكبيرة تلتقى بالبحار الرهيبة والتيارات الشريرة عند أفواه الخلجان

وحول رءوس البر. ودائمًا هناك كارثة تحوم بأناة على مقربة منك، حيث تكون مستعداً لأن يصيبك مكروه بسبب الضباب أو الحريق أو الجليد أو العاصفة أو الاصطدام أو الجوع الشديد أو الغرق. فهذه الأشياء تجتمع لتخلق المشاكل والألغاز التى ليس لدى عقل الإنسان الاستعداد لقبولها.

وما تلك إلا تجليات السطح الخاصة بالمحيط. فما الذى تحته؟ فحتى فى وقتنا هذا هناك مناطق شاسعة من البحار غير معروفة، وفيها من المخلوقات ما لم نتعرف عليه، ومن التيارات ما لا نعلم عنه شيئًا. وكل هذه الأشياء تؤدى إلى الغموض؛ وعقل الإنسان ينفر من الغموض، ولا بد أن يحله إما من خلال الدين، أو الفولكلور، أو العلم.

وتزيد من غموض هذه الألغاز طبيعة السفن التى تخرج إلى البحر وما يحدث لها. فكل سفينة تبنى تتصرف بالطريقة الخاصة بها تجاه الريح والموج، سواء أكانت تسير بالمحرك أم بالشراع، وبالدفة أم بالمجداف. فواحدة تترجح بشدة ارتفاعًا وانخفاضًا فى البحر، والأخرى تتمايل على صفحة الماء؛ وواحدة تجرى أمام الريح جرى أحد كلاب الصيد، والأخرى تسير حسب اتجاه الريح. إحداها يمكن توجيهها بيد واحدة، بينما الأخرى لا يتمكن رجلان على الدفة من السيطرة عليها. ويبدو البعض محظوظًا، ويبدو الآخر لا حظ له. ويأتى البعض برزق وفير ويسير فى مسارات آمنة، بينما لا يحقق البعض الآخر أى ربح، وتغرق طواقمه أو تصبح فى عداد المفقودين. وتبحر سفن أعدت إعدادًا جيدًا من بلدها فى يوم لطيف، ثم تنساب وتختفى وراء الأفق بلا عودة. فماذا حدث؟ قد يكون الجواب فى بعض الأحيان فى غموض فقدان السفينة. ولنشرح ذلك بمثال حديث.

منذ عدة سنوات رعت إحدى الصحف الإنجليزية سباقًا حول العالم لليخوت التى يقودها شخص واحد. وكانت الجوائز نقدية. وكان بين المتسابقين رجل اسمه كروهيرست Crowhurst . ولم يكن ذلك الرجل قائد يخوت ذا موهبة غير عادية، بل كان بحاجة إلى المال وكانت لديه خطة ما. وبعد فترة مناسبة من الوقت حدد يخت موقعه وعاد متثاقلاً إلى أرض الوطن، وكان فائزًا بلا منازع. وفى أعقابه جاء كروهيرست فى المركز الثانى. والغريب أن قارب الفائز كان محطمًا وكان قارب كروهيرست فى أحسن حال! تجمعت الجماهير لتحيته ولكنه لم يدخل الميناء. وفى النهاية عثرت طائرات البحث

على يخته مهجوراً فى عرض البحر - كان هناك براد على الموقد دون أن يكون هناك ما يدل على ذعر أو كارثة.

وفى النهاية حُل اللغز. فمن خلال دراسة سجل الملاحة وغيره من السجلات اكتشفوا أنه بينما كانت سائر اليخوت تشق طريقها حول العالم، أبحر كروهيرست إلى داخل المحيط الأطلنطى وانتظر حتى بات فوز أحد المتسابقين مضموناً. وبعد ذلك أمسك بدفته واتخذ طريقه فى البحر عائداً إلى حيث بدأ ليفوز بالمركز الثانى. وعندما وجد نفسه فجأة فى المركز الأول، أذهلته ضخامة الموقف. ولأنه عجز عن الاعتراف بخدعته أو العيش مع كذبته، فقد فعل الشىء الوحيد الذى أمكنه القيام به وقفز من على اليخت فى الماء.

وفى بعض الأحيان، وربما فى أغلبها، لا نعرف الإجابة أبداً. كانت السفينة "هوم سويت هوم" Home Sweet Home فى منتصف الإبلاغ عن موقعها لراديو بيرمودا حين انقطع إرسالها فجأة. وحتى يومنا هذا لم يعثر للسفينة ولا لطاقمها على أثر.

والبحّار على علم تام بهذه الأخطار. وهو على علم تام بالأعماق الرهيبة والمخلوقات المجهولة القابعة فى تلك الظلمة الباردة المضغوطة فى تلك المحيطات الضخمة. وهو على علم بخطر العاصفة والتحطم الذى ينتظر كل من يصر على اتباع البحر. فهو يحاول على مر الزمان تفسير المجهول والتعرف عليه، دون أن يستفيد من العلم. وقد جرب طرقًا ووسائل لإدارة سفينته، وللعيش فى تناغم مع الأماكن القريبة التى يغطيها الماء مع أخيه الإنسان، ولقراءة الطقس والتحكم فيه. كما حاول دون حرفة الكتابة أن يحفظ ذكرى الأحداث التى وقعت فى البحر - فى بعض الأحيان إحياء لذكرى بطل عظيم، وأحيانًا أخرى لعرض أصناف الحمق. وهذا كله فولكلور. ولأن البحر عنيف، فإن مأثورات البحر كثيراً ما تتسم بالعنف. وحيثما تكون الأعمال العادية بطولية، تكون الأعمال البطولية خارج مجال التصديق.

وتشبه حياة الفولكلور البحرى حياة الموجة العارمة. فمياه البحر تتجمع، وتعلو وتعلو، ثم تبلغ أعلى ارتفاع لها وتندفع فى اتجاه الشاطئ وتتحطم، ثم تعود القهقرى وتشكل نفسها من جديد. وكذلك الفولكلور ينبع من أحداث صغيرة تتجمع عليها أحداث

أخرى لبعض الوقت، ثم تتفتت تلك الكتلة، ولكن القطع الصغيرة تتشكل من جديد فى صورة مغايرة وتتكرر العملية.

وعند دراسة هذه المادة تتضح عدة أمور. فبعض جوانب الفولكلور البحرى من القدم بحيث قد تكون بداياتها فى مناطق معتمة فيما وراء التاريخ. ولأن الناس ليست لديهم خياشيم أو غيرها من المعدات التى تتيح لهم العيش فى البحر، فالإنسان على الدوام غريب إلى حد كبير على سطحه، والحيل التى يستعملها للبقاء عليه هى فى عمومها وليدة الأرض ومعدلة أو منفذة بحيث تتلاءم مع المشهد البحرى. ويبدو أن الكثير من المأثورات البحرية الخاصة بالجزر البريطانية تعود أصولها إلى معتقد كلتى أو جرمانى. بينما يبدو أن معظم أساس تراث العالم الجديد البحرى يقوم على المأثورات الإنجليزية الإسكوتلندية الأيرلندية مع وجود طبقة على السطح من التراث الأفريقى. وقد طُعِّم هذا الأصل بمأثورات تعود إلى كل جنسية ارتادت البحر من قبل.

والصفحات التالية محاولة لتسجيل نماذج من جوانب الفولكلور البحرى العديدة. وقد بُذِل جهد لتتبع المادة فى اتجاه المصدر، ولتقديم أسباب قبول البحارة لها، ولافتراض بضعة قواعد بشأن الفولكلور البحرى، ولحفظ العادات والمعتقدات والتقاليد التى قد تكون أقرب ما تكون إلى الاندثار مما نتصور لبضع سنوات على الأقل. إن هذا الكتاب هو إلى حد ما نوع من تاريخ البحر بعيون شعبية.

أعيدت صياغة كثير من الحكايات، فى حين رويت حكايات كثيرة أخرى حرفيًا. ويرى أى محافظ أن العبث فى النص جريمة شنيعة. لكن باحث الفولكلور يستخدم الفولكلور لأغراض عدة. وغرضى هو العنصر الجمالى الذى فيه. ومع أن عالم اللغة وعالم النفس قد يستقى معلومات من ضعف ذاكرة الإخبارى، ومن الأصوات المصاحبة للكلاب التى تنبح، ومن الأطفال الذين يصرخون، والإخباريين الذين يسعلون ويبصقون ويعطسون، فهذا الأشياء غالبًا ما تصرف الانتباه عن فنية الحكاية. ورواية إحدى الأساطير أو الحكايات الشعبية فن رفيع، إلا أنه ليس فنًا ينتقل بسهولة إلى الصفحة المطبوعة، ذلك أن الكتابة فن مختلف. فحين تعاد صياغة حكاية من الحكايات، فإن التغييرات غالبًا ما تكون فى مجال علامات التنصيص والأشياء المصاحبة التى تصرف

الانتباه. فهناك محافظة على إيقاع الحكاية والتزام إلى حد كبير بالمفردات. وحين تُصنع نقاط أو تعابير بارزة أو تُستخدم فإنه يحافَظ عليها. والحكايات المروية حرفياً هي في عمومها تلك الحكايات التي تجد سعادة في تعديلها إلى الشكل المطبوع.

ومن المؤكد أن هذه المجموعة من المادة والتأويلات المستمدة من المجموعة المختارة لن ترضى الجميع، إلا أنه من المأمول أن تكون باقة بحرية قد جُمعت مع بعضها حيث يمكن لمعظم القرّاء أن يجدوا على الأقل زهرة يقولون إنها خاصة بهم.

# الفصل الأول

# بناء السفن

أتمنى ألا تكون لى صلة بأية سفينة لا تبحر بسرعة،
ذلك أننى أعتزم الذهاب فى طريق الأضرار.

**جون بول جونز (١)**

بقليل من الحظ سوف يطفو كل شيء تقريباً، بل ويقطع مسافات كبيرة فى البحر. فقد عبر ألمانى المحيط الأطلنطى فى زورق من الجلد (كاياك)، وأبحر أمريكى فى قارب طوله اثنا عشر قدماً من أمريكا الشمالية إلى أوربا (إنجلترا على وجه التحديد). وهناك احتمال لإنجاز رحلة بحرية كبيرة فى حوض استحمام (بانيو) إن سُدَّت فتحته، وإن ظل الطقس على اعتداله. والواقع أنه لا تزال هناك أسطورة متداولة فى أيرلندا تقول إن قديساً قام برحلة بحرية عبر البحر الأيرلندى إلى إنجلترا على شاهد قبر، بينما قيل فى نيوفاوندلاند Newfoundland إن صبيين كانا يذهبان إلى جزيرة جيرزى Jersey فى عطلة نهاية الأسبوع على شبكة موقد (٢).

إلا أن العامة ليسوا متأكدين من أن أى شيء سوف يذهب إلى البحر ويعود. فهم يعتقدون أن تصميمات وترتيبات بعينها لأشرعة السفن أفضل من غيرها بالنسبة للرحلات البحرية. ففى المقام الأول يبدو أن التصميم الشعبى يهدف إلى واحدة من ثلاث خواص: بناء قارب من القوة بحيث لا تتغلب عليها الريح العاتية، ومن الخفة بحيث يقفز فوق أشد البحار اضطراباً، ومن السرعة بحيث يفلت من العاصفة. ويعتمد تبنى مجموعة شعبية بعينها لأى من هذه الأفكار من ناحية على الظروف السائدة التى تعمل

فيها، ومن ناحية أخرى على الغرض الذى من أجله تستخدم سفنها. والقول بأن إحدى السفن المصممة لغرض ما وظرف من الظروف يمكن أن تعمل بنفس القدر من الكفاءة فى ظرف غيره تثبته حقيقة أن القبطان جيمس كوك(*) James Cook بدأ رحلته الشهيرة الخاص بالاكتشاف فى سفينة فحم! (٣).

بل إن هناك العديد من العوامل الأخرى التى تؤدى إلى تعديل ثلاثة مفاهيم أساسية لتصميم السفن. وهذه المفاهيم هى ظروف البحر السائدة فى المنطقة، وحجم الموانئ وأعماقها، والمواد المتوفرة لبناء السفن. ففى بحر البلطيق وفى أنحاء إسكندنافيا، حيث ينتشر الجليد طوال شهور الشتاء، من الشائع أن نجد المقدمة وكل الجزء الذى تغمره المياه من بدن السفينة قد جُلِّد بالخشب الحديدى. وحيثما تكون الموانئ عميقة وكبيرة، تبنى سفن كبيرة، بينما فى أماكن مثل جزر شولز Ils of Shoals فى نيوهامبشاير Newhampshire أو نومانز لاند بولاية ماساتشوستس No Man's Land, Massachusetts، حيث لا وجود للموانئ، كانت السفن صغيرة وتبنى بحيث تكون بها عين كى تسحب بالأيدى أو بالثيران بعد استخدامها. وقد لا ينكر أحد أن أخشاب الساج أو الماهوجنى أو الأرْز أو العزيزى هى أفخر الأخشاب لصناعة السفن، وكان من حسن حظ سفينةِ نوح أنها صنعت حيث تنمو أشجار الأرْز. وحيثما كانت تلك الأخشاب غير معروفة أو غير متاحة أو نادرة، كان الناس يستفيدون من أفضل المواد المحلية، وعادة ما كانوا يجدون الأسباب لتبرير اختيارهم لـ"لأفضل الأخشاب".

ويرى الناس أن الحياة فى البحر غير مستقرة وهم يسعون بكل السبل لإقناع أنفسهم بأمان صنعتهم، ويستخدمون كل وسيلة تخطر ببالهم للحد من خطر الحياة فى البحر. ولتحقيق هذه الغاية، تقول كل جماعة من الناس ترتاد البحر إن ذلك النمط بعينه من الصنعة التى يستخدمونه هو الأفضل، وهم يروون من الحكايات ما يثبت ذلك. والواقع أن هذا الموقف أمر مُنتظر؛ فما الذى يجعل البحّار ذا التفكير الصائب يرتاد

(*) بحار ومستكشف بريطانى (١٧٢٨-١٧٧٩) قاد ثلاث رحلات استكشافية وضع خلالها خرائط وأسماء الكثير من الجزر فى المحيط الهادى. كما أبحر بمحاذاة ساحل أمريكا الشمالية حتى مضيق بيرنج شمالاً (المترجم).

البحر فى سفينة سيئة إذا توفرت السفينة الأفضل منها؟ وللسبب نفسه، من ذا الذى لديه استعداد لأن يبنى سفينة أدنى من غيرها؟

على سبيل المثال، هناك حكاية عن جزيرة بلوك آيلاند Block Island قبالة رود آيلاند Rhode Island تتحدث عن سفنها مسطحة القاع من طراز قرن البقر - وهى سفن كبيرة مصنوعة من ألواح متراكبة ذات ساريتين يمكن رفعهما على الشاطئ بعد الصيد، ذلك أن بلوك آيلاند لم يكن بها ميناء مناسب منذ سنوات. وطبقًا لما تقوله الأسطورة، كانت تلك السفن مناسبة لأسوأ طقس، ولم يفقد أحد أبناء بلوك آيلاند قط وهو على متن إحداها.

وفى وقت ما من تسعينيات القرن التاسع عشر، كان ثلاث عشرة من سفن قرن البقر تقوم بالصيد فى كوكسز ليدج Cox's Ledge (وهى مكان يفضل أهل الجزيرة الصيد فيه) حين هبت ريح عاتية. تناثرت السفن فى أنحاء البحر، ولكن الطقس هدأ فى النهاية وعادت الواحدة تلو الأخرى إلى أن عادت اثنتا عشرة سفينة بعد عدة أيام. ولم تعد السفينة الثالثة عشرة وانتهى أهل الجزيرة إلى أن طاقمها قذفت به الريح بعيداً فى البحر، ثم رسوا فى مكان ما وقرروا البقاء هناك. فلم يكونوا قط من المفقودين.

وهذه الحكاية نهايتها لافتة للانتباه.

وتبدلت الأوقات وشيئًا فشيئًا عفا الزمن على هذا النوع من السفن واختفى من على الساحة، إلا واحدة زعموا أنها شُقَّت نصفين ووضعت مقلوبة واستخدموها لتدخين الأسماك. ورسم قائد يخوت اسمه لورينج Loring هذه السفينة وصنع سفينة قرن البقر فى خليج ناراجان ست Narragansett . وأبحر هو وأحد أصدقائه إلى بلوك آيلاند. وفى الطريق تجمع هناك ضباب كثيف وضلا الطريق إلى الجزيرة، وعندما صفا الجو وصلا إليها من ناحية الجنوب.

وكان من عادة كبار السن فى الجزيرة مراقبة مرور السفن من الفنار الجنوبى القديم، وعندما انقشع الضباب رأوا سفينة قرن بقر تقبل عليهم. وعندما رسا لورينج كان هناك حشد كبير من أهل الجزيرة عند المرسى للترحيب بمن اختفوا قبل سنوات (٤) .

ومعظم السفن الحديثة يصممها مهندسون بحريون، وتختبر في معهد ستيفينس Stevens Institute أو غيره وتصنع في ترسانات مجاورة لوسائل النقل والمياه والقوى العاملة. وفي الغالب - على الأقل داخل الولايات المتحدة - لا تعلم نسبة كبيرة ممن يبنون السفن شيئًا عن بناء السفن. فهم مجرد لحامين، أو سباكين، أو كهربائيين يعملون في شيء من الأشياء. وفي المجتمع الشعبي لم يكن الأمر على هذا النحو. فقد كان كل شيء يتم حسب التقاليد وله طقوسه (٥) .

في جامايكا Jamaica يصنع صيادو الأسماك المحليون الآن قوارب من جذوع أشجار التوت المحفورة. ويصل طول بعض هذه القوارب إلى أربعين قدمًا [١٢] مترًا وحتى قبل قطع الشجرة هناك بعض المراسم التي لا بد من القيام بها. ومن بين هذه المراسم نثر الدم والأرز والروم(*) لترضية ثلاثة أنواع من الأرواح يعتقدون أنها تسكن هذه الأشجار بالذات. وما إن تؤدى هذه المراسم - حيث تودع الأرواح مثواها الأخير - حتى يوقعون الشجرة ويشقونها ويجوفونها بالأزاميل. وبعد أداء مراسم أخرى تعتبر آمنة للمخاطرة بها في البحر (٦) .

وقديمًا كانوا قبل أن يبنوا إحدى السفن في معظم المجتمعات الشعبية، من باكي Buckie في إسكوتلندا إلى كارياكو Carriacou في جزر الهند الغربية، يختارون موضعًا للبناء يبدو ملائمًا، وكانوا يحرصون على تطهير الموقع. وإذا كان موقع التصنيع مجاورًا لمكان الإطلاق وللأخشاب، كان ذلك من حسن الحظ. ولكنهم كانوا يختارون الموقع لأسباب غير السهولة واليسر. وبعد ذلك يطهر الأرض كاهن أو أحد رجال الدين. وكان هناك حرص على تطهير المنطقة من الآثار الشريرة ولم يكن البناء يبدأ حتى تبدو أمارات التطهير. فعلى سبيل المثال، كانوا يعتقدون في إسكوتلندا أنه من الأحسن بدء البناء في يوم مشرق المد فيه جيد والريح غربية. وكانوا يأملون في ظهور الفأل - الأغنام التي تقتات على التل، وطيور النورس التي تحوم فوق الميناء، وخنازير البحر التي تلعب في الميناء، وغيرها وغيرها. وفي العصور المسيحية كان يوم الأربعاء "أفضل الأيام جميعًا" - ولا بد أن نتذكر أن يوم الأربعاء في العصور الوثنية كان هو يوم وودن

(*) مشروب كحولي يستقطر من مولاس قصب السكر المتخمر (المترجم) .

Woden، ذلك الإله الأعلى الذى يعيش فى الغابة، وكان ينظر بعين الرضا إلى الأعمال التى تؤدى فى يومه. وكان لابد أن يكون القمر بدراً أو "قيد التكوّن"، وهو ما يذكرنا مرة أخرى بالاعتقاد فيما قبل المسيحية فى قدرة القمر وتأثيره على البحر والأشياء التى تسير عليه. وهنا فقط قد يظهر الشامان أو رجل الدين ليؤدى الصلوات أو يقدم الأضحية الحية، بينما يضع الصالب(*) (من خشب خاص) من يُعتقد أنهم جديرون بأداء هذا العمل.

إذا كانت تلك أوقات طيبة للبناء، فقد كانت هناك أيام سيئة كذلك. فلم يكن هناك من يرغب فى البدء فى اليوم الثالث عشر من الشهر، وهو اليوم المرتبط بيهوذا سيئ السمعة ويحمل رقماً سحرياً، أى لا يقبل القسمة على اثنين؛ ولا فى يوم الخميس Thursday (وهو يوم ثور Thor إله الرعد والعواصف)؛ ولا يوم الجمعة Friday (وقد أخذ اسمه من فرييا Freya (**) رئيسة الفالكيرات Valkyries (***) وكان المسيحيون الأوائل يظنون أنها ساحرة). وكانت الريح الشرقية وشدة تكسر الأمواج على الشاطئ وعدم وجود طيور تنذر جميعها بوقوع أذى للسفينة. وكان من المأمول كذلك أن يبتعد عن الموقع النساء (وخاصة العذارى) والخنازير والأرانب وأصحاب الأقدام المفلطحة والحول. وكان المجانين والساحرات - وباختصار كل من لا يعتبرهم المجتمع "أسوياء" - يبعدون عن المكان لئلا تدخل الأرواح الشريرة بدن السفينة الذى يكبر شيئاً فشيئاً بطريقة أو بأخرى، ذلك أنهم كانوا ينظرون فى المجتمعات الشعبية إلى كل ما هو شاذ على أنه بفعل الأرواح الشريرة.

مع أن السفن فى المجتمعات الشعبية تبنى فى الغالب طبقاً لأشكال وتصميمات تقليدية - حتى إن القارب الأيرلندى الصغير curragh يبدو للعين غير المدربة مثل قوارب

(*) عتبة أو مجموعة عتبات من الخشب موصل بعضها ببعض على طول خط المنتصف فى قاع السفينة من مقدمتها إلى مؤخرتها تثبت فيها الأطر الإنشائية وألواح البدن (المترجم) .

(**) إلهة الشباب والجمال والحب والجنس فى الأساطير الإسكندنافية (المترجم) .

(***) بنات كبير الآلهة أودين فى الأساطير الإسكندنافية وهن شرسات. كما أنهن يحملن من يسقطون فى المعارك إلى فالهالا (قاعة مقدسة لمن سقط من الأبطال فى المعارك فى العالم الآخر) ويمكنهن التشكل على هيئة غربان سود أو ذئاب (المترجم) .

ويلز الجلدية القديمة فى العصور الرومانية ـ فإن هناك اختلافاً فى التصميم من مجتمع لآخر. فقد كان كل ميناء فيه كبير للبناءين يضع الرسومات ويشرف على البناء. واكتسب هؤلاء شهرة لبنائهم سفينة قادرة أكثر من غيرها على خوض البحر، أو أسرع من سواها، أو تتسم بقدر من الراحة أكثر من أية سفينة أخرى فى المجتمع. إلا أن شهرتهم لم تكن تقوم دائماً على تعديلهم لتصميم أو لمهارتهم فى النجارة. ولبيان ذلك، روى لى البروفيسور جورج كارى George Carey حكاية كان قد جمعها من الساحل الشرقى فى ميريلاند Maryland :

منذ سنوات بعيدة فى إسكوتلندا، وبالقرب من بلدة تسمى إنفرنس Inverness، كان رجل يسير على الشط حين سمع نواحًا غريباً. وحين نظر حوله رأى عروس بحر جالسة على إحدى الصخور. كان المد قد انحسر بينما المخلوقة المسكينة محبوسة على الشط تصطلى فى حر الشمس. اقترب الرجل من السيدة ذات الذيل واستفسر منها عن المشكلة. قالت له إنه إذا أعادها إلى البحر فسوف تحقق له أية أمنية يتمناها ,وبعد تفكير قال الرجل "أريد أن أبنى سفناً لا تغرق أبداً ولا يفقد منها أى رجل." وافقت عروس البحر وأعيدت إلى البحر. كان ذلك منذ قرن مضى، وحتى يومنا هذا ما من سفينة بناها ذلك الرجل أو أحد من عياله فقدت أو غرق منها رجل.

وتقع إنفرنس عند رأس خليج موراى Moray Firth، وقد سألت القبطان بوكان Bochan من سانت كومبس St. Coombs، وهى كذلك على خليج موراى، إن كان قد سمع أى شىء كهذا. ورد القبطان بأنه لم يسمع هذه القصة، إلا أنه يعرف أنه منذ أكثر من مائة سنة لم تفقد سفينة ولا رجال ممن فيها ببلدة باكى Buckie حيث تمتلك عائلة تسمى جونز Jones ترسانة لبناء السفن. وهذه السفن عليها طلب من أنحاء الخليج. ويمكن الإشارة إلى أن باكى تبعد حوالى خمسين ميلاً بحرياً فقط عن إنفرنس. والواقع أن "سفينة من باكى ومحرك جاردنر Gardner" هما نموذج ما يتمناه معظم الصيادين الإسكوتلنديين (٧) .

وحتى العصور الحديثة، لم يكن لدى الإنسان أى علم بأسباب أو كيفية عمل السفينة فى واقع الأمر، أو كان علمه بذلك قليلاً. فعادة ما يعدل التصميم بناء على التجربة والخطأ باستخدام المواد المتاحة. والطريقة التى تدفع بها السفينة ونوع العمل

الذى تُشرك فيه يحدده التصميم. ويمكن استخدام الخشب فقط فى السفن ذات الطول المحدود وإلا انشطرت السفينة؛ وكان لابد أن تكون السفن التى تستخدم فيها المجاديف منخفضة كى يتمكن المجدفون من بلوغ الماء؛ وكان لابد أن تكون السفن التى تحمل شحنات كبيرة فى رحلات طويلة عريضة وبها مساحة إضافية للتخزين؛ ويمكن أن تكون السفن التى تطفو ذات "سيقان طويلة" (غاطس عميق)، بينما تلك المصممة بحيث "تجفف" للتفريغ فعادة ما تكون قيعانها مسطحة وغاية فى القوة.

وعادة ما كانوا يعتبرون بدن السفن الشراعية منصة لدعم الأشرعة. وكانوا فى البداية يظنون أنه كلما ازداد عرض المنصة كان احتمال انقلاب السفينة أو دفنها فى البحر أقل. ولكن عرض البدن قل شيئًا فشيئًا وقُرِّبت الأشرعة من المؤخرة، وعُمِّقت السفينة. وبهذه الطريقة توفر قدر أكبر من السرعة والثبات، وكانت النتائج النهائية سفن منتصف القرن التاسع عشر السريعة الضخمة من طراز قلبر **clippers** والسفن الشراعية ذات الشراعين أو أكثر من طراز سكونة **schooners** التى ظهرت فى نهاية ذلك القرن وبداية القرن العشرين.

وربما كان أكبر شيئين يخيفان كبير بنّائى السفن هما "الانغمار" (أى أن تكون مقدمة السفينة تحت مستوى الماء وتغرق) أو "الالتطام" (أى تلطم الأمواج الضخمة مؤخرة السفينة). ولمنع ذلك رفعوا مستوى المقدمة والمؤخرة إلى حد كبير، حيث نجد أنه بحلول العصور الوسطى جرى "تحصين" المقدمة والمؤخرة على السفن لمنع المياه وكذلك لتصبح منصة يمكن من عليها إطلاق الرماح والحجارة والسهام فى حال هجوم العدو.

حدثت تلك التغييرات شيئًا فشيئًا على مر القرون، وهى إلى حد كبير نتيجة لتغير فى قوة الدفع من المجاديف إلى الشراع، ولتطور الموانئ؛ حيث يمكن للسفن أن تظل طافية بأمان، وللرغبة فى قطع مسافات أطول بحمولات أكبر. ومع ظهور ما أسماها ديل رينيس **Del Raines** من جزيرة ماتينيكوس بولاية مين **Matinicus Island, Maine** "آلة الاحتراق الداخلى الخالدة" كانت التعديلات التى أدخلت على التصميمات الشعبية تجرى بسرعة كبيرة. ونتيجة لذلك يمكن ملاحظة التطور السريع بعض الشىء فى تصميم قوارب الإستاكوزا فى جزيرة كرانبرى بولاية مين **Cranberry Island, Maine** كمثال مصغر للعملية الأكبر كلها.

وكما ذكرنا من قبل، فإنه حين كانت تجرى التغييرات لم يكن الذى يجريها أيًا من كان، بل يجريها كبير البناءين فى المجتمع المحلى الذى كان يغير قواليه من ناحية، على الأقل، لإرضـاء المالك المرتقب أو تطييب خـاطره، ومن ناحيـة أخـرى لإرضـاء حب استطلاعه هو وحاسته الجمالية - وكان على الدوام بالطبع يعمل فى إطار خطة تقليدية أكبر. كـان ذلك الرجل هو آرثر سـبرلينج Arthur Spurling (المعروف محليًا باسم "القبطان آرشى" Capt'n Archie) كبير بنائى السفر فى جزيرة كرانبرى، الذى أمضى جل حيـاته فى بناء السـفن لجيرانه. وفى حوزتى نصف نموذج تؤكد التغييرات التى طرأت عليه الوصف التالى لكيفية ظهور سفن الإستاكوزا.

فى يوم من الأيام أراد أحد جيران القبطان آرشى صنع سفينة. نحت سبرلينج فى ورشته نموذجًا لسفينة من طراز قرن الفاصوليا مستعملاً قطعة من خشب التنوب بمقياس نصف بوصة لكل قدم. وكان المصمم يرى النموذج كاملاً لا نقص فيه، إلا أن المشترى المنتظر اشتكى من أن جزءًا أكبر من اللازم من البدن سيكون مغموراً فى الماء. وفكر سبرلينج لبعض الوقت ثم لصق قطعة من الخشب على المقدمة. وبعد أن أرضى التعديل العميل، صنع سبرلينج باترونًا لخطوط النموذج مستخدمًا قطعة من الرصاص اللين على أرضية المخزن بالحجم الطبيعى. ومن هذه الرسومات المفرودة بنى السفينة.

أراد عميله التالى سفينة تفوق تلك التى انتهى من بنائها للتو. ولأن المصمم كان يعلم أن السفينة الشراعية الأقل عرضًا أسرع من العريضة، فقد أبقى على المقدمة كما هى ولكنه جعل البدن أقل عرضًا. وبعد تجربة السفينة، ذكر المالك أنها رغم جفافها كانت تسير سيرًا غير مريح ولم تكن أسرع من السفينة الأولى. ولذلك اختبر آرشى نموذجه ووضع فى اعتباره كل ما يعرفه قبل أن يبنى السفينة التالية. فلم يستطع تعلية المقدمة وجعل السفينة "تبدو صحيحة". وبدلاً من ذلك فرَّغ المقدمة. وبعد أن استنتج أن السفينة ذات القاع المستوى والمقدمة المدببة skiff تسير أبطأ من قرن الفاصوليا، فقد سطَّح قاع السفينة وعمَّق الصالب. وأثبتت السفينة الجديدة أنها أسرع من نموذجها الأصلى وأجف وأكثر استقراراً منه. والواقع أن السفينة حققت من النجاح ما جعله يبنى عدداً من السفن طبقًا لهذا النموذج، وكان كل منها به تعديل طفيف عن الأخرى.

وأخيرًا صنع سبرلينج نصف نموذج آخر. وبدلاً من مؤخرة الكانو canoe (المدببة) كانت لها مؤخرة قائمة تنحدر فى اتجاه سطح السفينة، ذلك أن سبرلينج كان يخشى ما سيحدثه البحر فى المؤخرة المربعة. وأثبت هذا النموذج أن سرعته ضعف سرعة النماذج التى سبقته، ولكن لأنه اعتبر المؤخرة قبيحة المنظر، ولأنه وجد أن البحر لم يزعجها، فقد أخذ يقوِّمها شيئًا فشيئًا حتى أنتج فى النهاية تصميمًا نعتبره تقليديًا فى الوقت الراهن. وكان كل تعديل يزيد السفينة جمالاً على جمال وكفاءة على كفاءة؛ ذلك أنه يبدو أن الجمال والكفاءة يسيران جنبًا إلى جنب فى تصميم أية سفينة. وكانت النتيجة سفينة غاية فى القدرة والجمال (٨) .

قديمًا كان البناء يقوم على قياس تقريبى. وفى نيو بدفورد بولاية ماساتشوستس New Bedford, Masachusetts، ومنذ نصف قرن مضى، كان يعيش برتغالى عجوز كانت له شهرة كبيرة فى بناء سفن الصيد. وضاع اسمه الحقيقى فى الماضى، ولكن طبقًا لما قاله آل بافينجتون Al Buffington من تيفرتون برود آيلاند Tiverton, Rhode Island، كان معروفًا بين الناس باسم القبطان سكاب Captain Scub وكان له مساعد يسمى لوى Louie . وكان الرجل العجوز يدور باستمرار حول السفينة مدققًا النظر فيها. وكان يقول من حين لآخر "اضربها مرة أخرى يا لوى، فهى عمودية أكثر من اللازم". ويصدع لوى بما يؤمر به ويضرب الخشب البارز بمطرقة وتمضى عملية البناء.

حتى فى أيامنا هذه يوجد الكثير من لغز التصميم فى عقل المصمم المحلى. فبدلاً من اللجوء إلى الصيغ المعقدة التى يستخدمها المهندسون البحريون لتحديد غاطس أية سفينة، يمضى بناة السفن المحليون فى نوفا سكوشا Nova Scotia وجزر الهند الغربية بعض الوقت وهم يتجولون بلا هدف حول بدن السفينة. وبعد ذلك يرسمون الغاطس بالعين، وعندما تدشن السفينة تحتاج فقط إلى حد أدنى من التعديل فى الصابورة(*) لجعلها "تطفو حسب خطوطها" (٩) .

(*) مادة ثقيلة كالرصاص أو الحديد أو الماء توضع فى قاع السفينة لتحديد الغاطس والحفاظ على توازنها (المترجم) .

ما قيل من قبل عن كبير البناءين يمكن أن يقال كذلك عن طاقمه. فقد كان هناك رجال بعينهم مسئولين عن أعمال معينة، وغالبًا ما كانوا يرثون ذلك عن آبائهم. وكانوا يصنعون أدواتهم أو يرثونها ولا يسمحون لغيرهم باستعمالها. وكان بعضهم نجارين أو صانعي أشرعة أو مقلفطين(*)؛ وكان بعضهم نحاتي سفن يقومون بعمل نقوش محفورة على مقدمة السفينة وألواح المؤخرة ويزينون دعامة صارى المقدم فى السفن الكبيرة. وفى فيرهافن بولاية ماساتشوستس Fairhaven, Massachusetts كان هناك رجل عجوز يسمونه "سبايلر بيت" Spiler Pete لم يكن يفعل شيئًا سوى تحديد الألواح التى توضع فى السفن، وهو ما كان يفعله والده من قبله.

تكونت على مر السنين مجموعة غاية فى الدقة من المصطلحات عن كل جزء من السفينة، حتى بات لكل لوح ولكل قطعة خشب فيها اسم وصار كل نمط من أنماط البناء مميزًا. وإذا بدأنا من أسفل لوجدنا الصالب والصالب الوهمى والمؤخرة والخشب القرنى والقوادس القاعية والصفائف العلوية وألواح الشيطان وألواح المضرب، والخشب الميت، والقلفاط ومسامير الشجر. وبعض السفن ذات حائف صلب وبعضها ذات هيكل مستدير، وهكذا. والشىء اللافت للانتباه هو أن الكثير من هذه الأجزاء تصنع من مواد خاصة.

وفى سفر التكوين يروى لنا بقدر كبير من التفصيل أن سفينة نوح بنيت من كميات ضخمة من خشب الأرز(**). ونعلم أن السفن فى مصر كانت تصنع من البردى منذ آلاف السنين. والواقع أن كل مادة تقريبًا، بما فى ذلك الأسمنت، استخدمت فى صناعة السفن، إلا أن التمحيص الدقيق للمواد سوف يكشف أن الخشب لم يختر لصناعة السفن لأسباب إنشائية بالكامل أو لأنه متوفر فى موقع البناء - مع أن هذه الأسباب تعطى ولا شك وزنًا لتحديد النوع المستخدم - فهناك سبب آخر بالإضافة إلى ذلك. لماذا لم يستخدم أى أرز آخر فى صنع سفينة نوع بدلاً من ذلك الآتى من لبنان؟

(*) يسدون الفجوات التى بين الألواح باستخدام الحبال والقار (المترجم) .

(**) "اصنع لنفسك فلكًا من خشب جُفْر" التكوين: ٦-١٤ (المترجم) .

أكثر أنواع الخشب المستخدم فى صنع السفن انتشاراً الآن هى الماهوجنى والساج والأرز والعزيزى. ويقاوم الأرز، التى يتميز بكونه خفيفًا وينتفخ، الحشرات. أما الساج فلا ينتفخ ويقاوم الحشرات والانتفاخ. والماهوجنى خفيف وقوى وألواحه عريضة ولا يمكن الاستغناء عنه عند تشكيل الألواح كى تتلاءم مع البدن المنحنى. أما العزيزى فرخيص وقاسى ومقاوم للماء. ولكن الأرز يتسم بكثرة عقده ولينه، والساج بثقله وسهولة تكسره، والماهوجنى بصعوبة تشغيله ولينه، والعزيزى بخشونته وثقله.

ولننظر إلى سفينة تقليدية بنيت فى إحدى المناطق الشعبية فى أمريكا. لنفترض أن المواد متوفرة، وسوف تكون المؤخرة والصالب والأطر من خشب البلوط الأبيض. سوف يكون الخشب القرنى من النيرية (ويسمى أحيانًا الخشب الحديدى)، والركب من التفاح، والكمرات الطولية من الدردار، والقُمَط والأرفف من التنوب، والسطح من السرو، والألواح من العزيزى. وإذا استخدمت التثبيتات الخشبية (مسامير الشجر)، فستكون من الخروب، بينما يصنع القلفاط من العزيزى اللين. وفى بعض الأحيان تكون الصفائف العلوية من البلوط، وتحفر الزخارف على خشب شجر البهشية إن توفر.

إذا سألت بنَّاء السفن عن هذه المواد سيقدم لك أسبابًا عملية لاستخدامها. فالخشب قاس، ويقاوم الماء، وذو انحناء طبيعى، وخفيف جداً ...إلخ. وسيقول لك بنَّاء السفن كذلك إنه يستخدم نفس المواد التى كان جد أبيه يستخدمها لصناعة السفن. فهو يستخدم مواد تقليدية. وسوف يكشف التمحيص الدقيق لهذه الأخشاب المختلفة أن الناس قديمًا كانوا يظنون أن لها صفات غيبية. فقد ربطوا التفاح والبهشية بالجنيات؛ وكان البلوط والصنوبر أشجاراً ذات أهمية خاصة للمعبودات الوثنية. ولكى لا يظن ظان أن هذا يعود إلى فترة بعيدة من الزمن، لنأخذ مثالاً واحداً لبناء السفن فى خليج تشيسابيك Chesapeake Bay كمثال توضيحى.

الجوز الأسود خشب غنى يسهل تشغيله وهو مقاوم للماء. وينمو شجر الجوز الأسود مستقيمًا ويعلو كثيراً وغالبًا ما يكون قطر الشجرة ثلاثة أو أربعة أقدام. وفى بعض الأحيان يمكن استخراج ألواح بطول ثلاثين قدمًا من الجذع دون أن تكون فيها عقدة واحدة. ومع أنه نادر الآن، فقد كان شائعًا فى وقت من الأوقات على شواطئ

خليج تشيسابيك. وكان صانع السفن يراه خشبًا مثاليًا، إلا أنه كان كذلك وليس هذا هو حاله الآن.

اشترى بحار قاربًا ذا قاع مستوى ومقدمة مدببة بخمسة دولارات. ومنذ اليوم الذى اشتراه فيه وهو لم ينل منه سوى المشاكل. فقد غرق، وتفككت ألواحه، وسُرق، وتسرب الماء إلى داخله؛ وكلما خرج فيه كانت تحدث مشاكل. لم يصطد سمكًا، وضاع المجدافان، وهبت عاصفة. وأخيرًا قرر إعادة دهانه وأزال بعض الدهان. وكان القارب مصنوعًا من خشب الجوز الأسود! لقد فعل الشيء الوحيد الذى يمكنه عمله - وهو بيعه لأحد السياح (١٠).

وكان للجوز الأسود فى هذه المنطقة سمعة سيئة بحيث لم يكن من الواجب صنع السفينة بكاملها من هذه المادة منعًا للمشاكل. وقد صنع رجل كرسيًا منه وابتلى بمصيبة. كما أعيد قارب إلى حالته الصحيحة بعد اكتشاف أن أحد السناجب أخفى بعض الجوز الأسود على متنه. وهناك حكاية ربان كان على إحدى السفن وهو فى طريقه بحمولة إلى أنابوليس Annapolis . طلبت منه إحدى السيدات أن يأخذها معه. وافق الرجل وصعدت السيدة على السفينة ومعها كيس من الورق. وما إن خرجوا من الخليج حتى هبت ريح عاتية. ومهما كان الاتجاه الذى حاول القبطان السير فيه كانت الريح تهب عكسه، واضطرب البحر حتى بدا أن الماء سيغمرهم ويغرقون. علم القبطان أن خطأ ما قد حدث وفى حالة من اليأس سأل المرأة عما فى الكيس فقالت: "جوز أسود". وعلى الفور أمسك الربان بالكيس وأطاح به من على السفينة. هدأت العاصفة ووصلوا بسلام إلى أنابوليس متأخرين عن الموعد بضع ساعات (١١).

يرى العامة أن الجوز الأسود شجرة الفأل السيئ. ويُقال على الشاطئ إنها تجتذب الصواعق، وتقتل الماشية وتحرق المنازل. ولحاء الشجرة والجوز يوسخ يدك بشكل دائم. وهى ترتبط بصورة أو بأخرى بالشيطان. وتكمن أسباب جزء كبير من هذا فى الشجرة. فالخشب لونه غريب - حيث يميل إلى القرمزى - وهو أثقل من أى خشب سواه. وينمو بسبب طبيعته طويلاً وغالبًا ما يكون منعزلاً. ونتيجة لذلك يكون عرضة إلى حد كبير لأن تصيبه الصواعق. وبما أن الأبقار اعتادت الوقوف تحت الأشجار

أثناء العواصف الرعدية وهذه الأشجار توفر أكبر مأوى، فإن الكثير من الحيوانات تصيبها الصواعق تحتها. وحين تكون قريبة من أحد المنازل، غالبًا ما تنحرف الصاعقة عن الشجرة وتسقط على المبنى. ومثلما يكتسب كلب ذو اسم سيئ سمعة أنه يقتل الماشية، تصبح شجرة الجوز الأسود كبش الفداء لكل بنّاء سفن بائس وبحار أرعن في البحر.

بشكل أساسى، فإنه منذ التخطيط المبدئى إلى التدشين النهائى، لا يمكن التغاضى عن أى شىء يمكن عمله لضمان نجاح وسلامة السفينة وطاقمها. ولتحقيق هذه الغاية يسير ما هو عملى وما هو غيبى جنبًا إلى جنب؛ فقد حافظوا على الأساليب والمواد التقليدية، ولكن الاعتبارات العملية الخاصة بالزمان والجغرافيا عدلتها من أجل إنتاج أفضل سفينة ممكنة، طبقًا للرؤية الشعبية للأمور. وتوضح هذا بطريقة مثيرة للاستغراب حكاية شائعة فى لوننبرج Lunenburg بنوفا سكوشا عن بناء سفينة صيد السمك الشهيرة "بلونوز" Bluenose فى وقت سابق من هذا القرن [العشرين.]

وضع رسومات هذه السفينة بيلى رو Billy Roue المهندس البحرى المشهور فى نوفا سكوشا، وقد نُفِّذت فى لوننبرج، أشهر ميناء صيد فى المنطقة. وفى منتصف البناء تقريبًا شعر كبير البنائين بقدر كبير من القلق وذهب إلى صاحب الترسانة. لم تكن السفينة من الطول بما يتناسب مع عرضها وغاطسها وكان لابد من تطويلها كى تتفق مع المواصفات التى يشعر الصيادون أنها جعلت لنوعيات الإبحار الجيد. وغلب رأى كبير البنائين وأضيفت أقدام عدة إلى السفينة (يقول البعض إن الإضافة كانت إلى المقدمة، ويقول غيرهم إنها شقت إلى نصفين وكان التطويل بين المقدمة والمؤخرة). وعلى أى الأحوال فقد دشنت، وحققت سجلاً رائعًا فى السعة تحت قيادة القبطان "باكى" والترز "Bucky" Walters .

فى النهاية بيعت خارج البلاد وفُقدت فى البحر. وقررت الحكومة الكندية، التى وضعت صورتها على عملتها، بناء سفينة على صورتها. فقد كان لديهم تصميم رو، واتبع بناة "بلونوز" الجديدة الرسومات بدقة. ودُشنت "بلونوز ٢". واستدعى القبطان والترز من التقاعد لقيادتها، ولكن السفينة الجديدة بدت مثل "البحّار البليد" ولم يقترب

أداؤها بحال من الأحوال من أداء السفينة الأصلية. وسيقول لك الصيادون "السبب هو تلك الأقدام الإضافية" - ولكن لنعد مرة أخرى إلى عملية البناء.

بعد تجميع كل الناس وكل الأشياء تجرى مباركة الصالب (العمود الفقرى للسفينة) ، فى العصور المسيحية كان الذى يتولى ذلك قس أو كاهن يتلو الصلوات المناسبة. وفى أيرلندا كان ينثر كذلك الماء المقدس على الأخشاب أو يضع قنينة صغيرة من السائل الثمين على العارضة (وهو ما زال يحدث فى خليج ملروى Mulroy Bay شمالى أيرلندا) قبل بدء التشكيل الفعلى للأخشاب (١٢) .

يوضع الصالب بحيث يكون أحد طرفيه جهة الشمال والآخر جهة الجنوب. ومع أنه بالإمكان إرجاع السبب فى ذلك إلى "الخرافة الفارغة"، فالواقع أنها - شأنها شأن معظم العادات الشعبية - تؤدى غرضًا مفيدًا. أول كل شىء أن معظم السفن، وحتى الخشبية، يتكون لديها قدر معين من الجاذبية المغناطيسية حين بنائها، مما يقتضى تعديل البوصلة. وحين تبنى السفينة فى الاتجاه الشمالى الجنوبى، تكون مغناطيسيتها متمشية مع الاتجاه الأمامى والخلفى ولا تحدث مشاكل انحراف البوصلة الذى قد يحدث لولا ذلك. بل إنه بما أن السفن كانت تبنى فى العادة فى الهواء الطلق، فإنها حين توضع من الشمال على الجنوب تؤثر الشمس على جانبى السفينة بقدر من التساوى أكثر من وضعها من الشرق للغرب.

لم يكن الأمر يقتصر على تلاوة الصلوات ووضع الماء المقدس على الصالب عند بدء البناء، بل كانت هناك كذلك احتياطات أخرى تتخذ أثناء البناء لضمان طول حياة السفينة وصحتها ورفاهيتها العامة. وكانت تلك الاحتياطات عديدة ومتنوعة. ففى نيو إنجلاند كانوا يجعلون حاويات بين الأطر ويملئونها بالملح "للحفاظ على حلاوة الجمة(*) ولمنع التعفن الجاف. وفى إسكوتلندا، وبعد المباركة ووضع السفينة فى الاتجاه الصحيح، كانت مهمة كبير البنائين أن يخفى قطعة نقود ذهبية "لجلب الحظ" فى مكان ما من لحامات الصالب، ولا يعرف مكانها أحد سوى المالك وهو (١٣) . ولم يكن ما يوضع

(*) الجزء المغمور من السفينة الواقع بين سطح قاعها والجوانب الرأسية المستقيمة (المترجم) .

هو قطعة النقود الذهبية وحسب، بل فى بعض الأحيان كانوا يثبتون جنيهًا ذهبيًا على العارضة الرئيسية فى السطح (طبقًا لما ذكره الإخبارى الإسكوتلندى).

وهناك احتمال كبير أن ذكرى هذا العمل بقيت فى نوع من المزاح الخشن الذى يتعرض له المستجدون فى سفن البحرية الأمريكية الذين يُطلب منهم أحيانًا النزول و"تلميع البرشامة الذهبية" الموجودة فى أصعب جزء من الصالب يمكن الوصول إليه.

وما يشبه مسألة العملة الذهبية هو تلك الحكاية التى يرويها على جزيرة إينيشبوفين Inishbofin القبطان بادى أوهالوران Captain Paddy O'Halloran .

**كان من المفترض أن يكون القديس ليو St. Leo فى السفينة "شارك" Shark ولا أدرى ما حدث لجرسه، ولكنهم أخرجوا الجرس من "شارك" كذلك. لقد نزلوا "شارك" مرة. وافترض أنهم قد يكونون قراصنة أو شماليين أو أيًا من يكونون، ولكنهم أخذوا الجرس من "شارك"، وصعدوا به إلى السطح، واضطروا إلى إلقاء الجرس فى الخارج فى تلك الليلة كذلك. هبت عاصفة وألقوا بالجرس فى الخارج وعاد الجرس إلى "شارك" فى الصباح مرة أخرى وأتذكر جيدًا سماع كبار السن وهم يروون ذلك. الواقع أننى رأيت إحدى السفن. فقد بنيت هنا فى الجزيرة ولكنها كانت سفينة صغيرة، كانت سفينة تسير بالمجاديف، ربما كان وزنها طنًا ونصف أو طنين. وكانوا يكسرون قطعًا صغيرة من الجرس ويضعونها بين الأخشاب، بين ألواح التجليد وهيكل السفينة عندما يهمون ببناء السفينة ولم يحدث شىء قط لأى سفينة بها قطعة من الجرس. لم تغرق أو أى شىء. وكان لديهم اعتقاد قوى فى الجرس على أى الأحوال ولم يكونوا يصنعون سفينة جديدة إلا ويضعون فيها قطعة من الجرس، مجرد قطعة صغيرة جداً. وقد رأيت إحدى السفن، بقايا إحدى السفن التى بنيت هنا (١٤) .**

وروى مايكل لونى Michael Loughney من كيلكامن رودز Kilcummin Roads حكاية عن مكون مهم آخر من المكونات التى تضاف إلى بدن السفينة الذى يكبر شيئًا فشيئًا.

منذ عدة سنوات نزلت بقرة إلى الشاطئ وأخذت تلعق صندوقًا ألقاه البحر على البر. وظلت البقرة ثلاثة أيام تتردد على الشاطئ وتلعق الصندوق إلى أن تملك الفضول

امرأة وفتحته. وكان بداخله طفل رضيع عادت به إلى البيت وربته كابن لها. وفي يوم من الأيام حين كان الصبى فى سن المراهقة وكان يعمل لدى أحد المزارعين نزل الحقل سرب من الغربان وأخذ يأكل الحب. غضب المزارع غضباً شديداً وقال للصبى: "لو استطعنا طرد الغربان لأنقذنا المحصول." ولكنهم لم يستطيعوا طرد الغربان، وعاد المزارع إلى البيت لتناول الغداء وهو فى حالة من اليأس. وحين عاد كانت الغربان جميعها قد اختفت. "أين الغربان؟" "لقد حبستها كلها فى الكنيسة." وأظهر البحث أن الغربان موجودة هناك بالفعل. وحقيقة الأمر أنه كان هناك الكثير منها حتى إن الكنيسة امتلأت بها. وكانت نتيجة هذا العمل أن الناس أخذوا يظنون أن للغلام اتصالات ما بالعالم الآخر، وهو ما ثبت بالفعل. لقد أصبح القديس كامين St. Cummin، وهو رجل مقدس كان يأتى بالمعجزات وأوجد بئراً مقدسة كانت تشفى الكثير من الأمراض. وحتى يومنا هذا لا يزال سكان المنطقة ينظرون إلى البئر والكنيسة على أنهما مزاران مقدسان.

فى النهاية مات القديس ودُفن بالقرب من الكنيسة، ولكن أفعاله الخيِّرة للبشر لم تنته بعد. والتراب الذى يؤخذ من هذا القبر يحفظ حامله من الغرق، ولو وضعت ذرة منه فى سفينة لن تغرق أبداً، شريطة أن تأتى به امرأة من عائلة لَونى. وكانت شقيقة الإخبارى الذى حكى لى الحكاية هى المرأة التى يمكنها الإتيان بالتراب الثمين، ومن الواضح أن الناس يعتقدون فى هذه الممارسة ويتبعونها منذ حوالى خمس عشرة قرناً (١٥).

فى جزيرة تورى Tory Island على الساحل الشمالى الغربى من أيرلندا، هناك نوع آخر من التراب يحظى بتقدير شديد من بناة السفن، أو أصحابها على الأقل.

فطبقاً لما قاله جيمس ديكسون James Dixon، فقد زار تلك الجزيرة الصغيرة منذ سنوات بعيدة رجل مقدس اسمه كولم سيل Cholm Cille وهو فى طريقه إلى أيونا Iona. وبلغت أخبار تحركاته إسكندنافيا، حيث انطلقت من هناك سفينة تحمل خمسة من أبناء ملك النرويج وامرأة لرؤيته. ولسوء حظهم كانت الرحلة أكثر خطورة مما توقعوه ومات الجميع أثناء الرحلة. إلا أن الأمواج حملت السفينة وعليها الجثث وألقت بها فى النهاية

على الجزيرة. استخرج الناس الجثث ودفنوها، إلا أن المرأة رفضت البقاء تحت الأرض وخرجت على السطح سبع مرات. وفى المرة السابعة لخروجها أمر كولم سيل، الذى أتى بالكثير من المعجزات على الجزيرة - ومنها القضاء على كل الفئران - بأن تدفن المرأة منفردة عن الباقين. وتم ذلك وظلت تحت الأرض. (وفى رواية أخرى لنفس الحكاية قيل إنها راهبة ورفضت أن تظل مدفونة إلى أن "دفنت نفسها"). وعلى أى الأحوال، فقد أصبح قبرها مكانًا على قدر كبير من التقديس، ومنذ ذلك الوقت أخذت أطنان من التراب منه ووضعت فى السفن القصية والدانية. ويُقال إن أية سفينة تحمل ذرة من هذا التراب تظل خالية من الفئران على الدوام (١٦) .

التقليد الأكثر شيوعًا من تلك التقاليد السابق ذكرها، هو وضع تماثيل القديسين فى مشكاوات أعدت خصيصًا على سفن تخص الروم الكاثوليك. وعمومًا كان القديس يحمل نفس اسم السفينة وكانوا يأملون أن تحمى الأيقونة السفينة من الأضرار، وخاصة العواصف. ولتحقيق هذه الغاية، كانت شموع النذر توقد أثناء الرياح الشديدة أمام الضريح، وكانت الصلوات تتلى، وفى بعض الأحيان كانت تقرب القرابين من الطعام أو النبيذ. وإذا استمرت العاصفة، لام القبطان التمثال، وإذا لم يُجْدِ ذلك سحبوا التمثال من المشكاة، وربطوه بخيط وعلقوه فى المؤخرة. وإذا أخفق هذا كذلك وكانت العاصفة شديدة، كان القبطان يقطع الخيط فى بعض الأحيان (١٧) .

وكانت السفينة حين تخرج من بين نجارتها ونشارتها خروج العنقاء من بين الرماد، كان نحاتو الخشب يبدأون العمل على السفينة وفى أماكن أخرى فى صنع أشكال زخرفية ورجامات(*) ومرابط(**) وأوتاد(***) وألواح المؤخرة، وبشكل خاص رأس الجؤجؤ(****). ومع أن هذه الأشكال باتت زخرفية، فقد كانوا فى الأصل يعتقدون أن لها صفات سحرية حمائية تحرس السفينة وطاقمها وحمولتها من الأذى.

(*) الرجام : بروز فى مقدمة السفينة يحمل بكارة رفع المرساة (الهلب)، كما تثبت إليه المرساة (المترجم) .

(**) المربط : قائم خشبى صغير على سطح السفينة يستخدم لتثبيت حبال الرباط (المترجم) .

(***) الوتد : قائم ثقيل مركب على سطح السفينة يستخدم لربطها وإرسائها (المترجم) .

(****) حلية توضع فى الطرف المتقدم من السفينة تحت ساريتها الأمامية مباشرة (المترجم) .

كانت رءوس السباع (رمز القوة) والطيور البحرية وعرائس البحر والدلافين جميعها موتيفات شعبية موجودة بوفرة فى أشياء تتعلق بالسفينة. وكان هناك شعور بأن هذه النقوش ترضى فى بعض الحالات الكائنات التى تضمر الشر، مثل عرائس البحر والكركن(*) التى يمكن أن تؤذى السفينة، أو أنها قد تصرف سكان الأعماق ذوى الطبيعة الأدنى. والواقع أن سفن الشمال الطويلة القديمة كافة كانت مصممة بحيث تبدو على هيئة ثعبان البحر، حيث كان الرأس فى المقدمة والذيل فى المؤخرة وكانت المجاديف فى منتصف السفينة كأنها الأرجل. وسواء أكانت وحوش البحر ترى تلك الصور المخيفة على أنها ترضيها أم ترعبها فتلك مسألة فيها نظر، إلا أنه قد يكون هناك بعض الشك فى أن السفينة نفسها كانت تثير الرعب كذلك فى نفوس الأعداء مثلها مثل ذلك الجمع المشعر الذى على متنها.

فى وقت لاحق، وفى زمن صمويل بيبيز Samuel Pepys (**)، زاد عدد تلك النقوش بصورة كبيرة أثارت فضيحة فى إنجلترا دعت وزارة الخزانة إلى تخفيض مخصصات السفن التى تبالغ فى زخرفتها، مما جعل تلك الأعداد الكبيرة من نحاتى السفن يجدون أنفسهم بلا عمل ويقضون أوقاتهم فى تزيين البيوت الإنجليزية. وفى الولايات المتحدة بلغت زخرفة السفن حداً كبيراً ببناء الفرقاطة الأمريكية "بريزيدنت" President التى زُيِّنت برأس جؤجؤ وكانت ألواح المؤخرة تصور حزمًا من الذرة والقمح والفواكه والغزلان والهنود الحمر والأقواس والسهام وبعض الأشكال اليونانية التى كانت تشغل كل الأماكن الخالية (١٨).

رأس الجؤجؤ هو الأكثر أهمية وقدمًا. وتشهد السفن من الصين إلى النرويج، وسفن الشعوب المتقدمة كاليونان والفرنسيين، والشعوب البدائية كهنود الساحل الشمالى الغرب وسكان جزر سولومون Solomon Islands، على انتشار هذه الوسيلة

(*) وحش بحرى خرافى نسجت حوله الأساطير فى إسكندنافيا وغرب أوروبا فى العصور الوسطى المسيحية (المترجم).

(**) موظف فى الحكومة الإنجليزية (١٦٣٣-١٧٠٣) تتضمن مذكراته وصفًا مفصلاً للحريق الكبير الذى شهدته لندن (١٦٦٥) والطاعون الكبير (١٦٦٦) (المترجم).

فى أنحاء العالم. وكشأن الكثير من أشياء العالم القديم، يبدو أن رأس الجؤجؤ وصلت أوروبا عن طريق العرب الذين كانوا يزينون سفنهم المعروفة باسم الداو(*) بعيون جاحظة لولاها لبدت وضيعة (١٩) . ومنهم انتقلت عبر البحر المتوسط ومن ثم إلى أنحاء أوروبا. ولم تكن الأشكال العربية رؤوس جؤجؤ بالمعنى العادى، بل كانت عيوناً ضخمة محفورة أو مرسومة على مقدمات السفن.

ليس هناك شاهد على إيمان الإنسان بأن لكل شىء روح أفضل من رءوس الجؤجؤ التى كانت تنحت مشابهة لاسم السفينة وطابعها مع تركيز شديد على أمرين، هما التأثير والعيون الجاحظة. فالسفينة Quaker Maid [ الفتاة الصاحبية(**) ] كانت بها فتاة صاحبية خجولة صغيرة ذات عينين جاحظتين تميل إلى الأمام ناحية البحر. وكانت السفينة Grand Turk [ التركى العظيم ] بها تركى ممتشقاً سيفه، والسفينة Highlander [ الجبلى ] بها إسكوتلندى وسيم يحمل خنجراً، والسفينة Indian Chief [ الزعيم الهندى ] عليها هندى على رأسه تاج من الريش ويمسك فى قبضته القوية بلطة. وهناك رأس جؤجؤ لسفينة "مجهولة" عبارة عن إوزة سمينة فزعة جناحيها شبه مفرودين، ويمكن التخمين بأن السفينة التى كانت تزينها اسمها Wild Goose أو Bar-nacle Goose [ الإوزة البرية ] - وهى إوزة ذات شهرة أسطورية.

الفكرة التى وراء العيون الجاحظة ورءوس الجؤجؤ هى باختصار أنه بسبب أحوال السفينة الغريبة وحركتها وصخبها الداخلى ونزواتها، كان البحارة يعتقدون أن لها روحاً أو على الأقل شبه روح. فإذا زينت مقدمتها بشكل تمثيلى منحوت ذى عينين، وإن كان من الخشب، فإن السفينة نفسها يمكن أن تحترس من الخطر، وربما استطاعت تجنبه دون معين. وبدون العيون أو رأس الجؤجؤ، قد تضطر السفينة للسير عمياء رغم المراقبة.

(*) سفينة حمولتها نحو مائة وخمسين طناً إلى مائتين ومبنية على شكل الغراب وطولها حوالى خمسة وثمانين قدماً وعرضها عشرون قدماً وعمقها أحد عشر قدماً (المترجم) .

(**) نسبة إلى طائفة الأصحاب (المترجم) .

تطور نحت رءوس الجؤجؤ فى الولايات المتحدة ليصبح فنًا شعبياً راقياً فى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر. ومع أن النحاتين كانوا ينحتون أشكالهم على عروق من الخشب، فقد استطاعوا فى بعض الحالات إدراك ثنايا اللحم تحت الملابس وتصوير التعبير والتشريح بدرجة مذهلة. لقد خرج فن النحت الأمريكى من بين نحاتى السفن هؤلاء ، حيث افتتح شخص يدعى ويليام راش William Rush من فيلادلفيا Philadelphia، وكان نحاتًا لرءوس الجؤجؤ وألواح المؤخرة لسنوات عديدة، أول مدرسة للنحت فى الولايات المتحدة فى القرن الثامن عشر (٢٠) .

لم يكن النحت وحده مهمًا لقوة السفينة وسلامتها، بل كان للونها كذلك أهميته. وبصورة عامة، كانت الألوان الفاتحة الزاهية تواجهك على طول شواطئ أسبانيا والبرتغال وفرنسا والبحر المتوسط. والواقع أنه يبدو أن درجات الألوان هذه هى السائدة فى المناطق المعتدلة وشبه المدارية من العالم، بينما كانت الألوان الداكنة هى الغالبة فى دوائر العرض العليا. وحول جزر آران Aran Islands على الساحل الغربى من أيرلندا، كان لون السفن والأشرعة فيما مضى هو الأسود. وظلت هذه العادة قائمة حتى يومنا هذا فى سفن الصيد فى جولواى Galway التى تبدو وكأنها سفن جنازات وهى تسير فى البحر ـ فالأشرعة سوداء، وبدن السفينة أسود، بل إن أفراد الطاقم يرتدون ملابس سوداء. وفى إسكوتلندا وسائر أيرلندا عادة ما تُطلى السفن باللون الأسود، أو الأخضر الداكن، أو الأحمر، وقد تكون زرقاء فى بعض الأحيان. ومن حين لآخر كانت تظهر كذلك بلون الخشب الطبيعى وقد طُليت بطبقات كثيفة من الزيت. ومن ناحية أخرى يبدو أن الأبيض والرمادى والأسود والأصفر (فى المياه الجنوبية) هى الألوان المفضلة للسفن فى الولايات المتحدة وكندا. ومن اللافت للانتباه كذلك أنه فى بعض مناطق أمريكا الشمالية، مثل مين Maine، يرفض البحارة طلاء السفن بالأزرق أو الأخضر ـ وهما لونا البحر ـ اعتقاداً منهم أنهما يجلبان سوء الحظ.

فى معظم الحالات تدهن الأجزاء العليا من السفن بألوان تختلف عن لون البدن ـ وعادة ما تكون أفتح، حيث يخطط جسم السفينة بالكامل بقصد تقديم تصميم يسر العين وتحسين الشكل الخارجى للسفينة، وهو ما يبدو بصورة عامة أنه يعنى تقليل حجم السفينة الخارجى على الماء وإبراز ارتفاع المقدمة والمؤخرة.

منذ قـرون والسـفن تبنى بالخـشب، ولكن هذه الأيام حل المعـدن مـحل البلوط والعزيزى إلى حد كبير. ومع ذلك فهناك قدر كبير من الجهد لإخفاء المعدن وإعطائه مظهر الخشب. وفى إسكوتلندا، حيث يرتاد الصيادون البحر فى أى طقس وحيث تعتبر "الأيام الطيبة" غير صالحة للخروج إلى أى مكان آخر فى العالم، فإن أشغال السطح تصنع منذ زمن طويل من الصلب لكى لا يمـزقـهـا البحـر. وقبل أن تخـرج أى من هذه السفن إلى البحر، يُستأجر عمال الطلاء المهرة لطلاء ألواح السطح بحيث تبدو كأنها ألواح من الخشب العزيزى. وتسمى هذه العملية بالتجزيع، وهى تستهلك قدراً كبيراً جداً من الوقت والمال، ولكن النتيجة هى جعل الشكل الخارجى لكابينة القيادة يبدو مثل داخل قاعة حفلات جديدة من الخشب العزيزى.

أرى منذ مدة طويلة أن العادات الشعبية تقوم دائمًا على وظيفة أو فكرة نفعية ما، وإن كانت الوظيفة قد باتت مفقودة بالنسبة للممارس الحالى - وذلك إذا كانت قد فُهمت فهمـًا تامًا فى يوم من الأيام. وفى حـالة مـوتيفات الطلاء، قد تعين أشياء عديدة على توضيح استخدام الألوان. فالألوان الداكنة تجتذب الحرارة، والحرارة تجفف الألواح وتجعلها تنكمش، كما أنها تجعل داخل السفينة أشبه بالفرن. وفى دوائر العرض الدنيا حيث أشعة الشمس أكثر مباشرة، قد تعانى الأبدان الداكنة من حرارة الشمس أكثر من الأبدان فاتحة اللون. ومع أن الناس فى مين يقولون إن الأخضر والأزرق يجلبان سوء الحظ، فإن الحقيقة المعروفة هى أن هذين اللونين، بالإضافة إلى الأسود، يصعب الحفاظ عليها إلى حد كبير، وهما يبقبقان فى الطقس الحار. وأخيراً تواجهنا مشكلة القدرة على الرؤية. ففى دوائر العرض الشمالية يمكن رؤية الألوان من على مسافة تزيد على تلك التى يمكن رؤيتها منها فى الأجواء الجنوبية، وربما كان هذا تحكم آخر من العقل الباطن فى ألوان الطلاء المستخدمة.

لا يقتصر الأمر على أهمية اللون بالنسبة للجماعة الشعبية (فكل سفن الصيد فى أحد موانئ إسكوتلندا تطلى بلون واحد فقط أو لونين) ولكن لون السفينة له أهميته الخاصة بالنسبة لأصحاب السفن. ومنذ سنوات، وطبقًا لرواية القبطان موريس **Captain Morris** من تينانتس هاربر **Tenants Harbor** بولاية مـين، تحـالف رجـلان لبناء سفينة شراعية صغيرة تسير بمحاذاة الشاطئ. وسارت كل الأمور على ما يُرام إلى أن

جاء دور اللون. كان أحد الرجلين يريده أبيض والآخر أسود. وكان الأسود هو ما اتفقا عليه في النهاية؛ وطليت السفينة وزودت بالأشرعة وأعدت لنزول البحر. وأوكل لها نقل "حمولة كاملة" من البطاطس وأخذها أحد المالكين إلى بوسطن، حيث باع البطاطس محققًا ربحًا طيبًا. وحين كان ينتظر حمولة أخرى، بدأت السفينة السوداء تزعجه. فبدلاً من أن يظن البحار أن الأسود جميل، شعر أنه سائق عربة موتى، واستخدم نصيبه من الأرباح لتغيير اللون إلى الأبيض.

وحين عادت السفينة إلى تينانتس هاربر كان المالك الآخر واقفًا على المرسى. وما إن رأى اللون حتى غضب غضبًا شديدًا، وجرت الكلمة غيرها. واستدعى مدير الشرطة، ووضعت السفينة تحت التحفظ. وأعقب ذلك رفع دعوى قضائية وجرت السنة غيرها. وفي تلك الأثناء كانت السفينة والأشرعة والمعدات والحمولة والعدد قابعة في المرسى. وامتدت السكك الحديدية وبدأت تزاحم مهنة النقل بالسفن التي أخذت أرباحها تقل. وفي النهاية، وبينما الحمولة لا تزال على متن السفينة والأشرعة مطوية، تحطمت السفينة على المرسى وغرقت. وطبقًا لما ذكره الإخباري، كانت عظامها لا تزال ترى في الطين حين ينحسر المد في أوائل الستينيات.

من بين كل الأشياء المتصلة ببناء السفينة نجد أن أهم حدثين هما اختيار اسمها وتدشينها. وسحر الاسم بالنسبة للبشر، المتحضرين منهم والبدائيين، حقيقي جدًا. وحتى في يومنا هذا يبذل من هم على درجة عالية من الثقافة جهدًا كبيرًا في اختيار اسم لطفل من الأطفال. فإذا كان الطفل لأبوين من الروم الكاثوليك فلابد أن يشمل ذلك اسم أحد القديسين أو اسم عائلة وهكذا. وحقيقة الأمر أنه في مجتمعنا الذي يخضع فيه كل شيء للكمبيوتر سيكون من الأفضل جعل رقم الضمان الاجتماعي الخاص بالطفل اسمًا له ونناديه تدللاً "سبعة وخمسون"، ولكن هذه فكرة بغيضة في الوقت الراهن حتى إن أخلص بيروقراطي سيتردد في اقتراحها بشكل علني. وقد شغلت مشكلة أسماء الأعلام بكاملها العقل العلمي لسنوات ويمكن أن نورد بضع الأفكار وحسب هنا.

يبدو أن بعض المفاهيم كانت على مر العصور تحكم تسمية السفن. وكان عمل السفينة هو ما يقرر تسميتها فى بعض الأحيان، وكان الزمن الذى صنعت فيه يقررها فى أحيان أخرى، حيث كان كل عصر تشيع فيه أسماء بعينها للسفن. و عادة ما كانوا يختارون الاسم، فى حدود هذين القيدين، إما لحماية السفينة من الأذى وتحسين عملها، أو اتقاءً للأرواح الشريرة العديدة التى يمكن أن تلحق الأذى أو الخطر بالسفينة.

فى القرنين السابع عشر والثامن عشر كان هناك قدر كبير من الاختلاف بين السفن الحربية البريطانية والأمريكية والسفن التجارية المتواضعة. فمن أسماء السفن الحربية الشائعة The Terrible [ الرهيب ] و Victory [ النصر ] و Nonesuch [ الفذ ] و Tiger [ النمر ] و Ferret [ النمس ] ، أما Pretty Pinnance Virginia [ السفينة الجميلة فرجينيا ] و Watch and Wait [ راقب وانتظر ] و Sparrow [ العصفور ] و Pru-dence [ الحكمة ] و Quaker Maid [ الفتاة الصاحبية ] و Pyed Cow [ البقرة الرقطاء ] (وهى السفينة التى جاءت بأول مصنع لتقطيع الأخشاب إلى أمريكا الشمالية عام ١٦٢٤) فكانت من الأسماء التى ميزت سفن الشحن الثقيلة. وأثناء الثورة الأمريكية وحرب ١٨١٢(*) كانت السفن الأهلية التى تستخدم للاستيلاء على سفن العدو تحمل أسماء مثل Teaser [ المزعج ] و Hawk [ الصقر ] و Eagle [ النسر] و Yankee [ الأمريكى ] و Loyal Sam [ سام الوفى ] و Poor Sailor [ البحّار المسكين ] .

واليوم عادة لا يعرف المرء نوع السفينة وحسب من خلال قراءته لاسمها، بل غالبًا ما يمكنه كذلك معرفة جنسيتها. فالولايات المتحدة تسمى السفن الحربية الضخمة بأسماء الولايات، والسفن الحربية المتوسطة بأسماء المدن، وحاملات الطائرات بأسماء المعارك، والغواصات بأسماء الأسماك الشرهة. وتسمى السفن التجارية American Farmer [ المزارع الأمريكى ] و American Liberty [ الحرية الأمريكية ] و Texaco Star [ نجم تكساكو ] و Torrey Canyon [ أخدود تورى ] ، ومن خلال هذه الأسماء نعلم أنها سفن شحن، كالأوليين، أو ناقلات بترول كالأخيرتين. وتحمل اليخوت الشراعية أسماء

(*) كانت بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى واستمرت حتى ١٨١٥ رغم توقيع معاهدة سلام فى أوروبا عام ١٩١٤, وكان ميدان المعركة الرئيسى على الحدود الكندية وعلى خليج المكسيك (المترجم) .

من قبيل Queen Mab [ الملكة ماب ] (*) أو Thunderhead [ السحابة الرعدية] أو Cahntyman [ المغنى ] أو Morning Watch [ حارس الصباح ] ، بينما تحمل الزوارق ذات المحركات أسماء Margie-Jo [ مارجي جو] أو Zip Zap [ زيب زاب ] أو Me an' You [ أنا وأنت ] أو Happy Daze [ الذهول السار ] . وهذا الميل إلى تسمية السفن بناء على أنواعها شائع منذ زمن بعيد. وكانت سفن الفحم الإنجليزية فى أوائل القرن الثامن عشر غالبًا ما تطلق عليها اسم دوق أو إيرل أو لورد.

فى الأزمنة المعاصرة لا يزال هناك فرق واضح بين أسماء السفن البريطانية والأمريكية، سواء اليخوت أو السفن التجارية. فاليخوت الإنجليزية غالبًا ما تسمى بعبارات من قبيل Myth of Malham [ أسطورة مالام ] أو Helen of Howth [ هيلين أوف هاوث ] أو Ahwilda of Rhu [ آهويلدا أوف رو ] ، أو بأسماء مثل Scimitar [ السيف الأحدب ] أو Excalibur [ إكسكاليبر ] (**) أو Griffon [ الجريفن ] (***) وغالبًا ما تُميِّز سفن صيد الأسمال الإنجليزية والإسكوتلندية بأسماء أفراد عائلات أصحابها مثل Girl Vivien [ البنت فيفيان ] ، أو تحمل أسماء من قبيل Golden Harvest [ الحصاد الذهبى ] ، أو The Gleaner [ الحصَّاد ] ، أو Silver Star [ النجم الفضى ] ، أو Fern [ السرخس ] أو Golden view [ المنظر الذهبى ] ، أو Spray [ الرذاذ ] ، أو Harvest [ الحَصَّاد ] ، وهكذا. وتحمل السفن الأمريكية أسماء العائلات، وهى فى الغالب أسماء قديسين، وأسماء أماكن مثل Sankaty Head [ رأس سانكاتى ] ، وفى بعض الأحيان أسماء مثل Kelpi [ كيلبى ] (****)، أو Sea Horse [ حصان البحر ] ، أو Flying Fish [ السمكة الطائرة ] ، أو - من باب المزاح - Cigar Jo [ السيجار جو ] أو The Crowd from

(*) جنية شريرة مغرية فى الفولكلور الأيرلندى والإنجليزى تتحكم فى أحلام الرجال وتصنعها (المترجم) .

(**) تقول الأسطورة إنه سيف الملك أرثر البطل البريطانى الأسطورى الذى يقال إنه عاش فى القرن السادس الميلادى (المترجم) .

(***) حيوان خرافى فى الأساطير اليونانية له جسم أسد ورأس وأجنحة نسر (المترجم) .

(****) شبح تقول الأساطير الإسكوتلندية إنه يعيش فى البحيرات والأنهار ويعمل على إغراق المسافرين، وكثيراً ما يظهر على شكل حصان يغوى الضحايا على ركوبه ثم يسرع إلى الماء ويغرق راكبه (المترجم) .

Crotch Harbor [ الجمع من ميناء كروتش ] . وفى أمريكا، حيث ضعفت العادات والإيمان بالخرافات، نجد أن هذه الأسماء مقبولة، إلا أنها ليست كذلك فى الخارج حيث تحدى الأشياء أو ازدراء العناصر لا يزال يعتقد أنه أمر ينطوى على خطورة وغير مأمون العواقب إلى حد كبير.

هناك ما يغرى على المضى فى عرض قوائم بالسفن لا نهاية لها، وهو ما قد يكون ممكنًا، ولكن يظل علينا مواجهة المشكلة الحقيقية، وهى لماذا هذه الأنماط من الأسماء؟ هناك بالطبع ما لا يحصى من أسباب تسمية إحدى السفن باسم بعينه أو عدم تسميتها به. فسفينة ما كانت تحمل اسمًا معينًا أصابها ضرر، وكان بحارها غشيمًا، وكانت قيادتها صعبة. وترتبط شخصية السفينة ـ فى رأى العامة ـ بصورة أو بأخرى باسمها، ولذلك فإنه قد يفرض القدر على تسمية سفينة جديدة باسم سفينة ذات حظ عاثر. ومن ناحية أخرى فإنه إذا كانت إحدى السفن ذات حظ موفور فإن سفنًا أخرى قد تسمى باسمها. وبينما كانت السفينة The Great Harry [ هارى العظيم ] تجنح، انحلت مدافعها وسقطت على الجانب المعاكس لاتجاه الريح. وسقطت السفينة مخلفة خسارة رهيبة فى الأرواح، حتى إن عبارة "بسم السيد هارى" لا تزال شائعة إلى الآن. وانقلبت Vasa [ فازة ] بكل طاقمها من البحارة فى أولى رحلاتها. وحسبما أعلم، لم تسمى سفينة بأى من هذين الاسمين منذ تلك الكارثتين، فى حين أن H.M.S. Victory [ السفينة البريطانية فيكتورى ] و U.S.S. Saratoga [ السفينة الأمريكية ساراتوجا] لا يزالان اسمين شائعين لما حققاه من نجاح فى البداية. وفى مناطق معينة كذلك نجد أن الأسماء لها خواص مرتبطة بها تجعلها من المحظورات، بينما تستخدم فى مناطق أخرى حيث لا وجود للمحظورات. ففى إسكوتلندا لا يسمى أحد سفينة من السفن Seal [ الفقمة ] لوجود معتقدات خرافية تتعلق بالفقمة نسيت فى أمريكا حيث يشيع الاسم الآن إلى حد ما. ومحاولة تسجيل كل هذه الأسباب قد يحتاج إلى مجلد منفصل.

مع ذلك فهناك معتقد شائع وعام يحمل تمحيصًا بسيطًا. ففى كاليفورنيا شاهد المؤلف مؤخرًا إعلانًا يقول "تعلم التأثير فى الناس بمالك". وهذا يتناقض مع مشكلة تسمية السفن. وكان هناك اعتقاد واضح منذ فترة طويلة بأن على المرء أن يحرص بشدة على عدم إعطاء أية سفينة اسمًا ذا تأثير قوى. فالاحتمال الأكبر أن الاسم

المتواضع يمر دون أن تلاحظه العناصر، كما أن الاسم الذى ينم عن التعالى يوقع المرء فى مشاكل. ولم تكن السفن تسمى بأسماء سكان الأعماق الكبار، ولا بأسماء المحيطات ولا الرياح ولا العواصف وغيرها من الكوارث. بل إن أحداً لم يكن يجرؤ على استخدام كلمة فيها اجتراء (وكانت تلك الكلمة ذاتها محظورة) خشية أن تقل القوة، كما يشير الكتاب المقدس بكل وضوح.

فى القرن الثامن عشر كانت هناك سفينة اسمها Celeste [ الملاك ] . أبحرت السفينة يوم الجمعة. كادت السفينة أن تغرق وكان لابد من إصلاحها. وأبحرت مرة أخرى وعثر على أرنب على متنها. وبعد ذلك غادرتها الفئران. وانتشر فيها الجدرى. وعثر على سجل الملاحة الخاص بها طافيًا على سطح البحر وكان قد مضى ساعة واحدة فقط على آخر ما سُجِّل فيه. [ وقد أضيف أنه فى القرن الحالى عثر على السفينة Mary-Celeste يجرفها التيار وهى بكامل مجموعة أشرعتها وقد أعدت المائدة للعشاء، بينما لا يزال ما حدث لطاقمها غير معروف حتى الآن. ] (٢١) وحين غرقت السفينة At-lantic [ الأطلنطى ] حذر شاعر من أن المحيط قال "لن يكون هناك 'أطلانتيان'". وأوضح لمن لديهم الاستعداد للاعتقاد فى هذه الأشياء أن السفينة Titanic [ الهائل ] اصطدمت فى جبل جليد، وأن السفينة Squalus [ اسم نوع من الأسماك ] غاصت غوصة ما بعدها غوصة، وتحطمت السفينة Angel Gabriel [ الملاك جبرائيل ] على شاطئ مين. ويمكن أن نضيف إلى تلك غيرها من الأسماء التى فيها اجتراء - وهناك العديد من الأسماء المتواضعة من بينها Sparrow [ العصفور ] الذى ذكرناه آنفًا.

على أى الأحوال فإن أسماء مثل Herald of the Morning [ رسول الصباح ] وTyphoon [ الإعصار ] وHurricane [ الإعصار ] وWitch of the Wave [ ساحرة الموجة ] لم تكن شائعة حتى بلوغ السفن حجم الألف طن الخاص بالسفن الشراعية الأمريكية فى منتصف القرن التاسع عشر. ومرة أخرى قد نتذكر أن من بين كل تلك السفن الشراعية الجبارة لا تزال Cutty Sark [ جزيرة كاتى ] بحالتها. ومن بين السفن الأخرى ما تحطم، ومنها ما أحرق، وغرق بعضها، وحطمت بعضها الآخر مطرقة محطمى السفن بعد أن خدمت كسفن مغمورة استعملت للمهرجانات والحفلات أو كسجون.

النقطة الأخيرة التي لابد من توضيحها بشأن الأسماء تبدو مختلفة من مكان لآخر. ففي أمريكا يعتبر من سوء الطالع تغيير اسم السفينة، بينما في إسكوتلندا لا يعتبر هذا التغيير أمراً غير عادي. وفي لوخ بويسدال Loch Boisdale أبلغني شخص يدعى مستر ماكولي Mr. Macauley أنه في بعض الأحيان يؤدي تغيير الاسم إلى تغيير حظ السفينة للأفضل، وفي فريزربرج Frazerburgh على خليج موراي كان ديفيد تيت David Tait يعتزم تغيير اسم "البنت فيفيان" Girl Vivien إلى اسم آخر حين "يجد اسمًا جيداً" لأنه لم يكن لديه "بنت اسمها فيفيان". وفي أيرلندا غير مسموح بمثل هذه الممارسات، وهناك العديد من القصص في الولايات المتحدة حول ما يحدث للسفن التي تغيرت أسماؤها. وهناك دائمًا قدر كبير من السحر المرتبط بالأسماء، وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن الموقف المتعجرف من الأسماء الذي يتخذه العديد من الإخباريين في الجزر البريطانية مثال حديث للفولكلور المتدهور وليس انعكاساً للمعتقد التقليدي.

بعد اكتمال بناء السفينة ودهانها وتركيب رأس الجؤجؤ في مكانه، تكون السفينة جاهزة لأهم لحظة في تطورها - وهي التدشين وما يصاحبه من تسمية. وقد تغير هذا الحدث تغيراً ملحوظًا على مر السنين وفي أماكن مختلفة، إلا أنه مهما كان الطقس، فإنه من الضروري الالتزام به، وإلا فإن نتائج شهور من العمل والكد قد تكون هي الفشل، ذلك أن البحارة ساعة التدشين يمكنهم لأول مرة القول إن كانت لديهم سفينة محظوظة أو غير محظوظة. ولضمان أن يسير كل شيء سيراً حسنًا، كان الكل داخل المجتمع يبذلون جهداً عظيماً.

كان الاعتبار الأول، وهو الاعتبار الذي للإنسان عليه سلطان، هو اختيار التاريخ والوقت المناسبين. وقد يضاف إلى ذلك الأمارات الجيدة من بين العوامل الجوية.

وإذا كان هناك حرص واتخذت الحيطة أثناء بناء السفينة، فإن هذا لا يعد شيئًا مقارنة بالحرص والحذر المصاحبين لإنزال السفينة في الماء. ولم يكن لدى أهل البحر حدث - باستثناء مولد إنسان ما - تجرى مراقبته أو ملاحظته بحرص أكثر من ذلك. والواقع أنه حتى في أيامنا هذه يصاحب إنزال أية سفينة كبيرة في الماء صخب يفوق أي سبب منطقي. فالفرق الموسيقية تستأجر، والشمبانيا تُقدم، وغالبًا ما تقام الولائم،

كما يكون أحد رجال الدين حاضراً ويكون هناك تفكير كبير فى الشخص المنوط به تدشين السفينة - وعادة ما تكون أنثى ذات قيمة سياسية أو اقتصادية أو وطنية. ولكن حتى فى أيامنا هذه هناك أثر للفولكلور نعثر عليه فى هذا العمل، حيث يبذل بعض الجهد للعثور على شخص يتمتع بالمؤهلات المذكورة ويتصل من ناحية أو أخرى بالسفينة. فعندما دُشنت المدمرة هولزى باول Halsey Powell، قامت بالمهمة أرملة القبطان الذى سميت السفينة باسمه، وحين دُشنت المدمرة كين Kane، كانت ابنة شقيق ذلك الضابط هى التى كسرت الزجاجة على المقدمة.

وغالباً ما يحضر إنزال السفن الكبيرة الملك أو الرئيس أو الحاكم أو العمدة أو غيرهم من الشخصيات المهمة، وعادة ما يكون ذلك يوم عطلة رسمية. ومع ذلك فإن هناك تنوعات شديدة التعقيد ولا معنى لها إلى حد ما على ساق شعبية قديمة.

تكاد السفينة تكون أكثر الأشياء التى صنعها الإنسان حيوية حتى ظهور الكمبيوتر. فقد كانت تتمايل وتتهزهز وتترجح، وكانت لها ملامحها وصفاتها التى لم يكن من الممكن محاكاتها ولو فى سفينة أختها. وعلى عكس أى مبنى يمكن للناس أن يهربوا منه، كانت السفينة ضرورية لرفاهية الطاقم. ولا تزال السفن أكبر الأشياء المتحركة التى صممها الإنسان.

•

بغض النظر عما قد يبدو عليه التدشين الحديث لإحدى السفن فى الماء، فإن له جذوراً تعود إلى آلاف السنين إلى أيام سبقت هوميروس، وكان جزء كبير من هذا الطقس على قدر لا حد له من الجدية. وعلى عكس العديد من العادات الوثنية، فقد تغير قدر كبير من مأثورات التدشين على مر السنين إلى أن غيَّر العصر والمسيحية العادة الشعبية تغييراً فعلياً. ويكفى مثال واحد على ذلك.

يقال إن الفايكنج كانوا يربطون العبيد فى الأسطوانات الخشبية التى توضع تحت السفينة التى بنيت حديثاً. وحين تتدحرج السفينة عند إنزالها إلى الماء كان العبيد يطقطقون كأنهم أصابع سجق ويلطخون السفينة بالدم وغيره من حُتات. وفى وقت لاحق استعيض عن الأضاحى البشرية بأضاحى من الحيوانات، وهذه الأضاحى أفسحت بدورها الطريق للأضاحى الشعائرية. إلا أنه فى مناطق نائية من العالم الناطق

بالإنجليزية لا تزال الأضاحى الحيوانية تقدم. وهذا المكان هو جزيرة كاريكو فى جزر الهند الغربية - وهو مكان يشتهر محليًا بأنه مركز لبناء السفن (٢٢) .

وبسبب النمط الغريب لبناء السفينة وتدشينها فى جزر الهند الغربية، لابد من إضافة بضع كلمات إلى ما سبق، ذلك أن العملية تبدو لنا اليوم عتيقة من وجوه كثيرة مثلها مثل ممارسات الإسكندنافيين القدامى.

حين يكون الوقت مناسبًا ويوشك البناء أن يبدأ، وبعد أن تكون كمية كافية من الأخشاب المختلفة قد جُمِعت - الصالب والهيكل والتثبيتات وبعض الألواح - يقيم بنَّاء السفينة ومالكها (إن كان شخصًا آخر غير البنَّاء) وليمة تسمى "حفل البداية". تعد وليمة كبيرة، ويدعى أحد القساوسة وتبارك الأحداث التى تجرى فى المكان. وتقدم أضاحى من حيوانات مختلفة، ويشرع جمع المدعوين فى تناول الطعام والشراب. ويمد الصالب، وتوضع أخشاب المؤخرة والقرن فى أماكنها، وتؤمن "الأضلاع" التى تحدد البدن.

ما إن يكتمل العمل - ومعظمه يتم بالمناشير اليدوية وبالمساحج [ جمع مسحج وهو الفارة ] والقدائم [ جمع قدُّوم ] والمطارق والمثاقيب - حتى يبدءوا الأحداث جميعًا، وهو التدشين والـ"سراكا" التى تصاحبه. يحمل هلب كبير إلى المياه العميقة ويلقى من على السفينة وقد ربطت به كتلة من الحجر يمر فيها حبل أحد طرفيه مربوط فى السفينة والآخر يصل إلى الشاطئ. ولضمان نجاح التدشين، يستأجر بولدوزر وترسل الدعوات إلى الوليمة التالية إلى كل من لهم صلة بصورة أو بأخرى بالسفينة أو أصحابها.

تضم الوليمة كل أنواع الطعام المتاحة فى المنطقة وقد أعدت بطرق كثيرة ومختلفة، ويصاحبها "الكثير من الشراب، يا رجل، الكثير من الشراب - وجاك أيرن" Jack Iron (نوع من الروم المحلى يتكون، بقدر حكمى عليه، من ٩٩ بالمائة كحولاً صافيًا؛ وهو عادة يُتَجرَّع تجرعًا وتطفأ نار جهنم التى تشب فى المعدة إلى حد ما بابتلاع كوب من الماء).

يقدم إلى جانب الطعام والشراب أشكال أخرى من الترفيه، إلا أن الطيش يخفف بمسحات دينية ضخمة. وإضافة إلى فريق الموسيقى النحاسية والمعدات الموسيقية الأحدث، عادة ما تكون هناك "الطبلة الكبيرة". وتتكون الطبلة الكبيرة من ثلاثة رجال

يدقون إيقاعًا خاصًا على طبول من جلد الماعز ولا يمكن تقليل أهميتها فى ديانة جزر الهند الغربية، ذلك أنه من خلال عزف الطبلة الكبيرة، ومن خلال الصلاة وصب قرابين من الدم وجاك أيَرن تُجمع أرواح الموتى jumbies للاتصال بالأحياء أو تجرى ترضيتها.

يوضع على متن السفينة، التى زينت بالأعلام والرايات وتستعد لنزول البحر بكل شىء عدا الصابورة والحبال والسلاسل، صحن أرواح الموتى Jumbie Plate . ويحتوى هذا الصحن على كميات من كل الأطعمة التى أُعدت للضيف، ويحرس هذا الصحن طوال الليل للتأكد من أن أحدًا لم يسرقه، ذلك أنه موجود لإطعام الأسلاف. ويكون هناك أمل كبير فى أن يستهلك الصحن قبل طلوع النهار، وبذلك يطمئن الجمع إلى أن الأرواح تنظر بعين الرضا إلى التدشين، وبما أن كل المشاركين، فى الاحتفال بمن فيهم الحرس، يقدم لهم جاك أيَرن بسخاء، فإن ذلك يحدث بالفعل.

وتبارك السفينة قبل التدشين، وتقام الصلوات وتقدم الأضاحى. فيضحون بديك شركسى، وديك أبيض، وماعز، وخراف. وتقطع رقاب الأضاحى ويراق دمها على السطح وينثر بعضه فى اتجاهات الريح الأربعة والبعض الآخر فى الماء.

بعد ذلك "تُقطع" السفينة، أى تزال الدعائم التى تسندها ويدعونها تسقط على طبقة من الأسطوانات أعدت لذلك، وعادة ما تكون من جنوع نوع الأشجار خشبه صلب greenheart . ويدفع البولدوزر المقدمة، ويصطف المحتفلون على طول الحبل ويبدءون فى سحب السفينة ناحية البحر على نغمات الأغانى، ومنها أغنية "يادو" Yado (٢٣) . ويعيد فرانسيس كاى ما يقال هنا ويتضمن تفاصيل حذفت.

حين دُشنت السفينة سى لاورا إيه Sea Laura A منذ بضع سنوات، لوحظ أن الاحتفال بدأ فى العاشرة صباحًا. فى البداية ذُبح تيس ونُثر دمه على سطح السفينة. وبعد ذلك تلا القس الصلوات ونثر الماء المقدس على السفينة. بدأ دق الطبول ونشرت الأعلام على ساريتين مؤقتتين. وصعدت أعداد كبيرة من الناس على السطح وأخذوا يرقصون. وبعد ذلك نزلوا ودُشنت السفينة بينما كان أحد الموظفين فى الجزيرة يقود هتافًا. وما إن دُشنت السفينة حتى صعد الرجال على متنها ورقصوا ثم سبحوا حتى الشاطئ لحضور وليمة من اللحوم والخضروات والروم، ورقصوا بقية اليوم.

مع ذلك فإن هذا كله أكثر شراً مما يبدو بكثير. ففي جمهورية الدومنيكان هناك شجرة ضخمة تعرف باسم شجرة لاجارو Lagarou . وهنا يقال إن لاجارو، نوع من مصاصي الدماء في جزر الهند الغربية، يأتي إلى المدرسة ليتعلم حرفتهم. ويتحاشى السكان المحليون الاقتراب من الشجرة بعد حلول الظلام ويقولون إنهم كثيراً ما يرون أضواء تتحرك بسرعة من فرع إلى آخر. كما يقولون إنه إذا انتزع شخص أخشاباً من تلك الشجرة - بأعداد فرعية من واحد حتى سبعة - وأدخلها في بناء إحدى السفن، فإنها تصبح سفينة سريعة جداً. ومما يؤسف له أن السفن التي تحتوي على أخشاب من تلك الشجرة يفترض كذلك أنها معرضة بشدة لأن تنقلب وتغرق بطاقمها، ولذلك فإن على البنَّاء أن يتحايل على الاحتمالات المتوقع حدوثها قبل إدخاله الخشب في بدن السفينة.

وكما يمكن أن نخمن من المادة السابقة، فإنه كي تنجح إحدى السفن في جزر الهند الغربية لابد أن تكون بطريقة أو بأخرى على علاقة طيبة بالعالم الآخر، وليس مستغرباً أن نعلم أن هناك اعتقاداً شائعًا بأنه لا بد أن تكون لكل سفينة روح، روح آدمية، لكي تعمل بصورة صحيحة. وقد كانت المرة الأولى التي علمت فيه بذلك حين سمعت بحارين يناقشان أمر سفينة سحبت من أجل الإصلاحات. قال أحدهما "ربما تكون الآن سفينة جيدة." وظنًا مني أنها ربما تكون قد حُطمت، استفسرت عن السبب وعلمت أنه أثناء السحب غرق أحد أفراد الطاقم وبذلك يكون للسفينة روح - وهو ما كان ينقصها من قبل.

كشف المزيد من التقصي أن رجلاً فيها قد مات بالفعل. وذكرت إحدى الروايات أن الوفاة حدثت بسبب نوبة صرع، وذكرت رواية أخرى أنها أزمة قلبية، بينما أشارت رواية ثالثة إلى إنه ضُرب بهراوة وسُرق وألقي من على ظهر السفينة، وزعمت رواية أخيرة أنه طُعن. واتفق الجميع على أن السفينة التي تدور حولها الروايات لم تكن ناجحة، وأعرب الجميع عن أملهم في أن تصبح الآن سفينة شحن أكثر وفاء بالغرض. ومع ذلك فقد أثار المزيد من التحري أقارب المتوفى الذين قالوا إنه قُتل.

ما إن كُشف النقاب عن هذا الجزء الغريب من المأثورات حتى تتبعته فى أنحاء المنطقة واكتشفت أنه معتقد شائع. بل إنهم كانوا يعتقدون أنه كلما كانت الروح أصغر سنًا كان نجاح السفينة أطول. وأبلغونى أنه فى العقد الحالى اختفت فتاة صغيرة قبيل تدشين إحدى السفن ولم يرها أحد مرة أخرى، وفى حالة أخرى ذُكر أن طفلين رجما بالحجارة حتى الموت قبيل تدشين إحدى السفن.

بل إن هذه الفكرة بكاملها حصلت على مزيد من المصداقية حين رويت لى حكاية عن "أسرع سفينة فى الجزر". فقبيل تدشينها ألقى البحر على الشاطئ بأحد الألغام وأراد صاحبها - جهلاً منه بماهيته - فك قطعة نحاسية منه ليستخدمها كحلقة فى جزء ما من أجزاء السفينة الجديدة. استعان الرجل بعدد من أصدقائه الذين شرعوا فى العمل بالأزاميل والمطارق. انفجر اللغم وقتل بضعًا وخمسين رجلاً، ولكن السفينة لم يصبها شىء. حدث ذلك قبيل تدشين السفينة وأصبحت أسرع سفينة فى الجزر، وهو الرقم القياسى الذى احتفظت به إلى أن بيعت لمُلاك خارج الجزيرة التى بنيت فيها، حيث غرقت عقب ذلك مباشرة.

ليس من الضرورى دائمًا الذهاب إلى ذلك الحد لضمان نجاح سفينة أى شخص. وفى بعض الأحيان تمد العناية الإلهية يد العون. ففى إحدى الجزر كان السكان مشغولين إلى حد ما بمستقبل إحدى السفن. وفى الليلة السابقة لتدشينها توفيت امرأة تحظى بقدر كبير من الاحترام والحب فى الجزيرة لأسباب طبيعية. وفى اليوم التالى دُشنت السفينة بابتهاج لأن فيها روح السيدة فلانة. وكانت السفينة كبيرة الحجم، وحين تدحرجت من على تل طفيف الارتفاع مال كل وزنها على إحدى الأسطوانات من الخشب الصلب وانفجرت على الفور وتحولت إلى لهب - وبذلك قدمت دليلاً آخر على أنها ستكون ناجحة. وقد رأيت هذه السفينة وكانت بالفعل تتمتع بحياة عملية نافعة وناجحة (٢٤).

ظهرت على مر السنين فى مناطق أخرى فكرة مؤداها أن أى تدشين تصاحبه وفاة أى شخص ذى صلة بالسفينة أو إصابته أمر ينذر بالشؤم. وبدلاً من الدم تدشن السفينة بالنبيذ الأحمر، ثم الأبيض، ثم بالشمبانيا (وتوضع فى شبكة فضية لمنع حدوث

أضـرار من تطاير الزجاج) وفي الأيام التـعيسـة لحظر تصنيع الخمـور في هذا البلد كانـوا يستخدمون جعة الزنجبيل. ولكن حتى في المجتمع المتقدم يعتبر من سوء الحظ ألا تدشن السفينة بوابل من المشروبات الروحية الخفيفة، وكانت تستخدم حيل عديدة بينها الزجاجات الممتلئة حتى آخرها، والأشياء الحادة المثبتة في المقدمة، والمطرقة الخفية، وجميعها لضمان أن السائل الثمين تناثر في اللحظة المناسبة.

في الترسانات التجارية الآن يحدد موقع الترسانة وحجم السفينة الطريقة التي تدشن بها - هل المقدمة أولاً، أم المؤخرة، أم الجانب. وفي الأزمنة السابقة وفي موانئ الشعوب الناطقة بالإنجليزية، كانت معظم السفن تدشن إما بالمؤخرة أولاً أو المقدمة أولاً. والاستثناء الوحيد لذلك الذي أعرفه رواه إخباري أكد لي أن سفن صيد الحيتان في نيو بدفورد New Bedford كانت تبنى على أحد التلال ثم تدحرج ثلاث مرات قبل أن تنزل الماء بجانبها، للتأكد من قوتها لهذه المهنة ومن أنها ستقدر على العودة إلى وضعها الصحيح مهما حدث لها في البحر (٢٥) .

كما ذكرت من قبل، كانوا يبحثون عن الأمارات الطيبة للتأكد من نجاح التدشين. فلم يكن هناك من يفكر في تدشين سفينة يوم الجمعة أو في اليوم الثالث عشر من الشهر. وكان يوم الأربعاء دائمًا "أفضل الأيام جميعًا"، وكان وقت اكتمال البدر هو المفضل. وكان المد العالي طيبًا والصباح وقتًا ميمونًا. وكانت رؤية خنازير البحر وهي تلهو، وطيور النورس وهي تعمل، والسماء الصافية مع هبوب الريح من الناحية الصحيحة، جميعها تنبئ بالنجاح. وللتأكد من أن طيور النورس تعمل والأسماك موجودة، قيل لي إنه في كل من نوفا سكوشا ومين كان الناس في كثير من الأحيان يلقون طُعمًا من قطع السمك لجذب طيور النورس وخنازير البحر وغيرها. وليس لأحد سلطان على الطقس، ولكن حين يكون ممكنًا يمكن الاهتمام بالاحتمالات الأخرى.

وفي أماكن أخرى حين تكون السفينة مستعدة للتدشين، كانت قوائم طويلة توضع في الماء، وكانت السفينة ترفع وتوضع الأسطوانات تحت الحمالة وفوق القوائم. وكانت الحمالة توزن بحيث لا تطفو ويربط فيها حبل لاستعادتها. وفي بعض الأحيان كانت الحمالة تدحرج إلى الماء بدون الأسطوانات، وبالنسبة للسفن الكبيرة جداً، كان زوج من القضبان الحديدية أو الخشبية يحل محل الأسطوانات وتسير الحمالة على عجل.

وكان أكثر ما يخافون منه عند التدشين هو أن تقتل السفينة أحداً أو تصيبه أثناء نزولها على السكك، أو أن "تلتصق"، أى تتوقف أو تتردد فى نزولها إلى الماء. وضماناً لعدم التصاقها، كانت المزالق أو السكك تغطى بطبقة كثيفة من الشحم الحيوانى. وفى حالة عدم وجود الشحم كانت تستخدم البدائل - ففى إحدى الحالات حل الموز محل الشحم فى نيو إنجلاند، وفى لوننبرج Lunenburg بنوفا سكوشا، قيل إن سفينة دشنت على سكة رطبة من الرخويات البحرية! ومن المهم القول إن دهن الخنزير لم يذكر باعتباره مادة تشحيم، ذلك أن دهن الخنزير والخنازير تعتبر شؤماً فى الغالب - وهى من الشؤم فى الواقع إلى حد أنهم فى إسكوتلندا يستخدمون تسمية أخرى لها كنوع من التلطيف.

بعد اكتمال السفينة - على الأقل المرحلة التى يكتمل فيها الجزء الخارجى وتكون مستعدة للطفو - تزين بالأعلام والرايات أو بالزهور، كما فى بعض الدول الأوروبية مثل فرنسا. بعد ذلك يستدعى رجال الدين لتلاوة الصلوات ولنثر الماء المقدس على السفينة فى مناطق الروم الكاثوليك. وعند هذه النقطة تدشن السفينة وتسمى اسماً عادة ما يكون تغييره فى صعوبة تغيير اسم الإنسان، وفى الساحل الشرقى من إسكوتلندا يسمون أباً روحياً ليكون راعياً للسفينة. وفى تلك الأثناء تزال معظم الدعامات التى تمسك السفينة، وما إن تنكسر الزجاجة حتى توقع الدعامة الأخيرة أو يقطع الحبل الذى يمسكها، وفى حالة السفن الكبيرة ينشر الخشب الحامل للسفينة بمنشار ضخم. والواقع أن السفينة ترتعش ثم تنزلق ببطء فى اتجاه البحر، حيث تحصل على قوة دفع طوال الوقت. وتتحول القعقعة إلى هدير، وتصدر السكك فحيحاً ودخاناً بينما السفينة تجرى ناحية البحر. ولئلا تسير أسرع من اللازم، يقف على الجانب طاقم ممسكاً بحبل لإبطاء سرعتها، حيث إنه من المستحيل إيقافها. وهى تنزل بمقدمتها أولاً فى الماء محدثة طبطبة ضخمة، وترتفع المؤخرة، وتتحرر وتطفو خارج الحمالة لتتلقفها اللنشات القاطرة التى تديرها فى اتجاه عقارب الساعة وتأخذها إلى المرسى حيث تزود بالأشرعة.

ولا تنزل أعين المراقبين على الشاطئ من على السفينة قبل أن ترسو بأمان. فهم يريدون أن يروا إن كانت "تجرى بحق" فى الماء، وإذا كانت القوارب المرافقة لها قد

نجحت فى إيقافها أم لا. وهى تراقب بصورة خاصة لمعرفة كيف تعمل وتطفو - إن كانت تتمايل تمايلاً مبالغ فيه، أو تترجح أكثر مما يجب، أو "تصل إلى علاماتها"، أى إذا كانت تطفو باستواء واعتدال دون أن تميل على أحد جانبيها (٣٦) .

يمكن ذكر احتفال التدشين التقليدى فى شرقى اسكوتلندا - حيث الصيادون، طبقًا لما يقوله نيل كاميرون Neil Cameron من كرينان Crinan "مهرة جدًا" - ذلك أن الاحتفالات تختلف اختلافًا طفيفًا من منطقة لأخرى. وهنا كانت السفينة تدشن مع المد ولا تسمى حتى تطفو، كما يسكب الويسكى على مقدمتها وينثر عليها المزيد من الويسكى بسخاء، ومعه الشعير والدقيق والخبز. وتخاطب السفينة فى الاحتفال بذلك:

**من الصخور أو الرمال**

**والأراضى القاحلة**

**وأيدى الرجال الأشرار**

**حررينا**

**فى الداخل، وفى الخارج**

**بانطلاقة جيدة (٣٧)**

بعد ذلك يوزع صاحب السفينة وأفراد طاقمه الجبن والخبز بسخاء وينتهى الأمر بحفل للرجال فقط فى إحدى الحانات المحلية، حيث يقيمون وليمة من أسماك السُّفَن(*) الذى يبلِّعونه بالويسكى.

وما إن ينتهى التدشين حتى تكون السفينة جاهزة لإعدادها للبحر - الصارى يوضع فى قاعدته، وتدكك الأشرعة، وتضبط المحركات، إلخ. وفى ذلك الوقت توضع النقود دائمًا تحت قاعدة الصارى - ويفضل أن تكون من الفضة، وإن كان من الواضح أن العملات الذهبية كانت تستخدم فى هذه المناسبة. وهذه العادة من القدم بحيث إنه

(*) سمك مفلطح طويل الذيل (المترجم) .

تُحشر الآن فى كثير من الأحيان ست بنسات فى العارضة الرئيسية فى سفن الصيد وتستخدم عملة فضية لتعديل المحرك أو تحشر تحت قاعدة المحرك. ويذكر نيل كاميرون أنه حين كانت إحدى السفن تتكسر كان الناس يتجمعون ليحصلوا على "الجنيهات الذهبية" التى كانت توضع دائمًا تحت قاعدة الصارى. وكان الغرض الأصلى من تلك العملات هو دفع العُشر لإله الرياح، ولكن بما أن "آلة الاحتراق الداخلى" حلت محل الشراع فقد كان من الطبيعى التفكير فى العملات كترضية لإله الضوضاء.

أخيراً، وقبل أن تنزل السفينة البحر، كانت تتطلب دائمًا قدراً معينًا من ثقل التوازن (الصابورة) لتحسين توازنها، وتحسين عزم العدول(*) والمساهمة عمومًا فى استقرارها. ويمكن استخدام أية أشياء ثقيلة ورخيصة ومستقرة استقراراً معقولاً، إلا أن بعض الحيطة كانت تتخذ فى اختيار هذه المادة. فقد أخبرنى مؤخراً غطاسو الإنقاذ أنه يمكن تحديد جنسية حطام السفن القديمة من نوع الصابورة الموجودة فى أخشابها. فالبعض كان يستخدم الصخور المكسرة، والبعض الآخر الحصى، وهكذا. واليوم يعد الرصاص والحديد الخردة والأسمنت المصبوب من أشكال الصابورة الشائعة، إلا أن كل نمط يتحاشاه مستخدمو النمط الآخر لأسباب عديدة غير منطقية إلى حد كبير. فالرصاص غال جداً، ولكن من يستخدمون الحديد الخردة فى نيو إنجلاند يقولون إن الرصاص ثقيل جداً ويجعل السفينة تستجيب بسرعة كبيرة ويقيدها. ومن ناحية أخرى، يقول من يستخدمون الرصاص إن الحديد يعوق البوصلة ويصدأ ويوسخ ماء الجزء السفلى من بدن السفينة. ويعتقد من لا يستخدمون الأسمنت أنه يشغل حيزاً كبيراً جداً ويمنع السفينة من "التنفس"، وبذلك يزيد التعفن الجاف أو الصدأ.

ومنذ سنوات حين كانوا يستخدمون الحجر، كان البازلت والصخور المكسرة مفضلة دائمًا. وفى إسكوتلندا كان يؤتى بالصابورة دائمًا من الساحل الشرقى من جزيرة ليويس **Lewis** ـ على بعد مئات الأميال. ولا يستخدم الحصى المستدير الذى جرفته المياه [ الزلط ] ، وغير مسموح حتى يومنا هذا للأحجار البيضاء أو الأحجار

(*) عزم الدوران الذى يميل إلى إعادة السفينة المائلة إلى وضعها الصحيح (المترجم) .

التى بها ثقوب بالنزول إلى الجزء السفلى من بدن السفينة، طبقًا لما يقوله مالكوم ماكدونالد Malcolm Macdonald من ستورنوواى Stornoway [٢٨] . ومن المؤكد أن احتمال تحرك الصخور المكسرة أقل من الحجار الناعمة والحجر الداكن أثقل عمومًا من الأحجار التى بها ثقوب أو الصخور المسامية، ولكن هناك من الأفكار ما هو أكثر من ذلك. وليس على المرء سوى أن يتذكر أن داود قتل جوليات بحصاة بيضاء ناعمة، وأن الجنيات لا يمكنهن إيذاء رجل فى جيبه زلطة، كى يدرك الآثار السحرية. وحين يلاحظ المرء عبارة ذكرها إيان ماكلينان تقول إن "ما يأتى من البحر لا بد أن يعود للبحر"، فإنه لن يستغرب عدم استخدام حصى البحر.

مع أن الكثير من هذه العادات والمعتقدات قد يكون منشؤه ما اسماه السير توماس براون Sir Thomas Browne (*) "الأخطاء السوقية" وجرى تناقله من وراء ظل ما قبل التاريخ، تظل الحقيقة هى أنها، أو الكثير منها، وظيفية على نحو مباشر. وبالنسبة للهيكل، البلوط صلب ويقاوم الماء، وبالنسبة للألواح الأرز خفيف وقوى. إلا أنها فيما وراء ذلك لها وظيفة أخرى - وهى وظيفة نفسية يصعب قياسها مثل الضغط الذى تمارسه السفينة على مرساتها فى الريح العاتية. ويصدق البحارة هذه الأمور، وتتحسن كفاءة أفراد الطاقم أو تتلاشى من الناحية النفسية بسبب كونهم مؤيدين أو غير مؤيدين لها. والواقع أن الحقيقة نفسها التى تقول إن مخالفة المحظورات أو اتباعها قد يحدد نوعية أفراد الطاقم الذى تحصل عليه سفينة من السفن. فلماذا يذهب بحّار جيد فى سفينة اشتهرت بأنها كانت منحوسة عند بنائها أو تدشينها؟ وفيما وراء هذا هناك أدلة تدعم المعتقدات. فقد سُميت السفينة Great Eastern [ الشرقى العظيم ] فى أول الأمر Titanic . ومن المفترض أن اثنين من عمال البرشام حشرا داخل بدنها المزدوج. وقتل العديد من الرجال وهم يبنونها وعند تدشينها. كما أنها التصقت على السكك. وكانت طوال حياتها سفينة أحزان وأسى، حيث قضت على أصحابها، وأغرقت البحارة، فى الرياح العاتية والتحطم والتصادم [٢٩] . فهل من دليل أكثر من ذلك؟ بل إن

(*) فيزيائى وكاتب إنجليزى (١٦٠٥-١٦٨٢) عُرف بثراء نثره فى أعمال مثل Religio Medici وهو محاولة لعمل مصالحة بين الإيمان المسيحى والمعرفة العلمية (المترجم) .

كاتباً مثقفاً ومتقدماً مثل اللفتنانت إف إم باسيت F.M. Bassett يتساءل إن كانت سفينة معينة فقدت بين نيويورك ونورفولك لأنها لم تدشن بالشمبانيا (٣٠).

ذات مرة قال بحار عجوز "بالطبع قد لا يكون بها شيء ولكن من الناحية الأخرى ..." حين تعيش فى ظل الموت ولا يكلفك شيء أن تأخذ الاحتياطات، فإنه رجل جسور حقاً ذلك الذى يخالف المحظورات ويلتمس الكوارث.

## الفصل الثانى

# أسماء فى البحر

يبدو أن الخرافة صفة أصيلة من صفات المحيط.

**چيمس فينيمور كوپر**

James Fenimore Cooper: The Red Rover

تبدو دراسة الأسماء البحرية لأول وهلة على قدر كبير جداً من الإثارة وتكاد تثبط الهمم إلى حد كبير. وهى مثيرة لأن وراء كل اسم قصة ما، والأمر الثانى هو أن هناك اختلافًا ضخمًا فى المعايير الخاصة بأسلوب التسمية، ليس فقط من حيث النوع، بل والجنسية كذلك. والأسماء البحرية تثبط الهمم بسبب عددها ولأن تصنيفها من الصعوبة بمكان. ولكى ندرك المشكلة نحتاج فقط إلى النظر إلى ما يزيد على ألف خريطة تغطى الجزر البريطانية وأمريكا الشمالية، حيث لكل رأس بحرى كبير وخليج وميناء ورأس ولسان وشبه جزيرة وجزيرة وجزيرة صغيرة وصخرة وجرف وحافة اسم يُسمى به، ناهيك عن المخاضات [ الأماكن الضحلة ] والأغوار والتيارات والجيشان والدوامات . وبخلاف هذه الأسماء الموضوعة على الخرائط، هناك أعداد ضخمة من الأسماء المحلية التى لا يستخدمها سوى أهل كل منطقة لتحديد موضع بحرى ما أو ظرف من الظروف لا يظهر حتى على أدق خرائط الموانئ تفصيلاً. وكما لو كان هذا غير كاف، يبدو أن الأسماء موجودة فى كل لغة معروفة تقريباً وتغطى أعداداً هائلة من الاحتمالات.

الغرض الذى أسعى إليه هو محاولة إيجاد نوع من النظام والترتيب لهذا الخليط الذى يتسم بالفوضى لأسماء الأعلام التى تحدد بحار وسواحل أمريكا الشمالية والجزر البريطانية. وأود أن أوضح، أولاً، أن هناك اختلافًا واضحًا بين الأسماء فى البحر

والأسماء على اليابسة فى أمريكا الشمالية، وثانياً أن هناك اختلافاً واضحاً بين نظامى التسمية فى كل من العالمين القديم والجديد. بل إنى أود وضع بعض الأفكار العامة مثل وجود هذا الاختلاف، وبيان أنه ربما كانت هناك عشرة أسباب أساسية بالنسبة لتشكيل أسماء المواضع البحرية. (تنتج هذه الأسباب فى الجزر البريطانية عن نوع من الأسماء وتنتج فى أمريكا الشمالية عن نوع آخر). وأخيراً أود بيان أن الأسماء البحرية نادراً ما تتغير، ولكن حين يحدث التغيير يكون استجابة لمعايير محدودة.

وحين نلقى نظرة سريعة على خريطة العالم الجديد ندرك على الفور أن أسماء مثل "بوسطن" Boston و"أوكسفورد" Oxford و"نيو لندن" New London و"نيو هيفين" New Haven و"ترورو" Truru و"بريستول" Bristol و"كمبردج" Cambridge تحدد الأرض ومستمدة من أماكن فى الجزر البريطانية. بينما نجد أن مجموعة أخرى من الأسماء مثل "هاليفاكس" Halifax و"بالتيمور" Baltimore و"فورت ويليام" Fort William و"كوين آن" Queen Ann مستمدة من شخصيات نبيلة أو ملكية. وبهذا ، كبداية، نتوقع أن الأسماء البحرية هنا جاءت بنفس الطريقة. ولكن الأمر ليس كذلك. فحين نمر بأعيننا على خريطة الجزر البريطانية نلاحظ الأسماء "رو" Rhu و"مول" Mull و"هوك" Hook و"نس" Ness و"فورلاند" Foreland و"بيل" Bill - وجميعها أسماء تشير إلى رءوس بحرية. ونرى كذلك "هيفن" Haven و"هول" Hole و"لوخ" Loch و"ساوند" Sound و"ساندز" Sands و"ووتر" Water و"بانك" Bank . ويمكن أن نجد كذلك "آينيش" Inish و"بابا" Papa و"ستاك" Stack و"ستاج" Stag ، وعدداً من اللواحق مثل – head و –shear و – ay و – vore . ومن بين الخمس كلمات الأولى من هذه الكلمات تظهر واحدة فقط أو اثنتان على الخرائط الأمريكية. والواقع أنه ليس بين هذه الكلمات تقريباً ما هو مستخدم لتحديد أماكن فى أمريكا الشمالية، وعندما تستخدم فإن معناها يختلف بعض الشيء. فأنظمة التسمية الأمريكية عادة ما تكون رءوساً أو ألسنة ، مثل Cape Fear [ رأس الخوف ] أو Point-No-Point [ لسان بلا لسان ] أو Sankaty Head [ لسان سانكاتى ] . وملاجئ سفننا دائماً موانئ ومرافئ وشروم (جمع شرم)، ونادراً ما تكون فتحات أو حنيات. وإذا كانت المدن الأمريكية سميت بأسماء مدن إنجليزية، فلماذا لم يكن هذا هو حال البحار كذلك؟

جاءت أسماء البحار في العالم القديم من عصور عتيقة تعود إلى ما يزيد على الألف عام، وألقت تلك العصور القديمة بظلالها على معاني الأسماء. وبورتلاند بيل Portland Bill بالنسبة للبحّار البريطاني لها نكهة مميزة ووحيدة، وهي أشبه بطفل ينادي أباه بكلمة "بابا". ونرى الشيء نفسه في أمريكا حين يقول بحار على ساحل مين "كنا على بعد أربع ساعات جنوب شرقي الصخرة". فالكل يعرفون أن هناك "صخرة" واحدة ـ Mt. Desert [ الجبل الأجرد ] . ويرى البحار تغيير هذا الاسم ضربًا من الحمق.

كانت تواجه البحارة الأوائل في أمريكا مشكلة لم يسبق لهم مواجهتها في الوطن الأم. فقد كانت تترامى أمامهم قارة شاسعة بلا أسماء. ولكي يجعل هؤلاء الرجال الملاحة أيسر لمن يأتون من بعدهم، اضطروا للشروع في برنامج مكثف للتسمية. وبينما كانت الأسماء في الوطن الأم مشتقة في الغالب من التسميات الشعبية، فقد وضعها في العالم الجديد رجال محنكون إلى حد بعيد ـ وكانوا ملاحين مثل السير فرانسيس دريك Sir Francis Drake (*) وسير دي شامبلان Sieur de Champlain (**) والقبطان جون سميث John Smith (***) . وقد سعى هؤلاء الرجال في المقام الأول إلى تحديد العلامات البحرية الكبرى. وكشأن الرجال المحنكين الذين تولوا تسمية المدن في محاولة لتشريفها، حيث غيروا في إحدى الحالات اسم Shunk's Misery [ بخل شانك ] إلى Scrantonia بولاية بنسلفانيا (١) ، فقد أعطى هؤلاء البحارة الكثير من الأماكن الأكثر بروزًا التي قابلوها أسماء كريمة. ولهذه الأسباب نجد أن أسماء الأماكن في أمريكا الشمالية مختلفة عنها في الجزر البريطانية.

حين نضع في اعتبارنا أن المستوطنين الأوائل جاءوا من إنجلترا وأيرلندا وإسكوتلندا وويلز، يكون من الغريب في واقع الأمر أنهم لم يستخدموا نفس

(*) بطل بحري ومستكشف إنجليزي (١٥٤٠-١٥٩٦) كان أول إنجليزي يدور حول العالم في سفينة وكان نائب قائد الأسطول الذي دمر الأرمادا الأسبانية (١٥٨٨) (المترجم) .

(**) صموئيل شامبلان (١٥٧٦-١٦٣٥) مستكشف فرنسي أنشأ بورت رويال التي صارت أنابوليس رويال في نوفا سكوشا (١٦٠٥) وأنشأ مستعمرة في عام ١٦٠٨ على موقع كيبيك الحالية في كندا (المترجم) .

(***) مستكشف وكاتب إنجليزي (١٥٨٠-١٦٣١) كانت الخرائط والحسابات الخاصة باستكشافاته في فيرجينيا ونيو إنجلاند ذات قسمة كبيرة جدًا لمن جاء بعده من المستكشفين والمستعمرين (المترجم) .

المصطلحات القديمة مثل Inish التى تعنى جزيرة فى اللغة الأيرلندية، أو Mull التى تعنى شبه جزيرة فى اللغة الغيلية(*)، أو Bill ومعناها الحرفى المنقار فى الإنجليزية القديمة؛ أو بعض الكلمات الإسكندنافية التى كانت شائعة إلى حد كبير فى الجزر البريطانية مثل اللاحقة ay – التى تعنى ميناء. وقد لا تكون الإجابة الشافية عن هذه المسألة غير معروفة بالمرة، ولكن على أقل تقدير هناك إجابة جزئية تكمن فى حقيقة أن الأسماء البحرية علامات بارزة بالنسبة للبحّار. وكانت الأسماء الجديدة مفضلة فى الغالب على الأسماء القديمة لتحاشى الخلط والمساعدة فى تمييز العون المحدَّد أو العائق المعِين بالنسبة للملاحة. وقد نعثر على سبب آخر فى زمن تسمية الكثير من الأماكن فى الجزر البريطانية، التى غالبًا ما تعود إلى الكلتيين Celts (**) وإلى الغزاة الإسكندنافيين. وربما استخدم البحارة الإنجليز الذين وصلوا إلى مواضع لا اسم لها، أسماء شائعة لوصف المناطق الجديدة، وربما لم يكونوا ملمين بالمعانى الحقيقية للأسماء المحلية للأماكن.

وإذا نظرنا إلى الأسماء البحرية البريطانية لوجدنا نوعًا من المؤشر التراكمى للناس الذى كانوا فى وقت من الأوقات على الساحل. فقد اختفى البكتيون Picts (***) والكلتيون والإسكندنافيون، كما اختفى الفرنسيون والهولنديون والأسبان. ومع ذلك فإنه سواء أكانت إقامتهم عابرة أو طويلة، فإن لدينا شواهد على مرورهم فى أسماء مثل Spanish Point وGalley Head وOxford Ness وSkiport وSule Skerry وما شابه ذلك.

يبدو أن الأسماء البحرية الأمريكية تتبع النمط ذاته. فأسماؤنا القديمة هندية، وحُفظ بعضها فى الترجمة - مثل Cocoharbuks ومعناها "رأس البومة" - وهى الآن Owl's Head بولاية مين. واتبع الشىء نفسه مع كل الأسماء، وفى المقام الأول الأسبانية

(*) اللغة الكلتية فى أيرلندا أو إسكوتلندا (المترجم) .

(**) شعب هندوأوروبى موطنه الأصلى وسط أوروبا ثم انتشر إلى غرب أوروبا والجزر البريطانية فى عصور ما قبل الرومان (المترجم) .

(***) شعب قديم عاش فى شمالى بريطانيا ولم يتمن الرومان من هزيمته، وفى القرن التاسع انضم إلى الإسكوتلنديين ليشكلوا معًا مملكة صارت إسكوتلندا (المترجم) .

والفرنسية والإنجليزية، ولكن مع إدخال عدد ضئيل من الأسماء الهولندية والسويدية والألمانية وغيرها. وليس علينا سوى أن نتذكر "هسبانيولا" Hispaniola و"كيب سان فنسان" Cape St. Vincent و"أوتشي ريوس" Oche Rios من البحر الكاريبي، أو "باها كاليفورنيا" Baja California أو "كيب سابل" Cape Sable و"إل أو أو" Ils au Huat من نوفا سكوشا، أو مين و "ستاتن آيلاند" Staten Island و"بلوك آيلاند" Block Island .

يقودنا كل ما سبق إلى السؤال عن كيفية وجود تلك الأسماء ويجعلنا نتساءل إن كانت هناك أية قواعد قد وضعت كأسس إرشادية للتسمية. ويبدو أن الإجابة هي نعم. فالواقع أنه فيما يتعلق بالعالم الجديد يمكننا الوصول إلى بعض المحدِّدات الدقيقة بصورة كبيرة. فيبدو أن المستكشفين من أسبانيا وجنوب أوروبا كانوا يجدون متعة في تسمية الأماكن بأسماء القديسين، وهو ما يمكننا رؤيته بالنظر إلى خريطة ساحل كاليفورنيا وفلوريدا وجزر الهند الغربية. وكان الفرنسيون يبدون ميلاً نحو الأسماء المحلية أو نحو الأشخاص المعروفين للمستكشفين، مثل شامبرلان، أو نحو أشياء حدثت في المكان. ولكون الإنجليز من البروتستانت في وقت قدومهم، فقد ابتعدوا عن أسماء القديسين ومالوا ناحية تسمية الأماكن بأسمائهم وأسماء الرعاة في الوطن الأم.

وفيما وراء تلك التعميمات يمكننا الانتقال إلى أفكار أكثر تحديداً. فبما أن الجزر والصخور غالبًا ما تكون علامات بحرية للأغراض الملاحية، فقد كان من أهم طرق تسميتها تحديدها بعلامات بارزة. وقال شامبرلان: "رأيت جزيرة ذات سبعة جبال جرداء" - يقصد Mt. Desert بولاية مين. وقد سميت Gay Head [ ومعناها الرأس المرح ] بسبب صخورها متعددة الألوان التي تلمع في الشمس. وهناك High Island [ الجزيرة العالية ] وFlat Island [ الجزيرة المستوية ] وMud Island [ الجزيرة الطينية ] ) في نوفا سكوشا ). وهناك Spectacle Island [ جزيرة النظارة ] التي ربما سميت بذلك لأنها تتعرض للسراب أو تبدو كالنظارة. وفي إسكوتلندا لدينا Mull (جزيرة الرءوس) وبالقرب منها Skye (الجزيرة المجنحة). ونجد جزر Bald Head [ الرأس الأصلع ] وOne Bush [ الشجيرة ] وTwo Bush [ الشجيرتين ] . وهناك جزر Pond Island [ جزيرة البحيرة ] وIron Bound [ التي تطوقها الصخور والحجارة ] وPorcupine Islands [ جزر القنفذ ] - حيث تبدو لكل من يراها كأنها القنفذ الأم يتبعها صغيرها. وهناك الجزر "البيضاء"

و"السوداء" و"الخضراء". وبعيداً في الشمال تقع Rockall - وهي كتلة ضخمة من الصخر وسط البحر.

يلي ذلك في الأهمية ما يحدث في المكان. وهكذا فإن لدينا Stage Island [ جزيرة المنصة ] ، حيث كانت هناك منصات لتجفيف الأسماك؛ وهناك Deer Island [ جزيرة الغزلان ] وCormorant Rock [ صخرة الغاق(*) ] وSeal Ledge [ حيد الفقمة ] وDry Tortuga [ الجزيرة الجافة ] وDuck Cove [ شرم البط ] وSheep Island [ جزيرة الغنم ] Calm Cove [ الشرم الهادي ] وBass Rocks [ صخور القاروس(**) ] وMackerel Cove [ شرم الماكريل(**) ] وHake Ground [ أرض النازلي(**) ] وDogfish ledge [ حيد كلب البحر(**) ] .

هناك فئة تضم الأسماء المشتقة من صفات المكان ولكن دون أن تتعامل معها بنفس الألفاظ على وجه الدقة كالأماكن الأخرى. ففي الجزر الموجودة في البحر المقابل لإسكوتلندا نجد Compass Head [ رأس البوصلة ] ، وسميت كذلك بسبب الشذوذ المغناطيسي الموجود هناك. وربما سُمِّيَ Bloody Foreland [ الرأس الدامي ] بهذا الاسم بسبب الضوء الوردي المنعكس منه، مع أن هناك احتمالات أخرى سوف نذكرها فيما بعد. وتقع Halfway Rock [ صخرة منتصف الطريق ] بولاية مين في منتصف الطريق بين Cape Small [ الرأس الصغير ] وCape Elizabeth [ رأس اليزابيث ] . وWild Bellow [ الخوار الوحشي ] نتوء تحت سطح الماء على الساحل الغربي من أيرلندا ولا يبعد كثيراً عن [ Bull's Mouth فم الثور ] حيث المد القوي. وفي ترنيداد Trinidad مكان مشابه يسمى Serpent's Mouth [ فم الحية ] . وRoaring Bull [ الثور المزمجر ] صخرة قبالة مين. وتقع Overfalls Lightship [ منارة الأمواج المتكسرة ] وسط تيار مدٍّ قوي قبالة جزيرة Cape Sable Island [ رأس جزيرة الرمال ] في نوفا سكوشا، حيث يسير التيار بسرعة كبيرة. وأحد مداخل ميناء نيويورك عبر Hell Gate [ بوابة جهنم ] حيث يسير التيار بسرعة كبيرة تكفي لتهديد حتى السفن الكبيرة.

(*) طائر مائي ضخم نهم تحت مقاره جراب يضع فيه ما يصيده من أسماك (المترجم) .

(**) أنواع من الأسماك (المترجم) .

و Smutty Nose [ الأنف المهبب ] جزيرة يلفها الضباب معظم الوقت، ويقول البعض عن Squeaker Guzzle [ وتعنى sqeaker من يصدر عنه صرير أو صراخ ] الواقعة قبالة مين ، إن هناك ضجيجًا شديد الغرابة يلازمها. وBig Kettle Pool [ بِركة البراد الكبير ] فى جزر هيبريديز الخارجة Outer Hebrides بها جزيرة صغيرة فى وسطها حيث يحدث المد والجزر فقاقيع ويصدر صوتًا كصوت براد الشاى وهو على الموقد. ولذلك لا نستغرب أن الجزيرة اسمها Wizard Island [ جزيرة الساحر ] ، والبركة الصغيرة المجاورة لها اسمها Little Kettle Pool [ بِركة البراد الصغير ] .

وهناك فئة أخرى من الأسماء البحرية مشتقة من أسماء أشخاص عاشوا على قطعة بعينها من العقار أو امتلكوها أو استغلوها وغمرتها المياه أو غير ذلك. وتقع Goodwin Sands Lightship [ منارة رمال جودوين ] فوق ما كان فى يوم من الأيام جزيرة يملكها إيرل جودين Earl Godwine وكان يستخدمها كمزرعة فى القرن الحادى عشر. وفى بداية العصور المسيحية انتقل النُساك من أيرلندا إلى الجزر الغربية West-ern Isles فى إسكوتلندا وأقاموا الأديرة وسط الجزر الأبعد والأصعب فى الوصول إليها. ومن هذه الحركة جاءت أسماء Papa Westray [ الأب ويستراى ] وPapa Stour [ الأب ستاور ] وBarra (St. Barr's Island جزيرة القديس بار) وغيرها.

أعطى التاج البريطانى فى العصر الكولونيالى ما تعرف حاليًا بولاية مين إلى رجل اسمه السير فردناندو جورجيس Sir Ferdinado Gorges . وما إن امتلك منطقة مين حتى امتلك كل حقوق الصيد كذلك. وعلى بعد فراسخ عديدة شرقى مين وغربها تقع واحدة من أكثر أماكن الصيد ربحية فى أمريكا الشمالية، وهى مخاضة تسمى Georges Bank (وكان اسمها فى الأصل Gorges) . وفى خليج بلايموث Plymouth Bay بولاية ماساتشوستس تقع Clarke's Island [ جزيرة كلارك ] ، وكانت فى يوم من الأيام ملكًا لقبطان السفينة مايفلاور Mayflower . وأعطى ليون جاردنرLion Gardiner اسمه لجزيرة فى لونج أيلاند ساوند Long island Sound، وكانت Richmond Island بولاية مين ملكًا لرجل اسمه ريتشموند كان يمتلك "خانًا لا بأس به" هناك فى النصف الثانى من القرن السابع عشر. وCarver's Harbor [ ميناء كارفر ] وCrockett Cove [ شرم كروكيت ] بولاية مين، وDrake's Pool بأيرلندا (حيثما يقال إن السير فرانسيس

Sir Francis الشجاع اختبأ من الأسبان) قد سُميت جميعها كذلك لمثل هذه الأسباب، كما كان الحال بالنسبة لكل من Coggeshall Ledge [ حيد كوجشال ] وCox's، وهما أماكن صيد رائعة قبالة ساحل نيو إنجلاند.

في بعض الأحيان كذلك تسمي أماكن لأغراض ملاحية بحتة. فهناك Land's End [ نهاية الأرض ] وKintyre (نهاية الأرض باللغة الكلتية) وNorth Cape [ الرأس الشمالي ] وEast Port [ الميناء الشرقي ] وWset Port [ الميناء الغربي ] وSkiport (ميناء السفن) وNortheast Harbor [ الميناء الشمالي الشرقي ] وHrricane Hole [ فتحة الإعصار ] وSnug Harbor [ الميناء الهادي ] وNorth Sea [ بحر الشمال ] (ويسميه الألمان Mord See أي بحر القتل، بسبب رياحه العاتية) وThe Thread of life [ خيط الحياة ] بولاية مين. وتدخل ضمن هذه الفئة كل من Halfway Rock وCape Fear وElbow of the Cross في خليج دلاوير Delaware Bay . إلا أن هذه الأسماء تبدو أقل من حيث عددها مقارنة بغيرها من الأسماء.

من حين لآخر يرتبط بهذه الأسماء نوع من الفكاهة الساخرة التي تقتضي الترجمة في بعض الأحيان. ونحن نسير على ساحل نيو إنجلاند نرى Mistake Harbor [ ميناء الأخطاء ] و Bailey's Mistake [ غلطة بيلي ] وDeggart's Downfall [ سقوط ديجارت ] وMoll's Misery [ لسان البؤس ] (حيث يفترض أن سكيرًا عجوزًا سقط وهو يصطاد المحار وانكسر أنفه بينما كانت زوجته تولول على الصخرة الأخرى)(٢) . وهناك Boo Hoo Rocks وBarney's Joy [ فرحة بارني ] - وهي قطعة كئيبة من ساحل ماساتشوستس. وبالقرب من جزيرة الجبل الأجرد تقع صخرة تسمى Bunker's Whore [ عاهرة بانكر ] . وكان القبطان بانكر قائدًا شهيرًا لإحدى السفن الأهلية المستخدمة للاستيلاء على سفن الأعداء أثناء الثورة الأمريكية. وكان كذلك مولعًا بالنساء. وكان متيمًا في غرامه بإحدى بنات الجزيرة التي كانت تزوره على سفينته حين يكون قريبًا من الجبل الأجرد. وفي ليلة من الليالي كانت عائدة في قاربها فاصطدمت بالصخرة المذكورة وغرقت. ونسي الناس اسمها ولكن الصخرة تستعيد ذكرى مهنتها بالنسبة للعامة المتمسكين بالمعنى الحَرْفي.

يوجد فى جزر هيبريديز الخارجة شرم صغير. وكان رجل عجوز يحتفظ فيه بقارب وكان الجيران "يستعيرون" دائمًا "المركب الصغيرة". وفى كل مرة كان صاحب القارب يريده فيها، يكون شخص آخر قد أخذه. وأطلق الرجل على الميناء الصغير Port na striopaich أى شرم العاهرة، لأن القارب "كان يخرج دائمًا فى الليل". والتصق الاسم بالمكان. ولهذا السبب أصبح اسم الميناء Whore Boat Harbor [ ميناء المركب العاهرة ] (٤) .

وتقع قبالة روكلاند Rockland بولاية مين جزيرة أمضى عليها بحار ألقت به الأمواج ليلة بائسة باردة ممطرة . كان اسمها الأصلى Cold Arse Island [ جزيرة الحمار البردان ] (٥) . وإلى الشرق منها تقع Virgin's Teats [ حلمات العذراء ] ، وبها صخرة سوداء منخفضة تسمى Lecherous Priest [ القس الفاسق ] .

فى بعض الأحيان نجد أن هناك كذلك حكايات صغيرة وأناشيد ترتبط بهذه الأسماء. ففى خليج ناراجانست Narragansett Bay هناك عدد كبير من الجزر التى كانت فى يوم من الأيام ملكًا لعائلة بوتر Potter . وطبقًا لنشيد محلى فإن "الأمل والحكمة واليأس، والصبر العجوز الصغير موجود هناك". والشائع أن بوتر سمى تلك الجزر بأسماء بناته، حيث الرابعة Despair [ اليأس ] . وهناك قصة مشابهة تتعلق بأكبر جزيرتين من جزر إليزابيث، حيث تحكى كيف أن أبًا أعطاها لبناته. ولذلك أصبح اسم إحداها Martha's Vineyard [ كرْم مارثا ] ؛ وسميت الجزيرة البعيدة Nan Tuck it [ نان أخفتها ] (٦) .

إلا أن كل هذه الأسماء مجتمعة لا تضاهى فى شيء المجموعة الأخيرة. فهذه عادةً، وليس دائمًا، حواجز وعوائق للملاحة. وهى تكتسب أسماءها بطريقة صعبة - من المآسى البحرية. فعلى هذه العوائق كان يلقى بالقباطنة سيئى الحظ أو الذين يفتقرون إلى الحكمة والحصافة إلى الشاطئ ويفقدون كلاً من سفنهم وطواقمهم. وعادةً ما تحمل الصخرة اسم أول شخص أخفق عليها؛ وربما تنسى مآسى لاحقة أو أشد رعبًا من أجل أولى المآسى. وصحيح أن كل اسم بحرى تقريبًا له قصة من نوع أو آخر ترتبط به، ولكن حتى الآن نجد أن أكثر القصص إثارة، وكذلك أكثرها رعبًا، هى حكايات غرق السفن واليأس. ولا يخشى البحّار الريح العاتية فى عرض البحر ولا النار

ولا التصادم ولا الموت جوعًا ولا المرض نصف خشيته الصخور والحيود المتناثرة فى الماء على امتداد منحنى المائة فرسخ(*). وكانت محنة البحّار تتسم بالشدة حين تحبسه الريح فى شاطئ تهب فى اتجاهه، أو حين يخيم الضباب فيحجب الأصوات ويمنع الرؤية، أو حين ينهمر الثلج كثيفًا؛ بينما هو يتحسس طريقه إلى الميناء. وكان فى كثير من الأحيان ينجو من هذا كله، ولكن لم يكن من نصيب كثيرين أن ينجوا مرتين.

فى بعض الأحيان كان من السهل تحديد هذه الأسماء. ففيما بين جزر بلاسكت Blasket Islands والبر الرئيسى، حيث الأسماء جميعها أيرلندية، تقع Stromboli Rock [ صخرة سترومبولى ] . ويتحرك المد بقوة فى مضيق بلاسكت Blasket Sound وتصعب الملاحة. وبينما كان الطقس سيئًا، دخلت السفينة البريطانية سترومبولى المضيق واصطدمت فى الصخرة. ولابد أنها كانت تتحرك لأنها أوقعت الصخرة حين اصطدمت بها، ولكنها خلعت قاعها كذلك. ويظهر المكان الذى كانت الصخرة تقف فيه على الخرائط باسم صخرة سترومبولى. ونجد فى مكان أبعد على ساحل أيرلندا Galley Head [ رأس القادس(**) ] حيث جنح قادس أسبانى على الشاطئ بينما كان يحاول استعادة أسبانيا بعد الفشل الكبير فى المانش English Channel . وفى إسكوتلندا نجد Jemimah Rock [ صخرة جيميما ] ـ وهو اسم أمريكى ـ قبالة جزيرة كانا Isle of Canna حيث الأسماء فى أغلبها كلتية، وقبالة ساحل نوفا سكوشا، هناك Brazil Rock [ صخرة البرازيل ] حيث اصطدمت بها باخرة وفقدت. وتميز مخاضة روز وكراون Rose and Crown Shoal قبالة الجانب الخلفى من كيب كود Cape Cod البقعة التى فقدت فيها اثنتان من السفن الحربية البريطانية فى يوم عاصف، وكانتا تحملان الاسمين H.M.S. Rose و H.M.S. Crown . وفى يوم لطيف كانت أكبر سفينة فى العالم، واسمها The Great Eastern، تشق طريقها بصعوبة فى مضيق لونج آيلاند Long Island Sound . وعلى مسافة غير بعيدة من مقبرة السفينة الإنجليزية سيريباص H.M.S. Cerebus (مخاضة سيريباص Cerebus Shoal) اصطدمت بصخرة وتحطم جزء كبير

(*) الفرسخ حوالى ٤.٨ كيلومتر (المترجم) .

(**) سفينة كبيرة ذات مجاديف (المترجم) .

من قاعها، مما كشف عن عاملى البرشام اللذين سبق ذكرهما. ولا تزال الخريطة تشير إلى صخرة الشرقى العظيم Great Easten Rock الموجودة على مسافة ثلاثين قدماً تقريباً تحت سطح البحر.

ليس من النادر أن يتمخض اسم عن اسم آخر؛ ولذلك فإننا نجد أن هناك Old Man [ العجوز ] و Old Woman [ العجوزة ] ، وكذلك Green Island [ الجزيرة الخضراء ] وبجوارها Little Green Island [ الجزيرة الخضراء الصغيرة ] . وقبالة مين نجد Horse Island [ جزيرة الحصان ] وColt Island [ جزيرة المهر ] المصاحبة لها. وفى أيرلندا، حيث يبدو أن الناس هناك يحبون تسمية الأماكن بأسماء الماشية، نجد بعض أسماء الأماكن اللافتة للانتباه: فهناك "فم الثور" الذى ذكرناه من قبل ويقع فى خليج بلاكسود Blacksod Bay حيث يتحرك المد بسرعة كبيرة، وإلى الجنوب من الساحل نصل إلى "الخوار الوحشى". وبالقرب منه هناك "الخوار الخافت" Sunk Bellow و"الخوار" Bellow . وإلى الجنوب من ذلك نصل إلى Bull [ الثور ] و Cow [ البقرة ] وCalf [ العجل ] و Heifer [ ومعناها الشبّة، أى البقرة التى لم تلد قط ] - وهى جزر صغيرة جميلة المنظر ولكنها شديدة الخطورة. (وهذه الجزر الصغيرة تكاد تكون آخر كتل اليابسة غرباً فى أوروبا وكانت تسمى فى يوم من الأيام "جزر الموت"، حيث تتوقف كل الأرواح عندها لبعض الوقت وهى فى رحلتها الأخيرة إلى العالم الآخر.)

ويمكن ملاحظة اسم أخير من مرفأ جلاندور Glandor، حيث نجد جزيرتى آدم وحواء. ويقول البحارة إنه عند دخول الميناء، الذى تكثر فى مدخله العوائق، "يمكنك الدخول بيسر حين يكون آدم فوق حواء" - وهم يعنون بذلك أنه حين تكون الجزيرتان على خط واحد لا يعوق دخول الميناء شىء.

وعموماً فإن الأمريكيين يستخدمون نفس هذه الأساليب فى التسمية، إلا أن تراكيبهم تفتقر إلى الخيال إلى حد كبير. فمع أن لدينا Brenton's Reef [ حاجز برنتون ] و Brenton's key [ مفتاح برنتون ] عند مدخل خليج ناراجانست، وحواجز Sow [ الخنزيرة ] وPigs [ الخنازير ] وHen [ الدجاجة ] وChickens [ الكتاكيت ] التى تسد تماماً مدخل خليج الصقور Buzzards Bay، فإن عدداً كبيراً من تراكيبنا أسماء تتعلق

بالاتجـاهـات مـثـل East and West Hue [ اللون الشـرقى واللـون الغـربى ] وEast and West Cry [ الصـرخة الشرقية والصـرخة الغربية ] وWest Brown Cow [ البقرة البنية الغربية ] .وتتفوق نوفا سكوشا بسبب جزيرتى Limb وLimb's Limb (وهما كناية عن الشيطان والعفريب.)

إلا أن الأسـماء ليست جميعهـا على هذا الـقدر من سهولة فهمها. وهناك اسمان أو ثلاثة أسماء يمكن ذكرها. فعلى مقربة مدخل خليج تشيسابيك تقع Wolftrap [ فخ الذئب ] .ولا يكون لهـذا الاسم أى معنى حتى نعرف أن السفينة البريطانية H.M.S. Wolf [ ومـعناهـا الذئب ] جنحت هناك فى وقت سابق من التاريخ. وقبـالة شـاطئ رود آيلاند تقع Noble Biting [ العض النبيل ] حيث توجد أسماك التوتوج blackfish بأعداد ضخمة. وعلى جزيرة المخاضات Isle of Shoals توجد Money Rock [ صخرة المال ] . ففى إحدى الليالى التى كان الطقس فيها شديد السوء كانت إحدى السفن تسير على غير هدى بينما الجليد ينهمر بشدة واصطدمت بالصخرة بقوة رهيبـة أدت إلى فتح الخزينة، ويقال إن السكان وجدوا فى اليوم التـالى - إلى جانب الجثث المتجمدة عند أعتاب دورهم - عملات معدنية فوق الصخرة.

تكون لتلك الأسماء فى بعض الأحيان ما يمكن تسميتها حكايات هامشية ترتبط بها تساعد على تذكرها - أو تشرح للناس ما بات غير مفهوم لهم. وتقع Monhegan Island (وتعنى الجزيرة البعيدة بلهجة بينوبسكوت Penobscot (*)) قبالة ساحل مين. وتقول حكاية إن رجلاً إنجليزياً اختفى منذ سنوات كثيرة وكان هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنه موجود على الجزيرة. استؤجر الهنود للبحث، وبعد أن مشطوا الجزيرة دون فائدة، قال أحد الهنود لرجل أبيض: "Man he gone." [ أى لقد مات الرجل ] . وفى خليج ميدانكوك Meduncook Bay القريب يقال إن هندياً أسقط براد الشاى الخاص به من على السفينة وقال بأسف وأسى: "me done cook" [ أنا الذى فعلتها يا طباخ ] (٧) . ومنذ عدة سنوات مضت روى لى بحار عجوز أن سفينة إنجليزية عليها

(*) شعب من سكان أمريكا الأصليين يسكن خليج بينوبسكوت ووادى نهر بينوبسكوت فى ولاية مين (المترجم) .

ضابط بحرى هولندى كانت تقترب من نيويورك فى الضباب. صاح المراقب قائلاً: "وصلنا البر." فسأله الضابط البحري: "S tat an island?" [ هل هذه جزيرة؟ ] وقال لى الإخباري: "ومن وقتها وهى تعرف باسم جزيرة ستاتن Staten Island . "

حدث ذات مرة منذ زمن بعيد أن كانت هناك امرأة عملاقة، وكانت تسمى فى بعض الأحيان الجنية الشريرة أو الساحرة الشمطاء. ويقال إنها كانت تقف فوق مدخل الطرف الشمالى للبحر الأيرلندى حيث تضع قدمًا فى كيلمورى Kilmorey فى أيرلندا والقدم الأخرى فى كاريك Carrick فى إسكوتلندا. وكلما حاولت إحدى السفن المرور من تحتها كانت تلقى عليها حجراً وتغرقها. وحينذاك كانت تأكل الطاقم. وفى يوم من الأيام وبينما كانت واقفة هناك لمحت سفينة فرنسية، ولكن القبطان استطاع توجيه سفينته بمهارة بحيث جعل الصارى الثالث فى المؤخرة يدغدغ عضوها التناسلى فألقت بالحجر فى المياه الضحلة، واستطاع الفرنسي الهرب. والصخرة التى ألقت بها هى Ailsa Craig (٨) .

حين ينظر الإنسان إلى الخريطة فإنه دومًا يرى أسماء لا معنى لها ضمن أية فئة من الفئات التى حددناها حتى الآن. وقد ذكرنا "فخ الذئب". وتوجد منطقة ضحلة قبالة ساحل نيو إنجلاند الجنوبى اسمها Sheep Pen [ حظيرة الغنم ] ـ حيث يمكن اصطياد كميات وفيرة من أسماك sheepshead [ رأس الغنم ] . وعلى الجانب المقابل من القارة نجد ثلاثة أسماء توضح هذه النقطة، وهى Cape Disappointment [ رأس الإحباط ] وDesolation Bay [ خليج الفراغ ] وCape Venerable Bede [ رأس بيد المسكين(*) ] . أما الأول والثانى فقد سماهما القبطان ميفز Captain Meaves كى ينفس عن شعوره بالإحباط لعدم تمكنه من تحديد موقع النهر الأسطورى Martin de Aguilar، وسمى الثالث القبطان كوك Captain Cook كى يبين للعالم أن الإنجليز بإمكانهم تكريم رجال الدين بنفس السهولة التى يخلد بها الأسبان قديسيهم فى بلاد بعيدة عن موطنهم (٩) .

(*) بيد المسكين أو Venerable Bede هو القديس بيد، وهو راهب إنجليزى عاش فى القرنين السادس والسابع الميلاديين، وكان كذلك مؤرخًا ومن علماء اللاهوت وكتب تاريخ إنجلترا القديم (المترجم) .

نقابل فى بعض الأحيان أسماء أماكن لم تكن موجودة فى يوم من الأيام. وعادة ما تكون هذه الأسماء من اختراع المستكشفين الأوائل الذين إما أنهم لم يفهموا ما كان السكان الأصليون يقولونه لهم، أو أن إخبارييهم كانوا يخدعونهم. فقد حكى كابيثا دى فاكا Cabeza de Vaca (*) للعالم عن مدن ثيبولا Cíbola الذهبية السبع، وسواء لمقابلة تلك الحكاية بحكاية أخرى، أو من خلال سوء الفهم الواضح، تخلى المستكشفون فى الشمال عن البحث عن فاينلاند Vineland وجروا وراء نوريمبك Nourembec مدينة العاج والفراء الأسطورية، التى يبدو طبقًا لأحسن الروايات أنها تقع على شاطئ نهر يصب فى رأس خليج به جزر كثيرة. وكان موقع ذلك الخليج فى مكان ما بين دائرتى عرض ٣٨ و٤٥ شمال خط الاستواء على ساحل أمريكا الشرقى. وعلى امتداد هذه المسافة المتواضعة التى تبلغ ٤٢٠ ميلاً وتقع على خط مستقيم، يمكن للمرء إلى حد كبير أن يختار من بين مائة "موقع تنطبق عليه هذه الأوصاف بدقة".

روى لى صياد فى إسكوتلندا منذ فترة قريبة حكاية على نفس القدر من عدم المصداقية، ولكنها حكاية حديثة إلى حد ما. وهو لم يذهب قط إلى هناك، ولكنه سمع من مصدر موثوق به أن قبالة ميناء كينسيل Kinsale فى أيرلندا تقع صخرتان، إحداهما صغيرة والأخرى كبيرة. وكان مكتوبًا عليهما باللاتينية "نحن صخور البؤس، فابتعد عنا بحق المسيح". وقال الصياد: "هذه هى البقعة التى غرقت فيها السفينة تيتانيك وفقد فيها المئات من الناس."

وهذه قصة صغيرة لافتة للانتباه. فقبالة كينسيل تقع صخرتان - إحداهما أكبر من الأخرى - ويطلق عليها the Great Sovereign [ الملك الكبير ] وthe Little Sovereign [ الملك الصغير ] .وذكر سيموس أونيل Seamus O'Neill من البلدة أن ملك كينسيل فى العصور الغابرة كان يقف على الصخرة الكبرى ويرمى بالسهم ناحية البحر فى أوقات محددة. وكانت المسافة التى بين الصخرة وسقوط السهم تحدد حدود ملكه. وعلى بعد

(*) مستكشف أسبانى ولد فى نهاية القرن الخامس عشر. وبعد نجاته هو وثلاثة من رفاقه فى الحملة التى كان يقوم بها فى فلوريدا بعد الهجوم الذى شنه عليهم الأسبان، ذهب إلى نيو مكسيكو حيث رووا حكايات مبالغ فيها عن مدن ثيبولا الذهبية السبع (المترجم) .

بضعة أميال من تلك الصخرتين تلقت السفينة لوزيتانيا Lusitania طوربيداً وغرقت مخلفة خسارة كبيرة فى الأرواح، وعجلت بدخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى. ويروى لنا ديفيد طومسون David Thompson(*) فى People Of the Sea [ أهل البحر ] أن صيادين أيرلنديين اصطادا قبالة تلك الصخرتين ملك كل أسماك الماكريل - وكان سمكة يزيد وزنها على الخمسمائة رطل وكانت تحظى باحترام صديقاتها ذوات الزعانف(١٠). ويخبرنى جون لورن كامبل John Lorne Campbell أن سمكة الماكريل هذه كانت فى الحقيقة سمكة تونة. إلا أن المهم هو أنه يبدو من المؤكد أن تلك الصخرتين - التى لابد أن الفينيقيين كانوا يعرفونهما - كانتا تتمتعان بخاصية سحرية لاجتذاب الحكايات.

ما إن "تُعمَّد" بقعة من البقع ويعطى لها اسم فمن غير المحتمل إلى حد كبير أن يتغير هذا الاسم مهما كان يفتقر إلى الخيال ومهما كانت ضخامة أى حدث يقع فى تلك البقعة فيما يلى من سنين. وربما كانت هذه هى النقطة التى يختلف فيها أسلوب التسمية والأسماء على اليابسة أشد الاختلاف. فربما تتغير Pigeon Roost [ مجثم الحمام ] إلى "وين" Wayne على اسم وطنى أمريكى مصاب بالبارانويا، وربما غيَّر الباعة الجائلون المحليون أسماء الموانئ أو الرءوس لأسباب تجارية أو وطنية - مثل تغيير Holmes' Hole [ فتحة هولمز ] إلى Vineyard Haven [ مرفأ الكَرْم ] ؛ أو Hering's Gut [ مصران الرنجة ] إلى Poort Clyde [ ميناء كلايد ] ؛ أو Rougue's Point [ رأس الشارد ] بولاية ميريلاند إلى Rhode's Point [ رأس رود ] .ومؤخراً غير المستثمرون العقاريون اسم Prune Island [ جزيرة القراصيا ] فى جزر الهند الغربية إلى Palm Island [ جزيرة النخيل ] ، اعتقاداً منهم بأن الاسم سوف يجتذب المزيد من الضيوف الأثرياء. إلا أنه ليست كل محاولات تجميل الأسماء وتحسينها يكون النجاح حليفها، فطبقًا لما يقوله جون لورن كامبل فإن اسم جزيرة مك Muck Island فى جزر هيبريديز - التى تعنى فى اللغة الكلتية الخنزير أو الحوت (خنزير البحر) - غُيِّر إلى Monk's Island [ جزيرة الراهب ] ، إلا أن التغيير قوبل بمقاومة.

(*) مستكشف كندى (١٧٧٠-١٨٥٧) تتبع نهر كولومبيا حتى منبعه (١٨١١) ووضع خريطة لمعظم أجزاء كندا الغربية (المترجم) .

خرج الشاب أنطونى كوليمور Anthony Collimore من سيتشوات Scituate بولاية ماساتشوستس فى عام ١٦٩٣ متجهًا إلى Marblehead [ رأس الرخام ] . ولم يكن قد سار كثيراً حين داهمته عاصفة وانقلب القارب وغرق بالقرب من مجموعة من الصخور أطلق عليها منذ ذلك الوقت جزر كوليمور Collimores . ومنذ عام ١٦٩٣ كان هناك المئات من السفن الغارقة قبالة سيتشوات. والواقع أن الكثير من السفن فقد فى المنطقة حتى إن منارة مينوت بنيت فى محاولة لتحذير السفن. وغرق الكثير من السفن والرجال فرادى وجماعات فى جزر كوليمور هذه منذ ذلك اليوم، ولكن الاسم باق ولم يتغير. والواقع أن منارة مينوت لها قصة ترتبط بها أكثر ديناميكية من اسم المستوطن القديم الذى زينها - وسوف نتناولها فى موضع آخر.

تقع قبالة ساحل مين جزيرة أسموها جزيرة تشامبلين أو أوChamplain Isle au Haut، إلا أن الخرائط القديمة والكثير من السكان يشيرون إليها باسم Isle O'Holt . ومنذ سنوات عديدة كان لنش يقطر طوفًا من جذوع الأشجار أمام الشاطئ حين هبت الريح وانفلت الطوف وألقت به الأمواج على شاطئ تغطيه الحصباء لم يكن قد سُمِّى بعد. وبعد ذلك الحدث سُمِّى الشاطئ Boom Beach [ شاطئ الطوف ] . وروى لِس جرانت Les Grant من "جزيرة أو أو" الحكاية السابقة وأضاف حكاية أخرى وقعت أحداثها بعد ذلك ببضع سنوات:

**خرجت السفينة الشراعية نيلى إى بيرنز Nellie E. Burns وكانت تقوم بصيد الأسماك فى أواخر موسم الخريف. كانت السماء صافية، وكانت الرؤية واضحة بحيث يمكنك الرؤية حتى ماتينكاس Matinicus ولكن فجأة هبت ريح عاتية آتية من الشمال الغربى وفقدت السفينة القارب المصاحب لها. بدأ الشخص الذى فى القارب يجدف كى يصل إلى الميناء ولكن الريح ظلت تهب وظل هو يسير وتوقف أمام اللسان ولم يكن أمامه سوى مائة ياردة ليصل إلى الشاطئ حين هبت الريح بقوة شديدة لا يقف أمامها أى إنسان ورأى هو أنه لن ينجح فى الوصول ولذلك حاول النزول على "الأذن الشرقية" لهيد هاربر Head Harbor - تحرس جزيرة أو أو جزيرتان صغيرتان تعرفان باسم الأذن الشرقية والأذن الغربية - ونزلت الثلوج كثيفة ومات. وفى اليوم التالى شاهدوا السفينة تسير وعلمها منكس وعرفوا أنها فقدت رجلاً.**

وبعد حوالى أسبوع ذهب الناس هناك إلى نزهة على شاطئ الطوف وقرر شخص أن يتجول عند الأنف الشرقية فرأى مقدمة قارب بارزة لأعلى ونظر فرأى رجلاً محشوراً رأسه فى أخدود فوق مياه المد مباشرة. كان عارياً تماماً وليست عليه أية علامة وكان الحرفان W.C . موشومين على ذراعه. جاءوا به إلى الكنيسة وحين استطاعوا دفنوه وأقاموا عليه شاهداً من الحجر يحمل الحرفين .W.C، وبعد عام تقريباً جاءت فتاة صغيرة تسأل إن كان أحداً قد رأى الرجل الذى كانت ستتزوجه ولكنه تاه فى قارب صغير. كان اسمه ويليام كراودى William Crowdy وكان الحرفان الأولان من اسمه موشومين على ذراعه. أخذوها وأروها الحجر الصغير ورحلت وفى العام التالى أرسلت زوجاً من الخيل وعربة وأخرجوه وذهبوا به إلى مكان ما (١١) .

هذه نهاية كراودى ـ لا بل أذن كراودى، أو حصباء كراودى أو شاطئ كراودى بدلاً من شاطئ الطوف. ومع أن حكاية كراودى مأساة قديمة، فهى ليست كافية لتحريك الناس كى يغيروا اسماً.

تتغير الأسماء فى البحر، ونادراً ما يكون هذا صحيحاً، ولكنه من الكثرة بحيث يجعلنى أحاول تقديم بعض أسبابه.

وكانت الأسماء الأكثر تغييراً هى تلك التى أعطاها المستكشفون فى البداية لبعض المناطق. وكانت مواقعها من الغموض وعدم الوضوح بحيث لا يمكن تحديدها على الخريطة، وغالباً ما كانت الأسماء لا تعنى الكثير أو لا تعنى شيئاً بالمرة بالنسبة للمسافرين اللاحقين. فقد سمى جون سميث مكاناً Cape Tragabigzanda على اسم إحدى الراعيات التركيات. وإذا كان يعنى شيئاً لأى إنسان فهو يشير إلى إطلاق اسم همجى على رأس تطهرية Puritan . وتغير الاسم إلى كيب آن Cape Ann . وهناك مكان آخر أسماه Smith's Isles [ جزر سميث ] ، ولكن بسبب قاع البحر المحيط بها، سرعان ما صارت Isles of Shoals [ جزر المخاضات ] ، وأصبحت البلدة الصغيرة التى هناك تحمل اسم Appledore . لقد كان حظ سميث سيئاً فى الأسماء.

من الأسباب الأخرى لتغيير الأسماء القديمة تكرار اكتشاف أكثر من مستكشف لنفس البقعة فى أوقات لا تبعد كثيراً عن بعضها. وربما جرى تغيير الاسم بناء على

الأحداث اللاحقة. فقد أطلق شامبلان على إحدى المناطق اسم Bai des Isles [ خليج الجزر ] وعلى أخرى Cape Malebarre [ رأس مالبار ] . وفى وقت لاحق أطلق جون سميث على الرأس اسم Cape Cod [ رأس القُد ] وحين وصل الإنجليز أطلقوا على المكان الآخر اسم Massachusetts Bay [ خليج ماساتشوستس ] - فيما يبدو تفضيلاً للاسم الهندى على الاسم الفرنسي. ويأتى تفسير أدبى للاسم الثانى من مصدر يعود إلى القرن التاسع عشر يخبرنا أن الذى سماه عبد زنجى. فحين سئل العبد إلى أين هو ذاهب، رد قائلاً: "I go where massa go. I go where massa choose it." [ أنا ذاهب حيثما يذهب السيد. أنا ذاهب حيثما يختار السيد ] (١٢) .

وكثيراً ما كانت الكلمات تختلط أثناء النقل الشفاهى. فقد أصبحت Bare Island [ وتعنى الجزيرة العارية ] Bear Island [ ومعناها جزيرة الدب ] فى وقت لاحق، وربما تتغير Stage Island [ جزيرة المحطة ] إلى Stave Island [ جزيرة ضلع البرميل ] . وأصبحت Golden's Island [ جزيرة جولدن ] و Rhode Island [ جزيرة رود ] Gould Island وأخيراً أصبح Talent's Harbor بولاية مين Tenants . وفى لوخ سويلى Loch Swilly بأيرلندا الشمالية يقع Scraggy Bay [ ويعنى الخليج الوعر ] ، وهو لم يسم بهذا الاسم لأنه مكان غير مستوى، بل لأن الشاطئ تكثر فيه الأشواك scraggs . وكثيراً ما تساعد الحواجز اللغوية على إرباك الناس فى هذا الخصوص. فقد أطلق شامبلان، الذى كان يحب تسمية الأشياء لصفات لاحظها فيها، على أحد الموانئ اسم Brune Côte [ ومعناها بالفرنسية شاطئ الغروب ] ، ولكن سرعان ما غُيِّر الاسم إلى Burnt Coat Harbor [ أى ميناء المعطف المحترق بالإنجليزية ] . وقبالة فلوريدا هناك جزر صغيرة سماها الأسبان Cayos، وغالباً ما تصبح Keys [ أى المفاتيح بالإنجليزية ] .

تقع فى هيلزبورو هاربر Hillsboro Harbor فى كارياكو بجريندادا جزيرة جاك أ دان Jack A Dan Island أو بار Bar . ولا يبدو أن أحداً يعرف سبب إطلاق هذا الاسم الشائع على الجزيرة الصغيرة، إلا أن خريطة قديمة تذكر هذه البقعة باسم Jack Adam . وحين ندرك النطق المفرد الخاص بالسكان المحليين نفهم الاسم بسهولة. فهم عادة ما يضغطون على القطعين الأول والأخير من الكلمة مع إدغام الحروف الأخيرة. ومن ثم فإنه حين تغرق سفينة يقولون إنها "go bottome"، وعند الحديث عن الجزيرة يقولون "Jack A. Dan" (١٣) .

كانت السفن المتجهة إلى جلوسستر Gloucester قادمة من جراند بانكس Grand Banks عكس الريح الجنوبية الغربية السائدة تجد نفسها فى اتجاه ريح كيب آن، وكانت حين تصل نقطة معينة يحين وقت تغيير المسار. ومن هنا أصبح اسم الرأس Haulabout Point [ رأس تغيير المسار ] .وهى تكتب على الخريطة Halibut Point [ أى رأس القفندر، وهو سمك مفلطح ضخم ] .

ومن اللافت للنظر عند الحديث عن رأس هاليبات ملاحظة أن هناك اسمًا شديد الشبه موجود فى أيرلندا. وداخل روتشز بوينت Roaches' Point فى الطريق إلى كورك Cork نمر على جزيرة كانت تضطر عندها السفن ذات الأشرعة المربعة إلى تغيير مسارها. وتسمى هذه الجزيرة Haulbowline Island [ جزيرة الإبحار عكس اتجاه الريح ] ويمكن اللبس بين المصطلح haul about الذى يعنى تغيير مسار السفينة الشراعية وبين halibut، إلا أنه من الصدفة أن haulbowline لا تستسلم بسهولة للتقليل من شأنها.

قد يكون الأشهر من بين كل الأسماء الملتبسة هو اسم صخرة فى جزر الهند الغربية. فإلى الشمال تمامًا من جزيرة جرينادا يقع ممر، وفى وقت من الأوقات كانت السفن الشراعية تستخدمه كثيراً، وكانت تلك السفن تعوقها صخرة وعرة كبيرة يلتطم بها البحر بشدة. وأطلق الفرنسيون عليها Caye qu'en gêne وهو ما يعنى على وجه التقريب "الصخرة البارزة التى تعوق السير". وبعد مغادرة الفرنسيين، أدغم السكان المحليون الاسم وأعطوه طابعًا إنجليزيًا ليصبح Kick-em Jenny [ أى ارفسهم يا جنى ] [١٤] .

تلتبس الأسماء والمواقع من حين لآخر وينُقل الاسم إلى موقع آخر. فأثناء استكشاف خليج تشيسابيك، قفز القبطان جون سميث من أحد القوارب وهو حافى القدمين فنزل على سمكة من الراى اللسَّاع stingray (*) تهورت وغرزت شوكتها فى ساقه. كان ذلك عملاً أحمق من جانب السمكة، لأن سميث لم يكن رجلاً عاديًا. وبدلاً من

(*) سمكة بحرية مفلطحة لها ذيل أشبه بالسوط مسلح بشوكة طويلة منشارية عند قاعدتها غدة سم (المترجم) .

أن يحاول سميث تخليص نفسه من السمكة، ثبتها فى القاع بقدمه واستل سيفه ومزقها إرباً وأكل بضع شرائح منها نيئة. وأصبح الموقع الذى شهد هذه الميلودراما Sting Ray Island [ أى جزيرة الراى اللساع ] ، إلا أن الموقع نُقل، مثل Plymouth Rock، ويطلق الاسم الآن على رأس الراى اللساع Sting Ray Point .

هناك مثال تقليدى لتلك الأخطاء ظهر للنور مؤخراً فى اسم أبعد جزيرة ناحية الغرب من جزر أوروبا، وهى جزيرة القديسة كيلدا St. Kilda . فقد ظل الناس سنوات يظنون أن الجزيرة أخذت اسمها من شخصية مقدسة كانت تعيش هناك. ولكن ما يؤسف له أن سير القديسين لم تحيى ذكرى القديسة كيلدا. وأظهر المزيد من البحث والدراسة أن كاتباً لسير القديسين فى القرن السادس عشر وقع فى خطأ. وزاد كُتَّاب سير القديسين اللاحقين الطين بلة بنقلهم موقع الخطأ الأول لمسافة خمسين ميلاً تقريباً ناحية الغرب وقليلاً إلى الشمال. وكتب اسم جزيرة سكيلدار Skildar (ومعناها الدروع بالنرويجية القديمة) الواقعة على بعد بضعة أميال إلى الغرب من جزر هيبريديز على الخريطة على أنه S. Kildar ونقل من على مجموعة الصخور الأصلية إلى صخرة أكبر إلى الشرق. ووضع حرف t محل النقطة وأسقط حرف r وكانت النتيجة St. Kilda (١٥) .

غرقت سفينة اسمها the Londoner [ اللندنى ] عند جزر المخاضات Isles of Shoals . وفى جلوسستر، على بعد ثمانية عشر ميلاً، هناك صخرة تبدو وكأنها تندفع إلى داخل البحر. والآن توجد الجزيرة المندفعة Lunging Island ضمن جزر المخاضات، أما The Londoner فهى قبالة جلوسستر.

نكتفى بما ذكرناه حتى الآن فى إطار الجزء الخاص بالتسمية. ويمكن الحصول على قدر أفضل من التسلية من خلال رواية حكايات من مناطق عشوائية كى نبين إلى حد ما الأفكار التى شرحناه هنا. إلا أننا حين نسجل الأساطير لابد ألا ننسى حقيقة أن الأسطورة أو الحكاية حين يستخدمها الناس لا تكون مجرد طريقة ذكية لتسلية جمهور من السذج الذين يفتقرون إلى الفطنة. فعادة ما تستخدم الأسطورة لطبع حقيقة ما فى ذهن المستمع. قد تساعد الحكاية المستمع على تذكر اسم بعينه وحسب، أو ربما كان الغرض منها هو أن تطبع فى ذهن المستمع ما تتضمنه من صفات المكان

أو الخطر الذى يواجه الملاحة. وعادة ما يصدق هذا السبب الأخير حين تكون لدينا حكايتان أو ثلاث حكايات يتداولها الناس عن نفس المكان. ولنأخذ حكاية عن صخرة الليدى Lady Rock فى مضيق مول Sound of Mull بإسكوتلندا. والواقع أن هناك روايتين حول أصل الاسم جمعتا من مكانين يفصل بينهما حوالى سبعين ميلاً، وأظن أنه من المثير إلى حد ما تسجيل الروايتين بغرض المقارنة. ولأسباب واضحة لم نورد اسمى الإخباريين، وأولهما من كرينان Crinan بإسكوتلندا، والثانى من جزيرة مول. هذه هى الرواية الأولى:

منذ سنين مضت كان هناك شخص اسمه ماكلين McClean من لوخ بوى Loch Buie ثم كان هناك ماكلين من دوارت Duart وكذلك ماكلين من أردجور Ardgour . كان هناك ثلاثة يسمون ماكلين. وكان لدى دوق أرجيل Argyll سبع بنات وآل ماكنيل MacNeil هم العشيرة الرئيسية فى بارا Barra . تزوجت واحدة من بناته ماكنيل البارى - ولديهم حصن كيسيمول Kisimul - ويذهب إلى كندا ويحقق ثروة كبيرة ويعود وينفقها كما يقولون - وبعد ذلك تتزوج ابنة أخرى ماكلين الدوراتى - ويبدو أنه كان شديد السوء معها، ولكى يتخلص منها ذهب أخيراً وأخذها فى قارب ووضعها على جزيرة الليدى - وهذا هو السبب فى أن جزيرة الليدى تسمى جزيرة الليدى - وهى صخرة قبالة رأس دورات، جنوبًا بين رأس ليزمور Lesmore Point ودوارت - سوف تعرفها من على الخريطة. كان المد سيأتى ويغرقها، ولكن قبل أن يأتى المد مباشرة، جاء شخص وأنقذها - وعادت إلى بيتها عند دوق أرجيل وهذا هو ما أوجد العداوة بين ماكلين الدوراتى ودوق أرجيل.

وهذه هى الرواية الأخرى :

تزوج أحد لوردات حصن دوارت ابنة ليرد(*) أرجيل Laird Argyll . كانت من عائلة كامبل Campbell . وعندما وجد ماكلين أن زوجته لن تأتى له بوريث وضعها

(*) لقب مُلاّك الأراضى فى إسكوتلندا (المترجم) .

**على صخرة فى منتصف المد فى مضيق مول فى مكان غير بعيد عن الحصن، حتى إذا ارتفع أغرقها. وبعد أن جاء المد وذهب ماكلين كتب إلى دوق أرجيل وأخبره أن ابنته وقع لها حادث مؤسف بينما كانت تصطاد السمك وغرقت. دعا الدوق ماكلين إلى العشاء وجاء ماكلين وحكى تفاصيل الحادث. وبعد ذلك ذهبا إلى العشاء ومن ينبغى أن يجلس على يمين الدوق سوى الفتاة "الغارقة". كان قد أنقذها صياد قبل أن تغرق مباشرة وأعادها إلى والدها.**

**من الواضح أن والد الفتاة لم يهتم كثيراً بها لأنه لم يفعل شيئًا من أجلها فى ذلك الوقت وبعد ذلك عادت الفتاة إلى حصن دوارت وبدا أن الأمور تسير مثلما كانت من قبل. وبعد عشر سنوات قتل شقيق الفتاة ماكلين وانتقم للإهانة التى لحقت باسم أرجيل.**

**هذه هى كيفية تسمية صخرة الليدى - على اسم الليدى ماكلين - إلا أن الاسم نقل بطريقة ما من الصخرة التى فى منتصف المد إلى جزيرة صخرية صغيرة على بعد حوالى نصف ميل حيث توجد فنارة صخرة الليدى حاليًا. ولا يمكن أن يغرق أحد على تلك الصخرة. فهى دائمًا فوق مستوى المد.**

يقع على مقربة شديدة من صخرة الليدى لسان ليزمور فى جزيرة ليزمور. والحكاية التالية لا تفسر الاسم، إلا أن أى إنسان يسمعها سوف يتذكر اللسان زمنًا طويلاً بالتداعى.

**وكانت هناك جزيرة ليزمور. وكانت هناك عائلة كامبل وعائلة ماكدونالد، ومن غيرهم يكون هناك؟ على أى حال كان هناك سباق وأول شخص يرسو هناك ويخرج إلى شاطئ ليزمور تكون ملكًا له. وبالطبع كان دوق أرجيل، مع أنه كان رجلاً عجوزاً، يجلس على مقدمة القارب - يشجع رجاله على التقدم، يشجع رجاله على التقدم وكان مستعداً للقفز من مقدمة القارب ورأى أنهم سيهزمونه ولذلك سحب بلطته من حزامه ووضع يده فوق مقعد المجدف وقطعها. أمسك الدوق يده وألقى بها إلى الشاطئ - وبذلك امتلك الجزيرة رغم كل شىء (١٧).**

وتقع إلى الغرب من صخرة الليدى فى جزر هيبريديز الخارجة Nicholson's Leap [ قفزة نيكولسون ] - وهى صخرة مستدقة على مسافة غير بعيدة من الشاطئ. والقصة التى وراء تسميتها لفتت نظرنا بسبب الطريقة التى غيرت بها ولأنها معروفة للكثيرين فى أمريكا الشمالية ممن لا يرتادون البحر، دون أن يدروا.

وطبقًا لما ذكرته الروايات القديمة، فقد اتهم رجل يسمى نيكولسون بارتكاب جريمة ما وحكم عليه زعيم القبيلة بأن يُخصى علانية. وحين سمع نيكولسون بما قضى به عليه حطم قيوده فجأة، وأخذ ابن الزعيم الوحيد رهينة وهرب مع العشيرة فى مطاردة حامية. ولم يكن قد ابتعد كثيرًا حين وجد نفسه على حافة صخرة شديدة الانحدار. كان وراءه رجال العشيرة. كان البحر على مسافة مائتى قدم أسفل منه. كان سبيله الوحيد للهرب هو القفز فوق هاوية إلى الصخرة السابق ذكرها، وهو ما فعله والطفل بين ذراعيه. وحين وصلت العشيرة وجدت نيكولسون على الصخرة ومعه رهينته، وظهرت رواية إسكوتلندية عن "الابتعاد المكسيكى". لم يكلف أحد نفسه عناء القفز وراء الجانى، ذلك أنهم حتى وإن أسعدهم الحظ ووصلوا إلى الصخرة فمن السهل على نيكولسون أن يدفعهم بقدمه حين ينزلون، ورفض نيكولسون العودة (إن كان ذلك فى استطاعته) إلى أن يوافق الزعيم على أن يخصى نفسه علانية. وما إن حدث ذلك حتى أخذ نيكولسون الطفل بين ذراعيه وقال: "لقد حكمت علىَّ بالموت دون أن تكون لى ذرية وسوف تموت أنت الميتة ذاتها." وبهذه العبارة قفز من على الصخرة إلى الموج الهادر والصخور التى أسفل منه حاملاً الطفل معه.

جاء فى قصيدة سيدنى لانير Sidney Lanier (*) التى كتبها فى القرن التاسع عشر بعنوان The Revenge of Hamish [ انتقام هاميش ] أن العمل أُنجز بعد جلد هاميش بدون وجه حق لتركه غزالاً يهرب على جزيرة روم Rhum .

وحين استعيدت القصة فى لوخ بويسديل فى يويست الجنوبية بجزر هيبريديز عام ١٩٦٨، كانت الرواية تقول إن نيكولسون حكم عليه بالإعدام لارتكابه جريمة هو منها برىء، وإنه قفز بالطفل بعد أن قتل أبوه نفسه.

(*) كاتب وموسيقى أمريكى (١٨٤٢-١٨٨١) معروف بقصائده الغنائية ومنها The Marshes of Glynn وروايته Tiger Lilies (المترجم) .

ولابد لأية سفينة متجهة إلى كلايد من قناة كاليدونيا أو أوبان أن تغير اتجاهها إلى الجنوب ناحية الغرب تقريبًا. ولتوفير مائتى ميل من الدوران حول شبه جزيرة ماكنتاير، فمن المحتمل أن تمر فى قناة كرينان، وطولها حوالى ثلاثة فراسخ. ولكنها لكى تفعل ذلك تضطر للمرور فى بعض أكثر مياه الجزر البريطانية انتشارًا للصخور وأكثرها تحركًا بدافع من المد والجزر. ولابد لربانها أن يكون على وعى تام بالزمن، ذلك أنه لكى يصل إلى لوخ كرينان لابد أن يمر فى دوروس مور Dorus Mor (الباب الكبير، وأحيانًا تسمى الباب الدوار Turning Door) حيث تكون سرعة المد ثمانى عقد ويمكن أن يوصف البحر، حين تكون الريح عكس المد، بأنه هائج على أقل تقدير. (ذات مرة أخطأت دوران المد الأصغر(*) بمقدار خمس عشرة دقيقة وكدت أندفع معه.) ولكى تنجو السفينة من الخطر الذى يمكن أن تتعرض له، فإنها تقف فى طريق خال من العقبات تأخذها فيه التيارات المتدفقة بين جزيرة جورا Jura ناحية الجنوب وسكاربا Scarba فى الشمال. وهنا تقع كيليتش Cailleach [ الجنية الشريرة ] المعروفة أكثر باسم كواربريكان Coirebhreacain أو كوريفريكان Corryvreckan وهى ثانية أكبر الدوامات فى العالم. وسوف نتكلم باستضافة عن كوريفريكان فيما بعد.

امتد رعب هذا المكان من النرويج حتى ساحل أيرلندا الغربى، وربما أكثر من ذلك. ويقول عنه Coast Pilot [ المرشد الساحلى ] وهو أقل الوثائق شأنًا "... الملاحة ... شديدة الخطورة ولا ينبغى لسفينة من السفن ... محاولة عبور هذا الممر دون معرفة محلية."(١٨) والمنطقة لا تهدأ أبدًا، والبحر هناك يتلاطم فى أهدأ الأجواء. ويقال محليًا إن هدير الدوامة يُسمع من على مسافة عشرين ميلاً ويصل ارتفاع أمواج البحر الهائج إلى عشرين قدمًا. ومؤخرًا حين أبلغ سيتون جوردون Seaton Gordon قبطانًا إسكوتلنديًا عجوزًا كيف أن قائد يخت نجح فى العبور بيخت عالى القدرة، قال الرجل العجوز بجفاء "ما كان لهذا الرجل أن يبقى على قيد الحياة إلى الآن" (١٩). ومؤخرًا ذكر رونالد جيلبرت Ronald Gilbert من كرينان أنه كان على ظهر سفينة صيد طولها

(*) أوطى مد وموعده التربيع الأول والتربيع الأخير للقمر حين تتعارض جاذبية القمر وجاذبية الشمس (المترجم) .

أربعون قدمًا وبها محرك جاردنر Gardner قوة مائة حصان، وبينما كان المحرك "على آخر سرعة" سُحب للخلف ناحية الدوامة ولم ينج إلا بالصدفة. وإذا كان رجل القرن العشرين يخاف هذا المكان، فيمكن أن نتخيل أثره على البدائيين.

ومن الصعب تحديد منذ متى وهذه البقعة لها اسم يُعَرِّفها، إلا أن القصص التى تروى عنها تنتقل من الحقيقة التاريخية إلى الأسطورة ومن بعدها إلى الخرافة. قد يكون أقدم اسم هو The Hag [ وتعنى الجنية الشريرة أو الساحرة الشمطاء ] ، ذلك أن الأقدمين كانوا يؤمنون بما تحت الماء من وحوش وأرواح وعفاريت. وكانوا يعتقدون أن أمواج المد والجزر هى غزلان الجنية الشريرة تقتات وأن هذه الدوامة هى المكان الذى تدعك فيه ملابسها. وكان يقال إنها حين كانت تضرب غسيلها بقدميها كان كل قماش التارتن tartanc (*) الذى فى إسكوتلندا يصير لونه أبيض[٢٠] . (يوجد تفسير لهذه العبارة فى معنى vraickan وهو أحيانًا "مرقش" وأحيانًا "كاروهات"، بل وكذلك "منقط". وطبقًا لما ذكره نيل كاميرون من كرينان، فإنه بينما كانت الدوامة تدور، كان الخلنج(**) والسرخس(***) ينعكس على جوانبها. وحين تشتد عنفًا كان الزبد الأبيض يخفى تلك النباتات.)

كان يقال إن دوس الجنية الشريرة على غسيلها أعنف ما يكون قبل هبوب الرياح. ومع أن جزءًا كبيرًا من قصة الجنية الشريرة نُسى فى الوقت الراهن، فما زال الناس يذكرونها فى عبارة موجزة ذكرها جون ماكلود John MacLeod من كرينان: "حين ترتدى الجنية الشريرة قلنسوتها البيضاء [ حين تزيد الدوامة ] فمن المؤكد أن الريح ستهب."

على مر السنين ومع ظهور المسيحية، أخذت سلسلة أخرى من الحكايات تحل شيئًا فشيئًا محل حكايات الجنية الشريرة. وفى زمن القديس كولومبا St. Columba

(*) قماش كاروهات تشير تصاميمه إلى قبائل إسكوتلندا (المترجم) .

(**) نبات دائم الخضرة يتميز بعناقيد أزهار صغيرة قرمزية اللون (المترجم) .

(***) أعشاب عريضة الأوراق (المترجم) .

كان يشار إلى المكان باسم Charybdis Brecani . ومن المفترض أن هذا الاسم مشتق من إسم الأمير بريكان Prince Brecan (Vreckan) ابن ملك لوخلان Lochlann الذى فر من أيرلندا هربًا من غضب أبيه. ووصل الأمير إلى هذه البقعة وهو فى طريقه إلى الدنمارك ـ وهو ما كان من المنطقى أن يفعله وهو يسير بمحاذاة الشاطئ فى اتجاه الوطن. ولجهله بأمر الدوامة غامر بدخول الممر وغرق هو وحاشيته جميعًا. وبعد ذلك إما أن جثته جرفتها الأمواج إلى الشاطئ أو أن كلبه الأسود الضخم سحبها إلى هناك ودفنت فى كهف مواجه للدوامة على جزيرة جورا. وهنا نذكر مارتن Martin أنه رأى شاهد قبره فى نهاية القرن السابع عشر، وقد اختفى الآن (٢١) .

طبقًا لما ذكره الدكتور جون لورن كامبل John Lorne Campbell من كانا Canna، يشير جيه أو واطسون J.W. Watson فى كتاب History of the Celtic Places Names of Scotland [ تاريخ الأسماء الكلتية فى إسكوتلندا ] إلى أن الغريق كان فى حقيقة الأمر ابن نيال ذى التسعة رهائن Niall of Nine Hostages، وحين مر القديس كولومبا فى هذا الطريق طفا ضلع الغريق على سطح الدوامة لتحيته.

وروت امرأة من كرينا حكاية مختلفة بعض الشىء. فيبدو أن ابن ملك لوخلان، الأمير بريكان، وقع فى غرام أميرة جميلة بالقرب من كرينان. وكانت قد أخذت على نفسها عهدًا ألا تتزوج رجلاً لا يمكنه الخروج ثلاث ليال فى الدوامة. أزعج ذلك الخبر الأمير، إلا أنه التقى بساحرة فى مكان قريب أخبرته كيف يمكنه كسب ود المرأة. ففى الليلة الأولى لابد له أن يربط مرساة سفينته بحبل من شعر الخيل. وفعل ذلك، وحافظ الحبل على السفينة وعاد بسلام إلى الشاطئ. وفى الليلة الثانية طلبت منه أن يربط مرساته بحبل من جلد الفقمة. ومرة أخرى فعل ما طلب منه، وكذلك خرج من تلك الليلة بسلام، مع أن الدوامة كانت أشد عنفًا. وكانت الليلة الثالثة ليلة حاسمة، وكان عليه لكى يبقى على قيد الحياة أن يستخدم حبلاً صنع من شعر عذراء. وعلى الفور حصل الأمير على الشعر من عروس المستقبل وصنع حبلاً من الشعر الذهبى لمرساته. ومرة أخرى أرسى سفينته فى بقعة مخيفة وبقى الحبل على متانته حتى قبل منتصف الليل بقليل حين انقطع وغرق الأمير. وألقت الأمواج بجثته على الشاطئ ودفنوه بطريقة لائقة فى كهف على جزيرة جورا (٢٢) .

ربما ارتبطت كوريفريكان كذلك ببالور ذى العين الشريرة Balor of the Evil Eye على جزيرة تورى Tory Island، وإن كان من الممكن أن الحكاية تشير إلى دوامة أخرى داخل جزيرة راتلين Rathlin Island في أيرلندا. على أية حال، فالحكاية تستحق أن تروى لأن بالور يبرز بعدة طرق فى الفولكلور البحرى، بل وجاء ذكره فى كيب بريتون Cape Breton، حيث جمع الراحل ماك إدوارد ليتش MacEdward Leach قصة عنه(٢٣).

كان بالور عملاقًا يعيش على جزيرة تورى وكان يصطاد السفن العابرة. ومن السفن التى استولى عليها جمع كنزًا قوامه تسعة أطنان من الذهب، وكان يحتفظ بأسراه من السفن فى حفرة فى الأرض وسط جزيرة تسمى سجن بالور Palor's Prison . ومن بين غرائبه الأخرى أن له عينًا ثالثة تقع طبقًا لما يقوله البعض فى ظهره، ويقول البعض الآخر فى جبهته. وكان يغطى تلك العين جفن حام لا يفتح إلا فى أوقات المعارك أو الكرب الشديد، وأى شىء كانت تنظر إليه كان يدمَّر.

وكانت لبالور ابنة، وكانت النبوءة تقول إنها سوف تلد طفلاً يكون موته على يديه. ولكى يمنع بالور ذلك، كما تقول الأسطورة، شيد برجًا مستديراً (لا يزال قائمًا) تحفظ عليها فيه مع نسوة يقمن على خدمتها وأصدر تعليمات بإبعاد كل الرجال عنها.

وحدث أن كان شقيقان اسمهما ماكينيلى Mackineeley يعيشان على البر الرئيسى القريب. كان لأحدهما بقرة بيضاء وكان الثانى حداداً. أغار بالور على البر الرئيسى واستولى على البقرة، وبناء عليه تنكر صاحبها فى زى امرأة وبمساعدة غيبية ذهب إلى الجزيرة وأمضى الليل فى البرج، وضاجع الفتاة وحملت منه واستعاد بقرته وعاد إلى بيته.

استشاط بالور غضبًا وتتبع ماكينيلى وقتله فى معركة كبيرة فيما يُعرف حاليًا باسم Bloody Foreland [ *الرأس الدامى* ] واستعاد ملكه المسلوب وعاد إلى بيته. ما إن وصل واستقر كى يستمتع بغنيمته حتى ولدت الفتاة صبيين. وعلى الفور أمر بالور بوضعهما فى ملاءة والذهاب بهما إلى كوريفريكان وإلقائهما فيها. وتم ذلك، إلا أن الدوامة ألقت بأحد الطفلين على الشاطئ، حيث عثر عليه الحداد الذى رباه وعلمه الحرفة.

ودارت الأيام وكبر الصبى وتدهورت أحوال بالور. فقد هوجمت جزيرته وقضى على جيشه واضطر هو للهرب إلى البر الرئيسى لتجنيد المزيد من الرجال. ومن شدة اهتمامه بالأمر الذى ذهب من أجله ترك عينه الثالثة مفتوحة، وبينما كان يمر أمام كور الحداد رآه الصبى، فلصق قطعة من الحديد المتوهج فى أحد السهام وأطلقه على العملاق. أصاب الحديد بالور فى عينه وسقط صريعًا. فى تلك اللحظة هربت البقرة، وبدأت سلسلة قصص أخرى حولها.

وكما أن قصص الجنية الشريرة زيدت أو استبدلت بحكايات الأمير الشجاع، فقد دخلت على هذه الحكايات قصص رجال الدين الذين كانوا يريدون المزيد من المواقف المسيحية التى يوحى بها المكان. ولتحقيق هذه الغاية، ألمح أدمنان Adamnan رئيس دير أيونا Iona إلى أن الرب خلق الدوامة لزيادة حماس القديس كولومبا الذى كان متقداً بالفعل كى يزيد من الصلاة وهو يعبرها. ولكن هذه القصص عانت أكثر مما عانت منه حكايات الجنية الشريرة والأمير بريكان، واستبدلت بمئات من حكايات السفن الغارقة والكوارث. وربما كانت أفضل تلك الحكايات تلك التى رواها نيل كاميرون:

**زمان حين كان النقل سيئًا كنا ننقل الماشية من الجزر مثل أيلى Islay وجورا وكولونسى إلى السوق فى أوبان Oban . ووقتها كانت هناك سفينة صغيرة يملكها مستر أندرو باترسون Andrew Patterson الذى كان يقوم برحلات للركاب فى الصيف والماشية فى الشتاء. وقد أقول إنها كانت حوالى ٤٥٠ طنًا. اتجه إلى ميناء أسكيج Port Askeig ليأخذ ماشية معروضة للبيع وحمّل السفينة بحوالى ١٠٣ رءوس وضعت على السطح. وبينما كان يوشك على الإقلاع جاء الكاهن يجرى على الرصيف كى يذهب معه ورآه البحارة وقالوا "أسرعوا، ارفعوا السقالة وتحركوا!" لأنهم لم يكونوا يريدون أن يأخذوه، ولكنهم لم يكونوا على قدر كاف من السرعة وصعد الكاهن إلى السفينة. وقتها أرهق نفسه كى يجتاز المحنة وكانت حالة الطقس قد تدهورت ورسا بأمان خارج جورا، ولأن الريح كانت غربية فقد جعلت الأمر شديد الصعوبة، مما أدى إلى إصابة أصحاب الماشية بالذعر وأرادوا منه دخول جورا كى يتجنب ترنح السفينة الشديد. ولذلك أرسلوا له من يطلب منه عبور كوريفريكان ولم يوافق هو على ذلك لما فيه من مخاطرة، ولكنهم قالوا له**

**إنهم سيتحملون كل المسئولية إن هو مر من كوريفريكان. وبذلك مر منها بينما كان المد ضده إلى حد ما، مما أحدث الدوامة ونتج عن ذلك تحطم السفينة ودخولها الدوامة. وحين بدأت تهبط أخذت تميل على جانبها وانزلقت الماشية جميعها إلى جانب واحد ولابد أنها كانت راقدة على جانبها لأنها تعدت أحزمة الأمان من جانب لآخر. وقتها كان معهم هذا الكاهن على متن السفينة، وهو من لم يكونوا يريدون أخذه، وهذا الكاهن هو الذى نجح فى فتح المعبر ونجح فى إخراج كل الماشية وفى اللحظة التى خرجت فيها الماشية كتمت الدوامة واستوت السفينة وخرجت منها. انتفخت الماشية وظلت الأمواج تلقى بها على الشاطئ لعدة أسابيع بعد ذلك [٢٤] .**

دخلت فى تفاصيل جمة حول هذه البقعة على وجه التحديد ـ ليس فقط لأنها تقارب إحدى عجائب العالم، ولكن لأنها توضح عدداً من النقاط المثيرة الخاصة بالتسمية. أول كل شىء أن اسمها، أى الجنية الشريرة، قديم جداً، حيث يعود إلى عصور ما قبل التاريخ، بينما اسمها الأحدث، وهو كوريفريكان، فلا يقل عمرة عن أربعة عشر قرناً. وكان الاسم الأصلى والحكاية كفيلين بتحذير البحارة كى يبتعدوا عنها، والاسم الأحدث والحكاية المصاحبة له لا يجعلان البحارة يغامرون بالاقتراب منها. بل إننا نلاحظ أن الاسم الأصلى لم يختف اختفاء تاماً، وهو ما يدعم النظرية التى تقول إن الأسماء البحرية لا سبيل إلى تغييرها بمجرد قبولها.

النقطة الأخرى التى أود الإشارة إليها هى أن كل القصص التى تدور حول كوريفريكان هى قصص عن الكوارث أو الأخطار. ومع مرور السنين وسقوط السفن فى جوفها، يظل رعب هذا المكان حياً فى الأذهان ويزداد قوة من خلال إضافة قصة فوق قصة لتُثَبِّت فى عقول البحارة الخطر وحماقة محاولة المرور من هذه المنطقة.

وإذا كانت الحكايات والنوادر تبدو مُرَكَّزة حتى الآن فى إسكوتلندا وفى منطقة جزر هيبريديز على وجه التحديد، فهذا يرجع إلى سببين ـ أولهما هو إعطاء القارئ فكرة عن انتشار القصص فى أية منطقة، والثانى لأن باحث الفولكلور، مثله مثل الراوى الشعبى الجيد، ينبغى أن يختار مادته وعينه على المضمون.

عند المرور من أمام ساحل إسكوتلندا إلى ساحل أيرلندا الغربى الخطر، يصل المرء فى النهاية إلى جزيرة تسمى أينيشبوفن Inishbofin . ومع أنها فقدت الكثير من الأهمية

التى كانت تتمتع بها فى العصور الوسطى حين كانت مركزًا ثقافيًا، فلا تزال بها واحد من الموانئ الصحيحة القليلة جداً على الساحل كله. واسمه معناه جزيرة Inish البقرة البيضاء Bofin .

وقد قيل منذ سنوات مضت إن الجزيرة كانت غير مأهولة وتختفى فى الضباب إلى أن انجر إليها صيادان وأوقدا النار. وعلى الفور انقشع الضباب ورأيا ساحرة تسوق بقرة وتحولها إلى صخرة بمجرد وصولها إلى البحيرة. ضرب الصيادان المرأة بسبب قسوتها فحولتهما هما نفسيهما إلى صخرتين وبقيا على هذا الحال (٢٥) .

يتذكر القبطان أوهالوران O'Halloran قصة مختلفة بعض الشىء. فقد كانت الجزيرة فى الأصل تحت الماء إلى أن هبت فى يوم من الأيام عاصفة ضخمة وببطء خرجت الجزيرة من البحر. فزع سكان جزيرة شارك Inishshark المجاورة لرؤية هذا الحدث وفُزعوا أكثر لرؤية بقرة بيضاء ضخمة تجرى على جانب الجزيرة فى اتجاه جزيرة شارك وتلقى بنفسها فى البحر. ومنذ ذلك الوقت وهى تسمى جزيرة البقرة البيضاء.

وذكر مستر داى Mr. Day من تلك الجزيرة أنهم أطلقوا عليها اسمها هذا لأن بقرة بيضاء ضخمة خرجت من البحيرة ثم اختفت مرة أخرى فى الأعماق. وقد عضد قصته شخص آخر من سكان الجزيرة أضاف أن البقرة كانت تظهر من جديد كل مائة عام (٢٦) .

ومع أن مدخل جزيرة البقرة البيضاء مرسى آمن، إلا أنه تعوقه صخرة تسمى Bishop Rock [ صخرة الأسقف ] والممر الذى يفصلها عن فورت بوينت Fort Point (ومعناه لسان الحصن، وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه كان فى يوم من الأيام موقع أحد الحصون الكرومويلية(*) الذى شيد على موقع كان لقرصان أسبانى اسمه دون بوسكو

(*) نسبة إلى أوليفر كرومويل (١٥٩٩-١٦٥٨) وهو عسكرى وسياسى إنجليزى وكان كذلك من الشخصيات الدينية. وقاد كرومويل انتصار البرلمان فى الحرب الأهلية الإنجليزية (١٦٤٢-١٦٤٩) ودعا إلى إعدام الملك تشارلز الأول (المترجم) .

Don Bosco حصن فيه) شديد الضيق. (فيما يتصل بهذه الحكاية لا يسع المرء إلا أن يشير إلى ضرورة معرفة شيء ما عن خلفية اسم أي مكان. وهناك صخرة الأسقف في خليج سان دييجو، وقد سميت بهذا الاسم لأن سفينة شراعية اسمها Bishop [ الأسقف ] اصطدمت بها في القرن التاسع عشر)(٢٧) .

وقال القبطان أوهالوران إنه حين كانت قوات كرومويل Cromwell على الجزيرة كانت تعامل الروم الكاثوليك فيها معاملة في غاية القسوة. فقد شنقوهم في الحصن وألقوا بأجسادهم من فتحة في السور حيث جرفتها الأمواج إلى البحر. وألقى القبض على الأسقف وكُبِّل بالسلاسل في صخرة في الميناء أثناء الجزر. وحين ارتفع المد غرق الأسقف والصخرة الآن هي صخرة الأسقف (٢٨) .

يقع على الجانب الآخر من جزيرة البقرة البيضاء شرم رويال أوك Royal Oak Cove . ومنذ سنوات دخلت سفينة تحمل هذا الاسم، وكانت تحمل شحنة كبيرة من النقود، هذا الخور الضيق مسرعة في ليلة عاصفة وتحطمت. وكانت قد قطعت شوطًا كبيرًا داخل الخور حتى إن أفراد الطاقم نزلوا إلى الشاطئ على صاري المقدم. وهبط كنزها إلى القاع وأرسل الغواصون لاستعادته. ونزل الغواصون ووجدوا الكنز وحين أوشكوا على إخراجه رأوا شيئًا. لم يعرفوا ما كنه ذلك الشيء، ولكنهم كانوا من الرعب بحيث صعدوا إلى السطح ولم يغوصوا مرة أخرى. ولم يشعر أحد من ذلك الوقت أن الأمر يستحق منه النزول إلى الكنز الذي لا يزال راقدًا في القاع (٢٩) .

وتروى حكاية شبيهة عن خور صغير بالقرب من كتلر Cutler بولاية مين. وهنا كانت إحدى سفن القراصنة المحملة بالذهب تدخل ميناء كتلر مسرعة في ليلة عاصفة ففقدت وعيها بموقعها واصطدمت اصطدامًا شديدًا. ولا يذكر أحد اسم السفينة، إلا أن المكان يعرف باسم Money Cove [ شرم المال ] ولا يزال الكنز راقدًا في القاع.

لننتقل بسرعة إلى نوفا سكوشا. فعلى الساحل الشرقي يقع رأس صغير يسمى Saladin Point [ رأس صلاح الدين ] .وهذه هي ذات البقعة التي اصطدمت فيها السفينة الشراعية Saladin التي تزن ٥٥٠ طنًا اصطدامًا شديدًا، وكان قبطانها ساندي ماكينزي Sandy MacKenzie، يوم ١٣ مايو ١٨٤٤، بعد خروجها من فالباريزو

بخمسة وتسعين يوماً ووقوع تمرد على متنها. ومع أن جزءاً كبيراً من قصتها قد نُسى، فقد استحقت قصة موتها أن يسمى بها الرأس.

غادرت السفينة الشراعية فيتولا Vitula بقيادة القبطان فيلدنج Captain Fielding إنجلترا فى أكتوبر ١٨٤٢ . وكان يصاحبه ابنه جورج البالغ من العمر أربعة عشر عاماً. وفى النهاية أدركت السفينة فالباريزو وحاول الربان - الذى كان بحاجة إلى المال - سرقة حمولة من النترات. أمسكوا به وأدى هذا إلى وقوع معركة وجُرح فيلدنج وحُجزت السفينة. حاول فيلدنج فك السفينة والهرب بها ولكنهم أمسكوا به وألقوا به فى السجن. وعلى الفور تخلص من حبسه وحاول أن يجد مخرجاً من البلاد، ولكن يبدو أن أحداً لم يكن لديه استعداد لأن يقله. وفى النهاية جاءه العون من شخص طيب اسمه سكوت Scot نقل فيلدنج مجاناً إلى نوفا سكوشا على متن السفينة صلاح الدين، التى كانت تحمل ١٥٠ رطلاً من الفضة مودعة فى مؤخرة جزئها المغمور فى الماء.

ما إن غادرت السفينة اليابسة حتى تشاجر فيلدنج مع من أحسن إليه وقرر الاستيلاء على السفينة. ولكى يفعل ذلك استعان بمساعدة نجار ذى ساق واحدة وبرجل أيرلندى وبشخص بولندى وبشاب سويدى أشقر اسمه جوستافوس أندرسون Gusta-vus Aderson . وبعد ذلك استولى على أدوات النجار. ورغم تحذير القبطان من الخطر، فقد رفض بعناد تصديق ذلك ولم يفعل شيئاً.

وفى يوم الأحد الرابع عشر من أبريل كان وكيل القبطان يأخذ تعسيلة فى الخُم حيث قتلوه ببلطة وألقوا به من فوق السفينة. استدعى القبطان على سطح السفينة وقُتل بمطرقة. وبعد ذلك استدعى أفراد الطاقم وقتلوا جميعاً إلا اثنين، حيث كان جورج فيلدنج يقوم بدوره مستعملاً سكين جزار. وبعد ذلك طُليت رأس الجؤجؤ البرونزية الخاصة بصلاح الدين باللون الأبيض لإخفاء هوية السفينة.

كانت الأمور تسير بشكل جيد جداً وجعل فيلدنج اثنين من أتباعه يقتلان بالسم الاثنين الآخرين - حيث شجع هذين على قتل من وضعا السم. ولسوء حظ فيلدنج أن الفريقين طابقا ما قيل لهما وانتهيا إلى أن فيلدنج وابنه نصابان وألقوا القبض عليهما وقيداهما وألقوا بهما من على ظهر السفينة. ومنذ ذلك الوقت عاش الخمسة الذين بقوا على قيد الحياة من الطاقم حياة رغدة فى مؤخرة السفينة داخل مقر القبطان.

وفى النهاية اصطدمت صلاح الدين اصطداماً عنيفاً وكانت تسير بأقصى سرعتها بالقرب من كانترى هاربر Country Harbor . وقبل أن يتمكن أفراد الطاقم من مغادرة السفينة، ألقى القبض عليهم وصفدوا بالأغلال واقتيدوا إلى هاليفاكس حيث حاكمهم اثنان من القضاة. وقد ثبتت تهم أربعة من الجناة وعلقوا بالسلاسل فى هوسبيتال بوينت Hospital Point وعرضوا لمدة سنة ويوم (٣٠) .

وإذا كان أفراد طاقم صلاح الدين قد لقوا جزاءهم العادل، فالعدل لا يتحقق فى بعض الأحيان. و(ربما) كان ذلك هو الحال خلال زمن الاستعمار فى ميناء بوسطن هاربر.

كان التطهريون متحمسين فى اتباع مبادئ القانون وكانوا من حين لآخر لا يلتفتون لطلبات المذنبين ويصادرون أموالهم. ويقال إن قبطان السفينة الشراعية تشارلز Charles حذر زملاءه البحارة من دخول ميناء بوسطن بكميات كبيرة جداً من الذهب لكى لا يشنقوا بسببها (٣١) . وعلى أية حال فقد حوكم رجل آخر، وهو الضابط البحرى فى السفينة ديكسى Dixie، فى بوسطن وثبتت إدانته بالقيام بأعمال القرصنة وحُكم عليه بالشنق فى إحدى الجزر. ورغم تمسكه ببراءته، فقد اقتيد إلى مكان تنفيذ حكم الإعدام وسألوه إن كانت لديه رسالة وداع للجمهور المجتمع. كانت لديه رسالة بأنه برىء، ولكى يثبت ذلك قال إن الرب سوف يزيل الجزيرة التى نُفذ عليها الإعدام بعد عشر سنوات. هل هو مذنب أم برىء ؟ تظل الحقيقة هى أنه منذ ذلك اليوم أخذت الجزيرة تنكمش. وبعد عشر سنوات من الإعدام هبت عاصفة ضخمة، وفى الصباح كانت الجزيرة قد اختفت. والمخاضة الموجودة فى المكان الذى كان تقوم فيه هى الآن Nix's Shoal [ مخاضة نيكس ] .

سوف نعرج أثناء تناولنا لموضوع القراصنة على منطقة كيب هاتيراس Cape Hat-teras . ويبدو أن القبطان تيتش Captain Teach، المعروف باسم Blackbeard [ اللحية السوداء ] ، رقد ليلة هناك داخل سفينته Queen's Ann Revenge [ انتقام الملكة آن ] . أطفأ القبطان وهو فى سكْره المصباح وصوب مسدسه من تحت الطاولة فى ناحية رفاقه وأقسم أنه سوف يطلق عليهم النار بعد عدد معين. لم يجر وكيل القبطان وشلت

حركته رصاصة اخترقت ركبته. وبعد ذلك فاجأوا تيتش فى نفس المكان وقطعوا رقبته. وتعرف هذه البقعة باسم Teach's Hole [ فتحة تيتش ] ، ويقال إن شبحه مقطوع الرأس يطفو فوق السطح حين يكون الطقس مواتيًا [٣٢] .

وأدى الموقف من القرصنة والقانون بكامله إلى ظهور أسماء مثل Execution Rock [ صخرة الإعدام ] فى ميناء نيويورك، وHangman Hill [ تل الجلاد ] فى بيرمودا وDead Man Cay [ جزيرة الميت ] فى كنجزتون بجامايكا Kingston, Jamaica، حيث أدين بعض القراصنة فيما ارتكبوه من جرائم ووضعوا فى الهواء الطلق داخل قفص حديدى "كى يجفوا فى الشمس"، وهى العقوبة التى أصابتهم بالجنون خلال بضع ساعات وقتلتهم خلال يومين تقريبًا.

تقترن قيادة سفن المجهود الحربى اقترانًا وثيقًا بالقرصنة. وهذه الحكاية من لِس جرانت فى جزيرة أو أو بولاية مين.

أثناء الحرب الثورية كان هناك شخص اسمه موريس وكانت لديه سفينة وخرج للاستيلاء على سفن الأعداء وحقق بعض النجاح. ولم يمض وقت طويل قبل أن يكون لديه عدد كبير من الأسرى على ظهر سفينته .وذات صباح استيقظ موريس العجوز وجعل الأسطول الإنجليزى بكامله يطارده واضطر للهرب كى ينجو بنفسه. يا سيدى كانت الريح خفيفة وكانوا متقدمين طوال الوقت، ولكن موريس رأى ضبابًا كثيفًا فدخله فأخفاه لبعض الوقت ثم هبت الريح وبدأت قوى موريس تخور وحاول أن يروغ منهم. وصل عند جزيرة أوهولت Isle O'Holt حاملاً كل ما يستطيع حمله وربما أكثر، وانتهى به المطاف على حيد. لم يصب السفينة شىء، واخد بالك، ولكنها أوقفته وقبل أن ينزل من على السفينة كان البريطانيون قد علموا مكانه مرة أخرى ولم يستطع أن يفعل شيئًا سوى الهرب إلى البينوبسكوت. وجعل الأمور على ما يرام وفجر السفينة على باونز ليدج Bowen's Ledge بعد أن وضع الأسرى على الشاطئ تحت مسئولية شخص اسمه نولتون Knowlton كان من المفروض أن يسوقهم إلى توماستون Thomaston . وفى الطريق ثار الأسرى ولكن نولتون لم يطق صبرًا على تهدئتهم ومن بقوا أتى بهم إلى طوماستون سليمًا. كان نولتون جدى الأكبر والصخرة التى اصطدم بها موريس العجوز اسمها حتى الآن Morris's Mistake [ غلطة موريس ] [٣٣] .

والآن ينبغي على الانتقال إلى الجزر المواجهة الريح Winward Islands فى البحر الكاريبى للحظة، ذلك أنه على الجانب المواجه للريح من جزيرة توباجو Tobago خليج يسمى الخليج الدامى Bloddy Bay وشرم على أحد الطرفين يعرف باسم شرم الرجل الميت Cove of the Dead Man .

طبقًا لما ذكره العديد من الإخباريين على تلك الجزيرة، فقد وقع منذ زمن بعيد اشتباك بحرى رهيب داخل الخليج وكانت الفوضى والدمار من الشدة بحيث صار لون الماء أحمر من كثرة الدم. وبعد المعركة ألقى الناجون زملاءهم القتلى من فوق السفن وجرفتهم الأمواج جميعًا إلى الشرم، حيث بقوا فيه إلى أن تحللوا أو أكلتهم المخلوقات البحرية.

إلا أن القصص لا تنتهى عند ذلك الحد. فيقال إن المكان فيه أذى وإذا مرت فيه سفينة ليلاً ودقت جَرسها، أو إذا صفر أحد أفراد الطاقم، فسوف تهب عاصفة رهيبة وتسحق السفينة.

وفى بعض الأحيان كذلك تُشاهد الأشباح. وقد روى رجل أنه كان يصطاد فى إحدى الليالى مع طاقم كبير حين سمعوا فجأة صوت مجاديف ورأوا سفينة حربية مليئة برجال مسلحين تسير وراءهم. أمسك الصيادون المرعوبون بمجاديفهم، ورغم أقصى ما بذلوه من جهد لم يستطيعوا الابتعاد عمن يطاردونهم أو حتى الإفلات منهم. وظلوا طوال الليل وهم يجدفون حتى كادت ظهورهم أن تتكسر ولم يسعهم سوى أن يسبقوا السفينة الشبح إلى أن وصلوا إلى فورت جيمس Fort James على بعد عدة أميال. وبعد ذلك طلعت الشمس واختفت السفينة المطارِدة وطاقمها (٢٤) .

وهناك مكان أخير من جزر الهند الغربية لابد من ذكره فى هذا المقام، ليس بسبب نوعية حكايته، ولكن لأنها بالفعل حالة فريدة.

أمام جزيرة المارتينيك Martinique تقع "H.M.S. Diamond Rock"، وهى قطعة الصخر الوحيدة التى أعرف أنه صدر تفويض بجعلها سفينة حربية. فعل ذلك البريطانيون عام ١٨٠٤ لمحاصرة الجزيرة. فقد وضع على الصخرة خمسة مدافع و١٢٠ رجلاً، حيث كانوا يلحقون أضرارًا بالسفن المارة. وأخيرًا استولى الفرنسيون على الصخرة ولكنهم دفعوا ثمنًا باهظًا من القتلى والجرحى قبل سقوطها. ويقال إن

السفن الحربية البريطانية التى تمر من هناك حتى يومنا هذا تطلق سبع طلقات تحية للسفينة الحربية الوحيدة غير القابلة للغرق وتكاد لا تُقهر فى الأسطول البريطانى (٣٥) .

كانت تلك إذن عينة من الأسماء البحرية ولمحة عن طرق التسمية. وإذا كانت منطقة من المناطق قد حازت من الاهتمام أكثر مما نالته غيرها، فهذا فقط لأن هذه المنطقة بدت - بفضل الجغرافية والناس - أكثر فائدة للمؤلف.

وحين نطالع الأسماء يتضح أن تلك الأسماء التى فى محيط الجزر البريطانية أقدم، ورغم حقيقة أنها خُلقت بطرق مشابهة لتلك التى خُلقت بها أسماء العالم الجديد، فهى تختلف عنها. وقصص العالم القديم أكثر تعقيداً وتفصيلاً، وليس من النادر أن تكون هناك مجموعة من الحكايات الخاصة ببقعة ما، بينما تبدو "حكاية واحدة لكل صخرة" هى الأمر المألوف فى أمريكا. ويبدو أن أسماء الأماكن فى الجزر البريطانية وأيرلندا فى أغلبها غالية أو إنجليزية ، مع وجود طبقة قوية من التسمية الإسكندنافية فى الشمال وفى الغرب، وهولندية فى الجنوب، مع وجود اسم كلتى أو اسمين هنا وهناك. وفى أمريكا الأسماء الأساسية هندية وإنجليزية وفرنسية وأسبانية، مع أسماء متفرقة من جنسيات أخرى. ولا تكاد الأسماء الغالية تعرف، أما الأسماء الإسكندنافية - باستثناء فنلاند Vinland الأسطورية - فقليلة. كذلك فإنه بما أن الكثير من عوائق الملاحة أو ما يعينها لم تكن تُسَمَّى حتى القرن التاسع عشر، فليس من المستغرب أن الاسم، بل والحكاية المرتبطة به، لهما نبرات أكثر عاطفية من تلك الخاصة بالعالم القديم، وهو ما نراه عند التقاء صخور بو هو Boo Hoo Rocks برمال السفينة الطويلة Longship Sands .

بمرور الأيام يعرَف المزيد من الأماكن - من خلال المآسى فى أغلب الأحيان. ومسحبة الأسلاك (*) وسبر الأعماق (**) يحسنان الملاحة على الدوام ويقللان احتمال

(*) أداة تستخدم فى مسح المناطق الصخرية البحرية حيث لا يجدى استخدام طرق السبر العادية نفعاً ولا تضمن استكشاف جميع العوائق المغمورة تحت الماء والأعماق الضحلة والصخور الموجودة على عمق معين، كما تحدد أقل عمق لمنطقة مائية ما (المترجم) .

(**) تعيين عمق كتلة مائية ما بواسطة مسبار الصدى أو سلك المرجاس (المترجم) .

حدوث المآسي. ومع ذلك فالمآسي يتكرر حدوثها في موقع الرعب والبطولات، وستظل الأسماء تُشَكَّل تبعًا للأساليب المتبعة هنا التي ستظل تدل على النهاية غير السعيدة للأمل والحياة والثروة، وإن قلَّت مرات حدوث ذلك. وروى صياد سمك عجوز من مين نادرة - لها أشباه في كل أنحاء المحيط - توضح هذه النقطة.

فقد اختارت سفينة أجنبية مرشداً يقودها في خليج بينوبسكوت. كان الضباب كثيفًا وكان القبطان قلقًا فسأل المرشد: "هل تعرف أين أنت؟" فأجابه: "بالطبع." فسأله ثانية: "أمتأكد من معرفتك؟" فرد عليه: "نعم." فعاود سؤاله: "هل تعرف كل الصخور التي في الخليج؟" فقال: "بالطبع." وفي تلك اللحظة توقفت السفينة في مكانها. وقال المرشد: "هنا واحدة منها الآن، اللعنة."

إلا أن الأسماء البحرية، بما قد يكون فيها من سحر، ليست سوى جزء من لغة ما، وهي لغة البحر. وقد حان وقت بحث هذا المنطقة الكبيرة بعض الشيء أملاً في العثور على بعض الأسس التي يقوم عليها تطورها.

# الفصل الثالث

# اللغة

"اللغة ... لسان الحس المشترك".

**والت ويتمان**

Walt Whitman,

*Complete Poetry and Selected Prose*

(Boston, 1959), p. 4

حين كنت يافعًا كسبت خمسة دولارات مقابل عمل مؤثرات صوتية لأحد برامج الإذاعة الصباحية. وكان البرنامج تديره امرأة، وفي كل أسبوع كانت لها تجربة جديدة تحكيها "للبنات". ولسبب ما كان من المفترض أن يكون ذلك البرنامج "رحلة بحرية على سفينة شراعية كبيرة"، ولكن بما أن السيدة تلك كانت تكره الماء فقد استأجرت سفينة شراعية وجعلت الرحلة البحرية تتم والسفينة راسية في مكانها في المرسى. وكانت لديها أسطوانة عليها أصوات الريح تشغلها في اللحظات المناسبة التي كان من المتوقع أن أحدث صليلاً ببكرة السلاسل أو أسكب دلو ماء حين "اصطدمنا في أمواج هائجة". وعبر تلك الضجة كانت تصيح "بلغة بحرية" أمام جهاز التسجيل - بعبارات من قبيل **She's yar Shiver me timbers** [ يهز ضلوعي ] **ahoy there** [ لنداء على شخص بعيد ] **avast ue swabs** [ توقفوا يا بحارة ] . وكنا ننهي جولتنا البحرية بالأمر "ألقوا بالمرساة" **Throw out the anchor** . (وهو اصطلاح كان يزعج جوزيف كونراد **Joseph Conrad** (*)) (1) .

(*) روائي بريطاني بولندي المولد (١٨٥٧-١٩٢٤) كان أستاذاً للجو العام وتكتيك السرد. من أعماله "لورد جيم" و"قلب الظلام" و"نوسترومو (المترجم) .

ذلك هو الرأى التقليدى إلى حد ما ، السائد بين أهل البر بشأن اللغة البحرية - فهى غريبة، وشديدة التميز، وظريفة بعض الشىء. وهذا ليس ببعيد عن الحقيقة. بل إن المصطلحات البحرية لا يساء استخدامها وحسب، بل يسىء أهل البر فهمها إلى حد كبير.

وثلاثة أمثلة ممتازة من الاصطلاحات البحرية التى كثيراً ما يساء فهمها موجودة فى الاتجاهات وتولى الحراسة وربط السفينة. الأول فى مجموعة قصائد لفيليب فرينو Philip Freneau حيث أشار الشاعر إلى Ocracoke Inlet [ شرم أوكراكوك ] ، وقال المحرر فى شرحه للنص إن هذا المكان يقع على بعد ستة وعشرين ميلاً شمال شرقى كيب هاتيراس.

ثانيًا: قد تكون أكثر العبارات إساءة للاستخدام والفهم فى اللغة البحرية بعد throw out the anchor هى اصطلاح dog watch، التى يشير إليها الكُتَّاب باستمرار على أنها تعنى "تلك النوبة الطويلة تلك التى فى منتصف الليل" أو "أكثر النوبات الطويلة مللاً". فالمصطلح dog يستخدم بمعان كثيرة فى البحر، وغالبًا ما يكون بمعنى تحقيرى. فيقال عن البحار إنه dogging it إن لم يؤد ما عليه من عمل بالكامل أو "لا يفى بما عليه من التزامات". ويقال عن فتحة أرضية السطح إنها dogged down بمعنى أنه أُحكم إغلاقها لكى لا يتسرب منها الماء باستخدام مسند dog iron لإعطاء مزيد من القوة ضد الكُلابات dogs التى تغلقها. ومع ذلك فإن dog watch هى أفضل نوبة حراسة على متن السفينة. ذلك أن نوبة حراسة الساعات الأربع المعتادة تنقسم إلى نوبتين فيما بين الساعة الرابعة والساعة الثامنة مساء كل بضعة أيام، لكى لا يجبر أى رجل على الوقوف نفس الأربع ساعات بشكل مستمر. والبحارة يحسدون دائمًا "الرجَّالة" الذين "يمسكون نوبة الساعتين". إنها النوبة الوسطى، من منتصف الليل حتى الصباح، وهى من التمام والكمال حتى مع نشاط السفينة المعتاد أو مع أى تغيير فى الضوء، حتى إن البحارة يكرهونها ويستاءون منها ويظنون أنها لا تنتهى أبدًا. فالإنسان فى هذه الساعة يكون فى أقل درجات النشاط، وبما أنه لا يكون هناك ما يراه ويقل ما يمكنه عمله فإنه يكاد يكون من المستحيل قياس مرور الوقت. هذا علاوة على أنها تقلل ساعات نوم البحار الثمينة القليلة إلى حد كبير.

وكثيراً ما يسأل الشخص الذي يعيش على البر "متى ترسو dock السفينة؟" والإجابة بطبيعة الحال هي "حين تكون في الحوض الجاف dry dock"، ذلك أن السفينة "تربط" moors في الشمندورة، و"تقف" lays to في المرسى، و"تثبت" tied up في الحوض الجاف أو "تربط على الرصيف" moors alongside .

إن لكل مهنة لها مفرداتها الخاصة بها. وكلما كانت المهنة أكثر احتراماً كانت مفرداتها أقدم، وكلما كانت المشاركة التي تتطلبها المهنة أكثر شمولاً كانت المفردات أكثر، وكلما كانت المهام أكثر تعقيداً كانت المفردات أكثر دقة. وقد يكون من الصعب العثور على مهنة أقدم من العمل في البحر، أو أكثر منها تعقيداً أو أكثر منها استغراقاً للانتباه التام. فالرجال يعملون في المنجم طوال اليوم ولكنهم يعودون إلى بيوتهم في الليل، وقاطع الأخشاب يقضي في بعض الأحيان حوالي ثلاثة أشهر في الغابات قبل أن يعود إلى المدينة، ولكن صيادي الحيتان يقضون سبعة أشهر في البحر. ويسجل جوزيف كونراد قضاء ١٣٠ يوماً على أنه حدث عادي في حياة أية سفينة تجارية (٢) .

أظن أنه من الأمان التحدث بلغة بحرية. وهذه اللغة تنقسم إلى عدة أجزاء. أول هذه الأجزاء بطبيعة الحال هو نظام التسمية - تعريف كل لوح وكتلة خشب وشراع وأداة تثبيت وخيط وحبل ورافعة وسارية ومرجل – وهي لا تشمل أجزاء السفينة ومعداتها وحمولتها وحسب، بل كذلك أفراد الطاقم وملابسهم والطعام الذي يأكلونه. بل إنها تمتد إلى الأنشطة التي يقومون بها في الميناء. وتلي ذلك طرق الكلام - أي كيف تقال الأشياء، وما يمكن التعبير عنه وما يجب الاحتفاظ به في منطقة وسطى بحيث يكون متاحاً فقط للبحّار اللبيب الذي يمكنه ترجمة الأفكار غير المنطوقة. وأخيراً هناك إيقاع الكلام نفسه - وهو طبقات الصوت المستخدمة، وإذا ما كان الحديث سريعاً أم بطيئاً، مرحاً أم حزيناً، متقطعاً أم متدفقاً.

تخضع اللغة البحرية في المقام الأول لبضع ضوابط بسيطة. وما إن نتعرف على هذه الضوابط حتى تبدأ لغة البحار المميزة في اكتساب معنى جديد وأكثر أهمية. واللغة البحرية قبل كل شيء آخر لغة وظيفية. ولا يهم كثيراً على البر إن كنت لا تفهم كلمة أو عبارة. ولكن في البحر يمكن أن تكون إساءة فهم أمر من الأوامر محرجاً على أقل

تقدير، ويمكن أن يكون باهظ التكاليف وقاتلاً فى أسوأ الظروف. وكثيراً ما لا يكون هناك وقت لتكرار العبارة. فلابد من سماعها وفهمها من أول مرة. بل لابد أن تكون اللغة البحرية مفهومة فى أكثر الظروف سوءاً من على مسافة كبيرة. ومع تلاطم الأمواج على السفينة، وحيث تئن السفينة وتزمجر وتصدر أصواتها الألف الخاصة الحزينة، ومع ظلمة الليل أو كثافة ضبابه أو كثرة الثلوج التى تسقط فيها، لابد أن يكون القبطان أو وكيله الموجود على مؤخرة السفينة أو منصة الربان قادراً على سماع ما يقوله المراقبون فى المقدمة أو فى أعلى الصارى. ولابد أن يكون قادراً على فهم ما يقولونه فى أشد حالات الطقس سوءاً، ولابد أن يكون قادراً على مناداة رجاله وإصدار أوامره بطريقة تجعلها مسموعة بوضوح رغم العاصفة وتغوص فى عقل شبه متجمد أو مجهد أو مازال ناعساً.

ولكى تكون معظم المفردات البحرية مؤثرة، نجدها قصيرة ورنانة ومميزة عن بعضها. فى يوم من الأيام كانت هناك steerboard وleeboard ثم جرى تغييرهما إلى starboard [ الجانب الأيمن من السفينة ] وlarboard [ الجانب الأيسر من السفينة ] ، ولكن سرعان ما جرى تغييرهما مرة أخرى إلى starboard و port ، وهما كيانان مميزان يمكن سماعهما أثناء الرياح العاتية بشكل أفضل من right و left .وبدلاً من أن يقال لمدير الدفة "وجه المقدمة أكثر ناحية الريح" أو "ابتعد عن الريح" يكون الأمر ببساطة "Come up" [ اطلع ] أو "Fall off" [ انزل ] . وهنا لدينا حشو مؤثر. وتعزز "come" أو "fall" المعنى. وإذا كان من الضرورى الاقتراب أكثر من الريح، يكون الأمر هو Luff [ اتجه بالسفينة نحو الريح ] وهذا الإجراء غالباً ما يتخذ عندما تكون السفينة على وشك أن يتغلب عليها الريح وهو لذلك أمر عاجل. ومن ناحية أخرى يلى ذلك قرار الابتعاد عن الريح "Bear away!" [ ابتعد ] .

وتأخذ الرغبة فى الدقة أشكالاً كثيرة. ففى الأسطول الأمريكى يميز وجهة السير والسرعة والوقت تمييزاً واضحاً. فعادة ما تُعطى وجهة السير ثلاثة أعداد مثل "أدر الدفة صفر واحد خمسة"، وتُعطى السرعة رقمين "حافظ على سرعة خمس عشرة عقدة"، بينما يُعطى الوقت أربعة أعداد. وحيث إن السفن نادراً ما تصل إلى سرعات من ثلاثة أعداد وهناك ٣٦٠ درجة فقط على البوصلة، فإن هذا نوع مفيد من الحشو. بل

إن الأمر يكون "اتجه يساراً خمس عشرة درجة. سر للأمام بسرعة صفر واحد خمسة. أدر الدفة قليلاً. لا شيء ناحية اليمين." وهكذا لا يكون هناك هامش للخطأ.

يُنَفَّذ هذا الاستخدام للحشو من أجل اليقين بطرق أخرى كذلك. ففي مين وفي الأقاليم البحرية Martime Provinces (*)، حيث يديرون الدفة اثنين وثلاثين درجة على البوصلة - كما يفعل الناس في أجزاء كثيرة من العالم - غالبًا ما يغير البحارة قيمة الحروف المتحركة. إنهم لا يتحدثون عن North [ الشمال ] و South [ الجنوب ] بل عن "Nothe" و "Sothe" . في النصف الشرقي من البوصلة يكون الأمر "Steer nothe-east; steer sothe-east" . وفي النصف الغربي من البوصلة نسمع "nawthwest" و "saouth by west" .

على عكس السفر بالسيارات وما يصاحبه من بؤس، فإن السفر بحراً مستمر من قرون، وبتطور السفر بحراً وبناء السفن تطورت اللغة معهما. ومن الغريب أن البحّار شخص محافظ بطبعه ويتردد في إجراء أي تغيير. ولأن معرفة القراءة لم تكن لزمن طويل جزءاً من معارفه، فقد كان يميل إلى الاعتماد على الذاكرة فيما يختص بكل شيء في مهنته، وبدلاً من إسقاط مصطلح مهجور، كان يعدله ليتلاءم مع غرض جديد ويخترع أو يكتسب المزيد من المصطلحات التي تتوافق مع ظروفه المستجدة.

صارت عبارات البحارة من التعقيد وأثارت اهتمام أهل البر بها بحلول عام ١٦٢٧ حتى إن القبطان جون سميث John Smith أخرج كتيباً من ٨٠ صفحة عن المصطلحات البحرية الأساسية وتسمية السفن بعنوان A Sea Grammar [ أجرومية بحرية ] وبحلول عام ١٧٦٩ كان ويليام فالكونر William Falconer قد انتهى من تجميع Dictionary of Marine [ قاموس البحرية ] الذي ظهرت الطبعة الرابعة منه عام ١٨١٥ في أكثر من ٨٠٠ صفحة! والنقطة اللافتة للانتباه هي أن مصطلحات سميث جميعها موجودة في قاموس فالكونر وأن معظم مصطلحات فالكونر (ما عدا مصطلحات المعدات الحربية)

(*) نوفا سكوشا ونيو برونزويك وجزيرة الأمير إدوارد وهي مناطق كندية تقع على المحيط الأطلنطي (المترجم) .

مازالت معروفة للبحارة فى الوقت الراهن، رغم تغير الهجاء والنطق إلى حد ما؛ فنجد أن "lanners" عند سميث هى lanyards [ أطناب ] (*) فى وقتنا هذا.

وهناك نقطة يمكن إثارتها كمؤشر آخر على طبيعة البحَّار المحافظة والتزامه بالتراث. فقد أوضح القبطان سميث أن الأرضة هى أسوأ آفة يمكن أن تواجهها أية سفينة. وكانت أفضل طريقة لتخلص السفينة من هذه الآفة هى تنظيف "to bream" السفينة بالنار - حيث تسحب السفينة من الماء وتوقد تحتها نار سريعة شديد الحرارة. ويحرق ذلك تلك المخلوقات الضارة ويسلق الباقى. وبعد ذلك، وقبل إنزال السفينة فى الماء كان من المعتاد تشحيم البدن كى تبحر بسرعة أكبر. وفى الوقت الراهن مازال بحارة السفن الشراعية فى لشبونة بالبرتغال يتبعون هاتين الممارستين، رغم وجود الكثير من الطرق الرخيصة والسهلة والأقل خطورة للتخلص من ديدان السفن teredos .

مما سبق يتضح أن تطور اللغة البحرية كان عملية تراكمية. ومع تغير السفن كانت اللغة تميل إلى التكيف مع أنماط السفن الأحدث بدلاً من أن تصبح مهجورة. وكان المصطلح يسقط فقط حين يكون هناك احتمال للبس فى المعنى الاصطلاحى، أو حيث لا يكون هناك وجود للشىء الذى يشير إليه بأى شكل كان - وهذا أمر نادر الحدوث.

منذ العصور الوسطى حتى زمن الأرمادا، كانت السفن تزود بأبنية على هيئة الصندوق على المقدمة وعلى المؤخرة. وكانت لتلك الأبنية غرض مزدوج - وهو منع البحار الهائجة من الارتطام بالسطح وفى الوقت نفسه تقوم مقام استحكامات حربية صغيرة يلقى منها البحارة الحجارة والرماح ويرمون السهام على السفن المعادية. وكانت تسمى "fore castle" [ الحصن الأمامى ] و "stern castle" [ الحصن الخلفى ] وكانا فى حقيقة الأمر يشبهان حصنين صغيرين أكثر منهما أى شىء آخر. وبمرور الوقت، قلَّص حجم هذين البرجين شيئًا فشيئًا وأصبحت وظيفتهما صد أمواج البحر ولا شىء غير

(*) حبال قصيرة تستخدم فى تثبيت الأشياء فى السفينة، حيث يمر أحد طرفى الحبل من خلال قرص مثقوب لشد الحبال (المترجم) .

ذلك. واختصر البرج الأمامي وأصبح اسمه "fo'c'sle" أو "foredeck" وكان يعيش تحته الطاقم وتقع فوقه الرحوية أو رافعة المرساة. أمام البرج الخلفي فتخلوا عنه، إلا أن المنطقة ظلت مرتفعة لمنع الأمواج من تخطي المؤخرة ولطم السفينة، وهو خطر عظيم في عرض البحر. وأصبحت هذه المنطقة تُعرف أحياناً باسم "poop" [ سطح المؤخرة ] أو الركن الخلفي لأنها تضم ربع سطح السفينة وجرى العرف على تسميتها "officer country" [ ومعناها الحرفي أرض الضباط ] . ومن "الفتحة التي في سطح المؤخرة" يمكن للقبطان مراقبة "الخصر" حيث يعمل أفراد الطاقم ويمكنه النظر إلى الأمام فيما وراء البرج الأمامي.

كان المصابون بالجذام منذ مئات السنين إذا أرادوا تطهير أنفسهم من هذا المرض المخيف يسافرون بالسفن إلى الأرض المقدسة. وللحيلولة دون عدوى سائر الركاب وأفراد الطاقم كانوا يعزلون في المؤخرة، لكي لا تنتشر رائحتهم العفنة في أرجاء السفينة. وظلت الحظيرة التي يعيش فيها مرضى الجذام Lazars محفوظة في كلمة lazaret [ المحجر ] ، وهي كابينة صغيرة ذات رائحة سيئة توضع فيها المعدات التي لا تستخدم كثيراً.

وكان يوجد في بطن السفن الشراعية الضخمة البكر والحبال التي تساعد في تحريك الدفة. وكانت هذه المساحة مظلمة ولا يدخلها الهواء وضيقة ورطبة ويكثر فيها الضوضاء. هنا في الدرجة الثالثة steerage كان يقيم المسافرون الذين يدفعون أقل أجرة سفر. والآن تقوم بهذا العمل محركات هيدروليكية، ولكن "الذهاب إلى الدرجة الثالثة" مازال مصطلحاً له معناه على متن السفينة.

وحين كانت السفينة ذات الأشرعة المربعة تبحر في اتجاه الريح، كان من المحتمل أن تنثني حواف أشرعتها المربعة التي في مواجهة الريح وتندفع للخلف. وفي حال حدوث ذلك كان الشراع يسقط وتجد السفينة نفسها مكبلة "in irons"، أي تكبلها الريح وتكون عاجزة عن التحكم في تحديد وجهتها. ولمنع ذلك، كان يُمد حبل من الحافة التي في مواجهة الريح إلى المقدمة ويشد بإحكام. وفي حال اقتراب السفينة أكثر مما يجب من الريح، كانت الحافة المكشوفة من الشراع لا تلتوي. ويسمى الحبل والعقدة

المستخدمان لذلك الكر bowline . وغالبًا ما كان الأمر هو "أبقها على الكر المشدود" - وهو مصطلح مازال يستخدم فى بعض الأحيان؛ إلا أن أكثر ما يذكرنا بالعبارة هو اسم أكثر العقد البحرية جميعًا استخدامًا، وهى العقدة غير المنزلقة.

كانت المدافع فى السفن الحربية القديمة توضع على السطح الرئيسى، وبشكل أساسى فى الخصر. ومن أجل الحماية كانت الجوانب ترفع فوق مستوى السطح وكان الرجال يجثون خلفها. وكانت المدافع تنطلق من خلال فتحات فى تلك الألواح، وحتى يومنا هذا يسمى الجانب المرفوع بالملطم bulwark، وهو الغطاء الموجود فوقه الشفير(*) gunwale أو "gunnel" .

كثير من الكلمات المحفوظة قديم جداً، حيث يعود على الأقل إلى الأنجلوسكسونيين. فكلمة "bos'n" على سبيل المثال تحريف لكلمة boatswain [ عريف الملاحين ] - ذلك أن swain كلمة أنجلوسكسونية تعنى على وجه التقريب الحارس أو المراقب، ومن ثم يكون معنى bos'n هو كبير ملاحى السفينة [ الريِّس ] . وكما هو الأمر فى حالات كثيرة، يُحفظ مع الكلمة قدر معين من التراث. وشارة هذه الشخصية البارزة هى "نداء" أو "مزمار" حارس السفينة. وهى فى العادة مصنوعة من الفضة على شكل عضو الكلب التناسلى وتعلق فى الرقبة فى سير من الجلد المجدول بعناية يسمى الجديلة sennit . وفى يوم من الأيام كان كل النشاط تصدر أوامره بآلة النفخ الصغيرة هذه (وهى آلة النفخ الوحيدة التى كان مسموحًا بها على السفن القديمة). ولم تكن صافرة النداء تستخدم لأغراض إصدار الأوامر وحسب، بل كذلك لأغراض الاحتفال، وفى ذلك الوقت كان يشار إليها باعتبارها "مزمارًا". وحين كان القائد أو القبطان يصعد على سطح السفينة كان "يصفر له فوق الجانب" باستمرار. وحين كان مطلوبًا إقامة حفل رسو أو كانت السفن ترسل فى مهام، كان الأمر - فى أمريكا على الأقل - هو "نداء السفن المغادرة" و "نداء جمع كل الرجال" و"نداء حفل الرسو"، وكل نداء له لحن مختلف. وبما أن الريِّس قد يصفر باليد اليمنى فقط، فهو الرجل الوحيد فى البحرية الأمريكية المسموح له بأداء التحية بيده اليسرى. وحتى وقتنا هذا لا تزال هذه العادات

(*) الحافة العلوية لجوانب سطح السفينة (المترجم) .

محفوظة في البحرية الأمريكية. ومع أن الأمر قد يأتي من خلال مكبر للصوت، فقد كانت عبارة "الآن اسمعوا هذا ..." تسبقها دائمًا صافرة الريّس الحادة وإن كانت مرتعشة.

ومن المهم الإشارة إلى أنه بحلول القرن السابع عشر كان البوق قد أُدخل كذلك على متن السفن وكان يستخدم استكمالاً لصافرة الريّس. واستمر ذلك مع استخدام بورى يخرج ألحانًا مختلفة لأنشطة مختلفة، يتذكرها الرجال من خلال الإيقاعات مثل ذلك الخاص بنوبة "الحرية": "Who's going ashore/ Who's going ashore? Who's got a dollar for a Newport whore?".

ليست مفردات البحر قديمة فحسب، فهي كذلك تقرها شعوب كثيرة، من أبرزها الهولنديون الذين أضافوا، بغض النظر عن قدرتهم كبحارة، الكثير إلى اللغة. فكلمات مثل skiff [ زورق ] و schooner [ سفينة ذات شراعين أو أكثر ] و skipper [ ربان السفينة ] و hooker [ مركب صيد وحيد الصارى ] و boat [ قارب أو سفينة ] وyacht [ يخت ] تبدو جميعها ذات أصول في هولندا. وأسهم الفرنسيون بمفردات مثل seine [ شبكة صيد كبيرة ] وjollyboat (joli bateau) [ فلوكة السفينة ] و frigate [ فرقاطة ] و captain [ القبطان ] .وكثير من هذه المفردات تغير واندمج في اللغة شيئًا فشيئًا حتى بات مقبولاً باعتباره مصطلحات أنجلو أمريكية لا يعرف أصولها سوى المتخصص في علم أصول الكلمات.

كما ذكرنا من قبل، هناك دائمًا محدِّد وظيفي في اختيار المفردات. وقد أشرنا إلى ضرورة الاصطلاح الدقيق، وكذلك ضرورة الوضوح كي يعرف المرء على وجه الدقة ما هو المقصود منه. والوظيفة الأخرى هي الإيجاز، ذلك أنه كلما طالت العبارة ازدادت فرصة إساءة فهمها وكان احتمال أن تحمل الريح التي تهب جزءًا من العبارة بعيداً. ولهذا السبب كانت الأشياء في البحر "باتجاه الريح" to leeward أو في مواجهة الريح to windward وليس "على الجانب سُفالة الريح" on the leeward side .

ولكن هناك محدِّدًا وظيفيًا آخر قديمًا قدم ركوب البحر وفي بعض الأحيان يكون في عدم وضوح رؤية الأفق في الضباب - وقد يكون هذا هو أكثر المحدِّدات قاطبة بروزًا -

إنه النظرة التي ينظر بها البحار إلى الحياة واحترامه للبحر. قد تكون تلك النظرة متشائمة وقدرية. أما احترامه للبحر فميل قوى إلى الإيمان بحيوية المادة والاعتقاد بأنه رغم أن البحر قد تكون له بالفعل صفات بشرية، فإنه (أو "إنها" كما يدعى المحيط كثيراً) فى المقام الأول قوة معادية قد تكون متواطئة مع عناصر الطبيعة. ويَسلَم البحّار، بالتعاون مع سفينته، فقط إن هو فاقها حيلة ودهاء، حيث تنتظر هى بصبر لا آخر له كى يُسلِّم نفسه ـ ولأنه إنسان فصبرها كثيراً ما يكافأ. وهذه الفكرة يشعر بها أحياناً الشعراء الذين يتحدثون عن "المحيط العجوز"، أو يشيرون إلى أن "محيط إنجون يغرب ويبتسم"، أو يتعجبون قائلين "أيها البحر، التطم، التطم، التطم على أحجارك الرمادية الباردة"، ولكنها متأصلة فى طبيعة البحار مثل التجاعيد التى حفرتها الشمس والرزاز والريح حول عينية، ومدفونة فى أعماق روحه كالروماتيزم الذى أصابته به الرطوبة الراسخة فى عظامه.

هذه الحقيقة اعترف بها إرنست هيمينجواى Ernest Hemingway الذى يقول عن أحد أبطاله:

**كان يفكر فى البحر دائمًا على أنه "La Mar" كما يسميها الناس باللغة الأسبانية حين يحبونها. ففى بعض الأحيان يقول المحبون أشياء سيئة عنها وكأنها امرأة. بعض الصيادين الشباب، هؤلاء الذين كانوا يستخدمون الشمندورات كعوامات لخيطانهم وكانت لديهم قوارب تعمل بمحركات، اشتروها حين كانت أكباد القرش تحقق أموالاً كثيرة، كانوا يتحدثون عنه باعتباره "el mar" وهو مذكر. كانوا يتحدثون عنها على أنها منافس أو مكان أو حتى عدو. ولكن العجوز كان يفكر فيها دومًا باعتبارها أنثى وعلى أنها شيء يمنح جزيل الفضل أو يمنعه، وإذا أتت بما هو ضار أو شرير فذلك لأنه لا يسعها منع ذلك. فقد كان يظن أن القمر يؤثر عليها كما يؤثر على أية امرأة[٣].**

ولكى يَسلَم البحار، فهو يعلم أنه لابد له من ترضية عناصر الطبيعة أو خداعها ـ وخاصة البحر. قرّب عوليس Ulysses (*) القرابين للبحر، وزيادة فى الأمان جعلهم

(*) تقول الأساطير إن الملك اليونانى عوليس (وهو أوديسيوس الذى تحمل ملحمة الأوديسا اسمه) الذى شارك فى حرب طروادة أراد العودة إلى بلاده بعد سقوط المدينة المحاصرة، إلا أن بوزيدون إله البحر الذى سبق أن أهانه لم يسمح له بالعودة قبل عشر سنوات من التجوال فى البحار (المترجم) .

يقيدونه في سارية السفينة – ومنذ زمن لا يذكر أحد تاريخه حتى الآن والإنسان يحاول ترضية البحر بالهدايا. ولا يهم كثيراً إن كانت تلك الهدايا أضاحي بشرية فيما قبل المسيحية، أو أكاليل من الزهور تلقى فوق المد في جلوسستر بولاية ماساتشوستس أو سانت جونز في نيوفاوندلاند كل صيف من هذا القرن؛ فالدافع واحد إلى حد كبير.

إلا أنه حتى الآن يوجد أكثر أفعال الأمن رسوخًا في اللغة، وفي النبرة، وفي المجاز وفي الموقف. لم يكن الأنجلوسكسوني يقول إنه ذاهب إلى البحر؛ بل كان يقول إنه ذاهب "في طريق الحيتان". كما أنه لم يكن يسحب مجدافًا بل "شجرة دردار". وبدلاً من السفر في سفينة، كان يسافر في "جَوَّال وحيد" أو "طيَّار بعيد". وهذا الاستخدام للمجاز أو الكناية لم يكن لأغراض الضرورة الشعرية وإنما لمنع البحر، إن أمكن، من اكتشاف أمر عمل البحَّار. واستمرت هذه الممارسة حتى يومنا هذا. ولا يحتاج المرء إلا لسماع اثنتين من السفن تتحاور، ولا يهم كثيراً إن كان ذلك على جراند بانكس Grand Banks قبالة سواحل نيوفاوندلاند أو بريسا بانك Bressa Bank قبالة جزر شتلاند. وقد يكون المثال التقليدي كما يلي. صوت متعب يائس يشق الهواء:

"من جيرل فيفيان إلى سيجار جو، من جيرل فيفيان إلى سيجار جو، أجب يا قبطان."

"هنا سيجار جو. مرحبًا فريد. أين أنت؟"

"في نفس المكان السابق تقريبًا. أين أنت؟"

"تقريبًا في نفس المكان الذي كنت فيه المرة السابقة. كيف حال الطقس عندكم؟"

"لا بأس. قد يسوء، قد يسوء. كيف الحال معكم؟"

"ليس شديد السوء، ليس شديد السوء. واجهنا ريحًا خفيفة منذ قليل ولكنها اختفت الآن. ربما تراجعت لتستجمع قواها. هل هناك أي شيء في طريقك؟"

"لا، لا، بضع صناديق من أسماك لا قيمة لها، هذا كل شيء. لم نتوقع أن نقوم برحلة على هذا القدر. وأنتم؟"

"لا، لا شيء بالمرة هنا. أسوأ ما رأيت. قد أعود فارغًا. إنها طريقة صعبة لكسب المال."

"نعم، نعم، هذا هو الحال. أراك في السوق. حوِّل."

"وهو كذلك يا قبطان. أراك لاحقًا. جيرل فيفيان تنهي الاتصال مع سيجار جو."

وصلت السفينتان إلى السوق بصيد وفير بعد يومين. بالطبع قد يُقال إن المحادثة بكاملها حيلة لإبعاد سائر الصيادين، ولكن بما أنه من المعتاد أن يصطاد الصيادون على مرأى من بعضهم ويمكن لأحدهم أن يجرى اتصالاً لاسلكيًا بالسفينة المعنية، فهذا القول غير صحيح. فالأمر الأكثر وضوحًا هو حقيقة أن الطبيعة الفضولية سوف تسعى لمعرفة أحوال السفينتين، ومن النبرات اليائسة إضافة إلى الصيد القليل المرتبط بذلك، لن يستحق الأمر من الطبيعة أن تسعى وراءهما.

كثيرًا ما يُعبَّر عن فكرة كون الرب أو عناصر الطبيعة يقصدون الشر بالإنسان فى شكل حكاية. وأفضل ما يعبر عن ذلك حكاية الهولندى الطائر، وهى حكاية تدور حول رجل تحدى عناصر الطبيعة وأقسم أنه سيدور حول كيب هورن بغض النظر عن حالة الطقس. فكما يعلم أى بحّار (ويعلم صمويل تايلور كوليريدج Samuel Taylor Coleridge(*)) تمام العلم أنه لا يزال يحاول الاتجاه غربيًا ليدور حول كيب هورن. وبلغة أكثر جفافًا ولكنها بقوة مماثلة يقول جاك لندن Jack London فى قصة قصيرة بعنوان Make Westing [ الاتجاه غربيًا ] : "راجع القبطان دان كالن جهده الأدبى بإعجاب ... شعر أن السفينة مارى روجرز ترتفع وتميل وتلاطمها الأمواج، وعلم أنها تسير بسرعة تسع عقد. بدأت تشرق ابتسامة رضا على وجهه الأسود كثيف الشعر. لا بأس على أية حال، فقد اتجه غربيًا وضحك على الرب"(٤) .

للذين قد يقولون إن مثل تلك الأفكار خيال لا أساس له يعود للماضى تقدم حكايتان حديثتان من تشيسابيك قبولاً مضافًا. فقد خرج رجل فى الخليج وهبت عاصفة قوية. استمرت العاصفة الساعة تلو الأخرى ومهما فعل القبطان لم يمكنه العثور على مأوى، ولم يتمكن من الوصول إلى ميناء. وأخيرًا قفز غضبًا ولوح بقبضته فى وجه السماء وصاح: "أنت يا ابن الـ.... إن كنت فعلاً هناك فى الأعلى أوقف هذه!" وطبقًا لما قاله الراوى، "حينذاك اشتدت الريح أكثر من قبل"(٥) .

(*) شاعر وناقد إنجليزى كان رائداً للحركة الرومانسية وقد نشر مع ويليام وردزورث Lyrical Ballads عام ١٧٩٨ وكانت تضم أشهر قصائده The Rime of the Ancient mariner [ قصيدة البحار القديم ] (المترجم) .

فى مناسبة أخرى أجبر الطقس سفينة صيد محار على البحث عن مأوى فى خور صغير حيث ألقت بمرساتها. هبت الريح بشدة منعت الكل من الوصول إلى البر، وبعد يومين بدأت المؤن فى النفاد. قال الضابط البحرى للقبطان: "لابد أن تفعل شيئًا يا قبطان." "ماذا عساى أن أفعل؟ لقد فعلت كل ما فى وسعى." "يمكنك إذن أن تجرب الصلاة." صلى القبطان لمدة ساعتين ثم نام. استيقظ فى صباح اليوم التالى وفتح كوته وأطل برأسه. "كيف الحال يا قبطان؟" "تمامًا كما توقعت. أسوأ قليلاً."

يبدو كتم المشاعر الذى لاحظناه فى المحادثة اللاسلكية مسيطراً على كلام مهنة البحارة. بالنسبة لمندوب إحدى الصحف على البر، تعتبر الريح القوية فى البحر إعصاراً رهيبًا، بينما هى فى البحر "هبة ريح" أو على الأكثر "نوة جية". وما يراها ابن البر على أنها "أمواج ضخمة" يراها البحار "كتلة من البحر"، وذلك ليس لأنه رأى ما هو أكبر أو لأنه أكثر تعوداً على الأمواج العالية، بل لأنه يخشى بالفطرة إغضاب الطبيعة. فلو كان الطقس السيئ يخيفه أو يفسد حياته، فالحديث عنه إذن يساعد على تشجيع أنشطة الطبيعة.

لا يكتم البحار رأيه وملاحظاته إلى حد التردد فى إبلاغ موعد الوصول أو خط السير أو السرعة فحسب، بل إنه لكى يتجنب سوء الحظ قد يلجأ كذلك إلى الدعابة فى ملاحظاته. وغالبًا ما يجرى ذلك عن طريق التقليل من شأن ما هو بالغ الشدة. ففى إنجلترا حين تجنح سفينة من السفن عرضًا يقول القبطان إنه "وقف على المعجون"، بينما يقولون فى الولايات المتحدة إن السفينة "اصطدمت بالطوب". وقد يقول رجل لزميله إنها "ليلة جميلة" حين يرى الأمواج ترتطم بسطح السفينة ودرجة الحرارة أقل من التجمد. وإذا سقط البحّار فى المياه المثلجة فمن الأرجح أن يقول إن ذلك كان "أول حمام فى السنة"، وإن "الماء كان فى درجة الحرارة الصحيحة". وذات مرة حين كانت السفينة تتمايل تمايلاً شديداً أدى إلى تحطم الأوانى الخزفية وكان من المستحيل على المرء الاحتفاظ بثباته، سمعت صياداً عجوزًا يقول "تعلمون، لو كانت السفينة عقدت العزم على أن تتمايل فإننى أتوقع أنها قد تتمايل تمايلاً شديداً." وفى سجل قديم علق القبطان على الصعوبة التى واجهها فى توجيه سفينته. قال إنه فى غاية السعادة لأن أفريقيا بعيدة جداً عن أمريكا الجنوبية حيث أتاح له ذلك متسعًا كى يغير اتجاهه (٧) .

مثل هذا المزاح أو السخرية أو التهكم اللاذع موجود من زمن بعيد وكثيراً ما يدخل في التسمية. فعلى سبيل المثال، يسمون مدخنة مطبخ السفينة في أمريكا "تشارلى نوبل" Charlie Noble . وطبقًا لحكايات البحارة تعود هذه التسمية إلى القرن الثامن عشر، حيث يقال إن الأميرال البريطاني تشارلز نوبل كان يصر على تلميع مدخنة المطبخ باستمرار. استاء البحارة من هذا العمل وانتقموا منه بتسمية هذا الجزء من السفينة باسمه. (قد نلاحظ هنا أن الكثير من المصطلحات على متن السفينة تحمل أسماء أشخاص؛ فهناك خط بليمسول Plimsoll line الذي يحدد العمق الذي يمكن عنده تحميل السفينة، وهناك عقدة ماثيو ووكر Mathew Walker، ونوع من الأشرعة اسمه جيمى جرين Jimmy Green، ونوع محسّن من ملابس الطقس السيئ اسمه الأمير ألبرتس Prince Alberts شاع في كيب هورنرس Cape Horners في عهد الملكة فكتوريا.) و"خط اليقين" lubber line [ والمعنى الحرفى للمصطلح الإنجليزى هو "خط الغشيم" ] هو موقع على صندوق البوصلة يوجه به البحار غير المجرب السفينة بدلاً من مراقبة الأشرعة أو النجوم أو غيرها من أشياء كما يفعل البحارة المتمرسون. وعيد فيلد Fiels day ليس عيداً وإنما يوم يجرى فيه تنظيف السفينة بالكامل، و"أحد خيوط الحبل" rope yarn Sunday هو يوم راحة. و"الكيس المحظوظ" lucky bag، ويسمى كذلك "صندوق الفضلات" slop chest، هو إمداد من الملابس الخرقة أو المستغنى عنها التى قد يستخدمها البحار سيئ الحظ مقابل بعض المال لاستكمال عهدته.

ولا تقتصر السخرية على السفينة وحدها بل تتعداها إلى الناس والأشياء والدول. فالسفينة الحربية البرتغالية Portygee man-o'-war نوع من قنديل البحر ذى لسعة سامة. وجونى كرابو Johnny Crapauds هم الفرنسيون. وخناقو الرنجة Herring chokers رجال من نوفا سكوشا ومتشددون من نيوفاوندلاند. والراية الأيرلندية حبل متدل، والإعصار الأيرلندى هو سكون الريح، ومحامى فيلادلفيا البحرى شخص يتظاهر بأن لديه إجابة عن كل سؤال. ومن ناحية أخرى يشير مصطلح "بكّاو بيكاديللى" Piccadilly weepers إلى نوع من اللحى يطلقه البحارة الذين يقضون وقتًا طويلاً فى عرض البحر. وpogue اسم سمكة ويعنى كذلك الشخص الشاذ جنسيًا، وpogey bait نوع من الحلوى ـ وهناك اعتقاد شائع بأنه طعام الشواذ جنسيًا. وعاصرو الليمون

Limejuicer هم الإنجليز بسبب عادتهم الخاصة بتقديم عصير الليمون بانتظام للوقاية من مرض الإسقربوط. وصانعو الأرامل هي صواري المقدم، وسميت بهذا الاسم بسبب عدد الرجال الذين فقدوا من عليها وهم يحاولون لم الشراع في عرض البحر. والشخص الذي يفتقر إلى الكفاءة عموماً يقال إنه تقريباً مثل الغلاي الاحتياطي أو إنه لا يساوي أي شيء "أكثر من ضراط دجاجة في ريح عاتية".

وليس هناك مكان تتضح فيه هذه السخرية أكثر من المطبخ البحري. ولم يكن مطبخ السفينة قط مكاناً للتجمع مثل برميل ماء الشرب scuttlebutt - ويوضع برميل الماء بجانب فتحة الكوة حيث يتوقف أفراد الطاقم ليتبادلوا الشائعات (ومن ثم يقال "برميل الماء يقول ...") بينما يروون عطشهم. وكان أفراد الطاقم، وخاصة في سفن الصيد، يتجمعون أحياناً هناك لتناول القهوة أو الشاي المعروف باسم "mugs-up" أو "levenies" لأنه كان يقدم في أكواز mugs في الساعة الحادية عشرة eleven . (ولم يكن هذا بالطبع مصطلحاً قاصراً على البحر، ولكنه جاء في الأصل من على البر، مثله مثل القائم الدقلي martingale وهو دعامة موجودة أسفل صاري المقدم تتطابق في اللفظ مع اسم قطعة من طقم الفرس (*)) .

كانت العادة أن يُسَمُّوا الطاهي الدكتور، وكان إما زنجياً أو بحّاراً لم يعد يقوى على العمل الشاق وكان يعمل بالفعل في بعض الأحيان طبيباً للسفينة. (وكان الطبيب يسمى، في القاموس الأمريكي على الأقل، "أبو زكيبة" crocker لأنه كان يحمل أدوات مهنته في زكيبة crocus bag . ولأنه لم يكن كفؤاً في مهنته. وأصبح هذا المصطلح يعني "يموت" حين يستخدم كفعل). وكانت وظيفته في كثير من الأحيان وظيفة ختامية بالنسبة للعمل في البحر، وكان يساعده صبي بدأ حياته العملية للتو. وكان أفراد الطاقم لا يحبونه ليس فقط بسبب طهيه السيئ، ولكن لأنه كان مسئولاً عن المخازن. ويمكن تلخيص رأي البحارة في الطاهي من رواية موجودة في سجل سفينة من القرن السابع عشر. ألقى البحر بإحدى السفن على جزيرة بون Boone Island بولاية مين

(*) تعني كلمة martingale في اللغة الإنجليزية، إلى جانب المعنى الخاص بذلك الجزء من السفينة، اللّبب وهو سير يشد إلى حزام السرج، ماراً بين قائمتي الفرس الأماميتين حتى يتصل باللجام (المترجم) .

وصار أفراد الطاقم من أكلة لحوم البشر. فقد أكلوا الطباخ، وفسر القبطان الاختيار بقوله: "كان شخصاً سميناً وغبياً."

لم يكن الطاهي غير كفء وحسب، بل كانت المؤن بدايةً في غاية السوء كذلك. فقد كان السمك المملح ولحم البقر المملح ولحم الخنزير المملح تقدم باعتبارها الأغذية الأساسية إلى جانب الخبز المحمص (بسكويت السفينة). وفي كل أسبوع كان قدر من اللحم يخزن في براميل مثبتة في مؤخرة السفينة بجدوات (مما أكسبها اسم "براميل طقم الفرس" harness casks) وتخرج بشكل دوري. وكان اللحم يعرف باسم "الحصان المملح". أما السمك المملح فكانت له أسماء عديدة - فهو في إسكوتلندا ويلي كثيف الشعر hairy Willie ، وفي الولايات المتحدة ديك رومي جزيرة بلوك Block Island turkey . وكان اللَّبسكوس lobscouse يخنى من اللحم والخبز المحمص والبطاطس، وكان الداف duff نوعاً من الخبز، بينما كان "الجبان المتغندر" dandy funk نوعاً من البودنج السريع المصنوع من كسر الخبز المحمص والسوس والمولاس. وكانت القهوة تسمى جافا Java أو جو Joe، وكان يقال إن القهوة والشاي لا يكونا صالحين إلا حين "يُعَوِّمان مخرز الجدْل(*) .

بشكل عارض، ظلت تلك عادة لافتة للانتباه تتبع في سفن الصيد. فحين كانت السفينة تخرج للصيد، كان براد ضخم مملوء بالماء وحفنة من الشاي أو القهوة يوضع على موقد المطبخ ويترك يغلى على نار هادئة. وكان أفراد الطاقم يصبون الشاي أو القهوة ويشربونه بالسكر و"الحَلَمَة المعلبة" (اللبن المكثف). وحين ينفد كل السائل، كانوا يضعون في البراد حفنة أخرى من الشاي أو القهوة ويملأ من جديد بالماء وتستمر العملية. وحين يمتلأ البراد بأوراق الشاي أو البن، يكون الوقت قد حان للعودة إلى البر.

والطقس أحد المجالات التي تغطيها اللغة البحرية تغطية كثيفة. فالريح يقال إنها "تتراجع" to back (تتجه عكس عقارب الساعة) و"تغير الاتجاه" to haul (تسير في اتجاه عقارب الساعة) و"تنحرف" to veer أو تكون "متغيرة" fluky (تغير اتجاهها

(*) مخرز حديدى مستدق الطرف يستخدم فى فصل الحبال حين جدلها (المترجم) .

فجأة). وهذا المصطلح يستخدم كذلك عند إلقاء المرساة حين "يرخى" أحدهم veers، أى يرخى المزيد من حبل المرساة، وكان فى وقت من الأوقات يشير إلى تغيير الريح لاتجاه السفينة ـ والآن يشيع استخدام مصطلح "انحراف الشراع" jibing على السفن ذات الأشرعة الطولانية و"الاستدارة" wearing على السفن ذات الأشرعة المربعة. ومخلب القط cat's paw هبة ريح خفيفة تحرك المياه، والزوبعة البيضاء white squall هى تلك التى يَبْيَضُّ خلالها الماء بفعل الريح، بينما الزوبعة السوداء black squall هى تلك التى يكون هناك خط أسود فى الماء أثناءها. و"الريح الجنوبية الغربية المدخنة" smokey sou'wester ـ وتسمى أحيانًا فى حالاتها الشديدة "الريح الجنوبية الجبانة" white-livered sou'wester ـ ريح تأتى معها برذاذ وتقلل الرؤية. والريح الجنوبية الشرقية so'easter ريح عاتية تأتى من ذلك الاتجاه، أما الريح الشمالية الشرقية nor'easter فمتعارف عليها بشكل على على أنها تهب لمدة ثلاثة أيام. ويطلقون على غياب الريح السكون الميت dead calm أو السكون منبسط المؤخرة flat-arsed calm . والريح الشديدة "ريح كاملة الدسم" whole gale أو "هبة ريح حية" a living gale of wind . وفى بعض الأحيان حين تنشأ تلك الظروف ويطرح السؤال "كيف حال الريح؟" يكون الرد هو "فوق الصارى وتحته". والضوء الذى عند الأفق يسمى "تلألؤاً" glin والسراب يسمى "الطيف غير الواضح" loom . ويسمى الضباب، إذا كان يقلل الرؤية إلى حد كبير، "كيس ضباب" tick o' fog أو "سجنًا كبيرًا من الضباب" a great dun-geon of fog .

أما اللغة البحرية فمن التعقيد بحيث تصبح مصدر متعة كبيرة للبحّار المخضرم "shellback" كى يعذب صبيان المهنة. فكم من شاب برىء أرسل إلى عش الغراب الطائش لإحضار بيض للإفطار، وطُلب منه البحث عن ماثيو ووكر، وإبلاغ السُدسية sextant (*)

(*) جهاز بصرى مزدوج الانعكاس يستخدم فى الملاحة لقياس الزوايا، وخصوصًا الارتفاعات الزاوية للأجرام السماوية. وهذا المقلب سببه أن كلمة سدسية بالإنجليزية sextant قريبة من كلمة معناها أحد رجال الدين المسيحى وهو الشماس sexton (المترجم) .

أن يتلو الصلاة. وكان يقف الساعات الطوال يمسح البحر الذى يخلو من أى شىء بحثًا عن شمندورة البريد. وعلى الشاطئ قد تكون الإجابة عن السؤال الأحمق "ما هذا؟" هى "فروة قط لعمل سروال للهريرة" أو "توقف قصير للحاق بالباعة الجائلين"، ولكن فى البحر تكون الإجابة عن "ماذا تفعل؟" هى "لماذا، إننى أصنع scrudgeon ." والكلمة تشبه بعض الشىء كلمة gudeon [ المرود ] - وهو جزء من الدفة(*) - ولكن المزيد من الاستفسار يكشف أن "scrudgeon أيها الشاب دفة لمؤخرة البطة." وأحيانًا يكون ما يصنع هو "شىء تصعب تسميته"، إلا أن المزيد من الاستفسار يكشف أنه "عشرة أرطال من الغائط فى كيس ورقى بخمسة جنيهات".

وحين يسأم البحارة المتقدمون فى السن من هذه اللعبة ويرتاح الحارس أسفل، تستمر السخرية. قد يسأل سائل "ما السبب فى أن السمكة المفلطحة لها فم معقوف؟" وحين تكون الإجابة "لا أعرف"، يكون الرد "لأنها قالت عن الرنجة إنه 'لوطى نحيف'"(٩). وقد يُطرح لغز على البحار المستجد:

"الريح كانت غربية ووجهنا السفينة غربيًا

كانت الريح فى المؤخرة. كيف يمكن ذلك؟"

والإجابة التى تحبطه كثيرًا هى "الغرب كان يمسك الدفة" (١٠).

تدخل هذه الأشياء ضمن فئة "الحكاية الخيالية" tall tale - وهى أداة شائعة إلى حد كبير بين الناس فى البر والبحر. ولكى تكون الحكاية الخيالية مؤثرة لابد لها من موقف. لابد أن تكون هناك جماعة "داخلية"، وهى فى هذه الحالة المخضرمون، وجماعة "خارجية" - أى المستجدون. والحكاية التى تروى يعرفها أفراد الجماعة الداخلية معرفة جيدة وتكمن الفكاهة فى أثر القصة على الشخص الذى من خارجها. والقصة فى الغالب تأخذ شكل حقيقة مبالغ فيها ، إما مضخمة إلى حد اللامعقولية أو تكاد تصل إلى هذا الحد، وهنا يسأل المستمع الغرير السؤال المحتوم.

(*) تركيبة من المعدن موجودة فى قائم دفة السفينة حيث تعلق الدفة وتكون محور ارتكاز لها (المترجم).

سأل القبطان بارت روبنز Bart Robbins من ستوننجتون Stonington بولاية مين سائحة معجبة به "سيدتي، ألم أحك لك عن تلك المرة التي كنت فيها على عمق تسعة عشر ميلاً داخل البحر وغرقت السفينة في الإعصار ومعها كل البحارة؟"

"لا يا سيدي، فماذا فعلت؟"

"غرقت."

إحدى هذه القصص الشائعة في الشمال الشرقي تتعلق بالعاصفة الكبيرة التي أطاحت بالأشرعة والطلاء، وحتى بلحية الربان. وحين اتضح أن كل شيء ضاع مرت السفينة من عين العاصفة. غيرت الريح اتجاهها ١٨٠ درجة وأعادت كل شيء إلى متن السفينة (١١) .

في ميناء تشيسابيك تروي حكاية عن منزل ضربته الصاعقة، واخترق البرق المنزل ونزل في الأرض مخلفًا وراءه حفرة عميقة. وحين يسأل البحّار الغرير عن عمق الحفرة، تكون الإجابة "لا أدري، فقد ألقيت فيها عود سبر الغور ونزل فيها حتى لم يعد يسمع له صوت" (١٢) .

وتأتي من نفس المنطقة حكاية عن رجل يلتقي بفتاة في ليلة عاصفة وينتهي بهما الحال أمام كاهن مزيف فيزوجهما بمراسم غريبة الشأن. وهنا كذلك يسأل الشخص الذي يسهل خداعه عما حدث، وهنا يقال له إن الكاهن زوج الرجل والفتاة بالرباعية التالية:

الليلة مظلمة والطقس سيئ

وأنا الآن أجمع بين العاهرة واللص.

اجر يا لص والحق بالعاهرة،

عيشا معًا إلى الأبد (١٣) .

من حسن الحظ - أو من سوئه، حسب الطريقة التي ينظر بها المرء إلى الأمر - أن اللغة البحرية لم تقيدها تلك القيود التي يفرضها القاموس على أية لغة. ولذلك نمت نموًا مستقلاً على جانبي المحيط. ونتيجة لذلك ظهرت الاختلافات في المصطلحات البحرية التي قد تؤدي إلى الارتباك - فعبارة "Give us a growl at half past three" ] يقصد

نادى علينا ] على السفن الأمريكية تقابلها "Give us a shout" على السفن البريطانية. ويقال عن الأمريكيين حين ينامون "get some shut eye" بينما يقال عن البريطانيين "get their kip" . وعبارة طرح صيادي السمك الأمريكيين للشباك هي "set their trawls" في حين يقول الإسكوتلنديون والأيرلنديون "shoot nets" . ويحتفظ الأمريكيون بوعاء للقمامة يسمونه "gurry bucket" بينما يضع البريطانيون قمامتهم في وعاء اسمه "gash bucket" . ولدى الأمريكيين من الحبال hawsers وcables بينما البريطانيون لديهم warps وtiers . ويقال للأمريكي حين يطلب منه الإسراع "Bear a hand" أو "Shake a leg"، في حين يقال للبريطاني في الموقف نفسه "Show a leg" . ويرتدي الأمريكيون "زي الجو السيئ" foul weather gear و"يتزيتون" oil up، أي يرتدون المعاطف المصنوعة من المشمع. بينما يرتدي البريطانيون "المزيتات" oilies . والأمر الخاص بإطلاق النار في البحرية البريطانية هو "Shoot, shoot, shoot" وهو في البحرية الأمريكية "Fire" . والنجار في لغة الأمريكيين هو Chips ولكن الإنجليز يفهمون هذا المصطلح على أنه البطاطس المقلية.

ونحن لا نجد فروقًا عامة بين اللغة البحرية الخاصة بالأمريكيين والبحارة من أماكن أخرى في العالم الناطق بالإنجليزية وحسب، بل نجد كذلك عدداً من الملامح اللغوية المحلية التي لا تسمع إلا في منطقة واحدة، وأحيانا في مكان واحد فقط. ففي نوفا سكوشا حين توضع كلمة poor أمام اسم رجل من الرجال فهي تشير إلى أنه ميت، كأن يقال ".... Poor Charlie, he used to say" . وفي المنطقة ذاتها تعني كلمة "blue" صعب أو رهيب، كما في عبارة "I've seen times, I tell you, when things looked mighty blue." و كلمة "civil" معناها لطيف في ولاية مين، بينما الكلمة القريبة منها في أيرلندا هي "grand" . ونسمع من لابرادور كلمة "tickle" التي تعني خليجًا في غيرها. وفي إسكوتلندا حين يتحدث الصيادون عن مدخنة مطبخ السفينة يستخدمون كلمة "lum" بدلاً من "Charlie Noble" . وفي مكان آخر تستخدم كلمة lum في اللغة البحرية كناية عن البحار الأخرق. وفي خليج تشيسابيك تعني كلمة tump اللسان الممتد في البحر. وليس هناك مجال تشيع فيه الملامح اللغوية المحلية أكثر من الرياح الشديدة، ولذلك فإن لدينا أسماء عديدة مثل "chinooks" و "mistrals" و "Portoguese trades"

و "Santa Anas" و "Tehuantapeckers" و "williwaws" وكثير غيرها. وبينما كلمة "ground" هي المصطلح العام لمنطقة الصيد مثل "Hatteras ground" في نيو إنجلاند والأقاليم البحرية، فكثيراً ما يستخدم مصطلح "haul" .

حين تخرج هذه العبارات من فم أحد البحارة تساعد على تحديد المكان الذى جاء منه، تماماً كما تحدد كلمات مثل "stream" و "brook" و "creek" و "run" [ وهي أسماء مختلفة تدل على المجرى المائي ] إلى أى مكان من البلاد ينتمي رجل ما ممن يعيشون على البر.

تشيع هذه الأسماء المحلية فى تعريف الطيور والأسماك. ففى إحدى المناطق تعنى كلمة "bluebill" بطة كبيرة من النوع الغواص، بينما تشير فى مكان آخر إلى البطة زغباء الرأس أو الظربان. وتصطاد أسماك القُد الصغيرة codlings فى المياه الإسكوتلندية، ولكنها قبالة نيو إنجلاند تسمى tomcods . وفى جنوب ماساتشوستس نجد أن السمكة المعروفة فى أماكن أخرى باسم skilagale تسمى swordfish . كما trout و squeteague و weakfish ثلاث مسميات لنفس النوع من الأسماك فى أماكن مختلفة.

عادة ما يكون لهذه الكلمات تاريخ مثير، وليس هناك ما يوضح هذا أكثر من عبارة "smooring up" كما تستخدم فى جزر إليزابيث قبالة جنوب ماساتشوستس. ففى إسكوتلندا حتى عهد قريب كان من المعتاد أن تقوم سيدة عجوز فى العائلة بتغطية نار الموقد بالرماد قبل النوم. وبعد أن تغطيها ترسم دائرة فى الوسط وترسم عدداً من الخطوط مثل برامق عجلة العربة تتجه من المركز للخارج. وكان تتلو صلاة ما لكل من القطع التى تشبه الفطيرة التى تنشأ عن ذلك، ويجعل الرماد النار خامدة بلا لهب طوال الليل وعلى استعداد لأن توقد من جديد فى الصباح. كان ذلك الفن يعرف باسم "smooring the fire" . وكانت الممارسة نفسها تستخدم فى أيرلندا، ولكنها كانت تعرف هناك باسم raking the fire . وحفظت الفكرة فى الولايات المتحدة فى قول من الجنوب هو "Don't try to teach your grandmother to lap ashes." [ لا تحاول أن تعلم جدتك كيف تفرد الرماد ] .إلا أن معنى هذه العبارة يختلف اختلافاً بسيطاً فى فاينيارد هيفن. فهم حين يقولون "It's mooring up" يعنون أن الرؤية تقل وأن مشكلة ستقع.

هناك فى الوقت نفسه تشابهات مدهشة بين الطرق الإنجليزية والأمريكية الخاصة بقول الأشياء. فقد أشار القبطان بوب روبرتس Bob Roberts من بن ميل Pin Mill بإنجلترا إلى أن الشىء الوحيد الذى يجعل أي سفينة تظل طافية هو "أيدى البرقات المتماسكة"، بينما قال بحّار من مين إن "الشىء الوحيد الذى يحافظ على تماسك أى سفينة هو أيدى البرقات والأرضة المتماسكة". وفى نوفا سكوشا قال رجل إنه لن يفعل شيئًا فى السفينة لأنه إذا قشط مخاط السمك والطلاء فسوف تتفكك قطعًا.

وبينما تميل جدلية أية مهنة إلى البقاء داخل المهنة وحسب، نجد أن البحّار يوسع مجال اللغة البحرية كى تفى بمتطلبات غير تلك التى فى البحر. وهو يطبق دون قصد منه المصطلحات البحرية على أشياء على البر. وهناك حكاية تقول إن بحارًا عجوزًا كان يراقب امرأة تحاول الإمساك بابنها. كانت ريح قوية تهب، وكانت تنورة المرأة تنتفخ أمامها وكانت تقترب من الطفل الذى أثار عطف البحّار. صاح البحار قائلاً: "غير اتجاهك يا صاحبى، وقدها عكس الريح."(١٤)

"يمسح" swabs البحّار على البر أرضية منزله. وحين تمطر يطلب من زوجته "غلق الكوة" close the hatch ويدعو أصدقاءه كى يأتوا إلى "باب المقدمة" foredoor . وملابسه "تملح" على الحبل، ويصر على استعمال كلمتى "port" [ بمعنى يسار ] و "starboard" [ بمعنى يمين ] . والشخص الذى يتحرك بسرعة يكون "فاردًا أشرعته" carrying sails، وحين يخرج الحديث عن الموضوع يطلب من المتحدث أن "يلف ويعود" take a round turn . والرجل العجوز الذى ليس على ما يرام " ملخلخ" all stave up أو "ضعيف فى الميـة" weak in the waterways أو "البرميل اتخرم" butt sprung أو "بقى ليِّن" gone limber، وإذا كان خرفًا فهو "باين عليه دخل السَبَت الفوقانى" about gone in the top hamper . وإذا ذهب البحار إلى مكان ما فهو "يضرب بولطة" takes a cruise و "يرسو" ties up فى الليل. وهو يذهب إلى مكتب البريد ليسمع "كلام برميل الشرب" scuttlebutt وهو يهب لمساعدة ليس صديقه friend، بل "زميله" mate . وهو لا يرتدى ملابس جديدة، بل "زيًا جديدًا" new rig، وقبل الذهاب إلى الحفلة ترتدى زوجته "حتة يوم الأحد" Sunday bunting . وحين يزوره صديقه، فهو "يخرج الشراب" ويكون لهما "حديث ودى" a gam و"يوصلان الرباط الرئيسى" splice the main brace .

وهما لا يجلسان بعيداً عن الريح وإنما "في جانب المنزل المحجوب عن الريح" in the lee of the house . وحين يغادر الصديق يقول "رياحًا طيبة" Fair winds، وإذا كان من ماساتشوستس فإنه يضيف "ابتعد عن ميدل جراوند" Keep off the Middle Ground (صخور قرب سطح الماء في مضيق فاينيارد). وفي بعض الأحيان يحرص في جزر الهند الغربية على عدم المصافحة وقول "وداعًا" Goodbye . وبدلاً من ذلك يربت على كتف صديقه ويقول "حظًا سعيداً!" Good Luck! . وقبل أن "يأوى إلى مخدعه" turning in سوف "يستعد للامتحان" mug up وبعد أن ينام نومًا عميقًا "يخرج" turn out في حوالي "السبع دقات" seven bells . وهو لا يتناول الإفطار في المطبخ . بل إنه "يأكل لقمة" في المطبخ، ويأخذ "المهمات" gear الخاصة به من "الصندوق" locker و"يزق ع البلد" shoves off for the town حيث يتجادل مع محصل الضرائب ويقول له شيئًا "يهديه" slacks him off . وفي طريقه للبيت "خبطته" rammed سيارة أخرى "طيرت" carried away صدام سيارته، ونتيجة لذلك تحطمت badly stove كلها أو ربما أصبحت "محطمة بالكامل" total wreck .

وأخيرًا نجد أن البحّار العجوز "رحلته انتهت" voyage complete (تمييزاً عن passage ومعناها رحلة بحرية كذلك)، و"يفلت من حبله" slips his cable ويذهب إلى "الجنة" Fiddler's Green .

بمعنى أوسع، يبدو أن مفردات السفينة تسود لغتنا إلى جانب مفردات الحصان. فنحن نتحدث عن "القدرة الحصانية" horsepower و"لجم" الأنهار والمجارى المائية، ولكن لدينا كذلك "سفينة الدولة" التي لها قائد يمسك بـ "الدفة". وكان الرواد يعبرون "بحر الحشائش" في "سفن البراري" وما زال مربو الأبقار يمتطون "سطح الإعصار" الخاص بأفراسهم. وبعد أن يكون المصرفي "وسط حيود ومخاضات" الكارثة الاقتصادية، نجده "ينجو من العاصفة" و"يبحر بلا عقبات" إلى أن يحدث مرة أخرى أن الأعمال "تدخل منطقة ما الريح فيها ساكنة"، وعندئذ يجعل السياسي "عينه على حالة الطقس" لمعرفة "الاتجاه الذي تهب منه الريح" كي يمكنه "تقصير أشرعته" حسب الأحوال ويحصل على "طرحة جيدة" من أصوات الناخبين. وحين يقال إن السياسي

ضُبط وهو "يتلاعب" rigging (*) فىَ آلات التصويت، فإنه "يؤخذ على حين غرة"(**) ويجبر على "السير فى اتجاه مختلف تمامًا" كى يستعيد الثقة اللازمة لإعادة نفسه و"أفراد طاقمه" إلى السلطة. ولكى يفعل ذلك فإنه قد "يسبر غور" الرأى العام "كى يحدد موقعه" قبل أن "يخط مسارًا جديدًا". وبعد أن تكون ثقة الجماهير قد "رست" على سياسته بقوة أكبر، فإنه "يستعد" وينتظر بهدوء نتائج الحملة الانتخابية، وهو يعلم تمامًا أن آماله قد تصير "حطامًا" وتوصف الحملة بأنها "دمار تام". أو ربما يقوم "بجولة قصيرة" فى دائرته الانتخابية بالقطار ويلوح لناخبيه من "السبنسة" caboose؛ وهو مصطلح كان يستخدم فى السابق للغرفة العلوية الموجودة على سطح السفينة.

وبعد أن تُعلن النتائج قد يتعجب قائلاً "أقسم باللورد هارى"، كنت أعرف أننا سنفوز حتى لو كان هناك "الشيطان لنرشوه" للتغطية على تلك الفضيحة. والآن يمكننا أن نمضى وكل أشرعتنا مفرودة." وربما لا يعلم أن اللورد هارى يشير إلى فقدان سفينة ضخمة، ولا أن رشوة الشيطان تشير إلى جلفطة الفراغ الذى بين لوحين من ألواح السفينة، مثلما لا يدرك أن معظم الملاحظات السابقة التى تعزى إليه هى فى حقيقة الأمر مجازات مختلطة. والواقع أن تلك العبارات، ومئات أخرى مثلها، أصبحت مرتبطة تمامًا بالبر حتى إنها تكاد تكون مثل سمكة المزارع التى تعودت اتباع صديقها حيثما ذهب فى أنحاء المزرعة حتى انزلقت بالصدفة ووقعت فى النبع وغرقت.

لا تقترب المصطلحات البحرية من أن تكون لغة فى حد ذاتها فحسب، فابن البر يراها على قدر كبير من الرومانسية. وقد اعترف من زمن طويل بالأرواحية(***) والتحفظ والجناس الاستهلالى والمجاز باعتبارها أدوات قيِّمة من أدوات الشاعر التى يكتسبها بعد مشقة. وتلك أدوات شائعة بالنسبة لمن يعمل فى البحر، وقد صقلها على مر القرون. وسواء أكان بمفرده أم ضمن جماعة فإن مفرداته تحمل الإحساس بالبحار

(*) المعنى البحرى للفعل to rig هو تزويد السفينة بالصوارى والأشرعة والحبال (المترجم) .

(**) هذا هو المعنى الاصطلاحى لـ to be taken aback ولكنه معنى aback هو إلى الوراء (المترجم) .

(***) مذهب حيوية المادة، أى الاعتقاد بأن لكل ما فى الكون، وحتى الكون نفسه، روحًا أو نفسًا (المترجم) .

الواسعة والخطـر والإشـارة. وفى لغتــه لا تكون سفينته توليفـة من الخشب أو الحديد أو البلاستيك، بل تصبح فيلقًا متحالفًا معه ضد القوى المعادية من موج وطقس وخطر الصخور والمخاضات. وبعد أن يعد مؤنه ويرتب حمولته يخرج إلى البحر. وهو يغادر الميناء ويضبط الساعة ويقطع مسافة كبيرة إلى عرض البحر. وفى دوائر عرض الحصان، حيث لا توجد ريح وحيث ألقيت الخيول فى الماء لحفظ الماء، تكون أشرعته كألواح الخشب فى البحر الساجى. وهو يعبر الخط (خط الاستواء)، وينساب على الماء بفعل الريـاح التجاريـة ويدخـل الأربعينيـات الهـادرة حيث الرياح تهب حول العالم بلا توقف، وتسمى فى بعض الأحيان الرياح الغربية الشجاعة. وهنا يلتقى بالبحار الصعبة ويضطر لأن يشق طريقه وسط الظلام حيث الثلوج المنهمرة بكثافة. وربما يُحبس وسط ضباب أسود؛ وهى الشبورة المقيتة التى تتجمد على كل شىء تلمسه. وتنتفخ أشرعته. ويضرب البحر سفينته على طرف دعامتها الرئيسية. وقد يضطر للبحث عن ميناء يلجأ إليه هربًا من ضغط الطقس. وفى تلك الأثناء يمر على جبال ثلج صغيرة ويرى وهج القديس (نار القديس إلمو) فى الصوارى والأشرعة. ويحتشد حوله سرب أفراخ الأم كارى ويطير خلفه طائر قطرس رمادى ضخم (يُعتقد أنه روح البحارة الغرقى). وفى النهاية فإنه إذا اتبع ما تشير إليه بوصلته فسوف تظهر له اليابسة وسوف تلوح له الأرض غير واضحة المعالم وسط الضباب، ويطلب إنزال أفضل مرساة من الرجام فى مياه عمقها عشرة فراسخ. سوف يمسك بها الخطاف الطينى وسوف تتحرك السفينة بطريقة لطيفة. ولن يكتب فى سجل السفينة "وهكذا ينتهى اليوم" بل "وهكذا تنتهى هذه الرحلة".

أما إذا كان حظه من النجاح أقل، فإنه قد يفقد أشرعته ويضطر للتخلص من المعدات. وربما يجنح، وتصطدم السفينة بحيد من الحيود، وبعد ذلك يضطر لإنزال القوارب، لأن البحر ألقى به فى مكان مهجور. ولكنه مع ذلك غش ديفى جونز.(*) وبعد مرور الوقت المناسب يجرى فى شركة لويدز للتأمين فى لندن إدخال البيانات التالية "إعلان فقد. السفينة 'فيتولا' وزنها خمسمائة طن. من نيويورك إلى ملبورن متأخرة عن موعدها ويفترض أنها فقدت."

(*) قاع البحر كما يأتى ذكره فى الحكايات والأغانى (المترجم).

# الفصل الرابع

# مأثورات الطقس

الإوزات البرية، الإوزات البرية
تذهب مجتمعة إلى البحر.
سيكون الطقس لطيفًا،
سيكون.

Horace P. Beck,
*Folklore of Maine*
(Philadelphia, 1957), p. 81

منذ زمن لا يعلمه أحد والطقس هَم الإنسان الأول. فهو الذى يحدد أنشطته، ويرسم أسلوبه فى الحياة، وربما كان له تأثير ضخم على شخصيته. وكانت القدرة على التنبؤ به والتحكم فيه مطمح مهم من مطامح الإنسان البدائى والمتحضر. بل إنه فى وقتنا هذا تقوم هذه القدرة بدور أساسى فى بعض المهن وتعد همًا من هموم معظم الناس، وقد تطورت إلى حد كبير بين من يعملون فى الهواء الطلق والمزارعين والبحَّارة.

رغم ما يتمتع به المزارع من مهارة فى مأثورات الطقس، فهو مهموم فى المقام الأول بالتنبؤ بسقوط المطر ونزول الصقيع. ونادراً ما تكون هذه المعرفة ضرورية للحفاظ على حياته. بل إنها ذات قيمة اقتصادية. ولأن المزارع مستقر طبقًا لطبيعة مهنته، فإن فهمه للعوامل الجوية، مهمًا كان عميقًا، ذو طابع محلى. وعلى الجانب الآخر نجد

أن البحَّار يحتاج إلى معلومات دقيقة خاصة بحالة الطقس لإنقاذ معداته من الضرر والسير بسرعة، وكلا الأمرين ذو طابع اقتصادي؛ ولكن الأمر الأكثر أهمية بالنسبة له هو معرفة أن القدرة على التنبؤ بحالة الطقس تنبؤًا صحيحًا قد يعني الفرق بين الحياة والموت. ولتحقيق هذه الغاية، لابد أن يكون فهمه للموضوع شاملاً. ولابد أن يكون قادرًا على التنبؤ بالعواصف والمطر وسكون الريح والضباب والثلج وأحوال البحر، وكذلك تحديد اتجاهات الريح وسرعتها تحديدًا دقيقًا. وإذا وجَّه معرفته نحو جوانب معينة من جوانب الطقس، فسوف يشمل ذلك العواصف والضباب والثلج وتغير اتجاه الريح وسكونها على هذا النحو من الترتيب. وأخيرًا فإنه، على عكس المزارع، تفرض مهنته عليه أن يكون فهمه أقل محلية بكثير وربما يشمل معلومات تتعلق بمناطق تشمل نصف العالم.

وكشأن الكثير من عناصر الحياة البحرية، ليست مأثورات الطقس سوى تعديل للمأثورات البرية وفرع منها أضيف إليها بعد آخر، وهو عمل المحيط وسكانه. بل إن معايير البحَّار التي يفسر بها الأحداث المقبلة أكثر شمولاً من معايير المزارع.

ويرى البحَّار أن مأثورات الطقس تنقسم إلى قسمين. والقدرة على التنبؤ بالأحداث المقبلة تنبؤًا دقيقًا هو الأول والأهم. ذلك أن مباغتة الضباب أو تغير اتجاه الريح أو هبوب الريح العاتية يمكن أن يكلف الكثير ويكون مميتًا. والشق الثاني هو القدرة على التحكم في الطقس أو توجيهه لخدمة مقاصده. وكان الصياد منذ سنوات كثيرة يعود من جراند بانكس بصيد وفير من الأسماك. وكان يسابق سفينة أخرى على الوصول إلى السوق حين تكون الريح ساكنة تمامًا. وكان القبطان يقفز يائسًا إلى داخل الأشرعة الرئيسية وقد أخرج نصف دولار. وكان يقول: "يا رب، امنحنا ريحًا بنصف دولار وحسب"، وكان يلقي بالقطعة المعدنية في البحر. وبعد نصف ساعة تكون السفينة تتمايل تحت الشراع الأمامي وحده الذي طوى جزء منه. ومرة أخرى يقفز الربان داخل الأشرعة ويصيح متوجهًا إلى السماء قائلاً: "لو كنت أعلم أنك تبيع بهذا السعر الرخيص لطلبت ما قيمته بني واحد فقط!"(١).

وقد ينقسم التنبؤ إلى التنبؤ الشامل، والعلامات الخاصة بمناطق واسعة، وتلك التي تكون دقيقة فقط في منطقة بعينها، كما يمكن تصنيفه كذلك إلى تنبؤات بعيدة

المدى (تختلف من أسبوع لموسم) وتنبـؤات قريبـة المدى (لمـدة اثنتين وسـبعين سـاعة أو أقل). وعموماً فكلما كان التنبؤ أكثر محلية وكانت الفترة الزمنية التى يغطيها أقصر كان التكهن أدق. ومعظم البحّارة العالمين بأحوال الطقس يمكنهم التنبؤ بتغير الريح الوشيك أو هبوب الريح بعد ثلاثة أيام بدقة غير عادية.

طبيعى أن المشكلة الكبيرة التى تواجه البحّار عند التكهن بما سيقع فى المستقبل هى أن أنماط الطقس فى أحد الأنحاء من العالم كثيراً ما تختلف عن تلك التى فى أنحاء سواها - فقد تختلف العلامات التى تشير إلى حدوث تغيرات، كما أن العلامات التى تشير إلى شىء ما فى فصل من الفصول قد تشير إلى أحوال مختلفة تمام الاختلاف فى فصل غيره. والريح الغربية ريح طيبة فى الولايات المتحدة، إذ إنها نادراً ما تأتى بأمطار أو عواصف. إلا أن أغنية قديمة تطلب من البحّار أن يأخذ حذره "من الريح الشمالية الغربية الباردة على شواطئ نيوفاوندلاند"[٢] ويأتى جزء من أسوأ طقس على الساحل الأوروبى من الغرب. وفى أمريكا الشمالية، أو على الأقل فى إنجلترا، قد تأتى الريح الشمالية الغربية بالثلج الكثيف فى الشتاء، ولكنها عادة ما تكون فى الصيف علامة على صفاء الجو مع رياح متوسطة. وأخيراً يجب ألا ننسى أن العواصف تتحرك فى اتجاه عقارب الساعة فى النصف الشمالى من الكرة الأرضية وعكس اتجاهها فى النصف الآخر، ولابد من اتباع أساليب مختلفة للتحايل عليها.

هنا يجب أن نتذكر أن معظم تغيرات الطقس سببها تغير فى الضغط الجوى. وهذا ينطبق بصورة خاصة على أنماط الطقس قريبة المدى. وبذلك يكون جهاز قياس الضغط الجوى [ الباروميتر ] الدقيق أحد أهم أدوات خبير الأرصاد الجوية. وطالما كان البحّارة على علم بأهمية الباروميتر وكانوا يستخدمون الـ"زجاجة" للتنبؤ بالأحداث المقبلة لفترة طويلة. ولم يكن مهمًا أن يكون لديهم عمود من الزئبق أو بارومتر لا سائلى لتحقيق النتائج. فقد كانوا يصنعون زجاجة تفى بالغرض من قارورتين وفلينة وبعض المعجون وقليل من الماء. حيث كانوا يضعون بعض الماء فى قارورة ذات عنق واسع تثبت فلينة حُشر فيها عنق قارورة أصغر منها. وكان عنق القارورة الأصغر يغمر بعمق بوصة أو بوصتين تحت سطح المـاء فى الزجاجة الأكبر. وكان ذلك كله يحكم غلقه بالمعجون أو غيره من المواد وكان يوضع على قاعة لفّافة عند الإبحار. وحين يرتفع الماء أو ينخفض

فى القارورة الأصغر كان البحَّار يعرف أن هناك تغيراً وشيكًا فى الطقس، وحين يتكون الندى داخل القارورة الصغيرة كان يعلم أنه من المتوقع سقوط أمطار. ولكى لا ينسى أهمية الباروميتر فى التنبؤ بحالة الطقس، كان لدى البحَّار فى العهود القديمة عدد من الأشعار البسيطة المتصلة بعمل الزجاجة.

حين تنخفض الزجاجة
استعدوا لهبوب الريح
وحين ترتفع
دعوا طائراتكم الورقية تطير (٣) .

ما يتنبأ به كثيراً يبقى كثيراً
والإنذار القصير يمضى سريعاً
والارتفاع السريع بعد الانخفاض
علامة أكيدة على رياح أشد (٤) .

الاحتمال الكبير هو أن القدر الكبير من العلامات التى كان البحَّار يعتمد عليها فى تنبؤاته كانت تحدثها تغيرات الضغط الجوى، ومع ذلك فإن هناك شكًا فيما إذا كان أعلم هـؤلاء المتنبئين بالطقس قـد ربطـوهـا فى أذهانهم بطريقـة ليست سـطحـية. وربما لاحظوا فى أفـضل الحـالات الندى فى الزجـاجـة والسـحب الممطرة فى الأفق - وكانوا متأكدين تمام التأكد من سقوط المطر. إلا أنه فى ذلك الوقت كان الإغريق الذين على قدر كبير من التقدم يعتقدون لزمن طويل أن الفئران تتوالد توالداً ذاتيًا فى الأسمال البالية.

وفى كثير من الأحيان كان البحَّار يعتمد على مطبخه فى إبلاغه بما سيكون عليه الطقس. فإذا غلا براد الشاى بسرعة كبيرة أو "غنَّى" على الموقد، عرف أنه سيحدث تغير فى حالة الطقس؛ وكان إذا رأى لهبًا أزرق على نار فحم المطبخ، فقد يتأكد من

حالة الطقس الوشيكة؛ وإذا طقطقت النار فإنها "تدوس على الثلج"؛ وإذا مال الدخان ناحية البحر أو إذا ارتفع فى خط مستقيم إلى أعلى فيسجل البحَّار أنه يتنبأ بتغير فى حالة الطقس. بل إن المرء يمكنه التنبؤ بما سيكون عليه الطقس من خلال معدل اختمار عجين الخبز ومقدار اتساعه. وقد يكون هناك قليل من الشك فى أن كل ما سبق من ظواهر نتيجة للضغط الجوى، مع أن أفضل البحَّارة لن يربط هذا الربط.

أما المجال الذى يعتمد اعتماداً قليلاً جداً على الباروميتر فهو التنبؤ بعيد المدى، وهو ما لابد لنا من الحديث عنه. ففى أغلب الأحيان تتم التوقعات بعيدة المدى عن طريق ملاحظة الأحوال وقت التغير الموسمى، كما فى الحادى والعشرين من مارس ويونيو وسبتمبر وديسمبر. واثنان من هذه التواريخ قريبان من الاعتدالين الربيعى والخريفى، أما الاثنان الآخران فيقعان تقريباً عند الانقلابين الشتوى والصيفى.

يراقب البحَّار فى نيو إنجلاند عن كثب اتجاه الريح فى تلك الأيام، ذلك أنه أيًا ما كان الاتجاه الذى تهب منه الريح "حين تعبر الشمس الخط، فسوف تحدد هذه الريح الطقس" إما لمدة أربعين يوماً أو الموسم. وبما أنه يعرف أن الرياح الشرقية تجلب المطر والضباب والغربية تنقى الطقس، فهو يدعو دائماً أن تهب الرياح الغربية فى تلك الأيام.

وتقوم التنبؤات بعيدة المدى كذلك على بعض أعياد القديسين، وعلى القمر، وفى كثير من الأحيان على حركات الحيوانات والنباتات فى وقت معين ومكان محدد. فعلى سبيل المثال هناك يوم المرموط(*)، وكثيراً ما يمكن التنبؤ بقسوة طقس الشتاء بحجم مساكن فأر المسك، وسُمْك قشر حبات الذرة، ونشاط السناجب، والخطوط التى على الديدان. ويستغل بكور هجرة الطيور - وخاصة الطيور البحرية - أو تأخرها كذلك للتنبؤ بالأحداث المقبلة، كأن يأتى الشتاء مبكراً أو يتأخر الربيع. وهناك قول فى إنجلترا يشير إلى أن "الكريسماس الأخضر معناه جبانة ممتلئة"، وفى جزر الهند الغربية يحدد موسم الأعاصير بالنظم التالى:

**يونيو قريب جداً**

**يوليو استعد**

(*) نوع من القوارض الجحرية يتميز بجسمه المكتنز وقوائمه القصيرة (المترجم) .

أغسطس انتبه

سبتمبر تذكر

أكتوبر انتهى كل شىء (٥) .

لابد من قول كلمةِ أخرى حول تلك التنبؤات. فهى غالبًا ما تتسم بالدقة بحيث تتفوق على قانون المتوسطات وتجعل المرء يتعجب منها، إلى أن يدرسها بقدر أكبر من التأنى. فطبيعى أن يتسم الطقس بثبات موسمى عام. فعلى امتداد ساحل الأطلنطى نتوقع أن تهب الريح فى الصيف من الجنوب الغربى. وعادة ما يتطور الطقس تطوراً طفيفًا قبل التغير الموسمى، ولذلك فعندما يلاحظ البحَّار أن الريح جنوبية غربية "حين عبرت الشمس الخط" فى شهر يونيو فهو يتنبأ بأنها سوف تظل تهب من ذلك الاتجاه معظم فصل الصيف، والواقع أن النتيجة غالبًا ما تكون مثلما توقع. ويلاحظ كذلك أن الشىء نفسه ينطبق على أعياد القديسين التى يقع عدد كبير منها فى أعياد وثنية قديمة. وثلاثة من تلك الأعياد هى عيد القديس مارتن Martinmas (١١ نوفمبر) وعيد تطهير مريم العذراء Candlemas (٢ فبراير) وعيد القديس سويذن St. Swithin's Day . وبحلول منتصف الصيف ومنتصف الشتاء يكون نمط الطقس قد استقر إلى حد ما ولا ينبغى أن نتعجب من أن الأقوال الخاصة بعيد تطهير مريم العذراء

ما إن تطلع الشمس

حتى يأتى الثلج على غير انتظار.

أو

إذا كان عيد تطهير مريم العذراء جميلاً وصحواً

فسيكون هناك شتاءان فى عام واحد (٦) .

كثيراً ما تثبت صحتها. ولا نندهش كذلك من كفاءة الشعار الخاصة بالقديس سويذن:

كل الدموع التى يسكبها القديس سويذن

تجففها عباءة القديس بارتيلمى (٧) .

إذا أمطرت فى عيد القديس سويذن

فسوف تستمر أربعين يومًا.

وإذا كان عيد القديس سويذن صحوًا

فلن تمطر أربعين يومًا.

وحين ندرك أن ذلك الأخير قول مأثور من إسكوتلندا، حيث تمطر باستمرار لدرجة أن لديهم مثل ساخر يقول

اليوم الذى لا ترى فيه نورس

لن يسقط فيه المطر على شبه الجزيرة

فإننا نفهم أن احتمال صحة الجزء الأول من الرباعية أعلاه كبير.

والقمر أحد المنبئين بالطقس الذى يبدو أنه يعمل بطريقة مختلفة. فعادة ما يستخدم (وبشىء من الدقة) للتنبؤ بحالة الطقس قريبة المدى، إلا أنه يشيع اعتقاد بأنه يتحكم فى سقوط المطر فى الشهر التالى. وهناك قول شائع بأن "القمر والطقس كثيرًا ما يبدلان مع بعضهما" (٨) . ولتحقيق هذه الغاية يراقب المختص بالطقس ميلاد القمر الجديد مراقبة دقيقة كى يلاحظ حالة القرنين. فإذا كان القرنان يشيران لأعلى أو بطريقة لا يمكن معها للماء أن ينفد، يقول بعض المتنبئين إنه "قمر جاف" لأنه "يحجز الماء"؛ وحين يميل القرنان لأسفل، سوف ينفد الماء ويكون "قمرًا مطيرًا". إلا أن متنبئين آخرين يفسرون تلك العلامات على العكس من ذلك تمامًا، وبذلك يؤيدون تنبؤ الأحوال الجوية الشهير الخاص بجوش بيلينجز Josh Billings "ربما تمطر وقد لا تمطر". ويمكن أن نضيف أن هذه واحدة من الحالات النادرة الخاصة بالتنبؤ المتناقض بحالة الطقس.

وإذا كان المتنبئون بعيدو المدى يرسمون صورة عامة للطقس وعددهم قليل نسبيًا، فإن المتنبئين قريبى المدى على العكس من ذلك تمامًا. فعلى وجه التقريب ، لكل شيء يطير فى الهواء، أو يزحف على الأرض، أو يسبح فى البحر، ميتًا كان أم حيًا، جمادًا أم حيوانًا، دور فى أكثر المهارات تطورًا التى تكاد تشبه العلم، وهى كما قال ألكسندر هاجرتى كراب Alexander haggerty Krappe "علم من عاشوا قبل ظهور العلوم".

عند قراءة الطقس تكون العوامل الجوية هى أول وأهم الأدوات التى فى متناول البحار، وتعد تكوينات السحب الأبرز بين تلك العوامل، كما هى بالنسبة لعالم الأرصاد الجوية. ويشير العامة إلى السحب على أنها "رءوس الرعد" و"ذيول الأفراس" و"سموات الماكريل"، بينما يسميها العلماء سحبًا ركامية وسحبًا سمحاقية وسحبًا قزعية وغير ذلك من الأسماء، ولكن كلاً من العامة والعلماء يقصدون العواصف الرعدية والرياح والأمطار والطقس. ولكى لا ينسى العامة، نظموا بعض معتقداتهم بطرق تعينهم على التذكر مثل:

سموات الماكريل وذيول الأفراس
تجعل السفن الطويلة ذات أشرعة منخفضة (٩).

أو

إذا بدت السحب وكأنها نكش دجاج
فاستعدوا لطى أشرعتكم العليا (١٠).

أو

إذا تجمعت السحب بكثافة وسرعة
افتحوا عيونكم على الشراع والصارى.
ولكن إذا تقدمت زاحفة ببطء
فالقوا بحبالكم وشباككم وطُرّاحَاتكم (١١).

هنــاك بالفعـل مئــات العلامــات الخاصـة بالطقس المشتقة من السـحب، لا داعى إلا لذكر القليل منها لتقدير بُعد هذا الجانب من التكهن بحالة الطقس. فحين تكون هناك سحب فى الشرق عند الفجر، فقد يكون من المتوقع هبوب رياح و

**حين تسرع سحب الصباح متجهة غرباً**

**عند الغروب وبينها سحابة شديدة السواد**

**فلن تتقصكم الريح الغربية (١٢) .**

وتنبئ السـحب المتقطعة الصـغيرة، وتسـمى "معاطف المشـمع"، بسقوط المطر(١٣)، و"الضـباب على التلال المرتفعة" علامة من علامـات سقوط المطر؛ بينما تعنى السـحب المتبخرة أن المطر لن يسقط.

الطريقة الثانية للتنبؤ بالأحداث المقبلة التى تكاد تكون على نفس القدر من الأهمية هى رصــد التـغيرات التى تطـرأ على الظـروف الجـوية، وخاصــة حين ترصــد حسب صلتهـا بالأجـرام السماويـة. ويعطى البحــار أهميـة كبيرة للهالات المحيطـة بالقمـر أو الشـمس، ولوضـوح النـجوم، وللأضـواء الشمـالية والسـراب وقوس قـزح والشـموس المزدوجة والأقمـار المزدوجة، وبقع الشمس الضـوئية وبقع القمر الضـوئية، وأغلبها يعتقد أنه ينـذر بهبوب العواصف. وهو يحرص على مـلاحظة الطريقة التى يطلع بها ويغرب كل من القمر والشمس.

**إذا غربت الشمس وكأنها جرس**

**فمن المؤكد أنها ستهب مثل الجحيم.**

وهو يركز كثيراً على القمر الذى توجد حوله بالفعل عشرات الأشـعار والأقوال. وطبقًا لما تقوله القصيدة الغنائية القديمة، فإن بحّاراً حذر السير باتريك سبينز Sir Patrick Spens قائلاً:

**رأيت قمراً جديداً يحمل القمر القديم بين ذراعيه،**

**وإذا كنت مبحراً يا قبطان، أخشى أن يمسنا ضرر.**

وتجاهل ربان السفينة "هيسبيروس" Hesperus سيئة الحظ حقيقة أن العلامة تشير إلا أن إعصاراً سيقع:

**الليلة الماضية، كانت تحيط بالقمر هالة ذهبية،**

**والليلة لا نرى القمر!**

وعموماً يقال إن القمر الأحمر يدل على أن الريح ستهب، والقمر المائى باهت اللون يدل على سقوط المطر، وتشير الهالة المحيطة بالقمر إلى هبوب عاصفة أو سقوط الثلج. وتنبئ كثافة الهالة بمقدار العنف، ويشير عدد النجوم الموجودة داخل الهالة إلى عدد الأيام السابقة لهبوب العاصفة. ويقال إن وجود القمر وسط ركام من السحب ينبئ بهبوب عاصفة بحرية، ولكن البدر التام يسخر من أى نوع من الطقس. وكون أن تلك ليست هى الحالة دائماً يتضح من حكاية صغيرة من نيو إنجلاند.

ففى زمن تجارة المثلث، كانت سفينة صغيرة فى طريقها إلى جزر الهند الغربية. وفى ليلة كان الجو فيها صحواً ترك القبطان السطح فى عهدة وكيل الربان ونزل إلى أسفل القيام ببعض أعمال مسك الدفاتر. وكان آخر تكليف منه لوكيله هو "إنها ليلة الجو فيها صحو ولذلك دعها تسير. لن تكون هناك رياح شديدة في ليلة كهذه! سوف يسخر منها القمر."

لم يكن قد مضى وقت طويل على نزوله قبل أن تميل السفينة قليلاً على جانبها وألصق وكيله رأسه فى المنور صائحًا "الريح تهب يا قبطان. هل تريد طى الأشرعة؟" "لا، لن يحدث شيء. دعها تسير. سوف يسخر منها القمر" .

توقفت السفينة توقفًا حاداً بعد فترة قصيرة، ومرة أخرى اتصل وقال إن الريح تهب بشدة، وسأل إن كان ينبغى عليه طى الأشرعة. ومرة أخرى قال له القبطان: "لا، لا. سوف يسخر منها القمر." ولم يطل الوكيل فى الكلام وعاد إلى نوبته وسارت السفينة فى طريقها.

وقبيل منتصف الليل قطع تفكير الربان صوت ارتطام شديد. اندفع القبطان وهو فى حالة ذهول إلى السطح. "ما هذا بحق الجحيم؟ ماذا جرى؟" "إنه الشراع الأمامى سقط على الجانب يا قبطان. رغم عدم وجود ريح شديدة. يهيأ لى أن القمر سخر منه وحسب" (١٤) .

ينتشر ذلك الشعور العام ذاته بشأن الشمس كما هو الحال بالنسبة للقمر. فكلما كبرت الهالة المحيطة بالشمس تأخر هبوب الريح الشديدة أكثر. وبينما تحظى أوجه القمر بقدر كبير من الاهتمام عند التنبؤ بحالة الطقس، فإنه يكون هناك تركيز كبير على طلوع الشمس وغروبها. وقد لا تكون هناك علامة من علامات الطقس معروفة على نطاق أوسع من هذا النظم:

**حين تكون السماء حمراء صباحًا، يأخذ البحّارة حذرهم.**

**حين تكون الشمس حمراء ليلاً، يبتهج البحّار.**

إلا أن المؤلف قد يحذِّر من خلال التجربة الشخصية من أن الغروب شديد الحمرة لا يحتمل أن يتنبأ بأى شىء للبحّار.

والبقع الشمسية (وهى بقع أشبه بقوس قزح تظهر فى السماء) والبقع القمرية والشموس والأقمار المزدوجة جميعها علامات تنذر بطقس سيئ. وهذه الشموس والأقمار "المزدوجة" كثيرة الظهور فى دوائر العرض الشمالية وهى أكثر احتمالاً حين يكون الجرم السماوى قريبًا من الأفق.

يعتبر قوس قزح فى معظم بقاع العالم علامة أكيدة على الطقس الصحو، وهو يبشر بأوقات طيبة. ولذلك فقد فزعت إلى حد ما حين رأيت إحدى سفن الصيد الشراعية وهى تغادر سكاربرو بجزيرة توباجو **Scarborough, Tobago** صباح يوم لطيف لتعود بعد عشرين دقيقة. فقد رأوا قوس قزح، وفى تلك المنطقة موقع قوس قزح مهم؛ فهو فأل حسن بالنسبة للطقس، ولكنه فال سيئ بالنسبة لاتجاه الريح.

ونجد فى جزر الهند الغربية كذلك فألاً غريبًا يتعامل مع غروب الشمس. فحين يُرى وميض أخضر فى السماء بينما الشمس تغيب، يتكهن البحارة المحليون بأن المطر سوف يسقط فى اليوم التالى. بل إنه إذا كانت الريح ساكنة عند الغروب يكون من المتوقع حدوث تغير فى حالة الطقس.

قبل أن نترك هذين الموضوعين ـ أى الشمس والقمر ـ لابد لنا كذلك من الإشارة إلى أن حجمهما ولونهما مهمان. فعادة ما يشير القمر كبير الحجم الساطع إلى

البرودة، ويقال إن الشمس كبيرة الحجم الحمراء فى الصباح (خاصة حين تخلو السماء من السحب) تتبئ بيوم حار، بينما ينبئ الشيء نفسه فى المساء إما بالحر أو البرد فى اليوم التالى، حسب الموسم. ويشير القمر كالح اللون إلى الحرارة.

وليس القمر والشمس الجرمين السماويين الوحيدين اللذين يراقبهما البحّار. فهو يراقب النجوم مراقبة متأنية، وفى أيرلندا إذا كانت "النجوم شديدة القرب" فإننا نتوقع هبوب عاصفة. وعلى ساحل الأطلنطى فى أمريكا الشمالية يتوقع البحّارة أن يكون الجو باردًا حين تبدو النجوم قريبة، ويكون الجو سيئًا حين تكون كالحة اللون ومعتمة. ولا يصح أن نتغاضى عن الأضواء الشمالية. وهى تعد مسببة للرياح الشديدة وتنبئ بالبرودة. ويقرأ المؤلف يومية رحلتين بحريتين سجلها عالم فولكلور فى إسكوتلندا. فقد أشار إلى أنه لاحظ أثناء الرحلتين أضواء شمالية يتبعها هبوب الريح الشديدة. كما يشير المؤلف فى سجله الخاص بالرحلة على ساحل أيرلندا تحت تاريخ ٣ أغسطس ١٩٦٩ إلى ما يلى: الساعة ٢٣٠٠، جنوبية جنوبية غربية، القوة ٤ . ظهور قوى للأضواء الشمالية ... ٤ أغسطس، ٠٧٠٠، الريح جنوبية غربية، القوة ٨ ".

ويعى البحار الآثار الجانبية للشمس والقمر وعيًا كبيرًا، وهو يهتم بأشعة القمر وأشعة الشمس، والضوء الساقط على الماء. وفى الصباح "يكون التلألؤ الشرقى علامة أكيدة على الجلد المبلل." وحين تخترق أشعة الشمس السحب، يقال إن الشمس "تسحب الماء" (وهو ما يقال كذلك عن القمر). وأثناء العاصفة إذا وجد المرء بقعة من السماء الزرقاء توصف بطرق مختلفة على أنها "من الكبر بحيث يُصنع منها بنطلون هولندى (أو قطة صغيرة، أو بحّار، أو فرنسى)" أو "فوطة"، تكون العاصفة قد انتهت.

أخيرًا، لابد أن نشير فى مجال الأحوال الجوية إلى الأهمية التى يولونها للسراب وحجم الرؤية. وحين يمكن للبحّار رؤية الأشياء على مسافة بعيدة، أو حين تبدو الأشياء البعيدة شديدة القرب، فإنه يشك دائمًا أن عاصفة توشك أن تهب. وهو يدرس هذا السراب بعناية. وحين يرى سفينة أو جزيرة أو أى شيء آخر، فإنه فى الغالب يقوم بمزيد من الاستعدادات من أجل الليلة شديدة الرياح، وخاصة حين يتغير شكل الجزيرة أو السفينة ـ كأن تتسع أو تزداد طولاً أو يصغر حجمها ـ أو حين تختفى أجزاء منها.

يتجه البحّار بعد رصد كل تلك الأشياء إلى البحر ذاته ويدرسه بعناية. فهو يلاحظ اللون؛ فالبحر الرمادى والسماء الرمادية فأل سيئ، بينما يشير البحر الزاهى إلى الطقس اللطيف. إلا أنه ربما كان من أهم مؤشراته عُباب المحيط. وهو يدرس هذه الأمواج بعناية كبيرة، ملاحظًا ارتفاعها، والمسافة التى بين موجة وأخرى، وعرض كل منها، ويهتم بشكل خاص بالاتجاه الذى تتحرك فيه، ذلك أن تلك الأشياء تخبره بمقدار بُعد العاصفة عنه والجهة المحتمل أن تأتى منها. وأقل ما يحبه من الأمواج البحر الزيتى، ذلك أنه يتسبب فى هبوب الرياح الشديدة.

والنذير الآخر بما سيقع من أمور هو "النار" التى فى الماء (الوميض الفوسفورى). ففى ليالى الصيف يكون للسفينة فى بعض الأحيان موجة خضراء عند مقدمتها ويمكن رؤية مَخْرها لمسافة ميل أو يزيد وراءها. بل إنه فى بعض الأحيان حين يكون الوميض الفوسفورى كثيفًا بحيث يصبح سطح البحر المتموج مليئًا بهذه النار اللامعة، وحين يراها البحار يستعد لهبوب الريح.

وتوجد أخر علامات الطقس السيئ فى "غناء البحر". فحين تسكن الريح ليلاً، غالبًا ما يسمع البحّار الموجود على الشاطئ أو يكون قريبًا منه صوت الأمواج وهى تتكسر على أحد العوائق، أو قعقعة الحجارة وهى تسحب على حصى الشاطئ، أو الارتطام الشديد للأمواج الكبيرة على الصخور. قد لا تكون هناك نُذُر مشاكل أخرى، ولكن حين تحدث مثل هذه الأشياء لا يميل الرجل الذى على الشاطئ كثيراً إلى الإبحار، وهؤلاء الذين فى المحيط إما أن يبحثوا عن ملاذ يأوون إليه أو يبذلوا الجهد كى يعودوا ويجدوا مساحة فى البحر يمكنهم فيها الاستدارة.

إذا كان مَثَلَ المزارع يقول "كل العلامات تفشل وقت الجفاف"، فإن مَثَل البحّار الذى يساويه هو "كل شىء يمكن أن يحدث فى الطقس غير المستقر". وهو فى هذه الأوقات يكون شديد الحرص على دراسة الريح والمطر من أجل النتائج الفورية. وقبيل إعصار ١٩٣٨ قال القبطان الراحل تشارلز روس Charles Ross من هاليفاكس للمؤلف: "إذا رجعت الريح نقطة أخرى ناحية الشرق فسوف يأتينا إعصار." كان ذلك فى الحادية عشرة صباحًا، وبحلول الواحدة بعد الظهر تحققت عبارته بجزأيها.

ويحرص البحار على ملاحظة إذا ما كانت الريح تغير اتجاهها، أم تدور على عقبيها، أم تنحرف عن مسارها. فحين تغير اتجاهها يكون متأكداً بعض الشيء من الطقس الطيب، ولكن حين تدور على عقبيها أو "تسير عكس الشمس" فإنه يشك في أن الريح ستهب. ومن ناحية أخرى فإنها حين تنحرف عن مسارها أو "لا ترسى على حال وتهب في كل اتجاه"، فإنه يراقبها قلقًا كي يرى ما سيحدث، لأن هذا ينبئ بتغير، وعادة ما يكون تغيراً غير سار.

ما إن "يستقر" الطقس حتى تكون لدى المتنبئ الجيد بالطقس فكرة عما يمكن توقعه تزيد عن كونها لا بأس بها. ففي نيو إنجلاند إذا كانت الريح آتية من الشمال الشرقي وكان الطقس صحواً، فهو يكون متأكداً إلى حد كبير من أن الجو سيظل على هذا الحال لمدة ثلاثة أيام؛ وهي تسمى الريح الشمالية الشرقية الجافة. أما إذا كانت آتية مصحوبة بأمطار وزوابع فيعرف أن هناك "ريحًا شمالية شرقية مدتها ثلاثة أيام." وحين تأتي من الجنوب الشرقي يتوقع سقوط المطر. وحين تأتي من الشمال الغربي يتوقع طقساً صحواً أو ربما الثلج في الشتاء.

لابد عند هذه النقطة من ملاحظة المطر. وتقول العبارة القديمة Open and shet, sure sign of wet . ويشعر البحَّار بالقلق بصورة خاصة من الزوابع، ذلك أنها يمكن أن تحطم الصواري، أو تقلب السفينة، أو على أقل تقدير تحدث أضراراً بالصواري والحبال. ولتحقيق ذلك:

حين يسبق المطرُ الريحَ،

اخفض الأشرعة العليا واطوِ الشراع الرئيسي.

وحين يسبق الريحُ المطرَ،

انشرها واستأنف المسير (١٥).

ويمكن أن نضيف إلى تلك النُذُر نذيراً آخر. ومع أنه ليس بأهمية النذر الأخرى، فمن الواضح أنه من النجاح بحيث يظل في جعبة البحار الخاصة بحيل رصد الأحوال الجوية. إنه عنصر الوقت:

إن أمطرت قبل السابعة

يكون الجو صحواً قبل الحادية عشرة.

أو

الوقت بين الساعة الواحدة والساعة الثانية

يخبرك بما سيكون عليه الطقس.

المعتقد الأخير الخاص بالوقت، وربما كان أقل المعتقدات شأنًا، هو أن أيام الأسبوع تتحكم فى الطقس، على الأقل فى اليوم التالى، وفى بعض الأحيان لفترة أطول من ذلك. ويرى معظم البحّارة أن يوم الأربعاء "المدنى" علامة طيبة، ولكن مهما كان الطقس يوم الجمعة - وهو يوم سيئ السمعة على تقويم أى بحار تقريباً - فسوف يكون عكس ما هو عليه يوم السبت.

إذا طلعت الشمس يوم الجمعة كالجرس

كان المطر يوم السبت كالجحيم

وحيث إن هناك اعتقاداً بأن القمر يتحكم فى الطقس والمد والجزر، فالبحّار يعطى أهمية كبيرة للمد والجزر كمؤشر مساعد. ولا يُعتقد فقط أن المد شديد الارتفاع يسبق الريح العاتية، بل ترتبط قوة الريح والزمن الذى تستغرقه ارتباطًا شديداً بحالة المد حين تهب الريح. فالريح التى تأتى مع المد عادة ما يعتبرونها أشد من تلك التى تأتى مع الجزر. بل يراقب انحراف المد والجزر بحرص كبير، ذلك أنه إذا استمرت الريح مع تحرك الماء ببطء، فى المد أو الجزر، فعادة ما يُعتقد أنها سوف تستمر حتى التغير التالى أو طوال ست ساعات أخرى. كما أن حالة المد والجزر لها أهميتها، ذلك أنه يُعتقد أن الرياح الشديدة تهب عند "المد والجزر التام" (ويسمى أحيانًا "الشاطئ المرتفع" أو "الجزر الكامل" أو مد وجزر "القمر"). وبالمثل يُعتقد أن القمر يتحكم فى المطر. ولكن فى هذا الخصوص يبدو أن العكس هو الصحيح، ويشير القول القديم إلى أنه

**إذا سقط المطر عند المد،**

**فلن تكون إلا هبة هواء.**

**إذا سقط المطر عند الجزر،**

**فعلى البحارة أن يناموا.**

وهذا النظم نموذج لطريقة تفكير العامة؛ أى باستخدام الأضداد. فإذا جاء المد بالماء، فهو لن يسقط من السماء؛ أما فى حال سحب الجزر للماء، فسوف تعوض السماء النقص.

ولا يهم كثيراً إذا كان "الأسلوب العلمي" يثبت صحة تلك العبارات أو لا يثبتها. فالحقيقة أن الريح الشديدة التى تصاحب المد تحدث دائمًا ضرراً يزيد عن ذلك الذى تحدثه ريح بنفس القوة عند الجزر، وذلك لأن الماء يكون أعمق على امتداد الشاطئ وقد يحدث فيضان. كما أن مصدات المياه تكون أقرب إلى مستوى سطح البحر وتتلقى السفن قدراً أقل من الحماية منها، وقد تغرق المياه المرتفعة الشاطئ. بل إن هذا المد شديد الارتفاع يحدث اضطراباً فى الماء وتيارات غير معروفة فى الظروف العادية ويفرض على السفن مد المزيد من الكابلات - وهو ما قد لا يتوفر لديها - حين تلقى مراسيها.

هنا يجب الاستفاضة فى الحديث عن دور القمر والمد والجزر فى حياة البحّار، ذلك لأنه ليست هنا ظاهرتان أهم منهما بالنسبة له. وقال أثنيل أوليفيير Athneal Ollivierre كبير الرماة فى صيد الحيتان فى بيكيا Bequia فى جزر الهند الغربية: "القمر يتحكم فى كل شيء: السمك، والحوت، والمحاصيل والمد والجزر؛ وحتى المرأة. كل شيء!" ومن ناحية أخرى ليس المد والجزر مهمًا بالنسبة الطقس وقيادة السفن وحسب، بل كذلك لصيد السمك. ويشيع اعتقاد لدى معظم البحارة كبار السن أنه يتحكم فى الميلاد والموت. وبذلك فإنه إذا عاش رجل مريض بعد دورة المد والجزر فسوف يبقى على قيد الحياة حتى الدورة التى تليها، وعندما يحين أجله فى النهاية فإن روحه تخرج مع الجزر. ويقال فى إسكوتلندا إن الصبيان يولدون مع المد والبنات يولدن مع الجزر(١٦) .

وحالة المد والجزر مهمة بالنسبة للبحّار مما يجعله يستخدم كل حواسه لتحديدها. وفى بعض الأحيان عندما يكون بعيداً عن البحر أو حين تفشل الوسائل الأخرى، فإنه يستخدم طرقًا غريبة لتحديد حالة الماء. فأحيانًا ينبئه الصوت على الشاطئ بأن هناك مداً، أو يخبره غمر أو انكشاف مائة من صخور منتصف المد فى أنحاء العالم الأنجلو أمريكى بهذه الحالة من تقدم المد، بينما تعلن رائحة المنطقة التى يكثر فيها المحار بين حدى المد والجزر انخفاض الماء على مسافات لا تفيد العيون ولا الآذان كثيراً فى إدراكها. وبعيداً جداً عن الشاطئ فى نيوفاوندلاند يمكن للبحار معرفة حالة المد والجزر من خلال إنسان عين قطة؛ فإذا كان رأسياً وضيقًا، فهناك مد، أما إذا كان مستديراً وأفقيًا، فهناك جزر (١٧).

سبق أن تحدثنا بشكل عابر عن الأصوات، وقبل أن نترك هذا المجال هناك كلمة جديرة بأن تقال. ففى أحيان كثيرة جداً يحكم البحّار على وزن الريح من الصوت الذى تحدثه.

ففى السفن الشراعية، على سبيل المثال، تجعل الريح الخفيفة الحبال التى تطوى بها الأشرعة تصلصل بينما تصطك حبال رفع الأشرعة وإنزالها فى الصارى، وتحدث الأمواج الصغيرة أصوات ارتطام خفيف على بدن السفينة. ويعد هذا منبهًا للسواحلى الراقد فى الميناء انتظاراً للريح، فينهض ويذهب. وحين تهب الريح تبدأ بعواء لتصبح صافرة حادة تزداد باطراد للتحول إلى زمجرة الريح العاتية الشديدة المرعبة. وتخبر درجة تلك الأصوات إلى جانب حركة السفينة القبطان متى يدخل الميناء "بسبب ضغط الريح" أو يتحرك فى اتجاهها، أو يجرى أمامها.

ويمكن للأنف كذلك أن يساعد على التعرف على حالة الطقس، ويقال إن بحّاراً عجوزاً قادر على شم الضباب والمطر والثلج. وفى الجو الهادئ المتقلب، وخاصة بالقرب من الشاطئ، غالبًا ما يشم البحّار المخضرم العالِم رائحة الهواء كى يجعل سفينته تسير. وهو يفعل ذلك بقدر كبير عن طريق تحديد ما يشمه؛ فالرطوبة التى فى الهواء الخارج من البحر تنذر بريح من البحر أو ضباب، بينما رائحة الحشيش الذى حُشَّ للتو أو المناطق التى يغطيها المحار فى منتصف منطقة المد أو زريبة الخنازير فتحذره قبل

رؤية أول موجة من أن الريح ستهب من البر. ولاحظ تلك الظاهرة جون وينثروب John Winthrop الذى كتب بعد قضاء ستة أسابيع فى البحر أنه أخيراً "شم رائحة الحديقة الحلوة" بينما كان يعمل على شاطئ ماساتشوستس. وقد كفت المؤلف منذ سنوات عديدة رائحة الزهور فى الظلام شر المرور من عند بيرمودا فى ليلة حالكة السواد.

من بين أفضل كل التنبؤات حتى الآن تلك التى ذات طابع شديد المحلية. وهذه عادة ما تخص منطقة متناهية الصغر - قد تكون ميناء واحداً - وهى نتيجة سنوات طوال من الملاحظات الموسعة التى رأى الشاهد أنها دقيقة. ومع أنها فى كثير من الأحيان موضع سخرية كبيرة من جانب علماء الأرصاد، فكثيراً ما يثبت أنها تصح بالنسبة للمنطقة موضع البحث أكثر من التنبؤ بحالة الطقس الذى يعده على بعد أميال العلماء القابعون فى أحد المكاتب ومعهم أجهزة الكمبيوتر ومجموعة من الأجهزة.

تقع خلف ميناء كوهاسيت Cohassett بولاية ماساتشوستس بركة مالحة تفرغ ماءها بقوة شديدة من خلال مسقط عكسى. وعادة ما يكون الجدول الخارج منها صافياً، ولكنها من حين لآخر تفرغ ماءها على شكل جدول من الزبد البنى. ويصل عمق هذا الزبد فى بعض الأحيان إلى قدمين، وهو يزعج البحارة لأنه يلوث كل ما يلمسه. وتخبرك المعرفة المحلية أن ذلك الزبد عادة ما يسبق الريح ويتناسب عمقه مع شدة العاصفة.

وعلى بعد ثلاثة آلاف ميل توجد ظاهرة غريبة أخرى. ففى أوقات بعينها تزور خليج موارى Moray Firth (*) أكبر أسماك العالم؛ وهى أسماك القرش النهم الكبير. وهذه المخلوقات تُشاهد من حين لآخر تقفز فى الهواء ثم تسقط فى الخليج محدثة طرطشة مخيفة. ويبدو أنها تفعل ذلك لشل حركة سمك الرنجة الذى تلتهمه بكميات كبيرة. والأمر الغريب بشأن تلك الزيارة الأكروباتية هو أن أسماك القرش طبقاً لما يقوله الصيادون فى الموانئ المحلية لا تفعل ذلك إلا قبل العاصفة. ولاحظنا هذه الظاهرة عام ١٩٦٧ وهبت العاصفة على الشاطئ بعد يومين فى القناة الكاليدونية(**).

(*) خليج صغير فى بحر الشمال على الساحل الشمالى الشرقى لإسكوتلندا (المترجم) .

(**) تقع شمال إسكوتلندا ويبلغ طولها ٩٧ كيلومتراً (المترجم) .

وسوف يحكي لك البحارة في نيوفاوندلاند عن أضواء تظهر عند مداخل موانئ معينة قبل هبوب الرياح الشرقية (١٨) . ويحرص الصيادون على جزيرة توباجو على أن يراقبوا عن كثب طيران الطيور عند أول ضوء في النهار على شاطئ بعينه. ويزعم الناس هناك أنه يمكنهم طبقًا لمقدار ارتفاعها عن الأرض عند الطيران التكهن بحالة الطقس بقية اليوم (١٩) .

فى أنحاء الجزر البريطانية وفى أماكن كثيرة أخرى من العالم، يعتبر الربط بين السحب وبعض الأشياء المعينة نذيراً بحالة الطقس - إلا أنه ليس بالضرورة فى البقعة ذاتها. ويقال إن السحب فوق بل روك لايت Bell Rock Light (إنجلترا) تنزل المطر فى أربروث Arbroath، وأن السحب فوق جزر أوركنى Orkney Isles تنبئ بنزول المطر فى كيب راث Cape Wrath فى إسكوتلندا، بل إنه فى مدينة كيب تاون البعيدة يقول البحارة إنها علامة على الطقس السيئ حين "يفرد مفرش السفرة على جبل المائدة Table Mountain" (٢٠) . وفى عام ١٦٣٨ لاحظ جون جوسيلين John Josselyn الرحالة المشهور أنه حين تتعذر رؤية الجبال البيضاء White Mountains من بلاك بوينت (تسمى الآن سكاربرو بولاية مين) فإن العاصفة تكون وشيكة (٢١) .

وقد حكى لى القبطان جيمس بوكان Buchan من فريزربرج Frazerburgh، أن الصيادين على شاطئ إسكوتلندا الغربى يعتقدون أنه حين يمكن رؤية تلال كولين Coolin Hills على جزيرة سكاى Isle of Skye أو الجبال الواقعة على بر إسكوتلندا بوضوح من جزر هيبريديز الخارجة، أو العكس (وهى مسافة تبلغ ثلاثين ميلاً) يمكن أن نتوقع هبوب العاصفة. وكلما كانت الرؤية أوضح كانت العاصفة أشد. وهو يقول إنها فى بعض الأحيان تظهر بوضوح شديد "حتى تبدو وكأنها لا تزيد عن ميل واحد". وحين نتذكر القول الخاص بالنورس وشبه الجزيرة الذى أوردناه من قبل، ندرك أن هذا الرأى قد يكون هو الأبرز (وكقاعدة عامة لا تثق العامة فيما هو غير معتاد). وقد أضيف أن الشيء نفسه يقال عن شاطئ كونيتيكت؛ ذلك أنه "حين تأتى لونج آيلاند إلى كونيتيكت، توقعوا طقساً سيئاً".

تقع قبالة ساحل أيرلندا جزيرة أينش شارك، وتقع عليها صخرة بها راسب طباشيرى غريب الشكل. ويقول الصيادون المحليون إنه يشبه سفينة فاردة أشرعتها

وأن السفينة تتغير حسب الطقس. فهى تبدو بعض الأحيان واقفة فى عرض البحر، وهنا يعرف السكان المحليون أن الطقس سيكون طيبًا. وفى أوقات أخرى تتجه ناحية الميناء، وهنا يأخذ أهل المنطقة احتياطاتهم انتظاراً لهبوب الريح الشديدة.

ويقول السكان المحليون فى خليج ماهون، قبالة شستر فى نوفا سكوشا، إنه فى أحيان كثيرة يرى الناس وهجًا أحمر غريبًا قبل العاصفة. وهناك اعتقاد شائع بأن هذا إعادة تمثيل لحريق السفينة "تيزر" Teaser إبان حرب ١٨١٢ . ويقول المتنبئون المحليون بالطقس إنه علامة مؤكدة. فهو يظهر عادة على هيئة وهج وردى فى الضباب، والصياد القديم لا يخرج إلى البحر حين يشتعل. وليست السفينة "تيزر" هى الوحيدة التى تتنبأ بهبوب العاصفة حين تُرى فى مكان بعينه، ولكننا سنناقش تلك الرؤى فى موضع آخر.

لا يمثل سبب وقوع تلك الأحداث الغريبة أهمية كبيرة بالنسبة للعامة. فما يلفت انتباههم هو نتيجة هذا العمل، ولا يمكن للمؤلف سوى أن يقول إنه لاحظ كل العلامات المحلية التى جاء ذكرها هنا، فيما عدا واحدة منها (وهى ما قيل عن جبل المائدة)، وفى كل مرة كانت تثبت دقة النبوءة.

يلى ذلك النذر المشتقة ولو بشكل جزئى مما صنعته يد الإنسان. فهذه الأشياء الصغيرة كالدخان تجتذب عين البحَّار فى البحر والبر. فالدخان على الشاطئ أو الدخان من بدن السفينة فى عرض البحر الذى يمكن رؤيته من على الشاطئ يُلاحظ ملاحظة دقيقة، ذلك أنه ينبئ بسرعة الريح والاتجاه الذى قد يختلف بعض الشىء عن الريح فى المنطقة المجاورة مباشرة للمراقب. وعلى الشاطئ يشير الدخان الذى يصعد فى خط مستقيم إلى المطر أو الثلج، بينما يشير الدخان الذى ينتشر بشكل أفقى فى الوادى دون أن يرتفع أو يتبدد إلى المطر.

كان البحَّارة حتى عام ١٦٢٧ على أقل تقدير يراقبون أثر الأحوال الجوية على حبال السفينة، ذلك أن جون سميث فى كتاب "الأجرومية البحرية" يقول إنها تشير إلى سقوط المطر حين لا تكون مشدودة. وفى وقت أقرب بعض الشىء، كان البحَّارة يلاحظون أنه حين تبدأ أسلاك التليفون فى "الحديث" - أى الطنين - يكون ذلك نذير بعاصفة وشيكة.

أما الأقدم من أسلاك التليفون بكثير فهو الاعتقاد فى الأجراس الموجودة تحت الماء فى أماكن بعينها من البحر. وتقع ثلاثة من تلك الأماكن قبالة ساحل بريتانى Brit-tany، وقبالة ساحل كورنوول، وفى ميناء كنجزتون بجامايكا. وتتشابه القصص الخاصة بالأجراس فى حالة من الحالات إلى حد كبير. وكان سكان بورتو بيلو Porto Bello (فى ميناء كينجزتون) أناسًا بائسين، حيث كانوا فى معظمهم من القراصنة والعاهرات والعبيد. وكانوا يقضون معظم أوقاتهم فى شرب الخمر أو ممارسة الجنس مع العاهرات أو لعب القمار، إلى أن أذاقهم الرب ما أنزله بسدوم وعمورة(*) . ففى يوم من الأيام ضرب المكان زلزال وموجة عاتية من المد وغرق فى البحر، وغرقت الكنيسة مع البلدة. وظل المكان سنوات عديدة مرئيًا تحت الأمواج، وحتى يومنا هذا يقول البحارة إنهم يسمعون جرس الكنيسة وهو يدق قبل الإعصار.

وليس من بين هذه النذر ما هو أشد تخويفًا ولا أقدم عهدًا من نار القديس إلمو التى تزعج البحارة بالقدر الذى يجعلهم لا يسمونها بأى من أسمائها العديدة، مثل كاستور Castor وبولوكس Pollux (**) أو الأجسام المقدسة، ولكنهم يشيرون إليها باسم "النار". ومن بين أسمائها التى تزيد على الخمسين، ومنها عمة كوربى Corbie's Aunt وديفى جونز Davey Jones وجاك هارى Jack Harry (الشيطان البحَّار). وهذا الشىء الغريب هو فى واقع أمره كهرباء إستاتيكية ترجع فى جزء منها إلى تمايل السفينة وتأرجحها، ويظهر أحد تلك الأضواء أو اثنان أو ثلاثة منها وأحيانًا أكثر من ذلك فى حبال السفينة (رأى كولبس ثمانية فى رحلته الثانية، ورأى ماجلان ثلاثة ورأى دامبيير(***) Dampier اثنين)(٢٣) .

(*) مدينتان قديمتان فى فلسطين جاء فى العهد القديم أن الرب دمرهما لانغماس أهلهما فى الرذيلة والفساد."فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتًا ونارًا من عند الرب من السماء. وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض." تكوين (١٩:٢٣) (المترجم) .

(**) اسما شقيقين توأم فى الأساطير اليونانية من أبناء زيوس الذى ضاجع أمهما البشرية ليدا حين جاءها على هيئة بجعة (المترجم) .

(***) وليام دامبيير (١٦٥٢-١٧١٥) قرصان وملاَّح إنجليزى وصف رحلته حول العالم فى كتاب بعنوان A New Voyage Round The World فى عام ١٦٩٧ (المترجم) .

تلك الأضواء الأثيرية كان يلاحظها البحَّارة على أقل تقدير منذ دعا أورفيوس (*) Orpheus الآلهة كى تخفف من هول العاصفة وهو على ظهر السفينة "أرجو" Argo حين حام ضوءان فوق رأسى اثنين من المجدفين، هما كاستور Castor وبولوكس Pollux . ومنذ ذلك الوقت وهذه الأضواء تظهر باستمرار فى الأدبيات البحرية، ونادراً ما لم يرها إنسان عاش فترة طويلة فى البحر. بل إنها منظر مفزع لا يمكن بأى طريقة من الطرق أن تقلل من هوله الظروف التى يحدث فيها. وليس مستغرباً أنها تنبئ بكل الأشياء خيرها وشرها، وأن العديد من القصص تُروى عن أصلها والأحداث التى تقع فى أعقاب ظهورها. وهذه سوف نتناولها فى موضع لاحق.

رغم حقيقة عدم وجود أى اتفاق على طريقة تفسير ظهورها، فهناك اتفاق عام على أن ضوءاً واحداً يكون تحذيراً من هبوب عاصفة، وضوءين دليل على أن مركز العاصفة قد مرت، وثلاثة أضواء دليل على أن ريحًا ذات أبعاد كاسحة سوف تهب. ويقول لونجفيلو(**) Longfellow :

الليلة الماضية رأيت نجوم القديس إلمو
حيث كانت مصابيحها المتوهجة تلهو وتمرح
على رءوس الصوارى وحواف العوارض
وعرفت أن الجو اليوم سيكون سيئًا.

وعاش ويليام فالكونر William Falconer الشاعر البحَّار تجربة هبوب ريح شديدة ونجا بعمره لبعض الوقت ليختفى فيما بعد فى مضايق مدغشقر:

هناك فى أعالى الصوارى، بأشعة شاحبة ومبهرة
وسط الظلمة تلمع الشهب التى تنذر بالسوء.

(*) شاعر وموسيقى فى الأساطير اليونانية هبط إلى عالم الموتى الذى استجاب إلهه لتوسلاته وأعاد له زوجته ولكنه فقدها ثانية لمخالفته أمر إله العالم السفلى (المترجم) .

(**) هنرى وادزورث لونجفيلو (١٨٠٧-١٨٨٢) كاتب وشاعر أمريكى شهير ترجم "الكوميديا الإلهية" لدانتى (المترجم) .

وما تفعله الأضواء له أهميته. فإن هي صعدت لأعلى، فعادة يكون من المتوقع أن يصبح الطقس طيبًا، أما إذا اتجهت لأسفل، فمن المحتمل أن تسوء الأمور.

**... ذلك أن البحَّارة يرون أنه إذا صعد الجسم المقدس فى حبال السفينة، فإنه يكون دليلاً على الطقس الجميل، أما إذا نزل لأسفل فمن المؤكد أنه ستكون هناك عاصفة. ومن العلامات المميتة أن يلقى بالضوء الشاحب فى وجه المرء (٢٦) .**

ومن الغريب إلى حد كبير أن هذا الاعتقاد فى النار يبدو قصير المدى وطويل المدى. فقد قال صياد حيتان أجريت معه مقابلة فى نيو بدفورد بولاية ماساتشوستس عام ١٩٥٠:

**أنا الرجل الوحيد الذى بقى على قيد الحياة فى السفينة فيولا. كان والدى وكيل قبطان فيها وفى طريق العودة واجهتنا ريح شديدة. رأينا النار فى حبال السفينة وجاء والدى إلىَّ وقال: "إذا نجونا من هذه، لا أريدك أن تخرج على هذه السفينة مرة أخرى". وبذلك حين وصلنا نيوبدفورد حصلت على أجرى ولم أوقع للعمل على الرحلة التالية. أما والدى فقد وقَّع لأنه كان وكيل القبطان، وغرقت السفينة فى تلك المرة بكل من عليها من بحارة إلا أنا. فأنا الرجل الوحيد الذى نجا من السفينة فيولا (٢٧) .**

انصب جُل اهتمامنا حتى الآن على الجماد باعتباره نذيرًا بحالة الطقس. وهناك مجال آخر ـ الأحياء ـ حيث يعتبر المختصون بالطقس النباتات والحيوانات محدِّدات للأحوال فى المستقبل. وكل نوع تقريبًا من أنواع الحيوانات والحشرات والأسماك مصور فى مكان من مأثورات الطقس، وقد يكون الكثير من التعليقات الخاصة بها فى محله، مع أنه إذا اتخذ المرء القول بأنه إذا سقط أحد طيور الرفراف على السفينة فسوف تهب العاصفة بعد ذلك بقليل تحذيرًا وحيدًا له، فإنه قد يخطئ التنبؤ بعدد من العواصف.

وعملاً بصورة أو بأخرى تبعًا للوعد بأن "الطبيعة ترعى نفسها"، يولى البحَّار قدرًا كبيرًا من الاهتمام لأعمال الحيوانات. وحتى الآن يقوم أكبر عدد من التكهنات على أنشطة الحيوانات المستأنسة. فالبحَّار يتنبأ بنزول المطر إذا غسلت القطة وجهها أو نامت بجوار النار؛ وسوف تهب عاصفة إذا خرج شرر من فرائها. وإذا نامت الكلاب

بجوار النار، وإذا دارت حول نفسها عدة مرات قبل أن ترقد، فالمعتقد هو أن هذه علامة على هبوب الريح؛ وإذا أكلت كميات من العشب يكون من المؤكد أن المطر على الأقل سوف يسقط وربما هبت عاصفة. وإذا حمل الخنزير القش فى فمه، فالعاصفة وشيكة. ويشير الاتجاه الذى تسير فيه الماشية والخيول حين ترعى إلى اتجاه الريح. واستلقاء الماشية والأغنام على الأرض علامة على أن ريحًا شديدة ستهب، وينبئ رعى الأغنام على التل بأوقات لطيفة. وإذا صاح الديك فى الليل، فهذا معناه أن الريح آتية:

**إذا صاح الديك على السياج،**

**فسوف ينصرف المطر.**

**وإذا صاح على الأرض،**

**فسوف ينزل المطر.**

وإذا أكلت الماشية أو الكتاكيت فى المطر، فسوف تهب عاصفة طويلة، ولكن إذا بحثت عن مكان يؤويها فسوف تمر سريعًا. وتقول رباعية إسكوتلندية:

**حين تسمع الصيَّاح يصيح**

**دع السفينة راقدة.**

**فسوف تستمر العاصفة**

**جزرين ومدًا قبل أن تهدأ** (٢٨) .

أفعال الطيور البرية شديدة الأهمية بالنسبة لمن يتنبأ بحالة الطقس. فتحليق طيور السنونو فوق الماء ينبئ بالمطر، ويعد طيران النورس والطيور البحرية فى اتجاه البر، أو دعاء الكروان، إشارة إلى عواصف شديدة؛ وعدم وجود طيور حول السفينة علامة على أن مشكلة ما فى سبيلها إلى الحدوث. وحين تشاهَد الطيور البحرية جاثمة على الشاطئ يقال إن تلك علامة مؤكدة على أن عاصفة ستهب. ومن ناحية أخرى، يعتقد أنه حين تحط الطيور البرية على إحدى السفن فإنها لا تبشر بخير.

وحين نهبط قليلاً على القائمة نصل إلى البرمائيات والزواحف. ونحن نعرف أن ضفادع الأشجار "تغني للمطر"، وأن الضفادع الأمريكية الكبيرة "تتقنق للماء"، وأن السَمَنْدَل(*) والسحالى تتنبأ بوقوع العواصف.

إذا قابل شخص فى إسكوتلندا حلزونًا يقول:

**يا حلزونتى، يا حلزونتى، اخرجى قرنك،**

**قولى لى كيف يكون الطقس غدًا.**

ويرى معظم الأنجلو أمريكيين أن العنكبوت، حيًا كان أم ميتًا، متنبئ قوى بحالة الطقس. فإذا وجدنا أن العنكبوت "يضيف خيوطًا إلى بيته" فالعاصفة توشك أن تهب. وإذا كان البيت مغطى بالندى، فالجو جميل، أما إذا كان جافًا، فلتأخذ حذرك. وإذا قتلت عنكبوتًا عاديًا، فسوف تمطر، ولكن إذا ضربت العنكبوت الحصَّاد وراقبته عن كثب، سوف يشير بساقه إلى الاتجاه الذى تأتى منه العاصفة وهو يرتعش ارتعاشته الأخيرة. والفراشات التى تطير حول المصباح، وتجمعات الحشرات، والذباب الكثير جميعها بارومترات تنبئ بما سوف يحدث. بل إن سقسقة الجُنْدُب [ صرصار الليل ] والجُنْدُب [ أبو النُطيط ] والجراد والجُنْدُب الأمريكى تنبئ بحالة الطقس ودرجة الحرارة.

ويراقب الناس الحياة النباتية عن كثب. فانحناء أوراق أشجار الحور لأعلى علامة على أن المطر سيسقط، وحين تتدلى لأسفل فإنها تشير إلى أن الطقس سيكون دافئًا. ويشير الندى على العشب إلى الطقس الجميل، وتشير حركة بذور الهندباء البرية إلى الريح. ويظنون أن كزبرة الثعلب متنبئ دقيق بالمطر، حتى إنهم يسمونها دوارة اتجاه الريح الخاصة بالفقراء (٢٩) .

معظم العلامات التى تتنبأ بحدوث تغير متاحة للبحَّار بوفرة فقط حين يكون على البر. أما فى عرض البحر فهو يستخدم كل ما يمكنه ليحل محل الكثير من المواد البرية عن طريق المراقبة الدقيقة للبحر وسكانه. ولتحقيق ذلك نجده حريصًا على مراقبة

(*) حيوان برمائى صغير يشبه السحلية (المترجم) .

حركات السمك وخنازير البحر وحيوانات الفقمة والحيتان والأعشاب فى الماء وأى شىء آخر يجده.

ومن بين مولدات الطقس التى يشار إليها إشارة غير مباشرة حركات الأسماك، وحركات طيور النورس المرتبطة بالأسماك. فوجود المخاضات الضخمة من الطُعْم قبالة الساحل، حيث الطيور تعمل وأسراب الأسماك تقفز هنا وهناك تفهم بشكل عام على أنها علامة على الطقس الجيد. ومن ناحية أخرى فإنه حين تظهر الأسماك الصغيرة متجهة نحو الشاطئ، لا يثق البحَّار فى العوامل الجوية. وعمومًا تعد الأسماك التى تأكل عند سطح الماء علامة طيبة، بينما أكلها فى العمق علامة سيئة.

ولا يَسُر البحَّار شىء مثل منظر خنازير البحر وهى تلعب فى البحر. وحين تكون قريبة من الشاطئ تكون علامة على هبوب العاصفة؛ وحين تبتعد عن الشاطئ يكون الطقس طيبًا. وحين تلعب حول إحدى السفن يظنون أن تلك علامة على الطقس الطيب، وخاصة حين تلعب حول المقدمة. أما إذا شوهدت وهى تتداعى على السفينة من كل الاتجاهات، فيفترض أن العاصفة قريبة. وفى تلك الأوقات يلاحظونها بدقة كبيرة، ذلك أنه يعتقد أنها تخرج دائمًا فى الاتجاه الذى ستأتى منه الريح. وما يصدق على خنازير البحر ينطبق كذلك على الدلافين. ومعرفة هذه المخلوقات التى تعيش فى المياه العميقة تبعث على الراحة إلى حد كبير، لأنه على عكس المعتقد الشائع هناك القليل جدًا من الأسماك فى البحر خارج حدود الرصيف القارى.

ولابد أن نضيف إلى هذه القائمة الطويلة الناس واستخدامهم كأجهزة لقياس الضغط الجوى. ويتخذ هذا العديد من الأشكال التى يمكن وصف أولها بأنه التشخيص عن طريق العلل. فالتعبير "أشعر بعاصفة فى عظامى" دقيق إلى حد ما. ويقول البحارة كبار السن إن ما لديهم من روماتيزم أو التهاب فى المفاصل يكون مؤلمًا قبل الجو السيئ، ذلك أن مفاصلهم تيبس أو أن الإصابات القديمة تؤلمهم. ولسبب ما تبدو الجراح القديمة شديدة الحساسية نحو هذا الشىء. ومنذ سنوات عديدة أخبرنى صياد عجوز أنه لا يستطيع الجلوس قبل العاصفة. بل إن الاستجواب كشف أنه من المحاربين القدماء فى إحدى الحروب الأهلية وأن قناصًا أصابه "بجوار فتحة الشرج مباشرة".

وكون هذه نعمة أم نقمة مسألة قابلة للمناقشة، ولكن جيرانه كانوا يستشيرونه وكأنه بارومتر جاف.

الأمر الوثيق الصلة بهذه المتلازمات هو الشعور الحدسي بالنسبة للطقس الذى كثيرًا ما يشعر به البحارة. وربما يقوم هذا على استجابات حقيقة ولكنها باطنة لمعارف الطقس المتأصلة. وعادة ما يعبر المتنبئ عن هذا التشخيص الحدسي بقوله "لا يعجبنى ملمس الطقس" أو "لدى شعور بأن شيئًا ما سيحدث". ونادرًا ما يعمل البحَّار عكس شعوره، وعدم الانتباه للبحَّار العجوز الذى يتمتع بشهرة من هذا النوع من التنبؤ ليس بحال من الأحوال دليلاً على الفطنة والحس السليم.

وفى بعض الأحيان يوضع نوع من الإطار المنطقى حول هذه المشاعر الحدسية التى لا يعترف بها الشخص نفسه الذى تحدث له التجربة. والقصة التالية رواها لى رجل من خليج القديسة مارجريت فى نوفا سكوشا ـ وهو القبطان سيمور هارنيش Symour Harnish الذى كان يصطاد فى مركب صغيرة اسمها "كارولين" Caroline .

كان القبطان هارنيش يخرج وحده ـ فلم يكن معه سوى كلب صغير ـ وكان يتتبع المواسم من نوفا سكوشا حتى فيرجينيا والعودة، حيث كان يصطاد عند العديد من الجروف والرءوس وهو يسير. وفى إحدى الليالى كان راقداً على جورجيز بانك قبالة ساحل ماساتشوستس. كان الماء على جورجيز ضحلاً وكان هو راسيًا ذات مساء لطيف بصحبة عدد من السفن الأخرى الكبيرة والصغيرة. وحوالى الساعة الثانية صباحًا استيقظ وصعد إلى السطح. لم يكن هناك ما يبدو غير عادى بحال من الأحوال، إلا أن شيئًا ما جعله ينظر إلى الأفق. وحين فعل ذلك، صعد السفينة بحار يقطر ماء يرتدى حذاء ذا رقبة طويلة ومعطفًا مشمعًا ووقف عند المؤخرة. لم ينطق الرجل بكلمة ولكنه حين وصل إلى القبطان هارنيش نظر إليه نظرة جادة، وهز يده وسار إلى المؤخرة واختفى فوق الدفة. وبما أنه كان بعيداً عن البر مسافة تزيد على التسعين ميلاً، إلى جانب أن الزائر بدا وكأن بشرته تميل إلى الاخضرار، فقد فُزع الربان، وأمسك ببلطة واندفع إلى الأمام وقطع الحبل وأدار محركاته واتجه إلى ميناء جلوسستر. وما إن اقترب من إيسترن بوينت حتى ضربته الريح بشدة. ولو ظل على

جورجيز حين هبت وليس داخل ميناء جلوسستر لضاع ولا شك؛ حيث فقد العديد من *السفن المصاحبة له التى تركها راسية هناك* (٣٠) .

تبدو القصة خيالية، إلا أنه يمكن تفسيرها على أنها رد فعل حدسى. فقد اتبع هارنيش البحر طيلة حياته. وهو يعرف العلامات والنذر. كما أنه يعرف فكرة أن الغرقى يصادقون الأحياء فى بعض الأحيان فى البحر ويؤمن بها. وحينما كان نائمًا تغير حال البحر بصورة لا يدركها أحد. ربما غيرت الريح اتجاهها، أو تغيرت حركة السفينة، أو ازدادت نسبة الرطوبة. ولم يبرز شىء وحده بما يكفى لملاحظته فى حد ذاته، ولكن الأثر التراكمى جعل سيمور يحلم حلمًا كأنه الواقع لدرجة أنه حين استيقظ وجد نفسه على السطح. ولا تحتاج بقية الحكاية إلى شرح.

فى كل مجتمع، وعلى متن كل سفينة، عادة ما يكون هناك شخص يُعرف بأنه متنبئ بالطقس. ويخضع سائر الناس لرأيه فى كل الأمور الخاصة بالأرصاد الجوية. وفى الوقت ذاته هناك من الناس من يمكنهم إثارة عاصفة. ويعتقد أن الفنلنديين يتمتعون بهذه المقدرة، وتشاركهم فيها الساحرات اللائى يثرن كذلك الرياح الشديدة ويغرقن السفن ويجعلن الحياة بصورة عامة بغيضة بالنسبة للبحارة. ولا يزال هذا الاعتقاد شائعًا فى القطاعات النائية من إسكوتلندا وأيرلندا والعالم الجديد. وفى الوقت الراهن نجد أن هؤلاء مستبعدات من جيرانهن، ولكن حتى القرن الثامن عشر كن يحاكمن فى المحاكم. وكانت هناك أساليب كثيرة تستخدمها الساحرات والمشعوذات، إلا أن أسلوبًا منها يبدو أنه الأنجح والأشد رعبًا استُخدم فى إسكوتلندا، حيث أثارت إحدى الساحرات عاصفة عن طريق ربط قطع لحم من إحدى الجثث على قط أسود وإلقائه فى البحر بينما كانت تتمتم أثناء ذلك بالتعاويذ. ولحسن الحظ أن لدينا وصفًا لهذا الحدث محفوظًا فى سجلات المحاكمة التى تعود لذلك الوقت.

بينما كان جيمس الأول ملك إنجلترا (وهو جيمس السادس ملك إسكوتلندا) يعبر بحر الشمال، استجاب تجمع للساحرات فى ليث Leith تقوده ساحرة اسمها أجنس سامسون Agnes Sampson لخطاب يطلب منهن إثارة عاصفة "عامة فى أنحاء البحر". فقمن

بتعميد قط فى منزل عائلة ويستر. ... فى البداية وضعت إحداهن إصبعًا فى أحد جوانب خطاف الموقد ووضعت أخرى إصبعًا آخر فى الجانب الآخر ، بحيث يلتقى وترا الإصبعين؛ ثم مررتا القط ثلاث مرات فى حلقات الخطاف ومررتاه ثلاث مرات تحت الموقد. وبعد ذلك وفى منزل بيجيز تود Beige's Todd ربطتا فى أقدام القط الأربع أربعة مفاصل آدمية؛ وبعد الانتهاء من ذلك أحضرته جونيت كامبل Jonet Campbell إلى ليث؛ وفى منتصف الليل تقريبًا جاءت هى واثنتان من عائلة لنكوب Linkops وزوجتان تسميان ستوبى Stobbies إلى رأس الرصيف وبعد أن قلن هذه الكلمات "لترى أنه لن يكون بيننا خداع"؛ ثم قذفن بالقط إلى أبعد ما يمكنهن داخل البحر، حيث عاد سابحًا؛ وحين كن فى بانز Pans ألقين قطًا آخر فى الساعة الحادية عشرة. وبعد ذلك ونتيجة لشعوذتهم وسحرهن هلكت السفينة بين ليث والملكة[٣١].

كان من الممكن فى بعض الأحيان حث تلك الساحرات على فعل الخير بدلاً من الشر. وفيما يتعلق بذلك كان هناك اعتقاد شائع فى إسكوتلندا بأن الأرمادا الأسبانية هُزمت من خلال جهود الساحرات على جزيرة مول، حيث أثرن العواصف التى أغرقت الكثير من سفن فيليب وأبعدتها وحطمتها على الشواطئ من النرويج إلى أسبانيا. وتحقق ذلك بالطريقة الآتية، طبقًا لما تقوله الحكاية التى مازال الناس يصدقونها حتى الآن:

فى الأزمنة السابقة كان هناك الكثير من الساحرات فى إسكوتلندا، ولكن الساحرات اللائى كن على جزيرة مول كن أشدهن بأسًا. وكانت أعظم هؤلاء هى كيليتش بيو Cailleach Bheu فى روس أوف مول Ross of Mull . وبعد أن عاشت آلاف السنين، ماتت على ضفاف بحيرة لوخ بو Loch Bu حين سمعت نباح كلب. ويبدو أنها لكى تظل حية كان عليها أن تغتسل كل مائة عام فى البحيرة قبل أن سماع صوت أى كائن حى. وكانت تفعل ذلك إلى أن بلغت ذلك اليوم المشئوم الذى سمعت فيه الكلب.

كانت هى دويتيج موليتش Doiteag Mulleach التى كانت تقيم فى بن مور Ben More قرب نهاية القرن السادس عشر ثانى أقوى ساحرة. وقد حلمت ابنة ملك أسبانيا بأمير وسيم فى إسكوتلندا، وأبحرت إلى مول للعثور عليه وألقت بمراسيها فى ميناء

توبرموری Tobermory . وهناك شاهدت الرجل الذی رأته فی أحلامها، وهو لاخلان مور ماكلين Mor Maclean الذی كان من الضخامة بحيث كانت طول المسافة من أذنه حتى ذقنه عشر بوصات. وقعت الأميرة في غرامه، ولكن زوجته لاخلان صارت تغير منها وذهبت إلى رجل اسمه بنيجاون Pennygown لتفجير السفينة. وفعل ذلك، وكان الانفجار من الضخامة بحيث قذف بالطاهى إلى صخرة عند سترونجارب Strongarbh لا تزال تعرف باسم كهف الطاهى Cook's Cave . سقطت الفتاة فى البحيرة ودفنت فى النهاية فى كيل Kiel (على الجانب الآخر من الخليج).

حين بلغ الخبر أسبانيا، أُرسلت سفينة أخرى لقطع الثدى الأيمن لكل امرأة فى مول. وحين سمعت ذلك الليدى ديوارت Lady of Duart (الليدى ماكلين) أرسلت إلى دويتيج موليتش التى دمرت السفينة بإرسالها القطط إليها. وكان القبطان نفسه على علم بالسحر الأسود واستطاع التصدى لثمانية من القطط التسعة، ولكن دويتيج أرسلت ثمانية عشر قطًا وغرقت السفينة.

دُمرت الأرمادا فى الوقت ذاته عن طريق دعوة كل الساحرات فى الجزر لمساعدتها. وقد وصلن وأمضين الليل كله فى رفع طاحونة إلى السقف وخفضها. ونتيجة لذلك هبت على الأرمادا بكاملها ريح عاتية مصحوبة بطيور النورس والغربان والقطط السود فى البحار الضيقة وأدت إلى تحطمها. وكانت الريح من الشدة بحيث اقتلعت منزل دويتيج، ولكنها كانت سعيدة لأن السفن غرقت (٣٢) .

لم تكن هؤلاء الساحرات الثلاث بالطبع هن وحدهن القادرات على إثارة الضجة. فمن إسكوتلندا إلى نيو إنجلاند إلى جزر الهند الغربية، كانت الساحرات دائمًا خصم البحارة الذى لا يمكنهم التغلب عليه. فقد كان معروفًا عنهم أنهن يوقفن السفن ويغيرن اتجاه الريح ويحدثن الدمار الشامل. وكان ذلك يجرى دائمًا، كما رأينا، باستخدام القطط كخُدَّام. وذكرت من قبل كيف شاع الاعتقاد بأن القطط تحمل النار فى ذيولها، ورأينا ما حدث للأرمادا. كما كان يُعتقد فى كثير من الأحيان أنه لكى تثير المشعوذات والساحرات عاصفة أو يغيرن اتجاه الريح كن يحققن غايتهن بإلحاق أذى بدنى كبير بالقطط والغربان وغيرها من الحيوانات. وكانت إحدى الحيل أخذ قط حى وإدخال

قضيب من الحديد فيه مع مراعاة عدم الإضرار بأى عضو حيوى. وبعد ذلك يوضع هذا المخلوق على الفحم ويقلب ببطء على النار إلى أن ينضج. وبينما كان ذلك يجرى، كانت الساحرة تستمر فى نطق التوجيهات التى تريدها أن تتبع. وأثناء ذلك كان القط المخوزق يزأر ويصرخ، وكان يُعتقد أن القطط الأخرى التى تسمع الجلبة سوف تأتى لترى ما المشكلة. وحين كانت ترى ما يحدث لرفيقها، كانت تطير لتفعل ما تأمر بها الساحرة وإلا حدث لها الشىء نفسه، وبذلك تبدأ العاصفة أو يتغير اتجاه الريح أو أيًا ما كان الطلب.

وفى الوقت الحالى توجد على جزيرة مول كنيسة خربة ملحق بها جبانة، بها مقبرتان وقد حفر تمثالان للمتوفى والمتوفاة على شاهد القبر. ويقال إن رجلاً اسمه ماكلين وزوجته كانا يعذبان القطط هناك وهبت عاصفة أطاحت بسقف الكنيسة. بل إنه فى كل مرة كان يوضع فيها سقف جديد كان يطاح به إلى أن هُجرت الكنيسة (٣٣) .

وفى كثير من الأحيان كان يعتقد أنه لكى تتمكن الساحرات من تحقيق غاياتهن كن يحولن أنفسهن إلى حيوانات - أرانب أو حيتان أو طيور الغاق(*) أو قطط أو فئران أو غنم - ويؤدين عملهن وهن على تلك الصور (٣٤) .

ومع أن المعتقد التالى - الذى كان شائعًا حتى وقت قريب - لا يمكن تسميته على وجه الدقة سحراً، فمن المؤكد أنه يشابهه. فعندما كانت إحدى السفن تبقى مدة أطول مما يجب فى البحر، أو كان لدى الجيران سبب خاص للاتصال بها، كانت إحدى الفتيات الصغيرات القويات تُنَوَّم بحيث تصبح فى سبات عميق. وأثناء النوم كان يمكن لروحها أن تتجه إلى السفينة وتعود بالمعلومات المطلوبة. إلا أنه كان يعتقد أنها ممارسة خطرة، لأنه إذا تغير اتجاه الريح قبل انتهاء هذا العمل سوف تصاب الفتاة بالجنون.

ما زال الإيمان بالسحر موجوداً فى إسكوتلندا حتى وقتنا هذا. وقد حكوا لى عن امرأة فى بلدة ساحلية يظنون أنها من القوة بحيث لا يمكن للصيادين الاقتراب منها

(*) طائر مائى ضخم نهم تحت منقاره جراب يضع فيه ما يصيده من أسماك (المترجم) .

خشية أن تؤذيهم وهم فى البحر. إلا أن شيوعه قل إلى حد ما، وهو ما قد يعود إلى حد ما إلى تشتيت شملهم فى القرن الماضى على يد أحد الخياطين. كان الخياط موجوداً على جزيرة ليويس Lewes (وهى ملاذ للمشعوذات والساحرات)، حيث اكتشف مجموعة منهن يطرن إلى البحر لصيد الأسماك، تاركات واحدة منهن على الشاطئ ممسكة بخيط أحمر لإعادتهن. واستطاع الخياط بالحيلة إقناعهن بأن يمسك هو الخيط كى يتمكن جميعاً من الصيد. كما أقنع زوجته بالذهاب معهن، وبعد أن أصبحن جميعاً فى عرض البحر قطع الخيط، وبذلك خلَّص العالم من ثمانية عشرة ساحرة وامرأة سليطة اللسان (٣٥) .

وبينما كان الإيمان بالسحر يشيع كذلك فى الولايات المتحدة باعتباره طريقة معقولة يمكن بها إيقاف السفن، وإرباك البحَّارة، وإثارة العواصف، وفى بعض الحالات مواجهة الريح الطيبة، فإن الأحداث الموثقة هنا لا تدانى الأشياء الغريبة التى كانت تؤدى فى الخارج.

ففى نيوهامبشاير فى القرن الثامن عشر كانت تقيم العمة باتى Aunt Patty التى سمعها جورج ليمان كيتريدج George Lyman Kittredge شفاهة. فقد كان هناك ثلاثة "أولاد كبار" يضايقونها، واستشاطت هى غضباً وانتظرت حتى ركبوا قارباً لعبور نهر سكوامسكوت Squamscot . ملأت العمة سطلاً بالماء وأزاحت بعضه ثلاث مرات ثم قلبته وهى تقول "إلى هناك تذهبون أيها الكلاب". وقبل أن يتمكن الفتيان الثلاثة من بلوغ الجانب الآخر، هبت زوبعة وغرقوا جميعاً. "ليس من الأمان مضايقة ساحرة بحال من الأحوال" (٣٦) .

هذا الإيمان بقدرة الساحرات على إثارة العواصف - وذلك القدر الكبير من مأثورات الطقس المصاحبة - له تفسير معقول إلى حد ما. فعلى مدى قرون كان يشيع الاعتقاد بأن العالم تحكمه قوتان، الرب والشيطان؛ ولا يزال العامة يؤمنون به إلى حد كبير، إلى جانب بعض "المتقدمين". كان معظم الخير يأمر به الرب ومعظم الشر يأمر به الشيطان، مع أن كلاً منهما كان يتعدى لأسباب كثيرة على مجال الآخر. وأوضح هذا المعتقد شخص اسمه ريجينالد سكوت Reginald Scot حيث قال "... لا يأتى أى من

البرد أو الثلج أو البرق أو الرعد أو المطر أو الرياح العاصفة من السماء بأمر من الرب، بل يثيره المكر وقوة الساحرات والمشعوذات؛ إلى حد أنه بمجرد سماع هزيم الرعد أو هبوب الريح فإنهم إما يجرون لقرع الأجراس، أو يدعون إلى حرق الساحرات."

هذا المعتقد منطقي إلى حد ما. ويشير كيتريدج فى كتابه "السحر فى إنجلترا القديمة والحديثة" Witchcraft in Old and New England إلى مناسبات ضربت فيها الصواعق الكنيسة وأصيبت بأضرار أو دُمرت. وفى بعض الأحيان كانت أعناق المؤمنين تُلوى أو يُحرق من يؤذون الصلاة. وكثيراً ما كانت السماء تظلم وكانت الريح تزمجر، وبعد الكارثة كانت تشم رائحة الكبريت والأوزون الغريبة فى الجو. ومن سوى إبليس له تلك الرائحة ويمكنه تدمير بيت الرب؟

قبل أن ننهى كلامنا عن هؤلاء الناس، لابد أن أضيف معتقداً مثيراً للانتباه أكثر ما يسود فى إسكوتلندا، ولكنه يمتد كذلك إلى أيرلندا. إنه "the first fitte" . ويبدو أن هذه العبارة لها العديد من المعانى، ولكن طبقًا لما ذكره أحد الإخباريين فإن أول شخص يقابله البحار وهو فى طريقه إلى السفينة قد يوهب فى هذا الظرف القدرة على التنبؤ ويمكنه التكهن بحالة الطقس. وكان هناك اعتقاد آخر هذا بأن الشخص نفسه يتنبأ بالطقس. وكان "الرجل سيئ الطالع" رجلاً أسود الشعر، وعندما يراه المرء يعرف أنه سيواجه مشكلة؛ بينما ينبئ الشخص الأشقر، إن كان هو أول من يراه المرء فى الصباح، بالطقس الطيب. والتعريف الثالث هو أن المرء يعرف شكل العام بكامله من أول من يقابله فى العام الجديد. فإذا كان الشخص أشقر، فهو عام طيب، أما إذا كان أسود فهو عام سيئ (٣٨) .

لم يكن الطقس قابلاً لأن يُتنبأ به وحسب، بل كان العامة يعتقدون أن من الممكن التحكم فيه وأن بالإمكان إثارة الريح وتهدئة العاصفة وتقليل الأمواج بعدد من الطرق. وقد ذكرت فى هذا الصدد شراء الريح بعملة معدنية، إلى جانب قدرات الفنلنديين والساحرات. وكانت هناك طرق أخرى، تستحق واحدة منها أو اثنتان الذكر.

يحمل معظم البحارة سكاكين. وفى أيرلندا وإسكوتلندا السكاكين لها مقابض سوداء، وكان من المعتاد فى الأزمنة القديمة أن تكون سكاكين ذات أغماد. وكان

تحتوى على الحديد البارد وتكوِّن مع الواقى شكل الصليب. وبما أن الناس كانت تظن أن الصليب والحديد البارد لهما سيطرة على العالم الآخر، فإننا نرى أنهم لم يكونوا يحتفظون بها من أجل شق بطون الأسماك وقطع الحبال وحسب، ولكن للسيطرة على العالم الآخر كذلك.

إذا سكنت الريح كانت هناك طريقتان من بين طرق كثيرة لإثارتها هما إما "حك الصارى والتصفير" أو "غرس السكين في الصارى والتصفير". وكان هناك اعتقاد بأن للتصفير قدرة كبيرة لدرجة أنه كان ممنوعًا على متن السفن إلا فى أوقات سكون الريح. والحقيقة أن هناك قولاً فى نيوفاوندلاند عن التصفير، وهو "صفِّر لحراثيك وغنِّ لسفينتك" (٣٩).

وحين كانت الريح تشتد أكثر مما يجب أو يعلو الموج، كان الناس منذ زمن بعيد يظنون أنه من المفيد رسم علامة الصليب بسكين وتلاوة إحدى الصلوات وإلقاء السكين فى الماء. كان ذلك العمل يخفف الريح ويهدئ البحر. وإذا هاجم شخصًا إعصارٌ أطلق النار عليه لإخافته وإبعاده، ولكن إن لم يكن معه مسدس فإنه يرميه بسكينه ذى المقبض الأسود.

وفى جزر الهند الغربية هناك طريقة أخرى لتشتيت العاصفة، أو على الأقل تغيير اتجاهها. فطبقًا لما ذكره القبطان بول ميتشل Paul Mitchell من هارفى فيل Havey Vale فى كارياكو، فإنك إذا تعرضت لريح عاتية، ينبغى عليك (إن كنت الربان) مواجهة الريح وخلع أسوأ جزء من ملابسك رائحة (وعادة ما يكون قميصًا "تحتانيًا") وتحويله إلى كرة وتركه فى مهب الريح بينما تواجه العوامل الجوية. وحين تفعل ذلك تهدأ العاصفة. والفكرة التى وراء ذلك بالطبع هى أن العاصفة يحدثها عفريت ذو روح جائعة يتعقب ضحيته بالرائحة. وحين يوضع القميص فى مهب الريح يشمه العفريت ويندفع وراءه، تاركًا البحَّار يكمل الرحلة فى سلام وهدوء.

ولابد من الإشارة إلى أن المتنبئ بالطقس نادرًا ما يبنى تنبؤاته على علامة واحدة. فهو يلاحظ أن البحر قذر وملىء بالأعشاب، وهذه علامة على أن عاصفة ستهب، ثم يجد أن طيور النورس تطير ناحية البر، ويرى البط والإوز يزيِّت نفسه (علامة على المطر).

وهو يرى غروب الشمس الأحمر والقمر المائى مع الشهاب الذى يطير أمامه، فيضع ذلك كله معًا ويستنتج أنه سيتعرض لعاصفة سيئة.

إذا كان الباروميتر متنبئًا بالتغييرات، فقد يكون من الممكن أن تلاحظه الطبيعة كما يلاحظه الإنسان. فإذا كان اليوم حارًا ورطبًا وكان الكلب عطشانًا، فإنه قد يأكل العشب ليطفئ ظمأه. وقد لاحظ المؤلف أنه كان من المستحيل تقريبًا بالنسبة له أن يبقى مستيقظًا قبل إحدى العواصف الرعدية، وليس هناك سبب لاحتمال عدم تأثير الضغط الجوى والرطوبة على الحيوانات والنباتات. فكون الجدجد يزقزق بمعدلات مختلفة فى درجات الحرارة المختلفة أمر معروف منذ زمن بعيد، حتى إن علماء الحشرات يثيرون دهشة طلابهم بعد الزقزقات، وتطبيق صيغة معينة، ثم يخبرونهم بدرجات الحرارة المئوية الخاصة باليوم.

يبقى أن نجرب بعض التقدير لهذه المادة، وجميعها تقريبًا يبذل العلماء الجهد لإثبات عدم صحتها. والنقطة الأولى التى نوضحها هى أن العامة نادرًا ما يتمسكون بأشياء لا "تصلح". وبالطبع قد تتضمن فكرة "الصلاح" بالنسبة لهم الراحة الشخصية، بينما يرى الشخص المتقدم أنه لابد أن تكون لها نتائج براجماتية. ومع ذلك فإنه إذا كان نذير الطقس لا يفلح نصف الوقت على الأقل، فالاحتمال الأكبر أن يتخلصوا منه.

وعلاوة على ذلك فإن كثيرًا من تلك المعتقدات قديم. وهى ليست موجودة فى رسائل تعود إلى العصور الوسطى وما قبلها وحسب، بل إن العامة وجدوا أن الكثير منها فعال بما يكفى لتضمينه فى شعر يسهل عليهم حفظه؛ وقد تفيد الإشارة إلى أن العامة نادرًا ما يفعلون شيئًا لمجرد التسلية. ويمكن القول بالطبع إن نظمًا مثل "يا حلزونتى، ياحلزونتى، اخرجى.قرنك" يعد بمثابة تعويذة إلى جانب كونه وسيلة للتذكر. ولكن هذا استثناء أكثر منه قاعدة.

وفى عصر يوجهه العلم، جرى تعليم البحّار شيئًا فشيئًا عدم الاهتمام بعلامات الطقس ثم نسيانها وتجاهل المتنبئ المحلى بالطقس والاعتماد أكثر وأكثر على مادة الأرصاد الجوية التى يعدها له على مسافة بعيدة وتغطى منطقة جغرافية شاسعة عالم لا يبالى بنتائج اكتشافاته مادام صحيحًا نصف الوقت. وإذا أضاف إلى هذه المادة أى

شيء، فإن ذلك يكون عن طريق النظر إلى البارومیتر الذی یوضع علی مسافات متباعدة. وإذا ثبتت صحة أی جزء من التنبؤ بحالة الطقس فی المنطقة قید البحث، یعتبر خبیر الأرصاد أنه قدم تنبؤاً جیداً. ومع أن الاضطرابات المحلیة قد تعرِّض سفینة ما للخطر أو تقلبها، فهی لا تحظی باهتمام کبیر. وحتی إذا کان التنبؤ خاطئًا بالنسبة للمنطقة بکاملها، فذلك لا یهم کثیراً، ذلك أن التوقعات الصحیحة علی المدی الطویل أکثر من الخطأ. غیر أن عاصفة واحدة، وضباب واحد، وحتی زوبعة واحدة کافیة لأن تقضی علی إحدی السفن وعلی کل طاقمها.

والواقع أن الأکثر أهمیة، کما أوضح القبطان بوکانان، هو أن یصبح البحار معتمداً علی الرادیو. فإذا تعطل اللاسلکی، فهو فی کل الاحتمالات لا یمکنه إصلاحه ولا تصبح لدیه أیة معرفة یستند علیها. لقد فقد جهازاً فی أهمیة البوصلة للحفاظ علی حیاته. وأنا أتحدث ببعض العاطفة عن هذا الموضوع، ذلك أننی أتذکر فی أکثر من مناسبة أنه لولا "المعرفة المحلیة" فی مقابل "علم الأرصاد الجویة" لما کُتب هذا الفصل.

# الفصل الخامس

# الملاحة

شمال شمال شرقي وجنوب جنوب غربي
من جزيرة راوند هيل إلى كيب بونافيست
وإذا كنا لا نزال نسير في المسار الصحيح
فسوف تأخذك جنوبًا إلى باكاليو.

Folklore and Language Archives, -
Memorial Univrsity of Newfoundland
(Collectted by Marcus Hopkins)

تُعَرَّف الملاحة بأنها علم أو فن قيادة السفن من مكان لآخر. وهي، بشكل أكثر عمومية، قدرة الربان على إكمال الرحلة بنجاح والعودة بالسفينة وأفراد الطاقم والحمولة في حالة سليمة بقدر الإمكان. وهذا الجانب الأوسع من الملاحة هو ما سوف أناقشه.

ويحتاج البحَّار إلى أدوات معينة كي يتمكن من تحديد موقعه بدقة في عرض البحر. فلابد أن تكون لديه بوصله وخريطة، ووسائل لقياس المسافات، وجهاز لتحديد أعماق المياه، وجهاز لمعرفة موقع الأجرام السماوية، ووسيلة ما لتحديد الوقت. وأخيراً يكون من المفيد له معرفة المكان الذي يتجه إليه.

حتى زمن بعيد في العصور الوسطى كان البحَّار محروماً من كل هذه الأشياء تقريباً، وحتى في وقتنا هذا هناك أشياء كثيرة مرغوب فيها عند رسم الخرائط. ومع ذلك فقد قام البحَّارة القدامى برحلات غير عادية بدون أي من تلك الأدوات والأجهزة. إذ دار الفينيقيون

حول أفريقيا، ووصل بحّارة من قرطاج القديمة إلى شواطئ الجزر البريطانية، حيث نقلوا القصدير لأهل البحر المتوسط. واخترق أهل الشمال البحر الأسود بسفنهم الطويلة، ومن المؤكد أنهم أبحروا غربًا حتى نيوفاوندلاند وخليج هدسون وربما وصلوا إلى أمريكا الوسطى، بينما يحتمل أن يكون سانت بريندان St. Brendan قد ذهب بقاربه المصنوع من جلد الحيوانات إلى جزر الآزور Azores وماديرا Madeira والكنارى Canary وجزر الرأس الأخضر Cape Verde ثم عاد. وتحدث رجال الأمير هنرى عن البحار المتجمدة فى الجنوب.

ويصعب علينا إدراك المشاكل التى كانت تواجه هؤلاء الملاحين الأوائل. كيف كانوا يعدون لرحلة لا يعرف أحد كم تطول وتتجه إلى مكان غير معروف؟ كم من الماء وكم من الطعام تأخذ معك؟ وما نوع الطعام؟ وكيف تطهو الطعام؟ وأين تنام؟ وماذا يرتدى البحّار من ملابس؟ وماذا تأخذ معك لإجراء الإصلاحات؟ ومتى تنهى رحلتك؟ وكيف تعود إلى موطنك؟ كان شيئًا فى صالح كولمبس أن يسير أمام الرياح الموسمية لمسافة ثلاثة آلاف ميل، ولكن كيف كان يأمل فى شق طريق العودة فى مواجهتها؟

بل إن الأهم من ذلك هى بعض الأسئلة التى نادرًا ما يطرحها أحد. فكيف كان الربان يسيطر على طاقمه ويمنع حدوث التمرد ويوقف المشاجرات الشخصية ويحافظ على النظام، أو على الأقل على مظهر السفينة السعيدة؟ وكذلك ما هى مشاعره الشخصية وهو يمضى متعثرًا عبر محيط تكثر فيه الوحوش والجزر الطافية والعفاريت، والخوف من أن يسقط من على حافة العالم فى منتصف الليل أو تقضى عليه الشمس وهى تعود إلى بيتها الليلى فى البحر؟ ما هو رد فعله تجاه رؤية اليابسة أو طائر غير معتاد أو عشب بحرى غريب أو حطام سفينة يطفو على وجه الماء؟ نحن نعرف على سبيل المثال أن الأسبان كانوا يخشون جزيرة ماديرا لأن السحب كانت تغطيها، وأن الإنجليز كانوا يظنون أن بيرمودا أرض مسحورة وسيئة تسكنها الساحرات(1). والنقطة الأخيرة، وإن لم تكن الأقل أهمية، هى أن البحّار القديم كان يعيش فى عصر تقيِّم فيه الحياة تقييمًا مختلفًا ولم تكن للوقت فيه أهمية كبيرة. فحين يخرج إلى البحر لم يكن ذلك موضع ملاحظة كبيرة جدًا، ولو لم يعد فإنه من المشكوك فيه أن أحدًا كان سيبحث عنه؛ وإذا بحث عنه أحد لكان ذلك بعد عامين.

لا يسع المرء سوى التعجب كذلك من كيفية ملاحة السفن ليلاً في الأيام الخوالي. فلا فائدة كبيرة ترجى من البوصلة إن لم تكن قادراً على رؤيتها، وإذا اقتربت سفينة فجأة وبدون أي تحذير خلال ساعات الظلام باليابسة أو بحيد من الحيود كانت فرصتها من تحاشي الاصطدام قليلة. والحل هو أن تلك السفن لم تكن تسير ليلاً في كثير من الأحيان إلى أن تمكنوا من صنع ضوء باستخدام قرن بقرة وشمعة. وبدلاً من ذلك كانوا يطوون أشرعتها ويتركوا أنفسهم لتيار الماء حتى أول ضوء.

وفي الوقت الراهن تواجه أية سفينة تجارية أو ناقلة أو يخت حديث القليل من هذه المشاكل، ولكن هناك مناطق لا يزال موجوداً فيها بعض هذه المشاكل. ففي نيجيريا لابد لابن البلد أن يتعلم "قراءة الماء وسماعه" قبل أن يعمل في البحر. وفي جزر الكناري قيل لي إن السفن تمر بانتظام بين تلك الجزر وأفريقيا - وهي مسافة تصل إلى مئات الأميال - بدون حتى البوصلة. وينطبق الشيء نفسه على جزر الهند الغربية، حيث تسير السفن الصغيرة مسافات كبيرة في أي اتجاه دون الاستعانة بالبوصلة أو الخريطة أو السجل أو حتى في بعض الأحيان المسبار الذي يقيس الأعماق معتمدة اعتماداً كبيراً على شكل البحر والسحب والرياح الموسمية والنجوم مرشداً لها طوال عدة أيام في كل مرة.

ولكن ابن جزر الهند الغربية ليس هو البحَّار الوحيد الذي يتجاهل البوصلة والخريطة. فكثير من بحارة سفن الصيد والصنادل والسفن التجارية على طول السواحل الأمريكية والبريطانية يستخدمون البوصلة استخداماً نادراً ولا يستخدمون الخريطة بالمرة أو لديهم فكرة ضعيفة جداً عن الملاحة. وشرح لي القبطان بوب روبرتس Bob Roberts فكرة شائعة عن الخرائط ذات ليلة في بين ميل Pin Mill بإنجلترا: "إذا نظرت إلى الخريطة فلن تنظر إلى ما ينبغي عليك عمله. إنك لست بحاجة إلى خريطة إلا إذا كنت لا تعرف أين أنت. وإذا كنت لا تعرف أين أنت فلا داعي لأن تخرج إلى هناك."

الواقع أنه رغم اعتماد الملاح الحديث اعتماداً كبيراً على الخريطة، فإن المرء يتساءل عن ضرورتها حين يدرك أن الكابتن كوك كانت لديه اثنتي عشرة خريطة كي

يدور حول العالم على ناقلة فحم قديمة، ولم يكن مع مئات المستكشفين الذين سبقوه خرائط بالمرة؛ أو كانت لديهم خرائط غير دقيقة إلى حد كبير، بحيث كانت خطراً وليس عوناً. وهناك ازدراء محدود يتضح بين "أخوية الشاطئ" على جانبي الأطلنطي بالنسبة للرجل الذي يستخدم خريطة، وتظهر قصص متشابهة بشأن استخدامها.

كان القبطان بات أورين Pat Ohrin معروفاً منذ سنوات باعتباره رباناً يتغلب على الصعاب وقاتلاً رهيباً للأسماك، ولا تزال قصص كثيرة تُروى عنه. فحين عاد ذات مرة بحمولة ضخمة من الأسماك من جراند بانكس سأله صحفي: "هل كانت رحلتك صعبة يا قبطان أورين؟" فرد عليه بقوله: "لا، لا، كانت رحلة رائعة، لم تكن هناك مشاكل. لقد فقدت قارباً صغيراً وبرتغاليين وحسب. لم تكن هناك مشاكل بالمرة." وعلى أي الأحوال، فقد حقق القبطان من النجاح ما جعل مدينة جلوسستر تقيم عشاء تكريماً له وتهديه خريطة ذات مقاس رسم كبير لجورجيز بانك التي تعد واحدة من مناطق الصيد المفضلة لديه. وكان الربان ممتناً إلى حد كبير، ولكنه لف الخريطة وحشرها في مكان قريب في سقف قمرته حيث بقيت سنوات عديدة، حيث كان استخدامها الأساسي هو كونها بيتاً لعدد لا حصر له من الذباب. وبعد رحلة بالغة الصعوبة كان اتجاه الريح فيها غير ثابت والضباب كثيف، بدأ القبطان يشك في موقفه وتذكر أحد أفراد طاقمه الخريطة التكريمية. ذهب بات إلى أسفل وفردها. كانت الخريطة بكاملها مغطاة بفضلات الذباب. قال الرجل العجوز: "يا للعجب. لم أكن أعرف أن هناك هذا العدد الكبير من الصخور في جورجيز" (٢).

وتُروى قصة مشابهة عن خليج بنتلاند Pentland Firth في إسكوتلندا. فيقال إن أميرالاً بريطانياً أخذ على متن سفينته مرشداً محلياً ليمر به في جزء من المياه يعاني من المد والجزر وأصر على أن يستخدم المرشد إحدى الخرائط. ألقى المرشد نظرة على الخريطة ثم هز رأسه وقال: "يا للعجب. لو كنت أعرف أن هذا العدد الكبير من حطام السفن موجود هنا لما جئت قط" (٣).

بدون تحديد الوقت على وجه الدقة كان من المستحيل أن يكون هناك تحديد دقيق للمسافة أو خط الطول، أما دائرة العرض فكان من السهل إيجادها. ومن ثم كان خط

السير المعتاد لأية سفينة تعبر المحيط الأطلنطي هو الإبحار بمحاذاة الساحل حتى بلوغ دائرة العرض المطلوبة ثم الاتجاه إلى الشاطئ الآخر. وحين كانت الفرصة تسنح كان القبطان يلاحظ دائرة العرض التي يريدها ويغير خط السير إما شمالاً أو جنوبًا. وكان التعبير الشائع بين البحارة الذين يعبرون المحيط الأطلنطي في تلك الأيام هو: "سِر بها جنوبًا حتى يسيح الزبد ثم اتجه شرقًا" (٤).

وحين كان الملاّح يدرك أنه يقترب من البر كان يتوقف ليلاً وإما أن يلقي بالمرساة أو يطوي الأشرعة. وفي كل يوم يسبر الأعماق، مستخدمًا في بعض الأحيان خيطًا يصل طوله إلى ألف فرسخ. وفي النهاية يعثر على القاع ويعرف أنه فوق الرصيف القاري. وبعد ذلك يبحر بحذر إلى الأمام إلى أن يبلغ حد المائة فرسخ، ومن ثم يسير فقط في ضوء النهار، بحيث يسير أمامه قارب يسبر الأعماق في الوقت الذي يزداد فيه الماء ضحالة.

وبما أنه من الصعب قياس خيط طويل، فإن خيط سبر الأعماق يُعلَّم بطريقة تجعل قراءته ممكنة بالنهار وأثناء الليل. إذ تُربط بالخيط قطعة من الجلد ذات نيلين عند علامة الفرسخين، وقطعة من الجلد لها ثلاثة نيول عند الثلاثة فراسخ، و خرقة من التيل الأبيض عند الخمسة، وخرقة من الصوف الأحمر عند السبعة، و قطعة من الجلد بها ثقب عند العشرة، وقطعة حبل بها عقدتان عند العشرين.(٥) (في جزر الهند الغربية، حيث لا يزال خيط سبر الأعماق ضروريًا للملاحة، هناك تغيير في هذه الممارسة. فعند الفرسخ والنصف قطعة من القماش الأبيض، وعند الثلاثة فراسخ قطعة من الجلد لها ثلاثة ذيول، وعند الخمسة شريحة واحدة من الجلد، وعند العشرة قطعة من قماش أحمر.)

وما إن يصبح الربان فوق "الحافة" (حد المائة فرسخ) حتى يحرص على "تسليح" خيط سبر الأعماق، أي يضع شحم أو زبد في الثقب الموجود على الطرف. وبهذه الطريقة يمكنه جمع عينات من الأعماق - قطع من الأصداف أو الطين أو الرمل أو الأعشاب أو أيًا ما كان على القاع – وبمرور الوقت كان الملاح الماهر يتعلم قراءة القاع بدقة مذهلة، ليس فقط بالبصر، ولكن بالشم والذوق كذلك. وفي النهاية يصبح القاع معروفًا معرفة جيدة حتى إن الرجل لم يكن يعرف من العينات التي يأتي بها خيط سبر

الأعماق أنه شمال كيب كود Cape Cod أم جنوبه وحسب، بل كذلك أنه على بعد عشرة أميال شرقى ميناء بوسطن.

ويصف القبطان لويس أوليفيير من بيكيا فى جزر الهند الغربية السير المعتاد بمحاذاة الساحل فى سفينة شراعية حديثة:

"حين نسبر الأعماق، لنفترض أننا أبحرنا من هنا على متن "إيرل تيت" Earl Tate عند حساب موقع السفينة والمسار من موستيك Mustique إلى باليسو Balliceaux . نحن عمومًا نتجه جنوب شرقى إلى شرق من باليسو فى طريقنا إلى جيانا Guya-na بعد حساب موقع السفينة. وبعد ثمانية وأربعين ساعة نعبر دائرة عرض توباجو Tobago . وعمومًا نغير اتجاهنا إلى [ هناك] ونسبر القاع لمعرفة عمق الماء الذى نحن فيه ثم يرون ما فى أسفل المسبار هل هو قواقع داكنة اللون، أم رمل وقواقع، أم رمل أسود، أم رمل وطين ثم يرجعون إلى الخريطة لمعرفة الموقع فى الخريطة ثم تحدد موقعك من هناك. والمسار، حدد المسار من ذلك بالعودة إلى البوصلة التى على الخريطة. وبعد ذلك تحدد موقعك من هناك. بعد ذلك غير مسارك من هناك إلى الفنار. وبعد ذلك تنجح فى حساب موقع السفينة. والآن إذا كنت غرب الفنار فإنك تجد دائمًا طينًا لينًا، طينًا لينًا داكنًا. أمام الفنار مباشرة تجد رملاً وقواقع، رمل داكن وقواقع ويكون العمق حوالى عشرة فراسخ، عشرة فراسخ. تدخل ويكون العمق خمسة فراسخ. وبعد أن تدخل فى خمسة فراسخ تكون على خط النهر مباشرة. إذا لم تكن ترى الفنار فى ذلك الوقت، فإنك ستظل تتبعه وكل نصف ساعة تراجع عمقك إلى أن يظهر الفنار. والفنار يبعد أربعين ميلاً من جورجتاون Georgetown فى جيانا" (٦) .

نادرًا ما يستخدم المسبار فى السفن الكبيرة الآن، إن كان هناك من يستخدمه، ولكنه شائع جدًا بين السفن التجارية التى تسير بمحاذاة الساحل وسفن الصيد، وخاصة بين سفن الصيد التى تعرف من القاع نوع الأسماك المتوقع صيدها على وجه الدقة. بل إن هذه المهارة كانت وراء بعض الرهبة وكثير من المرح بين الأخوية البحرية. ونموذج ذلك سلسلة من الحكايات من خليج تشيسابيك يرددونها فى كل من كندا والجزر البريطانية. وتأخذ إحدى الحكايات الشكل التالى.

كان هناك رجل عجوز يعمل طوال حياته صائد محار فى الخليج. وكان يقال إنه يمكنه تحديد مكانه على وجه الدقة فى أى وقت، ليلاً أو نهاراً، وفى الضباب أو المطر أو الثلج، عن طريق تذوق (أو شم) المسبار. كان يأمر بإخراج المسبار فى منتصف الليل ثم يتذوقه بعد أن يوضع على السفينة. "ميلان قبالة نهر كورن Corn River" . "نتجه إلى تشوبتانك Choptank" . "نقترب من جزيرة جيبسون Gibson Island . " وهكذا. وفى يوم كثيف الضباب قرر الطاقم أن يهزأ به. وعلى غفلة منه أخذوا بعض فضلات الدجاج من قفص دجاج بعثت به مسز ميرفى Mrs. Murphy من جزيرة سميث Smith's Island إلى السوق ولصقوها فى الشحم. وبعد فترة أمر القبطان بسبر العمق ثم طلب المسبار. فى البداية نظر إليه، ثم شمه وأخيراً تذوقه. فرح فرحًا شديداً وصاح قائلاً: "أبحروا فى اتجاه الريح يا أولاد، أبحروا فى اتجاه الريح! هناك شىء رهيب! فنحن طبقًا للمسبار وسط حظيرة دجاج مسز ميرفى فى جزيرة سميث!" (٧) .

كان معظم قباطنة السفن التجارية التى تسير بمحاذاة الساحل وسفن الصيد ملاحى أنفسهم. وكانت رحلاتهم قصيرة وحاجتهم إلى التصويب قليلة. ونتيجة لذلك كانت تقديراتهم لمواقعهم تقريبية جداً فى العادة، وكان التصويب غير معتاد وتشتيت لانتباه الطاقم. وتُروى حكاية من لونبرج Luneburg فى نوفا سكوشا فى كل من الولايات المتحدة والعالم القديم، مع التعديلات اللازمة كى تتلاءم مع المنطقة، كما يلى:

ظل ربان سفينة فى قديم الزمان فى مصايد جراند بانكس مدة تزيد على الشهر، وطوال ذلك الوقت كله كان الضباب كثيفًا والريح تهب من كل اتجاه. وعندما حان وقت العودة، كان الرجلَ العجوز فى شك كبير فيما يتعلق بموقعه، وهو ما جعل طاقمه يشعر بشىء من القلق. ولكى يهدئ الربان الأمور أخرج السُدْسِية ونظر فيها بحركة درامية إلى حد كبير حين ظهرت الشمس أخيراً على استحياء من وراء الضباب. راقب أفراد الطاقم الموقف برهبة وتحلقوا حول الفتحة التى فى سطح المؤخرة ينتظرون النتيجة فى قلق. وبعد حوالى الساعتين ظهر الربان من جديد وقال لطاقمه بتجهم: "انتبهوا جيداً. فنحن طبقًا لحساباتى على بعد ١٢٠ ميلاً داخل الغابات" (٨) .

الشخص الآخر الذى كثيراً ما يكون مادة للحكايات المضحكة رجل يسمى المرشد. وعادة ما يكون هذا الشخص قد اكتسب دراية معينة بمنطقة صغيرة من الساحل، وتطلب معظم السفن الكبيرة التى تدخل أحد الموانئ فى تلك المنطقة وجوده. وهذا المنصب - أو بالأحرى كان - يحظى برعاية شديدة، وكانت وظيفة المرشد تورث من الآباء للأبناء.

وكانت الوسيلة المستخدمة لاستئجار أحد المرشدين كما يلى. فقد كانت السفينة تظهر فى عرض البحر وترفع علمًا رمزيًا عليه الحرف P (*) وكانت سفينة صغيرة على متنها مرشد، وهى عادة ذات صاريين، تقف على استعداد انتظاراً لمثل هذا الاحتمال، وكانت تدنو من تلك السفينة وتنزل قارباً صغيراً وتنقل المرشد الذى يرقى سلمًا من الحبال يسمونه "القرد" أو "سلم يعقوب" ويصعد على سطح السفينة. وكانت الطريقة البديلة هى إرسال إشارة إلى محطة مراقبة على البر وكان يؤتى بالمرشد على قارب يسير فوق الأمواج المتلاطمة.

وما إن يصعد المرشد على سطح السفينة حتى تكون له السيطرة الكاملة عليها. ولكن المثير للانتباه إلى حد كبير أنه إذا جعل السفينة تجنح فإن القبطان وليس المرشد هو الذى يتحمل عبء المسئولية. ولكن الأسوأ الذى يمكن أن يحدث للمرشد هو أن تصبح هذه سبة فى جبينه.

وعادة ما كان المرشد يحصل على أجره إما حسب وزن السفينة أو طولها، وكان العمل فى الموانئ المزدحمة مربحًا إلى أقصى حد.

وطبقًا لما يقوله ماريون برونجتون Marion Brewington فإن أول مرشد فى أمريكا كان رجلاً يسمى كلارك Clark وكانت له صلة بمستعمرة جيمستاون Jamestown فى فيرجينيا. وفى يوم من الأيام ظهرت سفينة أسبانية فى خليج تشيسابيك وأمرها المستعمرون بالمغادرة وإلا أطلقوا النار عليها. ورد القبطان الأسبانى بأنه لا يمكنه الذهاب بدون مرشد، لأنه تخبط وهو يدخل الخليج ويخشى أن تتحطم السفينة

(*) الحرف الأول من كلمة مرشد بالإنجليزية pilot (المترجم).

في المخاضات. وُضع المرشد كلارك على السفينة على وعد بأن يعيدوه بمجرد خروج السفينة من الخليج، ولكن ما إن ابتعد الأسبان عن الخطر حتى أسرعوا عائدين إلى أسبانيا، حيث جرى استجواب المرشد استجوابًا دقيقًا على مدى السنوات القليلة التالية. وبعد أن حصلوا على ما لديه من معلومات أطلقوا سراحه وعاد إلى إنجلترا حيث استفسر عن سفينة متجهة إلى أمريكا الشمالية، وكانت السفينة التى وجدها تسمى مايفلور Mayflower، حيث وقع عقداً للعمل عليها وكيلاً للقبطان. وحظيت الخدمات التى قدمها للمهاجرين Pilgrims(*) بتقدير كبير مما جعلهم يهبونه جزيرة فى خليج بلايموث قبالة دكسبرى Duxbury تحمل اسمه حتى يومنا هذا. إلا أن كلارك فضل فيرجينيا وعاد إليها واستمر يعمل فى مهنته (٩).

وربما لاحظنا أن معظم الملاحة تعتمد على الإرشاد وليس على الملاحة بمراقبة الأجرام السماوية. وهذا أمر متوقع، حيث إنه حتى فى وقتنا هذا نجد أن عدد السفن التى تعمل على امتداد الشواطئ أو على الأكثر لبضعة أميال داخل البحر أكبر بكثير من تلك التى تعبر المحيط الأطلنطى. بل إن الرجل الذى يبحر مستعينًا بالشمس والنجوم لابد أن تكون لديه بعض المعرفة بحساب المثلثات والرياضة العامة، يفوق ما قد نتوقع وجوده لدى عدد من العامة.

ومع أن الملاَّح الذى يسير بمحاذاة الشاطئ لا يستخدم الخرائط فى العادة، فإن لديه عدداً من الأدوات المثيرة والمفيدة التى تساعده. وقد تحدثنا من قبل عن زجاجة الطقس فى فصل سابق. ويكفى نموذجان لإعطاء فكرة عن بعض الأساليب الشائعة. فبدلاً من استخدام مسطرة الخطوط المتوازية لتحديد مسارهم عن طريق "تمشية" المسطرة إلى ميناء البوصلة، كان صيادو الأسماك البحريين فى نيو إنجلاند يقطعون يد المكنسة أو المسحة بالمنشار. وبعد ذلك يضعون قطعة الخشب المستديرة على الخريطة ويوجهونها على نقطتين ويدحرجونها حتى ميناء البوصلة. ولكى يحدد البحار الإنجليزى والأمريكى السرعة بدقة أكبر (عادة ما يحكم البحارة خلال عقدة واحدة سرعة السفينة عن طريق الأثر الذى تتركه خلفها والصوت الذى تحدثه) كانا يلجئان إلى "قطعة

(*) الانفصاليون الإنجليز الذين أسسوا مستعمرة بلايموث فى نيو إنجلاند عام ١٦٢٠ (المترجم).

الخشب الهولندية". فكان أحد الرجال يلقى رقيقة أو قطعة صغيرة من الخشب من على مقدمة السفينة بينما يقوم رجل عند المؤخرة إما بحساب الوقت بالساعة أو العد حتى عبورها المؤخرة. فعلى سبيل المثال إذا أخذت الرقيقة عشر ثوان كى تعبر سفينة طولها مائة قدم، فإنه من السهل تحديد عدد العقد التى تقطعها السفينة.

وبالطبع فإن القدرة على تحديد سرعة السفينة تعتمد على بعض المعرفة بالوقت. ولم تكن الساعات والبحر على وفاق قط، وقد طال البحث عن طريقة لقراءة دقيقة بالفعل للوقت - بحيث تكفى لتحديد طول المسافة - زمنًا طويلاً. وكانت هناك طريقة بدائية تقوم على استعمال الساعة الرملية، التى يقلبها شخص فى كل مرة يفرغ فيها الرمل من أحد جزئيها؛ إن تتذكر. إلا أن البحّار غير المتعلم كانت لديه قدرة عجيبة على تحديد الوقت والعديد من الطرق المثيرة لاستخراجه حسابيًا.

وفى تورياجو قال لى إخبارى إنه يمكن تحديد الوقت بالنجوم فى البحر. وقال إن فى البلاد أربعة نجوم تظهر بعد منتصف الليل. وبناء على المسافة التى يرغب فى قطعها بعيداً عن الشاطئ، كان يبحر عند "ظهور النجم الأول"، أو الثانى، وهكذا.

أثناء الصيد بسفن صيد الحيتان فى بيكيا، لاحظت أن صيادى الحيتان كانوا يصلون إلى السفينة كل صباح فى الساعة ٦,١٥، وكانوا يعودون لبيوتهم كل مساء فيما بين الساعة ٢,١٥ و٢,٢٠ دون أن يكون بينهم من يحمل ساعة. وحين كانوا "يجدون حوتًا" وكان الحوت يصدر صوتًا، كانوا يعرفون أنه يجب أن يصعد على وجه الماء خلال ثمانية عشرة ثانية. ومن حين لآخر كان شخص يقول "إنه سيظهر الآن" أو "حان وقت قفزه من الماء". وإن لم "يأت" كانت تلك غلطة الحوت. كان الوقت يحسب بالثوانى دون أن تكون هناك ساعة.

ولكى يعرف البحّار المسافات القصيرة من الوقت كانت لديه حيله الصغيرة الذكية. فعلى سبيل المثال كان مهمًا أن تكون التحية البحرية بفارق خمس ثوان بين الطلقة والطلقة. وكان ضابط المدفعية يقطع سطح السفينة جيئة وذهابًا وهو يقول "لو لم أكن مدفعيًا، لما كنت هنا! رقم واحد، اضرب!" وكانت الحيلة البدائية الأخرى لعد الثوانى هى "تمساح، تمساحان" وهكذا (١٠) .

في مرات كثيرة كانت سفن الصيد ترغب في البقاء في المصايد طوال الليل فوق بقعة يكون الصيد فيها جيداً. وإذا لم يكن باستطاعتها إلقاء مراسيها، كانت تسير جيئة وذهاباً ببطء بين الاتجاهات. وفي بعض الأحيان عندما لم يكن بإمكانهم رؤية الشاطئ وكان الضباب كثيفاً وليس لديهم بوصلة، كانوا يربطون قطعة من الخشب في المؤخرة ويلقونها في الماء كي يتأكدوا من أنهم يسيرون في خط مستقيم، وكثيراً ما كانوا يخترعون طرقاً ذكية لتقدير طول الزمن. وفي لبرادور كان لدى أحد الصيادين تسريب بطيء في سفينته، فوضع علبة من الصفيح تحته. وفي كل مرة تمتلئ فيها العلبة كان يغير مسار السفينة (١١).

وقبل ظهور الرادار، كانت السفينة التي تبحر في مياه تكثر فيها العوائق تلجأ في كثير من الأحيان إلى صافرتها في الضباب والثلج. وكان ذلك صحيحاً إلى حد ما في المناطق التي فيها صخور. وكان يقال إن الملاح الجيد في مضيق باجيت **Puget Sound** يمكنه أن يحدد مكانه بدقة في الضباب الكثيف عن طريق إطلاق صافرته وانتظار صدى الصوت. وكان الوقت الذي يمر بين الصوت والصدى يخبره بمقدار بعده عن الشاطئ، وكانت نبرة الصدى تخبره أي صخرة يمر من عندها.

بل إنه حتى في وقتنا هذا يعتمد البحّار في المناطق النائية من العالم الأنجلو سكسوني إلى حد كبير على المعرفة المحلية لتحديد طريقه. ففي أيرلندا يقوم نهيق الحمار مقام بوق الضباب بالنسبة لصياد السمك الأيرلندي. كما أن حالة المد والجزر والبحر تخبر البحّار المتمرس في منطقة معينة أين هو على وجه الدقة. فهو يعرف أن طيوراً بعينها تحط على صخور دون غيرها ويحرص على ملاحظة سيرها. وفي المناطق المدارية يراقب البحّار السحب، وعن طريق قراءته لتشكيلاتها يمكنه أن يحدد بدقة مواقع الجزر تبعاً لشكل السحب. ويستخدم الملاح الشعبي كذلك أنفه وكثيراً ما "يشم" الأرض.

وهناك وسيلة مساعدة أخرى للملاح، خاصة في المناطق المدارية، وهي لون الماء. ففي جزر الهند الغربية يمكن للبحّار الماهر أن يحدد خلال وقت محدود جداً عمق الماء من خلال لونها. فمن حيث المبدأ، كلما ازداد الماء زرقة كان عمقه أكثر، وكلما ازداد اخضراراً كان أكثر ضحالة. أما البقع البنية أو السوداء، التي لا تزال معروفة لدى العامة باسم "رءوس الزنوج" **niggersheads**، فتشير إلى وجود بقع ضحلة من الشعاب

المرجانية. وعادة ما يكون ذلك مرجانًا حيًا، والسفينة التى تبحر فى مياه غير مستقيمة يحاول قبطانها البقاء فى المناطق البيضاء أو الرملية، لعلمه أنه إذا جنح سيكون مقدار الخطر المعرض له أقل من ذلك الناتج عن اصطدامه بالشعاب المرجانية.

رغم كل معرفة الملاح الشعبى المحلية وما لديه من أساليب ووسائل لتحديد موقعه، فهو ليس على قدر كبير من الدقة ومن المحتمل أن يتعرض لمشاكل كبيرة فى الرحلات الطويلة. ومن بين ما يحدث عادة فى الرحلات الطويلة بمحاذاة الشاطئ حكاية إحدى حملات التهريب المتجهة إلى سانت بارتس St. Barts (سانت بارثلميوز St. Barthole-mews فى جزر الهند الغربية). أبحر مركب شراعى وحيد الصارى طوله خمسة وعشر قدمًا بلا محرك ولا خريطة ولا بوصلة من جزيرة كارياكو ليرسو فى نهاية الأمر فى سانت بارتس، حيث أخذ حمولة من هناك. ولكى لا يمسك به حرس السواحل فى المارتينيك أو جوادالوب Guadaloupe، ابتعد الرجال عند عودتهم عن الشاطئ ووقع بصرهم فى النهاية على إحدى الجزر التى اعتقدوا أنها سانت لوشا St. Lucia وغيروا مسارهم كى يرسو عليها. ولسوء الحظ أنها لم تكن سانت لوشا، بل كان ما رأوه، كما قال الريان، هو جرينادا. ولذلك وصلوا شاطئ أمريكا الجنوبية بعد خمس ساعات.

وبناء على النظرية التى تقول إنه لا ينبغى لأحد أن يثبط همم الحالم، لم أقل شيئًا للشخص الذى روى لى الحكاية، ولكن المسافة تزيد على المائة ميل من جرينادا إلى أمريكا الجنوبية. ولا يمكن لمركب تهريب بهذا الحجم أن يقطع تلك المسافة فى خمس ساعات. ولم يخلط القبطان بين جرينادا وسانت لوشا، بل تصور خطأً أن توباجو هى جرينادا - التى ظن أنها سانت لوشا. ولا تبعد توباجو سوى ثلاثين ميلاً عن أمريكا الجنوبية ويمكن قطع المسافة فى خمس ساعات. وعلى أى الأحوال، فإن المعرفة والإرشاد المحليين أخطئا الميناء بحوالى مائتى ميل!

لم يعد الإرشاد على امتداد الساحل بهذا القدر من الصعوبة، بفضل الوسائل الحديثة المساعدة للملاحة و"آلة الاحتراق الداخلى الخالدة". فالسفن تسير بسرعة أكبر، ومن ثم لا يؤثر عليها المد والجزر ولا التيارات ذلك التأثير الشديد. ولم يعودوا مضطرين إلى دفع السفينة إلى الجهة التى تهب منها الريح. كما أنهم لا يبقون السفن فى مكانها

انتظاراً لهبوب الريح. وفى أمريكا الشمالية عادة ما يعرف صيادو الأسماك المحليين المسار من شمندورة إلى أخرى والسرعة التى تسير بها سفينتهم عند عدد معين من دورات المحرك. فهم "يديرون ساعتهم ويوقفون المحرك ويستمعون" وحسب. وعادة ما يسمعون أو يرون الشمندورة ويمضون إلى المسار التالى. وفى بعض الأحيان تضيع منهم ويضطرون للتجول لبعض الوقت قبل أن يلمحوها.

ويرتبط فن تسيير السفن ارتباطًا وثيقًا بالملاحة، والربان الجيد هو الذى يحرص على أن يكون لديه طاقم متمرس. وكان على البحّار قوى البنية أن يعرف كيف "يطوى الأشرعة ويفردها ويمسك الدفة"، وكانت كل الوسائل تستخدم لتسريع تعلمه. وكان الشىء الفعال بصورة خاصةٍ هو ذلك النظام الذى وضع ليتلاءم مع المناسبة. وكانت إذا اقتربت سفينتان من بعضهما فى الظلام، كان ماسك الدفة يعرف من الأضواء التى تقترب إذا كان خطر حدوث تصادم أم لا من أبيات تبدأ كما يلى:

**من أحمر لأحمر أو من أخضر لأخضر**

**ليس هناك من خطر يُرى**

**من أحمر لأخضر ومن أخضر لأحمر**

**هناك سفينة أمامك مباشرة.**

وفى الطقس الصعب حيث يكون الأمر هو "استدر قليلاً"، يتذكر مدير الدفة كيف يمسك بقياد السفينة من خلال "أرخ لها حين تترجح وشد عليها حين تترنح"، ولكى يواسى نفسه بشأن الحركة، كان لديه أبيات تقول:

**ترجحى، ترجحى، لعن الرب روحك**

**فكلما ترجحت قل ترنحك**

**أو ترنحى، ترنحى، يا ابنة العاهرة**

**فكلما ترنحت قل ترجحك.**

ولتعليم المستجد ما هى أجزاء السفينة المختلفة، كانت هناك قصيدة صغيرة تضع أجزاء السفينة المختلفة حسب ترتيب الحروف الهجائية: "A is for anchor as you very well know. B is the bobstay that goes down below ..." (١٢) .

ولتطبيق اختلاف البوصلة، فإنه بدلاً من أن يتعلم المستجد "جمع الفرق الغربى على المسار الحقيقى وطرح الغربى"، كان يتعلم أن "الشرق أقل والغرب أفضل".

وكان بعض ذلك الشعر يخدم كلاً من المستجد والمحترف، لأن القباطنة - وخاصة قباطنة السفن التجارية التى تسير بمحاذاة الساحل - يستخدمونه فى كل من أمريكا والعالم القديم لتتذكر لكيفية دخول الموانئ المختلفة، وما يمكن أن يتوقعوه هناك، وكيفية تحديد مسارهم من نقطة المغادرة إلى غيرها. وقد قيل لى إن الربابنة القدامى مثل ستاترين هول Stutterin' Hall كانت لديهم أشعار للتذكرة تحدد المسارات والمسافات ومعظم الشمندورات والفنارات من نيويورك حتى مين. ومن سوء الحظ أنه أثناء جمع فولكلور السفن الكبيرة لم يلتفت أحد إلى تلك القصائد، واليوم يصعب كثيراً العثور على أحد يتذكر أكثر من شذرة منها. وذكر القبطان بوكان أن هناك قصيدة تضم أسماء كل الفنارات والشمندورات الرئيسية من لاندز إند حتى خليج موراى. ولكن كشأن كثيرين غيره، لم يتذكر سوى بضع أبيات:

في البداية ددجيون ثم تليها سبيرن
وبعد ذلك تأتى فلامبورو هيد عند المنحنى
وتقف سكاربورو كاسل عالية
وتقع ويتبى روكس فى الشمال
وتقع سندرلاند عن منحنى الشاطئ
وكينى أولد شيلدز [ اسم حانة ] قبل ظلام الليل.

وبفضل تسجيل إيوان ماكول Ewan MacColl، حفظنا اثنتين أخريين من تلك القصائد من رواية صيادى لوستوفت Lowestoft . وتقول قصيدة من الجنوب:

بينما كنت متعلقًا فى حبل الشراع الأخير

رأيت ثلاثة أضواء وغنيت بصوت عال.

"غرب ثلاث نقط شمالاً واندفعت أجنيس

السفن الطويلة تندفع شمالاً غربيًا إلى شمال

أستطيع أن أرى منارات ليزارد

أنتظر رغبتك كى أنهى العمل."

تتعامل القصيدة الثانية التى نوردها هنا، شأنها شأن الكثير من الحكايات والمعتقدات الخاصة بالعملْ فى البحر، مع الساحل البالغ طوله حوالى خمسين ميلاً شمال لوستوفت وجنوبها . وكدأب عدد من تلك القصائد، تتجه هذه القصيدة من الجنوب إلى الشمال. وبدلاً من الاتجاهات، تشير القصيدة إلى ما يميز الموانئ المختلفة:

باكفيلد للفقر

لوستوفت للفقراء

جورليستون للفيد الحسان

يارموث للعاهرات

كيستر لكلاب البحر

كاليفورنيا للشجاعة

ثم نعود إلى وينترتون القديمة

كم هى شديدة السواد (١٣) .

وتستخدم هذه الأنواع نفسها من القصائد فى نيوفاوندلاند، حيث لا تزال جزءًا شديد الأهمية من الملاحة:

حين تكون فى محاذاة لسان جو بيت

تكون صخرة ديف فى الغرب تماماً

ولابد أن تدور غربًا إلى شمال غربى

حتى يظهر رأس بريمستون.

الخليج أضيق، ليس كثير الاتساع

أعمق مياه على الجانب الأيمن من السفينة

وحين تدخل الميناء

يكون العمق أربعة فراسخ (١٤).

والقصيدة الأخيرة أعقد من سابقتيها، وقد جمعها ماركوس هوبكينز Marcus Hopkins من نيوفاوندلاند:

الشَعر فوق رأسك وليس على أرواحكم

هناك خشب على اللسان ولا شيء على القطبين (١٥).

بالإضافة إلى تلك القصائد، كانت هناك وسائل أخرى يستخدمونها لتدريب الشخص المستجد وتقديمه إلى زمالة البحر. وقد ذكرنا من قبل ما كان يضطر لتحمله كثيراً من مقالب وسخرية؛ حيث يرسلونه إلى أسفل السفينة لتلميع "البرشامة الذهبية"، وإلى عش الغراب كى يجمع منه البيض، ويطلب من السُدسية تلاوة الصلاة، وغيرها وغيرها. إلا أنه كنت هناك كذلك بعض المراسم الخشنة فى مناسبات خاصة للترحيب به فى صفوف المخضرمين. ومن أبرز هذه المراسم تلك المتصلة بـ"عبور الخط" أو خط الاستواء، وعلى خط طول ١٨٠ . وكان الأول يجعل الشخص أحد أبناء نبتون بينما يجعله الثانى عضواً فى جماعة التنين الذهبى.

وقد كُتب الكثير عن تلك الاحتفالات، وخاصة الخاص منها بعبور خط الاستواء، وبعض الأسئلة التى أثيرت والنتائج التى استخلصت مثيرة إثارة المراسم.

واندهش أحد المؤلفين حين اكتشف أنه ليست هناك روايات عن الأب نبتون قبل القرن السادس عشر، وهو يشير إلى أن أى شخص كان يعرف أنه على خط الاستواء فقط حين يلاحظ أن الشمس فوق رأسه مباشرة(١٦). ويشعر مؤلف آخر أن كل المراسم التى من هذا النوع كانت بوحى من النقابات الألمانية.

الحقيقة هى أن أحدا لم يكن يحتفل بعبور خط الاستواء أو الخط الدولى لتغيير تاريخ اليوم فى التقويم(*) قبل اكتشاف الأجهزة الملاحية المتطورة لهما، ذلك أنه لا وجود لخط فى البحر عن خط الطول ١٨٠، كما أن الشمس لا تطلع "فوق الرأس" عند خط الاستواء إلا فى يومين من السنة. ومع ذلك فما تلك المراسم إلا امتداد لطقوس أقدم وأكثر وحشية كانت تؤدى على امتداد الساحل. ونحن نعلم منذ أيام عوليس أنه كان يلقى بين الحين والآخر بعض أفراد طاقمه من على السفينة إرضاء لوحوش الأعماق، وإذا قرأنا الأوديسا قراءة صحيحة لوجدنا أن تلك الوحوش تعيش فى أماكن تحدد الحدود بين الكتل المائية.

ومن المحتمل أن نواجه قبالة كل رأس كبير أو لسان أو جرف عال عند مدخل أى كتلة مائية كبحر البلطيق أو البحر المتوسط أو البحر الأسود تيارات مد وجزر قوية ومياه مضطربة. وكان العقل غير المتطور، الذى لا يعرف شيئًا عن تيارات المد والجزر وتيارات المحيط وغيرها، يرى أن هذه المياه المضطربة نتيجة لعمل وحوش تحت الماء. ولكى يرضيها، كان لابد من أداء نوع ما من الطقوس يتراوح بين الأضاحى البشرية والصلاة. وكان العبور الناجح يؤدى إلى النشاط الاحتفالى. وبمرور الوقت وحين ظن الإنسان أنه أكثر علمًا، أخلت رهبة الوحش مكانها ليحل محلها الرعب من المد والجزر، وهجر الإنسان تقديم الأضاحى. ومع ذلك ففى أماكن كثيرة من العالم لا تزال ذكرى الأمس باقية. فالسفن المتجهة إلى الشمال من رأس أردنامورتشان Ardnamurchan Point فى إسكوتلندا قد تضع باقة من زهور الخلنج عند رأس الجوجو، وتلك المتجهة إلى الشرق من بيتى مانان Petit Manan فى مين قد تثبت قطعة من خشب شجر

(*) خط وهمى يقطع المحيط الهادى عند خط طول ١٨٠ تقريبًا حيث يكون التاريخ إلى الشرق منه متقدمًا بيوم عن التاريخ إلى الغرب منه (المترجم).

البيسية فى المقدمة، ويعطى المسافرون الذين يسافرون بالطائرة فوق الساحل الأوروبى شهادة بأنهم عبروا رأس روكا Point Roca وهى أبعد جزء من كتلة القارة الأوروبية ناحية الغرب. وعموماً، هناك بالفعل العشرات من تلك المناطق التى كان الناس يقربون فيها الأضاحى فيما مضى، ثم قدموا "خبز القربان" واليوم لا يزالون يحيون ذكرى المرور بنوع ما من التضحية (١٧) .

وتعد مراسم عبور خط الاستواء الأشهر بين المراسم كافة، وهى أكثرها توثيقًا، وأشدها صرامة، وأعقدها، وأكثرها شعبية. وحتى فى يومنا هذا نادراً ما تجد بحاراً لا يشعر برغبة شديدة فى أن يكون "ابن نبتون" أو بحاراً مخضرماً عابراً لخط الاستواء shellback، وليس هناك مستجد أو "شرغوف"(*) يقترب من خط ماسون - ديكسون(**) Mason-Dixon Line دون أن تكون لديه مشاعر مختلطة تجاهه. وبينما تقترب السفينة أكثر وأكثر من الخط تزداد الإثارة؛ من ناحية انتظاراً للحدث، ومن ناحية أخرى لأنه ليس هناك من هو معفى من طقوس الانتقال. وهذه لحظة يمكن فيها لأفراد الطاقم أن ينتقموا من الضباط الذين لم تُجْرَ لهم طقوس الانتقال بعد، لقاء ما لحقهم من أذى فعلى ومتخيل على أيديهم.

تعود أقدم رواية معروفة عن طقس البلوغ البحرى هذا إلى عام ١٥٢٩، وتعود التى تليها إلى عام ١٥٥٧ (١٨). وفى ذلك الوقت كان يشار إليه بما يدل على أنه كان موجوداً منذ عدد كبير من السنين. وكان ذلك الطقس القديم دينيًا فى البداية؛ فقد كانت الصلوات تتلى، وكان السمك يؤكل، وكانت العملات الفضية تلقى فى البحر(١٩). إلا أنه قبل انتهاء القرن اكتسبت المراسم معظم صفاتها الحالية. وأول كل شىء هناك زيارة شخص متنكر تنكراً بدائيًا فى صورة الأب نبتون الذى يطلب عُشراً من الفضة من كل من لم يجر له طقس الانتقال. وفى حال عدم توفر "القربان" - كما يسمى ذلك غالبًا -

(*) فرخ الضفدع (المترجم) .

(**) خط بين ولايتى بنسلفانيا وميريلاند يعتبر حداً فاصلاً بين ولايات الأحرار وولايات العبيد قبل الحرب الأهلية. ووضع الخط المساحان البريطانيان تشارلز ماسون وجيرمياه ديكسون فيما بين ١٧٦٣ و ١٧٦٧ (المترجم) .

فإن الشخص المستجد تُحلق رأسه ويبلل بالماء إما بغمره فى البحر بذراع الدَّوقل [ عارضة الصارى ] ، أو غمره فى برميل من ماء البحر، أو إلقاء الماء عليه بالدلاء والعلب. وهذا كله يكون مصحوبًا بوليمة.

حوالى الساعة السادسة مساء، اكتشف شراع فى اتجاه الريح على الجانب الأيسر من مقدمة السفينة. وبعد ذلك بوقت قصير رأى الرجل الذى على صارى الشراع الأعلى الأمامى أنها تغير اتجاهها. بدا أن هناك شيئًا غامضًا فى مظهر ذلك الشراع والمسار الذى تتخذه. ... نظر إليها القبطان بنظارته؛ كانت قد نشرت أشرعتها السفلى والعليا وشراع مقدم السفينة ورفعت الراية العريضة [ علم يرفعه الأدميرال ] على رأس الصارى. ... وفجأة أفزعنى زئير محارة ضخم من أسفل مقدمة السفينة. ..كانت الساعة الثامنة وحيًانا صوت أطلسى قرصانى خشن وسألنا من نحن؛ رد القبطان وقد خلع قبعته ... [ و ] بعد أن نطق باسمنا وببعض المسائل الخاصة بسجل السفينة، طلب من جلالته الصعود على ظهر السفينة. رد نبتون بأنه لا يمكنه ترك عربته تلك الليلة ولكنه سوف يزورنا فى الصباح التالى. ... وانطلق صوت المحارة من جديد، فقد اندفع الإله فى عربة رفعها البحار من أعلى مقدمة السفينة....

فى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى دخل الملك من إحدى الفتحات المزينة. كان جالسًا على ... عربة مدفع تجرها أربعة وحوش بحرية. وكانت تقف بجواره ملكة البحر وطفلهما الوحيد... بين ذراعيها. وكان الملك متوجًا بزهور الماء الأطلسية ويمسك بيده رمحًا ثلاثى الشُعَب. ..كان يتقدمه ستة من رجال البحر ... وجاء عطارد بعصاه المجنحة وتحت إبطه لفافة. وكان دب أبيض ... يقوم مقام الحارس الخصوصى. وانتهى الموكب بفرقة أخرى من رجال البحر. خلعنا جميعنا قبعاتنا، ومرت أشياء تنم عن الاحترام بين نبتون والقبطان ... و ... وأراد من كل أبنائه الذين لم يدخلوا عداد مملكته ... من قبل أن يستمعوا إلى حاجبه العام وأن يعملوا بناء على ما يسمعونه. ..قرأ عطارد الخطبة ..وحثنا على الإعجاب بإلهات البحر ..وأنهاها بتكرار تلك الأقوال الثلاثة التى لا تقدر بثمن التى سوف تحمل الرجل سالمًا فى أنحاء العالم: ١- لا تضع أى شيء فى اتجاه الريح سوى الماء الحار والرماد. ٢- لا تشرب قدح بيرة صغير حين يمكنك أن تصبح قويًا. ٣- لا تقبل الخادمة ما دام يمكنك تقبيل سيدة البيت.

**انتهى الموكب ولكن اثنين من غلمان الماء جاءا و..قالا "أنت مطلوب." أرادا أن يعصبا عيني... حين سرت إلى مقدمة السفينة... غُسلت بعشر دلاء من الماء، من المنصة الرئيسية في أعلى الصارى والعارضة... وصعدت سلمًا كان في أعلاه الطبيب يقف على جانب والحلاق على الجانب الآخر. جس الطبيب نبضى... وأعطانى رشة مالحة من زجاجة ماء كولونيا ودفعنى برفق داخل كيس عميق نصف ممتلئ بالماء. حاولت الخروج ثلاث مرات وثلاث مرات... رفعنى الشراع إلى أعلى أما الدب... الذى كان يتدحرج عند القاع فأمسكنى... وحضننى وداعبنى براحتيه السوداوين. وفى النهاية أبعدنه عنى بضربة ساحقة فى الهواء... ونزلت وأوقعت الخادم وجريت خلال شلال من الماء إلى قمرتى.**

ويعد ذلك بدأ هذا الهروب بكل الأشكال وفى ظل كل تعديل ممكن. ... إنها مسرحية مائية لطيفة (٢٠) .

وما يلى ملخص لصعود سفينة أثناء الحرب العالمية الثانية:

حين تقترب السفينة من خط الاستواء يتطلعون إلى الأمام بحثًا عن سفينة نبتون. وأخيراً يرونها وتتجه السفينة صوبها (وفى حال السفينة البخارية توقف المحركات). ينزل سلم من الحبال أو سقالة ويُستدعى أفراد الفرقة الموسيقية. ويصعد نبتون (وهو فى أغلب الأحيان عريف الملاحين، وإن كان بعض الأشخاص المحترمين الآخرين الذين "عبروا الخط" قد يقومون بهذه الوظيفة) مزينًا بقطع من الخيط المغزول والقار، إلى سطح السفينة مع ابنه وحاجبه حيث يحيون القبطان. وهم يسألون عن وجهة السفينة وإذا كان هناك أى "شرغوف" على متنها. وبعد ذلك يصطف كل المستجدون التعساء ويسيرون أمام نبتون، حيث يُسألون ثم ينتقلون إلى الحلاق الذى يدهنهم بفرشاة طلاء يغمسها فى دلو به مادة قطرانية ويحلق رءوسهم بموس غير حاد (وأحيانًا منشار). وبعد ذلك يجعلونهم يجرون بين صفين من البحارة المخضرمين الذين يصبون عليهم ماء البحر ويضربونهم بمجداف وهم يمرون. وتقدم معاملة مشابهة للركاب. وبعد انتهاء طقس الانتقال بالنسبة للجميع، ينصرف نبتون وتتحرك السفينة وقد أقسم كل البحارة أن يفعلوا فى الآخرين، حين تحين المناسبة، ما فُعِل فيهم.

وفى وقت من الأوقات كانت المراسم التى تكاد تتطابق مع هذه يؤديها فى كيب هورن، ورأس الرجاء الصالح، صيادو الحيتان المتجهين إلى القارة القطبية الجنوبية والبحارة الذين يدخلون بحر البلطيق (٢١) .

وإذا كانت مراسم الوقت الراهن تمثل مزاحًا خشنًا، فهى لا تزال كافية لتخفيف التوترات وتوفر متنفسًا للإحباطات التى تتراكم على امتداد الرحلة. والجانب غير العادى فى المراسم هو افتقارها للتنوع على مر السنين. فبالإضافة إلى حقيقتين - أولاهما أن الشخص لا يمكنه ابتياع الانتقال بالفضة، والثانية أن الجوانب الأكثر عنفًا فى المراسم قُللت - ليس هناك اختلاف واضح بين الطقوس الآن ومنذ قرن مضى.

منذ سنوات، حين كان زمن الرحلة أطول، كانت هناك مراسم أكثر، بعضها دينى والبعض الآخر مجرد مزاح خشن، ولكن بعد أن صار زمن الرحلة أقصر والرجال أكثر تقدمًا وأصبحت وسائل الترفيه، وخاصة على السفن الكبيرة، أكثر غنى، نُسى معظم المراسم، باستثناء مراسم الحصان الميت، التى مازالوا يذكرونها بالاسم على الأقل فى البحرية الأمريكية.

وتحتل الخيل، لسبب أو لآخر، مكانًا بارزًا فى عقول البحارة منذ زمن طويل. فعلى امتداد سواحل الجزر البريطانية وأيرلندا وأمريكا الشمالية نجد "الحصان الأبيض" White Horse و"الحصان" Horse و"الحصان الأسود" Black Horse "وجزر المُهر" Colt Islands وكذلك الكثير من الألسن أو الرءوس التى ترتبط بهذه الكلمة. بل إن عددًا من الأشياء على متن السفينة تحمل أسماء من بينها "الحصان" أو تتصل بالخيل: إطار يرتكز عليه ذراع التطويل، و"براميل السرج" harness casks، وهى براميل يحفظ فيها تموين الأسبوع من اللحم،"وقد أخذت اسمها من أنها كانت تؤمِّن ضد الكسر فى مقدمة السفينة باستخدام حدوة الحصان. وكان اللبَب(*)، الذى يسمى فى بعض الأحيان "ضارب الدلافين" dolphin striker، يشير إلى سلسلة تمتد من نهاية العمود

(*) تعنى هذه الكلمة فى الأصل السير الذى يُشد من حزام الفرس مارًا بين ساقيها الأماميتين إلى لجامها (المترجم) .

الذى فى مقدم السفينة إلى الجؤجؤ. وكان حصان الملح هو الاسم الذى يعطى دائمًا لذلك اللحم الردىء الذى يأكله البحّار، وكانت "قطع الحصان" تشير إلى قطع اللحم والدهن التى تؤخذ من الحوت وتترك لتتحلل داخل أحد البراميل. بل إن هناك قطعة من الشعر الهزلى، الذى يسمى أحيانًا ابتهال البحّار أو صلاة البحّار، تقول:

أيها الحصان العجوز، أيها الحصان العجوز، ماذا تفعل هنا؟

لقد حملت حقائبى سنوات كثيرة

إنهم يُملّحونك من أجل البحّارة

إنهم يحملقون فيك بدهشة حزينة

إنهم يدحرجونك ويفقئوا عينيك

إنهم يأكلون لحمك ويمصمصون عظامك

ويرسلونك ما تبقى إلى ديفى جونز [ قاع البحر ] (٢٢) .

كان هناك تقليد فى السفن الشراعية القديمة يمكن للبحّارة بمقتضاه الحصول على أجورهم مقدمًا، بمقدار راتب شهر عادة. وأثناء الحرب العالمية الثانية كان لا يزال ذلك يحدث فى البحرية الأمريكية، وكان الرجل الذى يحصل على ذلك المال "يسحب حصانًا ميتًا". وحين كان يرده كان "يرد حصانًا ميتًا".

وكانت هناك مراسم لإحياء ذلك الحدث على متن السفينة بعد شهر فى عرض البحر. فكان يصنع ما يشبه الحصان من "إفطار الحمار" (القش) والقماش، وكان يُجر على سطح السفينة بينما البحّارة يركلونه ويضربونه. وبعد أن تتاح للجميع فرصة الإساءة إلى الدمية، كانوا يلقون بها فى البحر، مما يرمز إلى تحرر البحّار من الدّيْن وبطريقة غريبة إلى تحرره من الأرض (٢٣) .

وكان الطقس الآخر هو "سَحْب الساعة" حيث كان البحارة كافة يُجمعون فى مؤخرة السفينة عند بداية الرحلة، ويلقى فيهم وكيل القبطان كلمة ثم يختار الرجال

الذين سيوليهم مسئولية الرحلة. وكان هناك طقس آخر يجرى حين كان البحّارة يُجمعون ويسلمون سكاكينهم (التى تعد جزءًا من البحر كذراعه أو ساقه) إلى الحداد الذى يكسر أطرافها لجعلها أقل فاعلية فى حال حدوث تمرد أو "تمرد شجاع" فردى.

وهناك كذلك طقس غيره يتصل بالعقوبة يُعرف باسم "صارى القبطان"، لأنه كان يتم عادة عند قاعدة الصارى الرئيسى. وكان ذلك يحدث عادة يوم السبت، لأن يوم الأحد - رغم القصيدة التى سيأتى ذكرها فيما بعد - لم يكن يومًا يفعل فيه البحّارة ما هو أكثر من اللازم كى يجعلوا السفينة مستمرة فى سيرها. ولذلك كانت لدى الجناة فرصة الاستراحة لمدة يوم من عقوبتهم.

كان أفراد الطاقم يُجمعون ويؤتى بالجانى إلى المقدمة، وكانت التهمة تُعلن والعقوبة تُنفذ. وبالنسبة للجرائم الكبرى كالتمرد، كان الجانى يُشنق على طرف عارضة الشراع أو يُجر أسفل عارضة السفينة الرئيسية. وفى الحالة الثانية كان يُربط حبل حول يديه وقدميه ويمرر أحد طرفيه تحت السفينة. وبعد ذلك يسحب الجانى إلى أسفل السفينة وإلى أعلى من الناحية الأخرى. وإذا لم يغرق، فإن الضربات التى يتلقاها من الأصداف الملتصقة بالجزء المغمور من السفينة وقطع النحاس التى على القاع عادة ما تكون مميتة، ولكن لو لم يحدث ذلك فإن الجانى عادة ما يفكر بطريقة أفضل بشأن أساليبه فى الحياة. وبالنسبة للجرائم الأقل كانوا يربطونه فى حبال الصوارى، أو يربطونه على أحد المدافع منفرج الذراعين والساقين، أو يُجلد ما يصل عدده إلى مائة جلدة على ظهره العارى، وهو ما ينفذه عريف الملاحين عند المعبر. أو قد يُصَفَّد بالأغلال ويُحبس فى المحبس - وهو جُحر مظلم كريه الرائحة - لعدة أيام، حيث يعطى راتبًا من "البول والوقيد" (الماء والخبز). وكان ذلك كله يجرى أمام أفراد طاقم السفينة كافة، وكان له أثر قوى رادع على كل العاملين [٢٤].

ومع أن الجرائم كانت تتكون من أشياء كثيرة، فقد كانت الجرائم الرئيسية هى التمرد والاعتداء على أحد الضباط، والنوم أثناء نوبة المراقبة، والسرقة - وخاصة سرقة الطعام - ورفض إطاعة الأوامر، والتمارض، والقمار، و"العصيان الصامت". وإذا كانت العقوبات تبدو شديدة، فلابد أن نتذكر أن تلك الأوقات كانت مختلفة وكان الموقف غريبًا

تماماً عن الحياة الحديثة. وبينما كان أفراد الطاقم يُحبسون فى محابس رطبة مغلقة ويأكلون طعاماً سيئاً ويشربون ماء أسوأ، كان ضباط السفينة يجلسون على برميل بارود، وما لم "يُحَسِّن" أفراد الطاقم باستمرار فإنه قد ينفجر، وهو ما كان يحدث كثيراً. وكان الرجل الذى يتمتع بحظ طيب فى لعب الورق قد ينتهى به الحال ميتاً، والرجل الذى ينام فى نوبة المراقبة قد يهوى بكل العاملين على السفينة إلى قاع البحر، وكان السماح بأى اعتراض على السلطة يفتح صندوق الشرور. وعلى عكس ما يعتقده من يعملون على البر، ليس هناك وقت بين الأمر وتنفيذه بما يسمح بالتفسير أو الجدل. ولم يكن الضابط الجيد يميل إلى الإفصاح عن الأسباب التى وراء أمر يصدره لئلا تتحطم هالة الغموض شديد الأهمية بالنسبة للطاعة. ويتولى قبطان السفينة القيادة بخيط رقيق يربطه بالسماء. وللحفاظ عليه، لابد أن تكون روحه وأرواح ضباطه أرواحاً منعزلة.

كان بعض القباطنة يسيئون استغلال مناصبهم إلى حد كبير بطبيعة الحال. وهناك سجلات خاصة بقباطنة البحر الذين جوَّعوا أفراد طواقمهم وجلدوهم بصورة لا يصدقها أحد. وفى أحد الأمثلة على ذلك ضربَ قبطان رجلاً حتى الموت لعدم تناوله لقمتين من اللحم، وفى مثال آخر لم يستدر أحد الربابنة حين سقط أحد أفراد الطاقم من على السفينة، فى حين أمضى أسبوعاً يبحث عن مرساة ضائعة. إلا أنه رغم الحماس الذى امتدحت به تلك الأمثلة، فإن قبطان البحر العادى كان ولا يزال رجلاً معتدلاً فى كل شىء.

ويرى أهل البر أن أعظم خطر يمكن أن تتعرض له سفينة من السفن هو العاصفة التى تهب فى عرض البحر. وهذا ليس صحيحاً. فمع وجود متسع يمكن للبحَّار أن يحدد اختياره. إذ يمكنه أن يتوقف عن السير، أو يطوى كل أشرعته، أو يجرى أمام الريح بصوار عارية، حسبما يفضله وطبقاً لقدرات سفينته، وعادة ما تنجو السفينة. قد تفقد أشرعتها، وربما تبذل قصارى جهدها وتبدأ فى الغرق، ولكن فرص بقائها طافية تظل جيدة حتى وإن كان ذلك يعنى الاستمرار فى نزح المياه حتى تهدأ العاصفة على الأقل. وأكثر ما يخشاه البحَّار هو الأرض، وخاصة الساحل الذى تهب الريح تجاهه. فالسفن التى فُقدت بسبب جنوحها أكثر من تلك التى غرقت فى عرض البحر، ذلك أن

فرصة السفينة الجانحة في النجاة ضئيلة. وفي الطقس الهادئ يمكنها التخلص من حمولتها، وربما تلقي مرساتها. ولكن هذا كله يأخذ وقتًا وسوف يدخل الماء السفينة في الغالب قبل إمكان تخفيف حمولتها أو رفعها. وفي الجو شديد الاضطراب قد لا تتمكن حتى من القيام بتلك الأشياء.

ورغم قول البحار العجوز "حين تكون في شك من أمرك، ابق في الخارج"، فإن الميناء يجتذب السفن دائمًا في حال الضباب الوشيك، أو اقتراب الليل، أو عند سقوط الثلج، أو هبوب الريح الشديدة. فالربان الذي مل البحر يشعر برغبة شديدة في أن يستريح ليلة واحدة، وفي كثير من الأحيان يراهن على أنه يمكنه ذلك، وفي كل مرة يخسر الرهان.

بالنسبة للسفينة التي تجنح عند ساحل تهب منه الريح يكون الموقف يائسًا. فلابد أن ينشر الربان ما يكفي من الأشرعة كي ينجح في مقاومته للبحر. وحين تشتد الريح فإما أن أشرعته لا تتحمل الضغط أو يكون من اللازم تقليلها إلى القدر الذي لا يدفع بالسفينة إلى داخل البحر. إن سفينته، التي باتت خارج الماء أكثر منها داخله، لا تمنحه القوة الكافية للسير قُدُمًا. ورويداً رويداً، وموجة وراء موجة، يُدفع أكثر وأكثر للوراء إلى الموت والدمار. ولا يكون أمامه سوى ثلاثة خيارات: فإما أن يلقي المرساة، ونادراً ما تمسك المراسي في مثل هذه الظروف؛ أو يثبت على أمل أن الريح سوف تهدأ، ولا يبدو أنها ستهدأ إلى أن تدفع به إلى الشاطئ؛ أو يتخذ موقف المقاتل ويتجه صوب الشاطئ، أملاً في أن يصل إلى أرض مرتفعة بالقدر الذي يمكِّن البحارة من القفز إلى مكان مأمون. ولكن حتى هذا نادراً ما ينجح، وعادة ما تندفع السفينة وتنقلب ويسقط كل البحارة من عليها.

ويمكن للسفينة حين تكون في عرض البحر أن تتخلص من حمولتها، أو تقطع الصواري، أو تستخدم الزيت، أو تفعل عدداً من الأشياء الأخرى التي إن لم تنقذها فسوف تبقيها طافية حتى تهدأ العاصفة ويمكن لأفراد الطاقم النزول من عليها. أما السفينة التي تجنح بالقرب من الشاطئ فلا تسمح بمثل هذا التأجيل. فخلال دقائق معدودات أو بضع ساعات سوف تتمزق إربًا ويموت البحارة.

وحين يتعرف المرء على تلك الأخطار يبدأ فى فهم أنه ربما كان أعظم عون للملاحة هو اختراع الفنار بضوئه وما يصاحبه من مدفع وبوق وصفارة إنذار وجرس. فعند الدخول قبالة المناطق الضحلة، يحذر الضوء البحَّار على بعد أميال فى عرض البحر من الحيود الواقعة أمامه، ويساعده فى تحديد موقعه على الخريطة ويرشده إلى ميناء ما، أو يسمح له بأداء عمله بسهولة ويسر حين لا يزال أمامه متسع. ولم تكن تلك الأضواء موجودة من زمن بعيد فى البحر المتوسط، ذلك أن فنار الإسكندرية يعد أحد عجائب الدنيا السبع. وقد ظهرت بعد ذلك فى سائر أوروبا، وأول فنار فى أمريكا كان إما قبالة بوسطن على لسان يسمى "ذا جريفز" the Graves، أو قبالة نيوبورت على شبه جزيرة تعرف باسم "بيفرتيل" Beavertail، حسب الدليل السياحى الذى تقرؤه. وبغض النظر عن موعد وكيفية البداية، فإنه يبدو أن عصر الفنارات العظيم هو القرن التاسع عشر. فقبل ذلك كانت قليلة، وخلال هذا القرن حيث عدد السفن التى فى البحار أكثر مما كانت عليه فى أى وقت من التاريخ إذا حسبنا اليخوت، كان هناك اتجاه إلى إزالتها أو هجرها أو استبدالها بمنارات ثابتة تعمل آليًا.

لا يحتاج الفنار حاليًا إلى من يوقده، ولذلك فلا ضرورة لوجود حارس. ولكن الفنار بلا حارس هو نصف فنار. فقد كان الحارس يفعل ما لا يفعله الفنار. إذا كان يرى السفن التى فى خطر ويبلِّغ عنها، بل وفى بعض الأحيان ينقذها. ولكن الاحتفاظ بطاقم فى فنار أو منارة عائمة فى عرض البحر يكلف كثيراً، وقد بات التخلص منها صحيحًا من الناحية السياسية. فلا شك فى أن الآلاف القليلة من الدولارات التى وُفرت سوف تزيد المليارات التى تنفق على رحلات الفضاء كثيراً.

إن حكاية الفنارات يمكن أن تملأ مجلداً، حيث تبدأ بمشاكل بنائها، والكفاح من أجل الحفاظ على الأضواء والمخاطر التى تنطوى على العناية بها. وكنت قد ذكرت فى موضع ما كيف أن الباحثين عن السفن الغارقة يطفئون الضوء، إلا أننى أود هنا أن أذكر حكايتين أو ثلاث حكايات تبين الجوانب الأخرى من الفنارات.

سمعنا كلنا تقريبًا عن جريس دارلنج Grace Darling ابنة حارس الفنار على جزر فارن Farne Islands، وكيف كانت ترعى الضوء حين يمرض أبوها، وكيف أنقذت هى

وأبوها معًا تسع رجال من حطام السفينة "فورفارشاير" Forfarshire كان من المحتمل أن يغرقوا لو لم يكن أحد يرعى الفنار. ومن ناحية أخرى، ما لم يكن الناس يعرفون تاريخ علم نادى اليخوت، لما سمع أحد فى وقتنا هذا عن إيدا ليويس Ida Lewis، "جريس دارلنج الأمريكية" التى صنعت اسمًا لنفسها أكثر من عشر مرات.

كانت إيدا ليويس، طبقًا لما استطعت اكتشافه، حارسة الفنار الوحيدة فى الولايات المتحدة. وقد تولت ذلك العمل بطريقة طبيعية جداً، حيث كان والدها يحرس الفنار قبلها. كان فنارًا بائسًا صغيرًا على روك لايم Rock Lime داخل ميناء نيوبورت، حيث لا يبدو أن شيئًا مأساويًا قد وقع فى يوم من الأيام. ومع ذلك ظلت تلك الشابة تحرسه، ولكى تصل إلى الشاطئ كان لديها قارب جر ثقيل ذو ألواح متراكبة يقف عن الشاطئ، من ذلك النوع الذى يستعمله الصياد قوى البنية. وفى حياتها خلّصت من قبضة نبتون ما لا يقل عن ثمانية عشر شخصًا، حيث سارت بقاربها مسافة أربعة أميال تقريبًا لتصل إلى بعضهم، فى ظروف أقرب إلى العاصفة. وقد تلقت على جهودها خطاب تهنئة من رئيس الولايات المتحدة، وكانت أول امرأة تتلقى وسام الشجاعة. وبعد ذلك بقليل اضطرت للتقاعد، وهو ما يقول السكان المحليون إنه أدى إلى وفاتها. والنصب التذكارى الخاص بها حاليًا هو نادى يخوت إيدا ليويس، الذى يحمل علمه فنارًا على أرضية حمراء عليها ثمانية عشر نجمًا.

وترتبط قصة ذات طبيعة مختلفة بفنار آخر إلى الشرق منه. ومع أن فنار مينوت Minot's Light ليس رائع المنظر كما هو حال الفنارات، إلا أنه واحد من الفنارات الأكثر تصويرًا فى الولايات المتحدة، ذلك أنه عند هبوب الريح يرتفع الرذاذ فوقها لمسافة ثمانين قدمًا فوق سطح البحر. (ينبغى على من يظنون أن هذا رائع أن يتذكروا أن البحر أطفأ ضوء فنار قبل أن يُهجر ودفع بحارسه من على الدرج ودفع صخرة وزنها ثلاثة أطنان من على قمة الفنار الموجود على جزيرة كاف قبالة أيرلندا. وكان ارتفاع ذلك الفنار ١٧٥ قدمًا فوق سطح البحر)[٢٥].

طبقًا لما تقوله إحدى الحكايات، كان هناك عدد كبير من الحطام حول كوهاسيت وماساتشوستس لسفن كانت تبحث عن بوسطن فى الطقس العاصف، وبُذل جهد بدأ

بداية ناجحة لبناء فنار هناك. وفى يوم من الأيام وصلت سفينة تتخبط فى طريقها إلى بوسطن وسط الضباب إلى منطقة ضحلة وألقت مرساتها. ولأن القبطان لم يكن يعرف أين هو فقد أخذ قارباً واتجه به إلى الشاطئ ليكتشف الأمر تاركًا السفينة تحت مسئولية وكيل القبطان. وحين ذهب غيرت الريح اتجاهها إلى الشرق وهبت عاصفة، فتحركت السفينة وارتطمت بواحدة من الصخور وتحطمت. وتناثر على الشاطئ من كوهاسيت إلى بروفينستاون حطام السفينة وجثث المهاجرين الأيرلنديين. وظل الناس يلتقطون تلك الجثث لعدة أيام، وقد عثر على الكثير منها عن طريق مراقبة الطيور وهى تتغذى عليها.

ومع أنه لا يوجد فى العالم فنار يمكنه بأى شكل من الأشكال منع تحطم السفن، فقد قررت الحكومة بناء فنار نتيجة لذلك. وكان البناء من المعدن على هيئة قفص طيور يعلو فوق الماء. وظل هذا البناء قائمًا هناك سنوات كثيرة، ولكنه بدأ فى النهاية يعانى من آثار ضربات البحر المتواصلة. وشعر الحراس والسكان المحليون بأنه غير آمن وطالبوا بإصلاحه، ولكن الحكومة لم تبد أى اهتمام. ولكى يقوى الحراس البناء، ربطوا القفص بصخرة ضخمة أسفل الفنار لتكون بمثابة مرساة. وكان ذلك إجراء ممتازًا، ذلك أنه رفع عنهم اللوم فيما سيتبع ذلك من أحداث.

وفى يوم من الأيام ذهب كبير الحراس إلى البر تاركًا مسئولية الفنار لاثنين من مساعديه. وبينما كان على البر هبت الريح ولم يتمكن من العودة. ازدادت الريح قوة إلى أن صارت واحدة من أسوأ العواصف التى يتذكرها. وشيئًا فشيئًا بدأ الفنار يميل وظلت العاصفة تزداد قوة. وكان الناس على البر يرون شعاع الضوء يتجه رويداً رويداً ناحية السماء حيث يزداد ذلك أكثر وأكثر. وأخيراً وبعيد منتصف الليل جاء قرع جرس الفنار الضخم الرهيب خافتًا عبر هدير البحر. توقف الصوت، وانطفأ الضوء، وبدأت العاصفة تهدأ. وفى الصباح نظر الناس عبر مساحة من البحر ليس فيها أى شىء.

وقبل الحادث أقسم أحد الحراس أنه إذا انطفأ الضوء فى يوم من الأيام فسوف يسبح إلى الشاطئ. وقد عُثر على جثة رجل، ولكنها لم تكن جثة مساعد الحارس.

وتوجد داخل ميناء جوهاسيت جزيرة صغيرة تبعد بضع ياردات عن الشاطئ. وبعد عدة أيام من الكارثة حدث أن صعد صياد أسماك على تلك الجزيرة. وهناك وجد جثة مساعد حارس الفنار مستقرة داخل شق فوق خط المد وعلى بعد ياردات وحسب من الملجأ، حيث مات نتيجة للتعرض لعوامل الطبيعة. ويبدو أنه نجح فى الوصول إلى الجزيرة، ثم زحف خارجًا من الماء ثم استسلم للموت (٣٦) .

فى بعض الأحيان قد تتسبب الفنارات في حدوث أخطار بدلاً من أن تقدم العون. ذلك أنه إذا حدث شيء للفنار فإن السفينة المتجهة صوبه قد تقع فى مشكلة خطيرة قبل أن تدركها. ومن الأشياء المعتادة التى يمكن أن تحدث تلك القصة حول جزيرة بيكر الواقعة قبالة سالم بولاية ماساتشوستس.

كانت سفينة من سالم فى طريق العودة من الصين وعليها حمولة كبيرة فى شهر ديسمبر فى بداية القرن التاسع عشر بعد رحلة استغرقت عامين. وفى يوم من الأيام اكتشف القبطان أن حساباته تشير إلى أنهم قريبون من سالم بالقدر الكافى لدخول الميناء ليلة عيد الميلاد، إن هو أسرع السير. كان قضاء عيد الميلاد فى الوطن أمرًا مغريًا، فأخذ من سرعة السفينة. وكان اليوم السابق لعشية عيد الميلاد يومًا عبوسًا وعند الظهر أخذ الثلج ينهمر. قلت الرؤية وتضاعفت المراقبة. وعندما حل المساء هبت عاصفة وأخذت السفينة تسرع خطى العودة. كان كل ما يريدونه هو العثور على فنار جزيرة بيكر، وساعتها يمكنهم "العودة وتجفيف أنفسهم".

بعد حلول الظلام بوقت ليس طويلاً رأوا الفنار وتغير المسار ليكون أمام السفينة مجال للمناورة عند دخول الميناء. كانت السفينة تسير كقطار البضاعة وكان الجميع فى شوق إلى اليوم التالى. وفجأة كانت هناك أمواج متكسرة أمام المقدمة؛ وقبل أن يتمكنوا من عمل أى شيء، كانت السفينة على الشاطئ، وخلال وقت قصير جدًا كانت قد ضاعت تمامًا. نجح القبطان فى الوصول إلى الشاطئ مع بضع أفراد من الطاقم، بينما غرق كثيرون.

ما لم يكن يعلمه القبطان هو أن الفنار نُقل من أحد طرفى الجزيرة إلى طرفها الآخر بينما كان غائبًا خارج البلاد، وحين استدار ليتيح لنفسه مجالاً كى يناور عند دخوله الميناء صار متعامدًا على منتصف جزيرة بيكر (٣٧) .

هناك فنار آخر في مكان أبعد من ذلك على الشاطئ ترتبط به قصة مختلفة. إنه الفنار القائم على صخرة ماتينيكوس Matinicus Rock حيث يُقال إن حارسه انتحر منذ سنوات كثيرة. وكما هو الحال في معظم حوادث الانتحار، ليس شبح الميت سهلاً، وربما كان شبحه هو الذي كان يسكن الفنار حتى قبل عشر سنوات مضت على الأقل.

في ذلك الوقت كان جزء من المبنى غير مشغول ويستخدم مستودعًا. وحين كان الحراس القدامى يستبدلون بحراس جدد يهملون إخبارهم أي شيء عن المبنى. وكانت نتيجة ذلك أن فتح الطاقم البديل باب ذلك الجزء من المبنى، وعلى الفور حدثت لهم أشياء لا تفسير لها؛ فقط سقطت الكئوس من على الطاولة، وصُفقت الأبواب، ولم تكن الدواليب تبقى مغلقة. وكان أكثر ما حدث إزعاجًا هو أن المصابيح الكهربية كانت تحترق يوميًا تقريبًا، بل إن ضوء الفنار ذاته كان يُطفأ. وأخيرًا أغلق شخص ما الباب فعادت الأمور إلى طبيعتها. وحين أعاد فتحه شخص آخر بدأت المتاعب من جديد.

وبما أن الشبح لم يحدث أي ضرر مادي، وحيث إنه لم يكن هناك شيء مهم في الجناح القديم، فقد بدا أنه من الأحسن ترك الباب مغلقًا. وبتلك الطريقة كان هناك مكان كاف على الجزيرة لكل من الأحياء والأموات. ومضت الأمور في سلام لبعض الوقت إلى أن جاء ضابط للتفتيش على المركز. أمر الضابط بفتح الباب الذي فُتح رغم اعتراض الطاقم، ذلك أن الضابط لم يكن ممن يؤمنون بالأشباح أو لم يكن لديه الكثير من الوقت الذي يضيعه مع من يؤمنون بها. قال الضابط: "أريد فتح هذا الباب وتركه مفتوحًا."

قبل أن يغادر الضابط الجزيرة تحول الوهم إلى حقيقة. فقد انطفأت الأنوار، وتعطل المولِّد، وسقطت الكئوس من على الطاولة وانفتحت أبواب الجحيم بصورة عامة. وكان آخر أمر أصدره الضابط وهو يغادر الصخرة هو "أغلقوا ذلك الباب الملعون وليظل مغلقًا!" ولا حاجة إلى القول بأن أفراد الطاقم أسعدهم تنفيذ الأمر. ومنذ ذلك الوقت والهدوء يسود صخرة ماتينيكوس.

ووقع حدث ذو طبيعة أخطر من ذلك بكثير في جزر فلانان Flannan Islands في جزر هيبريديز الخارجية. كانت تلك الصخور (وهي أكبر من ذلك بقليل) خطرة بالنسبة

الملاحة ومصدراً للقصص المرعبة فى الجزر المحيطة منذ آلاف السنين، إلى أن أقيم هناك فى النهاية فنار عند بداية القرن. استغرق البناء زمنًا طويلاً، وطبقًا لما نكره إخباريون هناك لم يعمل الفنار قبل عيد الميلاد فى عام ١٩٠٥ . ولابد أن شعاعه كان هدية عيد ميلاد عظيمة للقبطان الذى يتحسس طريقه فى قلق. ذلك أن المد والجزر والتيار وتعذر الرؤية لا تفعل شيئًا لتقليل الخطر الذى تمثله الجزر.

مضى عام على ذلك اليوم دون أن يحدث مكروه. وبعد ذلك لاحظت سفينة عابرة أن هناك شيئًا غير عادى فى الفنار. فقد أرسلت إشارة دون أن يأتى رد عليها. أبلغت السفينة عن الحدث. وبعد عدة أيام لاحظت سفينة أخرى أن هناك شيئًا آخر غير عادى وأبلغت عنه، وذهب فريق تفتيش لاستطلاع الأمر. وصلت السفينة قبالة الفنار وأرسلت إشارة دون أن تتلقى رداً عليها. أنزل قارب واتجه إلى الشاطئ: لم يحييه أحد. اتجه الطاقم إلى المبنى فوجده خاليًا. كانت المعاطف والأغطية معلقة على مشاجبها، وكانت المائدة معدة لتناول الطعام، وكان الطعام معداً فى قدور وطاسات ويبدو جاهزًا للأكل على موقد بارد. وكانت آخر مادة مكتوبة فى دفتر اليومية داخل المبنى بتاريخ ٢٤ ديسمبر ولا تشير إلى أية مشكلة. وكشف المزيد من التفتيش للجزيرة أن قارب الإنقاذ الصغير مستقر على حمالته، ولكنهم لم يعثروا على أى أثر للحراس فى أى مكان. كما أنهم لم يجدوا على الجزيرة أى دليل على العنف أو السلوك العنيف. بل إنه منذ أيام عديدة قبل البلاغ الأول عن وجود مشاكل حتى وصولهم إلى هناك لم تكن هناك أية عواصف عنيفة فى المنطقة. وحتى يومنا هذا لم يلق البحر بأية جثث على الشاطئ.

ويبدو أن أهل الجزر يتمسكون بالاعتقاد بأن وحشًا ابتلع أفراد الطاقم. ويشعر آخرون بأنه ربما سقط أحد أفراد الطاقم فى الماء وغرق الآخرون وهم يحاولون استعادته. وإذا كان الحال كذلك، فلماذا لم يحاولوا إنزال القارب؟ لماذا لم يخلع أحد منهم بنطلونه أو يلقى بقميصه أو يقذف بقبعته قبل القفز فى الماء؟ لماذا لم يكن باب المبنى مفتوحاً أو يبدو ما يدل على العجلة ووجود أمر طارئ ؟ إننى أرى أن حل اللغز احتمالى مثل الآخر، وبما أنه مر نصف قرن دون إجابة، يبدو من الواضح أنه لن يحل الآن [٢٨] .

وترتبط المنارة العائمة ارتباطًا وثيقًا بالفنار. ولكن الأولى مهمتها أخطر من مهمة الثانية، ذلك أن المنارات العائمة لا تتعرض لخطر التحطم وحسب، بل كذلك السحب وبشكل أخص اصطدام السفن بها، حيث إن السفن غالبًا ما تنقاد إليها، وإذا كانت ملاحتها صحيحة تمامًا تشقها نصفين. وربما كانت حكاية تروى على جانبي المحيط، وتتطابق تمام الانطباق فيما عدا الأسماء، أقرب إلى الحقيقة منها إلى الحكاية الشعبية المسلية. وتكفينا تلك التي تروى عن جنوبي نيو إنجلاند.

منذ سنوات مضت كان هناك أسطول من المنارات العائمة في منطقة كيب كود. فعلى سبيل المثال، كانت هناك "الدجاجة والكتاكيت" Hen and Chickens و "كرم العنب" Vineyard و"مخاضات المنديل" Handkerchief Shoals و"ضلع البلوق" Pollock Rip و"الحصان الحجرى" Stone Horse، وقبالة جزيرة نانتكيت Nantucket Island كانت هناك منارة عائمة باسم "مخاضات نانتكيت" Nantucket Shoals . كانت كل منها تحمل اسم المركز المكتوب على جانبها. وكان سفينة تسير بمحاذاة الساحل تأتى من نيويورك محملة بالفحم وكانت تواجه الضباب الكثيف طوال الطريق. وكان القبطان يبحث بقلق عن منارة "الدجاجة والكتاكيت" العائمة. فعلى أحد الجانبين تقع "الخنزيرة وأبناؤها" Sow and Pigs وعلى الجانب الآخر تقع "الدجاجة والكتاكيت"، وجميعها حيود خطرة. ولكى يمر بينها لابد أن يسير بمحاذاة المنارة العائمة. وقد انتهى الزمن الذى كان يسمعها فيه، وكان كل البحَّارة يبذلون الجهد لرؤية أو سماع أى صوت يأتى عبر الريح الخفيفة.

وفى النهاية كان يسمع صوت جرس يدق، ولكن دون أن يكون هناك بوق. قرر الربان أن البوق لا يعمل واستمر فى السير إلى أن ظهر فى الظلام فجأة بدن أحمر، هو المنارة العائمة! كان مكتوبًا على جانبها Nantucket فصاح قائلاً "يا إلهى! أوقفوا السفينة وألقوا المرساة!" وفى الحال توقفت السفينة، وبقيت فى مكانها أربع وعشرين ساعة كان القبطان خلالها حائرًا فى معرفة كيفية الابتعاد بهذا الشكل عن مساره إلى حد أنه كاد أن يخطئ القارة. وحين انقشع الضباب وجد الإجابة. كانت منارة نانتكيت فى الميناء لعمل عمرة. وكانت فى طريق عودتها إلى مركزها حين حبسها الضباب وقررت إلقاء مرساتها، وفى تلك الأثناء كان ربانها المحافظ يأمر بقرع الجرس بانتظام، كما هو مطلوب من أية سفينة راسية فى عرض البحر.

ولا تزال حكاية تروى إلى الجنوب فى مين عن دور مهم آخر كانت الأجراس تقوم به فى الملاحة.

فحتى ما يقرب من ثلاثين سنة، كانت باخرة تأتى إلى مين من بوسطن، وكانت تمر على كل الموانئ التى فى طريقها. وفى يوم من الأيام كانت متجهة إلى ميناء خليج بوث Boothbay Harbor فى ضباب كثيف إلى حد كبير. وفى ذلك الوقت كانت هناك كنيسة على الشاطئ. وشيئًا فشيئًا انتقل من يصلون فيها إلى الجانب الآخر من الخليج، وحين كانوا يريدون الذهاب إلى الكنيسة كان أمامهم إما عبور الخليج أو الدوران حوله لمسافة طويلة. ولعلاج ذلك الأمر تقرر نقل الكنيسة.

حصل السكان على صندل، وتبرع البعض بزوج من قوارب صيد الإستاكوزا، وتجمع المصلون ورفعوا الكنيسة ودفعوها على أسطوانات إلى الصندل عند الجزر. وحين ارتفع المد طفا الصندل وذهب بالكنيسة. وفى الوقت ذاته عم الضباب. وكان على الصندل مع الكنيسة رجل واحد، وعنّ له أن يقرع الجرس، وقرعه.

لم يكن ربان السفينة يعلم شيئًا عن ذلك وكان يتحسس طريقه حين أبلغ المراقب عن جرس السفينة. تعرف القبطان على الجرس وعرف بالضبط أين هو. وكان الشيء التالى الذى عرفه هو أن الصوت تغير تغيراً كبيراً. تحير القبطان ولكنه فسر الأمر على أنه من آثار المد الذى كان أقوى مما توقع وظل فى طريقه. وبعد ذلك صاح المراقب "الكنيسة أمامنا مباشرة!" ويرز سطح الكنيسة وبرج الجرس من وسط الضباب. صاح الربان غاضبًا "يا إلهى! أوقفوا السفينة! استدر دورة كاملة!" تراجعت الكنيسة وجرسها المجلجل. كان الأمر التالى هو "ألقوا مرساة الطين" وتوقفت الباخرة. ظل الضباب ثلاثة أيام فى ازدياد والباخرة راسية فى مكانها ثلاثة أيام والركاب بين غاضب ومنفعل.

وإلى جانب الفنارات والمنارات العائمة تلقت الملاحة مساعدة كبيرة من الشمندورات التى تسمى فى بعض الأحيان السوارى perches (بريطانيا) أو المغازل spindels أو صانعات النهار day makers (أمريكا). وتتخذ الشمندورات أشكالاً وأحجامًا عدة. فبعضها به أجراس والبعض الآخر به أجراس كهربية. وهناك شمندورات

ذات صفارات (يسميها البحّارة نقاقات hooters أو أنانات groaners)، ومنها ما يضاء وبعضها لا يزال بلا إضاءة أو أجراس أو صفارات، ولكن يمكن التعرف عليها من شكلها ولونها. ومما يؤسف له أن استخدامها محير بعض الشيء؛ ذلك أن البحارة في الولايات المتحدة لديهم بيت يقول "Red, right, returning" [ أحمر، يمين، عودة ] وهو ما يعني أن كل الشمندورات الحمراء ينبغي أن تكون على الجانب الأيسر من السفينة عند دخول الميناء، ولكن في سائر أنحاء العالم يعني الأحمر العكس.

بالنسبة للسفينة القادمة من البحر كان ولا يزال من المعتاد أن تتجه ناحية الضوء، وتبحث عن النقاقة أو الجرس وتدخل. وكانت السفن الشراعية في حال الضباب الكثيف تبحر ثم تقف وتتسمع ثم تمضي ثانية إلى أن تسمع الشمندورة. ولا تزال سفن الصيد والسفن التي تسير بمحاذاة الشاطئ تسير ثم تطفئ المحركات وتتسمع ثم تشغلها من جديد. وإذا لم تسمع شيئًا فإنها تسير في دائرة، وإذا كانت لا تزال لا تسمع شيئًا فإنها تلقي بمرساتها وتنتظر إن أمكن. والتراث البحري زاخر بحكايات من ضلوا عن شمندوراتهم، ويتناثر في قاع البحر حطام سفنهم.

ربما كان الجرس أقدم الوسائل المعينة للملاحة بعد الشمندورة. وتقع عند مدخل خليج تاي Firth of Tay ما كانت تسمى في يوم من الأيام Inchcape Rock ولكنها معروفة الآن لدى البحارة باسم "صخرة الجرس" Bell Rock . كان المد والجزر قويًا هناك، وفي الضباب الكثيف وسكون الريح كان من الممكن أن يدفع البحر السفينة الواثقة من نفسها إليها؛ أما في الجو العاصف فكان الأمر أكثر خطورة. وقد أقام رهبان أربوث Arboath الطيبون، الذين كانوا مهتمين اهتمامًا كبيرًا بالنقل البحري، جرسًا لتحذير البحارة من الخطر. واكتشف أحد القراصنة أن الجرس يمكن أن يكون عونًا كبيرًا له في عمله؛ فكل ما عليه هو أن يربط لسان الجرس، ويوقف سفينته عند حافة الأفق وينتظر كي يلتقط عظام من لا ينتبه للخطر.

وفي النهاية سقط هو نفسه فريسة لخطته. فقد أوقف الجرس وانتظر، وعم الضباب، وعاد المد وكان البحر هادئًا. بدأ رولف Rolfe القرصان في السير مع التيار. وليس هناك ما هو أسوأ من البحر الهادئ والضباب، ذلك أن المرء في ذلك الوقت يكون

محرومًا من مساعده الآخر الوحيد للملاحة، وهو أثناءه. كانت هناك صدمة خفيفة ثم اصطدام شديد وجنح القرصان. وحين انقشع الضباب كان بحر الشمال قد تخلص من قرصان آخر (٢٩) .

وربما كانت أصعب مهمة يضطر قبطان أية سفينة لمواجهتها هي تدريب أفراد الطاقم. وكان الأمران الأكثر صعوبة بالنسبة لأي بحّار شاب هما صعود الصواري وإدارة الدفة. وكان لم الحبال على السطح أو حتى صعود الصواري في الميناء شيء، بينما الصعود بسرعة على سلالم الأشرعة المصنوعة من الحبال التي يلفها الثلج في مواجهة العاصفة، مع وجود الكثير من الأشرعة، شيء آخر. ولم يكن من السهل جعل رجل يستلقي على عارضة طولها مائة قدم في العاصفة ويثبت شراعًا يرفرف بقوة على ارتفاع ثمانين قدمًا فوق سطح السفينة. ولم يكن أي مستجد منجذبًا إلى الخروج على صاري المقدمة - الذي كثيرًا ما يسمونه "صانع الأرامل" - ويطبق قبضته على شراع المقدمة المثلث بينما السفينة تهبط برجامها(*) إلى أسفل. وحين كان المستجد يرفض الذهاب، كان وكيل القبطان أو عريف الملاحين يجبره على ارتقاء الصاري ومعه طرف حبل، وحين كان يتجمد وهو يهبط، كانت ركلة في الوجه تفعل أكثر مما تفعله أريكة المعالج النفسي لإزالة مخاوفه، أو بالأحرى استبدالها بخوف أعظم منها وهو الإطاحة برأسه.

في ظل هذا النوع من المعاملة يصبح البحار الصغير متمرسًا في ارتقاء الصاري جريًا والنزول إلى السطح منزلقًا على الشدادة الخلفية(**) كنزول رجل المطافئ على عمود النزول. ومن حين لآخر، يقع أحد هؤلاء البحارة العاديين في مشكلة. وهناك حكاية عن السفينة الأمريكية كونستتيوشن Constitution لا تزال شائعة داخل عنابر البحارة حتى يومنا هذا. ورغم كونها خيالية، فإنها تستحق أن تُحكى وربما حدثت مع ضباط مسئولين عن القيادة من قبيل ديكاتور Decator أو بريبل Preble .

(*) بروز في مقدمة السفينة يحمل بكّارة رفع المرساة، كما تثبت فيه المرساة نفسها (المترجم) .

(**) حبل يمتد من أعلى قمة الصاري إلى جانب السفينة ويميل قليلاً نحو المؤخرة (المترجم) .

فى رهان، صعد ابن القبطان، الذى لم يكن قد تجاوز العاشرة، إلى القرص الخشبى الذى فى أعلى الصارى الرئيسى. لم يجد مشقة فى الصعود إلى هناك، ووقف متوازنًا على القمة قبل أن يدرك مشكلته، وهى كيفية النزول، رغم أن الحبال جميعها كانت فى متناوله وكان المكان أصغر من أن يسمح لأحد بأن يصعد لإنقاذه. كانت هناك فرصة وحيدة لإنقاذه وهى أن يقفز خارج السفينة. أمسك القبطان البوق المكبر وصاح بقوة "اقفز!" وظل الصبى مجمداً فى مكانه. حاول والده مرة أخرى دون فائدة. وهنا وضع المكبر جانبًا وأمسك بندقية. وقف القبطان حيث يمكن رؤية الصبى بوضوح وتعمد إعداد البندقية للإطلاق وصاح من جديد "اقفز، لعنك الله! اقفز وإلا أطلقت النار!" وببطء وضع البندقية على كتفه وصوبها. قفز الصبى حيث وقع فى البحر والتقطوه (٣٠) .

بينما كان وكلاء القبطان وعريف الملاحين يتغلبون على رُهاب الأماكن المرتفعة، كان القبطان فى المؤخرة يشد شعره ويحاول تعليم المستجدين شيئًا عن إدارة الدفة. (لا أعرف حكايات عن أية محاولة ناجحة عن دور القبطان فى تعليم أى شخص أى شىء، إلا أن هناك العديد من الحكايات التى تتحدث عن فشله المحزن.)

فى إحدى المرات حاول قبطان أن يخبر بحاَّرًا مستجداً كيف تعمل البوصلة ولكنه سرعان ما أدرك أن ذلك سيكون أمراً عسيراً جداً. كانت ليلة صافية والريح فيها طيبة، وأشار للصبى إلى نجم لامع وقال له كيف يتبعه كما كان البحاَّرة يفعلون فى قديم الأزل. وشعوراً من القبطان بالرضا عن نفسه ذهب ليغفو قليلاً.

ما إن وضع القبطان رأسه عل الوسادة حتى دارت السفينة. لبس الربان سرواله على عجل واتجه مسرعًا إلى السطح. "ماذا جرى؟ ما الذى حدث؟ ألم تتبع النجم الذى قلت لك عليه؟"

"لا شىء يا سيدى. إنى أتصرف كما قلت لى تمامًا، غير أنى فقدت ذلك النجم. ولكن لا تشغل بالك يا قبطان، فقد وجدت اثنين آخرين بنفس الجودة!" (٣١) .

وفى مرة أخرى دفعت الريح قبطان سفينة أمريكية تسير بمحاذاة الساحل بعيداً، وقبل أن يتمكن من الإبحار عائداً كان قد قطع مسافة كبيرة داخل البحر. استدعى القبطان الخادم وأوضح له كيف يدير الدفة وطلب من الصبى ألا يقلق من شىء لأنهم بعيدون كثيراً عن الشاطئ. نزل القبطان إلى قمرته وأوى إلى فراشه.

ظل الصبي يدير الدفة بسعادة وهو ينظر إلى البوصلة باهتمام. وبعد بضع ساعات نظر أمامه فوجد الصارى الرئيسي وضوءين متحركين لسفينة كبيرة أمامه مباشرة على وشك الاصطدام به. وفى الأسفل أوقظ القبطان فجأة بفظاظة. "تبًا لك من ملاّح! أفضل لك أن تصعد بسرعة. هناك صيدلية أمامنا، وما لم توقفها خلال خمس دقائق سنكون أمام الباب!"(٣٢) (فى تلك الأيام كانت كل الصيدليات تضع ضوءًا أحمر وآخر أخضر على جانبى بابها) .

حين ينظر المرء إلى القباطنة يدرك بسرعة أن هناك نوعين: الأسود والحملان. كان القباطنة من النوع الأول رجالاً خطرين يصعب قيادهم مثل جوشوا بارنى Jushua Barney وبولى ووترمان Bully Waterman وصمويل صمويلز Samuel Samuels الذين كان يدفع ركابه إلى أسفل، ويسمر الفتحات التى فى السطح ويمضى فى مطاردة الإعصار ليدفع بالسفينة "دريدنوت" Dreadnaught بسرعة على سطح البحر؛ أو باكى والترز Bucky Walters قبطان "بلونوز" Bluenose وجيمى بوكانان قبطان "البنت فيفيان". كانوا فى الحرب يقاتلون كالنمور، وفى السلم يقودون سفنهم بلا رحمة. بل إن البعض منهم كان يضع أقفالاً على الحبال التى تطوى بها الأشرعة أو يضع موانع عليها فى الجزء العلوى كى لا يقصِّر أحد الأشرعة. وكانت الطريقة الوحيدة التى يمكن بها تقصير الشراع عبر القول القديم "ما ينزل لأسفل يسقط".

كان الحملان أكثر عدداً. وكانوا يحبون السفن ويعملون بالقول السائر "لابد أن تعامل سفينتك برفق وسوف تعاملك هى بطيبة". وكان هؤلاء بحارة جيدين وسيرهم طيبة وعامًا بعد عام كانوا يحملون العمل الأكبر فى النقل البحرى فى المحيط فوق ظهورهم.

كان أفراد الطاقم يحبون السفن التى يقودها الحملان. فقد كانت أيسر وأكثر أمنًا، وكانت هناك فرصة ممتازة لأن يعود المرء سالمًا كى يتناول شرابًا فى "ذا دوج" The Dog أو "دك" Duck أو أية حانة أخرى. ولكن حين يتذكر البحّار، فليس هؤلاء هم الرجال الذين يردون على باله. فالأيام الجميلة فى البحر لم تعد زاخرة بالعواصف، والسفن التى تقطِّعها مطرقة قاطع السفن القديمة أو تبلى فى مياه الخليج أكثر من تلك

التى تغرق فى البحر. ولكن أهل البحر يتوترون عند الخطر أكثر من سواهم. إنهم يفكرون بطريقة خطرة ويتذكرون الخطر. فالعنف وحده هو ما يتذكرونه؛ العواصف الشديدة، وتحطم السفن، والمرور السريع. بل إن مزاحهم خشن، وهم يجدون متعة فى إطعام طائر النورس مسماراً أكثر ممن تلك التى يجدونها فى التلاعب بالألفاظ أو السخرية. وحتى فى ذاكرتهم الخاصة ببناء السفن والملاحة يبرز هذا الجزء من تكوينهم.

# الفصل السادس

## الأغانى

"إن استمعت قليلاً سأغنى لك أغنية عن الشجاع والنبيل والصادق"

- القبطان آرشى سبيرلنج فى جلسة تسجيل عام ١٩٤٦

بجزيرة جريت كرانبيرى بولاية مين

أقل ما يوصف به البحث فى المأثورات البحرية أنه غير عادل. فبعض المجالات نالت حظها من البحث بينما أهملت مجالات غيرها إهمالاً كبيراً، مع تفوق البحث الخاص بالأغنية الشعبية على العمل فى أى مجال آخر. ولكى أعطى القارئ فكرة عن غزارة المادة الخاصة بهذا الموضوع، فقد جمع البروفيسور ماك إدوارد ليتش MacEd-ward Leach ببليوجرافيا لقصائد تشايلد Child الغنائية (عددها ٣٠٥) لدليل ويلز Wells Manual حيث اكتشف أن لديه ٨٥ ألف مادة! وحين يضع المرء فى اعتباره أن تشايلد لا يشكل سوى جزء ضئيل من كم الأغنيات الشعبية، فإنه يدرك ذلك القدر الضخم من الوقت والجهد الذى أنفق فى ذلك المجال.

وبينما كان الغرض من هذا الكتاب هو دراسة تلك المجالات الخاصة بالفولكلور البحرى التى حظيت بأقل قدر من الدراسة اتساعًا، فإن أى كتاب يتناول المأثورات البحرية لا يكتمل دون ذكر لهذا الشكل، الذى هو أكثر الأشكال الفنية كافة شيوعًا. ولذلك ضمنت موجزاً للأغانى وأغانى البحارة كى يتفحصها القارئ. وبما أن معظم العمل الذى تم فى هذا المجال كان فى إطار الدراسة الخاصة لأغان بعينها، فإن ملاحظاتى هنا ذات طابع أكثر عمومية.

تنقسم الأغانى البحرية انقسامًا لطيفًا إلى فئتين رئيسيتين، هما أغانى البحارة chanteys وأغانى عنبر البحارة fo'c'sle songs . وأغانى النوع الأول أغانى عمل، بينما تُغنى أغانى النوع الثانى فى وقت الفراغ للتسلية. ويمكن تقسيم هذه بدورها إلى أغانى البحارة لـ"المسافات الطويلة" و"المسافات القصيرة" من ناحية، والأغانى التى نشأت فى البحر أو ولدت على الشاطئ وعُدلت بحيث تلائم البيئة البحرية من ناحية أخرى. وسوف أتناول فى المقام الأول أغانى البحارة والأغانى التى ولدت فى البحر.

هناك شك فى كيفية ووقت ظهور أغنية البحارة على وجه الدقة (١) . ويعتقد بعض الكُتّاب أن أصلها فرنسى، حيث يرجعون ذلك إلى تهجية الكلمة الإنجليزية chantey . والبعض الآخر يتهجى الكلمة هكذا shanty ويشعر أنها جاءت من غناء الزنوج الأمريكيين الذين كانوا يحملون القطن على مراسى نيو أورليانز على امتداد نهر الميسيسيبى. وهم يظنون أن الكلمة مشتقة من اسم العشش shanties التى كان هؤلاء الناس يسكنونها. بل إن هناك من يعتقدون أن الأغانى نشأت بين الزنوج فى جزر الهند الغربية والتقطها البحارة البيض ونشروها فى أنحاء العالم البحرى (٢) .

ولا أهمية للهجاء، ذلك أن الحقائق المؤكدة لا سبيل إلى دحضها. فقد كان منتصف القرن التاسع عشر، بما فيه من عدد كبير من السفن ذات الأشرعة المربعة التى تحتاج إلى جهد عدد ضخم من البحارة، هو ذروة ازدهار الغناء البحرى. وتفوق أغانى البحارة الأمريكية الأغانى الإنجليزية ذات الطابع المشابه من حيث العدد، ربما لأن عدد السفن الأمريكية كان أكبر. وكانت تلك الأغانى من الانتشار بحيث كانت تُغنى بكل لغة معروفة تقريبًا. فقد تُغنى أغنية "الريو" Rio بالفرنسية والألمانية والدنماركية والإنجليزية. وعلى عكس أغانى عنبر البحارة، نادراً ما وصلت تلك الأغانى إلى الشاطئ (إلا على هيئة أداء كورالى شعبى)، ولكنها اختفت مع السفن الشراعية. وأخيراً فإنه افتراض خطير أن نرجع أصلها إلى زمان أو مكان واحد بعينه، ذلك أن الأغانى شديدة التنوع والانتشار بحيث لا يمكن قصرها على شريحة صغيرة من سفن العالم التى تدخل عدداً محدوداً من الموانئ وتخرج منه.

العمل وسط تآلف صوتى بإيقاع معين مسألة قديمة جداً. والقول بأن الأغانى نشأت بين السود الجنوبيين أو سكان جزر الهند الغربية، لأن عدداً أكبر من أغانى

البحارة كانت تغنى فى القرن التاسع عشر حول موانئ القطن، ليس بحال من الأحوال موقفًا قويًا يمكن تبنيه. فنحن نعرف أن الناس كانوا يغنون لمجاديفهم فى العصور الوسطى، ويذكر مارتن مارتن Martin Martin أن الإسكوتلنديين كانوا يغنون وهم يجدفون أثناء صيد السمك فى القرن السابع عشر. بل إن القول بأن أداء أغانى البحارة كان من تسالى القرن التاسع عشر، لأنه كان شائعًا شيوعًا كبيرًا فى ذلك الوقت ولأن لدينا الكثير والكثير من الأغانى التى نشأت فى تلك الفترة، يعنى توجيه الاهتمام إلى المكان الخطأ. فقد كان أمرًا متوقعًا أن ينتعش غناء البحارة مع انتعاش السفن الشراعية، وحين صارت الغلبة للبواخر على السفن الشراعية فى النهاية مع نهاية القرن، مما قلل الحاجة إلى غناء البحارة، كان من الطبيعى أن يبحث الباحثون عن البحارة القدامى الذين لا يزالون على قيد الحياة ويمكنهم غناء أغانى البحارة التى يتذكروها من الأيام التى عاشوها على السفن الكبيرة.

وما قيل عن أغانى البحارة يمكن قوله كذلك عن الأصول الزنجية لأغانى البحارة. فلم يكن أداء أغانى البحارة يجرى على متن السفن قبل ظهور السود على الساحة الأنجلو أمريكية بزمن طويل وحسب، بل إن الزنوج لم يكونوا موجودين بأعداد كبيرة على متن السفن الشراعية. فقد كانوا يعملون على السفن كطهاة ومساعدين لرؤساء الخدم ولم يكونوا فى حالات كثيرة ضمن أفراد طاقم البحارة. (حتى الحرب العالمية الثانية كان عمل السود فى البحرية الأمريكية يكاد يقتصر على كونهم مساعدين لرؤساء الخدم.) ولذلك لم تتح لهم الفرصة كى يقدموا أغانى البحارة. إلا أنه بينما لا ينكر أحد التشابه بين أغانى البحارة وأغانى الحفر الأفريقية، فإنه يمكن إرجاعها إلى أصول عدة وليس إلى أصل واحد. ولكن لنعد إلى أغانى البحارة.

تتسم أغانى العمل هذه بعدد من السمات المفردة. أول هذه السمات هى ما قد نسميه "النظم المفتوح" open-versed . أى أن المضمون السردى أقل ما يمكن. ويمكن أن تستمر الأغنية بإضافة أبيات جديدة ويكون تتابع الأبيات أقل الأمور أهمية. فكل بيت يمكن أن يكون مستقلاً بذاته بصورة أو بأخرى مثل:

الويسكى حياة الإنسان.

ويسكى جونى.

الويسكى حياة الإنسان.

الويسكى عندى هو جونى - أو.

ومعظم أغانى البحارة بها جزء يغنيه شخص واحد، وهو فى الغالب يخترعه. وكان ذلك الجـزء يلحقـه كورس بسيط بما يليه، وهو على عكس الكثير من الأغانى الشعبية لم يكن شعراً رديئاً غير موزون. ولنأخذ على سبيل المثال قصديتين إحداهما من "جنوب أستراليا" والأخرى من "المرأة الجبلية" Highland Laddie :

ولدت فى جنوب أستراليا.

ارفـع، اسحب،

فلقا ولدت فى جنوب أستراليا،

ارفع سلسلتك المتدحرجة

فنحن متجهون إلى جنوب أستراليا.

هل ذهبت يومًا إلى كيبيك،

امرأة جميلة، امرأة جبلية،

تضع الأخشاب فوق السطح،

امرأتى الجميلة الجبلية - أو [٣] .

وتقل الكلمـات فى كل أغانى البحـارة أهمـية عن الإيقـاع ويوضـع إيقـاع الأغنيـة حسب إيقاع العمل، مع ما يبذله الرجال من جهد بالنسبة للمقاطع المنبورة من الكلمات. وحين يكتمل الجهد فى النهاية، غالبًا ما يُتلى البيت الأخير بدلاً من أن يُغنى، وكثيراً ما يستخدم الإطناب بإضافة كلمة فى نهاية الأغنية مثل Vast heavin أو Secure وكثيراً ما تُنثر توجيهات للجماعة فى الأغنية بكاملها.

وعمومـاً تزيـد سـرعة إيقـا ع أغنيـة المسافـات القصيرة short-haul chantey عن إيقـا ع أغنيـة المسافـات الطويلة long-haul chantey ويكون البيت نفسه أقصر، كما نرى بمقارنة

هذه العارضة لابد أن تصعد عالياً

أنت تقول هذا، وأنا أقول هذا

بـ

يا شيناندواه، أنا أحب ابنتك،

امض بعيداً، فأنا لابد أن أذهب

عبر نهر ميزوري الواسع.

وكان إيقا ع المسافات القصيرة يُستخدم لأداء العمل القصير السريع مثل الكد على حبل الشرا ع، أو رفع برميل روم من على جانب السفينة، أو تقوية العارضة. وفي كثير من الأحيان كان ذلك عملاً يجرى بسرعة كبيرة، حتى إن البحارة يصطفون ممسكين بحبل ثم يسحبونه بالإيقا ع الذى يمنع أى رجل من أن يطأ قدم غيره. وفي اللهجة الدارجة غالبًا ما تُسمى هذه أغاني "السحب".

وفي العادة لم يكن العمل الذى يتطلب جهداً أكثر استدامة أبطأ إيقاعًا فحسب، بل كانت الأغنية كذلك أكثر تفصيلاً وكانت ملامحها البحرية أفضل تشكيلاً. وربما كان العملان اللذان اشتهرا بأنهما الأشد جهداً على متن السفينة هما رفع الرساة وتشغيل المضخات. في الحالة الأولى قد تكون السفينة واقفة في منطقة عمق الماء فيها عشرون فرسخًا مع وجود مائة فرسخ من السلاسل في الخارج متصلة بمرساة يكاد يكون وزنها طنًا. وقد يشكل البحر والريح ضغطًا كبيراً على معدات الإرساء، وربما تغرز المرساة بشكل عميق في الطين. وتقوم القلوب والعضلات البشرية التى تكدح على أيادى الملوة برفع السلسلة حلقة تلو الأخرى وهى تأبى الطلوع. وفي النهاية يغنى الرجل الذى في مقدمة السفينة "المرساة حبلها قصير" و"المرساة طالعة نازلة". ويجهد ضخم جداً يخلع أفراد الطاقم "الخُطاف" من الطين وتكون صيحتهم "المرساة خلصت

من الطين". ويعد ذلك يزيد إيقاع الجهد، حيث كانت المرساة تمثل خطراً على تشغيل السفينة عند تلك النقطة، ذلك أنه فى أسوأ الظروف قد يعوق سلسلة سفينة أخرى أو يتأرجح للخلف أسفل السفينة، أو على أقل تقدير يعوق بصورة خطيرة قدرتها على الدوران. ويكون النداء التالى هو "المرساة ظهرت"، ويتزايد الإيقاع من جديد، ذلك أن المرساة المتأرجحة يمكن أن تلحق الضرر بالسفينة إن هى وجهت لها ضربة شديدة وهى تتأرجح فى البحر. وتضع الصيحة الأخيرة "عادت المرساة" نهاية للعمل وتأتى صيحة عريف الملاحين "سحب شديد".

كانت غالبية السفن الشراعية تصنع من الخشب، وبينما كانت تتحرك فى البحر كان يحطمها ضغط حبال الأشرعة والصوارى وتلويها الانتفاخات. ونتيجة لذلك كان معظمها يتسرب إليه الماء وكان لابد من ضخه باستمرار، حيث يزيد الماء على قدرة المضخات فى العواصف، بينما تتغلب المضخات عند هدوء الريح. وفى بعض الأحيان يُستخدم رجلان لتشغيل المضخة الإبريقية الكبيرة عند الصارى الرئيسى. وفى بعض الأحيان يُستخدم رجلان لتشغيل يدين على كل جانب وتستمر قعقعة المضخة الرتيبة ليل نهار. وكان ذلك عمل الرجال المكروهين، وكانت الأغانى التى يغنونها عند المضخات طويلة وبطيئة فى الإيقاع وكان مضمونها نكداً على الدوام.

لم تكن حياة جاك تار **Jack Tar** حياة شديدة السرور. فقد كان أجره منخفضاً، وكان طعامه رديئاً، وساعاته طويلة، وفراشه رطباً. وإذا لم يغرق أو يقفز فى الماء، فسيعود فى النهاية إلى الميناء، حيث يبدى الكاهن معارضة شديدة له، ويغشه التجار، وتسرقه العاهرات، ثم يخدره أصحاب الأملاك أو "الغواة" الذين يواجههم أثناء إقامته القصيرة على الشاطئ ويعيدونه إلى البحر. وعموماً، كان جاك تار يتحمل كل تلك المصاعب باستهتار، إلا أنه كان يعبر من حين لآخر عن نفسه ويذكر أسماء معذبيه. وكان يفعل ذلك دائماً فى أغانيه. فهو يشير إلى أحياء البغاء حين يذكر "شارع بارادايز" **Paradise Street** أو "خليج تايجر" **Tiger's Bay** . وحين كان يتحدث عن "مدام جاشى" **Madame Gashee** و"سالى" **Sally** و"نيوبورت تونى" **Newport Tony** كان يذكر أسماء عاهرات. واشتهر شنغهاى براون **Shanghai Brown** كشخص يغوى الرجال على العمل فى البحر ازدهرت أحواله فى سان فرانسيسكو خلال منتصف

القرن التاسع عشر، وكان بولى هايز Bully Hayez ربانًا عنيفًا وأصبح قرصانًا ثم تقاعد أخيرًا ليعيش حياة فاسدة جنوبى المحيط الهادى. وكان روبن رانزو Reuben Ranzo خياطًا، وهو صنف من الناس يحظى بالازدراء لأنهم يبيعون البحارة ملابس رديئة بأسعار باهظة، ولأنهم حين كانوا يعملون فى البحر أحيانًا كصانعى أشرعة كان من مهامهم، إلى جانب خياطة الأشرعة، خياطة قماش الأشرعة حول الموتى ليكون كفنًا لهم وتكون الغرزة الأخيرة فى أنف الميت (وهى طريقة لتحديد إن كانت فى الجثة حياة أم لا، إلى جانب استعمال المرآة) ، ومن ناحية أخرى، كان جاك يلتقى من حين لآخر بأحد الطيبين، وكان لذلك نصيب فى أغنية كاملة مثل "بادى ويست" Paddy West (٤) .

كانت أغانى البحارة تستخدم فى كثير من الأحيان باعتبارها نداءات للجمع، وبصورة عامة كانت أغان بعينها تغنى من أجل أغراض خاصة. فحين كان المناوب يستدعى فى ليلة عاصفة تتمايل فيها السفينة وتترجح بشدة، ويملأ الماء منتصفها، ولا تكون هناك أنوار، ويكون هناك أكثر من مائة حبل يجب العناية بها، فإن البحّار الذى يسمع أغنية عبر صرير الريح يعرف إلى أين يذهب وماذا يفعل. وقد طرأ تعديل آخر على هذا التخصص بين أغانى البحارة الخاصة بالمسافات الطويلة. فعلى متن السفن الأمريكية كانت الريو هى الأغنية المستخدمة لرفع المرساة عند السفر من أمريكا إلى دولة أجنبية. وحين كانت السفينة مستعدة للعودة إلى الوطن كانت تنشر دائمًا راية "صقر الليل" - وهى راية طويلة سوداء - من رأس الصارى، ويغنى أفراد الطاقم "شيناندواه" وهم "يديرون الملوة". وكان بإمكان السفن الراسية فى الميناء حين ترى الراية أو تسمع الأغنية أن تسلم البريد والرسائل التى تبعث بها عبر الماء. وكانت السفن الإنجليزية العائدة للوطن تغنى "متجهون إلى الوطن" Homward Bound " بدلاً من "شيناندواه".

ولأن غناء أغانى البحارة كان شائعًا على متن السفن الكبيرة، وبسبب طابع طواقم السفن الكبيرة متعدد اللغات، سرعان ما أصبحت أغنية البحارة أغنية متعددة اللغات. وربما لأن السفن الشراعية فى أيام عزها كان يملكها إنجليز وأمريكيون، فقد كانت بداية الأغانى أنجلو أمريكية، ولكنها سرعان ما تُرجمت إلى الألمانية والفرنسية والنرويجية، بل والصينية. ومن الغرابة بمكان أن أسماء الأعلام والعبارات الأكثر أهمية

بقيت كما هى بالإنجليزية فى اللسان الأجنبى. وكان من المدهش إلى حد ما سماع كلمات مثل heave away أو Ranzo أو wide Missori وسط أغنية ألمانية (٥).

بمرور السنين، حل البخار محل الشراع وتغيرت السفن الشراعية. أما السفن ذات الأشرعة المربعة، التى تصعب قيادتها وتحتاج إلى أطقم كبيرة، فقد تفوقت عليها شيئًا فشيئًا الأشرعة الطولانية التى يسهل التعامل معها، فى حين أن سفن القرن التاسع عشر الطويلة وسفن البريد والسفن الشراعية ذات الصاريين قد حلت محلها سفن السكونة schooner السريعة، الكبير منها والصغير. وكانت هذه تحتاج إلى أطقم أقل عدداً وإلى قدر أقل من العمل، ذلك أنه لم يكن فيها ما تقتضيه الأشرعة المربعة من عوارض الصوارى والدعامات ونظام الحبال المعقد. ومن ثم كان هناك تركيز أقل على الغناء. بل إنه فى وقت لاحق زُودت السفن الشراعية بـ"الزلال" yawl boat (وهو لنش صغير مزود بمحرك) لدفعها و"محرك حمار" به ونش يمكن أن تُسحب به الحبال، ولم تعد ضرورة السحب الجماعى مهمة جداً. ومن المؤكد أن السفن لا تزال يتسرب منها الماء كالسلال، ولكن مهمة الضخ تولتها "آلة الاحتراق الداخلى الخالدة". وأخيراً حل المحرك (الذى يسمى أحياناً "الشراع الحديدى") محل الشراع حلولاً تامًا تقريبًا، وتوقف الغناء على متن السفن فى معظم أرجاء العالم، لأن أغانى البحارة تلك كانت تعتبر "أغانى عمل" وحسب، ولم تكن تُغنى إلا حين تكون متصلة بالفعل بأداء عمل ما.

واليوم نجد أن أغنية البحارة فى الجزر البريطانية وأيرلندا وأمريكا ميتة لأسباب عملية تمامًا. ومن حين لآخر يعثر باحث لفولكلورى على بحّار عجوز فى مكان ما، "ضعيف فى الممرات المائية" و"أصبح كُهْنة"، يمكنه بصعوبة شديدة أن يسجل إحدى أغانى البحار على جهاز تسجيل. وفى بعض الأحيان يسجل المغنون الشعبيون، الذين لا علاقة لهم بالبحارة ولا يعرفون شيئًا عن المياه المالحة، أسطوانات لما يظنون أنها قد تكون أغانى بحارة. ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء قليلاً من المغنين والبحارة كبار السن الذين حفظوها من خلال ذكرى أيام خلت ـ مثل القبطان بوب روبرتس Bob Roberts وإيه إيه لويد A.A. Lloyd ـ ولكن هذا ليس غناء بحارة.

إلا أن هناك منطقة واحدة فى العالم الناطق بالإنجليزية لا يزال فيها غناء البحارة شديد الحيوية، وهى جزر الهند الغربية. وقد بقى هناك لعدة أسباب. فلأن الريح تكاد تهب باستمرار، وتكاد تكون على الدوام من نفس الاتجاه ـ وهو الاتجاه الذى يجعل الإبحار من جزيرة إلى جزيرة ممكنًا بالنسبة للسفن الشراعية ـ لازال غناء البحارة موجودًا وجودًا كبيرًا. ومع أن "القارب ذا المحرك" أخذ فى الشيوع أكثر وأكثر، فهو ليس ضروريًا فى المنطقة ولا يزال رمزًا للمكانة الاجتماعية أكثر منه ضرورة عملية.

كان الناس فى جزر الهند الغربية على قدر كبير من التقليدية فى تفكيرهم وليسوا سريعين فى تقبل التغيير. ومازال كثيرون يعتقدون، كما أخبرنى رجل هناك، أن المحرك الأكيد الوحيد هو قلب الإنسان وعضلاته. كما قال لى "إنه أبطأ، ولكنه أضمن". يضاف إلى هذا أن هؤلاء الناس سود، ولهم فى خلفيتهم ميراث من أغانى الحفر يجعل استخدام أغانى البحارة سهلاً عليهم؛ ذلك أن كلاً من أغانى الحفر وأغانى البحارة قصيرة وإيقاعية ولا تركز على السرد. وأخيرًا فإن فى جزر الهند الغربية قدرًا كبيرًا من العمل الذى لا يزال يتطلب جهد الجماعة، مثل شحن الحمولة وتفريغها، وإمالة السفينة على جانبها للإصلاح، وإطلاق السفن، ورفع الشراع، والتجديف بشبك الصيد الكبير وسحبه إلى الشاطئ. وهم لا يزالون يستعملون أغنية البحارة "shantee" فى معظم تلك الأعمال، فيما عدا إمالة السفن على جانبها، الذى يتم لسبب ما على الهتاف الملحن "واحد ـ اثنان".

وعند كتابة هذا الكتاب لم تكن أغانى جزر الهند الغربية تلك قد دُرست بشكل كبير. وهى تختلف عن غناء البحارة كما كان يجرى فى أى مكان آخر؛ فعلى الأقل تختلف النسخ التى جمعتها، ذاك أنه ليست لها أشباه وثيقة الشبه بين المجموعات الكثيرة المطبوعة الخاصة بهذا الموضوع. وهى فى الوقت ذاته تتبع الأنماط الراسخة فى العالم القديم وأمريكا الشمالية.

قد يكون هناك بعض من الشك فى أن هذه الأغانى خرجت من بين أغانى البحارة المستخدمة فى مكان آخر، إلا أنه طرأ عليها تغير جذرى. فكثير منها نُظم حول عبارات

موجودة فى أغانى البحارة التراثية وتبدأ بألحان أغانى البحارة التراثية. وتتناثر فى أنحاء الأغنيات عبارات مثل "عبر نهر ميزورى الواسع" و "ويسكى جونى" و"هيلو"(*) و "تمضى بعيداً فى خليج موبيل"(**)، و"أنا مقيد فوق الجبل تماماً"، "حان الوقت لأن نتركها".

ويتضح اختلاف هذه الأغانى الشديد عن أغانى البحارة التى كانت تغنى فى أجزاء أخرى من العالم الناطق بالإنجليزية. فباستثناء العبارة التراثية، تتميز كلماتها بنكهة قوية خاصة بالأحوال والبيئة المحلية. بل إنه يبدو أنها تفتقر إلى وجود أى شكل للمقاطع، ولكنها تكيف نفسها مع وقفات العمل حين تتحرك البكارة "بكرتين"، وحين يدور أفراد الطاقم دورة ويستعدون للرفع من جديد، وهكذا. ويغنى المغنى بيتًا ثم يرد عليه كل البحارة. ويغنى بيتًا ثانيًا ويغنى شخص آخر - ربما كل البحارة - البيت الأول ولكن بطبقة أقل، ثم يغنى الجميع معًا ككورس.

ومعظم الأغانى أغانى بحارة خاصة بالمسافات القصيرة تُستخدم لنقل الحمولة وسحب شباك الصيد وفى سحب قارب أو سفينة وتعويمهما، وفى تدشين السفن، وأحيانًا لعد المسافة بين الضربات أثناء التجديف.

وجرت العادة عند غناء الأغنية أن يذكِّر المغنى أفراد الطاقم بطرق عدة بتسليك الحبال، أو بالسحب بقوة أكبر،أو بالتوقف، أو بأى عدد من الأمور. وتلك الملاحظات تكون دائمًا بنفس إيقاع الأغنية وإن لم تكن بنفس اللحن. ويبين هذا أن المغنى ليس مجرد أى فرد، بل هو شخص ذو سلطة ضمن أفراد الطاقم.

وتُستخدم أغانٍ معينة لأغراض خاصة. فأغنية "يادو" Yado تغنى دائمًا عند التدشين، طبقًا لما يقوله القبطان دين ماكفارلين Dean MacFarlane من كارياكو. وتغنى "أين ذهبت بونى" Where has Boney Gone "فى الغالب الأعم عند إنزال السفن" حسبما

(*) خليج فى المحيط الهادى (المترجم) .

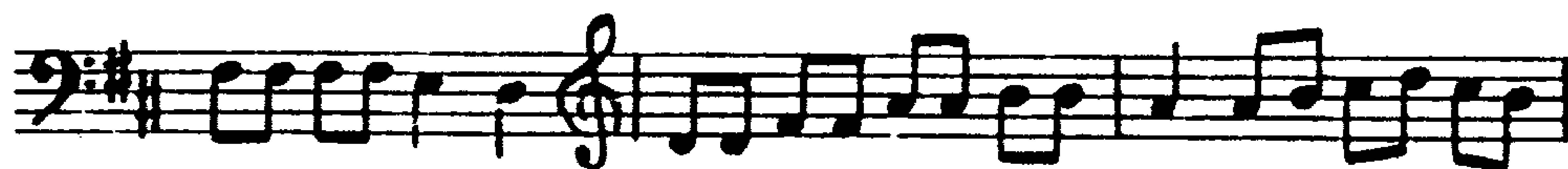
(**) ذراع من خليج المكسيك (المترجم) .

يقوله القبطان أرلنجتون ريتشاردسون **Arlington Richardson** من باجيت فارم **Paget Farm** فى بيكيا، بينما كانت تغنى أغنية **Do Old Moses** عند التجديف لصيد حوت من الحيتان.

وبما أن هذه الأغانى ليست معروفة بصورة كبيرة لسائر العالم، ولها إيقاعات مميزة، ولا تزال جزءًا حقيقيًا من تراث حى، يبدو أنه من الأفضل تقديم عدد منها على سبيل التوضيح. وفى الوقت ذاته ليس هناك سبب مُلِّح لتضمين أى من أغانى البحارة التراثية المشهورة، ذلك أنه إلى جانب أنها حُفظت على نطاق واسع فى مصادر مطبوعة، فإنه نادرًا ما يغنيها العاملون فى البحر فى الوقت الراهن.

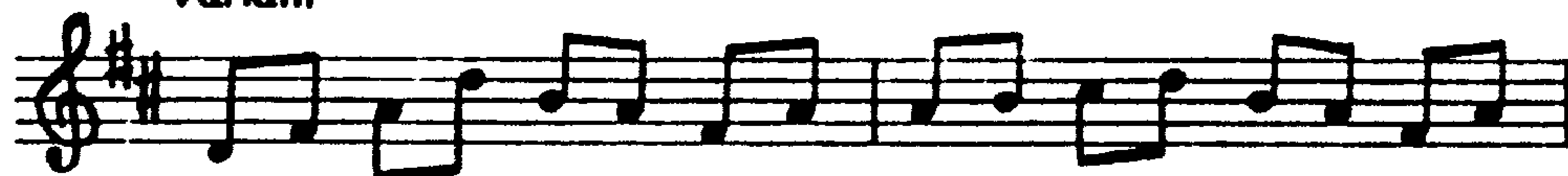
♩ = 126







Variant





## يادو

يادو يادو بيليرينا يادو،
هاى أنت يا بيليرينا يادو.

يادو يادو بيليرينا يادو،
هاى هاى هاى أنت يا بيليرينا يادو.

إن كنت تريد أن ترى القرد يرقص
اكسر قرن فلفل فى دبره.
يادو يادو بيليرينا يادو،
هاى هاى أنت يا بيليرينا يادو.

مات ماسا ولم يترك مالاً،
لم يترك سنتًا لغسيل ملابسه،

يادو يادو بيليرينا يادو،
هاى هاى أنت يا بيليرينا يادو.

مات ماسا ولم يترك مالاً،
ترك ابنه كى يصطاد حوت البقر،

**يادو يادو بيليرينا يادو،**

**هاى هاى أنت يا بيليرينا يادو.**

**مات ماسا ولم يترك مالاً،**

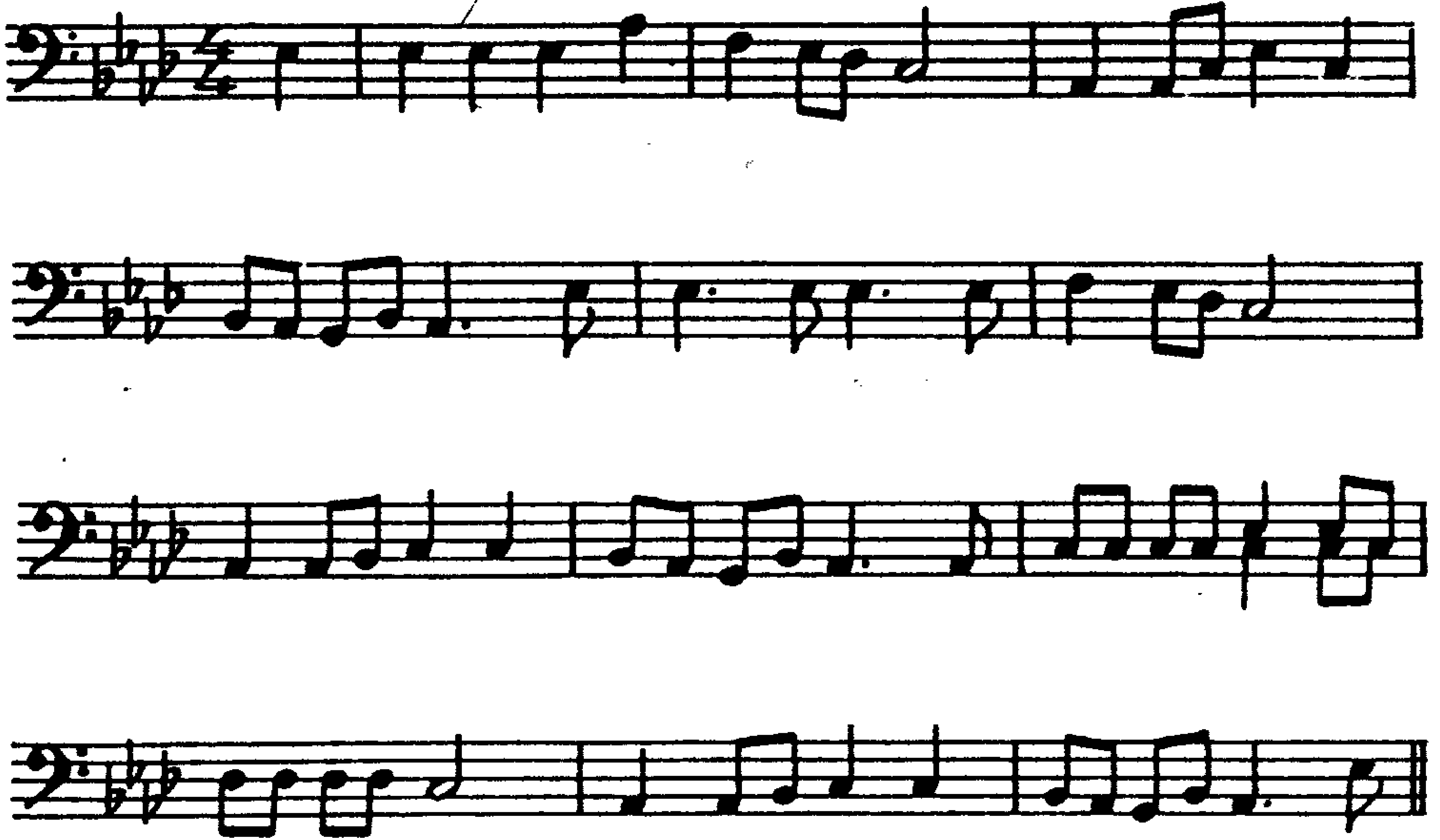
**وامرأته اضطرت أن تشحذ بنساً،**

**يادو يادو بيليرينا يادو،**

**هاى هاى أنت يا بيليرينا يادو.**

هذه واحدة من أكثر الأغانى شيوعًا الموجودة فى جزر الهند الغربية. اللحن متسق ولكن الأبيات ـ ما عدا الكورس "ميسا مات ولم يترك بنسًا" و"إذا كنت تريد أن ترى قردًا يرقص/اكسر قرن فلفل فى دبره" ـ لا حد لها فى التنوع وغالبًا ما تنظم من وحى اللحظة.

ومع أن البيتين "ماسا مات ولم يترك مالاً،/ زوجته اضطرت أن تشحذ بنسًا" سوف ترضى ولا شك الباحث الذى يبحث عن علامات الاحتجاج الاجتماعى، وتبقى الحقيقة هى أن فكرة فقدان أى شخص لماله وموته وهو فى حالة فقر مدقع تسر المغنين مثلها مثل نكتة القرد الذى فى دبره قرن فلفل.




## ذهب سام بعيدًا

أحسنت، أحسنت يا سام.

مضى سام على سفينة حربية رائعة.

مرحى مرحى مرحى يا سام.

مضى سام على سفينة حربية رائعة.

ليتني كنت عريف ملاحين على السفينة الحربية.

ذهب سام بعيدًا على سفينة حربية رائعة.

مرحى مرحى مرحى يا سام.
مضى سام على سفينة حربية رائعة.

أحسنت، أحسنت، أحسنت أيها الفتى الشجاع.
مضى سام على سفينة حربية رائعة.
ليتنى كنت كبير وكلاء القبطان على السفينة الحربية.
مضى سام على سفينة حربية رائعة.

أحسنت، أحسنت، أحسنت يا سام يا شجاع.
مضى سام على سفينة حربية رائعة.
ليتنى كنت طباخًا على السفينة الحربية.
مضى سام على سفينة حربية رائعة.

مرحى، مرحى، مرحى يا سام.
مضى سام على سفينة حربية رائعة.
ليتنى كنت كبير وكلاء القبطان على السفينة الحربية.
مضى سام على سفينة حربية رائعة.

"اسحب البكارة التى تمر عليها. شد الحبل المرتخى." (غير مغنى)
ابدأ من جديد! ذهب سام على سفينة حربية رائعة.

"اسحب البكارة التي تمر عليها" (غير مفنى)

مضى سام على سفينة حربية رائعة.

"قدها بثبات، قدها بثبات [ لا تدعها تتأرجح ]" (غير مغنى)

مضى سام على سفينة حربية رائعة.

مرحى، مرحى، مرحى يا سام.

مضى سام على سفينة حربية رائعة.

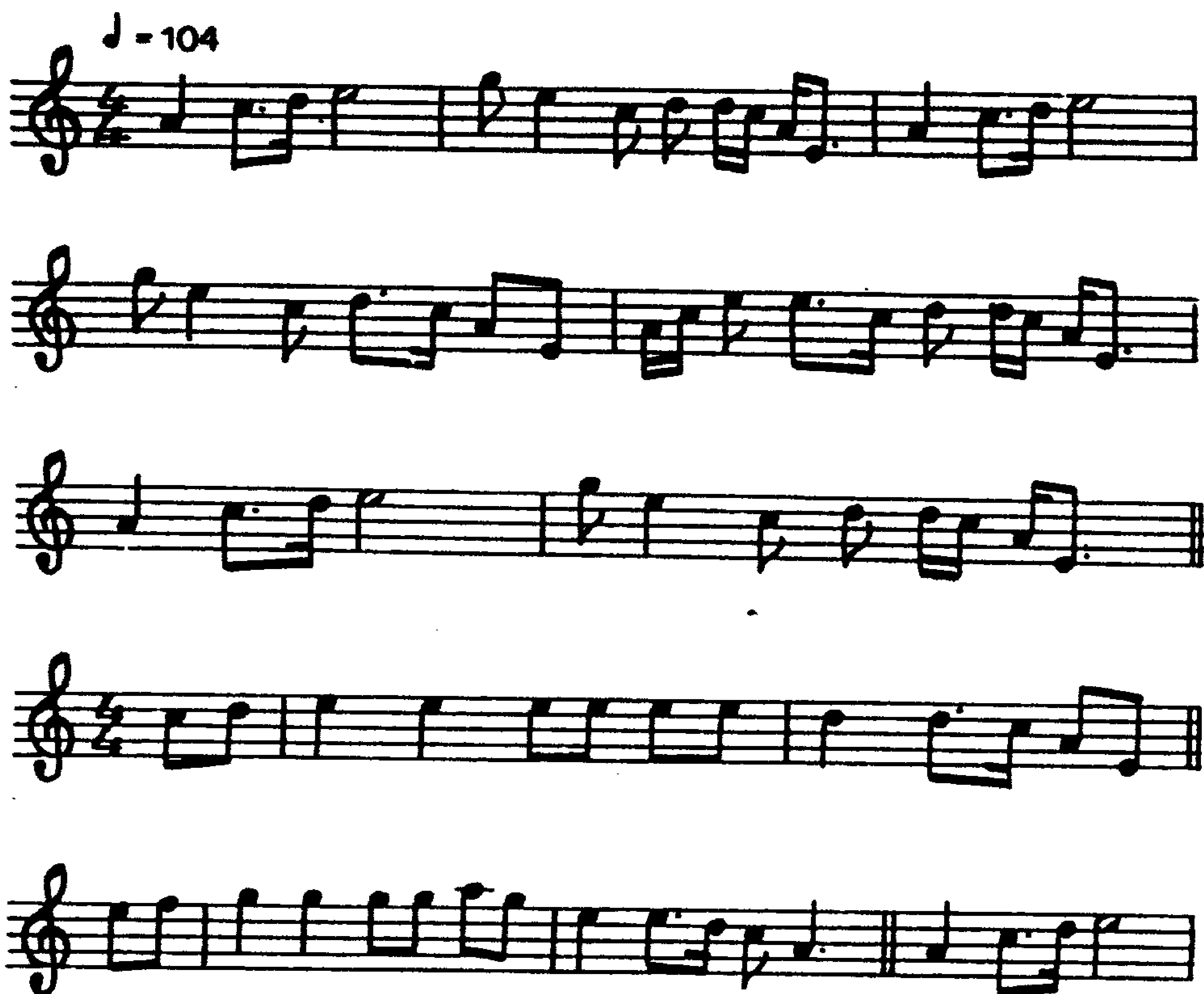
أحسنت، أحسنت أيها الفتى الشجاع.

مضى سام على سفينة حربية رائعة.

"احذر تلك الموجة العاتية هناك! تجنب تلك الموجة العاتية." (غير مغنى)

مضى سام على سفينة حربية رائعة.

"بكَرة على بكَرة." (غير مغنى)




## تحلقوا أسفل

تحلقوا أسفل. تحلقوا . تحلقوا جميعًا.

تحلقوا أسفل. تحلقوا . أقول لكم.

تحلقوا أسفل. تحلقوا . نعم قابلت الشيطان.

تحلقوا أسفل. نعم، قابلت الشيطان. حرم الجحيم من الكتاب المقدس.

كورس: تحلقوا أسفل.

نعم، الشيطان قال لى إنه يصلى من أجل الخطاة.

كورس

تحلقوا، تحلقوا جميعًا.

كورس

انزلوا اسفل هناك لتقابلوا الشيطان.

كورس

نعم، الشيطان قال لى إنه يدعو للخطاة.

كورس

نعم، قابلت الشيطان وقال إنه حرم الجحيم من الكتاب المقدس.

كورس

نعم، الشيطان قال لى إنه يصلى من أجل الخطاة.

كورس

انزلوا وقابلوا الشيطان.

كورس

تحلقوا ، تحلقوا جميعًا.

كورس




## اقرعوا جيداً

اقرعوا جيداً، اقرعوا جيداً. أين ذهبت بونى؟

اقرعوا جيداً، اقرعوا جيداً. أين ذهبت بونى؟

ارفعوا (غير مغنى)

ذهبت بونى إلى النهر. ذهبت لتغسل ملابس الطفل.

اقرعوا جيداً، اقرعوا جيداً، أين ذهبت بونى؟

ارفعوا (غير مغنى)

اقرعوا جيداً ، ذهبت إلى النهر. تغسل بونى الملابس.

اقرعوا جيداً، اقرعوا جيداً، أين ذهبت بوني؟

"أوقفوا الرفع." (غير مغنى)




## الجبال شديدة الارتفاع

الجبال شديدة الارتفاع والوديان شديدة الانخفاض

مرحى مرحى يا أوشينيا

يا أمي أوشينيا آسف لأني مضطر أن أقول

إننا ماضون فوق الجبل تماما.

حين تكون الجبال شديدة الارتفاع والوديان شديدة الانخفاض

مرحى، مرحى يا سوزانا، يا أمى أوشينيا
أسف أن أقول إننا ماضون فوق الجبل تماماً.

نعم نحن مقيدون فوق الجبل تماماً
حيث ينمو العشب الأخضر
جدفوا، جدفوا، أوشينيا أمى
أسف لأنى مضطر لأن أقول إننا ماضون فوق الجبل تماماً.

حين يكون الجبل شديد الارتفاع والوادى شديد الانخفاض
جدفوا، جدفوا، أوشينيا أمى،
يؤسفنى أن أقول
إنى أسير فوق الجبل.




## قدها يا قبطان(٦)

قدها يا قبطان، قدها يا قبطان

هيا هيلا هوبا

نعم أنا متجه إلى ألاباما

هيا هيلا هوبا

الباخرة ستصل غداً

هيا هيلا هوبا

فقدها بعيداً يا قبطان، قدها
هيا هيلا هوب!

قدها يا قبطان، قدها
هيا هيلا هوب!
نحن متجهون إلى ألاباما
هيا هيلا هوب!

نعم، هيا اتركوا كل شيء، أنتم جميعاً
هيا هيلا هوب!
عندما يحين موعد وصول الباخرة غداً
هيا هيلا هوب!

تقول إنك قبطان
هيا هيلا هوب!
أنتم متجهون الآن إلى ألاباما
هيا هيلا هوب!

قدها يا قبطان، جريها
هيا هيلا هوب!
نحن متجهون إلى كندا
هيا هيلا هوب!




## امضوا بقوة

امضوا بقوة، امضوا بقوة يا أبنائي، امضوا بقوة،

أيها الأمريكي جوني، فلتمض بقوة.

أيها الشجاع العظيم جوني، فلتمض بقوة.

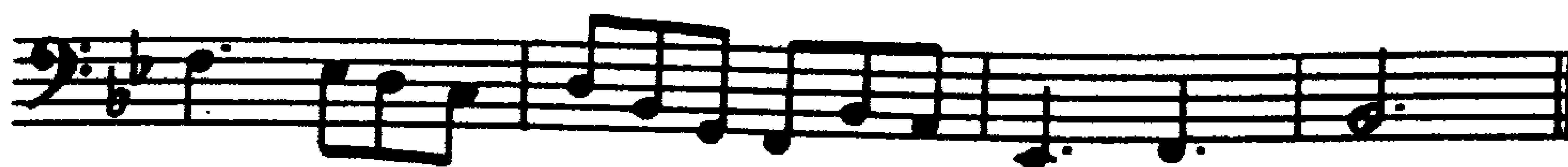
أيها الأمريكي جوني، امض بقوة، أيها الشجاع العظيم امض بقوة.

أيها الأمريكي جون امض بقوة. ألا أيها الشجاع العظيم جوني فلتمضي بقوة.

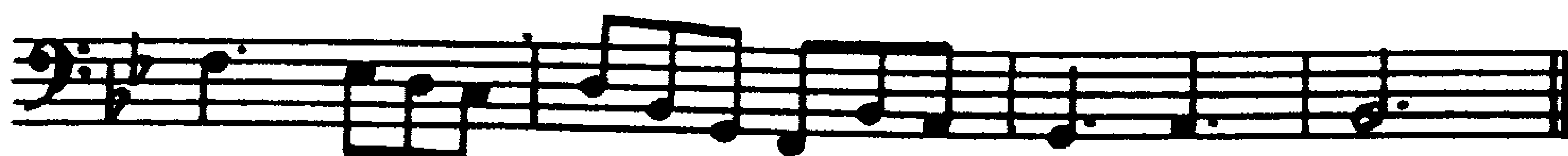
من أي شيء تشكو؟

امض بقوة أيها الشجاع العظيم جوني، فلتمض بقوة.

♪. = 160







منذ وقت بعيد كان الزمان جميلاً جداً

أحسنتم أسرعوا، أسرعوا، أسرعوا يا أولاد،

منذ وقت بعيد فى خليج موبيل.

أحسنتم منذ وقت بعيد.

منذ وقت بعيد كان الزمان جميلاً جداً

أحسنتم أسرعوا، أسرعوا، أسرعوا يا أولاد،

خط كلاب البحر فى خليج موبى القديم،

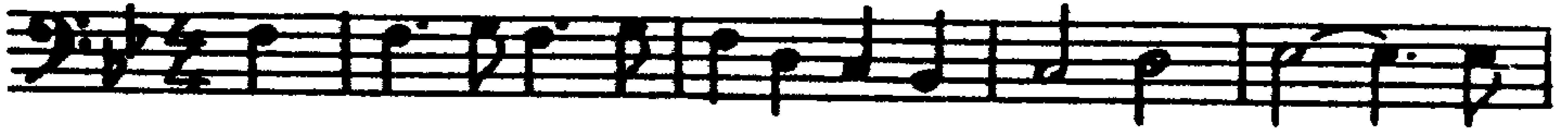
أحسنتم منذ وقت بعيد.

منذ وقت بعيد كان الزمان جميلاً جداً،
أحسنتم أسرعوا، أسرعوا، أسرعوا
كانت ياردة قماش الدريل بأربعة بنسات،
أحسنتم منذ وقت بعيد.

منذ وقت بعيد فى خليج موبيل،
أحسنتم حاضر، حاضر، حاضر، نعم.
منذ وقت بعيد كان الزمان جميلاً.
أحسنتم منذ وقت بعيد.

انظر، انظر يا صغيرى، سألحقه أخيراً،
أسرعوا، أسرعوا، أسرعوا يا أولاد.
انظر، انظر، انظر يا صغيرى سألحق به أخيراً،
أحسنتم منذ زمن بعيد.

منذ زمن بعيد فى خليج موبيل،
أحسنتم أسرعوا، أسرعوا، أسرعوا يا أولاد،
منذ زمن بعيد فى خليج موبيل،
أحسنتم منذ زمن بعيد.









## "أسـرعـوا يا أولاد، أسـرعـوا"

سفينة أمريكية تسير فى النهر

أسرعوا يا أولاد، أسرعوا

سفينة أمريكية تسير فى النهر

أسرعوا يا أولادى الرائعين، أسرعوا، أحسنتم.

فلتهب الريح اليوم ولا تهب غداً

أسرعوا يا أولاد، أسرعوا

أسرعوا يا أولادى الرائعين أسرعوا، أحسنتم.

سفينة أمريكية تسير فى النهر

أسرعوا يا أولاد، أسرعوا

سفينة أمريكية تسير فى النهر
أسرعوا يا أولادى، أسرعوا أحسنتم.

دعونى أحكى لكم ماذا يأكل البيض فى عشائهم
أسرعوا يا أولاد، أسرعوا
ساق بعوضة وكبدة ذبابة الرمل
أسرعوا يا أولادى الرائعين، أسرعوا أحسنتم.

أحكى لكن ماذا يستعمل البيض لعمل عشائهم
ساق بعوضة وكبدة ذبابة الرمل
أسرعوا يا أولادى الرائعين، أسرعوا.

يقول الأمريكى "ملعون هؤلاء الزنوج"،
أسرعوا يا أولاد، أسرعوا
يقول الأمريكى "ملعون هؤلاء الزنوج"،
أسرعوا يا أولاد، أسرعوا
فلتهب الريح اليوم وليس غداً
أسرعوا يا أولادى الرائعين، أسرعوا، أحسنتم.
"والآن تذكروا أن تعودوا ." (غير مغنى)

♩ = 96









## البولدوج

سيدي، من أين جئت بهذا الكلب؟

لا تعضني يا بولدوج.

سيدي، من أين جئت بهذا الكلب؟

لا تعضني يا بولدوج.

بو، بو، بو كلب بولدوج كبير.

لا تعضني يا بولدوج.

بول، بول، بول كلب بوالدوج كبير.

لا تعضنى يا بوالدوج.

سيدى، من أين جئت بهذا الكلب؟

لا تعضنى يا بوالدوج.

سيدى، من أين جئت بهذا الكلب؟

لا تعضنى يا بوالدوج.

سيدى، من أين جئت بهذا الكلب؟

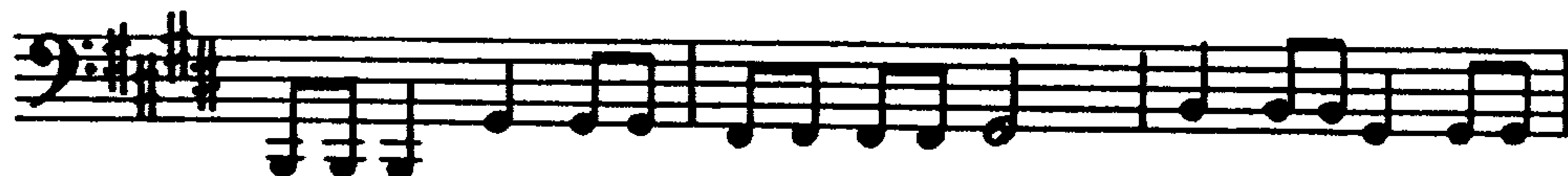
لا تعضنى يا بوالدوج.

بو، بو كلب بوالدوج كبير

لا تعضنى يا بوالدوج.

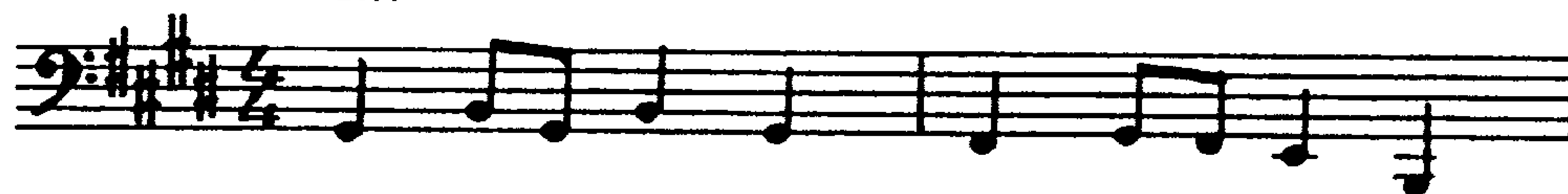
♩ =

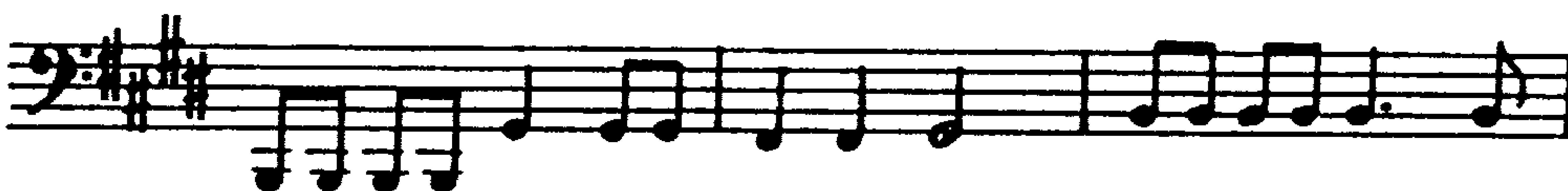






Variant







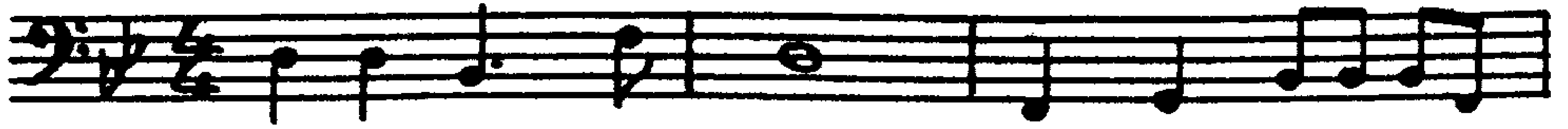
# بحَّار في سفينة حربية

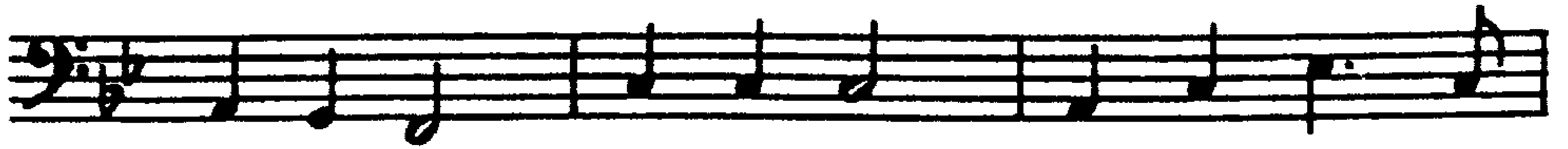
أفضّل لك أن تتركني في حالي، أفضّل لك أن تتركني في حالي،
يا بحّار في سفينة حربية، أفضّل لك أن تتركني في حالي.
هل تذكر ليلة أن قفزت من نافذتي؟
يا بحّار في سفينة حربية، أفضّل لك أن تتركني في حالي.
قفزت من نافذتي، وحطمت كل صحوني الصيني
يا بحّار في سفينة حربية، أفضّل لك أن تتركني.
أفضّل لك أن تتركني في حالي. أفضّل لك أن تتركني في حالي.

يا بحّار في سفينة حربية، إنهم بحارة رائعون جداً،
يا بحّار في سفينة حربية، أفضّل لك أن تتركني في حالي.
يا بحّار في سفينة حربية، إنه بحّار رائع جداً.

يا بحّار في سفينة حربية، أفضّل لك أن تتركني في حالي.
أفضّل لك أن تتركني في حالي، أفضّل لك أن تتركني في حالي
أفضّل لك أن تتركني في رداء نومي الطويل
يا بحّار في سفينة حربية، إنه بحار رائع جداً.

♩ = 168







also :



## هيلو

هيلو يا ولد هيلو.

هيلو يا حبيبة من بالتيمور

هيلو يا أولاد هيلو

صباح يوم الإثنين من شهر مايو

هيلو يا أولاد هيلو.

هيلو يا حبيبة ونذهب بعيداً

هيلو يا أولاد هيلو.

صباح هذا الإثنين من شهر مايو

هيلو يا أولاد هيلو

قابلت امرأة وطرحتها أرضاً

هيلو يا أولاد هيلو.

وقعت على الأرض

ورأينا جميعًا أن [ لها ؟ ] لسانًا

هيلو يا ولد هيلو

يوم الإثنين من شهر مايو

هيلو يا أولاد هيلو

قابلت مستر إبليس ومعه كتاب مقدس كبير

هيلو يا أولاد هيلو.

كان يقرأ موعظة حمار ميت

هيلو يا أولاد هيلو

قابل رجلين وطرحهما أرضاً

هيلو يا أولاد هيلو.

قفز على ظهرهما وسار بهما

هيلو يا أولاد هيلو

قابل النساء وطرحهن أرضاً

هيلو يا أولاد هيلو.

سقطن على الأرض ورأينا جميعًا السنتهن.

هيلو يا أولاد هيلو

مرت مربية عجوز وسخرنا منها

هيلو يا أولاد هيلو.

هيلو يا حبيبة وآه ها ها ها

هيلو يا أولاد هيلو

ومر رجلان عجوزان وسخرا منها

هيلو يا أولاد هيلو.

يوم الإثنين من شهر مايو

هيلو يا أولاد هيلو

قابلت مس فيفى فى أنس لا بن Anse la Pin

"اسحبوا البكارة" (غير مغنى)




هيا دعونى ألحق بروزابيلا. "ارفعوا" (غير مغنى)

هيا دعونى ألحق بروزابيلا. " ارفعوا " (غير مغنى)

هيا دعونى ألحق. هيا دعونى ألحق.

روزابيلا المرحة. " ارفعوا " (غير مغنى)

كونتراكتور ضرب أوريناكا، " ارفعوا " (غير مغنى)
أوريناكا ضرب كونتراكتور، " ارفعوا " (غير مغنى)
ضربها مرة، ضربها مرتان
ضربها وأوقعها في نهر أورنوكو. " ارفعوا " (غير مغنى)

هيا دعونا نلحق (هيا دعونا نلحق) بروزابيلا. " ارفعوا " (غير مغنى)
هيا دعونا نلحق بروزابيلا. " ارفعوا " (غير مغنى)
هيا دعونا نلحق. هيا دعونا نلحق.
روزابيلا المرحة.
"انتبهوا للبكارة، اسحبوا ذلك الشيء بشدة." (غير مغنى)

هيا دعونا نلحق (يكرر المقطع ثلاثة)
"شدوا الحبل المرتخي" (غير مغنى)

هيا دعونا نلحق بروزابيلا، "إنها تبدأ المسير" (غير مغنى)
هيا دعونا نلحق بروزابيلا، "هاهي تبدأ الآن."
هيا دعونا نلحق، هيا دعونا نلحق.
روزابيلا المرحة.

أوريناكا ضرب كونتراكتور، " ارفعوا " (غير مغنى)
أوريناكا ضرب كونتراكتور، " ارفعوا " (غير مغنى)

ضربها مرة، ضربها مرتان

ضربها وأوقعها فى نهر أورنوكو. " ارفعوا " (غير مغنى)

هيا دعونا نلحق بروزابيلا. "أعيدوا تلك البكارة." (غير مغنى)

هيا دعونا نلحق بروزابيلا. " ارفعوا " (غير مغنى)

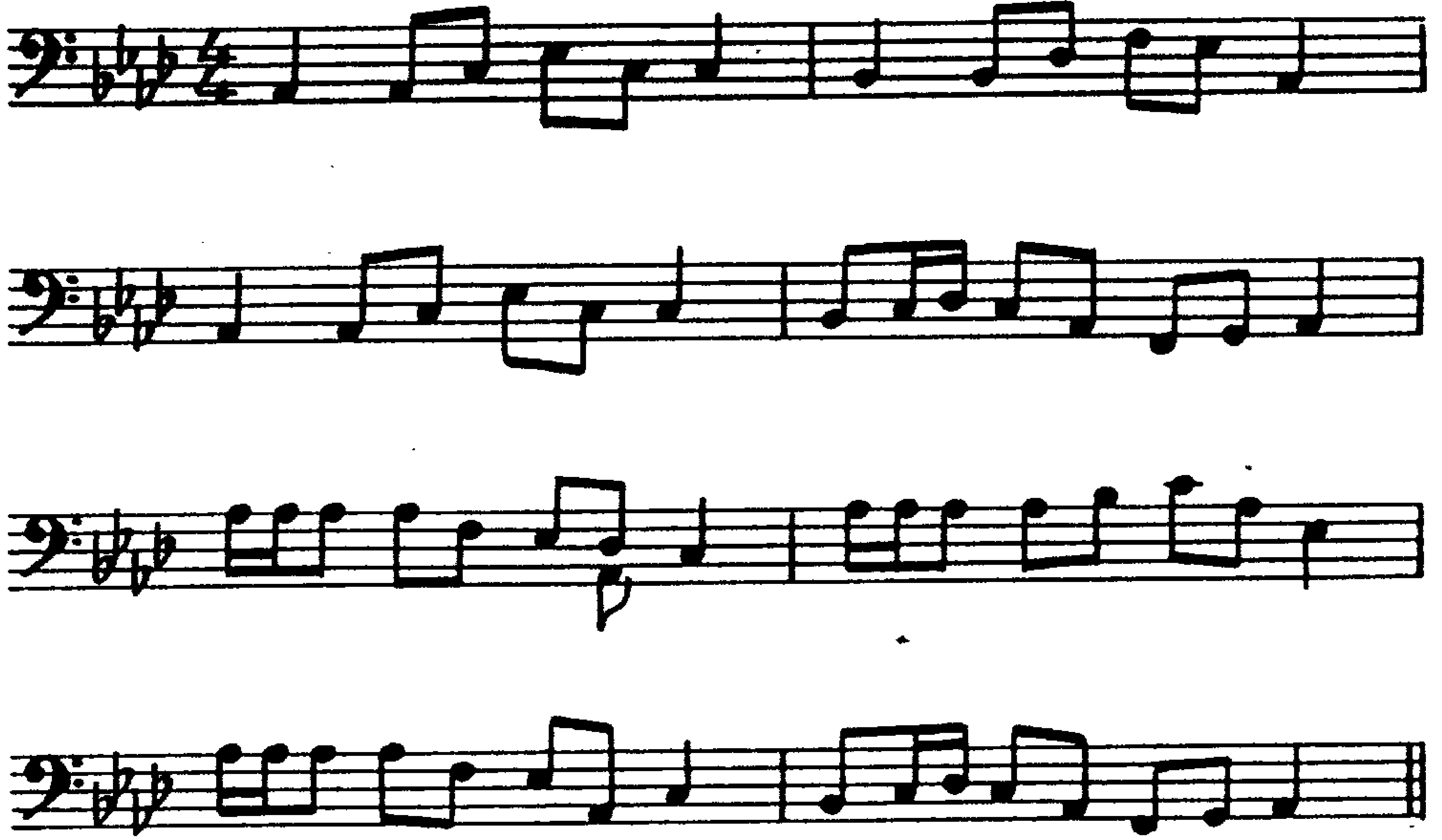
هيا دعونا نلحق. هيا دعونا بروزابيلا المرحة.

إنها تبدأ المسير." (غير مغنى) هيا دعونا نلحق بروزابيلا.

"هاهى تبدأ الآن." (غير مغنى) هيا دعونا نلحق بروزابيلا.

"أكثر وأكثر." (غير مغنى) هيا دعونا نلحق. هيا دعونا نلحق.

روزابيلا المرحة. "شدوا تلك الحبال ثم أرخوها." (غير مغنى)




## موزيس العجوز

هيا أيها العجوز موزيس افعل ما فى وسعك.

هيا أيها العجوز موزيس افعل ما فى وسعك.

هيا أيها العجوز موزيس افعل ما فى وسعك.

فقد سبقتك القديسة هيلارى.

إذا كانوا يعرفون أنهم يضربونك هناك

إذا كانوا يعرفون منذ زمن بعيد

إذا كانوا يعرفون أنهم يحتجزونك هناك

فقد سبقتك القديسة هيلارى.

هيا أيها العجوز موزيس افعل ما فى وسعك.

هيا أيها العجوز موزيس افعل ما فى وسعك.

هيا أيها العجوز موزيس افعل ما فى وسعك.

فقد سبقتك القديسة هيلارى.

كورس

إذا رأوا ذكر الحوت الكبير

إذا كانوا يعرفون أنه أمامى

إذا رأوا أنثى الحوت الكبيرة

فالقديسة هيلارى تسبقنا.

كورس

إذا كانوا يضربون ذكر الحوت الكبير هذا

إذا كانوا يضربون بواحد، باثنين

إذا كانوا يضربون ذكر الحوت الكبير هذا

**فالقديسة هيلارى تسبقنا.**

كورس

**إذا كانوا يرون أنثى حوت كبيرة**

**إذا كانوا يرون ذكورها وإناثها**

**إذا كانوا يرون ذكر الحوت الكبير هذا**

**فالقديسة هيلارى أمامنا.**

كورس

**هيا أيها العجوز موزيس - "سيروا يا أولادا"** (غير مغنى)

**هيا أيها العجوز موزيس افعل ما فى وسعك - "اقفزوا للأمام"** (غير مغنى)

**هيا أيها العجوز موزيس، "جدفوا يا أولادا"** (غير مغنى)

**هيا أيها العجوز موزيس، "توجهوا إليه الآن!"** (غير مغنى)




## "لقد مت يا بابى"(٨)

أسرعوا يا أولاد أسرعوا

يا بابى الرائع لا أراك رائعًا

رائع أسرعوا يا أولاد أسرعوا

تتسلق الأشرعة ولا تستطيع بلوغ الأشرعة العليا

رائع غندور، غندور، غندور.

إنك تحاول يا بابى ولكنك لا تفلح

إنك لا تذهب

إنك تأخذ قطعة من حبل النار، وتصنع حبل الركبة
رائع أسرعوا، أسرعوا، أسرعوا
إنك تحاول يا بابى، ولكنك لا تستطيع الاستمرار
رائع أسرعوا، أسرعوا، أسرعوا.
إنك تحاول وترسو ولكنك لا تستطيع الوصول إلى الرصيف
رائع أسرعوا، أسرعوا، أسرعوا
الشراب فى رأسك، و فى قدمك
رائع أسرعوا يا أولاد أسرعوا.

الرجل المخمور لا يمكنه الصعود لأعلى يا بابى، ألا تعرف ذلك.
إذا تجاوزت دعامة الصارى وأنزلت الشراع الرئيسى
فسوف تعيش طويلاً.
وإذا وضعت يداً على أعلى ذلك الصارى
بابى إنك لا تعرف
إذا سقطت ووقعت على السطح
فستموت يا بابى كالسمكة
ولذلك يا بنى يا بابى لا تشرب أى روم
مرة أخرى قبل أن تتسلق
لابد أن تتسلق ورأسك صاف يا بنى يا بابى.
لقد نسيت الشراب فى جيبك

ألا تعرف يا بابى أنك عندما تصل إلى أعلى تحصل على (ـ)

لقد سقطت يا بابى.

والآن تحدث مشاكل كثيرة للبحارة لكى يوصلونك للشاطئ

ويبلغون خبر وفاتك لابنتك العزيزة

لقد مت يا بابى.

سوف ننزل إلى وسط السفينة ونخيط عليك جيداً

سوف نتركك يا بابى

سوف نلقى بك فى أعماق البحر

وسوف ندفنك هناك.

سوف نرسل رسالة إلى أطفالك وزوجتك

نقول فيها إنك مت بسبب الروم

لأن الروم كان حلواً وكنت أنت الأحلى

وبأنك سقطت من أعلى.

وكان القبطان داخل القمرة بمفرده

حين رآك أول مرة

يدك مكسورة وساقك مكسورة

إنه يوم عمل شاق يا بابى

وساعتها حاولوا صنع مركب شراعى رائع
كى يأخذك إلى الشاطئ
ولكن لا فائدة لأنه ليس هناك طبيب على الشاطئ
ألا تعرف ذلك يا بابى.

ولذلك نحاول أن نسرع للخروج من البحر
لقد مت يا بابى
ولكنك خلقت عملاً شاقًا جدًا للبحارة
كى يخيطوا الأشرعة المبللة
ولكنهم لفوك فى خرق موصولة بطريقة أو بأخرى حين جاءك الموت
وفعلنا ذلك كأحسن ما يكون. ووضعت قطعتان كبيرتان من حديد
فوق رأسك. وأغرقناك.
وشاهدناك وأنت تتجه صوب القاع على الأقل
فى البحر العميق العميق
وتواريت عن الأنظار.

ولكن أصغر البحارة كان يقف عند درابزين المؤخرة
وكان نائمًا حين رأى بعض الفقاعات
ظن أنك عدت ولكنك كنت قد ذهبت
وهم يتذكرون أخبار الأسرة ولكنهم يقولون فى أنفسهم
ولكن أكثر ما يفعله القبطان هو أن يصرخ "انظر. انتظر هناك."

**كان بابى طيبًا وبحارًا مخمورًا جدًا، لقد مات بابى.**
**وأرسلوا برقية إلى زوجته. "مات بابى."**
**وهم يتعجبون حين عرفوا أنه لم يقل كيف مات**
**إنهم لا يعرفون بالمرة. ولكن حين تصل السفينة الميناء**
**سيقولون للأسرة.**
**"هذا هو وقت بداية البكاء."**

هناك نوع من الغناء أكثر فنية بكثير كان يغنى فى عنبر البحارة. وكانت الأغانى فى هذا المكان أكثر تواصلاً، وكانت جودتها السردية أكثر اكتمالاً من حيث النمو، وكان تنوعها أكبر.

وفى الرحلة الطويلة كان الوقت الذى يختلى فيه البحَّار إلى نفسه ضئيلاً. وطبقًا لقصيدة صغيرة سجلتها دانا، كانت الحياة كئيبة بعض الشىء:

**سوف تعمل لمدة ستة أيام**
**أشق ما يمكنك**
**وفى اليوم السابع اغسل السطح بالفرشاة**
**وأصلح الحبال.**

ولكن يبدو أنه عندما يكون لديه وقت للراحة فإنه يسلى نفسه بعدد محدود من الطرق؛ عن طريق عمل العقد، والحفر على الخشب والعظم (وتسمى المنحوتات العظمية)، والرسم، ورواية الحكايات، والغناء. وكثير من الأغانى التى كان يغنيها كانت أشهر أغانى ذلك الوقت التى التقطها من أماكن التسلية على الشاطئ. وكان بعضها فاحشًا والبعض الآخر عاطفيًا، وربما يحمل إشارات إلى البحر وقد لا يحمل. وقد يغنى أغان كتبها كُتَّاب الأغانى التجارية على الشاطئ عن البحارة؛ مثل "دفن المحيط" أو "المعطف الأزرق" أو "كوخ على البحر" التى تبدأ بما يلى:

**منذ عام مضى كالليلة يا حبيبى**

**أصبحت عروسك الخجلة**

**وعدتنى بأن أكون سعيدة**

**ولكنى لم أجد أية سعادة**

**لأننى الليلة أرملة**

**فى كوخ على البحر.**

والبحارة كجماعة، شأنهم شأن معظم الجماعات الشعبية، لديهم ميل إلى العاطفة والرومانسية والفحش، وكانت تلك الأغانى تتلاءم مع حاجاتهم تلاءمًا كبيرًا. والنمط الثالث من الأغانى كان بالفعل أغانى بحارة ولم تكن كغيرها تعديلاً أو تحويرًا. وكانت فى أغلب الأحيان من نظم البحارة أنفسهم. وهذه هى الأغانى التى تحتاج إلى قدر أكبر من التمحيص.

ويتضح على الفور للناقد أن المؤلف الشعبى كانت لديه معايير شديدة التحديد يلتزم بها التزامًا وثيقًا حين يؤلف أغنية ما. فهو فى البداية يختار موضوعًا - وعادة ما يكون موضوعًا دراميًا - وهو يعطى للحركة أهمية على الفلسفة. وفى بعض الأحيان كان يغنى عن سفينته، أو عن جمالها أو سرعتها، أو عن صفات العمل فى البحر. وفى الأغلب الأعم كان يغنى عن المآسى؛ أى عن تحطم السفن، أو العواصف، أو المعارك، أو أعمال التمرد، أو الأشباح، أو الموت المفاجئ والرهيب.

وما إن يضع يده علىّ موضوع ما حتى يصبح بحاجة إلى لحن. ومع أنه يؤلف اللحن فى بعض الأحيان، فهو عادة ما يختار لحنًا خاصًا بأغنية أخرى؛ إما أغنية بحارة أو أغنية شائعة سمعها على الشاطئ فى البار، أو فى الكنيسة، أو فى المرقص. وكان يؤلف الكلام على اللحن، وفى بعض الأحيان كان يخضع الكلمات للموسيقى؛ ولكى يتعرف الآخرون على اللحن، كثيرًا ما كان يدخل عنوان الأغنية الأصلية فى النص، وهى حيلة تعرف باسم "التوقيع". ومن ثم فقد نجد فى مكان ما من النص

بيتًا يقول "عزف 'سفوح أيرلندا' على مدى تسع ساعات" أو "سوف تحمل "النجوم والأشرطة للأبد".

وفى كثير من الأحيان تكون للأغنية بداية ثابتة. وكانت تشيع بين المؤلفين الأيرلنديين بصورة خاصة بداية "تعالوا جميعًا"، مثل "تعالوا جميعًا أيها البحارة الشجعان واستمعوا إلى أغنيتى". وفى أحيان أخرى تبدأ الأغنية ببيت يحدد زمان الأغنية ومكانها، مثل "كان الرابع من يوليو حين أبحرنا"، أو "كل ربابنة سكارزبرج/جلسوا يحتسون النبيذ/وهناك ..." وفى بعض الأحيان كذلك يكون من المفترض أن يحدد البيت الافتتاحى المغنى أو الحدث الأصلى؛ "تشارلز جوستابوس أندرسون، هذا هو اسمى" أو "إنها السفينة 'لوسى فوستر'، إنها سفينة صيد من جلوسيستر".

وكثيراً ما يكون بين كل مقطع كورس يمكن أن يغنيه كل البحارة، ولكن غالبًا ما يؤديه المغنى منفرداً. وعادة ما تكون الممارسة بين البحارة الأمريكيين هى إنهاء الأغنية بدرس أخلاقى يحث الرجال على تحاشى الخمر أو النساء أو صحبة السوء أو بعض القوى الأخرى المفسدة للأخلاق فى حياة البحَّار العادى. ومن المعتاد كذلك أن يؤدى البيت الأخير تلاوةً لا غناءً لجعل الحاضرين يعرفون أنها انتهت بالفعل.

كان هناك اعتقاد شائع بأن المغنى يؤجَّر فى كل طاقم ليغنى أغان ويقود أغانى البحارة. وإذا كان هذا صحيحًا فلم يعثر على تسجيل لهذه المعاملات قط. بل إن أى قبطان ما كان ليوافق على استئجار مثل هذا الشخص لأغراض ترفيهية. فقد كان المغنون مطلوبين على متن السفن لجعل العمل منسجمًا ولإضفاء البهجة على ساعات الراحة، ولكنهم كانوا يستأجرون للعمل أولاً وللعب بعد ذلك.

وبما أن شكل الأغنية موجود أمام المؤلف، فإن عليه الآن أن يضع التفاصيل ويوجد لغة القصيدة. وفى الفئة الأخيرة كانت أبيات وعبارات بعينها شائعة بين العاملين فى البحر، وكانت تلك الأبيات والعبارات، وحتى المقاطع، تأتى فى أغنيات مختلفة حتى تصل إلى حد الأقوال المبتذلة. (لاحظت مرة أن عبارة "الفتاة التى تركتها

ورائى" تكررت فيما يزيد على اثنى عشرة أغنية و"لتكد فى العمل أو لتمت" فى نفس العدد تقريبًا) .

أمامنا الآن معظم أدوات حرفة المغنى، ولا يبقى إلا أن نرى كيفية استخدام هذه الأشياء. كان أهم شىء هو دقة التفاصيل والالتزام بالأحداث؛ ليس كما ينبغى أن تكون، ولكن كما "حدثت بالفعل". (تتبع المؤلف فى المسافة من إنجلترا إلى أيرلندا خطى بول جونز كما جاءت فى "الجنوبى العظيم" - أغنية عن الثورة الأمريكية - وكانت علامات الطريق تظهر الواحدة تلو الأخرى فى المكان الصحيح والزمان الصحيح.) وخلاف ذلك، كان المؤلف يحاول دائمًا تعريف السفينة بصفاتها، وبذلك قيل لنا إن بالإمكان معرفة السفينة "جون" عن طريق "الذيل المحلّق على شراعها الخلفى". وحينما يكون ممكنًا، يشمل ذلك الطاقم، من القبطان إلى الصبى الخادم، ويعرِّف كل منهم بطريقة خاصة :

**كان وكيل قبطاننا من دارتماوث، وكان اسمه مستر وود،**

**وحين يتصل الأمر بقيادة السفينة، كان بحق رجلاً جيدًا جدًا[٩] .**

لم يكن المؤلف يعرِّف سفينته وطاقمه وحسب، ولكن يبدو أن البحار كان يتكون لديه على الدوام حب لسفينته، مع أنها ربما كانت ضنينة فى بعض الأحيان. وعلى أية حال فإن الأغانى التى تتناول السفن يبدو دائمًا أنها تتصورها على "إنها سفينة ليفربول، أسألك يا إلهى أن تسيِّرها" أو "كانت 'السحابة الطائرة' سفينة جميلة كأجمل ما تكون السفن التى سارت فى البحار/أو فردت فى يوم من الأيام شراعها العلوى أمام ريح طيبة". بل إنه كان يقبل دائمًا أفضل صفات السفينة، وأبرزها سرعتها: "إنها تسبق بسهولة أية سفينة تخرج من بالتيمور" .

وحين لم يكن المغنى يمتدح سفينته وطاقمها، كان عادة ما يروى إحدى حكايات المآسى. وغالبًا ما كان يدمج العادات والمعتقدات والخرافات فى تلك الحكايات. وفى أغنية "ويليام جلين"[١٠] ، على سبيل المثال، تعتمد الحكاية بالكامل على حقيقة أن هناك قاتلاً على السفينة. وما إن يكتشف ذلك حتى يلقى الطاقم بالطرف المذنب فى البحر، وتهدأ العاصفة وتمضى السفينة فى سبيلها. والفكرة التى وراء هذه القصة بطبيعة

الحال هى أن البحر لن يسمح لأى شخص يداه ملوثتان بالدم أو الديون بالبقاء حيًا على سطحه. وإذا ما أمعنا القراءة أصبحت أغانى البحر تعبيرًا مصغرًا عن كل من المأثورات البحرية والحياة.

تبقى نقطة واحدة لابد من توضيحها، وهى المغنى وأدواته. فقد كانت الأغانى تؤدى عادة بلا أدوات موسيقية مصاحبة، مع أن الكونسرتينة(*) (وتسمى البيانو البحرى) كانت تستخدم فى بعض الأحيان، وفى حالات كثيرة جداً كان الحاضرون يحفظون الإيقاع بدق السطح بأقدامهم أو بالدق على الطاولة. وكان المفهوم الشائع لآلات البانجو(**) والكمان والجيتار كأدوات مصاحبة أمر يبعث على السخرية وحسب. فلم يكن هناك مكان فى عنبر البحارة لمثل هذه الأمتعة الشخصية. وعلى أية حال فإن البحر معاد للغراء والأوتار وكل ما يستخدم فى صنع تلك الأدوات.

وعلى عكس الاعتقاد الشائع، فإن البحارة يميلون بشدة إلى التعصب لجماعتهم. وهناك ميل قوى إلى التمسك بنوع واحد من السفن والمهن فى البحر. ويوضح تشارلز نوردهوف Chalrles Nordhoff هذا فى كتابه Whaling and Fishing [ صيد الأسماك وصيد الحيتان ] حيث يبين مقدار الصعوبة التى وجدها بحّار إحدى السفن التجارية فى العثور على عمل على إحدى سفن صيد الحيتان. وهو يقول "إنها حقيقة وحيدة هى أن البحّار يمكنه أن يقول ... من نظرة واحدة ما هو القسم الخاص ... الذى اتبعه فى الأغلب الأعم. ...فبحّار السفينة الحربية يُعرف بالزى المهندم الذى فيه بعض الزهو ... وبحار السفينة التجارية خشن ... وصياد الحيتان ... ذو أكتاف مستديرة ... ولا يتسم إلا بمظهر رث"(١١).

نتيجة لهذا كان هناك ميل شديد إلى تأليف أغان تدل على تخصصات العمل البحرى. وبما أن أنواع العمل البحرى شديدة الاختلاف، فإن الأغانى تختلف اختلافًا واضحًا رغم تمسكها بنفس أنماط التصميم. فعلى سبيل المثال، كانت سفن صيد

(*) أكورديون صغير مسدس الشكل به منفاخ وأزرار يعزف بها ويمسكه العازف بيده من أحد طرفيه (المترجم) .

(**) آلة وترية لها رقبة رفيعة وجسم مفرغ مستدير مشدود عليه جلد رقيق فوقه جسر الأوتار (المترجم) .

الحيتان تشتهر بأن بها بحارة أغبياء وبأنها أقذر سفن تطفو على سطح البحر. (وقد قيل إنه حين عادت السفينة "تشارلز دابليو مورجان" إلى نيو بدفورد من رحلتها الأخيرة، فإن رائحتها النتنة كادت تجعل سكان المدينة يفرون منها، وقد سحبها مجلس الصحة إلى خليج بازاردز إلى أن نظفوها وطهروها) .

لذلك كانت الأغاني التى تؤلف عن سفن صيد الحيتان تذكر القليل عن الأشرعة التى لا تشوبها شائبة، أو تغيرات السرعة الكبيرة، أو سهولة إدارة السفينة. بل لقد كانت تتحدث عن الحيتان حين يمسكون بها أو تفلت منهم، أو عن مسابقات السحب، أو عن مخاطر قتل الحيتان، أو عن خطر الثلوج، أو عن ملل الرحلة الطويلة. وكانت الأمور التى تحظى باهتمام كبير من معظم البحارة، وعلى الأخص صيادى الحيتان، هى الأجور المنخفضة والطعام السيئ وهؤلاء الطفيليون الذين على الشاطئ ممن يغوون الرجال على العمل فى البحر، وأصحاب الخمارات، ومديرو الأنزال (جمع نُزُل) الذين كان يعتمدون على الاستيلاء على أجورهم مقابل توفير سبل العيش.

ولدى صيادو الأسماك كذلك أغانيهم التى تمجد أشياء عديدة خاصة بمهنتهم. فهم عندما كانوا يبحرون فى سفن صغيرة "تزن مائة طن أو أكثر" ذات أشرعة أمامية وخلفية يغنون عن سمات خاصة تتعلق بما يتعرضون له من مخاطر؛ مثل فقدان الطريق فى القوارب الصغيرة، والتعرض للدهس من السفن الضخمة فى الضباب، وقدرة ربابنتها على قيادة السفن إلى السوق.

وبحارة السفن التى تسير بمحاذاة الشاطئ لهم كذلك أغانيهم التى تمجد سفنهم أو تناقش صفاتها وتتحدث عن الموانئ المحلية والتجارب المرحة ومخاطر الشاطئ القريب. وبما أن الإبحار بمحاذاة الشاطئ، على الأقل فى الولايات المتحدة، لم يكن يعتبر فى الواقع عملاً بحرياً وغالبًا ما كان يعتبر عملاً لبعض الوقت يدار على أساس عائلى أو محلى، فقد كانت أوضاع الأطقم تختلف بعض الشىء عن أوضاع رجال المياه العميقة. (وفى هذا الصدد، يقول القبطان سبرلينج **Captain Spurling** من إيلزفورد **Islesford** بولاية مين: "لم يكن والدى يعمل فى البحر. لقد كان يعمل على السفن التى تسير بمحاذاة الشاطئ ولكنه لم يذهب قط إلى الخارج." كما ذكر كذلك أن شقيقه كان

"صياد أسماك" لأنه كان يذهب إلى جراند بانكس على متن سفن السكونة.) وكان لكل نمط من أنماط السفن التى تسير بمحاذاة الشاطئ أغانيه وحكاياته التى تؤلف عنه، بدءًا من أغنية عن "إليزا جين" Eliza Jane التى "كانت سفينة قديمة جميلة جؤجؤها عند المؤخرة" إلى أغنيات عن صنادل نهر التيمز التى كانت فى يوم من الأيام شائعة على الشاطئ الإنجليزى.

وكانت السفن الكبيرة وسفن المجهود الحربى وسفن البريد والسفن الشراعية السريعة تميل إلى أنماط أخرى من الأغانى. فقد كانت سفينة المجهود الحربى تغنى عن المطاردة، والمعارك التى تجرى عن قرب، وأعمال الحرب البطولية، وقدرة القبطان العظيمة وصلابة السفينة وسرعتها، ومهارة الطاقم. وقد وصلنا عدد قليل من الأغانى مثل أغنية عن "القبطان موت" Captain Death، وهى سفينة مشهورة من سفن المجهود الحربى فى القرن السابع عشر.

وكان بحارة السفن التجارية يتحدثون عن الحريق وتحطم السفن وكيب هورن وأستراليا و"الفتيات المبهرجات" ومخاطر الحياة على الشاطئ؛ ولكنهم كانوا يركزون بصورة خاصة على سرعة السفينة؛ كما فى "سفينة بريد ليفربول" و"السحابة الطائرة" وغيرها من الأغانى. وكثيراً ما كانوا يغنون عن المصاعب التى على متن السفينة، أو الجماعات العرقية المختلفة التى فى الطاقم، أو ما كان يحدث أثناء الرحلة. ومن الغريب إلى حد كبير أن هذه الأغانى لم تكن بحاجة إلى الارتباط بالسفن الشهيرة حتى يكتب لها البقاء. فإحداها، وهى "جوزى ووكر" عن إحدى سفن البريد التى كانت تخص عائلة ووكر من نيويورك. وقد احترقت فى الميناء بعد الانتهاء من رحلتها الأولى، وبذلك أحدثت ضرراً بالغًا لسفينة تخص كورنيليوس فاندربيلت Cornelius Vanderbilt . وقد ظلت الدعوى القضائية التى نجمت عن هذا الحادث قائمة إلى ما بعد انتهاء حياة السفينة.

وكان الكثير من أغانى بحارة المياه العميقة لا يحكى قصصًا تتضمن مخاطر البحر وحسب، بل كذلك معتقدات البحارة وخرافاتهم. وتبين أغنية "حدث ذات صباح يوم جمعة" ما يحدث حين تغادر سفينة الميناء فى ذلك اليوم ثم تلتقى بعروس البحر. وتحكى "الهولندى الطائر" ما يحدث حين يلتقى الشخص مع تلك السفينة المخيفة قبالة

كيب هورن، وتحكى "الصيادون الأشباح" حكاية "البرهان الحى" الذى أغرق الرجال وسوف يظل يصعد على متن السفينة التى فقدوا منها حين تعود إلى تلك البقعة المميتة مرة أخرى.

لا يعنى هذا بطبيعة الحال القول بأن أنواعًا بعينها من الأغانى كانت تغنى فقط فى سفن معينة، أو أنه لم يكن هناك تحول من سفينة إلى أخرى. فقد كان هناك تحول، حيث كان بحارة صيادو الحيتان يذهبون إلى إحدى السفن الحربية ويذهب بحارة السفن الحربية إلى السفن التجارية من حين لآخر. وكانت تلك الأرواح المهاجرة تأخذ أغانيها معها. ومن ثم فقد تستخدم أغنية "الورل ونهر ميريماك" لإمتاع الساحرة التى تحت الماء عند الدوران حول كيب هورن، أو قد يغنى صيادو الحيتان "شواطئ نيوفاوندلاند" وهم على متن سفينة بريد متجهة إلى أيرلندا. وفى النهاية تصبح هذه الأغانى جزءًا من ذخيرة بحارة المياه العميقة كافة، إن هى صادفت هوى فى نفوسهم. ولكن أغلب الأغانى التى تغنى فى فئة بعينها أو نمط معين من السفن تظل بصورة عامة مرتبطة بتلك الفئة أو ذلك النمط إلى حد كبير. وفى نهاية المطاف فكلما طالت الرحلة كان من المتوقع العثور على أغان أكثر. ولا يعنى الأمر أن جامعى الأغانى كانوا أكثر تحمسًا فى بحثهم عن أغانى صيد الحيتان، ولكن كل ما فى الأمر أن صيادى الحيتان كان لديهم وقت أطول لتأليف الأغانى ووقت أطول لغنائها.

وعلى عكس أغنية البحارة، كانت أغنية عنبر البحارة أفضل. فحين استعيض عن عمل الجماعة بالأجهزة الميكانيكية، ماتت أغنية البحارة، ولم يجر إحياؤها إلا لكى تعزفها الفرق الموسيقية باعتبارها نوعًا من الترفيه الشائع. وتشبه علاقتها بهذا الشكل حيوانًا فى حديقة الحيوان مقابل آخر فى البرية. ولم تتعرض أغنية عنبر البحارة الأطول والأكثر تنظيمًا لتغيير كبير. وقد وصلت إلى البر وغنوها فى البيوت وحورت لتلائم مهنًا أخرى. وظل بعضها شائعًا باعتباره أغانى رعاة بقر وكأغانى مناجم وكأغان يغنونها فى غابات قطع الأخشاب. والواقع أنه قيل لنا إنه حين كان الوقت عصيبًا وكانت الوظائف شحيحة فى ميشيجان، لم يكن أحد يُستأجر للعمل فى معسكر قطع الأخشاب ما لم يكن قادرًا على غناء أغنية "السحابة الطائرة" بالكامل.

وقد اختيرت الأغانى التى تضمها المجموعة التالية من بين المئات لتوضيح الأفكار التى ذكرناها هنا، ولا تمثل حتى أصغر مجموعة من الأغانى. ولننظر إلى الأغانى نفسها ونرى كيف تتفق إلى حد كبير مع الحقائق التى سبق ذكرها .

## آلان الصغير[١٢]

كل ربابنة سكارزبرج
جلسوا يحتسون النبيذ،
هناك شخص يثيرهم على بعض
فى وقت غير عادى.

البعض هناك أثار صقرهم، صقرهم،
والبعض أثار كلبهم،
ولكن آلان الصغير أثار سفينته الجميلة
وهى واقفة على الأرض الجافة.

"ليست هناك سفينة فى سكارزبرج
ستبحر مع سفينتى،
إلا أن تكون برجيس بلاك
أو سوى مركب يسمى تواين.

"ليست هناك سفينة بينكم جميعًا
سوف تبحر معى،
ولكن السفينة الجميلة من هيكلاندهوك،
وزهرة يارمين،
والحية السوداء من لندن؛
جميعها سبقتنى."

يتحدث صبى صغير
يقف بجوار ركبة آلان،
"سيدى لديه سفينة فحم
سوف تفسد عليكم تدبيركم.

"سوف تروح وقد فردت أشرعتها
وتعود عكس اتجاه الريح،
وتسع مرات فى ليلة شتوية
سوف تبعد الريح عنكم."

وحين تراهنوا فيما بينهم
على خمسين برميل نبيذ كاملة،
بالإضافة إلى حرير أسود جيد جدًا
فى نعومة ملابس محبوباتهم،

وحين ذهب الجميع إلى قواربهم،
كى يبقوا الليل كله،
ذهب آلان الصغير إلى كوخه
لكى يصلى لربه.

"لن يذهب أحد إلى سفينتى
حتى أتلو صلاتى وأتعشى،
وأستأذن من زوجتى،
ثم أذهب إلى سفينتى الجميلة."

وبعد ذلك أبحروا شرقًا يوم السبت،
ويوم الأحد أبحروا غربًا،
وكذلك فعلوا يوم الإثنين
حتى الثانية عشرة حين استراحوا.

وفى ظلام منتصف الليل هبت الريح
وبدأ البحر يضطرب،
حتى دار آلان وسفينته الجديدة
ثلاث مرات حول الأرض القاحلة.

ويقول الآن الصغير متنهداً
"إنى أخاف العاصفة القاتلة،
لأن البحر الرافع الخافض المغرق
يضرب مؤخرة سفينتى.

"من أين لى بصبى صغير
يتولى الدفة عنى
حتى أصعد إلى شراعى الأعلى
وأبحث عن أرض جافة؟"

"هيا أيقظوا رجالكم السكارى
حيث يرقدون وقد أسكرتهم الخمر،
ذلك أنكم حين دخلتم مدينة إدنبره
اشتريتم لهم ملابس لامعة.

"لم يكن هناك حذاء لقدمى،
ولا قفاز ليدى،
ومع ذلك يا سيدى العزيز
سوف أمسك بالدفة
حتى تصعد إلى الشراع الأعلى
وتبحث عن أرض جافة.

"وهاأنا هنا ذا الصبى الصغير
سوف أمسك بالدفة،
حتى تصعد إلى شراعك الأعلى،
ولكن لا تبق طويلاً يا سيدى."

"لا أرى أية فرصة، أية فرصة،
ولا أعرف أى ملمح مميز؛
ولكن الكثير من الأسرّة الجميلة المصنوعة من الريش
تطفوا فوق الزبد
والمركب الجميلة من نورمانشور
لن تعود ثانية للوطن."

المركب الجميلة من نكلنجيم
كانت تبحر بجواره،
وتقول اهبط، اهبط، أيها القبطان الطيب،
سفينتك تبحر على الرمل.

"اهبط، اهبط يا سيدى الطيب
فإنك لا ترى ما أراه،
لأننى أرى أعشاب البحر
فى كل مكان من مركبنا الجميلة."

"خذ خمسين ذراعًا من القماش الجيد
ولف بها السفينة،
واعتنى بها ولا تستغنى عنها،
واجعلها سليمة معافاة.

"إذا كنت ستبحرين، يا سفينتى الجميلة،
حتى نصل إلى أرض جافة،
فمقابل كُل مسمار حديد فيك،
سيكون هناك عشرة من الرب."

كانت السفينة تستمع طوال ذلك الوقت كله،
وحين سمعت عن أجرها
طارت مسرعة فى البحر
كتطاير الشرر من النار.

وكان أول شاطئ وصلوا إليه
يسمونه هاودولوت،
حيث أبعدوا سفينتنا الطيبة
بقرع الطبول وضجيج المدافع.

وكان الشاطئ الثانى الذى وصلوا إليه
يسمونه هاوديلى
حيث أعادوها إلى البحر
بقرع الطبول وأصوات النفير.

وكان الشاطئ الثالث الذى وصلوا إليه
يسمونه هاوديلين
حيث قطروا سفينتنا الطيبة
بقرع الطبول وأصوات النفير.

نزل البحارة على الشاطئ،
وهم يرتدون الملابس القديمة الرائعة التى أصلحوها،
وشكروا الرب وسيدتهم
على إعادتهم سالمين من جديد.

"لأننا خرجنا من سكارزبرج
مع خمسين سفينة وثلاث،
ولكن أيًا منها لم يعد
إلا الآن الصغير، كما ترون."

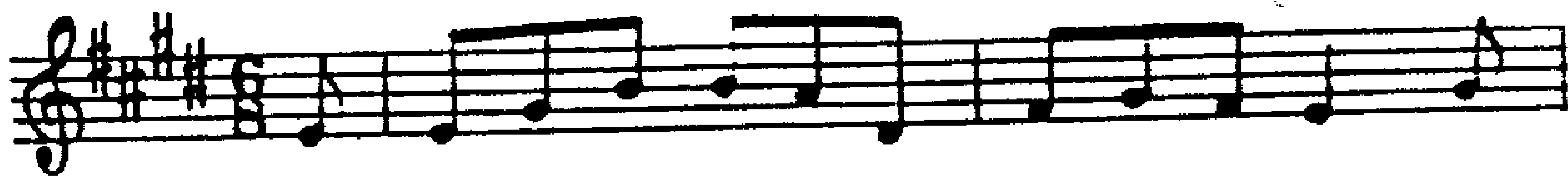
اهبط، اهبط، أيها الصبي الصغير،

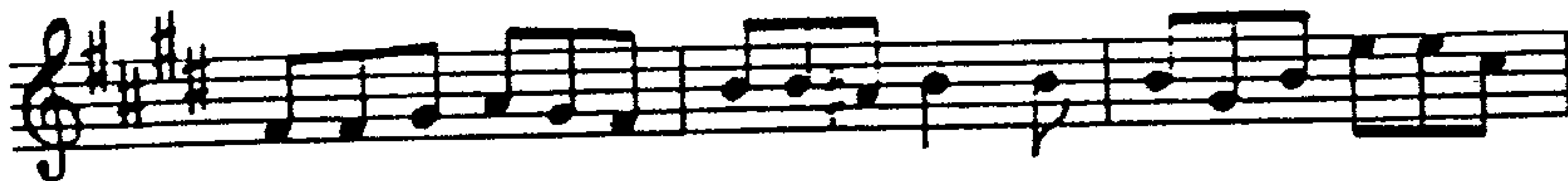
كي أدفع لك أجرك،

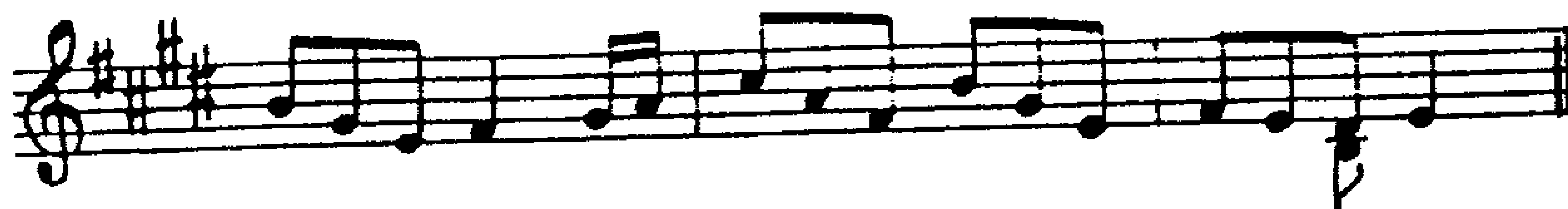
ليس لدي سوى ابنة،

وسوف تتزوجها."

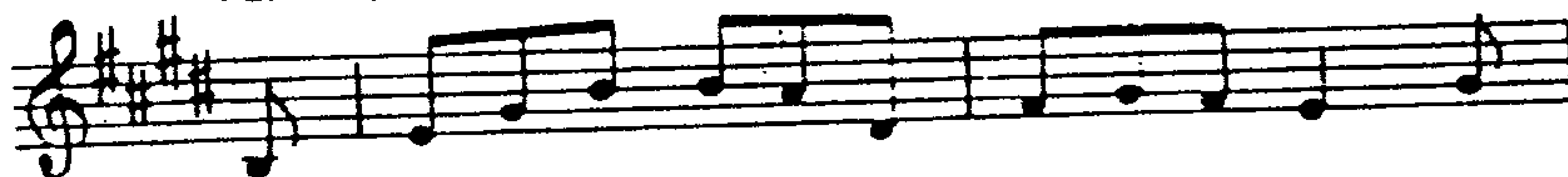
♩. = 54





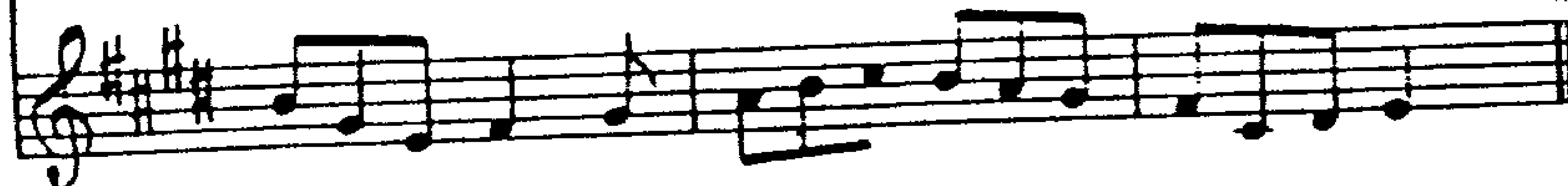


Variants





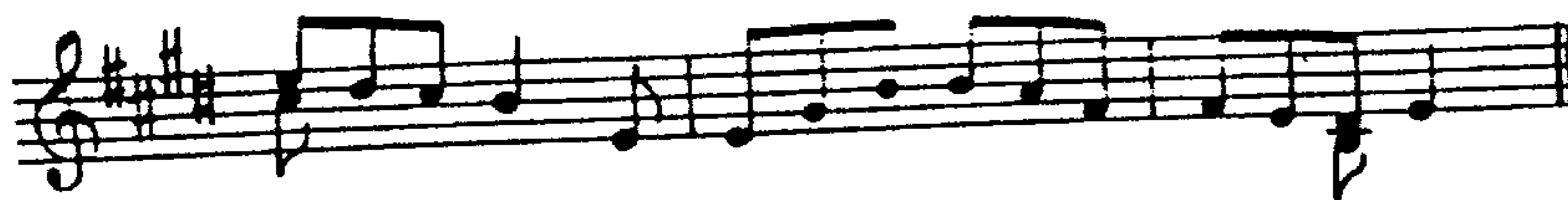




♩. = 63







# الأميرة الملكية الشجاعة(١٣)

كان الرابع من يوليو حين أبحرنا

قال الرجل الذى على رأس صارينا " أبحروا!" صاح

وبصوت مرتفع قال النفير "إلى أين تتجهون؟"

"نحن متجهون إلى الشمال الغربى صوب القاهرة(*) لنراها

نحن نسير مع النهر، نتجه ناحية الشمال الغربى إلى القاهرة لنراها

فهل تشدون أشرعتكم العليا وتسيِّرون سفينتكم إليها؟

لأن لدينا بضعة خطابات نرسلها معكم."

ينهض كبير وكلاء قبطاننا قائلاً "هذا لن يحدث."

ويقفز قبطاننا قائلاً "ماذا سيفعل؟"

ويقفز قبطاننا قائلاً "ماذا ستفعلون؟"

سوف نهز سفينتنا اللطيفة وكذلك طاقمنا.

ثم يتقدم كبير وكلاء قبطاننا قائلاً "هذا لن يحدث."

ثم يتقدم كبير وكلاء قبطاننا قائلاً "هذا لا يمكن أن يحدث."

(*) مدينة صغيرة جنوبى إلينوى بالقرب من التقاء نهرى الميسيسيبى وأوهايو، وقد سميت على اسم القاهرة المصرية لتشابه موقعها بالقرب من دلتا النهر. (المترجم)

ثم يتقدم كبير وكلاء قبطاننا قائلاً "هذا لن يحدث."
لأننا سوف ننشر أشرعتنا ولابد أن تعود السفينة للوطن.

"فلتهبطوا إذن إلى أسفل يا أولاد وتتفحصوا تلك الأسافين،
اهبطوا يا أولاد ودعموا تلك الأسافين،
اهبطوا يا أولاد ودعموا تلك الأسافين،
لأن "الأميرة" فى خطر، فسوف ترفع الرايات."

لقد أطلقوا نيرانهم، يا رجل، ولكن لا يمكن تحقيق النصر
رغم كل ما أطلقوه، يا أولاد، لا يمكن تحقيق النصر.
رغم كل ما أطلقوه، يا أولاد، لا يمكن تحقيق النصر.
اهبطوا إلى أسفل وغنوا بمرح
وسوف تتدفق دلاء الشراب كأنها الماء المالح.

"أخبروه سبب هذه الأغنية الآن."

"أترون، لقد كانوا يقومون بالقرصنة وكانت كل سفينة تمر كانوا يذهبون ويغرقون السفينة ويأخذون ما فيها. يأخذون المال وكل شيء، أترون، وأحيانًا كان كل الرجال يغرقون. ومن حين لآخر كانوا يغرقونهم؛ لا يمكنهم اللحاق بهم، ولكن هذه كانت تسير وحين رأتها، اتجهت إليها، ولكن وكيل القبطان سوف ينقذهم. لقد كان وكيل القبطان حكيمًا."

"هل كانت سفينة لتهريب الشراب؟"

"نعم."

"لقد كان وكيل القبطان. كانوا سيأخذونهم جميعًا ويقتلونهم. ولكن القبطان خاف ولم يعرف ما يفعل وصعد إلى السطح مسرعًا وأبلغ وكيل القبطان. قال إنهم فقدوا سفينتهم اللطيفة 'وكذلك الطاقم'. وقال وكيل القبطان 'هذا لا يمكن أن يحدث'. كان أحرى به أن يغرق ويموت قبل أن يحترق. ولذلك 'فتهبطوا إلى أسفل يا أولاد وتتفحصوا تلك الأسافين'. هذا معناه انزعوا الإسفين من الصارى ، ذلك أن كل مرة يفعل فيها الصارى هكذا [ يثنى يديه ] (*) تسير ميلاً آخر ولا ينكسر الصارى بسبب الطريقة التى يدفعها بها ويمضى قدمًا، وأطلقوا قنيفة ولكنهم لم يحطموها. ولذلك فبعد أن خرجت من مرمى النيران قال "اهبطوا إلى أسفل يا أولاد وغنوا بمرح، وسوف تتدفق دلاء الشراب كأنها الماء المالح." وقادها إلى الشاطئ وانشطرت نصفين. وكانت الأجمل وضاعت. لقد أغرقوها."

"صحيح أن وكيل القبطان هو الذى بيده ذلك. ولهذا السبب، ترون، لابد أن تبحثوا عن وكيل قبطان جيد وعلى قدر من الشجاعة يكفى لأن يقف وراء ..."

(*) للحصول على أكبر قدر ممكن من سرعة السفينة فى الأزمنة القديمة، حين كانت الصوارى تصنع من الخشب المصمت، كان القبطان يخلع الأسافين من الصارى وبذلك يسمح له بالوقوف حرًا من أعلاه إلى أسفله. وبينما كانت السفينة تسير فى البحر كان الصارى يسقط، وتحت ثقل الخشب الضخم كانت السفينة إما أن تمضى قدمًا أو تتحطم. وكانت تلك مغامرة خطيرة خطورة تقييد صمام الأمان فى السفن البخارية اللاحقة بغرض زيادة السرعة.

## ولى العهد الشجاع (١٤)

كان الثامن عشر من فبراير حين أبحرنا من بلدنا
على متن "ولى العهد الشجاع" متجهين إلى نيوفاوندلاند.
ومع خمسين بحارًا شجاعًا هم ملاحو سفينتنا،
أبحرنا من ناحية الشرق متجهين ناحية الغرب.

لم يكن قد مضى على إبحارنا سوى يومين أو ثلاثة أيام،
حين رأى رجل أعلى الصارى سفينة حربية.
كانت تسير بأقصى سرعة إلينا لترى من نحن
وكانت تحمل تحت صاريها الرئيسى راية سوداء.

صاح القبطان "يا إلهى! ما سنفعل الآن؟
هاهو يأتى قرصان جسور ليسرقنا كما أعلم."
"صاح وكيل القبطان "لا تخف فلن يحدث ذلك،
لأننا سوف نفرد أشرعتنا وسوف نبتعد عنهم."

وحين سار القرصان الجسور بسرعة بمحاذاتنا
صاح من بوق لتكبير الصوت "من أين جئتم؟"
ولأن قبطاننا كان مجهدًا فقد قال
"أتينا من إنجلترا الجميلة ونتجه إلى كارو." [ القاهرة ]

"فلتنزلوا أشرعتكم يا أولاد ولتوقفوا سفينتكم
فلدى خطاب مرسل إليكم من إنجلترا."
"سوف نطوى الأشرعة يا أولاد، وسوف نوقف السفينة
ولكن ذلك سيكون فى أحد الموانئ، وليس بجوارك."

فردنا أشرعتنا الرئيسية وكذلك الأشرعة العليا،
وأشرعة الدقل الأعلى والأشرعة الصغيرة وابتعدنا عنهم.
أطلقوا القذائف علينا ولكنهمْ لم يحطموا سفينتنا
لأن "ولى العهد الشجاع" سرعان ما أبدت لهم أشرعتها.

نحن الآن فى عرض البحر يا أولاد، وبعيدون عن كل ضرر،
"اهبطوا إلى شرابكم يا أولاد، اهبطوا جميعًا!
اهبطوا إلى شرابكم يا أولاد، وامرحوا كثيرًا،
ولأن هناك مساحة كبيرة للمناورة فى البحر، لا تخشوا أبدا أيها الشجعان!"

# الجنوبى الرائع(١٥)

إنها "الجنوبى الرائع" التى تحمل العلم ذى الأشرطة والنجوم
حيث تهب على صواريها الريح الغربية الشمالية التى تصفر.
تدلت حبال الجانب الأيمن التى لدينا على السفينة بكثرة عند هبوب الريح،
فى ليلة خريف حين لمحنا الفنار على الرأس القديم فى كينسيل.

كانت ليلة صافية لا سحاب فيها، وكانت الريح تهب باطراد وقوة،
وكانت سفينتنا الطيبة تجرى مسرعة فرحة على المحيط الوثاب.
تهدر حولنا الأمواج المتدافعة، وهى تنتشر كالبحار النارية،
وبينما تحنى وسطها فى الجليد، تدفن رجامها الذى عكس اتجاه الريح.

لم تكن هناك أية إشارة منه لتقصير الأشرعة ذلك الذى كان يسير فى المؤخرة،
وتحت وطأة شراعها الأمامى الثقيل انحنى ذراع التطويل كالطوق.
صرير تلك الكتل الخشبية التى تمسك الصارى الرئيسى القوى.
لقد ضحك وحسب حين لمح خلفه أثر السفينة المضىء والمتلألئ.

ما الذى يظهر على مقدمتنا المكشوفة، ما الذى يتعلق بالهواء
إنه الوقت الذى غيرت فيه سفينتنا الطيبة مسارها تمشيًا مع الريح.
وبفضل نشر أشرعتها المدهش، وصواريها الطويلة المخروطية،
وجدنا أن ضيف الصباح سفينة حربية إنجليزية.

"أخرجوا أذرع التطويل، اصعدوا على سطح الجنوبى!

أخرجوا أذرع التطويل وزيدوا الأشرعة

أسرع سفينة تحطم المحيط وكبرياء الأسطول الإنجليزى

تأتى مندفعةً نحونا، حيث يرتفع الزبد أمام مقدمتها.

أخرجوا الأذرع، واصعدوا على سطح الجنوبى! افردوا أشرعتكم الآن!"

كان رداء النوم الذى ترتديه سفينتنا هو الثلاثة أشرعة العليا عمومًا،

وقد طوى شراعها الأمامى وشراعها الخلفى وشراعها الأوطى.

"هيا ارتقوا الصوارى يا بحارتى الرائعين!" وما إن خرجت الكلمات

حتى تعامدت عوارض الأشرعة الصغيرة والدقل الأعلى على كل صارى.

هيا! هيا! وابل من القذائف يخترق أشرعتنا وصارينا،

كانت أسرع سفينة تحطم المحيط تتجه مسرعة إلى سفينتنا.

أطلق هؤلاء البحار الإنجليز ثلاثة هتافات من على ظهر سفينتهم،

ورددنا عليهم بضحكة استهزاء من على ظهر سفينتنا الوطنية.

وصاح قبطانهم النبيل حين اندفعنا داخل هاديان باس،

"ارفعوا أشرعتكم الصغيرة المتدلية! ضعوا أشرعتكم العليا على الصارى!"

لم يكن هناك هتاف من سفينة المجهود الحربى الخاصة بنا، ولم يفزع بحارتنا،

حيث كانت الراية ذات النجوم ترفرف فوق رؤوسنا على قمة الصارى المزيّن.

صاح قبطاننا النبيل وكانت سحابة فوق مقدمته،

قال: "أبطالى الرائعين، إن امتحاننا الكبير الآن.

إننا نرفع العلم الأمريكى ضد ذلك الجيش الملكى.

إن بول جونز رعب البحر، سوف يلقى بهم على الساحل."

لم يكن ضباب الليل قد انقشع، وكاد ذلك يخفى الشاطئ،

إذ غطى الأرض من إيرين إلى كنجزشور.

وبينما كانت الأشرعة الخفيفة منشورة، وأذرع التطويل مكسوة، والأشرعة المرقطة مرفوعة،

كان بول جونز أسفل القنال الشمالى يقوم بالتوجيه قبل أن طلوع النهار.

## مصايد الحيتان فى جرينلاند(١٦)

إنه فى عام ألف وثمانمائة وواحد،
فى العشرين من مارس،
نشرنا جميع الأشرعة العليا
وأبحرنا إلى جرينلاند، أيها الأولاد الشجعان،
وأبحرنا إلى جرينلاند.

وجرينلاند أرض قاحلة،
ليس بها أى نبات أخضر،
ليس فيها إلا الثلج والجليد،
والحوت الذى ينفث الماء،
ونادراً ما يرى أحد ضوء النهار، أيها الأولاد الشجعان،
نادراً ما يرى أحد ضوء النهار.

يقف عريف الملاحين على منصات الصارى،
وفى يده تلسكوب صغير،
صاح قائلاً:
"هاهو الحوت، هاهو الحوت!
وهاهى أنثى الحوت

إنها تنفث الماء كل فترة، أيها أولاد الشجعان،
إنها تنفث الماء كل فترة."

يسير قبطاننا على الركن الخلفى،
وكان رجلاً ماهراً،
"ألقوا المرساة، ألقوا المرساة، ففى بحر النهار سنفوز،
أنزلوا قواربكم البحر أيها الأولاد الشجعان،
أنزلوا قواربكم الثلاثة جميعها البحر."

بعد أن أُنزلت قواربنا وركبها الرجال،
أخذ كل منها خمسة من طاقم سفينتنا الرائعة،
كى تتجه إلى حيث تنفث أنثى الحوت، أيها الأولاد الشجعان،
كى تتجه إلى حيث تنفث أنثى الحوت.

حين أصيب الحوت سُحبت حبالنا،
ضربنا ضربة بذيله،
جعلتنا نفقد خمسة من بحارتنا الرائعين،
ولم نمسك بالحوت، أيها الأولاد الشجعان،
ولم نمسك بالحوت.
حين بلغ الخبر المشئوم قبطاننا،

انفطر قلبه الحزين،
على فقد خمسة من بحارته الرائعين.

. . . . . . . . .

. . . . . . . . .

"فلتستسلموا،
فلتستسلموا أيها الأولاد الشجعان،
وسوف نبحر عائدين إلى ليفربول أيها الأولاد الشجعان،
وسوف نبحر عائدين إلى ليفربول أيها الأولاد الشجعان،
سوف نتجه صوب ليفربول."

## شواطئ نيوفاوندلاند[١٧]

أيها الأولاد المرحين الجوالين، لابد أن أحذركم،
إذا أبحرتم فى سفينة أمريكية، لا ترتدوا سترات من القطن الخشن،
بل اجعلوا ستراتكم القصيرة الضيقة تحت أيديكم،
فحذار من الرياح الشمالية الغربية الباردة على شواطئ نيوفاوندلاند.

كان معنا شخص اسمه لينش من بالانا هينش، وجيم دويل ومايكل مور،
فى عام ستة وخمسين، حين عانى بحارتنا بشدة؛
فقد رهنوا ملابسهم فى ليفربول وباعوها فورًا،
دون أن يفكروا فى الرياح الشمالية الغربية الباردة على شواطئ نيوفاوندلاند.

كانت لدينا واحدة من صنف النساء على متن السفينة وكان اسمها بريدجيت والش؛
وعدتها بالزواج، وكان لها حق عليَّ؛
فقد مزقَت تنورتها لتصنع قفازين ليدى،
وقالت "لا يمكن أن يتجمد حبى الحقيقى على شواطئ نيوفاوندلاند."

فى ليلة من الليالى وكنت مستلقيًا على فراشى، رأيت حلمًا لطيفًا؛
حلمت أننى فى ليفربول فى ميدان المدينة،
وبجانبى فتاة جميلة، وفى يدى كوز من البيرة،
ولكنى استيقظت كسير القلب إلى حد كبير على شواطئ نيوفاوندلاند.

ولكننا يا أولادى لدينا الآن ريح طيبة ولابد أن تنطلق سفينتنا؛
ولذلك ترون الأولاد وقد انتشروا على سطح السفينة يرفعون الثلج؛
سوف نغسلها ونحكها بحجر الخُفَّان والرمل،
وسوف نودع صخور العذراء على شواطئ نيوفاوندلاند.

الباخرة تتقدمنا؛ نحن متجهون إلى نيويورك،
حيث يتجمع أصحاب الحانات والمهربون؛
أحيانًا يذهبون إلى المشارب والمراقص، وأحيانًا أكثر يخرجون للنزهة بالعربات،
ولكن ما يعرفونه قليل عن الريح الشمالية الغربية على شواطئ نيوفاوندلاند.

لازمة: فلتملئوا كئوسكم إذن يا أولاد، وسوف تدور فى مرح،
وسوف نشرب نخب القبطان وفتيات مدينة ليفربول.

# الصياد الشبح (١٨)

ابتسم إن كانت لديك الرغبة فى الابتسام، وإلا فسوف تولى اهتمامًا شديدًا
بالصبى والرجل معًا، ما يقرب من أربعين عامًا.
لقد أبحرت عبر البحار، من الشواطئ الغربية إلى جراند،
وكنت أعمل على بعض سفن صيد الرنجة التى تخرج من نيوفاوندلاند.

أؤكد لكم أننى رأيت عواصف كانت الأشياء فيها تبدو زرقاء إلى حد ما
وبطريقة أو بأخرى، كنت محظوظًا ونجوت.
إلا أننى لن أتباهى، إذ لم أكن محظوظًا بهذا القدر إلا وقتها
فإخافتى ليست أسهل من إخافة معظم الرجال الآخرين.

ولكن فى ليلة ظلماء أتحدث عنها، كنا قبالة شواطئ تهب عليها الريح،
ولن أنساها أبدًا فى كل أيامى الفانية،
حين شعرت وأنا فى نوبة حراستى المظلمة بخوف مريع
انتابنى كأننى سمعت من ينادينى من عالم الموتى.

فى تلك الليلة من سبتمبر ظهر على السطح بحارة الواحد تلو الآخر،
اثنا عشر بحارًا مترادفين، وانتظروا إلى أن أنتهى.
تجمعوا على السطح، ولكنى لم أسمع صوتًا
كانوا يتحركون معًا دون أن ينطلقوا بكلمة.

كانت وجوههم شاحبة ومبللة بماء البحر، وكانت تلمع كالأشباح فى ظلمة الليل.

كان كل منهم يجلس بحرية كأن له الحق فى ذلك،

واتجهت السفينة شرقًا إلى حيث كادت اليابسة تظهر فى مرمى البصر،

أو بالأحرى رأيت أبراج الفنارات مضيئة.

وساعتها عاد هؤلاء البحارة الأشباح أدراجهم عبر السياج

واختفوا فى الضباب، حيث يمكن أن تطلع عليهم الشمس.

لا أعرف فى الواقع أى سبب لقدوم هؤلاء

ليقودوا سفينتنا حتى كادت اليابسة تبدو فى الأفق.

إنهم البحارة المخلصون، طيَّب الله ثراهم،

حين غرقت سفينتهم فى تلك المرة فى مياه جورجيز الضحلة،

والآن قد علمتم قصتى، وهى تمامًا كما قلتها،

ذلك أننى أؤمن بالأرواح، منذ ذلك الوقت فى أى مكان. (غير مغنى)

## مياه الرنجة الضحلة (١٩)

غادرت بيتى فى يوم لطيف
وكنت متجهًا إلى ميناء يارموث
لأعمل خادمًا على سفينة شراعية
لنقوم بالصيد فى مياه الرنجة الضحلة.

حين يجعلونك صياد سمك
وتتعلم كل شيء عن الإبحار
يبدأ تعليمك بالملاحة
وأنت تقوم بالصيد فى مياه الرنجة الضحلة الجميلة.

لقد كان العمل صعبًا والساعات طويلة،
وكان الرجال الضخام يصيحون بسبب نزح المياه
وكنت أنام واقفًا على قدمى
وحلمت بمياه الرنجة الضحلة.
وفى بحر عاصف ورياح عاتية
أنا والمهمات التى كنت أسافر بها
أبحرنا لمسافة عشرة آلاف ميل، وصدنا عشرة آلاف سمكة
حين قمنا بالصيد فى مياه الرنجة الضحلة.

**إنك تبحر بالليل وبالنهار**

**ويأتي الطقس الشتوى والرياح الشتوية الشديدة**

**وأنت تكدح طول الطريق، وتتقدم فى العمر، وتتقدم فى العمر**

**وأنت تقوم بالصيد فى مياه الرنجة الضحلة الجميلة.**

## أولاد الطقس العاصف[٢٠]

**كنا راقدين فى ميناء سارى فى يوم من الأيام**

**وعرف وكيل القبطان أن الوقت قد حان لكى ننطلق.**

كورس : جو عاصف يا أولاد، جو عاصف يا أولاد

حين تهب الريح سوف تبحر سفينتنا .

**لقد اتجه إلى الوطن، لكن لا حظ له**

**لأن القبطان نصف سكران فى حانة دوج أند دك.**

كورس:

**وبعد ذلك صعد القبطان على السفينة وقد تأبطت ذراعه فتاة**

**فسوف يهجر النقل البحرى ويشترى مزرعة.**

كورس:

**ولذلك جرى وكيل القبطان إلى المقدمة ووقع الطاهى فوق السطح**

**ووضع الريان أصابعه فى بكرة حبال الأشرعة.**

كورس:

وأخيرًا نحن قبالة لسان ليموس

ولكن ألواح الحماية من الريح ارتطمت بشاطئ جريمسبى.

كورس:

لأن وكيل القبطان يمسك بالدفة وقد سخر منها مرتين

لأن القبطان وضع أصابعه فى سلطانية من الثلج.

كورس:

دفعنا السفينة وابتعدنا

ولكن القبطان شرب زجاجة بيرة أسفل.

كورس:

إنها تبتعد وتبحر مسرعة

ولكن ليس هناك بحارة على متنها.

كورس:

يحدث اصطدام وارتطام وترسى على الشاطئ

يقول وكيل القبطان "يا إلهى، إننا فوق ذا نور!"

كورس:

وحينئذ قفزت إلى السطح إحدى عرائس البحر وقد غُطت بمادة لزجة،

أخذناها إلى عنبر البحارة وأمضينا وقتًا طيبًا.

كورس:

حين جاء المد عامت السفينة

وساعتها رأى وكيل القبطان شبحًا على حبل الشراع الثانى.

كورس:

**مضينا بعيداً وكان الشبح هو الذى يقود**

**وشرب الطاهى بقايا بيرة القبطان.**

كورس:

**أبحرنا فى عكس اتجاه الريح قدر الإمكان حول أورفورد نيس**

**حين انعكست الريح لتصبح جنوبية جنوبية غربية.**

كورس:

**وصلنا إلى البر سالمين معافين**

**وربطناها فى مدينة يارموث**

كورس:

**وبعد كل مخاوفنا وذعرنا**

**انتهى بنا المطاف فى درودز آرمز.**

## مقبرة البحَّار[٢١]

**كانت سفينتى بعيدة، بعيدة عن البر**

**حين شحب أشجع أفراد فرقتنا الجسورة**

**شحوب الموت ونحل جسمه**

**كفسق يوم من أيام الخريف.**

**رأيناه خلال ساعات الألم الطويلة.**

**كانت رعايتنا كبيرة ولكن آمالنا خابت.**

**ضربة الموت؛ فهو لم يعط إنذار الجبناء**

**ولكنه ابتسم ومات بين أذرع رفاقه.**

زينا فراش جنازته بفخر
حيث وضع العلم البريطانى على صدره.
قدمنا له ذلك رمزًا لشجاعته.
وبعد ذلك جهزناه لمقبرة البحار.

لم يكن لدينا كفن ثمين،
ووضعنا كرتين من الحديد عند قدميه.
وحين رقد فى فراشه، كان كأنه صحيح ومعافى،
كأنه ملك مربوط فى كفنه الطويل.

شحبت الوجنتان، وكل قلب صار ضعيفًا.
يا لتلك الدموع التى شوهدت على أشد الوجنات سُمرة.
بدت رعشة على شفاه الكبرياء
حين أنزلناه من جانب السفينة المظلم.

طبطبة وغوصة وانتهى الأمر
وتعاقبت الأمواج كما كانت تتعاقب من قبل
كأنها صلاة بصوت مسموع باركت الموجة
بينما غاص إلى أسفل، إلى مقبرة البحّار.

# الفصل السابع

# الفن

أرغى الشيطان وأزبد أسفل السفينة قائلاً:

"إنها من صنع الإنسان، ولكن هل هي فن؟"

**روديارد كيبلنج**

Rudyard Kipling,

"The Conundrum of the Workshops"

إضافة إلى الأغنية، كان هناك العديد من أشكال الفن الأخرى الشائعة إلى حد ما بين الرجال العاملين فى البحر، وهى الرسم وعمل النماذج والحفر على العظم والخشب وأشغال العُقَد العادية والزخرفية، ورسم الوشم، وهو الأمر المستغرب إلى حد ما.

حينما نناقش الفن الشعبى لابد أن تكون فى أذهاننا دائمًا بضع مبادئ. فهو تمثيلى، وهو وظيفى، وربما كان زخرفيًا كذلك. تلك هى الصفات التى تفصل الفن الشعبى عن الفن البدائى - المؤسلب - وعن الفن المتطور.

وفى الفترة الأخيرة أشار أحد المعارض الفنية إلى الفنان الشعبى جيمس ديكسون James Dixon من جزيرة تورى بأيرلندا على أنه "فنان انطباعى شعبى". ويشى هذا المصطلح بتضارب فى المُثُل. فالفنان الشعبى يشعر بالقلق إذا ما خضع إبداعه للتأويل. فهو لا يرسم سفينة وحسب. بل إنه يرسم سفينة حقيقية. وحين ينتهى من الرسم فإنه يكون قد التقط صورة السفينة الشراعية "مونتانا" Montanna بقدر ما يستطيع. فإذا ظن المشاهد أن السكونة(*)

(*) سفينة بقلعين أو أكثر (المترجم) .

ما هى إلا بارك(*) أو حتى مجرد نمط من أنماط السفن، فإن الفنان يشعر أنه فشل. ولكى لا يحدث أى خطأ، فإنه قد يبرز ملمحًا خاصًا من ملامح السفينة لاحظه هو؛ كأن يكون الدقل الأعلى شديد الطول أو المؤخرة غير المعتادة. سأل شخص الرسام: "أهذه طيور النورس؟" نظر الرسام إلى الرسم وأداره، ثم قال وهو يطوى اللوحة ويخفيها "لا بل شقائق النعمان. لن نتكلم بعد ذلك عن الرسم."

إن للفنان الشعبى همومًا تقيده إلى حد ما بمواده، وأدواته، وقدرته الشخصية، وثقافته. ربما أمكن لأحد الفنانين الحفر على قطعة من خشب الموسكى اللين بأدوات غالية الثمن بطريقة أسهل وأكثر دقة إلى حد كبير جداً مما يمكنه بها تشكيل ناب كركدن البحر(**) بمسمار مسنون. وسوف تسمح الفرشاة المصنوعة من وبر الجمل وبالتة الألون فى ستوديو مضاء إضاءة جيدة بعمل أفضل مما يمكن إنجازه فى عنبر بحارة غير ثابت باستعمال قطعة من حبل كفرشاة وكمية ضئيلة من بويات السفينة "مستعارة" من دولاب الدهانات. إن الرجل الذى درّسوا له المنظور يتمتع بميزة كبيرة مقارنة بمن تعلمه بالتجربة والخطأ.

ولابد أن ندرك عند الحديث عن الثقافة فى الرسم أن استخدام الألوان يرتبط تحديداً بالأذواق المحلية. فمن المحتمل أن يستخدم الإسكوتلنديون فى الغالب درجات الألوان الداكنة والموف والبنى والأسود، بينما يميل الأمريكيون إلى بالتة الألوان الأفتح. وفى ميدان الرسم، كان الكثير من اللوحات "الشعبية" ليس من رسم رجال يعملون فى البحر ولا فنانين شعبيين، وإنما صناع مهرة محترفون يمارسون التكنيكات "البدائية". وكان رجال مثل بورتر **Porter** وتشالمرز **Chalmers**، اللذان يحتلان أجزاء كبيرة من كتب الفن الشعبى(١) ، فنانين تجاريين فى واقع الأمر لديهما القليل من الخبرة البحرية، وربما لا شىء منها على الإطلاق. وبالطبع ليس الفنانون المعروفون مسئولين عن كل الفن البحرى، ولكنى أظن أنه من الأمان القول بأن غالبية لوحات المناظر البحرية

(*) سفينة شراعية بثلاثة صوار (المترجم) .

(**) حوت موطنه القطب الشمالى له ناب طويل مستدق ومجدول لدى الذكر (ونادرًا ما يكون له نابان) من العاج (المترجم) .

والسفن الغفل، إن كانت من عمل رجال يعملون فى البحر، كانت قد رُسمت بعد أن "ابتلعوا المرساة" وتقاعدوا ليعيشوا على الشاطئ. ولم يكن سطح المركب المهتز وعنبر البحارة المزدحم مناسبين للرسم، وكان من النادر أن يتغاضى قبطان عن وجود حامل لوحات على سطح سفينته، وكان من الأندر أن يتقبل أفراد الطاقم ذلك. فالأمر ببساطة هو أنه لم يكن هناك الوقت ولا المكان لممارسة مثل هذا العمل على السفن.

و يميل الفنان الشعبى بصورة عامة إلى عدد محدود من المناظر. فهو من ناحية يحب تصوير العنف؛ أى صور السفن وهى تتقاذفها الرياح، وهى محطمة، وهى تحترق، وكذلك عمليات الإنقاذ فى عرض البحر، وما شابه ذلك. وهو من ناحية أخرى يرسم السفن فى ظل أجمل الظروف وهى تبحر بالريح الطيبة فى بحر هادئ. وكان المقصود من النوع الأول من اللوحات هو تسجيل الضغط العصبى وخطر اللحظة وحفظه للتاريخ. إن عبارة "هكذا كان الأمر" تكاد تكون شعار الفنان. وهكذا وصف ميلفيل صورة من هذا القبيل بإعجاب:

**إنها بحق صورة مبتلة رطبة مشبعة بالماء. إنها كافية لأن تشوش تفكير الرجل القلق ... إنها صورة البحر الأسود أثناء عاصفة فى منتصف الليل - إنها الصراع غير الطبيعى للعناصر الأساسية الأربعة - إنها مرج متفجر - إنها منظر شتوى قارس البرودة - إنها تحطم نهر الزمان المغمور بالجليد ... شىء ما فى مركز الصورة ...**

وبعد أن درس ميلفيل الصورة بعناية قال:

**تمثل الصورة كيب هورنر أثناء إعصار كبير، حيث ترقد السفينة شبه الغارقة فى ماء البحر لا يُرى منها سوى صواريها الثلاثة وقد تعرت من أشرعتها. وحوت غاضب يعتزم القفز فوق السفينة أثناء العمل الضخم الخاص بخوزقة نفسه على رءوس الصوارى الثلاثة** (٢) .

ويرجع عدم تعرف ميلفيل على هذا المشهد فوراً إلى عدم براعة الفنان، وليس إلى مقصده.

والصور التى فى الجو اللطيف هى بورتريهات للسفن. وهى تقدم فى ظروف هادئة، بحيث يمكن مشاهدة السفينة والتعرف عليها وقد نشرت أشرعتها بالصورة

المعتادة. ولتحقيق هذه الغاية، غالبًا ما يثبت على الصوارى علم البلاد وراية تحمل اسمها، بينما يرسم كل حبل وكل شراع بدقة.

والمشاهد الأقل تكراراً بكثير هى مشاهد ما يحدث على متن السفينة أو نشاط الشحن. ولكن حين تحدث هذه المشاهد فإنها غالبًا ما تكون مشاهد ذات قدر كبير من الاضطراب. وتفوق صور صيد الحيتان، أو ضرب الفقمة بالهراوات، أو صيد الفظ(*) بالحراب، أو تحطيم قطع الثلج، رسومات تحميل البضائع أو رش الماء على سطح السفينة وما شابه ذلك من الأنشطة العادية. باختصار، فإن العمل العنيف مكوّن مهم جداً من مكونات الفن الشعبى البحرى.

وإذا لم تكن قطع القماش الكبيرة متوفرة على متن السفينة، كانت هناك منطقة متاحة لقدر كبير من الفن، وهى سجلات السفن. وفى تلك الروايات اليومية الخاصة بتحركات ومباهج ومصاعب السفينة وطاقمها نجد الكثير من الأعمال الفنية محفوظًا، وغالبًا ما تؤدى جميعًا وظيفة ما.

كان القبطان يُضَمِّن السجل من حين لآخر رسومات كروكية للموانئ ورسومات للمعالم غير المعتادة، ورسومًا كروكية للجزر، وصوراً لسفن شوهدت أو تحدث أحد عنها، وفى بعض الأحيان مشاهد قابلوها فى أثناء الرحلة. وغالبًا ما كانت تلك رسومًا كروكية بسيطة بالريشة والحبر، ولكن البعض منها كان يزخرَف ويجمَّل. وكانت الخرائط تحتوى على رسومات كروكية للدلافين، وكان السحاب يحيط بالجزر البركانية، وكانت الطيور تحوم حول السفينة التى وقفت فى عرض البحر لعدم هبوب الريح، ويمكن رؤية ظلها فى الماء. وفى بعض الأحيان كانت تُستخدَم ألوان مختلفة من الحبر وتُرسَم بعض المشاهد الصغرى من الحياة على البر؛ مثل الأكواخ المحلية أو أناس فى قوارب صغيرة. إلا أن الناحية الفنية كانت خاضعة دائمًا للوظيفة. فقد كانوا يرسمون الصورة ليس لتصوير الطبيعة فى حد ذاتها، بل لكى يكون بالإمكان رؤية اليابسة فى تاريخ لاحق، أو دخول أحد الموانئ، أو التعرف على صديق ما عن طريق شراع الصارى

(*) حيوان بحرى ثديى أشبه بالفقمة (المترجم) .

الأمامي للسفينة الأخرى. وكان كل شيء يعزز الإمكانيات متضمنًا. وكان كل شيء ينتقص من هذه الأشياء ماديًا يُستبعد.

وردت تلك الرسومات في سجلات الكثير من السفن، وأحيانًا في اليوميات التي يحتفظ بها أفراد الطاقم، غير أنها ربما كانت موجودة في سجلات سفن صيد الحيتان والسفن المتجهة إلى الشرق أكثر من وجودها في أية سفن أخرى. ولم تكن السفن التي تسير بمحاذاة الساحل وسفن البريد السريعة المتجهة إلى موانئ لها خرائط جيدة في بحار مألوفة بحاجة كبيرة إلى رسم الصور لتكون مرجعًا في المستقبل، وكان من المحتمل جدًا ملاقاة الصديق الذي يُرى في البحر في الميناء التالي.

وهناك عمل فني آخر عُثر عليه في سجلات سفن صيد الحيتان وهو حيتان سوداء صغيرة متقنة الرسم؛ كانت عبارة عن صور مظللة لمختلف الأنواع، كالحوت الأحدب، أو حوت العنبر، أو الحوت المستقيم. وكانت تلك ملونة تلوينًا متقنًا باللون الأسود مع وجود مستطيلات بيضاء في الوسط وضع فيها رقم ما مثل "٢٤" أو "٦٨". والواقع أن تلك الصور المظللة مصنوعة من نماذج صغيرة منحوتة بدقة للأنواع العديدة يحتفظ بها القبطان في مكتبه. وحين كانوا يقتلون أحد حيتان العنبر كانوا يختمون صورته في سجل اليوم المناسب ويسجلون عدد براميل الزيت التي استخرجت منه داخل المستطيل الصغير. وحين كانت المطاردة تفشل، كان القبطان يطبع ذيل الحوت وحسب في وضع رأسي إشارة إلى أنه ظهر وهرب. ومن حين لآخر كان أحد القباطنة الأكثر حساسية تجاه الفن يضيف الماء الذي ينفثه الحوت إلى صورته المظللة، أو يُجَمِّل الهامش بحربة أو حربتين، وربما بقارب محطم في حال وقوع كارثة أثناء المطاردة.

ويقودنا حفر أختام الحيتان الصغيرة بشكل طبيعي جدًا إلى شكلين فنيين مشهورين بين رجال البحر الأنجلو أمريكيين، وهما صنع النماذج و المنحوتات العاجية أو العظمية.

صنع النماذج حرفة قديمة جدًا. وقد أشير في الفصل الخاص ببناء السفن إلى أن معظم السفن في السابق كانت مخططاتها تنقل من أشياء النماذج الخشبية المحفورة بدقة، ولكن فن صناعة النماذج لم يكن مقصورًا بحال من الأحوال على

المصمم. ويبدو من عدد نماذج السفن التى لا تزال موجودة أن كل بحَّار خرج سليمًا من الحياة فى البحر خلَّف وراءه نموذجًا حين رحل إلى "النعيم". والبحَّار يحب سفينته، ورغبته هى استرجاع سحر تلك السفينة إن أمكنه ذلك - بغض النظر عما قد تبدو عليه من قبح أو غرابة - فى أيامه الأخيرة. وأتذكر أننى وأنا طفل شاهدت مرات ومرات نموذج لمركب صيد وحيد الصارى نحته صاحبه. وفى كل مرة تقريبًا كان يقول إنه نموذج لسفينة "خرجت فيها وأنا شاب" أو "أول سفينة خرجت فيها" أو الاثنتين معًا. ويكاد يتبع ذلك فى وصف لحياتها العملية؛ إن لم يكن منذ تدشينها، فمن المؤكد منذ بدء عمل صانع النماذج فيها إلى أن طواها النسيان، أو "احترقت" أو "تحطمت" أو "غرقت" أو "بيعت فى الخارج".

وعادة ما كان النموذج التقليدى، فى مقابل شبه النموذج الخاص ببنَّاء السفن، نموذجًا مكتملاً به صوار وحبال وكل الأشرعة. ورغم اختلاف النماذج الخشبية فى أحجامها، فقد كانت أطوالها تتراوح بين ثمانى عشرة بوصة وثلاثة أقدام. وبينما كان بعضها يُنحت من قطع صغيرة من الخشب، كان عدد كبير منها يجرى بناؤه بطريقة السفينة الحقيقية. فكان الصالب يوضع، وينشر الهيكل، وتُثبَّت الألواح بالبرشام أو الخوابير ثم تُجلَّد بالنحاس الأحمر الذى يُثَبَّت بالمسامير. وغالبًا ما كانت السفن مكتملة من الداخل اكتمالها من الخارج وكانت عليها طواقم من نماذج البحارة. وأتذكر فى الثلاثينيات مشاهدة القبطان الراحل جورج رايت **George Wright** وهو يبنى نموذج للسكونة "أمريكا". وكان فى باطنها ثقل من البازلت، وكانت حبالها الاحتياطية مرتبة، وأسِرَّتها المعلقة فى مواضعها، وكان المطبخ فيه الطباخ والأوانى ومعدات الميس. ومع تقدم العمل فى السفينة، وضعت أسطحها وأُخفى داخلها عن عيون البشر للأبد.

كما قد يشك المرء، كان الهدف هو خلق صورة طبق الأصل من سفينة بعينها صُغِّرت إلى حجم صغير جداً، وكان الجهد لا يبذل من أجل الدقة وحسب، بل لكى يكون كل شىء متناسبًا كذلك. فقد كان تصغير حجم السفينة من ١٥٠ قدمًا إلى ٣٦ بوصة شىء وتصغير الألواح والأربطة والمثبتات والحبال والبكر وعجلات البكر بحيث تكون متناسبة شىء آخر. ومع ذلك فقد كان ذلك يتم بدقة. وما زالت العجلات تدور داخل البكر، والدفة تتحرك، والأبواب الجانبية تنفتح، والمدفع يتحرك. ونماذج البحارة هى وحدها التقليد المضحك. فهى ليست حية.

وليست البراعة فى هذه النماذج فى خلقها (فأحسنها ليس بأفضل من السفن المنقول عنها أو أسوأ منها) وإنما فى مهارة البناء، وفى الالتزام بالتفاصيل، وفى اعتبارها نموذجًا لحب الإنسان لبناء شيء ما كان فى وقت من الأوقات جزءًا من ذاته وصبره على ذلك.

ولم تكن هذه النماذج تبنى فى وقت قصير، ولا يمكن تشكيلها باستخدام أدوات بدائية، ولا تتحمل المعاملة الخشنة. باختصار، إنها منتجات البحّار وقد نُقلت إلى المرعى. فهو يتذكر من جديد أثناء ساعات التقاعد الطويلة مباهج شبابه ويسترجعها فى شيء مصغر.

تحدثنا حتى الآن عن السفن الخشبية. والواقع أن هناك سفنًا أخرى. وأنا أمتلك سفينة ذات ثلاثة صوار جميلة من الصلب طولها حوالى قدمان ولها أشرعة من المعدن وحبال من السلك. وقد رأيت نماذج من القش، ونماذج من الزجاج، ونماذج من لحاء الشجر. ولكن أجمل النماذج جميعًا فى كثير من الأحوال، طبقًا للمعايير السابقة، هى تلك المصنوعة من العظم. وكشأن النماذج الخشبية، صنع أغلب تلك النماذج بحارة متقاعدون، وكان أفضلها من صنع أسرى الحرب المحبوسين فى السفن السجون البريطانية والفرنسية خلال العقود السابقة أو التالية مباشرة لنهاية القرن الثامن عشر. وكان بعضها يُصنع من عاج الحوت أو القفمة أو الفيل، ولكن نماذج كثيرة أخرى كانت تُصنع من عظام الأسماك أو من عظام الحيوانات النافقة، وكانت تحفر بأشد الأدوات بدائية؛ كمسمار مسنون، أو مفك، أو سكين صُنع من ملعقة.

وفى الأيام الخوالى كانت إحدى الكوارث التى يخشاها الإنسان هى مرض "عدم وجود ما يُفعل". وفى السفن السجون أثناء الحروب النابليونية، كثيرًا ما كان ذلك المرض يقود الرجال إلى الجنون أكثر من الحمى أو الطعام السيئ أو الجرذان أو الزنزانة التى يرتفع المد فيملؤها بالماء. وفى أوقات أخرى كانوا يتحولون إلى ظلال تشبه الرجل الذى كان يعمل على مدفع، أقل من تشابه السفن السجون مع السفن الضخمة التى كانوا عليها فى يوم من الأيام. وكان صنع النماذج بالنسبة لهؤلاء الرجال هو الشيء الذى يمنحهم الأمل ويحافظ على صحتهم.

الكثير من هذه النماذج محفوظ داخل متاحف فى أنحاء العالم. وقد شاهدتها فى نورفولك بولاية فيرجينيا، وميستيك بولاية كونيتيكت، وجرينتش بإنجلترا، ولشبونة بالبرتغال. ولكن هناك نموذجين رائعين فى متحف بيبودى Peabody Museum فى سالم. الأول لفرقاطة من العاج (ومعظم هذه النماذج طولها ثمانى عشرة بوصة أو أقل) مكتملة فى كل شىء بالتفصيل. وهى تجر خلفها بحبل من العظم زورقًا خفيفًا داخله رجل ملتح من العظم يدخن غليونًا!

والثانى نموذج صغير كذلك. وهذا النموذج على درجة مدهشة من الدقة من ناحية مقياس الرسم والتفاصيل، ولكنه على عكس أى نموذج آخر رأيته مصنوع بالكامل - البدن والأشرعة والصوارى والحبال - من عظام السمك الوردى الذى جُمع من أوانى الميس فى السفينة السجن عقب استهلاك الحساء. وإذا كان هناك من يحتاج إلى شهادة على الحياة على متن سفينة سجن أو على قوة روح الإنسان فى الشدة، يكفيه هذا.

بذلك لا يتبقى لنا سوى نوع آخر من النماذج لنتحدث عنه؛ وهو النموذج الذى يبرز التكنيك إبرازه للنموذج. ففى ايروسكوبينج Aeroskobing بالدنمارك هناك متحف صغير يضم عدة آلاف من غلايين التبغ وحوالى ١٥٠٠ سفينة كل منها داخل زجاجة. وسوف أتحدث عن هذه السفن. وليست هذه بحال من الأحوال كل السفن التى فى العالم، ولكنها تمثل بالأحرى عينات مصغرة.

سمعت أنه فى العصور الوسطى، حين كان صنع الأشياء الصغيرة يعد عملاً ماهراً، كان مشهد "العشاء الصغير" محفوظًا داخل حبة عين جمل، وكانت الصلاة الربانية (أبانا الذى ....) مكتوبة على رأس دبوس. ونحن فى قرننا نميل أكثر إلى ناطحات السحاب ولوحات الإعلانات الضخمة، ولكن من الواضح أن الميل القديم استمر فى هذا النمط المعيّن من بناء النماذج.

وبسبب المشكلة المتعلقة بحشر سفينة كاملة الأشرعة والحبال فى زجاجة كبيرة بعض الشىء ولها فوهة صغيرة بقدر الإمكان، فإن الدقة التى تتحقق فى نماذج السفن الأخرى تكون مفقودة إلى حد ما. ومع أن هذه السفن الصغيرة قد تمثل منظراً بحرياً

ساراً من على البعد، فهى جميعًا لا تحمل أبدًا قدرًا كبيرًا من الدقة. والواقع أن دقة التفاصيل ليست دائمًا الغرض الرئيسى لعامل الزجاجات. بل إن غرضه الأساسى هو ملء الزجاجة بأكبر سفينة يمكن أن يستوعبها ارتفاعها ومحيطها أو خلق ديوراما بحرية داخل الزجاج. ولتحقيق هذه الغاية تضاف فى بعض الأحيان العديد من السفن والصخور والفنارات وحتى الطيور التى تحوم فى مهب الريح، ويدهش المرء من كمية المواد الموجودة فى زجاجة صغيرة ونوعيتها. كما أنه فى أفضل نماذج الزجاجات ليس هناك ما يدل على كيفية الوصول إلى هذه المواد.

ولكى يحقق صانع النماذج غايته المنشودة فهو يبنى سفينته بالكامل خارج الزجاجة. وتركب الصوارى فى مفصلات، وتوضع عوارض الأشرعة فى محاذاة الصارى، ويُثَبَّت الكل بالخيوط. وبعد ذلك توضع كل الحبال على السطح وتُدخل السفينة بالكامل ببراعة من عنق الزجاجة. وبعد أن تستقر على المحيط الذى سبق إعداده تقطع الخيوط فتنتصب الصوارى وتنفرد عوارض الأشرعة وتطفو السفينة، وهى مرتبة ترتيبًا حسنًا على طريقة بريستول فى مجالها الصغير. وما إن يصبح كل شىء آمنًا فى مكانه، يزيلون الخيط أو يُخفونه، وتحشر سدادة من الفلين فى الزجاجة ويكتمل العمل.

والشكل الفنى الآخر الذى تطور تطوراً كبيراً فى القرن التاسع عشر هو ضرب من الحفر والنحت يعرف بالمنحوتات العاجية أو العظمية scrimshaw . وعمومًا كان الاسم ولا يزال ينطبق على الحفر على العظم وأحيانًا على الخشب، غير أنى أظن أنه من الأصوب قصره على الحفر على العاج البحرى؛ أى عظام الحوت والفقمة والفظ وكركدن البحر. وكانت تلك المواد مقصورة فى الغالب على صناعة صيد الحيتان، حيث انتعشت فى الواقع ويبدا أنها حققت أعلى تطور لها بين صيادى الحيتان الأمريكيين.

ويبدو أن القليل جداً معروف عن أصل هذا المصطلح أو الفن. ورأى البعض أن ربما كان مصدره التعرض للحفارين الإسكيمو فى أقصى الشمال أو حفارى الخشب البرتغاليين الذين كانوا يخرجون إلى البحر فى سفن صيد الحيتان. وفى عام ١٧٩١ ذكر جون هاسكين فى كتابه **Narrative of the Second Voyage to Columbia** أن البحارة كانوا يحفرون أشياء من حين لآخر، وإحدى أقدم قطع المنحوتات العاجية

المعروفة تعود إلى العقد الأخير من القرن الثامن عشر، وهى ضمن مجموعة ميناء ميستك بولاية كونيتيكت.

ويأتى أول ظهور معروف لمصطلح "المنحوتات العاجية" فى سجل سفينة صيد الحيتان "باى تشانص" By Chance (١٨٢٥ - ١٨٢٦) وبعد ذلك أخذ يظهر بانتظام، ولكن بتهجٍ مختلف (مثل scrmishaw, scrimshander, scrimsh, scrimshoting, scrimshowing) . واللافت للانتباه إلى حد كبير أن معظم المفردات تشير إلى ممارسة الفن حين كانت السفن تقف فى عرض البحر لانقطاع الريح، أو لا تكون هناك حيتان، أو لا تعمل لأى سبب آخر.[٣]

أحد التفسيرات المحتملة للمصطلح هو أنه توليفة من scrim وهو ضرب من الزخرفة التشجيرية و horn أى العظم، ومن ثم يكون معناها "حفر العظام". وربما يأتى التفسير الثانى من scrimsharker التى يدرجها ويلز Wells باعتبارها مصطلحاً قديماً كان يُستخدم فى البحرية البريطانية لوصف أى شخص ماهر فى تحاشى العمل[٤]. وحين نلاحظ أنها كانت تصنع فى الغالب الأعم فى أوقات الفراغ، وحين نعلم أن أصحاب السفن لم يكونوا يحبون أن يبقى أفراد الأطقم على هذا الحال من البطالة[٥]، فإن هذا قد يكون تفسيراً منطقياً.

ومهما كان الأصل، ومهما كان معنى المصطلح، فإننا قد نكون متأكدين من أمرين. فالمنحوتات العاجية باعتبارها فنًا بحريًا، أو شكلاً من أشكال الفن الشعبى، تعبير حديث يخص ذروة عصر صائد الحيتان الأمريكى، وأحد الإضافات الأمريكية الحقيقية القليلة جداً إلى المادة الشعبية.

وبصورة عامة كان يوجد على متن سفن صيد الحيتان كميات كبيرة من أسنان الحوت، وعظام الحوت، والبَلين (عظام حلق الحوت السوداء) . بل كانت توجد من حين لآخر أنياب الفظ وكركدن البحر. وعموماً كانت قطع من هذا المواد متوفرة، بل كانت تقسَّم من حين لآخر على أفراد الطاقم[٦]. وعلى عكس نماذج السفن، كان القطع التى تُصنع منها تبقى لزمن طويل وكانت فى الغالب صغيرة الحجم؛ مما ساعد على حفظها.

ويبدو أن عاج البحر جيد للحفر بصورة مدهشة باستعمال أبسط الأدوات. وقد صُنع قدر كبير من أقدم المنحوتات العاجية بإبرة صانع الأشرعة أو منشار المعادن أو المطواة أو المبرد، بالإضافة إلى العديد من الأحبار الملونة. والقطع التى تبدو مخروطة استفادت من البناء الداخلى للعظم (مثال العصا المصنوعة من ناب كركدن البحر التى فى حوزتى) أو كانت تُخرط على طاولة صانع البراميل بنفس المخرطة التى تصنع المعدات لسفينة صيد الحيتان.

ويبدو أن المنحوتات العاجية تنقسم أساساً إلى فئتين، وربما ثلاث فئات. ونجد فى إحدى هذه الفئات فن المشاهد الكروكية على أسنان الحوت وعظامه، وعادة ما تكون باللون الأسود، وإن كانت تعلوها فى أغلب الأحيان طبقات من الأحمر أو الأخضر. ومع أن هذه الرسومات الكروكية لها موضوعات كثيرة، فإن النساء هن الأبرز، تليهن المشاهد البحرية؛ من سفن واقفة فى عرض البحر من أجل سرب من الحيتان، أو مطاردة الحيتان، أو سحب حوت ميت، أو صورة جزيرة، أو بركان. وغالباً ما نجد كذلك اشتباكاً بحرياً مرسوماً على الأسنان، ولكن هذه ليست بنفس القدر من الشيوع. ومع أنه لا شك فى أن هذه المشاهد رُسمت لحفظ ذكرى ما، فقد كانت فنية فى المقام الأول.

ويتكون النوع الثانى من المواد ، تلك المصنوعات التى لإبداعها غرض حقيقى؛ وهى الأشياء المنحوتة التى لها قيمة نفعية. ومع أنها تتراوح بين سنادات الدقل الأعلى ومخارز الفتيل(*) والبكرات الصغيرة من ناحية، وإبر الكروشيه وعلب النشوق من ناحية أخرى، فهناك عدد من الأفكار والموتيفات المتكررة فيما بينها.

والنوع الأخير من المنحوتات العاجية أشياء تجمع بين العاج البحرى والخشب والمعدن والجلد أو الحبال. وهناك عشرات الأشياء المختلفة ضمن هذه الفئة، إلا أننا نرى مرة أخرى تفضيلاً محدداً لأصناف وزخارف وموتيفات بعينها.

توجد بميناء ميستك مجموعة كافية جداً من المنحوتات العاجية، ومن المناسب وصفها أو مناقشتها. وتشمل المجموعة بصورة عامة حوالى ألف ومائتين قطعة.

(*) مخرز الفتيل : أداة حديدية مستدقة الطرف تُفصل بها طاقات الحبل بعضها عن بعض (المترجم) .

ومن بين هذه القطع هناك المتشابه منها دون أن يكون متطابقًا. وهناك مائتان وخمسون سنًا ونابًا مزخرفًا يحمل أغلبها صورًا لنساء وأطفال يليها مباشرة مشاهد صيد الحيتان. ومن بين المصنوعات هناك إحدى وستون عجلة تسنين، واثنان وأربعون ضلع مشد (كورسيه)، واثنتان وعشرون بكرة خيط، وأربعة وعشرون سكينًا، وثلاثة وثلاثون مخرزًا، وثماني عشرة لوحة من لوحات لعبة الكريبج (تعود إلى الإسكيمو فى أغلبها)، وثماني عشرة سنادة دقل، وخمسة عشر طاقم مشبك غسيل، وتسعة علب، وست إبر وشم، وعدد من البكر. ويمكن أن يضاف إلى هذه الأشياء ست عشرة قطعة أعيد إنتاجها أكثر من مرتين؛ مثل ثلاث مقاشر للذرة من بين كل الأشياء. وعند كتابة هذه القائمة، كانت هناك ملاحظة صغيرة بخصوص الكثير من الأدوات - الشنكار والمخرز والمثقاب وفارة النجار والياردة وإبر الشِّباك وغيرها - وهو أن وظيفتها كانت نفعية فى الأساس وليست فنية.

ومن بين كل قطع المنحوتات العظمية المنتجة هناك ثلاث قطع تنبغى مناقشتها بسبب وجودها المتكرر والدرجة الرفيعة التى عليها من الإتقان والأسلبة. وتلك هى عجلات التسنين والعصى وأضلاع المشد. فقد كانت العجلات المسننة، أو أدوات ثنى الفطائر، تتطلب قدرًا كبيرًا من المهارة من جانب الحفار، لأن العجلة متحركة ومحززة، وكثيرًا ما كانت توجد مرتبطة بشوكة تثقيب. وكانت الاثنتان متصلتين بيد محفورة حفرًا دقيقًا تمثل فى الغالب الأعم ساق فتاة ممتلئة وقد اتصلت العجلة بالقدم. وتكررت على هذا الموتيف تنويعات فى صورة جسم أنثى كامل أو ذراع، وفى بعض الأحيان كانت تأخذ شكل حصان أو طائر أو شجرة. وفى بعض الأحيان كذلك كانت هناك حية تلتف حول اليد.

رغم تنوع عصى السير تنوعًا كبيرًا من حيث تصميمها - من الحفر الدقيق بطول العصا التى كانت تشكَّل على هيئة حبل أو كانت تلتف حولها حية - إلى العصى غير المزخرفة التى بها مقبض واحد أو رأس تركى فى أعلاها، فقد كان هناك عدد سائد من التصميمات. وكانت أكثر الأشكال التى تُقَابل ساق فتاة، ورأس كلب، ويد منقبضة وقد دُست الإبهام فيها (دليل على الصحة والقوة بالنسبة للبحار)، ويد تقبض على كرة، وساق حصان وحافره. أما ضلع المشد أو الكورسيه فكان مختلفًا بعض الشيء، حيث

كان قطعة رقيقة مستوية من العاج البحرى أو البلين طولها من عشر إلى ثلاث عشرة بوصة تقريبًا ويتراوح عرضها بين نصف بوصة وبوصتين. وكان ذلك هو الصنف الأكثر حميمية الذى يمكن للبحار حفره، ذلك أنه كان يصنعه ليوضع فى كورسيه ليجعل بطن إحدى النساء مشدوداً. ولأنه كان يوفر سطحًا مستويًا إلى حد كبير وكانت فائدته محببة تحظى بتقدير البحارة، فقد كانت التصميمات فى الغالب أكثر شخصية وعاطفية مما وجد فى غيره من أشياء. والقطعة التقليدية التى فى حوزتى طولها ثلاث عشرة بوصة وعرضها بوصة ونصف محفور على أعلاها نصفا كرة. كما حفر على الحواف كنار من الورد (زهرة الحب)، وينقسم الجزء الأوسط إلى مناظر عن طريق رسم خطوط مستقيمة بعرض القطعة التى تحمل نقوشًا على جانب واحد فقط. وإذا بدأنا من أعلى وجدنا شكلاً معيّنًا تحيط به نجمتان وتحته نجمتان أخريان. يلى ذلك نسر عليه درع مكتوب عليه باللاتينية E Pluribus Unum وفى أحد مخلبيه برق وفى الآخر أوراق الغار، وتحيط بالشكل كله نجمتان. وبعد ذلك هناك نخلتا جوز هند وتحتهما قلبان التف حولهما خط متعرج لونه أحمر على كل جانب. يلى ذلك سفينة شراعية بصاريين وقد نشرت كل أشرعتها وترفع راية "صقر الليل" إشارة إلى أنها فى طريق عودتها إلى الوطن، يليها سلة زهور ونقش يقول "لا يمكن أن تفوق الزهور الفتاة الجميلة جمالاً". وأخيراً هناك شجرتان من أشجار الحياة التفتا حول بعضهما.

وغالبًا ما تصور مشاهد أخرى فتاة نحيلة، ويدان متماسكتان، وفى بعض الأحيان طفل، بينما يستخدم عدد من العبارات المنقوشة. وكان من بين العبارات المفضلة العديد: "حظ دَسِم" و"الموت للأحياء، وليحيا القتلة، والتوفيق لزوجات البحارة وحظ دسم لصيادى الحيتان" و"تذكرونى" و"إلى زوجاتنا وحبيباتنا، عسى ألا يلتقين أبداً"(٧) "النجدة، النجدة. أليس هناك من ينقذ الفتيات الحسان من أحضان القراصنة". وفى بعض الأحيان كان هناك نظم كالتالى:

**هذا العظم كان يومًا قابعًا فى فك حوت العنبر**

**والآن هو من أجل صدر امرأة.**

**هذا يا حبيبتى أصنعه**

**لك لتستخدمينه لا لتعيرينه**(٨) .

**اقبلى منى ضلع المشد هذا يا فتاتى العزيزة**

**فقد حفرته يدى المتواضعة**

**وأخذته من فك حوت العنبر**

**على بعد ألف ميل من اليابسة.**

**فى كثير من الرياح كان هناك حوت**

**كان تلك العظمة فيه قابعة**

**لقد انقضى زمانه، وأخيراً عظامه**

**لابد أن تشد صدرك**(٩) .

لابد أن نتذكر أننا نتحدث هنا عن موتيفات المنحوتات العاجية وموضوعاتها الأكثر شيوعًا. ولم تكن هناك أية محاولة لوصف الأشياء الأكبر حجمًا والأندر التى هى أكثر زخرفة فى الغالب، كتلك التى يمكن رؤيتها بوفرة فى ميناء ميستك، أو متحف نيو بدفورد لصيد الحيتان، أو متحف كيندل لصيد الحيتان أو متحف نانتاكت. وهذه الأشياء على قدر كبير من التنوع وشديدة التعقيد من حيث رسوماتها. ولمناقشة المنحوتات العاجية ووصفها الوصف الواجب يحتاج الأمر إلى مجلد كامل. ويكفينا فى هذا المقام أن نقول إن الخيط المشترك الذى يربط كل أطراف هذا الفن ببعضها هو الاهتمام بالتفاصيل والنسب ودقة الرسومات والتكنيك المتقن. فقطعة المنحوتات العاجية النادرة هى التى تخضع للتفسير من حيث الشكل أو الوظيفة.

واليوم لا يزال هذا الفن قائمًا. ومازال فنانون من أمثال تشارلز سايلز Charles Sayles وميس ماسى Miss Macey، وكلاهما من نانتاكت، يشكلون العاج البحرى ويواصلون الأشكال القديمة، وإن كان لأغراض جديدة مثل أكياس نقود السيدات أو الأباجورات. وبما أنهم مزودون بأدوات أفضل، وأضواء أحسن، ومكان عمل ثابت، وينظرون إلى المنحوتات العاجية على أنها مهنة وليست هواية، فقد طوروا شكل الفن القديم إلى درجات عالية جديدة من الدقة الفنية.

قد لا يكون هناك مكان فى العالم البحرى تتضافر فيه الوظيفة والفن والمكانة تضافراً أكمل مما عليه الحال فيما يمكن تسميته فن العُقَد. وكانت العادة أن البحَّار رجل يمكنه لف الأشرعة وتأمينها، وتقصير الأشرعة وتوجيه السفينة. وكان مطلوبًا من أى عريف ملاحين أو أى ضابط صف أن يتمتع، ضمن ما يتمتع به، بكفاءة فى معرفة "بحرية مخرز الفتيل"، أى معرفة كيفية ربط عقد بعينها وعمل العديد من وصلات الحبال المصنوعة من القنب والأسلاك. وكان لابد للحبَّال وصانع الأشرعة من ناحية أخرى أن يكون كفئًا فى عمل العديد من العقد والوصلات والغرز. وكان الحبَّال يحمل سكينًا ومخرز فتيل يعلقه فى حزامه فيما يكاد يكون شارة تدل على وظيفته، بينما كان صانع الأشرعة مزودًا دائمًا بمقعد. وكان لكل من هذين الشخصين واجباته الخاصة به. فعلى سبيل المثال، كان الحبَّال معنيًا فى المقام الأول بإدخال الحبال الدائمة الموجودة على متن السفينة فى الأشرعة وصيانتها وتمتينها. وكان يقضى معظم أوقاته فى توصيل الحبال وفى خدمتها، وهو ما كان لديه نَظْم خاص به يقول: "اجدل الحبل وأحكم لفه بالقماش / دُرْ ومتنه من الناحية الأخرى." وكان صانع الأشرعة يقوم بعمل الأشرعة وإصلاحها وعمل أغطية الفتحات والمظلات.

وكشأن الكثير من التراث البحرى، فإن لصنع العقد تطوراً تراكم بمرور آلاف السنين، ويكاد يكون لاستخدام كل قطعة من الحبال العقدة أو التوصيلة أو الغرزة المصاحبة لها التى أثبت استخدامها عبر القرون أنها الأكفأ لهذه المهمة. ولا شك فى أنه من الممكن اختراع عقد جديدة، ولكن حين يجرب الهواة ذلك

فإنهم يحاولون تحسين ما بلغ عدده حرفيًا الملايين من العمل الساعى(*) الذى خصصه الإنسان للمشكلة. ويعد كتاب The Ashley Book of Knots أكبر عمل موسوعى متوفر عن هذا الموضوع، حيث يقسم مادته إلى واحد وأربعين فصلاً ويتضمن ما يزيد على ٣٥٠٠ عقدة وتوصيلة وغرزة منفصلة. إلا أنه قبل أن نتطرق إلى المزيد، لابد من عرض القليل من التعريفات.

وكما أن السفينة لا تكون "راسية" إلا حين تكون فى الحوض الجاف، فإن الأشياء لا تكون "مربوطة" إلا حين تكون السفينة "راسية" و"ثابتة" على الرصيف. والعقد "تُعقد". وهى تُعقد على وجه الدقة فى طرف الحبل لتوفير دعامة له أو منعه من أن ينَسلّ. و"العقدة" بصورة أكثر عملية شكل يجرى إدخاله على الحبل باستعمال الحبل نفسه، مثل العقدة المنفرجة أو العقدة المربعة. و تستخدم "العقدة الوتدية" لربط حبل فى شىء من قبيل الشمعة التى تربط بها السفن. وتربط "التوصيلة" طرفى حبلين ببعضهما لعمل حبل واحد، كما فى عقدة الصياد أو عقدة ربط حبلين. وتجمع "الوصلة المجدولة" بين حبلين، أو بين جزئى الحبل الواحد بحيث تصبح الطاقتان كيانًا مندمجًا؛ وتجرى هذه العملة بجدل الحبل أو الحبال معًا، باعتباره وصلة مجدولة قصيرة أو وصلة مجدولة عُروية.

لكل عقدة ووصلة اسمها، واستخدامها، وطريقة بنائها التى تميزها عن غيرها، وفى بعض الأحيان قصتها الصغيرة. فقد سُمِّيت عقدة الحرامى، التى تكاد تشبه العقدة المربعة، بهذا الاسم لأن البحَّارة كانوا يستخدمونها لربط مخاليهم. وكان اللص المهمل يسرق القليل من المخلة ويعيد ربطها بالعقدة المربعة، وبالتالى يفضح نفسه.

ما إن يُكتشف أمر اللص حتى يمكن أن يتصل بقطة اللصوص (القطة ذات التسعة ذيول) وعقدة الدم. أما الأولى فهى سوط به تسعة من حبال صيد الحيتان طول الواحد منها حوالى ثمانية عشرة بوصة موصولة إما بقطة من المنحوتات العاجية

(*) وحدة تمثل مقدار العمل الذى يؤديه عامل واحد فى ساعة واحدة وتتخذ أساسًا لتقدير نفقات الإنتاج وتقدير أجور العمال (المترجم) .

أو بقطعة من الحبل السميك المجدول بطريقة جميلة. وفي نهاية كل حبل كانت تُعقد عقدة دم، أو أحيانًا قطعة رصاص، لضمان تدفق الدم من ضحيته. وكان المصطلح "قطة" يطلق على هذه الأداة بسبب الاعتقاد على متن السفن بأن القطة تحمل النار في ذيلها. وكانت قطة اللصوص تُصنع كذلك من ألياف أقسى من العادية، لأن السرقة على متن السفن كانت جريمة تستوجب العقاب الشديد(١٠) .

والعقدة الأخرى التي تستحق الذكر هي أنشوطة الجلاد. والغرض من هذه العقدة التي يجب أن تنزلق بسهولة هي كسر الرقبة وكذلك شنق الضحية. ولبلوغ هذه الغاية كانت عقدة ضخمة. وطبقًا للمعتقد الشائع في بحرية الولايات المتحدة، فقد كان عرض هذه العقدة أمرًا يستوجب المحاكمة العسكرية؛ ولكن إذا رغب أحد في عمل هذه العقدة فلابد أن تكون بها ثلاث عشرة لفة بعدد حواريي المسيح الثلاثة عشر وينبغي لفها عكس عقارب الساعة بحيث يسهل أكثر على الشيطان الحصول على ضحيته.

لكي لا يظن ظان أن هذه المناقشة مرعبة أكثر مما يجب، هناك جانب أخف في فن بحرية مخرز الفتيل. فحين يختلط البحَّارة ببعضهم فإنهم يستمتعون بتبادل الخيوط ومشاهدة المهارات. كما أنهم يستمتعون بخداع "أبي نتيمة". ومصدر التسلية الكبير هو أن يسألوا الشخص المستجد عما يعرفه عن العقد. وبناء على حكمته فإنهم قد يرسلونه بعد ذلك للبحث عن ماثيو ووكر Mathew Walker، أو عقدة السدادة، أو لإطعام الجمل، وهو حاجز لمنع اصطدام السفينة، أو قد يسأله سائل إن كان قد ذهب إلى محطة الصين. وبعد ذلك يسألونه إن كان يمكنه عقد أكثر العقد فائدة، وهي عقدة التنين. وحين تكون الإجابة بالنفي، يتنهد أحد كبار البحارة وينهض ويعقد العقدة ويعطيها للمستجد. "ها هي." "إنها مجرد عقدة." "هذا صحيح. والآن اسحبها."

يتعلق المثال الأخير في الأسلوب الخفيف بقبضة القرد. وهذه عقدة تكثر فيها النتوءات وتعقد في طرف حبل خفيف طويل، أشبه بحبل تحريك التلقذة المنزلقة، حيث يكون الهدف هو زيادة وزن طرف هذا الحبل المسمى حبل الرمي. وهذا هو الحبل الموصل بحبل أكبر منه يسمى المراسلة، وهو مثبت بدوره

فى القلْس(*). يلقى عريف الملاحين الحبل الخفيف إلى الشاطئ، حيث يلتقطونه ويسحبونه فيتبعه المراسلة، ثم يسقطون القلْس نفسه على الرصيف. وحبال الرمى يصنعها مساعدو عريف الملاحين وهى ملكية خاصة بهم. وليس مسموحًا لأى شخص آخر باستخدامها، حيث يحظى حفظها برعاية كبيرة. ولكن يتقن عريف الملاحين تحديد الهدف والمسافة، فإنه يقضى قدرًا كبيرًا من وقته فى إلقاء الحبل وتليينه، ذلك أن الرجل الذى يمكنه إلقاء الحبل لأطول مسافة ممكنة وبأكثر استقامة ممكنة كان يحظى بمكانة رفيعة. وكلما كانت قبضة القرد أثقل كانت المسافة التى تبلغها أبعد، وكان مغريًا باستمرار "تسليح" القبضة بوضع شىء ثقيل داخلها. وكانت لوائح البحرية تحظر مثل تلك الأعمال، حيث إن قبضة القرد فى هذه الحالة تكتسب صفات أشبه بصفات الهراوة المكسوة بالجلد.

كنت إبان الحرب العالمية الثانية على متن سفينة تحاول الوقوف بمحاذاة رصيف فى منطقة القناة. ألقى عريف ملاحين من الدرجة الثانية اثنين من حبال الرمى إلى أحد عمال تفريغ السفن. كانت المسافة كبيرة ولم يصل الحبلان إلى مقصدهما. وبما أن العامل لم يكن متحمسًا فى التقاطهما فقد سقطا فى الماء. فى هذه اللحظة صعد عريف ملاحين من الدرجة الأولى ومعه حبل الرمى الخاص به، الذى أخفى فيه كرة رولمان بلى وزنها ست أونصات. أسرعت قبضة القرد كأنها حجر داود(**) وأصابت عامل الميناء اللامبالى إصابة بالغة فيما بين عينية. وقع الرجل على الأرض كأنه ثور مذبوح. وبحركة سريعة بالرسغ وقع حبل الرمى من على الرصيف وقد تحرر من المراسلة ودُس فى دولاب ديفى جونز.(***) وحين صعدت سلطات الميناء على متن السفينة بحثًا عمن أوقع الرجل على الرصيف وتوجيه الاتهام إليه، اعترف عريف الملاحين بالرمى بفخر شديد،

(*) حبل تشد به السفينة إلى البر (المترجم).

(**) الحجر الذى قتل به الملك النبى داود جوليات العملاق. وفى العهد القديم "فتمكن داود من الفلسطينى بالمقلاع والحجر وضرب الفلسطينى وقتله." (صموئيل الأول: ٥٠) (المترجم).

(***) أى ألقى به فى قاع البحر، حيث إن ديفى جونز هى التسمية التى يعرف بها قاع البحر فى الغنيات والحكايات (المترجم).

وعرض على الضابط حبل رمى غير مسلح. قد لا يكون هذا فولكلوراً على وجه الدقة، ولكنه بالتأكيد منتجاً فرعياً.

لقد تحدثنا حتى الآن فقط عن الاستخدامات الوظيفية لبحرية مخرز الفتيل. إلا أننا نجد عند تنفيذ العُقَد والوصلات قدراً كبيراً من المتعة الجمالية. فالغرز التى فى قماش الأشرعة ذات تصميم هندسى، والوصلات المجدولة الطويلة فُتلت بدقة بحيث يصعب على من يراها معرفة أين تبدأ وأين تنتهى، والحبال لفت بحرارة الشمس وبترتيب يدعو للدهشة، كما تُصنع من الأطراف الزائدة دواسات صغيرة متماثلة مرتبة.

وننتقل بسرعة وسهولة من هذا الجانب الوظيفى إلى مجالات يبدأ فيها الجمالى مشاركة الوظيفة على قدم المساواة. فالدواسة تنسج بعناية وتوضع على سطح السفينة عند المدخل المؤدى إلى الدرج. وإذا كان الغرض هو مجرد تنظيف الأحذية، فلماذا لا يقومون بتثبيت بعض الحبال وحسب؟ إن البحَّار يمكنه تثبيت سرواله حول وسطه بقطعة من الخيط المغزول، إلا أنه يقضى حوالى عشرين ساعة فى عمل حزام بالعقدة المربعة مكون من ست عشرة خيطاً به اثنا عشر نقشاً متبايناً وستة ألوان مختلفة. بل إن الجزء الداخلى من لنش الأميرال وقارب القبطان فى الوقت الحالى مغطى بالكامل بنوع من الدانتيلا البحرية؛ وهى من أشغال العقد التى تحتاج إلى شهور لإتمامها ويحافَظ عليها ناصعة البياض باستخدام الصلصال الأبيض(*) باستمرار. ويعلق عريف البحارة صفارته حول عنقه ليس فى خيط أو قطعة من القيطان، بل فى جديلة من الحبال البيضاء أو السوداء تحيط بها عقدة الصفارة[١١] . ويمكن القول بأن هذه لها وظيفة، ولكن حقيقة أن هذه العقدة وهذه الجديلة مرتبطتان دائماً بهذه الأداة الخاصة قد يشير إلى إحساس قوى بالنزعة الطقسية؛ وهى أحد أقدم جوانب الفن.

يقول آشلى عن فنية العقد: "هناك فنان ينتميان إلى البحَّار، وهما المنحوتات العاجية ... التى كانت تخص أساطيل صيد الحيتان، وشُغل العقد، الذى كان يخص كل سفن المياه العميقة، بما فى ذلك سفن صيد الحيتان"[١٢] . كما يشير إلى أن شغل

(*) طين أبيض لدائنى يستخدم فى صنع غليون التبغ وتبييض الأحذية والأحزمة البيضاء (المترجم) .

العقد المعقد والدقيق بلغ أوجَه قبل عصر السفينة الطويلة السريعة (القلبر) في القرن التاسع عشر، ويرى أن الشعور بالرضى عن الذات والفترات الطويلة من العزلة والأمية أسهمت جميعها في تطويرها؛ وهي الظروف التي بدأت في الاختفاء مع ظهور السفينة الطويلة السريعة والآلة البخارية والتحسينات الأحدث على متن السفن. وهو يوضح كذلك أن المهن العديدة كانت تتسلى بأساليب عديدة، حيث كان رجال البحرية ينجزون أعمالهم بأشياء صغيرة، وينجز بحارة السفن التجارية أعمالهم بحبال أطول وأكثر سُمكًا، بينما ينجز صيادو الحيتان - الذين يعتبرهم أفضل الصناع - أعمالهم بوسائط عديدة.

يمكن الاختلاف مع ما يقوله آشلي. فالحياة على متن السفينة نادراً ما كانت على قدر كبير من السعادة. إلا أن ظهور السفينة الطويلة وبدء التجارة مع الشرق أوجدا للبحّار مشاكل جديدة تتعلق بالعقد وفتحا عينيه على إمكانيات العقدة الشائعة في الشرق. إلا أن ما يقوله صحيح من حيث المبدأ، وقد فاق عمل العقد المنحوتات العاجية من حيث الكمية والنوعية وتساوى معها من حيث الدقة الفنية.

فما الذي يصنعه صانعو العقد؟ قد تطول القائمة، إلا أن معظمها كان مشتقاً من العقد المعقودة في الحبال ومن الوصلات المجدولة ونسج أشكال عديدة من الجدائل. وكان صانع العقد يبدع مقابض للأدوات والعِدد، والهراوات، والكليشات، وعلب الإبر، وسلالم الحبال، ومقابض الأجراس والسلاسل الزخرفية، وبكة المخالي، وحبال تعليق الصفارات والمُدى، والأساور، والأسواط، والجيابات(*) ، والسجاد، وحقائب اليد، ومقابض الصناديق الرائعة، والقلادات، والأحزمة، والسلال، وأغطية الزجاجات والبرطمانات، والأحذية، وعدد يكاد يكون لا حصر له من الأزرار.

كانت تلك الأصناف تصنع بأحجام مختلفة من الحبال. وكان الكثير منها ذا ألون سادة كالأبيض أو الأسود أو البني، إلا أن الفنان كان يمكنه العمل بخيوط ملونة لإعطاء عمله تنوعاً لا حد له. وكما هو شأن المؤلف الموسيقي مع النوتة الموسيقية والسلم

(*) ما يوضع على السفرة تحت الصواني والصحون لحماية الطاولة (المترجم) .

الموسيقى، فقد كان صانع العقد يكاد يعمل دائمًا بأشكال معروفة من العقد، إلا أن النزعة الفنية التى داخله كانت تملى عليه تجريب تراكيب وأشكال وألياف وألوان مختلفة. فهو لم يكن يكتفى بعمل حزام من العقدة المربعة البسيطة. بل كان يصر على أن يدخل فى إبداعه خيوطًا ملتوية، وعقد ربط الحبلين، والجدائل، والألوان المختلفة، وعلى زيادة عدد الخيوط وإنقاصه. وكان يرى أن الفن الخاص بإبداعه يكمن فى الجمع بين العقد والأشكال المختلفة فى كيان منسجم. وكلما ازداد العمل صعوبة كان الفن أعظم. وكان كذلك يفاخر بدقته؛ فلابد أن يكون غطاء الزجاجة الذى يصنعه مطابقة لها تطابق اللحاء على الشجرة، ولابد أن تكون عقده موحدة الشكل. وكانت قدرته كصانع تكمن فى تنوع عقده وتوحد منتجه النهائى. ولقد رأيت بحاراً يحل حزامًا كاملاً من العقد المربعة لأن عقدة منها لم تكن مشدودة مثل العقد الأخرى، ويفك وصلة مجدولة مسلوبة لأن إحدى اللفات لم تكن فى مكانها.

البساطة بشكل عام هى أحد مبادئ الفن. وغالبًا ما نشكو من أن شكلاً بعينه من الأشكال الفنية يتسم بالبهرجة والمبالغة. إلا أن هناك شيئين فقط يخالفان هذا المبدأ، وهما شجرة الكريسماس، التى لا يمكن اعتبار زينتها أكثر مما يجب، وفن بحرية مخرز الفتيل.

كما هو الحال بالنسبة للمنحوتات العاجية، لا يزال شغل العقد الزخرفى يمارس؛ وإن كان على نطاق أضيق بكثير. ومما يؤسف له أن الحبال الحديثة (النايلون والداكرون وغيرها) لا تصلح بصورة جيدة لأغراض صانع العقد، ولم يتقدم العمل الزخرفى بقدر تقدم المنحوتات العاجية. ولكن مادام الإنسان مستمراً فى خروجه إلى البحر، فسوف يصنع عقد ربط مزدوجة، ورءوس التركى، والجدائل المستديرة والمسطحة و"عيون صيادى السمك"؛ ليس فقط لربط الحبال ببعضها أو سد زجاجة الماء أو حفظ الكُشتبان، بل من أجل متعة صُنعها وبهجة رؤية العمل الدقيق وقد أُحسن صنعه.

وهناك شكل فنى أخير يتلاشى قد لا يمكن تجاهله، وهو الوشم الذى يكاد يكون مقصوراً على مهنة العمل فى البحر. وفى الماضى كان الرجل يُعرف أنه يعمل فى البحر

عن طريـق ضـفيرته الصـغيرة المقطرنــة، ومن خــلال مشيته المتمايلة، وبما على جلده من وشم. وقد اختفت الضفيرة المقطرنة منذ زمن بعيد، والمشية المتمايلة يمكن إخفاؤها، إلا أن الرجـل الذى يعمل فى البحر لا يزال لديه وشـم فى مكان مـا من جسمه، وعادة مـا يكون على يده أو ذراعه أو صـدره. وكثيـراً مـا يميـز الوشم الفرع المحـدد الخـاص بالمهنة البحرية التى يعمل بها؛ فعلى سبيل المثال كـان ضـابط المدفـعية يضع المدفع المتقاطع، وكان عريف الملاحين يضع مرساة.

إن فن الوشم قـديم ومنتشـر. وكـانت تمارسه، إلى جـانب تقديم الأضـاحى وبتـر الأعضـاء، القـبـائل الهندية الأمـريكية[١٣] ، والإسكيمو، والأفـارقـة، والأوروبيون، وكـانت تمارسه بشكل خـاص شعوب أوشينيا والشرق.[١٤] وتشير كل الاحتمالات إلى أن جزءاً كبيراً من الوشـم البحـرى جـاء من هذه المنطقـة، حيث يجرى تنفيذ الكثير من أفضل الأعمال. وهنـا، فى الرحـلات البـحرية الطويلة وراء الحيتان أو فى الرحـلات المتجهة إلى الصـين وأسـتـراليـا، تـعرف جـاك لأول مـرة على البـولينيـزيين والميـلانيزيين والبوشـمن الأستراليين والصينيين واليابانيين. وفى حـالات كثيرة كان يجد أعداداً من "الكاناكا"(*) يبـحرون معه كزملاء على السفينة. وكـان من الطبيعى أن يكتسب بعضـاً من عـاداتهم، بالإضافة إلى نسائهم.

والقول بأن تلك كـانت ممارسـة زخـرفـية بحتة أمر يبعث على الضـحك. فقد كـانت العملية شديدة الألم تمامـاً، فضـلاً عن كونها خطيرة، وكانت النتائج دائمـة إلى حد كبير، إلى جانب الموتيفات ذاتها، وهذه جميعاً تجعل تأييد مثل هذا الافتراض غير ممكن. وقد قمت مؤخراً برحلة بحرية فى سفينة صيد إسكوتلندية بها طاقم يضم أحد عشر فرداً. كـان عشرة من أفراد الطاقم يحملون الوشم بدرجـات متفـاوتة. وكـان الشخـص الوحيد على متن السفينة الذى بلا وشم هو صبى فى الرابعة عشرة من العمر له خبرة قصيرة كبحـار. وأثناء تلمذته وقع مرتين من على السفينـة ورفض بقوة السمـاح أن يكون جلده وعاءً للصور. ولأنه مـا كان ليسمح لنفسه بأن يصنع له وشم، فقد أحـال زمـلاؤه على السفينة حياته إلى عذاب وأخبروه أنه لا يمكن أن يكون بحاراً قبل أن تخترق جلده إبرة

(*) أبناء هاواى الذين ينحدرون من أصول بولينزية (المترجم) .

الوشم. كما استنتجوا أن تجربتى سقوطه من على السفينة كانتا مرتبطتين برفضه أن ترسم إبرة الوشم شيئًا على جسمه. باختصار، يبدو أن دق الوشم على متن سفن الصيد الإسكوتلندية فى الوقت الراهن يمثل نوعًا من طقوس التكريس.

يتعزز كون هذا الشكل من زخرفة الجسم شيئًا خلاف اللهو حين ننظر إلى بعض أشكال الوشم التى لا تزال مستخدمة فى الوقت الحاضر. فأحد الرسومات الشائعة، وخاصة بين صيادى الأسماك الأمريكيين البرتغاليين هو المسيح مصلوبًا، وهو يُدَق فى العادة على الذراع اليمنى. وغالبًا ما يصور خنجر يقطر دمًا على الذراع اليسرى؛ وهذا الوشم رمز للقوة والشجاعة. ويشيع فى إسكوتلندا وشم TRUE LOVE [ الحب الحقيقى ] على ظهر الأصابع. والرموز المقابلة فى أمريكا هى HOLD FAST [ تشبث ] أو GOOD LUCK [ حظًا سعيدًا ] أو HARD LUCK [ حظ عاثر ] . كانت الموضة بين البحارة فى الأيام الخوالى دق وشم على هيئة خنزير على أحد القدمين وديك على القدم الأخرى. وزعم عريف ملاحين من الزمن القديم أن أى شخص عليه هذان الوشمان لا يمكن أن يغرق، لأن هذين المخلوقين مكروهان فى الماء. وقال بحّار قديم آخر إن أى شخص يحمل هذين الوشمين لن يموت من الجوع على متن سفينة، لأنه يحمل معه مصدرين من مصادر الطعام؛ هما لحم الخنزير والبيض. و سوف يتعرف أى شخص مُطَلِّع على الفولكلور فورًا على مغزى شديد القدم والرسوخ فى هذه الرموز.

قد يبدو أن مفهوم دق الوشم باعتباره أحد طقوس التكريس تدعمه طبيعة الرموز المستخدمة التى نجد أن الكثير منها ذو توجه جنسى. فعادة ما تنقش صور النساء، وهن عرايا أو شبه عرايا عادة، على العضلة التى فى أعلى الذراع، حيث ترقص أو تهتز عند تحريك العضلة. وأثناء كتابة هذا الفصل أتيحت لى الفرصة كى أرى على ذراع رجل وشمًا عبارة عن فتاة ترتدى قبعة. وكان إذا رفع ذراعه تصبح امرأة عارية ساقاها متباعدتان. وحين كان يثنى عضلاته كانت مؤخرتها تهتز. وكانت هناك كذلك أشكال شديدة الإيلام من الوشم تدق على الأعضاء التناسلية التى كانت تزخرف بالنحل والذباب وحتى عمود الحلاق(*).

(*) عمود عليه خطوط حلزونية حمراء وبيضاء يرمز لمهنة الحلاقة (المترجم) .

حتى وقت قريب إلى حد ما، كان من الشائع أن يحمل البحارة أشكالاً عديدة من الوشم، وكان البحارة المخضرمون متاحف فنية متنقلة بالمعنى الحرفى للكلمة. وبينما كانت الحيات تلتف حول سيقانهم وكانت الحبال والسلاسل تزين معاصمهم، كانت هناك الفتيات الراقصات والنسور والمراسى الملتفة عليها الحبال والسفن ذات الأشرعة المربعة التى تزاحم ليكون لها موضع على الجسم. والواقع أن الأغنية الكوميدية الطويلة عن السيدة الموشومة كانت كتالوجًا أكثر منها ملهاة.

ومن بين أشكال الوشم الكبرى ذات الطابع الجنسى شكلان شائعان إلى حد كبير، وهما صيد الثعلب ومطاردة الأرنب. ففى الوشم الأول نجد الفارس المندفع على الظهر متتبعًا الكلاب المتذمرة على البطن، بينما اختفى الثعلب ولم يظهر سوى ذيله من المؤخرة. وينطبق الموتيف ذاته على مشهد الأرنب، حيث تقود الآثار إلى السرة ولا يُرى سوى ذيل الأرنب بينما اختفى سائر جسمه داخل السرة. وكان هذا الموتيف أكثر شيوعًا من مشهد الثعلب، لأنه طبقًا لما قاله فنان الوشم "يمكن لعدد أكبر من الناس مشاهدته. بينما الوقت الوحيد الذى يمكن فيه رؤية المشهد الآخر هو أثناء الاستحمام. ومن ذا الذى يهتم بذلك؟"

هاتان الصورتان الكبيرتان لا يمكن عملهما بسهولة ويستغرقان بالفعل أيامًا، وقد تطول الأيام لتصل إلى سنوات. و"بادى" موت "Buddy" Mott أحد فنانَى وشم بقيا فى نيوبورت برود آيلاند، وهو يتذكر أن الأمر استغرق ثلاث سنوات ونصف لاستكمال صورة كبيرة لنسر على مرساة (رمزا القوة والإخلاص) على ظهر أحد البحارة. "كان قد دخل وجلس لبعض الوقت ثم ذهب للعمل على إحدى السفن وكان من الممكن أن تمر ستة أشهر قبل أن يعود. أظن أننى عملت فى ذلك الشكل حوالى ثلاث عشرة ساعة." وقد يضاف أن الإخبارى كان يعمل فى ظروف حديثة بإبرة كهربائية، وهو ما كان يزيد من سرعة العمل مرات عديدة.

عند هذه النقطة قد نسأل عن كيفية وضع الصورة. ونجد فى العصور الحديثة أن "قاعة الوشم" غرفة صغيرة بالقرب من الواجهة البحرية بإحدى مدن البحارة. يدخل الزبون ويختار الرسم الذى يريده من بين مئات العينات الموجودة على الحائط التى قام

بعملها فنان الوشم وصمم الكثير منها أو اقتبسه من رسومات قديمة. وإذا لم يرض الزبون بالصور أو الألوان المتاحة فإنه يتشاور مع الفنان الذى يقوم بعمل الرسم الكروكى السريع للتأثير المطلوب ويلونه بالطريقة التى ترضى المشترى ويبدأ فى العمل. يرفع الزبون قميصه، ويُنظف مكان الوشم بإسفنجة بها كحول ويرسم الفنان الصورة بإبرة كهربية تخترق الجلد بعمق وتضع الأصباغ تحت الطبقة الخارجية للجلد؛ والألوان المفضلة هى الأسود والأخضر والأحمر. وفى كل مرة يتغير فيها اللون الموجود فى الخرطوش تُستخدم إبرة جديدة معقمة. والأمر ليس سهلاً بالنسبة للفنان، حيث إن العملية تُحدث قدراً كبيراً من النزف، حيث يجب إزالة الدم إن هو أراد الاستمرار فى العمل. وإذا كان الرسم يستغرق أكثر من ساعة ونصف الساعة، كان عادة ما يطلب الزبون العودة لجلسة أخرى.

فى إحدى القاعات، التى يمكن اعتبارها نموذجًا لمعظم القاعات، كان هناك ٢٣٣ موضوعًا للاختيار من بينها. كانت معظم الصور مكررة بألوان أو أوضاع أو تراكيب مختلفة. ومن بين هذه الصور كانت ٥٩ منها عبارة عن امرأة (وقد تعرى نصف جسمها الأعلى)، و٤٤ تصور طيوراً تشمل العديد من النسور و٦ طواويس والعديد من العصافير الزرقاء، وكانت ٨ منها لأسود أمريكية، و١٧ لثعابين أغلبها من نوع الكوبرا وهى فى العادة مرتبطة بشىء آخر كالقتال مع نسر أو الالتفاف حول أسد أمريكى، وكانت ٥ صور للمسيح. وظهر بوباى Popeye وطفل رضيع ومجموعة كبيرة أخرى لمرة واحدة، إلا أن أكثرها شيوعًا فى الوقت الراهن ما يسميه صاحبه "الحصَّاد المخيف"؛ الذى هو شكل الموت المتخفى، وهو شديد الشيوع بين الهيبيز، إلا أنه كانت له أسلاف واسعة الانتشار فى النحت الموجود على شواهد قبور القرنين السابع عشر والثامن عشر.

كانت تلك القاعة مختلفة اختلافًا كبيراً عن سابقتها من حيث كون الرسومات أصغر حجمًا وأقل عدداً ومختلفة إلى حد كبير. فعلى سبيل المثال، كانت هناك لفيفة ورق واحدة فقط تحمل كلمة MOTHER [ أمى ] ، ورغم أن لديه "الآلاف من" المراسى، فإن أيًا منها لم يكن معروضًا. وكان المفضل بين بحارة الأيام الخوالى صورة تُدق لهم على الصدر، وكانت عبارة عن نسر يحمل لفيفة ورق عليها عبارة E Pluribus Unum

اللاتينية فى منقاره، وفى أحد مخلبية البرق وفى الآخر مجموعة سهام. وعلى كل جانب يرفرف علمَ أمريكى، بينما يوجد أسفل النسر مدفع متقاطع وخلف الكل مرساة التفتت حولها قطعة حبل؛ إنه الرمز غير المنطقى للإخلاص والأمل.

لم تكن الصالة تعرض المشاهد والأشياء التى كانت شائعة فى يوم من الأيام، مثل العنقاء التى تخرج من رمادها، والحية ذات الجرس، والرمحين المتقاطعان، والقديسة آن، والقديس إلمو، والسفن الكبيرة التى نشرت أشرعتها كلها (والغريب إلى حد كبير أنه نادراً ما كانت تصور السفن ذات الأشرعة الطولانية وطيور النورس). وقد صَغُر حجم الأسد الأمريكى الواقف على قائمتيه الخلفيتين والدم يقطر من مخلبيه الذى كان شائعًا كزينة للظهر إبان الحرب العالمية الثانية. بل كانت هناك كمية معينة من الصور الفكاهية، أى السخيفة - مثل البحَّارة "الوقحة" التى تعرت حتى وسطها، والأرنب بجز بانى Bugs Bunny، والملاكم الرضيع - التى حلت محل مادة قديمة. وأخيراً أشار أحد فنانى الوشم أن وشماً واحداً أو اثنين أو ثلاثة هو العدد المعتاد الآن، بينما كان العدد اثنا عشر شائعًا منذ سنوات. واعترف أحد فنانى الوشم أن لديه عشرين وشماً فقط على جسمه؛ "ليس هذا بالعدد الكبير بالنسبة لفنان الوشم."

فى الماضى كان العمل يتم باستخدام مطواة أو إبر خياطة الأشرعة (يضم متحف ميناء ميستك مجموعة من المنحوتات العاجية عبارة عن إبر وشم من العاج البحرى) أو دبوس حاد. وحتى فى الوقت الحالى نجد أن اليابانيين - المشهورين بمهارتهم فى دق الوشم - يستخدمون شظايا رفيعة من البامبو المغموسة فى الصبغة. وفى أزمنة قديمة كانت المحاولة الوحيدة للتعقيم التى تتخذ ضد التلوث الضخم الناتج عن الأصباغ - وكانت الفحم نباتى المخلوط باللعاب، وسناج لمبة الجاز، وورنيش الأحذية، والطلاء، وصبغة التوت وما شابه ذلك - هى استخدام شراب الروم بوفرة باطنيًا ومن الظاهر. وبخلاف ذلك، كانت طريقة إدخال الأصباغ تحت الجلد شديدة الإيلام وتُحدث درجة كبيرة من التقيح. وكانت إبرة صانع الأشرعة المثلثة تغمس فى الصبغة وتغرس تحت الجلد مراراً، أو كان خيط منقوع فى الصبغة يغرز بين الجلد واللحم ويسحب، أو كان ورنيش الأحذية يوضع فى شق السكين بالإبهام. وكانت نتيجة ذلك أن المحنة التى كانت تنتظر الرجل المزمع دق الوشم له هى النزيف الشديد والكدمات ووجود مادة سامة تحت

الجلد. وأقل ما كان يمكن أن يتوقعه هو تورم شديد وارتفاع في درجة الحرارة. أما الأسوأ فكان الموت بالتسمم العفني.

وحين يُسأل البحار عن سبب تعرضه لهذا الإزعاج، خاصة وهو يعلم أنه من المستحيل تقريبًا أن يخلص نفسه من النتيجة، كان رده في العادة متوقعًا ولا يقدم أية معلومات. إن أغلبهم يردون بقولهم "لا أدري"، ولكن إذا ضغطت عليهم فإنهم إما يقولون "كنت مع شخص ما وكان لابد لكلينا أن نفعل ذلك" أو "كنت مخمورًا". وقال رجل إن أول وشم دُق له على ذراعه اليمنى حين كان "مخمورًا" وآخر على ذراعه اليسرى حين كان واعيًا "للتسوية بينهما".

ربما كان جاك تار Jack Tar سكرانًا حين دُق له وشم، ولكنه يتحدث كثيرًا عنه أولاً في عنبر البحارة، كما يعرف أي رجل سبق له الخروج إلى البحر، وربما كان لديه إلى حد كبير رسم ثابت بقوة في ذهنه قبل وقت طويل من ذهابه إلى القاعة. وكان الكحول الذي بداخله من أجل الشجاعة التي يمنحها الشراب وكان "الرجال" الذين معه جمهور قد سبق ترتيبه؛ وفي حال عدم وجود رجال، كان كثير من البحارة يذهبون إلى القاعة بمفردهم. وأخيرًا فإن نوع الوشم المُقَدَّم وحقيقة أن جاك قد يعود مرات ومرات إلى فنان الوشم يتناقض مع فكرة أن دق الوشم نزوة من نزوات السُكْر. ذلك أنه حب الفن من جانب البحّار الذي يصبح موضع شك إلى حد كبير بسبب عدد أشكال الوشم التي على الظهر، حيث يمكن الإعجاب بها فقط كإعجاب برسيوس(*) Perseus بميدوسا Medusa؛ أي من خلال المرآة.

قد لا يكون هذا فنًا راقيًا، ولكنه يُصَنَّف على أنه فن، ذلك أن العيب ليس في مطامح الفنان أو في مهاراته، بل في المواد التي يستخدمها. فالجلد البشري ليس مناسبًا للألوان الزاهية إلى حد كبير، كما أنه لا يحتفظ بها. إلى جانب أن وجود الرسم

(*) بطل في الأساطير اليونانية وهو ابن كبير الآلهة زيوس من داناي. أرسله الملك بوليدكتس ليأتي له برأس الجورجونة ميدوسا ليتخلص منه، لاعتقاده بأنه سيموت في هذه المهمة، إلا أن الآلهة ساعدته، وأعطته الإلهة أثينا مرآتها حيث استفاد بها عند قتل ميدوسا وقطع رأسها بالنظر إليها من خلالها، لأن من كان ينظر إليها مباشرة تحيله حجرًا (المترجم).

تحت الجلد يجعله شبه معتم، وبمرور السنوات تأخذ الألوان فى فقدان بريقها وتتبدد. وعلى أية فإن السفينة التى نشرت كل شراعها - بغض النظر عن مدى المهارة التى رسمت بها - لا يجرى تحسينها بحيث ترى من خلال البشرة التى تزداد عتامة بسبب الصدر المشعر.

من المؤكد أن دق الوشم فن، وربما ينتمى للفنون أكثر من أشكال أخرى سبق ذكرها. والمهارة التامة مطلوبة كى يبدع الفنان صورته التى صممها بنفسه فى أغلب الأحيان كتنويعة على موتيف تقليدى قديم. بل إن هذا الفن غالبًا ما يحمل كذلك معنى رمزيًا رغم كونه وظيفيًا وتصويريًا. فالمرساة التى تلتف حولها قطعة من الحبل، والعنقاء التى تخرج من رمادها، والنسر، والدلفين، وعروس البحر، والحية ذات الجرس، والخنزير والديك - وحتى عبارة HOLD FAST على ظهر الأصابع - لها جميعًا مغزى رمزى. وبينما قد يظن البعض أن MOTHER التى على الذراع أو الفتاة الراقصة عارية الصدر المسماة جوان Joan على الموجودة على عضلة أعلى الذراع تنمان عن الإفراط فى العاطفية وعن الذوق الردىء، فهما يطلعان المشاهد الأكثر إنسانية على آمال البحار وأفكاره، تمامًا مثلما يدل الحرفان .W.C على شخصية ويليام كرودى William Crowdy الغريق العارى المسكين على سواحل إل أو هو الشتوية. وغالبًا ما يحكى الوشم للناقد المدقق قصة حياة البحار. إذ تحل "لوسى" محل "جوان"، وهذا وشم يحمل بلونه ورسمه وتكنيكه بصمات ديفى جونز من الجادة السابعة Seventh Avenue فى سان فرانسيسكو، وهذا أسد أمريكى بحجم وشكل معينين لا يأتى إلا من قاعة وشم فى هاواى، وهذه آثار أخرى من يوكوهاما، وهلم جرا.

قد يكون هناك بعض الشك فى أن دق الوشم آخذ فى الاندثار أكثر من الفنون الأخرى التى جاء ذكرها هنا. فرفيعو الثقافة يرون أنه فقد مكانته. وهو مخالف للقانون فى بعض الأماكن، ولم يعد يبدو أنه يقوم بأى من الوظائف التى كان يقوم بها فى الماضى. ومع ذلك فإنه حين يختفى سوف يعقبه فراغ لا يمكن بحال من الأحوال أن تملأه الزخارف الحديثة الخاصة بالعصور المعقمة الحديثة.

## الفصل الثامن

# الفقمة والرجال الضخام

لتشملكم البركات
ولتسلم أنت والأطفال
هل تعرف أن حبك الأول
هو أفضل حب

**چون نيكلسون**

- John Nicholson, *Reslin'Chair Yarns*

بينما كنت أبحر على امتداد ساحل مين في يوم من أيام الصيف الدافئة المشرقة، لاحظت ما بدا أنه جوال دقيق متسخ يتقلب في ظل شمندورة ذات جرس. ولكن النظرة الفاحصة أوضحت أن ذلك الشيء لم يكن جوال دقيق وإنما جسم منتفخ لفقمة رضيعة ميتة من فقمات الميناء. كان السمك قد أكل عينيها واختفى أنفها. وكان هناك حبل سلة صيد مهترئ قد التف حول زعانفها الخلفية وربطها بالشمندورة الحمراء ذات الجرس المجلجل. ارتفع جسمها الصغير المتعفن بتثاقل مع الموجة وتعلق هناك في المياه الصافية التي جمعت بين الزرقة والخضرة كشاهد على ذلك الاعوجاج الشيطاني الغريب في نفسية الإنسان. وقعت تلك الحادثة منذ سنوات بعيدة، غير أني ما نسيتها قط، وظل الانطباع الذي تركته في نفسي ملازمًا لي آلافًا كثيرة من الأميال؛ من مين **Maine** إلى فيدرا آيلاند **Fidra Island**، إلى سكاجيراك **Skaggerak**، إلى ميناء شول **Schull** في أيرلندا ثم العودة إلى كانوان **Cannouan** في جزر الأنتيل الصغرى **Less**

(*) مضيق واسع بين النرويج والدنمارك يربط بين بحر الشمال ومضيق كاتجات ( المترجم ) .

er Antilles. لقد أثار ذلك أسئلة ربما ما كان لى أن أطرحها إن لم أر تلك الجثة البيضاء القذرة، وكانت النتائج مذهلة.

أظهر البحث الفورى أن الفقمة الصغيرة قد قُتلت وأن أنفها جُدع من أجل الحصول على المكافأة الصغيرة التى تمنح على قتل حيوانات الفقمة التى تتمتع بسمعة سيئة بين صيادى الأسماك فى مين. قيل لى: "لماذا، لأن هذه الأشياء تأكل قنطاراً من سمك الرنجة فى اليوم الواحد." والمنطق لا ينفع كثيراً. فالصيادون يعترفون بأن "الرنجة" التى لم تصل إلى الحجم الصالح للأكل غالباً ما تُحَوَّل إلى طعام معلب للقطط، كما يعترفون صراحة بأن شبكة صيد ضخمة من النوع الذى يسحب على قاع البحر قد تقضى فى اليوم الواحد على الأسماك التى تقضى عليها حيوانات الفقمة جميعها الموجودة على ساحل مين فى عام. ومع ذلك فهم يقولون إن "هذا أمر مختلف". وسواء أكانت النتائج طيبة أو سيئة، فهناك شىء ما بشأن الفقمة التى تلهب خيال الإنسان.

منذ وقت ليس بالبعيد كانت حيوانات الفقمة وفيرة على شواطئ أمريكا الشمالية. وإذا استخدمنا أسماء الأماكن كمؤشر على ظهورها بأعداد كبيرة لاكتشفنا أنها كانت تنتشر عادةً جنوبياً حتى سان دييجو على ساحل المحيط الهادى ورود آيلاند Rhode Island على الجانب الأطلنطى، وفى بعض الأحيان أبعد من ذلك. ويصدق الشىء نفسه على الجزر البريطانية وأيرلندا. ورغم نقصان أعدادها بصورة كبيرة، فهى لا تزال تُرى من حين لآخر مستلقية فى الشمس على صخرة وسط الجزر أو وهى تسبح، كما يسبح الكلب، فى البحر.

الواقع أن الفقمة أحد مخلوقات الطبيعة الأكثر تميزاً. ويضع علماء الأحياء قوائم تضم واحداً وعشرين نوعاً مختلفاً منها تعيش فى بيئة واسعة الانتشار. فهى موجودة فى القطبين الشمالى والجنوبى، وفى مياه بحيرات لبرادور(*) Labrador العذبة، وعلى طول السواحل فى المناطق المعتدلة. بل إن نوعاً منها، وهو الفقمة المطوقة، يعيش فى جزر الهند الغربية. ورغم ندرتها الآن، فلابد أنها كانت موجودة بأعداد كبيرة فى يوم

(*) البر الرئيسى لنيوفاوند لاند بكندا فى الجزء الشمالى من شبه جزيرة لبرادور. ( المترجم ) .

من الأيام، ذلك أن هناك جزيرة تحمل اسم **Seal Island** [ جزيرة الفقمة ] على خرائط جزر ليووورد **.Leeward Islands** وربما كانت واحدة من تلك هى التى ظن كولمبس خطأ أنها عروس البحر حين كان موجوداً هناك. وحين شوهدت واحدة على جزيرة كانووان **Canouan** منذ حوالى خمسة عشر عامًا حازت على نفس القدر من الاهتمام الذى حظيت به من كولمبس.

وإذا كانت الفقمة عمومية فيما يتعلق بمدى أماكن تواجدها فهى لا تتسم بالعمومية فى اختيارها لأماكن استراحتها. إذ إنها نادراً ما تختار أية صخرة قديمة لترسو عليها، بل إنها تفضل صخوراً بعينها وتتردد عليها حتى ولو لم يكن كان المكان مكتظًا بمثيلاتها. واليوم نعرف هذه الأماكن بأسمائها: **Seal Bay** [ خليج الفقمة ] ، و **Seal Cove** [ خور الفقمة] ، و **Seal Harbor** [ ميناء الفقمة ] ، و **Seal Ledge** [ لسان الفقمة] ، و **Seal Rock** [ صخرة الفقمة ] ، وهى جميعها فى أمريكا الشمالية. وفى الخارج نجد مثل هذه الأسماء وغيرها كذلك. فهناك **Sule Skerry** جزيرة أو صخرة الفقمةو **Mairmaid Rock** صخرة عروس البحر التى ربما أخذت اسمها من التصور الخاطئ قديمًا لحيوانات الفقمة على أنها عرائس البحر .

بل نجد فى الوقت الراهن فى الخارج أن الفقمة، مهما تعددت أسماؤها، تحيط نفسها بهالة قوية من السحر؛ وهو سحر ينسجم مع العصور الوسطى أكثر منه مع الحاضر. ففى أمريكا الشمالية ليس لهذا السحر وجود إلى حد كبير، والحكايات التى تتناول الفقمة هى فى الغالب الأعم تدور حول صيد الفقمة؛ وهو فى أحسن الأحوال عمل وحشى مازال يمارس فى المنطقة القطبية وفى المياه القريبة من المنطقة القطبية. ومع ذلك هناك من الأدلة ما يشير إلى أنه حتى فى العالم الجديد كان تواجد الفقمة فى الفولكلور والحياة البحريتين فى يوم من الأيام أكثر مما هو عليه الآن. فعلى سبيل المثال لا تزال زعانف الفقمة طعامًا لذيذاً يحظى بالتقدير فى نيوفاوندلاند وجزيرة كيب بريتون - وهما منطقتان لم يلاحظ عادة أنهما تتمتعان بلوذعية فى فن تذوق الطعام - وما زالوا يعتقدون أن زيت الفقمة له قيمة علاجية. بل إن فى الولايات المتحدة الآن حكاية تروى أحيانًا تفوح منها رائحة الأشياء العتيقة.

كـان ديل رينز Dell Raines من جـزيرة مـاتينيكوس Matinicus Island رجـلاً أمضى حياته فى البحر. وكادت إحدى أسماك القرش أن تغرقه، وألقت به العاصفة من فوق السفينة، ونبذه جيرانه، وغرقت سفينة بسببه، وتشوه فى حادث من الحوادث فى البحر. وقد قال لى: "أعظم شىء فعلته فى حياتى هو أننى ربتٌ على رأس فقمة." ومضى فى كلامه ليروى كيف أنه خرج فى يوم من الأيام لصيد السمك ورأى فقمة صغيرة فى المياه القريبة من القارب. وبصبر وحرص لا متناهيين أخذ يدور بقاربه إلى أن صعدت الفقمة إلى سطح الماء بعد غطسة وكانت تنظر فى الناحية الأخرى. فمد يده وربت على رأسها التى كانت "تمامًا كأنها رأس طفل رضيع" قبل أن يغطس الحيوان المفزوع. فما الذى يجعل رجل بهذا القدر من التجارب الكثيرة يختار هذه الحكاية لهذه الذكرى الخاصة من ماضيه؟

وقد روى ستانلى هادلوك Stanley Hadlock من "سيل هاربر" حكاية أخرى:

**كانت هناك أسراب كبيرة من أسماك الرنجة تدخل الميناء كل صيف. وكان الناس فى المنطقة المحيطة يأخذون براميل منها عن طريق اجتذابها بالمشاعل وصيدها داخل السدود. وكان بعضها يبيعونه ليصنع من سردينًا، والبعض يجعلون منه طُعمًا لصيد الأسماك، والبعض الآخر يضعونه طُعمًا داخل سلال صيد الإستاكوزا.**

**فى أحد مواسم الصيف وصلت أسماك الرنجة مبكرة عن موعدها، ويوم وراء يوم امتلأ الميناء بها. لم يتذكر الصيادون أنهم أخذوا مثل هذه الأعداد الكبيرة من قبل. وفى ذلك الصيف دخلت الميناء فقمة أم ورضيعها وأكلت من أسماك الرنجة. وعادة عندما كانت حيوانات الفقمة أو أسماك البوارق أو الماكريل تأتى بعد الرنجة كانت الرنجة تهرب من الميناء ولا يستطيع أحد الحصول على شىء منها. إلا أن الأمر كان مختلفًا فى تلك المرة. فالفقمة بقيت فى الميناء وكان الصغير يلعب حول أمه وكانا يطاردان أسماك الرنجة ولكنها لم تغادر الميناء ولم يأت الماكريل ولا البوارق. وفى مواسم الصيف الأخرى كان هناك حشد كبير من حيوانات**

الفقمة فى الميناء وكانت أسماك الرنجة عادة ما تطرد، ولكن ذلك الصيف كانت هناك فقمة كبيرة وفقمة صغيرة وبقيت أسماك الرنجة. كان الناس قلقين من احتمال تضييع الفقمة للثروة، ولذلك حاولوا مطاردتها ولكنهم لم يحققوا نجاحًا كبيرًا. بقيت الفقمة و كانت تنبح ليلاً فى بعض الأحيان. وكان من الممتع مشاهدتها وهى تلعب إذا كان الكل غير مشغولين بالخطر الذى يحدق بالسردين.

أبلغ رجل سائر الرجال أنه سوف يتخلص من الفقمة، وفى ليلة مقمرة عمّر بندقيته ودخل الميناء بقاربه إلى أن رأى الفقمة الكبيرة وصغيرها جالسين على صخرة. سار بالقارب إلى أقرب مسافة جرؤ عليها ووضع المجدافين وأمسك بالبندقية. أطلق الخرطوشة الأولى على الأم فتدحرجت من على الصخرة ولم تظهر مرة أخرى. وهم بضرب الصغير كذلك، ولكن قلبه لم يطاوعه على إطلاق النار وضاعت الفرصة. غطس الصغير وراء أمه وعاد الرجل بالقارب وأبلغهم أنه قتل الفقمة.

طوال ثلاثة أسابيع كان الصغير يسبح فى أنحاء الميناء طوال النهار بحثًا عن أمه. كان يذهب ويعود، ويذهب ويعود، وفى الليل كان يصعد على الصخرة حيث قُتلت أمه ويضرع وينشج طوال الليل تمامًا كأنه طفل رضيع. بدا كأنه يزداد نحافة وضعفًا كل يوم ولم تكن تصدر عنه أصوات كثيرة فى أواخر الأيام. وذات صباح غادر الميناء. وغادرته أسماك الرنجة.

ومنذ ذلك الوقت حتى الآن لم تعد أية فقمة إلى الميناء. وبعد أن غادر صغير الفقمة ذاك أو اختفى، لم تدخل أسماك الرنجة الميناء مرة أخرى. مضى على ذلك زمن طويل الآن ولا يزال الميناء يخلو من أسماك الرنجة. شعر هذا الشخص الذى قتل الفقمة ببعض الضيق من ذلك وحاول الإمساك بالصغير ولكنه لم ينجح قط. فقد كان يبدو تمامًا كأنه طفل رضيع. وقرر ألا يقتل أية فقمة أخرى، وبالفعل لم يقتل أيًا منها قط. وقد كان ذلك الرجل هو أنا.

وبعد ذلك أبدى ملاحظة غريبة بقوله: "كنا أشعر دائمًا أن قتل الفقمة كانت له علاقة ما بأسماك الرنجة."

يمكن القول بأن الفقمة تتبع أسماك الرنجة، التى هى طعامها. ولم تأت حيوانات الفقمة مرة أخرى إلى الميناء وكذلك الرنجة. فبدون رنجة تأكلها الفقمة لم يكن هناك ما يدعو إلى عودتها. ومع ذلك هناك سؤال لا جواب له: ما الذى حدث؟ على أية حال كانت الرنجة تدخل الميناء لسنوات. وبينما كنت أستمع إلى الحكاية فهمت بالحدس أن الفقمة كانت مرتبطة ارتباطاً شديداً بالرنجة، وتسبب قتل أحدها فى إبعاد الآخر. ومن المؤكد أن هناك عنصراً سحرياً فى الأمر.

كما أشرت آنفاً، فإننا حين نبحث الجزء الخاص بالفولكلور عن الفقمة سرعان ما نعلم أن هناك مجموعتين مميزتين من المادة المتصلة بها. تتناول إحدى المجموعتين الفقمة فى العالم الآخر أو من الناحية الخارقة للعادة، بينما تتناولها الأخرى من الناحية المادية. ومن المؤكد أن المجموعة الأولى هى الأقدم وتشيع بين الناس الذين يعيشون بين حيوانات الفقمة ولكنهم لا يصطادونها باعتبارها مصدر دخلهم الأساسى. أما المجموعة الثانية فأحدث وتنبع من الناس الذين يصطادون الفقمة بصورة تجارية باعتبارها المصدر الرئيسى للربح الاقتصادى. وهذه الفئة الأخيرة من البشر لا تعيش عموماً على مقربة شديدة من حيوانات الفقمة، بل تذهب إلى أراضى الفقمة لصيدها. وقد يكون سكان جزر هيبريديز نموذجاً للمجموعة الأولى، بينما أهل نيوفاوندلاند نموذج للثانية. والمجموعة الأولى هى التى تهمنى باعتبارى باحث فولكلور.

كانت حيوانات الفقمة شائعة فى أمريكا الشمالية حين وصلها أول رجل أبيض، وبقيت على هذا الحال لبعض الوقت. كان الهنود يأكلونها بانتظام. ومع وجود تلك الأعداد، أخذ الأمريكيون يصطادونها، وبانتهاء القرن الثامن عشر كان صيد الفقمة قد صار عملاً نامياً ومزدهراً. وحين انفتحت التجارة مع الصين فى القرن التالى، أصبحت جلود الفقمة وزعانفها وزيتها سلعاً مرغوبة بالقدر الذى جعل الطلب على هذه المخلوقات يمتد إلى أنحاء العالم. وقد اكتشف ناثانييل بالمر **Nathaniel Palmer** وهو يبحث عن الفقمة فى مركبه الصغير "هيرو" **Hero** إحدى القارات، وهى القارة القطبية الجنوبية، واكتشف القبطان جراى **Captain Grey** نهر كولومبيا وفتح الباب أمام موارد ضخمة من الشمال الغربى بينما كان يقوم بنفس العمل.

لم يكن لدى الرجال الذين يقتلون حيوانات الفقمة بالآلاف كل عام الكثير من الوقت أو الربح الذى يحصلون عليه برواية الحكايات عن جوانبها شبه الإنسانية أو تشابهها مع العالم الآخر. فالواقع أن هذا قد يضر بالعمل. وبدلاً من ذلك كانوا يروون حكايات عن صيد الفقمة والعواصف وغرق السفن والتمرد ومصاعب حياة صيادى الفقمة. وهناك حكايات عن رجال تركوهم على الثلوج وعن كيفية بقائهم على قيد الحياة. وهناك حكايات عن البرد الرهيب، وكيف أنهم عثروا على أحد الصيادين مجمداً وبندقيته على كتفه وقادح البندقية فى وضع إطلاق النار على الفقمة التى تتمتع بقدر أكبر من المناعة ضد البرد. وبنفس القدر تقريباً من الإنسانية التى عليها هذه الحكايات كان هناك عدد من الحكايات التى تتناول المستجد الذى أصابه الذهول من جراء قتل قطيع من حيوانات الفقمة الذى رفض المشاركة فيه وكان لابد من إعادته للوطن بالخزى. أو الحكاية التى تروى أن رجلاً رفض قتل فقمة أم حتى يكبر وليدها بالقدر الذى يجعل له قيمة تجارية [٢]. وقد ابتكر أهل نيوفاوندلاند الذين لا يزالون يصيدون الفقمة مفردات يزيد عددها على العشرين تنطبق على أعمار وأنواع وظروف خاصة بالفقمة، وما يزيد على مائة كلمة تتعلق بصناعة الفقمة. ولكن يبدو أنهم يفتقرون بصورة كبيرة إلى الحكايات التى تكثر فى العالم القديم [٣] . وهكذا قضى حب المال على الخيال.

وتتعلق إحدى الحكايات المروية بسفينة اسمها **North Star.** وهى تمثل عدداً من حكايات صيد الفقمة، وسوف يلاحظ القارئ أنها لا تختلف عن الحكايات التى رويت عن صيادى الأسماك.

كانت العادة هى التوجه شمالاً إلى الثلوج والرسو بجوار طوف جليدى. وبعد ذلك كان الرجال ينزلون على الشاطئ لقتل حيوانات الفقمة على الثلوج بضربها على أنوفها بهراوة أو ضربها بالأقدام حتى الموت. وأثناء وجود الطاقم هناك كان من المعتاد إطلاق الصفارة لكى ينزل الثلج أو يزداد كثافة بحيث يمكن للرجال العودة إلى القاعدة، ذلك أنه كان من الحظ العاثر أن يُترك المرء شارداً على طوف جليدى. وإذا كانت هناك سفينة أخرى على مقربة فإنها تطلق صفارتها كذلك إذا كان الرجال يصيدون، حتى وإن لم يكونوا رجالها.

ذات مرة كانت السفينة North Star عند الثلوج وكان أغلب طاقمها على الشاطئ يقتلون حيوانات الفقمة حين ساءت حالة الطقس. اضطرت السفينة للخروج إلى البحر تاركة وراءها خمسة وسبعين رجلاً على الطوف الجليدى. وظل الجو على سوئه ومرت ثلاثة أيام تقريبًا قبل أن تتمكن السفينة من العودة. وحين عادت وجدت سبعين رجلاً مجمدين، ولكنها لم تعثر على الخمسة رجال الباقين. حملت السفينة موتاها وعادت إلى سانت جونز فى نيوفاوندلاند.

فى العام التالى ذهبت السفينة إلى الثلوج مرة أخرى، وفى تلك المرة كانت هناك سفينة أخرى. رست North Star فى وقت متأخر من النهار، وبدأت السفينة الأخرى فى إطلاق صفارتها وأطلقت القادمة الجديدة صفارتها. وبعد فترة توقفت السفينة الأخرى عن إطلاق صفارتها وكذلك فعلت North Star .

فى اليوم التالى صعد قبطان North Star على متن السفينة الأخرى والتقى بربانها الذى نظر إليه نظرة غريبة ثم علق قائلاً إن ضيفه حتمًا متعطش للجلود.

"كيف ذلك؟"

"ما إن رسوت حتى أطلقت رجالك على الثلوج وقد أوشك الظلام على الحلول. وهاهم لم يعودوا وقد حل الليل تقريباً."

"لم يكن لى رجال بالأمس على الثلوج. لقد أطلقت صفارتى فقط لأنك كنت تطلق صفارتك."

"بلى فعلت ذلك. إن لك خمسة رجال فى الخارج. لقد رأيناهم على متن السفينة."

شاع الخبر. كان هناك خمسة أشباح على متن .North Star وعادت إلى الميناء ولم يكن بالإمكان العثور على بحارة لتسييرها. غيرت أشرعتها، وغيرت لونها، وغيرت اسمها والميناء المسجلة فيه، وحتى الآن لم يدخلها أحد. وأخيراً بيعت فى الجنوب لتصبح سفينة صيد سمك. ولكنها لم تجد حظها هناك كذلك(٤) .

في نيوفاوندلا تعد الفقمة محفزاً لأنواع أخرى من الحكايات؛ وخاصة حكايات غرق السفن، ذلك أنه من الواضح في ذلك البلد أن كوارث صيد الفقمة تعادل الكوارث التي عاني منها أبناء جلوسستر في جورجيز بانك. ويتذكر الناس كارثة ٩٨ حين أبعدت عاصفة رهيبة السفينة Greenland عن الثلوج مخلفة وراءها ثمانية وأربعين رجلاً ليموتوا متجمدين. وفقد بعض الذين أنقذوا عقولهم وأمضى آخرون بقية حياتهم مقعدين. وسوف يروون حكاية السفينة Newfoundland التي فقدت حوالي ثمانين رجلاً في الضباب الأبيض الكثيف. البعض تجمد واقفًا، وسقط الآخرون في الصدوع الجليدية المفتوحة وغرقوا. أو ربما سيحكون عن السفينة Southern Cross التي غاصت إلى القاع بكل بحارتها وعددهم ١٢٧ وثروة من جلود الفقمة(٥) .

لا تروى هذه الحكايات وحسب، بل إن هناك رجالاً رأوا أشباح هذه السفن. فقد شوهدت Newfoundland على بعد مئات الأميال من المكان الذي شهد ما وقع لها في نفس يوم وساعة الكارثة. كما شاهد صيادو الفقمة السفينة "Southern Cross بيضاء لامعة" لعدة سنوات وهي تسير في المياه الواسعة، وعادة ما كانت تقع كارثة في أعقاب ظهورها(٦) .

لابد لنا من الاتجاه إلى العالم القديم كي نعثر على مأثورات الفقمة كما كانت في الماضي؛ أي إلى جزر شتلاند وأوركني Orkneys وهيبريدز والساحل الغربي البري من أيرلندا. وحتى في هذه الأماكن، حيث تتغير الأشياء ببطء، تتلاشى المعتقدات والحكايات الخاصة بالفقمة بسرعة كبيرة. وتحدث ديفيد طومسون David Thoson في كتابه الرائع People of the Sea [ أهل البحر ] عن أحذية تصنع من جلد الفقمة الأخضر. وفتشت طوال أربعة مواسم من جزر شتلاند جنوبًا حتى ميزن هيد Mizzen Head في أيرلندا دون أن أعثر على زوج واحد منها. وعثرت في آران Aran على حذاء البامبوتي pampooties ( ويصنع من جلد البقر الأخضر ) ولكنه ليس الصنف الأصلي. إلا أنه كان شائعًا قبل خمس وعشرين سنة!

ربما كان وراء كل مأثور من مأثورات الفقمة حقيقة مفادها أنه يعتقد أنها أطفال الملك لوخلان King Lochlann الأسطوري(٧) . ويبرر هذا قدراً كبيراً من قدرتها

الخارقة وخصوصًا ارتباطها بالبشر. فهي تصبح حيوانات أليفة مدهشة، كما أن خواصها الفيزيقية وشخصيتها جذابة. ومن بين كل مخلوقات الجزر الشمالية، حيث لم يكن يوجد قرود قط، وحيث الدببة قد اختفت منذ زمن بعيد، تشبه الفقمة الإنسان إلى حد كبير. ذلك أنها ترضع صغيرها وهو على صدرها، وهي اجتماعية إلى حد كبير، وترقد على الصخور الدافئة في الشمس كما يفعل المصطافون على البلاج. ولابد من تعليم الصغير السباحة. كما أن لديها حب استطلاع لا ينتهي. ولها عيون مدهشة وإن لم تكن في وجوه بشرية. وهي تنشج وتبكي - الصغار منها - مثل أطفال البشر، كما تذرف الدمع، وتنبح كالكلاب، وتغني في بعض الأحيان. وهي برأسها المستدير قد يخالها الناظر إليها في الماء إنسانًا يسبح.

وهناك جانب آخر يتعلق بالقمة يعلمه الصيادون جيدًا. فهناك اعتقاد شائع بين الإسكوتلنديين والأيرلنديين بأنها شرسة وتعض. وحين تطبق أسنانها على شخص فإنها لا تتركه إلا وقد سمعت عضمه يطقطق[٨]. ولإبطال مفعول هذه الصفة عادة ما يخرج الصيادون مزودين بجوارب مليئة بقطع الفحم. وحين يلقون هذه الجوارب للفقمة تظن أن لديها ذراع مُعَذِّبِها أو ساقه فتقضمها بدلاً من قصبة الساق. وما إن تسمع الفقمة القرقشة حتى تتركه. وفي تلك الأثناء إما أن يضربها الصياد على أنفها بهراوة أو يركلها حتى الموت في نفس المكان. ومما يؤسف له أن الفقمة لا تُقتل دائمًا بهذه المعالجة وتستعيد وعيها بعد أن تُسلخ. وبينما يطلق المخلوق المخيف صرخات رهيبة يدفع بنفسه عبر الصخور ويسقط وهو غارق في دمه في البحر البارد القاسي ليموت[٩].

هناك إيمان بقدرة حيوانات الفقمة على تحويل نفسها إلى كائنات بشرية على البر ثم عودتها إلى نواتها القديمة في البحر. كما يُعتقد أنها حين تكون في الهيئة البشرية تتخذ شكل أسلاف عائلتين، هما عائلة ماكودرام **McCodrums** في إسكوتلندا وعائلة كينيلي **Keneellys** في أيرلندا. ويقال إنها تبكي وتتحدث وتتنبأ وتأخذ الأتاوات وتقدم العون وتتعاطف. وهي قادرة على الانتقام الرهيب. ولا تختلف قدراتها السحرية عما تتمتع به الجنيات وعرائس البحر من قدرات. وقد أخذت مصداقية الجنيات وعرائس

البحر فى التلاشى، وباتت المعتقدات والصفات التى كانت تتصل بها فى يوم من الأيام ملتصقة بالفقمة.

قد يكون أكثر المعتقدات الخاصة بالفقمة شيوعًا هو ذلك الذى يسميه باحثو الفولكلور "الجلد المطروح". إذ يُعتقد أن الفقمة يمكنها فى أوقات معينة نزع جلدها والسير بين البشر كأنها كائن بشرى. وهى، كشأن عرائس البحر، يزعجها الجرس والكتاب والشمعة، ومُحَرَّم عليها دخول الكنيسة، ذلك أنه بما أنها حيوانات فقمة فهى ليست لها أرواح؛ ذلك أن هذه الميزة لبنى البشر وحدهم. وكما هو الحال بالنسبة لمعطف عروس البحر، هناك اعتقاد بأنه إذا أخذ شخص ما الجلد الذى تطرحه الفقمة فإنها تظل على هيئتها البشرية إلى أن تستعيد جلدها مرة أخرى لكى تستطيع العودة إلى البحر. وفى تلك الأثناء تكون أَمَة لمن عثر عليه.

من الصعب معرفة سبب شيوع الإيمان بالرداء السحرى أو الجلد المطروح فى الفولكلور الشمالى، أما فى حالة الفقمة فيمكننا المغامرة بتخمين ما. وتكمن الإجابة فى نقطتين تتناول أولاهما الجانب العملى الذى يراه الصياد. فإذا كانت الفقمة تعود للحياة وتزحف عائدة إلى البحر بعد ركلها فى الوجه وسلخ جلدها، فلماذا لا تفعل هى ذلك بنفسها فى أوقات مناسبة أكثر؟ بل إنه إذا كانت سليلة ملك لوخلان ولها بالفعل صلات بالعالم الآخر، فلما لا تحوِّل نفسها؟

هناك إجابة محتملة أخرى تكمن فيما يتفتق عنه ذهن الناس، وهى من العمق بحيث قد لا يتعرفوا عليها. فقد تكون الإجابة هى أن جزءًا على الأقل من أصل فكرة طرح الفقمة لجلدها يعود إلى التفسير الشعبى لأحداث معينة فى التاريخ. وإذا كان الأمر كذلك، فهى قديمة جداً.

تحب الفقمة الخروج على الصخور المشمسة الدافئة وتغفو وتريح نفسها من البحر. وبما أن الإنسان يشكل تهديداً لها فهى تميل إلى اختيار أماكن يصعب بلوغها حيث تتمكن من رؤية الخطر القادم. ومن بين هذه الأماكن الصخور المقابلة للشواطئ

والجزر الصغيرة التى لا يسكنها البشر. وحتى فى وقتنا هذا يمكننا فى الطقس الصافى رؤية مجموعات صغيرة من الفقمة تنعم بدفء الشمس على الصخور، حيث تكون فى مأمن معقول من أى هجوم يشنه البشر عليها.

منذ القرن الثامن حتى القرن العاشر كان معظم سكان أوروبا المتمدينة يرتعدون أمام غضب أهل الشمال الذين كانوا يشنون غارات تصل حتى البحر المتوسط والبحر الأسود جنوبًا، وربما حتى سواحل أمريكا الشمالية(١٠) . وكان من سوء حظ الجزر البريطانية وأيرلندا أنها تقع على مقربة من موطن الفايكنج. وكان هؤلاء الناس يتدفقون كسياح احتشدوا على بقعة من الشاطئ، وكانت غاراتهم من التدمير والمفاجأة ما يجعل الناس يدعون قائلين: "اللهم احمنا من غضب أهل الشمال."

كان التكتيك المستخدم عادة هو الهجوم البرمائى فى الفجر على القرى والدساكر على طول الشاطئ. وكان المغيرون يمسكون بالأسرى ويستولون على الماشية وكل ما يجدون أنه ذو فائدة ويرحلون. وكانوا يشنون غاراتهم فى الصيف، ذلك أن بحر الشمال ليس صالحًا للملاحة فى الشتاء. وإذا كانت تكتيكاتهم كتكتيكات سواهم من الجماعات المحاربة فإنهم كانوا سيقومون أولاً بعمليات استطلاع ثم يهاجمون بعد معرفة أين تكمن نقاط قوة القرية ونقاط ضعفها. وللحصول على تلك المعلومات كانوا سينزلون رجالاً على الصخور المقابلة للشاطئ حيث يمكنهم مراقبة البلدة بينما يأتى المغيرون ليأخذونهم بعد حلول الظلام. وكان الشيء المهم هو ألا يكتشفهم أحد. وما إن يتم استيعاب المعلومات حتى يشن الهجوم.

والحقيقة المعروفة هى أن البدائيين كانوا يتنكرون فى هيئة الحيوان أثناء الحرب والصيد. وكان الهنود الأمريكيون والإسكيمو يتنكرون كذلك. فكان الهنود يرتدون جلد الذئب وجلد الغزال حين يصطادون أو يقومون بعمليات استطلاعية، وكان الإسكيمو غالبًا ما يرتدون جلد الفقمة للتمويه عند تعقبهم الفقمة والدب القطبى. ولذلك كان طبيعيًا أكثر بالنسبة للفايكنج أن يتنكروا فى هيئة الفقمة عند مراقبتهم العدو من على الصخور. فما الذى كان أكثر طبيعية بالنسبة للضحايا من أن يربطوا بين الفقمة

والرجال؟ فهم في يوم ما يرون الفقمة على الصخور وفي اليوم التالي يهاجمهم أناس لا يكنون أي احترام للكنيسة. وبعد الهجوم يعثر شخص نجا من الهجوم على جلد فقمة على الصخرة، دون أن تكون هناك فقمة. وهنا تبدو الصلة واضحة (١١).

وحظيت هذه الفكرة بدعم إضافي من حقيقة أن قصص الفقمة ترتبط بصورة أو بأخرى بإسكاندنافيا، وهو ما يتضح فيما يلي.

كان أحد سكان جزيرة شتلاند في طريقه إلى سفينة صيد السمك الخاصة به ذات صباح حين رأى فجأة ذكر فقمة كبير الحجم نائمًا على صخرة. زحف الصياد في اتجاهه واستل سكينه وطعنه. ولكن التصويب لم يكن دقيقًا؛ إذ جرح ذلك المخلوق بدلاً من قتله فانطلق متثاقلاً متخبطًا والسكين ما زال في جسمه ونجح في العودة إلى البحر.

بعد ذلك بوقت طويل أخذ ذلك الصياد سفينته واتجه إلى النرويج لشراء بعض الأخشاب. وحين رسا دخل أحد المنازل حيث رحبوا به وأجلسوه. وحين نظر لأعلى رأى سكينه - أي ذلك الذي تركه في جسم الفقمة - ملتصقًا بأحد عروق السقف. ظن لبرهة أن أمره انتهى، ولكن النرويجي نهض وسحب السكين وأعاده إليه. وكان كل ما فعله الشمالي هو أن طلب منه ألا يطعن حيوانات الفقمة النائمة في المستقبل (١٢).

وأنا بطبيعة الحال لا أعني بـ"الجلد المطروح" السلخ، بل القدرة على خلع الشخص لجلده بإرادته. والحكايات التالية نماذج ممتازة للنوع الذي في ذهني، بل إنها تتضمن موضوعات عديدة من مأثورات الفقمة في كل حكاية، وتبين في الوقت ذاته تشابه حكايات الفقمة مع تلك الحكايات المتعلقة بعرائس البحر.

كان يعيش في نورث ويست North Uist في يوم من الأيام رجل يسمى رد رودريك الفقمي Red Roderick of Seals . وفي ليلة من الليالي كان يصيد السمك على إحدى الصخور حين سمع أحلى موسيقى تقع على مسمعيه في حياته. كانت خارقة للعادة في حلاوتها بالقدر الذي جعله يتتبع الصوت حتى بلغ موسيقيًا يعزف ومجموعة من الناس ترتدي ملابس رائعة يرقصون على أنغامه. ورأى بالقرب منهم في ضوء القمر عدداً من

الحزم السوداء ، والسوداء والبيضاء حسبها جلود بقر. فما كان إلا أن أخفى أحد تلك الجلود تحت معطفه.

توقفت الموسيقى فى النهاية وذهب الراقصون إلى مخبأ جلودهم، حيث خلعوا ملابسهم وارتدوا الجلود. وحين فعلوا ذلك تحولوا إلى حيوانات فقمة رمادية ضخمة نزلت من على الصخرة إلى البحر. فعلوا جميعًا ذلك ما عدا فتاة جميلة كانت تجرى هنا وهناك مرعوبة تبحث عن جلدها وهى تتنهد بطريقة تثير الشفقة طوال الوقت.

كان جمال الفتاة شديداً وكانت صرخاتها تثير الشفقة حتى إن رودريك تأثر بها وسألها عن خَطْبِها فقالت له إنها فقدت رداءها. قال لها رودريك إنها إذا ذهبت معه فسوف يأتى لها برداء أفضل بكثير من المدينة، فذهبت معه.

أخبرته الفتاة أنها ابنة ملك الأمواج وأنها مسحورة. وقالت إن زوجة أبيها أمرت بتركها على الشاطئ بعد أن ضربتها بعصا سحرية وقد صادقتها حيوانات الفقمة.

تزايدت مشاعر الرجل نحو الفتاة. وقد أُتى بقس لتعميدها، وتزوجا وعاشا فى سعادة لسنوات يرعيان عائلة من الأطفال أقوياء البنية. إلا أن الفتاة شعرت فى النهاية بالوحدة واشتاقت إلى حياتها القديمة وأصدقائها والرقص فى ضوء القمر وطلبت استعادة جلد الفقمة الخاص بها. قالت الفتاة إن حيوانات الفقمة لن تلمسها ولن تساعدها لوجود "الماء المقدس على وجهى وجبهتى". ثم طلبت من زوجها ألا يقتل أى فقمة خوفًا من أن تكون هى أو أمها أو شقيقها. وافق الرجل أسفًا. وفى تلك الليلة رقصت فى ضوء القمر مع أصدقائها القدامى، وإن لم يلمسها أحد "لوجود الماء المقدس على جبهتها" (١٢).

تروى حكاية مشابهة إلى حد كبير كيف أن ثلاثة من صيادى الأسماك أمسكوا بثلاث نساء فقمات عن طريق الاستيلاء على الجلود بينما كن فى هيئة بشرية. ورغم عروض الزواج كانت النسوة حزينات. فأعاد الأخ الأصغر لامرأته جلدها بعد ليلة واحدة. وعلى الفور تحولت المرأة إلى فقمة وعادت إلى البحر، ولكنها كانت تعود كل

تسع ليال للتسرية عن الرجل وتأتى له بالهدايا. أما الأخوان الآخران فقد ظلا يخبئان جلدا زوجتيهما اللتين أصبحتا أَمَتين ذليلتين. وفى النهاية عثر أطفال إحداهما على جلد أمهما فارتدته واختفت فى البحر للأبد تاركة أطفالها وزوجها وبيتها. ولمنع تكرار ذلك، قرر الأخ الثالث حرق جلد امرأته. وحين ألقى به فى النار انفجر وأحرق منزله وزوجته كذلك (١٤).

أما القصة الثالثة فتأتى من القصيدة الغنائية "فقمة جزيرة الفقمة الكبيرة" The Great Silkie of Sule Skerry (١٥) التى جُمعت فى شتلاند ولها شبيهة فى إسكندنافيا. فى هذه النسخة تلد امرأة طفلاً دون أن تعرف مَن أبوه، إلى أن يأتى إلى فراشها ذكر فقمة رمادى ضخم ويخبرها بأنه الأب ويريد الطفل. "أنا رجل على الأرض، أنا فقمة فى البحر." وبعد ذلك تنبأ بالمستقبل، ذلك أن الفقمة أحياناً لديها القدرة على التحول. سوف تتزوج الفتاة جندى مدفعية سوف يقتله هو وطفلهما:

**وسوف تتزوجين مدفعيًا رائعًا**
**وأنا متأكد أنه سيكون مدفعيًا رائعًا**
**وبئول طلقة سوف يطلقها**
**سوق يقتل ابنى الصغير ويقتلنى.**

وقد تحقق ذلك.

والفكرة الأخرى الشائعة فى إسكوتلندا بين العاملين فى البحر هى أن الزوجة الشريرة بعد أن حولت أبناء زوجها إلى حيوانات فقمة أضافت لمسة أخرى، إمعاناً منها فى الشر. ذلك أن يكتسب هؤلاء الأطفال التعساء بطريقة آلية الهيئة الآدمية ويسيرون بين الناس ثلاث مرات فى العام، عند اكتمال القمر. وبذلك يصبحون أكثر قدرة على إدراك مدى روعة العالم الذى حُرِموا منه؛ ومن الواضح أن هذه فكرة عتيقة.

هناك اعتقاد بأن هؤلاء البشر المسحورين قادرون على مصادقة البشر بطرق عديدة. إذ يمكن للصيادين على البر معرفة أن عاصفة ستهب "عن طريق أنين الفقمة

وصراخها"[١٦]. وفى البحر، وعند ملاحظة تصرفاتها الشاذة ومراقبة المسار الذى تسير فيه، لم يكن يمكنهم فقط التنبؤ بحالة الطقس وحسب، بل كان بإمكانهم كذلك التنبؤ بالمكان الذى يذهبون إليه فى رحلة مربحة. وعلى مستوى أعلى من ذلك، كان يُعتقد أنها ترضع الأطفال، وحين تدعو الضرورة تساعد المكروبين، بل تحمل إلى البر من غرقت سفنهم أو جنحت[١٧]. ويحكى ديفيد طومسون قصة توضح إحدى هذه النقاط بطريقة مثيرة للإعجاب.

كان من المفترض أن عائلة اسمها جريجان Gregan تتمتع بهبات خاصة لأن واحداً من أفرادها "فعل خيراً كبيراً للجنيات". وقد خرج خمسة منهم فى سفينة لصيد السمك وحاصرتهم عاصفة شديدة. وكانت الريح من الشدة بحيث كان كل ما يمكنهم عمله هو أن يتركوا أمر قاربهم الخفيف للبحر والأمل.

وحين انتهت العاصفة كانوا يطفون ولكن لم يكن هناك أثر لليابسة فى مرمى البصر، ولم يكونوا يعرفون أى طريق يسلكون إلى أن ظهرت فقمة أعطوها سمكًا وسارت فى اتجاه معين وقرروا هم اتباعها، وهو ما فعلوه إلى أن أُنهكوا ولم يعد فى مقدورهم المضى أبعد من ذلك، فاستلقوا فى القارب.

فى تلك الأثناء سبحت الفقمة إلى الشاطئ وأطلقت صرخة عالية أثارت انتباه حارس الفنار. أخذ الحارس يجول ببصره فى البحر إلى أن لمح القارب الذى يسير على غير هدى وأنقذ الرجال الذين عادوا لبيوتهم فى الليلة التى أقيم فيها العزاء لموتهم[١٨].

و نلاحظ حين تروى الحكاية ميلاً قويًا للربط بين الفقمة والجنيات، إن لم يكن باعتبارها نفس الكائن فبالتأكيد بصفتها كائنات متصلة ببعضها اتصالاً وثيقًا فى أذهان الناس.

ولا تأتى الفقمة للناس بالأسماك كما كانت الجنيات تفعل وحسب، ولكنها كانت مرتبطة بماشية البحر بنفس طريقة ارتباط سكان البحر الذين كانت لديهم قطعان

كبيرة تعطى حليبًا دسمًا من ناحية، وتحطم البلاد عند الإساءة إلى أهل البحر من ناحية أخرى. بل إن للفقمة حبًا للحليب أشبه بحب الجنيات له (١٩).

رست سفينة شحن نرويجية على جزيرة بابا ستور Papa Stour في جزر شتلاند وكانت فى خراب تام. دفع أحد أبناء الجزيرة للربان ثمنًا هزيلاً للحطام ولعنه القبطان. بعد ذلك بدأت فقمة تأتى إلى الجزيرة، وفى كل مرة تأتى فيها كانت بهيمة من بهائم المزارع تموت. حاول المزارع قتل الفقمة ولكنه لم يستطع ذلك قط، وفى النهاية وقد بات قاب قوسين أو أدنى من الخراب، غادر الجزيرة (٢٠).

كنا نتحدث حتى الآن عن حيوانات الفقمة الحية، غير أن تلك الميتة لها قدرات كذلك وكان أغلبية رجال الجزر يصطادونها بأعداد قليلة، وكان ذلك فى العادة إما لأكلها فى أوقات الشدة، أو من أجل أجزاء كثيرة من أجسامها كانوا يعتقدون أن لها خواص سحرية. أما اليوم فنادراً ما يصطادونها بحال من الأحوال.

تكون الفقمة عاجزة نسبيًا على البر ويسهل قتلها. والقتل لمن رأوه بالطبع منظر رهيب ومحسوب بشكل جيد بحيث يصنع الأساطير والحكايات. وقد يظن ظان أن الحكايات الناشئة عن مصدر كهذا هى على أقل تقدير قصص انتقام، غير أن هذا ليس صحيحًا بالمرة، ذلك أنه من الواضح أن هناك اعتقاداً بان الفقمة مخلوق متسامح. ورغم انتقام الفقمة فى بعض الأحيان، فهى فى الأغلب تتحمل فظائع البشر بسلبية أو يكون لديها أمل فى مستقبل أفضل.

خرج رجل فى يوم من الأيام لصيد الفقمة وقتل العديد منها وسلخه فى الحال. فكر فى أن يعود إلى بيته بواحد من الحيوانات التى قتلها، ولذلك ربط زعانفه معًا بغصين لين وذهب لاصطياد غيره. وبينما كان غائبًا استعادت الفقمة وعيها إلى حد ما وعادت إلى الماء. عاد الصياد ولم يجد أى أثر للحيوان واستنتج أنه سقط من على الصخرة ومات. فى وقت لاحق حاصرت عاصفة صياد السمك وأخرجته عن مساره. رأى أرضًا ورسا على البر وقدم له رجل التقى به هناك وجبه جيدة. وبعد الأكل أبلغه مضيفه أنه ذات يوم وضع غصين لين حول يديه (٢١).

من الأشياء التى كان البحار يحب الحصول عليها من الفقمة زعانفها. وكان يأكلها فى بعض الأحيان، ولكن الزعنفة اليمنى لها صفات خاصة. فقد كان هناك اعتقاد شائع بأنه حين تصنع حافظة نقود من هذه الزعنفة فإن صاحبها لا يغرق، كما كان يُعتقد أن لون الحافظة يشير إلى حالة المد والجزر.

الشىء الآخر الذى كانت الفقمة تُقتل من أجله هو زيتها. فلأسباب غريبة يبدو أن الشحم والزيوت عمومًا تحظى بتقدير كبير من الناس. وفى المناطق والعصور الأكثر بدائية كان للدهن البشرى فوائد خاصة. وكان الريفيون يعتقدون أن دهون الدب والإوز والظربان الأمريكى والثعابين والخنازير لها جميعًا فوائد طبية. بينما كان يسود اعتقاد بين العاملين فى البحر بأن زيت الحوت والأسماك - وخاصة زيت كبد القُد - ذات قيمة علاجية كبيرة. وكان ذلك يصدق بصورة خاصة على زيت الفقمة، غير أنه فى هذه الحالة يبدو اختيار الحيوان وإعداد الزيت مهمًا لما له من قيمة.

كانت الفقمة الصغيرة تعتبر عادة أفضل نوع يمكن الحصول عليه من أجل زيتها ومن أجل جلدها الأبيض الذى كان كثيراً ما يرتدى على هيئة سترة. وما إن يصطادوا الفقمة حتى تُسلخ وينزع منها الشحم. وبعد ذلك يعد الزيت بإحدى طريقتين مختلفتين. ويذكر طومسون استخراج الزيت بحجارة خاصة(٢٢) . وقد قيل لى فى هيبريديز إنه يعد إما بإذابة الدهن فى قدر على نار هادئة أو باستخراجه فى الشمس. إذ تعلق الفقمة المسلوخة ورأسها لأسفل وتدار أو يُسمح لها بالدوران فى الهواء. ومن خلال تأثير الشمس يتحول الدهن إلى زيت ويتساقط ويُجمع فى قدر. ويعتقد كثيرون أن هذه الطريقة الأبطأ تنتج أفضل زيت. فهو على عكس المنتج المغلى يكون صافيًا وفى لون الكهرمان.

ويعتبر الزيت الذى يُجمع بهذه الطريقة شديد القوة ولابد من تناوله بمنتهى الحرص. وأخبرتنى امرأة عجوز فى بنبيكولا Benbecula أن شقيقها اشتد عليه المرض ويئس الأطباء من شفائه. وأثناء تلك الأزمة اصطادوا فقمة واستخرجوا زيتها (بطريقة الشمس) وأعطوه للرجل المريض. فى البداية كان يتحمل نقطة واحدة، ثم نقطتين وهكذا

إلى أن استطاع فى النهاية تناول ملء ملعقة صغيرة في كل مرة. وكانت صحته تتحسن مع تزايد الجرعات إلى أن استرد عافيته بالكامل فى النهاية.

ويبدو أن للزيت نفس الفاعلية عند استخدامه من الظاهر. فقد أبلغنا إخبارى أيرلندى كيف أنه عالج ركبة ملتوية بشدة ومتورمة بزيت الفقمة. فقد خف الورم خلال بضع ساعات واستطاع المشى بحيوية كما كان. والعيب الوحيد هو رائحة الزيت الرهيبة التى استدعت تغيير كل ملابسه وحتى ملاءة السرير.

منذ سنوات ليست بالبعيدة قتل رجل من جزر هيربيديز الخارجة فقمة رضيعة وذهب بها إلى بيته وسلخها. قطع المخالب الصغيرة. وثبت جلدها الأبيض الصغير الذى يغطيه الدم على لوح لتجفيفه وألقى بالجثة المشوهة على كومة قمامة. فى تلك الليلة أيقظت الرجل من نومه ضجة رهيبة: كانت صراخًا وأنينًا. كانت الفقمة الأم خارج المنزل بجوار الجلد تبكى على صغيرها الميت. وتكرر صراخها مرات ومرات "كل ما أريده هو فلورا ذات المخالب الصغيرة. أعيدوا لى المخالب الصغيرة." (Spog fine ghael, spog fifi fineghael.)" واستمر الحال على ذلك الليلة بعد الأخرى إلى أن عادت الأم التى اعتصرها الحزن إلى البحر واختفت. ولم يقتل الرجل أية فقمة بعد ذلك [٢٣].

وفى دنجل Dingle، حكى لى أنا وزوجتى رجل حكاية أخرى عن قتل الفقمة قال إنها وقعت له. وقد سبق الحكاية بقوله إنه يعتقد أن الفقمة بشر تحت جلد حيوان، وأن لها أطفال آدميين تحت البحر، وأنها تترك بيوتها وتخرج على البر فى هيئة الفقمة. كما أخبرنا بأن الاسم rona نفسه يشبه الكلمة rune ومعناه السر. وقال إنهم عمومًا يعتقدون أنه إذا قتل شخص فقمة فإنه يصاب بالجنون. ولم يكن الإخبارى الذى تحدث إلينا هو وأصدقاؤه يؤمنون بهذا، ولكنهم يؤمنون بأن حيوانات الفقمة بشر مسحورون ذوو قوة خارقة كبيرة. وفى يوم من الأيام خرج هو وأصدقاؤه لصيد السمك ولم يصطادوا شيئًا، غير انهم لاحظوا آلافًا من حيوانات الفقمة على بعض الصخور وقرروا قتل واحد منها. وحين اقتربوا نزلت الحيوانات جميعها الماء ما عدا ذكر كبير بقى على الصخور، وقد ضربوا ذلك الذكر "ضربة رهيبة" بمجداف وقتلوه.

كان ذكر الفقمة أكبر من أن يضعوه فى قاربهم الخفيف. وكان عجوزاً جداً وجسمه مغطى بالرخويات والقشريات وكان لابد من سحبه إلى أقرب شاطئ كى يضعونه على القارب.

وفى النهاية قطعوا رأسه وذيله ومددوا الجزء الأوسط على القارب بحيث كان الطرفان فى الماء. كان الدم يتدفق من الفقمة وصبغ البحر بالحمرة.

وبينما كانوا عائدين ظهرت كل حيوانات الفقمة التى كانت على الصخور من جديد وسارت وراء القارب كأنها بشر يسيرون وراء تابوت. كانت تئن وتصرخ وتلمس الجثة وهم فى طريق العودة. ولكن الرجال تمسكوا بالفقمة رغم احتجاجات شعب الفقمة واتجهوا إلى جريت بلاسكيت Great Blasket ( ورجال القارب يجدفون بسرعة ست وثلاثين ضربة مجداف فى الدقيقة)، حين ظهر وحش بحرى فجأة وراءهم. شعر الرجال بالرعب وأقسموا أنهم إذا بلغوا الشاطئ لن يقتلوا فقمة أبداً. وكان الجمع الباكى يتبعهم طوال الطريق إلى البر. وحين رسا الرجال ألقوا ما بدا أنه ملك الفقمة الميت. وأخذوا قليلاً من دهنه لعمل الزيت وعادوا إلى بيوتهم وأوفوا بعهدهم.

ووقوع هذا الحدث بالفعل أم عدمه مسألة لا تهم. فالمهم هو هذه الأفكار التى لا تزال الفقمة تثيرها فى أذهان الناس.

تحدثت فى موضع سابق من هذا الفصل عن علاقة الفقمة بالموسيقى. وهناك اعتقاد بأنها مسحورة بحيث تسمع الموسيقى وتتبع صوت المزمار أو الفلوت، تماماً مثلما يُستدعى الشبح بالموسيقى. ويحكى رجل كيف أنه رأى فقمة وعزف لها المزمار فاستدارت واتبعت القارب. جدف الرجل بكل قوته فزادت الفقمة من سرعتها. وبعد ذلك وضع المجدافين جانباً وظل ذلك المخلوق، الذى كان يستمع كثيراً بالموسيقى لمسافة "نصف طلقة مسدس" من القارب قبل أن يكتشف خطأه ويطلق هو النار عليها. غاصت الفقمة فى الماء وظن هو أنه قتلها لأنه "لم يرها مرة أخرى" (٢٤).

ويقال كذلك إن الفقمة تغنى، وقد سُجلت "الأغنية" الخاصة بها وكُتب مقال عنها فى مجلة "جمعية الرقص والغناء الشعبى الإنجليزى" English folk Dance and Song Society (٢٥).

لقد وقف شعر رأسي ثلاث مرات في حياتي: مرة حين عوى ذئب عبر بحيرة جليدية في القارة القطبية الجنوبية في ليلة أضاءها القمر منذ سنوات عديدة، ومرة في موراي فيرث Moray Firth حين سمعت صراخ أو غناء فقمة ضخمة. (والمرة الثالثة حين أصبحت فجأة وجهًا لوجه أمام دب محنط في قاعة مظلمة في ليلة من الليالي.)

لم تكن هناك رياح، وبدلاً من أن نضيع الوقود بلا جدوى ونحن نسير في مد معاكس، ألقينا المرساة على الجانب المقابل للريح من جزيرة فيدرا. كان الجو من السكون بحيث يمكنك سماع صوت الأمواج الخفيفة تضرب في الصخور على بعد نصف ميل. وفجأة في حوالي الساعة العاشرة انطلق صوت رهيب جاء عبر الماء. وقد رد عليه صوت آخر وآخر. لقد كان يشبه صوت البانشي(*) banshee كما تخيلته دائمًا، حتى إنني حين أفقت من الصدمة الأولى ظننت أنه لابد من حدوث هزة على البر، غير أن البر (فيما عدا الجزيرة) كان على بعد عدة أميال وكان بعض الأصوات يأتي من ناحية البحر. كان نداء وحشيًا ووحيداً لا يختلف عن نداء طائر الغواص السامك والبومة المقرنة. ورغم نوعيته الغريبة فقد كان موسيقيًا بالقطع، وفي وقت لاحق علمت أنها "أغنية" الفقمة.

ورغم تداخل الصوت مع أصوات طيور النورس والأصوات المعتادة المصاحبة للحياة على متن السفينة، فقد استمر وقتًا من الطول بما يكفي، وكان له جَرْس كاف، بما يسمح بتسجيله. ولو لم نفعل ذلك لما كانت لدى الجرأة لكي أعلق عليه هنا.

ذكرت من قبل أن حكايات الفقمة التي رويتها كانت تقتصر إلى حد كبير على العالم القديم، وأن حكايات صيد الفقمة وقعت أحداثها في العالم الجديد. إلا أن هناك بضع حكايات في أنحاء أبعد من العالم الجديد تشبه حكايات العالم القديم. وكما قد نتوقع، فإنها أكثر تشظيًا من تلك التي رويت على الجانب الآخر من المحيط وأقل شهرة منها. والحكايتان اللتان يمكن سردهما من نيوفاوندلاند.

(*) جنية في التراث الشعبي الكلتي تسير وراء الأسرة وتنتحب وتخبرها نبأ قرب وفاة أحد أفرادها. وإذا ما اجتمع أكثر من بانشي وراحت تولول فإن ذلك يعني وفاة شخصية عظيمة أو شخص مقدس.. (المترجم).

في يوم من الأيام كان هناك صبيان يعملان على الساحل الجنوبي وكانا معروفين باسم صبيا جيرزى **Jersey Youngsters**، ذلك أنه من الواضح أنهما لم يكونا فى الأصل من أبناء الجزيرة. كانا عاملين عظيمين، ولكنهما كانا يختفيان فى كل أسبوع دون أن يعرف أحد أين يذهبان. وفى كل يوم إثنين يعودان نشيطين وفى شوق للعمل الذى كانا يفضلان القيام به بنفسيهما.

وفى يوم من الأيام كُلفا بالعمل على منشار السقالة. (طريقة قديمة لقطع ألواح الخشب يقف فيه رجل داخل حفرة ويقف الآخر على جذع الشجرة، حيث يقومان بشق جذع الشجرة إلى ألواح بمنشار شق يمسك به فردان.) وبعد فترة ذهب رجل لرؤية كيف تسير أمورهما. وما إن اقترب من الحفرة حتى سمع غناء وصوت المنشار. وحين اقترب أكثر لاحظ أن صبيى جيرزى مستلقيين تحت شجرة يغنيان أغنية غريبة والمنشار يصعد ويهبط فى جذع الشجرة دون أن يمسكه أحد.

بعد ذلك راقبهما مراقبة أشد واكتشف أنهما فى عطلة نهاية الأسبوع يتحولان إلى فقمتين ويسبحان عائدين إلى موطنهما فى جزيرة جيرزى ثم يعودان يوم الإثنين. كان ذلك أكثر مما يحتمله الناس فى ذلك المجتمع المحلى وفُصل الصبيان من العمل[٢٦].

فى مرة أخرى خرج رجل وابنه لصيد الفقمة. انفصل الاثنان وفجأة قابل الصبى ثلاث فقمات. رفع بندقيته ليصوب فصاحت واحدة منها "لا تطلق النار". أنزل الصبى الذى أصابه الفزع البندقية ولكنه عاد ورفعها بسرعة من جديد، ومرة أخرى طُلب منه أن يتمهل. وفى المرة الثالثة التى قالت فيها الفقمة ذلك أطلق النار على أية حال. سقطت اثنتان ميتتين ولكن الثالثة تحولت إلى رجل بلا رأس سقط من فوق الصخرة [٢٧].

هذه إذن المكونات العامة التى يمكن العثور عليها فى مأثورات الفقمة. وفى بعض الأحيان يكون المرء من حسن الحظ بحيث يعثر على كمية كبيرة من هذه المادة مدفونة داخل حكاية واحدة. وكان طومسون محظوظاً وهو يروى بطريقته الفريدة الحكاية التى نعيد روايتها هنا.

بينما كان رجل وأبناؤه الثلاثة يتأهبون للخروج لصيد السمك، ربما كان السالمون، ظهر لهم رجل غريب على جواد أبيض وطلب منهم أن يأخذوا معهم بلطة وخطافًا وسكينًا. أخذ الرجال ما طُلب منهم أن يأخذوه، ولم يمض وقت طويل عليهم فى البحر حتى هبت عاصفة وحاولوا الوصول إلى الشاطئ.

فجأة ارتفعت موجة ضخمة وهوت مزمجرة عليهم. ألقوا الخطاف عليها فانكسرت ومرت من تحتهم. ثم جاءت موجة أكبر فألقوا عليها البلطة، ومرة أخرى تكسرت الموجة وارتفعوا هم فوقها. ثم جاءت موجة ثالثة ضخمة، كانت أكبرها جميعًا. ارتفعت فوق القارب وبدا الأمر كما لو أنه ليس هناك ما يمكنه التصدى لها. ألقوا السكين عليها فانشقت هى الأخرى ورفعت القارب ودفعته عاليًا فوق حصى الشاطئ. وبينما كانوا يقفون هناك يهنئون أنفسهم على النجاة رأوا حطامًا خاصًا بمن لم يكونوا محظوظين مثلهم تدفعه الأمواج نحو الشاطئ.

عاد الرجال بعد ذلك إلى بيتهم وما كادوا ينتهون من طعام العشاء حتى ظهر الرجل الذى كان يمتطى الجواد الأبيض وأمرهم أن يركبوا معه. سار الجميع لمسافة بعيدة حتى بلغوا مدينة حيث توقف الجواد أمام منزل دخلوه. كانت فى الداخل ثلاث نساء. وكان قد دُفن فى رأس كل منهن أداة من الأدوات التى قذفوا بها الأمواج فأزالها الرجال. وبعد ذلك ركبوا الجواد الأبيض مرة أخرى وعادوا إلى بيتهم. وفى طريق العودة حذرهم الفارس من الذهاب مرة أخرى إلى البحر وأبلغهم أن نيفًا وثلاثين رجلاً غرقوا فى تلك الليلة ليكونوا أزواجًا لهؤلاء النسوة. ولولا وساطته لانضموا إلى الثلاثين (٢٨).

حين نستعرض هذة الحكايات ندرك إلى حد كبير القدم الشديد الذى تتسم به الموتيفات. ولذلك فإننا لا نُصدم حين نكتشف أن واحدة من أقدم القطع الفنية هى قرن وعل محفور به ثقب، مما يشير إلى أنه ربما كان ذات الخوار المستخدمة فى المراسم الدينية(*). إن عمرها عشرين ألف سنة ومرسوم علية سمكة سالمون، وشىء قد يكون

(*) قطعة رقيقة من الخشب أو العظم أو الإردواز مشدودة إلى سير من الجلد تدور فى الهواء فتحدث صوتًا هادرًا ، وكانت تستخدمها بعض القبائل البدائية فى طقوسها الدينية ( المترجم ) .

حبة توت، وفقمتان. و قد نطالع في هذه الحكايات إذن المزيد من شذرات ميثولوجيا شمالية عظيمة محطمة (٢٩).

يبقى هناك ساكن آخر من سكان المحيط لابد لنا من بحثه. وهو يقع في صورته الأصلية على أقصى حافة الذاكرة، ويكاد يكون من المستحيل الحصول على ما هو أكثر من إقرار غير واضح بسماع شىء عنه. إلا أنه من الممكن رؤيته في صورة أخرى، ولا يزال الناس يتداولون حكايات عنه. وأظن أن الحكايات الحديثة تبقى من خلال حالة من الهويات المغلوطة.(*) كان هذا المخلوق يعرف باسم fin Finn, أو الفيون Fion [ الفنلندى] وفي بعض الأحيان كان يسمى Muckle Man الرجل الضخم .

طوال مئات السنين كان هناك تقليد خاص بظهور غريب في الجزر الغربية وجزر شتلاند وجزر أوركني. فمن حين لآخر كان الناس في البحر يقابلون مسافراً وحيداً يجدف في قارب من الجلد. ويبدو أن القارب كانت مقدمته مثل مؤخرته، وكان الجالس فيه يحتمي بلباس من الجلد. وكان مسلحاً، أو كان معه رمح على القارب. وحين كان أحد يقترب إلى حد كبير من ذلك المسافر كان يفر، ومهما أوتي مطاردوه من جهد ما كانوا ليسدوا الفجوة التي تفصلهم عنه. وكان يبدو أن هؤلاء المسافرين الفرادى يحبون الطقس العاصف، وكثيراً ما كانوا يشاهدون وهم يجدفون بهدوء في العواصف العاتية التي لم يكن أهل الجزر يتخيلون أن مركباً يمكن أن يبقى فيها على قيد الحياة. وكتب والاس في عام ١٧٠٠:

**يشاهد أحياناً في بعض أنحاء هذا البلد هؤلاء الرجال الذين يسمون الفنلنديين Finn-men. وفي عام ١٦٨٢ شوهد أحدهم في قاربه الصغير عند الطرف الجنوبي من جزيرة إيدا Isle Eda حيث تجمع معظم أهل الجزيرة لرؤيته، وحين حاولوا إنزال قارب فيه رجال إلى البحر لمعرفة إن كان بإمكانهم الإمساك به، فر بعيداً على الفور وبأقصى سرعة. وفي عام ١٦٨٤ شوهد آخر من على ويسترا Westra**

(*) موقف في الحكاية لشخصين متشابهين لا تستطيع الشخصيات الأخرى التمييز بينهما ( المترجم ) .

ولابد أن أعترف أن الأمر لا يمكن تفسيره إلى حد ما، إذ كيف ينبغي للرجال الفنلنديين هؤلاء أن يصلوا إلى هذا الشاطئ؛ ولكن من المحتمل أن العاصفة تبعدهم عن موطنهم، ولا يسعني تحديد موقعهم في البحر، وكيف يعودون إلى ديارهم ثانية. إنهم يتمتعون بهذه الميزة، وهي ألا يكون البحر في حالة من الهياج البحر، ولا يغرق قاربهم أبدًا لكونه مصنوعًا من جلد السمك، بل يصبح كطائر نورس يسبح على صفحة الماء. كما أن قميصه مثبت في القارب بحيث لا يدخل الماء قاربه ليضره، إلا إذا أراد فكه، وهو ما لا يفعله إلا إذا أراد قضاء حاجته أو حين يصل إلى البر(٢٩).

قُدِّمت تفسيرات كثيرة لهذا الظهور الغريب، وأشار باحثو الفولكلور الذين يحاولون جعل الحكايات مصدقة من قبل الإنسان المتقدم - الذي يبدو قادرًا على ابتلاع "السحر" حين يسمى "علمًا" - إلى أنهم إسكيمو "متسربين" وصلوا إلى مواقع متقدمة من القارة الأوروبية. والفكرة الأخرى هي أنهم بقايا الشعب البكتي.(*) أما الرأي الثالث فهو أنهم بالفعل شماليون، وكان المجدِّف المفرد يخدم السفينة الطويلة بنفس الطريقة التي تخدم بها الفرقاطة السفينة الحربية الكبيرة، باعتباره كشافًا سريع الحركة للتجسس على نقاط قوة العدو ونقاط ضعفه.

كل هذه الآراء ممكنة. فلا تكاد المسافة من كيب فارويل Cape Farewell إلى إسكاندنافيا تزيد على ألف ميل مع وجود الرياح والتيارات المواتية، ومن الممكن التوقف مرتين، إحداهما في أيسلندا والأخرى في فارويز Faeroes. ويقوم رجال أقل تكيفًا مع الحياة البدائية من الإسكيمو برحلات بحرية أطول مسافة. والواقع أن رجلاً من الواضح أنه يحب التجديف حبًا جمًا يقوم أثناء كتابة هذا الكلام برحلة حول العالم. بل إن وصف القوارب وراكبيها تتطابق تطابقًا كبيرًا مع الكاياك (**) والإسكيمو. وكون تلك

(*) شعب قديم أصله غير معروف سكن أجزاء من شمال بريطانيا ولم يتمكن الرومان من هزيمته . وفي القرن التاسع اتحد مع الإسكوتلنديين ليقيموا مملكة إسكوتلندا . وبحلول القرن العشرين لم يعد لهذا الشعب وجود ( المترجم ) .

(**) قارب الإسكيمو المحكم ضد دخول الماء ويتكون من هيكل خشبي مغطى بالكامل بالجلد ماعدا فتحة أو فتحتين في وسطه ويحرك بمجداف واحد ذي راحتين . ( المترجم ) .

الرؤى كانت فى مناطق فيها بقايا قريبة من القلاع والمساكن البكتية، بالإضافة إلى حقيقة أنه من المفترض أن هؤلاء الناس نوتية بارزون، يمكن أن يؤيد فكرة أنهم بكتيون فى حقيقة الأمر وليسو من الإسكيمو. وأخيراً فإنه لا يمكن الدفاع عن الفكرة الخاصة بكشافة الفايكنج بحال من الأحوال.

وبالنسبة لهؤلاء الذين قد يرفضون تصديق الموضوع برمته، يبدو أن هناك ذرة مما يدل على مصداقية هذه الرؤى. فقد أُرسل أحد قواربهم إلى إدنبره حيث عُرض فى قاعة الأطباء ثم نُقل إلى متحف الجامعة (٣٠) .

وهناك حكاية عن الرجال الفنلنديين يبدو أنها تتضمن الكثير من المأثورات التى تدور حولهم وتستحق أن أعيد روايتها. فقد خرج رجل لصيد السمك فى يوم عاصف واصطاد سمكة لا بأس بها. وحين أوشك على رفعها إلى القارب قضمت فقمة كبيرة أكثر من نصفها وتبقى له الرأس. تكرر حدوث ذلك، وكان الرجل يستشيط غضباً مع كل خسارة. وأخيراً ابتلع الحيوان الشره السمكة بكاملها وأخذ فى الصعود إلى القارب. التقط الصياد الغاضب قطعة من الخشب وضرب الفقمة ضربة شديدة على فمها، وانقطع خيط السنارة ومضت الفقمة بعيداً، إلا أن عاصفة رهيبة هبت على الفور وكادت تملأ القارب بالماء قبل أن يصل البر.

فى العام التالى وفى رحلة قام بها الصياد إلى فنلندا التقى برجل عجوز ودار بينهما حديث. دعا الرجل العجوز الصياد إلى منزله فى الليلة التالية وهناك كشف له عن نفسه باعتباره الفقمة التى ضربها الصياد فى العام السابق، ودلل له على ذلك بأن أراه مكان سنتين من أسنانه سقطتا. بل إنه أخبر الصياد أن حماه مريض فى موطنه، وأعطاه سكيناً كان الصياد قد فقدها حين سقطت من فوق القارب وكذلك ملعقة من مائدته.

حين وصل الصياد إلى موطنه علم كذلك بأمر الملعقة. فقد دخل كلب كبير غريب البيت فى يوم من الأيام حين كان الصياد غائباً وحملها بين أسنانه (٣١).

وتوضح هذه الحكاية نقطة لافتة للانتباه. فكلمة Fin أو Finn أو Fion تعنى فى الأصل "صغير" إلا أنه بمرور السنوات أصبحت لها تداعيات مختلفة. فقد ارتبطت من ناحية ببطل أيرلندى عظيم صغير الجسم اسمه Fion the Fair [فيون المنصف]، وهو نفسه بحار عظيم، وعملاق بما له من القوة، وهو فى بعض الأحيان ساحر بما لديه من قوة ومؤهلات. وبدأت الحكايات التى تدور حول الفنلنديين تتخذ شكل أسطورة فيون.(٣٢) وفى الاتجاه الآخر عبرت بحر البلطيق وربطت نفسها بمجموعة من الناس لا يشتهرون بصورة خاصة بكونهم بحارة، إلا أنهم اشتهروا بتعاملهم فى السحر (الذى ربما اكتسبوه من جيرانهم اللابيين Lapps. (*) وكان هؤلاء الرجال طوالاً ويتسمون بالبشرة الداكنة والقوة.

وبمرور الأعوام أخذت المعتقدات المرتبطة برجال القوارب صغار الجسم تنسحب شيئًا فشيئًا على الفنلنديين وتلتصق بهم بقوة أشد إلى أن اعتبروا بصورة عامة حظًا سيئًا على متن السفن. (إذا عرفنا ذلك فإنه يصبح واضحًا إلى حد كبير لماذا اختار ميلفيل Melville أن يكون هناك واحد منهم على متن السفينة بيكووت pequot المنحوسة فى روايته .Mobey Dick)

كان الناس عمومًا يظنون أن الفنلنديين تربطهم صلة مباشرة بالعالم الآخر، وأنه يمكنهم عمل الخير الكثير بتوجيه ربابنة السفن إلى أماكن يمكن العثور فيها على حمولة ثمينة أو بإبلاغهم كيفية اتقاء الأخطار التى تواجه الملاحة. ولكن إذا كانت لديهم هذه السمات الطيبة فإن لهم كذلك سمات سيئة، كالقطط السوداء التى كان يعتقد أنها تحمل العواصف فى أذيالها. وكان الاعتقاد الغالب هو أن قوى الفنلنديين السحرية مرتبطة بالرياح التى كان يمكنهم إثارتها، وكثيرًا ما كانوا يثيرونها حين يريدون.

وكان إذا أراد هؤلاء السحرة إثارة الريح استخدموا إما قربة سُدَّت وربطت بسيور من الجلد، أو خيط أسود عُقدت فيه مجموعة من العقد. وحين يراد أن تهب

(*) شعب من الرحل يعيش على تربية المواشى وصيد الأسماك والثدييات البحرية موطنه شمال إسكندنافيا وفنلندا ( المترجم ) .

الريح كانوا يتلون بعض التعاويذ السحرية ويزيلون سدادة القربة أو يفكون العقد التى فى الخيط، وهنا تهب الريح (٣٢).

قد يظن ظان أن مثل هذا الرجل مطلوب بشدة على متن أية سفينة شراعية، إلا أن الأمر لم يكن كذلك لسببين. أولاً: كان الفِنلنديون كثيراً ما يطلقون من الريح ما يزيد عن الحاجة وكانت العاصفة تتغلب على السفينة. ثانيًا: قد يكون باستطاعة رجل بهذه القدرة أن يجعل السفينة خاضعة له إن هو أراد ذلك. وإذا أغضبه أحد لم يكن عليه سوى أن ينزع سدادة القربة أو يحل العقد ويرسل بكل البحارة إلى قاع البحر. ولابد ألا يكون هناك سوى ربان واحد على متن السفينة، وما من قبطان يقبل طواعية بوجود فِنلنديين على سفينته.

ويتذكر ريتشارد هنرى دانا Richard Henry Dana فى كتاب "عامان أمام الصارى" Two Years Before The Mast حديثًا كان دار بينه وبين الطاهى الذى سأله:

"على فكرة، هل تعرف جنسية النجار؟

قلت: "نعم، إنه ألمانى" ....

قال: "هل أنت متأكد من ذلك؟" ....

قال الطاهى: "أنا مسرور بشدة من هذا. فقد كنت شديد الخوف من كونه فِنلنديًا. أقول لك الحقيقة، فأنا كنت مؤدبًا جدًا مع ذلك الرجل طوال الرحلة."

سألته عن سبب هذا ووجدت أنه تسيطر عليه تمامًا فكرة أن الفنلنديين سحرة ويتحكمون بصفة خاصة بالرياح والعواصف. ... وكان قد ذهب إلى جزر السندوتش Sandwich Islands فى سفينة كان صانع الأشرعة الذى عليها فنلنديًا يمكنه فعل أى شىء يرغب فيه. وكان صانع الأشرعة ذلك يحتفظ فى مخدعه بزجاجة كانت مملوءة على الدوام بشراب الروم، مع أنه يشرب منها كل يوم تقريبًا. وكان قد رآه يجلس بالساعات مع هذه الزجاجة ويتحدث معها وهى

موضوعة أمامه على الطاولة. وهذا الرجل ذاته نبح نفسه في مخدعه وقال الجميع إنه كان يلبسه جن.

وكان الطاهى قد سمع كذلك عن سفن تجد مشقة في دخولها خليج فنلندا ... بينما ترى سفينة خلفها تتجاوزها وتسبقها في خفة الريح ... وتجد أنها من فنلندا. قال الطاهي: "لقد رأيت الكثير من هؤلاء الرجال الذين يريدون العمل على إحدى السفن. وإذا لم يحصلوا على مبتغاهم فإنهم يستعملون السحر ضدك."

ولتأييد هذه المقولة استدعى الطاهى رجلاً اسمه جون وافقه على ما قاله، وأضاف أنه كان فى إحدى السفن

حيث كانوا يواجهون ريحًا معاكسة لمدة أسبوعين، وفي النهاية اكتشف القبطان أن رجلاً كان قد وجّه إليه كلامًا قاسيًا قبل ذلك بوقت قصير فنلندى، وعلى الفور أخبره أنه ما لم يوقف الريح المعاكسة فإنه سوف يحبسه في المخزن الأمامي، ولن يعطيه ما يأكله. صمد الفنلندى لمدة يوم ونصف، حيث لم يعد في مقدوره تحمل الأمر وفعل شيئًا ما جعل الريح تعكس اتجاهها؛ وهنا سمحوا له بالصعود على السطح(٣٤).

انعطف سى إس فوريستر C. S. Forrester فى كتاب "القائد هورنبلور" Commodore Hornblower انعطافًا غير متوقع بالأسطورة الفنلندية. ومع أن فوريستر ليس على وجه الدقة ضمن نفس الفئة التى تضم الكُتّاب الآخرين، فقد حظى بالمديح على دقة تفاصيله. فهورنبلوار يأسف لوجود سكرتيره برام Bramm إلا أن أوامره هى أن يستمعوا لما يقول لأن "معرفته بدول البلطيق واسعة ووثيقة". ويسأل القبطان بوش Captain Bush هورنبلور:

"كيف ترى كاتبك السويدى يا سيدى؟"

"إنه فنلندى وليس سويديًا."

**"فنلندى؟ لا تقل ذلك يا سيدى! ليت الرجال لا يعرفون ذلك."**

**يتصور البحار أن كل فنلندى ساحر يمكنه إثارة العواصف بإشارة من إصبعه، إلا أن هورنبلور لم يظن قط أن مستر برام من ذلك الصنف من الفنلنديين، رغم تلك العينين الخضراوين الفاتحتين الشريرتين[٣٥].**

رغم اكتساب هؤلاء الناس، أو الكائنات، شهرة عالمية، قد يبدو أن موطنهم الأصلى فى مكان ما فى الشمال. وربما تصلح المنطقة المحيطة بشتلاند موطنًا لهم لقربها من النرويج. وتدعم حقيقة أن أهل شتلاند يسمونهم "فنلنديى النرويج"، وكون الكثير من الحكايات يجعل الفنلنديين يذهبون إلى النرويج ويعودون فى يوم واحد يدعم، نظرية أسلافهم الشماليين. وأخيراً فإن جزر شتلاند هى المكان الذى يكتسبون فيه وضعهم الكامل باعتبارهم سحرة.

كان الرجال الضخام يتخذون الغربان، إضافة إلى أشياء أخرى، خدامًا لهم وكانوا يحصلون من خلالها على المعلومات الخاصة بما يجرى فى أنحاء البلاد. كما كان بإمكانهم الحصول من خلالها على أشياء عديدة من على مسافات بعيدة. وكان أهل شتلاند يعتقدون كذلك أنه يمكنهم بالسحر تقطيع شرائح من المجاديف، وإلقاءها من على السفن، وصنع سفن منها. كما كان يقال كذلك إن لديهم جلد فقمة سحرى يلبسونه كى يمكِّنهم من قطع مسافات طويلة على البحر. ويمكِّن الحصول على هذا الجلد من فى حوزته من استعباد صاحبه، إلى أن يتمكن من استعادته. وفى الوقت نفسه فإن مهارته فى السحر تقل بصورة كبيرة. وأخيراً وليس آخرًا، فقد كان الفنلنديون، والفنلنديون وحدهم، فى شتلاند هم من يمكنهم قيادة حصان الماء[٣٦].

ما إن يعرف الناس أن كلبًا من الكلاب قاتل أغنام حتى يكون من الصعب عليه تغيير وضعه، وكذلك الحال بالنسبة للفنلنديين. وقليل جداً من البحارة فى الوقت الراهن يعتقدون أن الرياح محفوظة داخل قربة. فالواقع أنه مع ظهور السفينة البخارية وآلة الاحتراق الداخلى، لم يعد هناك اعتماد على الرياح، كما قل الخوف من العواصف والشواطئ التى تهب عليها الريح بصورة كبيرة. إلا أن الخوف من الفنلنديين مازال متأصلاً ولا يحب الكثير من البحارة الخروج إلى البحر معهم. سيقولون لك إنهم غير

متسامحين وعصبيون وعندما تفلت أعصابهم يأتون بأعمال عنيفة، بل "إنه من سوء الحظ وجودهم على متن السفينة."

وخلال العقد التالى للحرب العالمية الثانية، وفى روكلاند بولاية مين، كانت هناك ترسانة لصنع السفن، حيث يُعتقد أن أحسن سفن صيد الإستاكوزا على الساحل تبنى هناك. وكان أى شخص "يخرج لصيد الإستاكوزا" ويمكنه الحصول على واحدة من تلك السفن يعتبر محظوظًا إلى أقصى حد. إذ كان بنَّاء السفن رجلاً عائلته من فنلندا وكان معروفًا عمومًا ليس باسمه بل بتراثه؛ أى الفنلندى. "إذا أردت الحصول على سفينة جيدة، اذهب إلى الفنلندى. فهو أحسن من يبنى السفن." وبذلك قد ما زال سحر الفنلندى باقيًا.

# الفصل التاسع

# عرائس البحر

لورنتي ، لورنتي
لولا رجلك
لكان دم قلبك
قد تجلط في رأسي
مقتبسة من Sabine Baring Gould,
Curious Myhs of the Middle Ages

قليلة هى موضوعات الفولكلور البحرى الأكثر انتشاراً من الاعتقاد فى سكان البحر، أو تعود إلى زمن أقدم منه، أو أكثر جانبية منه، أو تخلق مشكلات أكثر للباحث الذى يحاول التوصل إلى استنتاجات مفيدة أكثر مما يثير. هؤلاء السكان عبارة عن عروس البحر، وغُرانق الماء (*)، والكلبى kelpie (**) أو حصان الماء، وثور الماء، والفنلنديين، والرجال الزرق، والفقمة. وفيما عدا الوحوش البحرية، لم يسلم مجال من مجالات الفولكلور البحرى من الغزو العلمى. إلا أن هذه المأثورات من الرسوخ بحيث لا يزال الناس فى المناطق النائية الأكثر انعزالاً من العالم الناطق بالإنجليزية يؤمنون بها، باعتبارها تراثًا حيًا فى بعض الأحيان ، وكطريقة لتفسير ما لا يمكن تفسيره لولا ذلك فى أحيان أخرى.

(*) مخلوق بحرى خرافى له جسم رجل وذيل سمكة، ويقال إنه ذكر عروس البحر (المترجم).

(**) روح إسكتلندية تعيش فى الأنهار والبحيرات تعمل على إغراق المسافرين وكثيراً ما تظهر على شكل حصان يغوى الضحايا بركوبه ثم يجرى مسرعًا إلى النهر ويغرق من على ظهره ومن هنا كانت رؤيته تعنى الموت الوشيك (المترجم)

لقد أوضحت العلوم البيولوجية بما لا جدال فيه أنه لا وجود لمثل هذه المخلوقات - باستثناء الفقمة - وأن هذه المخلوقات عاجزة إلى حد كبير عن تلك التصرفات الشاذة التي تعزى للآخرين. ومع ذلك لا يزال الباحثون يتوقون إلى معرفة كيفية سيطرة مثل هذه المجموعة من المعتقدات بقوة على عقول الناس، وقُدِّم العديد من المقترحات بشأن المصدر الممكن لهذا التراث. فقد عرض الذين يودون ربط خيال الفولكلور بواقع الحقيقة عدداً من النظريات التي قد تربط سكان البحر هؤلاء بالمخلوقات التي تحظى بقبول علماء البيولوجيا.

ويبدو أن هناك أربعة تفسيرات بين الباحثين تقترح أصول سكان البحر، وآمل أن أقدم أنا التفسير الخامس. ويستنتج التفسير الأول أنه لا وجود لهذه المخلوقات وأن من يؤكدون رؤيتهم لها إما مجانين أو كذابين. وهذا موقف مريح إلا أنه لا يتفق مع الحقائق، ذلك أن أناساً كثيرين ذوي مكانة معتبرة، منهم هنري هدسون Henry Hudson والعديد من الأساقفة، ذكروا أنهم رأوا سكان البحر. فما عسانا نفعل على سبيل المثال حيال الحاكم الإقليمي الذي احتفظ بـ"امرأة بحرية" طولها تسع وخمسون بوصة في حوض ماء لمدة أربعة أيام وسبع ساعات، وقال إنها كانت تصرخ كالفأر وترفض القواقع وفضلاتها كفضلات القطة؟[١].

ثانياً: يرى البعض أن عروس البحر في واقع الأمر هي خروف البحر، وهو مخلوق يعيش في المياه الدافئة ويطفو في وضع رأسي ويرضع صغاره على الصدر. وبما أن هذه المخلوقات غير شائعة ونادراً ما يراها الناس، فقد رأى البعض أن البحَّار الذي يبقى فترات طويلة في البحر يمكن أن يراها خطأً على أنها المخلوقات الجميلة والمغرية المشهورة في كتب الحكايات. والآن هناك حكاية شعبية منتشرة عن أحد مستكشفي المنطقة القطبية الذي كان يأخذ معه إلى البحر أقبح طباخة يمكنه العثور عليها. وكانت حين "تبدأ تبدو جيدة في نظره" يعرف أنه أطال البقاء في البحر أكثر مما يجب. وإذا أخذنا هذه الحكاية كخطوة أولى، فسيظل من الصعب تخيل سفينة تبقى في البحر الوقت الكافي لجعل خروف البحر يبدو ساحراً في جماله. بل إن الروايات الكثيرة عن عرائس البحر تأتي من دوائر العرض المرتفعة حيث المياه باردة جداً بالنسبة لخروف البحر.

النظرية الثالثة شديدة الشيوع هى أن عروس البحر فقمة حدث خطأ فى تحديد هويتها. وهذه النظرية يمكن الاقتناع بها عندما نأخذ فى اعتبارنا أن الفقمة لها ثديان ووجه بشرى إلى حد ما، وتعيش فى كل من المياه الدافئة والباردة وتشبه عروس البحر التى فى الكتب المصورة من عدة أوجه. بل إنه فى عصور قريبة نسبيًا كانت حكايات عروس البحر تكاد تُحكى بالتبادل عن الفقمة، وقد باتت جزءًا مقبولاً من سكان البحر فى الوقت الراهن. وتفى هذه النظرية بالشروط الخاصة بالملاحظات العابرة عن بعد، إلا أنها لا ترضى الروايات الخاصة بالمراقبة القريبة أو الاتصال الفعلى. كما أنها لا تفى بالشرط الخاص بتلك المخلوقات التى تحدث الناس عنها باعتبار أن لها مظهراً "شديد الشبه بمظهر الفقمة"(٢). وأخيراً، فبما أن الصيادين الشماليين، الذين تشيع بينهم حكايات عروس البحر أكثر ما تشيع، يقضون حياتهم على مقربة شديدة من الآلاف من حيوانات الفقمة، فمن المضحك ظن أن الظروف الجوية أو حتى الإفراط فى شرب الخمر قد يدفعهم إلى الخلط بين عروس البحر والفقمة.

أما الافتراض الرابع فهو أن عروس البحر، أو بالأحرى غُرانق الماء، هو الفَظ. وبينما لا يؤيد الباحثون هذا، فإن العقل يمكن أن يتقبله إلى حد كبير. بداية كان اسم الفَظ فى القرن السابع عشر هو **morse**، ربما من الكلمة الروسية **morskoi** وتعنى "البحَّار". (٣) وهذا المخلوقات من سكان المنطقة القطبية فى الأساس ولكنه يظهر فى بعض الأحيان إلى الجنوب من ذلك. وقد سجل جون جوسلين **John Josselyn** أحدها فى كيب آن (*) فى القرن السابع عشر، ولا تزال تشاهَد مراراً على سواحل إسكوتلندا. وقد أبلغنى والاس كلارك **Wallas Clark** من بلفاست أنه منذ فترة قريبة جداً ألقت الأمواج بـ "فيل ميت" على شاطئ جزيرة تورى **Tory Island.** كان الناس يعرفون أنه فيل؛ فقد كان وزنه يزيد على الطن وله نابان طول الواحد منهما حوالى ثمانى عشرة بوصة ينموان لأسفل فى الفك العلوى. وهذا الوصف المقتضب ينطبق على الفظ أكثر منه على الفيل. وكان الشىء أكبر من أن يحركه أحد وكانت تنبعث منه رائحة

(*) شبه جزيرة فى الشمال الشرقى من ماساتشوستس بارزة فى المحيط الأطلسى شمال شرقى جلوسستر. (المترجم) .

كريهة. ومن حسن الحظ أن أهل الجزيرة في ذلك الوقت كان فيه يبنون رصيفًا من الأسمنت، وأدى انحراف في الاتجاه إلى نقل الرصيف فوق الجثة. وهي مدفونة الآن داخل أطنان من الأسمنت.

بل إن الفظ يصبح أكثر قبولاً حين ننظر إلى الروايات الخاصة بغُرانق الماء التي يرويها أناس يزعمون أنهم رأوه. وعلى عكس عروس البحر، فإنه نادرًا ما يشير أحد إلى غُرانق الماء من ناحية جماله. ومع أن الأوصاف لا تتفق مع بعضها، فإن عددًا يشير إلى أن المخلوق يطفو في وضع رأسي وله أصابع يصلها ببعضها غشاء رقيق، كما أن له لحية، ورقبة قصيرة، وذقنًا ذا فلج عميق، وعينين سوداوين غائرتين، وجبهة مستوية عريضة، وحاجبين شعرهما كثيف. ويغطيه شعر بني أو مائل للحمرة، وكان يقال في بعض الأحيان إن له نابين حادين بارزين(٤). ومن ناحية الحجم وصفوا غُرانق الماء على أنه يتراوح بين "حجم القرد" وثماني عشرة بوصة.(٥) والحجم الأخير قد يتفق مع جسم الغُرانق الناضج، بينما الحجم الأصغر يتفق مع أبعاد الغُرانق الصغير. والواقع أن هذه الأوصاف يمكن أن تتطابق مع الفظ؛ وخاصة الفظ غير الناضج، الذي قد يكون من السهل نسبيًا الإمســاك به. وهــو نادر إلى حد كبير في المياه البريطانية أو الأمريكية، مما يجعل أعين البحارة لا تتعرف عليه.

يميل معظم الباحثين إلى اعتبار عروس البحر صنوًا لكيان بيولوجي واحد. وأظن أن هذا خطأ. إذ كان حريًا بهم أن يعتبروها صنوًا لعدد من المخلوقات البحرية؛ وهي الفقمة، والفظ، بل وربما خروف البحر. وفي حالات نادرة يُدفع المرء إلى الاعتقاد بأن الأخطبوط، أو حتى رجلاً مجنونًا مؤهل لحمل هذا اللقب. وعلى سبيل المثال يحكي لنا جون جوسلين أن شخصًا يدعى مستر ميتر **Mr. Mitter** قابل غرانق ماء بينما كان يصطاد طيورًا في خليج كاسكو في القرن السابع عشر. ظل ذلك المخلوق يحاول ركوب قاربه إلى أن قطع ميتر أحد ذراعيه وغرق "جاعلاً الماء قرزميًا بدمه"(٦). وقد أمسكوا بغرانق ماء وهو يسبح قبالة أسبانيا. وعلم الذين أمسكوا به أنه جاء من ليرخانيس **Lierjanes** التي أعيد إليها، وهناك اتضح أن اسمه فرانشيسكو دي لا بيجا **Francisco de la Vega.** كان له شعر أحمر قصير، وعينان تخلوان من أي تعبير، وجلد رخو

لا لون له، وبعض القشور (هل هي إكزيما؟)، وأبدى نفوراً شديداً من الملابس. تركه مع أسرته، ولكنه رفض الحديث، وفي النهاية هرب واختفى في البحر(٧) . وأخيراً هناك عروس بحر (أو غرانق ماء) كانت خدعة متعمدة. فقد كان روبرت هوكس Robert Hawkes يتنكر قبل أن يرتدى رداء الكهنوت المقدس في هيئة عروس البحر ويجلس على إحدى الصخور ويغنى في ضوء القمر؛ مما أثار الرهبة في نفوس القرويين في المنطقة(٨).

وفي رأيي أننا نتناول عند الحديث عن عروس البحر وغرانق الماء لقاء الإنسان بالنادر والفريد والشاذ. وهو حين يعرِّف ما يراه فإن ذلك يكون في حدود معرفته هو وما يؤمن به. (قلت مرة إن هنود المانيواكى في كيبيك حين شاهدوا السيارة لأول مرة أسموها "الضفدع النطاط".) وسأعرض المزيد فيما بعد.

هناك الكثير من العوامل التي تجعل بقاء الاعتقاد في وجود سكان البحر حيًا. فما هي على وجه التحديد صفات تلك المخلوقات التي تعيش تحت الماء؟ كم عدد الحكايات التي تروى عنها، وما هي أصولها، وما مقدار انتشارها، وما الذى يمكننا تعلمه منها، إن كان هناك ما نتعلمه؟

أولاً: هناك اعتقاد بأنها شبه بشرية. ويعتقد الناس أنه تعيش تحت الماء وتخرج إلى السطح من حين لآخر. وفي مرات نادرة يقال إنها تخرج على الشاطئ متنكرة في هيئة البشر. ويقال إن لها أثداء وشعراً طويلاً وذيلا تغطية الحراشف [ القشور] يشبه ذيل سمكة القد أكثر من الماكريل أو خنزير البحر أو القرش. (وهي عادة ما تسمى "الفتاة ذات الذيل المحرشف"). وغالبًا، وليس دائمًا، يقال إن لها عينين زرقاوين وشعراً ذهبيًا وإنها جميلة. وعادة ما تُرى جالسة على الصخور المدِّية tidal rocks والألسنة والجزر الصخرية الصغيرة، وإن لم يشاهدها أحد سابحة قبالة الشاطئ. ويقال إن معها مشطًا ومرآة، وفي بعض الأحيان قلنسوة أو شال أو حجاب. وحين تكون على البر فوق صخرة مدِّية، تكون في العادة مشغولة بتمشيط شعرها وهي تنظر في المرآة وتغنى أغنية. ويظن الناس في الغالب أنها تضر الإنسان، إما بإغوائه بجمالها وصوتها كى يتحطم على الصخور، أو أن تكون مجرد رؤيته لها نذيراً بنهايته غير السعيدة.

وكانت فكرة الكارثة من الشيوع بحيث تبدأ إحدى القصائد الغنائية كالآتى:

**صباح يوم الجمعة الماضى حين أبحرنا،**

**لم نكن قد ابتعدنا كثيرًا عن البر،**

**حتى رأينا، حتى رأينا فتاة شقراء جميلة**

**ومشطًا ومرآة فى يدها، فى يدها، فى يدها،**

**ومشطًا ومرآة فى يدها.**

وتُعِدّ هذه الرؤية كل البحارة للمأساة الوشيكة، ولا يدهش أحد حين يكون

**البدر منير والنجوم ترسل الضياء،**

**وأمى تبحث عنى.**

**قد تنتظر، قد تنتظر بعينين دامعتين**

**قد تنتظر إلى قاع البحر، البحر، البحر**

**قد تنتظر إلى قاع البحر**(١٠).

ومن ناحية أخرى فإن المعروف أحيانًا، ولسبب لا تفسير له، أن عروس البحر تستلطف شخصًا ما - أو حتى بلدة ما - وتولم له الولائم. وفى بعض الأحيان تُحْتَجَز حين يحدث الجزر ويتركها وحيدة على إحدى الصخور، أو حين تكون على البر فى إحدى الحفلات. فى مثل تلك الحالات يمكن لأى رجل ماهر أن يسرق حجابها أو عباءتها أو وشاحها لكى يحصل منها على إتاوة قبل إعادتها إلى البحر. ذلك أنه إذا استولى رجل على قطعة من ملابسها السحرية وأخفاها فإنها تصير امرأة، وتصبح زوجة مفيدة مطيعة، وتكون منجبة عظيمة للنسل، وتكاد على الدوام تجلب منفعة ما للزوج ؛ أحيانا الذهب والفضة، وأحيانًا الماشية أو الصيد الطيب أو هبة الشفاء، أو بعض القوة الخاصة، كما رأينا فى حالة بناء السفن. إلا أنه بغض النظر عن مدى

ما تبدو عليه سعادة عروس البحر على البر، فإنها تقضى وقت فراغها فى البحث عن الرداء المفقود. وحين تجده فإنها، كما هو الحال دائمًا، تعود عروس بحر وتقفز فى البحر، تاركة وراءها عائلة حزينة؛ ذلك أن السمات البحرية عادة ما تكون متنحية فى ذريتها، ونادراً ما يمكنهم اتباعها.

وهنا لابد لنا من التوقف قليلاً لمناقشة مسألة الملابس السحرية التى بدونها لا يمكن لعروس البحر أن تؤدى وظيفتها بالصورة الصحيحة. فرغم أنها معروفة فى أنحاء العالم، وتتشابه معظم صفاتها إلى حد ما فى كل مكان، كما نرى من مقارنة سيرانات(*) **sirens** أوديسيوس باللوريلاى(**) **Lorelei**، فإن فكرة الرداء السحرى تبدو غريبة على المناطق الشمالية، وخاصة تلك التى تسكنها شعوب جرمانية وإسكندنافية وإنجليزية، والأهم هى تلك التى تقطنها الشعوب الكلتية. بل إن مفهوم السيطرة عليها بالاستحواذ على ردائها لا يبدو معروفًا إلى حد كبير خارج المنطقة موضوع المناقشة. وعادة ما يكون الرداء شالاً أو قلنسوة (حمراء فى الغالب، وقد ذُكرت القلانيس كثيراً مرتبطة بالجنيات) أو عباءة. والأقل وروداً هو المشط أو المرآة أو قنينة الدهان أو بعض الأشياء المنوعة الأخرى.

هناك اعتقاد بأن عروس البحر تعيش فى جنة تحت الماء لا تختلف عن أرض الجنيات. والواقع أن هذه المخلوقات تسمى فى فرنسا أحيانًا **Marie Morgane** وهى تسمية محفوظ فيها اسم ملكة الحوريات. ومن الواضح أن أرديتها السحرية، التى غالبًا ما تغطى رأسها، هى جهاز الغطس الذى يسمح لها بالوصول إلى الأرض التى تحت الأمواج، إن لم تكن لتسكن فيها كذلك. ولا يزال هناك اعتقاد قوى بين من يعملون فى البحر بأن من يولدون فى بُرْنُس - أى لا يزال فوق رءوسهم كيس جنينى - لا يمكن أن

(*) السيرانة كائن أسطورى عند الإغريق نصفها الأعلى جسم امرأة ونصفها الأسفل جسم طائر وكانت تسحر البحارة بغنائها فتوردهم موارد التهلكة. وفى ملحمة الأوديسا تحذر الساحرة كيركى أوديسيوس من السيرانات عن مروره بجزيرتهن بعد عودته من حرب طروادة، ولهذا سد أذان رفاقه جميعًا بالشمع كى لا يسمعوا غناءهن فيهلكوا جميعًا. ثم ربط نفسه فى أعلى الصارى وطلب منهم ألا يفكوا قيده إذا طلب منهم ذلك (المترجم) .

(**) اسم عروس البحر فى الأساطير الجرمانية (المترجم).

يغرقوا. ولدى كثير من صيادى الأسماك فى إسكوتلندا مثل هذه البرانس التى يحملونها مجففة كتميمة لمنع حدوث الكوارث فى البحر؛ وكان حتى عهد قريب بالإمكان شراؤها بثمن قليل فى إنجلترا(١٠) . ومن الواضح أن الفكرة التى وراء هذا المعتقد هى أن الجنين البشرى يعيش فى سائل. وإذا كان يمكنه الحصول على الهواء من السائل وهو داخل الكيس الجنينى، فحينئذ لابد أن يكون للكيس صفات غرفة الغطس.(*) وأظن أن هذا الاعتقاد الجرمانى فى سحر البُرْنُس قد يكون الأصل القديم الذى انبثق من الاعتقاد فى قلنسوة عروس البحر السحرية أو شالها السحرى. كما أن الأشياء الأخرى التى يعتقد أن لها سيطرة خارقة على سكان البحر قد تمثل وحسب مزيداً من انتشار هذا المعتقد القديم.

وحين يكتسب شخص ما السيطرة على عروس البحر باستيلائه على أحد أشيائها السحرية، فإنها عادة ما تظل خاضعة له زمنًا طويلاً. ومن ناحية أخرى فإنه عند إنقاذ عروس البحر وإعادتها إلى البحر على الفور تكون المكافأة ذات طبيعة مختلفة. والمكافأة الأكثر شيوعًا هى تحقيق الأمنيات، كما فى حالة صانع السفن الفنلندى سالف الذكر الذى طلب أن تكون له مهارات خاصة فى بناء السفن. إلا أن الأمنيات التى تُحَقق عادة ما تكون ذات طابع غير دائم؛ فما إن تستخدم الأمنية حتى تنتهى للأبد.

إلا أنه فى حالة إلحاق الأذى بعروس بحر بأى صورة من الصور تكون لها أساليب رهيبة للانتقام. ففى إحدى المرات قتلت عروس بحر رجلاً أغضبها بتطييرها سقف منزله. وفى مرة أخرى يقال إن عروس بحر أصابت دوقًا بالجنون لأنه رفض الزواج منها. وحين أنقذت عروس بحر بحّاراً من الغرق طلبت منه زيارتها ولم يزرها فجرفته المياه هو وأهل قريته جميعًا. وبعد أن قتل صياد سمك عروس بحر أغرقته هو وأسرته كلها موجة غريبة (١١) . وفى حالة أخرى أمسك شخص عروس بحر عازمًا على إيذائها بدنيًا فجُر وهو عاجز عن المقاومة إلى البحر وغرق(١٢) . وأخيراً، سرق أهل نورستراند **Norstrand** حزام عروس بحر وبَقرَةٍ وماشيتها، مما أثار ذلك غضب تلك

(*) وعاء كبير للعمل تحت الماء مفتوح من أسفل ويزود بالهواء تحت الضغط. (المترجم) .

المخلوقة وجعلها تعود إلى البحر تاركة وراءها حزامها الذى حولته إلى نبات الأسل(*) وإلى ثور وحشى ضخم أخذ يضرب الأرض بحوافره إلى أن تحولت المنطقة كلها إلى صحراء جرداء. وفى ظل وجود مثل هذه العقوبات فى انتظار من يعذِّب عروس البحر، فليس مستغربًا أنها نادرًا ما يسيء إليها أحد.

وهناك عدد من الحكايات التى تتحدث عن رؤية أحد البحارة لعدد من عرائس البحر على الشاطئ. فقد زحف البحار تجاههن واكتشف أنهن كن يتزين لحضور حفل ما. كان لديهن قارورة دهان صغيرة كن يمررنها على بعضهن ويدعكن بها عيونهن. حولهن ذلك الدهان من عرائس بحر إلى نساء، وبعد ذلك التحول أخفين الدهان والأردية والذيول وذهبن إلى البلدة. بعد انصرافهن دهن البحار عينه اليسرى بالدهان. ومنذ ذلك الوقت أصبح بإمكانه التنكر فى أية صورة. وبهذه الطريقة اكتشف أن أناسًا كثيرين عرائس بحر، بل وكشف أسماك عبارة عن عرائس بحر متخفية. وأخيرًا اكتشف بعض العفاريت الصغار الذين يسرقون أشياء عديدة من سوق ريفية. اقترب منهم وعنفهم فسألوه كيف عرف أنهم يسرقون. فقال لهم إنه رآهم. فسألوه أى العينين رآهم بها. وحين رد الرجل الساذج بأنها العين اليسرى ضربه أحد تلك المخلوقات الصغيرة بعصا فأصيبت عينه اليسرى منذ ذلك اليوم بالعمى(١٤).

فى عام ١٩٦٩ تعرفت على سارة بنيت **Sarah Bennet** من برانت ليك **Brant Lake** فى نيويورك. روت لى سارة حكاية عن أناس صغار "يرتدون قبعات حمراء" حين وصلوا القرية وكانوا "غجرًا". تجسس عليهم صبى فى الغابة وراقبهم وهم ذاهبون إلى البلدة. وحين وصلوا القرية ذهبوا إلى السوق وأخذوا يسرقون "الكرنب والجزر والخضروات ويضعونها فى جوال"، ولكن الصبى هو وحده من لاحظهم. وبعد أن استمر ذلك لبعض الوقت تقدم منهم وسألهم عما يفعلونه وهم "يسرقون بهذه الطريقة". سأله أحد الرجال الصغار: "أى عين رأيتنا بها؟ "العين اليمنى." وبسرعة البرق ضربه ضربة أعمت تلك العين. وقالت سارة بنيت "إننى لم أفهم هذه القصة بشكل جيد. لماذا فى رأيك ضربوا عين الشخص المسكين؟"

(*) يسمى كذلك السمار وتستخدم أوراقه الأسطوانية الطويلة فى صنع قواعد الكراسى وغيرها من الأشياء. (المترجم).

يتضح مما عرفناه حتى الآن أن أسلاف عرائس البحر الأنجلو أمريكية قدماء ومتنوعين. ويبدو أن لها صلة بالجنيات الكلتية من خلال صفاتها واسمها - ماري مورجان - ومدنها الموجودة تحت ماء البحر، وحبها للموسيقى، وقدرتها على تقديم هدايا عظيمة. ولكن يبدو أن عداءها لبني البشر وانتقامها من الناس يربطانها بشخصيات العالم الآخر الأشد غلظة وقسوة في الفولكلور الأبعد ناحية الشمال. وقد ذكرنا الرداء السحري كصفة مشتركة بين عروس البحر الجرمانية مقابل عرائس البحر الموجودة في أجزاء أخرى من العالم.

إن ما أعتقده أنا هو أن ما نتعامل معها عند الحديث عن عروس البحر الأنجلو أمريكية هي في واقع الأمر ميثولوجيا متشظية: أي معتقدات تعود إلى أقدم ما يمكن الوصول إلى في العصور الحجرية الحديثة، وهي معتقدات مضى زمن بعيد منذ أن طواها النسيان ولم يتبق منها سوى شذرات. وقد جرى تطعيم تلك الشذرات في مأثورات أخرى من بلاد أخرى، إلا أنه في القلب تقابلنا ميثولوجيا ذات توجه شمالي.

حتى الآن هناك مفهوم يؤمن به الناس على نطاق واسع وهو أن عروس البحر كانت ذات توجه خاص بالشرق الأدنى. أولاً: كان هناك اعتقاد بأن هذه الكائنات مشتقة من اعتقاد في وجود أرواح مائية تقبع بجوار الآبار - وهو معتقد أكثر شيوعًا بين الإغريق - وفي أن هذه المخلوقات نُقلت شيئًا فشيئًا إلى البحر، حيث كان لها وجود شبيه بوجود أخواتها على الشاطئ وارف الظلال. ثانيًا: أشار الباحثون، ومعهم الحق، إلى أن البابليين القدماء كانت لديهم صور لإله سمكة، هو أونانز Onans أو داجون(*)، حيث كان هذا المعبود بشريًا من الرأس حتى الوسط وسمكة ما دون ذلك. ثالثًا: إنهم يشيرون إلى المرآة في يد عروس البحر ويربطونها بالقرص الذي في يدي هذين المعبودين القديمين من حوض البحر المتوسط. وأخيرًا: ربطوا من خلال التجوال

(*) داجون إله النبات الذي انتشرت عبادته في سوريا وبلاد الرافدين وعبده الفلسطينيون. وجاء في العهد القديم: "وبكروا صباحًا في الغد وإذا بداجون ساقط على وجهه على الأرض أمام تابوت الرب ورأس داجون ويداه مقطوعة على العتبة. بقي بدن السمكة فقط." (صموئيل الأول ٥: ٤) (المترجم) .

اللغوى البارع كلمات عديدة من أنحاء مختلفة من العالم ببعضها كى يصلوا إلى نفس الاستنتاج.

إذا أمعنا النظر فى حكايات بابل واليونان ومصر وغيرها من الأمم فى هذا الجزء من العالم، سوف نكتشف أنها تصور كائنات مختلفة تمامًا عن عرائس البحر وأصدقائهن فى الشمال. صحيح أنه يقال إن اللوريلاى تغرق البحارة، ولكن المخلوقات التى قابلها أوديسيوس تفوقت عليها. وصحيح أنه يقال أحيانا إن الكلبى يغرق الناس ويلقى بأكبادهم على البر، وأعربت عروس بحر عن رغبة فى قلى دم لورنتى؛ غير أن هناك فرقًا بين الرغبة والفعل، ولا يبدو أن أكل البشر جزء من عادة عروس البحر لدينا. ولم يمتلك سكان البحر فى الشمال كل المعرفة، وهم حريصون على ما لديهم. ويقدم سكان البحر الهدايا للأفراد ـ ولكن ليس للبشرية، والهدية محدودة المجال دائمًا. وصحيح أن المعبود السمكة أونانز يشبه عروس البحر، غير أنه يمكن الإشارة إلى أن هناك عددًا محدودًا فقط من الطرق لرسم مخلوق نصفه إنسان ونصفه الآخر سمكة.

هناك شىء غريب يتعلق بما أختار تسميتها بعروس البحر الجرمانية التى قد تكون لها أصول فى الشرق الأدنى، وهى علاقتها الغريبة بالكنيسة. وأظن أن أحسن ما يوضح ذلك هو حكاية ميلوسينا **Melusina**، التى كانت شائعة فى العصور الوسطى، وتحليلها.

جمعت الصداقة بين الشاب الفقير ولكنه طيب المحتد ريموند **Raymond** وقريب له ثرى وأصبحا صديقين حميمين. وفى يوم من الأيام، وبينما كانا يقومان بالصيد، انفصل الاثنان عن المجموعة وضلا طريقهما. وحين توقفا للراحة هاجمهما خنزير برى قتله ريموند. وأثناء المعركة قتل كذلك الإنسان الذى يحسن إليه دون قصد. هرب الشاب من المكان وهو شديد الاستياء وسار متثاقلاً حتى بلغ نبعًا رائعًا جلست بجواره ثلاث نساء حسان شعورهن ذهبية يلبسن أردية بيضاء. روى ريموند الحكاية لواحدة منهن اسمها ميلوسينا، ونصحته هى بدورها كيف يختلق حكاية تبعد الشك عنه. كما أخبرته أن يطلب من ورثة من كان يحسن إليه قطعة من الأرض حول النبع يمكن أن يطوقها

جلد ثور. وبعد ذلك وعدته بالزواج شريطة أن يعدها بألا ينظر إليها أيام السبت. وافق ريموند على ذلك وانطلق بحثًا عن الأرض حيث لُبى طلبه على الفور، مع أن قريبه فُزع إلى حد ما حين اكتشف لاحقًا أن جلد الثور قُطِّع إلى خيط وأحاط بمساحة كبيرة من الأرض.

بنت ميلوسينا قلعة على هذه الأرض وتزوجت ريموند. وفى كل عام كانت تلد طفلاً، وكان كل طفل مسخًا. كان أحدهم ذا وجه قرمزى، وآخر بعين حمراء وخضراء، وكان أحدهم سيكلوبيًا(*) وكان لأحدهم ناب كناب الفيل بدلاً من الأسنان. وكان كل منهم ناجحًا فى مجاله الذى اختير له، حيث أصبح أحدهم راهبًا مشهورًا، والآخر محاربًا، وهلم جرًا. وبنت الأم لكل منهم بيتًا رائعًا؛ كما شيدت لوحشها الثالث جيوت Gyott قصر لا روشيل La Rochelle.

سارت الأمور على ما يرام سنوات كثيرة، حتى كان ما أغرى ريموند يوم سبت على النظر من ثقب الباب. رأى زوجته تستحم وأزعجه أن يرى أن النصف الأسفل منها على هيئة سمكة. وحين اكتشفت أنه تجسس عليها، أطلقت صرخة كبيرة وهجرت منزلها وأطفالها ولم تكن تعود إلا لتنذر بموت واحد من أفراد الأسرة. ظلت تفعل ذلك لسنوات، حيث كانت ترفرف حول القلعة بجناحى وطواط وتطلق صرخات حزينة ليست كصرخات البانشى banshee (**) (١٥).

استخدم بارينج جولد هذه القصة التى نشأت فى جنوب وسط أوروبا فى تعقب أثر عروس البحر حتى بابل. ذلك أنه يربط فى مناقشته هذه الحكاية غير القياسية بتراثنا وبآلهة سومر. كما يرى أن البانشى التى تولول وترفرف قبل الوفاة تأتى من هذا المصدر. والواقع إن ميلوسينا أقرب شبهًا إلى ليليث (***) Lilith من أى من الآلهة التى

(*) عملاق بعين واحدة فى وسط جبهته (المترجم).

(**) روح أنثى فى الفولكلور الغيلى يعتقد أنها تنذر حين تولول بموت أحد أفراد الأسرة (المترجم).

(***) إلهة الخراب فى الديانة السومرية القديمة التى تسكن الخرائب والأماكن المهجورة. وهى شيطانة أنثى فى الأساطير اليهودية ويقولون إنها كانت الزوجة الأولى لآدم قبل حواء وقد طردت من الجنة قبل حواء لرفضها طاعة زوجها. وهى كذلك زوجة إبليس وأم لجميع الأرواح الشريرة المترجم) .

ذكرها بارينج جولد، وإن البانشي مصدر أقرب للوطن مما أدرك هو، إذ يبدو أنها تعود إلى معبودة كلتية قديمة تسمى ماترونا **Matrona** كانت تتمتع بكل صفات البانشي إضافة إلى قليل من الصفات الأخرى(١٦) . ولكن لنعد إلى ليليث التي كتب القديس أوجستين مقالة عنها. (كان شغوفًا بذرية أبناء آدم الذين أنجبتهم من هذه المرأة. ويقال إن ثمرة تلك المعاشرة كانت مسوخًا ولد أحدها على الأقل بعين واحدة فقط) .

يأتي ذكر ليليث للمرة الأولى حوالى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد. وقد ربطوها بجلجامش، وهو بطل ثقافي يرتبط ارتباطًا شديدً بالماء، وكانوا يظنون أن الاثنين من جن العواصف الذين يزورون البشر ليلاً. بل إن ليليث كانت تصوَّر ممسكةً بحلقة تتصل بقضيب من حديد. وبما أنه كان يظن أنها تستنفد حيوية الرجال بإغوائهم بالخروج ليلاً، فقد كان من المستحب دفعها، وكان الشخص يستخدم تعاويذ منظومة لكي يدفعها.

بحلول عام ١٠٠٠ قبل الميلاد أصبحت عروس آدم الذى كان اختياره التعس لزوجاته ملحميًا بحق. فحين اكتشف آدم أنها "رفضت النوم تحته" أمرها بالرحيل. رفضت ليليث الأمر ولكنها رحلت بعد كفاح طويل واتخذت لها موئلاً فى البحر الأحمر، حيث كانت توفر حليبًا لمائة شيطان فى اليوم. وبعد ذلك بفترة قصيرة نجد صورًا لليليث كامرأة عارية جميلة ذات نهدين بارزين وشعر طويل مسترسل، وعضو جنسي كبير وساقان مقيدتان ببعضهما. فى ذلك الوقت كانت قد أصبحت ملعونة من الرب وكان من الممكن إبعادها باستخدام النظم والتمائم. ولم يبد أنها تأثرت بالمعتقدات الخرافية وظلت تثير غضب الإله إلى أن ألقى بها إلى الأبد فى أعماق البحر؛ وبعد ذلك، وفى حالة واحدة على الأقل، جاء ذكرها على أنها "لوياثان(*) أنثى". وكان الرجال يدركون مدى ما هم فيه من مشاكل حين يرونها (١٧).

باختصار، كانت ليليث أنثى. وكانت تفترس الرجال ـ غير المتزوجين عادة ـ الذين يجدون صعوبة فى مقاومة سحرها. وكانت تعيش فى الماء، ولها شعر طويل، ونهدان،

(*) لوياثان كلمة عبرية معناه الملتف أو الملتوى، وجاءت فى سفر أشعيا "فى ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه العظيم الشديد لوياثان الحية الهاربة. لوياثان الحية المتحوية ويقتل التنين الذى فى البحر (المترجم).

وساقان ملتصقان ببعضهما. وكان يُشار إليها في بعض الأحيان على أنها سمكة. وكانت تمسك في يدها شيئًا لا يختلف عن المرآة. وكانت تحب الليل وترتبط بالعواصف، وكانت تختفي بعد مواقعة الرجال. وأخيراً فإنه بالإمكان جعلها غير ضارة بالتعاويذ والتمائم. وتصدق كل هذه الأشياء على عروس البحر، سوى أنه في حالة ليليث يصبح السحر وسيلة تستخدمها هي للعنة الرجال. وما لا ينبغي أن يوحي بأنها تنحدر من تلك المخلوقة السامية، بل ربما يكون التراث الخاص بليليث قد أسهم في تكوين الشكل الحالي لعروس البحر وربما بقائها الأساسي.

إذا كانت ليليث قد ساعدت في تشكيل شخصية عروس البحر، فلا يزال هناك مخلوق آخر أكثر أهمية يجب تناوله، إن نحن أردنا البحث عن الأصول الجوهرية لهذه الفتاة ذات الذيل. وهذا المخلوق هو الكلبى الذى يعرف بأسماء مختلفة مثل نكس nix و nuggie و each usige أو حصان الماء، و ثور الماء. وربما كان هذا الحيوان الغريب هو أقدم أنواع أسلاف عروس البحر الشماليين كافة وأكثرها بدائية.

كان الناس لا يزالون يؤمنون بما قد تكون أكثر الأفكار بدائية عن تلك المخلوقات منذ ما يقل عن قرن مضى في جزر شتلاند. وهنا نجد حصانًا رماديًا صغيراً يتسم بالوسامة. وبالإضافة إلى حقيقة أنه كان أجمل من كل الخيل، فقد كان يختلف عنها في جانب آخر. إذ كانت لديه عجلة في عجزه بدلاً من الذيل المعتاد. وحين يظهر الناس كان حصان الماء يحرص على إخفاء العجلة بين ساقيه كي لا يراها أحد. وكان الأغراب يفتتون بجماله الشديد بحيث لا يمكنهم مقاومة ركوبه. وكان الحيوان يقف وديعًا ويسمح للراكب بامتطائه، ويمضى به بعيداً إلى أن يبلغ الماء؛ وكان ذلك الماء إما بركة صغيرة أو نهر أو بحيرة. وهناك يتحول الحيوان الوديع إلى وحش هائج ويلقى براكبه في الماء ثم يغوص في الأعماق ويختفى مع ظهور لهب أزرق ضئيل (*).

كانت لحصان الماء عادة مزعجة أخرى. فحين لم يكن هناك من يمتطونه ليغرقهم في الماء، كان يقضى وقته واقفًا على السواقى ويمنع دوران الطواحين. وكانت هناك

(*) نلاحظ هنا تشابهاً مع الحكاية التى تُروى فى الريف المصرى عن الحمار الذى يلقاه أحد المزارعين وهو عائد من الحقل ويمتطيه فيطول الحمار، إلا أن راكبه يسيطر عليه بغرس سكين أو منجل في ظهره. (المترجم).

طريقة وحيدة يمكن إبعاده بها وهى إلقاء قطعة خشب مشتعلة فى مسقط الماء الذى يدير الطاحونة. ولتيسير ذلك كانوا يصنعون بابًا منزلقًا فى كثير من الطواحين. وما إن تلمس قطعة الخشب المشتعلة الماء حتى يخرج المخادع. ليس ذلك وحسب، بل تغير النار اتجاه حوافره (أو تكشف أن الطبيعة قد جعلتها هكذا وأنه يخفى الحقيقة) (١٨).

قد يكون هناك بعض الشك فى أن هذا المخلوق يتصل بطريقة ما بعبادة الشمس القديمة. فقد كانت العجلة تمثل الشمس بالنسبة للكلتيين. وفى الوقت الراهن، وكما ذكرنا آنفًا، فإنه فى بعض المناطق النائية من جزر هيبريديز لا يزال الناس "يخمدون النار" smoor the fire حين يغطونها بالرماد أثناء الليل. ذلك أن الشخص كبير السن الذى يغطيها يرسم صورة عجلة على الرماد ويتلو دعاء لكل قطعة فيما بين كل سؤاستين من سؤاسات العجلة. ويعود هذا التقليد إلى العجلة التى على الصليب الكلتى، ومن قبل الصليب كانت العجلة نفسها تظهر محفورة على الأحجار القديمة.

إذا كان هناك أى شك فى أن الكلبى رمز شمسى فإن العامل الحاسم يأتى مع مغادرة الحصان الرمادى الصغير الذى يختفى فى الماء العميق مع ظهور لهب أزرق ضئيل. ومعروف منذ زمن طويل لعدد قليل من البحارة المراقبين أن ظاهرة شديد الغرابة تحدث حين تغرب الشمس فى البحر. وقد نبهنى لهذا أول مرة القبطان الراحل هالزى باول Halsey Powell منذ سنوات عديدة ولاحظته عقب ذلك فى عدة مناسبات من خلال المنظار. ففى أمسية هادئة كانت السماء فيها صافية، حيث غربت الشمس تمامًا عن الأرض، وبعد ثوان فقط من اختفاء الأطراف العليا وراء الأفق، لمع للحظة لهب أخضر يميل للزرقة على هيئة لهب الشمعة فى الأفق. وإذا كنت محقًا، فإن لون الحصان قد يكون رمزًا لحافة الليل (١٩).

إذا ثبت صحة الافتراض فإننا قد نكون إلى حد كبير أمام واحدة من أقدم حكايات العالم القديم الشعبية. فعلى عكس فيبوس(*) Phoebus بعربته أو الكائنات الخارقة فى الأساطير القديمة الأخرى الخاصة بالشمس، يجر حصان البحر الشمس

(*) هذا هو اسمه عند الإغريق أما الرومان فكانوا يسمونه أبوللو Apollo وهو إله الشمس عند الإغريق. (المترجم)

الملتصقة به هو نفسه. بل إنه إذا كان الجزء الخاص بالضوء الأزرق قديمًا قدم بقية الحكاية، فحينئذ قد يكون أصل حصان الماء وحتى عروس البحر نفسها في البحر، وليس في بحيرات المياه العذبة والأنهار كما كان يُظن من قبل (٢٠).

إلا أن قصة حصان البحر لا تنتهي هنا. ذلك أنها إلى الجنوب من ذلك تأخذ منحى أكثر تعقيداً. ففي إسكوتلندا يصور الكلبي أو حصان الماء في صورة حصان جميل. ولونه على الساحل الغربي قاتم، في حين أنه زاه على الساحل الشرقي. ولابد أن نتذكر أن الساحل الشرقي أقرب إلى جزر شتلاند من الساحل الغربي.(٢١) وهو يقتات على طول حواف البحيرات العميقة والبحر نفسه. ويمكن أن يلقح الأفراس الأرضية ويكون النتاج وسيمًا وقويًا ولكنه يفتقر إلى القدرة على العيش في البر والبحر معًا التي يتمتع بها أبوه. وعمومًا فإن الكلبي يتسم بفخامة ما عليه من سرج ولجام. وهو يتمتع بصفة مميزة غالبًا ما يغفلها المتهورون، وهي أن في شعر عنقه رمل.

وهو يقف هادئًا عند قدوم غريب، فتقفز الضحية التعسة على ظهره ويمسك باللجام. وبعد ذلك يجد الراكب نفسه ملتصقًا بالحيوان الذي يقفز على الفور في المياه العميقة بالضحية التعسة. وفي إسكوتلندا حكاية عن حصان جميل توقف أمام مبنى مدرسة أثناء الفسحة. ركب الأطفال جميعًا الحصان الذي كان يقف في وداعة إلا طفلاً واحداً. تباطأ الطفل في الركوب. فقد وقف شعر رأسه ومع ذلك عاد ولمس جلد الكلبي بإصبعه بدلاً من أن يمتطيه. وعلى الفور التصق بالحصان الذي جرى بهم ناحية البحيرة. وحين أدرك دوجلاس Douglas الصغير محنته قطع إصبعه في الحال كي ينقذ نفسه، ولكن أصدقاءه جميعًا أُغرقوا (٢٢).

وتأتي قصة شديدة الشبه من ميريلاند. إذ يروون هناك أن الكلبي حصان أحمر يخرج من البحر ويكون ودوداً جداً. فإذا امتطاه أحد غاص به في البحر، حيث يمكن أن يعيش ولكنه لا يعود. وقد رأى صبي الكلبي دون أن يعرف كنهه ومسح على رأسه بيده وعلى الفور التصق بالحيوان ووجد نفسه محمولاً بسرعة في اتجاه البحر. وبسرعة البرق أخرج سكينًا وقطع يده. وإن لم يكن قد فعل ذلك بالسرعة الواجبة، إذ قفز الحصان في الماء تاركًا إياه على الحافة تمامًا (٢٣).

وتخبرنا حكاية أخرى من إسكوتلندا عن الكلبى الذى جاء إلى منزل إحدى الفتيات متنكراً فى هيئة رجل كى يراقبها وهى تغزل. علم والدها بأمر الزائر الليلى وتنكر فى هيئة ابنته. وحين وصل الكلبى ألقى الأب الماء المغلى على قدم الزائر المفترض، وعلى الفور تحولت القدم إلى حافر. طلب الكلبى معرفة الذى أحرقه. قال الأب: "أنا الذى أحرقتك." اندفع الكلبى إلى خارج المنزل وانضم إلى زملائه فى الخارج ورجاهم أن ينتقموا له. وسألوا بدورهم عن الذى فعلها، فقال الحصان: "أنا الذى فعلتها." ومن هنا استنتجوا أنه هو الذى أراق الماء المغلى على نفسه وعادت المجموعة كلها إلى البحيرة ولم تعد مرة أخرى (٢٤).

وفى لوخ بوسديل Loch Boisdale سجلت حدوتين لهما طابع أكثر تعقيداً. وقد رويت هاتين الحكايتين عن each uisage (التسمية الغيلية للكلبى).

من المفترض أن هناك وحشاً مخيفاً جداً يعيش فى أنهار أو بحيرات جبلية بعينها، أو فى البحر فى بعض الأماكن، ويمكن أن يتخذ هيئة البشر ويصبح شاباً وسيماً جداً، وتكون عينه على السيدات كذلك. وهناك العديد من الحكايات التى رويت عنه. ومن الواضح أنه فى صورته الوحشية وهذه إحدى حكاياته. فقد التقى بفتاة جميلة على مقربة من الشاطئ ووقع فى غرامها، ولكنه عرف أنها إذا رأت فى يوم من الأيام أنه حصان ماء فلن تهتم به. ولذلك غير نفسه إلى شاب وسيم أشد ما تكون الوسامة وكان يلتقيان هناك كثيراً. خطبها للزواج، وبينما كانا جالسين فى يوم من الأيام على مكان مرتفع عن البحر يتحدثان مع بعضهما - وكانت الشمس ترسل أشعتها الدافئة - شعر بالنعاس. راح فى النوم ورأسه فى حجر الفتاة. كانت تمسح على شعره وتفكر فى مقدار ما هى فيه من سعادة - كل ما أتى لها به من سعادة - وشعرت بشيء خشن ونظرت لأسفل لتجد رملاً فى رأسه، بل لاحظت أن شعره أصبح أعشاباً بحرية وطحلباً بحرياً [ kelp ]. ونظرت لأسفل فوجدت أن قدميه صارتا حافرين، وأدركت على الفور ما هو. وبرفق أبعدت رأسه وفرت، وكانت تلك آخر مرة يراها فيها.

وهناك حكاية أخرى عن هذه المرأة، وهى من ذلك النوع من الحكايات الذى تكون فيهما زوجة الأب ابنة زوج جميلة. ولم تكن ابنتها قبيحة المنظر بحيث تعاف النظر

إليها، بل كانت على قدر كبير من قسوة القلب والمزاجية. لم يكن فيها أى شىء. وقد خطبها شاب ثرى كانت تظن أنه شديد الصرامة والقسوة، ولم يكن بيدها شىء - واستهانت به - كانت تعرف أنها امتلكته وكانت تغازل كل الرجال الآخرين فى المنطقة. وكانت الابنة الأخرى جميلة جدًا كذلك. ولكنها كانت أكثر تواضعًا، وتعاونًا، وبالطبع كانت تقوم بكل العمل الصعب، لأنها ابنة الزوج وليست ابنة الأم. وكانوا يرسلونها لتصطاد السمك لتطعم الأسرة. وكانوا يرسلونها لتحلب البقر، ولترعى البقر، ولتفعل كل ما لن يفعله غيرها. وفى يوم من الأيام كانت جالسة تصطاد السمك، ولم يكن حظها موفقًا ولكنها لم تجرؤ على العودة. كانت تخاف العودة لأن زوجة أبيها تضربها بالسوط وترسلها لتأتى بالطعام من مكان آخر. لم تكن تعرف أين تذهب. كانت لا تزال تصطاد هناك وكان الكلبى، حصان الماء الذى وقع فى غرامها، يراقبها منذ عدة أيام. ورأى كيف أن لها قلبًا من ذهب، وكم كانت فتاة جميلة فى كل شىء. وفى يوم من الأيام ظهر لها فى هيئة بشرية وتحدث معها، ولم تبح بكل شجونها ولكنها انتهت إلى أنها لا تحيا حياة سعيدة جدًا؛ ذلك أن الأمور لم تكن جيدة جدًا بالنسبة لها. وقال هو: "لم تقومين بالصيد هنا؟" فقالت: "لابد أن أصطاد طعامًا للأسرة." وحينئذ قال: "أعطنى الخيط وسوف أصطاد." وبالطبع أخذ يخرج السمكة تلو الأخرى. ورأت هى أن هذا أمر يدعو للدهشة. وحين رأت زوجة أبيها ما جاءت به أرسلتها فى اليوم التالى مباشرة كى تصطاد مرة أخرى، وظهر لها من جديد واصطاد لها السمك مرة أخرى. فى هذه المرة وقعت فى غرامه هى الأخرى. لم تكن تدرى قط أنه كلبى، ولكنه كان فى هذه الصورة الخارقة يدرى بكل ما يجرى فى القرى المحيطة ويعرف التعاسة التى تسببها أختها للفتاة - التى هى ابنة زوج أمها - ولذلك رأى أنه إذا لم يكن هناك شىء آخر يفعله فمن المؤكد أنه سوف يجعلها سعيدة بطريقة ما. وحدث أن تلك الفتاة اكتشفت أنه حصان ماء وبالطبع لم تأت مرة أخرى. وكانت زوجة أبيها تضربها بالسوط وترسلها لصيد السمك ولكنها كانت ترفض الذهاب بالطبع وأخبرت زوجة أبيها بما حدث وساعتها قرر أن يجعلها سعيدة بالطريقة الوحيدة التى يستطيعها. وكان هناك حفل رقص كبير فى القرية وكان يعرف أن ابنة زوجة الأب سوف تذهب وأنها تهتم بأكثر الشباب وسامة فى الجمع؛ وكان الرجل الذى

ترى أنه الصيد الأكثر احتمالاً هو ذلك الذى يرتدى أغلى عباءة أو يحمل أجمل سيف، أو أى شىء كهذا. قال لمستشاريه: "يجب أن تستعدوا لأننى ذاهب إلى العالم الآخر، وقبل أن ينقضى الليل سنعود ومعنا إنسى." وأبلغهم بكل شىء عن الفتاة ولم يقل لهم الكثير عن الأخت الأخرى التى أحبها. ولكنهم جمعوا الحلى المرصعة بالياقوت وكان حزامه مرصعًا بالماس والزمرد. وكانت لديه عباءة قرمزية طويلة موشاة بالفضة ووضع إكليلاً من الذهب على رأسه. وفى النهاية وضعوه فى عربة تجرها أربعة خيول بيضاء وأسرعوا به إلى سطح البحر وخرجوا إلى البر فى مكان ليس فيه أحد وذهبوا إلى حفل الرقص. كان الشاب الذى كان جاهد فى خطبة ود ابنة زوجة الأب يراقصها وأخذ يظن أنه كسب قلبها أخيراً حين دخل ذلك الغريب الطويل شديد الوسامة ذو الملابس الثمينة. وبالطبع لم تكن ترغب فى غيره بعد ذلك. ورقص معها وامتدحها وخطب ودها وكانت نهاية ذلك أن سار بها إلى الشاطئ وقد سحرها بحيث لم تعرف ما حدث لها إلا بعد فوات الأوان حيث نزل بها إلى ما تحت سطح البحر. وكانت تلك آخر مرة يراها فيها النــاس. فلم يرها أحد بعد ذلك.

جرى تعديل مأثور الكلبى ليصبح ميثولوجيا مسيحية كشأن الكثير من المعتقدات الوثنية الأخرى. ومن المحتمل أن ما يضمره من سوء للبشر، وارتباطه بالنار، وحافره، وحقيقة أنه باستمرار رجل قد دفع المسيحيين الأوائل إلى ربطه بالشيطان. وهو باعتباره الشيطان لا يزال موجوداً فى قصيدة غنائية قديمة ما زالت شائعة فى أمريكا فى الوقت الراهن وتحكى كيف أن جيمس هاريس James Harris عاد من رحلة بحرية إلى بلاد أجنبية واقنع حبيبته المخلصة بالخروج معه إلى البحر. وما إن ابتعدا قليلاً عن الشاطئ حتى رأت حافره (*) وساعتها كان الوقت قد فات. وبعد أن اتخذ هيئته الوحشية

ضرب الدقل الأعلى بيده

والصارى الرئيسى بركبته

(*) تروى فى مصر، فى الريف أو المدينة، حكايات عن أشخاص غرباء يلتقى بهم الشخص أثناء سيره ويظل يتكلم معهم ، ثم ينظر مصادفة إلى قدميه ليجد أنهما حافران فيعرف على الفور أنه عفريت وليس إنسياً. (المترجم)

وأحدث ثقباً فى قاع السفينة

وغرقا إلى قاع البحر [٢٥].

ليس الكلبى مذكوراً فى أغنية مسيحية وحسب، بل إنه أصبح فى وقت مبكر مرتبطاً بالكنيسة فى كل من الحكايات والفن، كما يمكن رؤيته فى منحوتات الكنيسة التى ما تزال موجودة حتى الآن. ويُعتقد أنه فى مناسبة واحدة على الأقل أتى الكلبى بالأحجار لبناء كنيسة فوق إحدى البحيرات. ولم يخبرنا أحد إن كان قد فعل ذلك فى هيئته الوحشية أم وهو فى صورة إنسان. إلا أن الكنيسة سرعان ما أصبحت مسكونة وهجرها الناس.[٢٦]

وبينما يُنظر إلى حصان الماء على أنه يضمر الحقد والشر، فإن ثور الماء ليس كذلك. فالواقع أنه فى بعض الحالات يحمى الناس من المشاكل، وهو ما يوضحه كامبل بحكاية من جزيرة إيليه Islay بجزر هيبريديز.

وُلد على تلك الجزيرة ثور غريب فى حجمه غريب وشكله عرفت ساحرة عجوز أنه من نسل ثور الماء، وأمرت بحبسه فى إحدى الحظائر وإطعامه الحليب لمدة سبعة أعوام.

عندما أوشكت الأعوام السبعة على الانتهاء، التقت فتاة من الجزيرة بغريب طلب منها أن تمشط له شعره. مشطت له الفتاة شعره وأرعبها اكتشاف أن فروة رأسه مغطاة بالأعشاب البحرية الخضراء. استمرت فى تمشيطه حتى نام، وبعد ذلك فرت إلى المنزل. وحين نظرت وراءها رأت حصاناً يتبعها.

فى تلك الأثناء كانت الحيزبون تراقب ما يجرى وأطلقت الثور الضخم الذى انقض على الحصان. تقاتل الاثنان بشراسة إلى أن ألقى الثور بالكلبى فى البحر، حيث استمر القتال. وفى اليوم التالى ألقت الأمواج بالثور على الشاطئ وجسمه دامياً ومشوهاً، غير أن الكلبى لم يره أحد قط بعد ذلك [٢٧].

وليس حصان الماء مجهولاً فى أيرلندا، ولكن يبدو أنه يقصر غاراته إلى حد كبير على البحيرات والأنهار[٢٨]. وكثيراً ما يشاركه فى أنشطته ثور الماء وبقرة بيضاء جميلة ذات دلالات ميثولوجية وسحرية خفية. وقد رويت حكايات عديدة عن هذه البقرة فى

الفصل الثانى. ويقول الصيادون فى جزيرة تورى Tory إن هذه البقرة البيضاء كانت تسكن دائمًا بحيرة على الجزيرة، وإنها لا تزال هناك، بل إنها تظهر كل مائة عام.

فى بعض الأحيان يشعر المرء بالفزع من الرد على سؤال برىء. ففى فانيز هو بخليج ملروى فى أيرلندا سألت عائلة ماكبرايد the MacBrides "هل سمعتم فى يوم من الأيام عن شىء اسمه حصان البحر؟"

"نعم سمعنا."

"هل يفعل حصان البحر هذا شيئًا؟"

"نعم، سمعت عنه. إن له أجنحة كبيرة، ولونه أزرق، أزرق. وهو يغرق سفينة. وعليه جناحان كبيران، نعم، وبعض الناس تخاف منه. إنه خطير. ويخاف منه بحارة القوارب الصغيرة. وهو يخرج إلى الخليج ويقلب القارب. وهى بالمئات هناك. وهذا هو كل ما أعرفه عنه. لم أستطع أن أحكى لك عن حصان البحر. من الأفضل أن أحكى لك عن التمساح."

فى مكان بعيد إلى الشمال فى إسكوتلندا لا يزال الناس يذكرون "رجال قناة مينش Minch الزرق"، وهى مخلوقات تسكن المنطقة المحيطة بجزر شيانت Shiant Islands، إلا أن الذكرى غير واضحة الآن. وحين سألت عن الرجال الزرق جاءنى هذا الرد:

"لابد أنك تقصد 'رجال قناة مينش الزرق'. نعم سمعت عنهم. يقولون إن بإمكانهم إثارة العواصف الضخمة، غير أنى لا أعرف الكثير عنهم فى الواقع." وكانوا فى بداية القرن العشرين تراثًا حيًا. وقد رآهم الناس فى سكاى Skye، وفى تلك الفترة كانت هناك حكاية شائعة عنهم:

**كانت إحدى السفن تبحر بين جزيرة ليويس والجزر المسحورة Na h-Eileinean siant فى القناة التى تسمى نهر الرجال الزرق Struth nam Fear Gorm حين رأوا رجلاً أزرق نائمًا فى البحر. انتشلوه وربطوا رجليه فى يديه بشدة لكى لا يتحرك. وقبل أن تخرج السفينة من نهر الرجال الزرق تبعها رجلان آخران من**

**الرجال الزرق. قال أحدهما: "سيكون دنكان Duncan واحدًا." ورد الآخر: "سيكون فاركهار Farquahar الثاني." وهنا هب الأسير واقفًا وقطع قيوده وغطس في الماء وسبح بعيدًا مع صديقيه."(٢٩)**

كان الرجال الزرق منذ سنوات يوصفون وصفًا أدق وكانت أنشطتهم أشد خطراً. وكان يقال إنهم مجنحون وأجسامهم مدهونة باللون الأزرق ويحبون الغناء. ولكن يبدو أن هذه هي الصفة السارة الوحيدة لديهم. فقد كانوا يهاجمون السفن التي تمر من عند جزر شيانت، وكانوا يصعدون على متنها بأعداد كبيرة ويطالبون بالإتاوة. وإن لم يحصلوا عليها كانوا يحدثون عواصف رهيبة يمكن أن تتغلب على أقوى سفينة. وكانت إحدى طرق الهروب منهم أن يغنى المرء أغنية أفضل من أغنيتهم، أما الطريقة الأخرى فكانت دفع عُشر المال ذهبًا. وكان قائدهم يسمى شونى Shony في القرن السابع عشر، ويقول مارتن مارتن Martin Martin إن السكان المحليين في هالوتايد Hallow-tide كانوا يصبون كأسًا من الجعة الجديدة في البحر ترضية لهذا الإله الذي كان حينذاك يُحْضِر لهم أعشاب البحر لتسميد حقولهم. وبعد الإراقة كانوا يطفئون شمعة أضيئت خصيصًا لهذه المناسبة (٣٠).

يعتقد بعض الباحثين أن الرجال الزرق يجسدون ذكرى شعبية خاصة بالمغاربة الذين كان أهل الشمال يمسكون بهم ويجلبونهم إلى المنطقة. ويعتقد آخرون أنها ذكرى من القرن السادس أو السابع، حين كانت الجزر مأوى للرهبان ذوى الأردية الزرقاء (٣١) . ومن أجل التنويع، يعتقد الناس الموجودون على جزيرة سكاى أنهم بعض الملائكة الفاسدين(٣٢) . أما الاحتمال الرابع، وهو الاحتمال الذى يبدو أن له وزنًا أثقل من الثلاثة الآخرين، فهو أن هذه ذكرى أثرية للبكتيين القدماء. وقد حل محل هؤلاء الرجال الصغار الغزو الكلتى للجزر البريطانية فيما بعد منذ قرون مضت، إلا أننا نعرف الكثير عنهم. فقد كانوا يطلون أجسامهم باللون الأزرق ويعيشون تحت الأرض، ولابد أنهم كانوا بحارة ممتازين، ذلك أن بقايا ثقافتهم موجودة في جزر بعيدة مثل سانت كيلدا St. Kilda (٣٣) . وربما أخذ عنهم الكلتيون بعض معتقداتهم. ومن اللافت للانتباه ملاحظة أنهم حين أقاموا في الجزر كان جزءٌ كبير من طعامهم يتكون من لحم

الفقمة. وبما أن جزر شيانت صالحة للسكنى، فهناك احتمال كبير أن يكون الأفراد الباقون من هذه الجماعة الغريبة (الذين يعتقد بعض الناس أنهم أوجدوا الإيمان بالجنيات) واصلوا العيش فى تلك البقاع النائية التى يصعب الوصول إليها زمنًا طويلاً بعد أن اختفوا من الجزر الكبرى. وهنا، وبسبب صفاتهم المائية، أصبحوا متداخلين فى تراث عروس البحر وغُرانق الماء وحصان الماء والكلبى (٢٤).

بما أننا اقترحنا بعض الأصول المحتملة لحكايات عروس البحر، قد يكون من المفيد كذلك أن نسجل القليل منها لبيان التنوع الذى نقابله.

كانت تلك المعتقدات لا تزال شائعة شيوعًا كبيرًا فى القرن التاسع عشر. وقد كانت من الشيوع بحيث حقق اليابانيون مكاسب كبيرة من بيع عرائس البحر المحنطة - حيث كان الجزء الأعلى من أحد القرود الذى خيط فى الجزء الأسفل من إحدى السمكات - فى أوروبا. إلا أن هذا الشيوع ضعف، وهو لا يزال يحظى بقدر من المصداقية فى المناطق النائية من العالم الناطق بالإنجليزية وحسب.

وفى ذاكرة الأحياء اتجهت سفينة من الساحل الغربى إلى الساحل الشرقى من إسكوتلندا لصيد الرنجة. وذات صباح كانت السفينة تجرى أمام الريح بقليل من الأشرعة وعليها حمولة كبيرة من الأسماك. وفجأة ظهرت عروس بحر فى أعقابهم وتبعتهم. ألقى البحارة الواحد تلو الآخر أسماك الرنجة إليها، ولكن عروس البحر تجاهلتهم إلى أن ألقى شاب بسمكة إليها، فغاصت ولم تظهر من جديد. رست السفينة فى الميناء، وأبلغ القبطان الفتى ألا يخرج إلى البحر مرة أخرى، إذا كانت لحياته قيمة عنده. عمل الفتى بالنصيحة وبقى على البر لمدة عام. وفى يوم من الأيام كان رجل يبحث عن طاقم لتشغيل سفينة صغيرة اشتراها. أدرج الفتى اسمه ضمن القائمة وغادرت السفينة الميناء فى يوم صاف مشمس. وما إن غاب البر عن أنظارهم حتى هبت العاصفة وغرقت السفينة بالطاقم الذى عليها! (٢٥).

الواقع أن هذه نسخة مخففة بعض الشيء من حكاية شائعة. فالمعتاد أنه حين تشاهد عروس البحر فى البحر يراقب أفراد الطاقم حركاتها باهتمام؛ فإذا تبعت السفينة أو نظرت إليها، كان ذلك نذيرًا بحدوث كارثة، أما إذا استدارت أو نظرت بعيدًا

عن السفينة، فإنهم ينظرون إلى هذه العلامة على أنها تبشر بالخير وأن الرحلة سعيدة الحظ. وفى بعض الأحيان كذلك كان يحدث حين تتبع عروس البحر السفينة أن يلقى أفراد الطاقم سكينًا من فوق السفينة، فإذا غاصت يكون معنى هذا أن السفينة سوف تنجو من الدمار. والفكرة هنا بطبيعة الحال هى أن الحديد البارد يبعد الأرواح الشريرة بعيداً، وبما أن البحارة عادة ما كانوا يحملون مدية ذات غمد، فقد كان الحديد يكون على هيئة الصليب. وفى حال عدم نجاح ذلك يكون إبعاد عروس البحر بإلقاء قطع النقود الفضية [٣٦].

أخبرنى القبطان "بوب" روبرتس "Bob" Roberts أن بلدة أورفورد Orford فى إنجلترا كان بها فى يوم من الأيام ميناء ممتاز ولكنه الآن ميناء سيئ، حيث ملأه الطمى الذى تراكم ليشكل حاجزًا عند مدخله. ويشير التراث المحلى إلى أن ذلك حدث لأن إحدى عرائس البحر عوملت معاملة سيئة فسدت الميناء انتقاماً لذلك. وطبقًا لما جاء فى عمل قديم، فقد أمسك الناس بغرانق ماء هناك فى القرن الثانى عشر، حيث لقى الكثير من الإهانة والتعذيب وانتهى به الحال بالإهمال، وأخيراً نجح فى الهرب إلى البحر[٣٧]. وقد يكون من المفيد الإشارة إلى أن حدثًا مشابهًا وقع فى كورنوول Cornwall حيث سدت عروس البحر الميناء فى سيتون Seaton. [٣٨].

وفى كورنوول خنقت الرمال ميناء بادستو Badstow الذى لولا ذلك لكان ميناء ممتازاً. كان الميناء فى يوم من الأيام تحت حماية إحدى عرائس البحر وكان صافيًا ونظيفًا وعميقًا، إلى أن أطلق فى يوم من الأيام أحد صيادى الطيور النار عليها، إما من باب اللهو أو الضغينة. أخطأتها الطلقة ولكن عروس البحر المرحة غضبت غضبًا شديداً. وأقسمت وهى ترفع يدها اليمنى أن تخنق الميناء، ثم اختفت [٣٩].

ومنذ عدة سنوات مضت أبحرت مع رجل لم يكن يخاف الماء. وقد اتضح أنه من أهل جزيرة مان Manxman، وكان هناك اعتقاد على تلك الجزيرة يبدو أنه لا يزال موجوداً، وهو أن أهل الجزيرة ينحدرون من تزاوج بين إنسى وعروس بحر. وقد باركت عروس البحر الذرية بأن جعلتها محصنة من الغرق.

فى مرة من المرات قيل إن عرائس البحر تحيط بالجزيرة وسوف تحدث مشاكل كثيرة. حاولت إحداها خنق راع، وحملت أخريات بحارة إلى مساكنهن تحت الماء، وأحدثت إزعاجًا بصورة عامة. وأخيرًا جاء فارس فهاجمها وطاردها. وحين بدا أنها ربما تكون قد وقعت فى الأسر هربت واحدة منها بعد أن حولت نفسها إلى عصفور السُكسُكة(*)، ومنذ ذلك الحين، وفى أول أيام السنة الجديدة، يبحث الناس على جزيرة مان عن عصافير السُكسُكة ويقتلونها؛ ذلك أنهم يعتقدون أن عرائس البحر جميعها تحول نفسها إلى هذه الصورة فى هذا اليوم(٤٠). وربما انتقلت ذكرى هذه الحكاية إلى أمريكا الشمالية، ذلك أنه يُقال فى خليج تشيسابيك إن عصفور السُكسُكة(*) الجنى ينبئ بالعواصف(٤١).

حين كان يساء إلى عروس البحر لم تكن يرضيها ملء الميناء بالرمل وحسب، بل كانت تحاول فى العادة توقيع العقاب الذى يتناسب مع الجريمة. ففى إسكوتلندا مثلاً أغوى شاب عروس بحر عند مدخل كهف بحرى ثم نسى كل شىء على الفور، إلا أنها أغوته بالعودة إلى الكهف وربطته داخله بسلسلة من الذهب.

وبالقرب من لاندز إند Land's End هناك حكاية تتصل بهذه الحكاية، وهى أنه فى يوم من الأيام كانت هناك امرأة تحمم طفلها فى بركة عميقة. وفى يوم من الأيام أبدلت عرائس البحر الطفل بطفل من أطفالها، ونما الطفل البديل وأصبح فتاة جميلة. ولكن الناس عرفوا أنها من سكان البحر، ليس فقط لأنها كانت تشعر بضيق شديد عند الذهاب إلى الكنيسة أو حتى عند المرور بجوارها، بل بسبب قدرتها الملحوظة على السباحة فى الموج العالى.

كان هناك مزارع يعيش فى مكان قريب لا يحب والدى الفتاة، ولكى ينتقم منهما أقنع جنديًا شابًا باغتصابها. وفعل الشاب ذلك، وأخذ جسم الفتاة فى التحول وماتت فى النهاية وهى تلد حين كان المد يتحول إلى جزر.

(*) أصغر العصافير حجمًا وهو طائر صداح ويتغذى على الحشرات. (المترجم)

وبعد ذلك بوقت قصير وقع المزارع الذى قام بدور القواد فى مشاكل. "لم تثمر المحاصيل، ونفقت الماشية، وشبت النار فى القش وعيدان الذرة، ووضعت الأبقار عجولها قبل الأوان، وأصاب الخيول العرج أو تعثرت وأصيبت ركبها". وأخيراً طُرد المزارع من الأرض التى كان يستأجرها وأصبح سكيراً.

وفى الذكرى السنوية لوفاة الفتاة وجد من أغواها نفسه على الشاطئ حيث كان يسبح. سمع الشاب موسيقى جميلة، وحين بحث عن مصدرها وجد نفسه وجهًا لوجه أمام عروس بحر أمسكت به وشلت حركته بقبلة. ارتفع المد وصاحبته عاصفة. حملت موجة الشاب بعيداً للأبد ، وفى الوقت نفسه ضربت المزارع صاعقة وأحرقته حتى تيبس تماماً (٤٢).

منذ القرون الوسطى وحتى القرن التاسع عشر كانت هناك حكاية شائعة فى إسكندنافيا وإسكوتلندا وأيرلندا عن عروس بحر صادقت صياداً. وهى تسمى أحياناً حكاية الفتى الرمادى .the Gray Lad

فى يوم من الأيام كان ذلك الصياد العجوز الفقير الذى لا أطفال له يصطاد السمك ولم يكن موفقًا فى صيده، وظهرت بجوار القارب عروس بحر وعرضت أن تجعله غنيًا إن هو وعدها أن يعطيها أول مواليده بعد ثلاث سنوات من ذلك الوقت. وبما أن الرجل لم يكن لديه أطفال وافق وأعطته عروس البحر ثلاثة حبات ذرة لزوجته وكلبته وفرسه، وثلاث أخر للزراعة. ونتيجة لحبوب الإخصاب هذه أنجب زوجته ثلاثة توائم، وفرسه ثلاثة أمهار، وكلبته ثلاثة جراء، ونبتت ثلاث شجرات فى فناء المنزل الخلفى.

مرت ثلاث سنوات وتحسنت أحوال الصياد، ولكنه لم يقو على التخلى عن أكبر أبنائه. مدت عروس البحر المهلة إلى أربع سنوات أخر، ولما لم يخرج الطفل، مدتها إلى سبع سنوات أخر. وقبيل الموعد النهائى حكى الرجل العجوز مشكلته للصبى، وخرج الشاب - الفتى الرمادى - فى رحلة على ظهر أحد الأمهار يتبعه أحد الكلاب. وفى طريقه صادق كلبًا وصقراً وثعلب ماء أخبروه أنه إذا احتاج إليهم فسوف يأتون لمساعدته. وأخيراً وصل إلى مملكة لطيفة وحصل على عمل راعيًا للبقر. ومما يؤسف له أنه كان هناك وحش ذو ثلاثة رءوس فى المنطقة يأكل البقر، مما جعل القطيع صغير

العدد وغير منتج؛ إلا أن الفتى قتل الوحش بمساعدة كلبه واكتشف كنزًا كبيراً. سُر الملك حين اكتشف ذلك واستمر الفتى يرعى الأبقار حتى ظهر وحش آخر فى يوم من الأيام يلحق الدمار بالبلاد. ولكى ينقذ الملك قطيعه أمر بإعطاء ابنته للوحش. تدخل الفتى الرمادى وقطع رءوس الوحش الواحد بعد الآخر، وكان فى كل مرة يتقبل أمارة من الفتاة. وفيما بعد، حين حاول شخص ادعاء الانتصار على الوحش، أثبت الفتى أنه هو الذى قتله بعرضه الأمارات وتزوج الفتاة.

عقب ذلك ابتلعه وحش بحرى (عروس بحر فى بعض النسخ). غنت الفتاة وظهر الوحش على سطح الماء واستبدل الكنوز بالفتى، وبعد ذلك هم بابتلاع الفتاة. ولكى يقتل الفتى الوحش كان عليه الذهاب إلى إحدى الجزر واصطياد غزالة بيضاء داخلها طائر، وداخل الطائر سمكة تروتة(*) فى فمها بيضة. أمسك الكلب الذى صادقه بالغزالة، وأمسك الصقر بالطائر، وأمسك ثعلب الماء بالتروتة. استخرج الفتى البيضة وسحقها، وبذلك قتل الوحش.

بعد قليل ضربت ساحرة الفتى على رأسه. وحين عاد إلى البيت بدأت شجرته تذبل، وتبعه شقيقه. ولكن شقيقه ضربته الساحرة كذلك، وذبلت الشجرة الثانية. وحين شاهد الأخ الثالث ما حل بالشجرتين جاء لإنقاذهما، ووجد الساحرة وقتلها واستعاد شقيقيه [٤٣].

هذه الحكاية بطبيعة الحال نسخة بحرية من حكاية "الشقيقان"، وهى من أقدم الحكايات الشعبية وأكثرها شيوعًا. وقد جمع المؤلف نسخًا تكاد تكون متطابقة، بدون عروس البحر، من هنود الموهوك منذ سنوات عديدة [٤٤].

فى الوقت الراهن ليس من السهل الحصول على حكايات عروس البحر فى الجزر البريطانية. لقد سمع بها أناس كثيرون، غير أن قليلين هـم من يميلون للتحدث عنها. إلا أن الوضع كان مختلفًا فى فانيز هول بخليج ملروى:

"هل سمعت يومًا عن شىء اسمه الفتاة المرحة يا مسز ماكبرايد؟"

(*) سمكة من أسماك المياه العذبة. (المترجم)

"نعم، كان يوجد رجل هنا متزوج من عروس بحر."

"فعلاً!"

"نعم. ربما كان ذلك أيام جدى الأكبر أو قبل ذلك؛ ولكنى سمعت ذلك عندما كنت فتاة صغيرة وكانت تخرج دائمًا لصيد السمك على الصخور. وكانت تستحم كذلك. تستحم؛ وكان هو صياد سمك طيب."

مستر ماكبرايد: "كان هناك خور وكانت هناك فتاة مرحة كذلك فى الخور."

مسز ماكبرايد: "ولكنه خرج للصيد. كان هناك شىء فى شبكة كان يضعنها على الرأس وإذا استطعت الاستيلاء على هذه الشبكة، واخد بالك، يمكنك أخذهن، يمكنك أخذهن. ولكنه جاء يوم كانت تجلس فيه - كانت تمشط شعرها على الصخور ورآها. قفز فى الماء وأخذ الشبكة من عليها، ثم قفزت هى فى البحر، وذهب إليها وأخذ الشبكة، أو أيًا ما كان الذى أخذه. وقبل أن تدخل عاد لها نيلها - فهى نصف امرأة ونصف سمكة، وكانت تسير بنيلها وناداها وأخذها إلى البيت واحتجزها هناك يومين - وكان دائمًا يحتفظ تحت كومة الخُث - كانت لديهم نباتات متحللة - وكان دائمًا يخبئ هذه الشبكة، أو أيًا ما كانت، لكى لا يمكنها الذهاب إلى أى مكان. قام الولد الصغير، حين ذهب الأب إلى السوق أو إلى مكان ما - وكان الولد الصغير محبًا للاستطلاع حتى أنها استطاعت أن تتحدث معه بطريقة ما - لا أعرف إن كانت تعرف الكلام أم لا، ولكنه فهم الأم على أية حال وهى فهمته. وأخذها إلى كومة النباتات المتحللة حيث أخفى الأب الشبكة - فأخذتها ورحلت، ولم يروها مرة ثانية."

جيه سى: "وتركت الطفل كذلك؟"

مستر ماكبرايد: "كان لابد أن تذهب. اضطرت للذهاب. كان هناك شىء فى تلك الشبكة."

مسز ماكبرايد: "نعم، نعم، سمعت كثيراً - نعم - كان لى عم، هو ميت الآن، وسمعته يقول فى ديوى - ودعك من ديوى إذا كنت تعرف أين ديوى - هناك عمة لى وبرج بجوار المنزل الآن - فى أسفل منزل فى ديوى على اللسان. على أية حال رآها عمى هذا ورجل آخر جالسة تمشط شعرها - نعم."

إتش بي: "أود رؤية ذلك."

مسز ماكبرايد: "وكذلك أنا. كانت هناك جنيات وكل شيء في هذا البلد. نعم، ولكني لا أعرف. لقد اختفت"(٤٥).

مما يؤسف له أن تراث عروس البحر والجنيَّة وحصان الماء تدهور في أمريكا الشمالية أكثر مما في أيرلندا. ومن الصعب معرفة السبب الذي وراء ذلك، إذ كان هناك إيمان شديد بهذه الكائنات بين الهنود الأمريكيين من مين حتى فلوريدا وحتى الساحل الشمالي الغربي للمحيط الهادئ. وحيثما كان المناخ قد أُعد لنوع معين من الحكايات، كانت الحكايات المروية تزدهر. ويعتقد أفراد عائلة نيبتون، وهم زعماء بالوراثة لبينوبسكوت Penobscot في ولاية مين ،أنهم ينحدرون من نصف إنسان ونصف سمكة كان يعيش في حفرة تحت إنديان آيلاند وكان يتنبأ بوقوع أي خطر للقبيلة. وكان ذلك المخلوق يُغرق من يسقطون في الماء ويسد عيونهم وآذانهم وأفواههم بالطين. وآخر مرة شوهد فيها كان قبل انتشار الكوليرا في عام ١٩٤٩،(٤٦) واسمه هو هابودامجن Hap-odamguen.(٤٧)

في عام ١٦١٠ رسا القبطان ويتبورن Whitbourne في سانت جونز في نيوفاوندلاند حيث اقترب منه مخلوق غريب يسبح في اتجاهه "ينظر بمرح كما لو كان امرأة، من حيث الوجه والعينين والأنف والفم والأذنين والرقبة والجبهة". وحين تراجع القبطان الطبيب فزعًا إلى حد ما، دار وحاول القفز في قارب ويليام هوكريدج William Hawkridge ولكنه تلقى ضربة مؤلمة على رأسه. وكما قال القبطان ويتبورن، "أترك للآخرين الحكم إن كانت عروس بحر أو لا"(٤٨).

وفي القرن نفسه التقى جون سميث بعروس بحر جميلة في جزر الهند الغربية، حيث سبق أن رآها كريستوفر كولمبس. وبينما لم يدهش جمالها كولمبس (وربما كان ما رآه في الواقع فظًا أو فقمة)، فقد وجد القبطان جون المرأة شديدة الجاذبية. كانت لها "عينان واسعتان مستديرتان بعض الشيء ، وأنف دقيق قصير بعض الشيء، وأذنان صغيرتان أحسن تشكيلهما طويلتان بعض الشيء، وكان شعرها الأخضر الطويل

يضفى عليها طابعًا أصيلاً..." وقد أصابه الفزع حين أمعن النظر فيها ليكتشف أن هذا الجمال من الوسط لأسفل "يأخذ شكل السمكة" (٤٩).

سبق أن ذكرنا تجربة مستر ميتر مع غُرانق الماء فى خليج كاسكو. وبعد فترة ليست بالطويلة بعد ذلك التقى القبطان رولو Rouleau ومعه ثلاث سفن فرنسية بغُرانق ماء قبالة نوفا سكوشا، حيث حاولوا الإمساك به بالحبال وفشلوا. "كان يمشط شعره الذى تكسوه الطحالب ويبعده عن عينيه، وكان يبدو أنه يغطى جسمه كذلك؛ وحسبما كان يبدو من فوق الماء، فقد كان أكثر فى بعض المناطق وأقل فى غيرها." وبعد أن اتضحت الرؤية أمامه غطس فى الماء ولم يره أحد مرة أخرى، مما أحزن الصيادين إلى حد كبير(٥٠).

يبدو أن القرن الثامن عشر كان أكثر إنتاجية من القرن الذى سبقه فى مناقشة عرائس البحر فى أمريكا الشمالية. وفى القرن التاسع عشر يقول باسيت Bassett إن حكايات عرائس البحر لم تكن جميعها غير شائعة فى الولايات المتحدة. وهو يسجل حكاية جُمعت من امرأة زنجية قالت إن عرائس البحر أنقذتها، وأخذتها إلى قصر تحت الماء وبعد ذلك وضعتها على متن سفينة. وتروى حكاية أخرى أن عروس بحر صعدت سفينة صيد أمريكية وجرحت يدها. وقد غاصت وهى تتنهد ولم يرها أحد بعد ذلك.(٥١)

ورويت حكاية أكثر إثارة إلى حد ما فى مين. فقد قال القبطان كيتريدج Kittridge لهارييت بيتشر ستو Harriet Beecher Stowe:

**ذات مرة كنت فى جزر البهاما ـ كان صباح يوم أحد فى شهر يونيو، الأحد الأول من الشهر ـ ألقينا المرساة على مقربة من شعب مرجانى، وكنت أوشك على الجلوس للقراءة فى كتابى المقدس حين صعد غُرانق ماء فوق جانب السفينة، وكان يرتدى ملابس فاخرة كأى غندور رأيته فى حياتك، وكان يلبس قبعة مردودة وجوارب من الحرير وحذاء به إبزيم، وكانت ملابسه خضراء تميل للزرقة وكان إبزيم حذائه يلمع كالماس ... جاءنى وانحنى أمامى انحناءة هى الأكثر تأدبًا وقال لى "أظنك القبطان كيتريدج" وقلت أنا "نعم يا سيدى." فقال "آسف لمقاطعة قراءتك." فرددت عليه قائلاً: "لا بأس يا سيدى." فقال "ولكن لو تتكرم فقط برفع**

**مرساتك. فقد ألقيت مرساتك أمام باب منزلي الأمامي، ولا تستطيع زوجتي وعائلتي الخروج للذهاب للاجتماع ....» كان من الأدب بحيث أردت أن أعتذر له. (ورفعت المرساة.)** [٥٢] .

قبل ذلك بسنوات، وفي كورنوول، كانت هناك حكاية عن عروس بحر كانت تأتي الكنيسة من حين لآخر وكانت تستمع لغناء رئيس الكورال ماثيو تروهالا **Mathew Tre-whalla.** كانت تأتي العام إثر العام ولم يتغير مظهرها قط ولم يخفت صوتها الرائع قط. وفي النهاية أغرت رئيس الكورال بالانضمام إليها واختفيا في البحر ولم يرهما أحد على الشاطئ مرة أخرى؛ وإن كان الناس يسمعونه من حين لآخر يغني في خور بنداور **Pendower Cove.** وبعد عدة سنوات من اختفائه ألقى قبطان مرساته في الخور. صعدت عروس بحر على السفينة وطلبت منه نقل المرساة لأنها تسد باب منزلها ولا يمكنها الدخول لرؤية أطفالها وزوجها ماثيو تروهالا [٥٣] .

بعض هذه الحواديت يستمر في البقاء أكثر من غيره، ومن المؤكد أن تجربة مستر ميتر واحدة من هذه الحواديت. فمنذ سنوات ليست بالبعيدة كان صياد سمك يصطاد بمفرده في قارب صغير قبالة ساحل نيوفاوندلاند. وعند الظهر توقف عن الصيد وبدأ تناول طعام الغداء، حين أدهشه وأزعجه أن يكتشف غُرانق ماء يوشك أن يصعد فوق القارب. حاول إبعاده ولكنه لم ينجح في إخافته، فأمسك خطاف السمك وضربه على أصابع وبعدها أصبح له اهتمام حي بأشياء أخرى.

ولم يكن هذا غُرانق الماء الوحيد في المنطقة، ذلك أنه في نفس الوقت تقريبًا كان رجلان يصيدان في (خليج) كات آرم **Cat Arm (Bay)** حين رأيا مخلوقًا في الماء فأطلقا النار عليه. وغرق أيا ما كان ذلك المخلوق، ولكن بعد وقت قصير ألقت الأمواج بغُرانق ماء ميت ذي لحية سوداء وشعر أسود على الشاطئ بالقرب من هذا المكان [٥٤].

وفي مرة أخرى حاصرت عاصفة عاتية رجلاً في قارب صغير. وحين أصبح الموقف أشد ما يكون حرجًا، ظهرت عروس بحر وصعدت فوق الحافة وقادت القارب بسلام في الأمواج حتى الشاطئ [٥٥].

يرد ذكر عروس البحر وغُرانق الماء مرارًا في الأدب القديم ليس في نيوفاوندلاند وحسب، بل كذلك في جزيرة برنس إدوارد **Prince Edward Island** وكيب بريتون **Cape**

Breton ونوفا سكوشا، ومن حين لآخر لا يزال هناك من يقول إنه رآها. ويعتقد الناس أن ساحراً هندياً حول فتاة إلى عروس بحر في جزيرة برنس إدوارد (٥٦) . وقد أخضعت عروس بحر بعد الاستيلاء على قوقعتها في نوفا سكوشا (٥٧).

في نفس هذه المنطقة العامة يبدو كذلك أن هناك تراثًا حيًا خاصًا بالكلبي، ولكن هذا المخلوق أصبح في الآونة الأخيرة يخلط بينه وبين الشيطان. وتكفي حدوتان. في إحداهما يظهر غريب وسيم حسب الملبس بالقرب من الساحل ويدخل حانة يلعب فيها الورق، ولكنهم بسرعان ما يتعرفون عليه حين أسقط أحد اللاعبين الورق واكتشف أن خصمه له حافر مشقوق. ولو لم يكن هناك تركيز على الجمال الشخصي وحقيقة أن الحدث وقع على مقربة من منطقة مائية، لظننا أننا نتعامل مع حكاية من حكايات الشيطان (٥٨) .

وتأتي حكاية أخرى من المصدر ذاته. وفي هذه الحالة رأى رجل حصانًا أبيض جميلاً يقف في الطريق. ولعجزه عن مقاومة الإغراء، امتطاه وسار به في الطريق. وفجأة حرن الحيوان وأخذ يعلو. ضربه الراكب بسوط، إلا أن الحصان الشيطاني أخذ يعلو في الهواء وأخيراً نجح الراكب بأقصى جهد منه في إلقاء نفسه على الأرض، حيث هبط بقوة وتكسرت عظامه(*) (٥٩).

قد يكون المعقل الكبير الأخير لسكان البحر هو جزر الهند الغربية، حيث ينتعشون بقوة اليوم انتعاشهم في العالم القديم، وإن اختلف الشكل إلى حد ما. فكل بحيرة وجدول وخور في الجزر تقريبًا كان مسكنًا لأحد تلك الكائنات خلال الأربعين سنة الماضية، حيث بدأت في العقد الأخير فقط في هجر بيوتها؛ حيث أبعدتها "أدخنة البنزين" (٦٠).

في مايو ١٩٧١ رأى رجل يعيش في جزر ويندوورد Windward Islands حلمًا غريبًا. فقد جاءته عروس بحر عارية، لأنها كانت تشعر بحر شديد بحيث لم يمكنها ارتداء ملابسها. قالت له عروس البحر إن أهل الجزيرة أساءوا معاملتها، وما لم يقتل

(*) نفس فكرة حمار الحكايات المصرية الذي يعلو. (المترجم).

شخص ما - وفي الحال - سوف يستمر القحط الذى تعانى منه الجزيرة وسوف تجعل البحر يغلى ويقتل السمك. استيقظ الرجل من نومه فى ضيق وخوف شديدين وأخبر جيرانه بما رأى، وعلى الفور نظموا أضحية تتكون من طيور وشاة نبحوها ونثروا دماءها. وأثناء تلك المراسم نفقت دجاجة ورجلها مرفوعة، مما اعتبروه فألاً حسنًا، وهو لابد أن يكون كذلك. وفي اليوم التالى نزل المطر ولم يغلِ البحر (٦١) .

الإيمان بسكان البحر فى منطقة الكاريبى محفوظ فى الغالب بين السود، وفي الحكايات التى تدور حولهم(٦٢) وهم يظهرون كخليط من معبودة الماء الأفريقية وعروس البحر الإسكوتلندية الأيرلندية الإنجليزية (٦٣). كما أنهم ينقسمون إلى نوعين: الحوريات، وهن إناث ويعشن فى المياه العذبة، وعرائس البحر، وهم ذكور ويعيشون فى المياه المالحة. وبيوت كل منهما كهوف تحت الماء، حيث الحياة شبيهة بالحياة على الأرض، غير أنها على مستوى أفخم. ويُتعرف على الكائنات عادة بشعرها الأشقر الطويل، وعيونها الزرق، وبشرتها البيضاء، ومشطها الذهبى. وكثيرًا جدًا يكون لها حافر مشقوق بالإضافة إلى نيل، أو ما يحل محله. وبالإضافة إلى الأسماء السابقة، فهى تسمى ماما آلو **Mama Alo** أو ماما جو **Mama Jo**، وهما اسمان يطلقان عليها فى أفريقيا (٦٤) . وهذا الخلط الغريب فى المعتقدات يتضح فى حكايات كالحكاية التالية عن تيراكومو **Terracomo** وأنانسى **Anansi** وهذان البطلان محتالان معروفان بصورة كبيرة بين أهل الجزر وكذلك فى أفريقيا :

**خرج بو هوك إلى البحر ليسرق أرزًا. دعا برير تيراكومو، وبرير تيراكومو ليس له جناحان، ولذلك صنعا جناحين من الطين والخشب. طلب هوك من تيراكومو أن يحمل كيسًا واحدًا لأنه ليست له أية أجنحة ولن يستطيع أن يحمل حملاً كبيرًا. ومع ذلك حمل حوالى خمسين كيسًا فى حين حمل بو كيسًا واحدًا فقط. وعند عودتهما هب إعصار. كان برير تيراكومو يحمل حملاً ثقيلاً ولم يستطع الطيران. وحين قال له بو هوك "طر لأعلى!" طار برير تيراكومو لأعلى. سيدى، لم يستطع العودة؛ كان يحمل حملاً ثقيلاً جدًا. طلب منه أن يسقط بعضه. ومع ذلك لم يسقطه. وهبت العاصفة، وخلعت جناحيه. غادر بو هوك مسرعًا وسقط تيراكومو على صخرة عريضة فى البحر.**

**وبينما هو هناك، رأى برير شارابان. قال لبرير شارابان "أرجوك أخرجني من هنا!" قال برير شارابان إنه إذا أمسكه سوف يبلعه. وجاءت برير عروس البحر، وحملته برير عروس البحر إلى البر. وحين حملته إلى البر خلع برير تيراكومو أحد ثديي عروس البحر وعاد به إلى البيت وسلقه مع الأرز. وبعد أن وجد أنه دسم وحلو، دعا أصدقاء كثيرين ليرى إن كانوا يستطيعون إحضار الثدي الآخر.**

**فكر برير عروس البحر بسرعة جداً. رقدت كأنها ميتة. ولذلك قال الرجال هناك "إذا كانت ميتة فإنهم عندما يلكزونه سوف يركل." وذهبوا ولكزوه بعصا ورفع رجلــه وركل، وتركوا المكان بســــرعة وقالوا إن الميت لا يمــكن أن يركل. ولذلك لم ينجحوا فى المرة الثانية. وهنا انتهت الحكاية (٦٥) .**

يتسم كل من عرائس البحر والجنيات بالخطورة، وتلك التى تشبه الهنود تعتبر الأكثر شراً. وأحد الأشياء التى تسعى وراءها ظل الرجل، وما إن يُمتلك فإن الشخص الذى فقد ظله قد يصاب بالجنون، لأن الظل والروح والعقل عند أهل جزر الهند الغربية مرتبطة ببعضها ارتباطاً لا ينفصم. وهى تقع فى غرام الإنس فى بعض الأحيان كذلك وتحملهم إلى الكهوف عن طريق "شق الماء". وفى حال تناول ذلك الشخص المتهور أى شىء فى تلك الكهوف، فإن نتيجة ذلك تكون أشبه بما يحدث للإنس الذين يأكلون الطعام فى أرض الحوريات؛ فإنهم لا يعودون للأرض أبداً.

وسكان البحر هؤلاء لديهم القدرة على التحول وكثيراً ما يأتون إلى البر فى هيئة قطط. وهم يقتربون من ضحيتهم فى هذه الصورة ويفرون بظله؛ ولهذا السبب لا تحظى القطط الضالة فى جزر الهند الغربية بأفضل معاملة، بل إنهم يسيئون معاملتها ويقتلونها فى بعض الأحيان.

وعلى عكس أقارب هذه المخلوقات الشماليين، فإن الناس لا يخافونها خوفاً مبالغاً فيه، ذلك أنها بطيئة الفهم ويسهل خداعها. (فى إحدى الحالات، ولمعرفة الضحية حب عرائس البحر للجمال، فإنه يجعل عروس البحر تحول حبها إليه بعمل حديقة زهور تأسر قلبها) . وحين تُخدع يكون بالإمكان جعلها تمنح الهدايا العديدة؛ من الذهب أو القوى الخاصة. وفى بعض الأحيان كذلك تأتى للإنس طلباً للمساعدة وتكافئ من يقدم

لها العون على مساعدته. ونتذكر حكاية عروس البحر الإنجليزية حين نعرف أن طبيباً عادياً قام بتوليد زوجة عروس بحر فى كهفهما تحت الماء وعند العودة مُنح مهارة تفوق قدرات البشر كطبيب(٦٦) . وقبل أن أترك مخلوقات جزر الهند الغربية هذه، ينبغى أن أورد حكايتين من بين العدد الكبير الذى جمعته من هناك كى أعطى فكرة عن التنوع الموجود فيها:

**هذه قصة فتاة كانت تطارح سمكة الغرام وفى كل مرة تأتى لم تكن أمها تعرف عن ذلك وفى كل مرة تأتى تبيع كعكتها تقول " A chez a Mini Bon Bon" ومينى بيل Mini Belle هو اسم الفتاة. كانت تقول "Mini Belle, Mini Belle, Mini Belle-O." وفى مرة من المرات قضى الأخ على السمكة لأن الأخ ذهب وغنى الأغنية، نفس الأغنية وحين جاءت السمكة قضى على السمكة وبعد ذلك حين جاءت الأخت مينى بيل هذه، لمقابلة أوشن Oshun كل ما استطاعت أن تقدمه هو عدم ظهور أوشن لأن أوشن قتلها الأخ ولذلك استمرت فى الغناء ولم تستطع رؤية أوشن ولذلك نزلت فى الماء حتى وصلت إلى قاع البحر وبعد ذلك أصبحت عروس بحر (٦٧) .**

وفى جريندا التقيت ببحار عجوز كان قد التقى بعروس بحر. "كانت السيدة جالسة وكانت تمشط شعرها، أنقى شعر فى الوجود." حاول هو وصديقه الحصول على المشط لأنهما كانا يعرفان أنهما إذا حصلا عليه فإنه يمكنهما "الحصول على الملايين، لأنك إذا كان لديك مشطها لابد أن تفعل أى شىء تطلبه منها كى تستعيد مشطها." ومما يؤسف له أن المحاولة فشلت ولم ير أحد السيدة الجميلة مرة أخرى. وبعد ذلك روى حكاية أقل تقليدية:

**فى الأيام الخوالى كنا نرى النهر ينزل متدفعاً فى الفيضان وكنا نسمع موسيقى آتية عبر النهر وكنا نراها جالسة على طاولة، تبحر على طاولة معها وكانت تعزف هذه الموسيقى فى سحابة وكانت تظل تعزف حتى تصل إلى مصب النهر وبعد ذلك تختفى الطاولة وتتوقف عن العزف وتقدم الشاى. والآن أنا رأيت عروس البحر هذه بنفسى (٦٨) .**

معظم الحكايات المتعلقة بعروس البحر أو الكلبى التى تروى أو يتذكرها الناس الآن فى أمريكا الشمالية مضحكة ومخففة بصورة كبيرة مقارنة بحكايات العالم القديم. ويحكى الزنوج الجنوبيون عن حصان بنى اللون يعيش فى الصخور على طول الأنهار ويتنبأ بوقوع الكوارث، إلا أنه إذا سمع حصان مريض أحد هذه الحيوان يصهل فإنه يتعافى. كما يحكون عن عروس بحر تعيش فى أحد الجداول وتخرج من حين لآخر لتركب على رادياتير السيارات (٦٩).

وتأتى من نيو إنجلاند قصة الهنديين اللذين كان يصطادان السمك فى خليج مسكونجس Muscongus فى قارب صغير. غمزت بسنارة الهندى الذى فى المقدمة وأخرج عروس بحر ذات عينين زرقاوين وشعر أشقر. أخذ يتفحصها لبرهة ثم أخرج الشص وألقى بها فى الماء. حتى هذا اللحظة لم يقل الهندى الذى فى المؤخرة شيئًا، ولكنه لاحظ ما جرى، ثم تحدث. "لماذا؟" وضع الهندى الآخر الطُعم فى السنارة وألقى بالخيط. سأله "كيف؟" .

روت لى كريستين كنيدى Christine Kennedy من برود كوف Broad Cove فى كيب بريتون أنه فى أوقات بعينها ولأسباب معينة، مثل حراسة كنز ما، أو أثناء إحدى العواصف، كان أناس صغار يُرون فى الأمواج وكانوا يرتدون قبعات حمراء وكانوا يغنون فى بعض الأحيان. كما روت أنه منذ سنوات كثيرة مضت أن بعض الصيادين كانوا يمشون على طول الشاطئ وقت الغروب. نظر أحدهم فى الماء وأدهشه أن يرى بقرة جميلة بيضاء تقف فى الماء والأمواج تتكسر على ثدييها. نادى على زملائه وحين نظروا مرة أخرى لم تكن البقرة موجودة.

يحسن أن نختم بهذه الحكاية النبوئية، لأن سكان البحر كائنات حقيقية فى سبيلها إلى الاختفاء. فإنهم يتحولون إلى أشياء مضحكة، والحكايات التى تدور حولهم تفقد قوتها وحيوتها. وعما قريب سوف يختفون مثل بقرة برود كوف البيضاء، ولكنهم سيبقون كخيال. إلا أنهم حين يختفون سنكون قد فقدنا شيئًا شديد القدم وعزيزًا إلى حد كبير.

وكما أشرنا، فإن الخيوط التي يتكون منها حبل الحكايات التي تدور حول سكان البحر تأتي من مناطق كثيرة ويمتد الحبل ذاته إلى أزمنة قديمة، ربما أبعد مما ندركه الآن. وقد اختلط الإيمان بداجون وبليليث من الشرق الأدنى بما قد يكون معتقداً أقدم من أي منها ومحفوظ في العجلة التي في مؤخرة حصان الماء. وإذا كان هذا صحيحاً، فإن لدينا بين حكايات عروس البحر النسخ الشمالية المميزة عن النسخ الأخرى من ناحية الموتيف الخاص بالملابس السحرية؛ الشيء الذي قد لا يعود فقط إلى خطوط العرض العليا وإنما إلى العصور الحجرية أو ما قبلها (٧٠) .

# الفصل العاشر

# الوحوش وحيات البحر والجزر المسحورة

« قال الملك » والآن ضعني في السفنية ... فسوف أذهب إلى وادى أفالون كي أشفي من جرحي الخطير ، وإن لم تسمع عنى بعد ذلك ، صل من أجل روحى » .

**السير توماس مالورى**

**Sir Thomas Malory, La Morte d'Arthur -**

يبغض العقل العلمى فكرة الوحوش البحرية والحيات البحرية. ومع ذلك فقد آمن بها الناس منذ أقدم العصور المسجلة، ولا يزالون يؤمنون بها، وإن كان ذلك على استحياء. والواقع أننا إذا تفحصنا كلمة "وحش"[ أو مسخ ] **monester** لن نجد مشكلة. فهى تعنى فى المقام الأول مخلوقًا ضخمًا. ويبدو بعد ذلك أنها توحى بفكرة الندرة وأنه من نوع غير معروف للمراقبين. وهى أخيراً قد تدل على الوحشية أو القبح أو التشوه. ونحن نسمع عن "المولود المسخ" **monster births** حيث يولد الأطفال مشوهين، ولكننا نسمع كذلك حديث الصيادين عن "الدب الوحش"، وحديث صيادى الحيتان عن موبى ديك باعتباره "حوتًا وحشًا". حقيقة أن ميلفيل قال إن موبى ديك له فك معقوف وأنه أمهق وذو مزاج عدوانى، إلا أنه كتلة جسمه الضخمة هى التى أعطته الاسم "وحش". باختصار، فإنه تحت هذا التصنيف يمكن تسمية أى شىء كبير الحجم وغير معروف للمراقب وحشًا لعدم وجود مصطلح أفضل من ذلك وأكثر منه تحديداً.

يمكن تطبيق ما قيل عن الوحوش على الحيات البحرية المساوية لها فى الصفات. وتدل العبارة فقط على فكرة مخلوق أفعوانى بحرى كبير. ويمكن أن نطلق اسم الحية

البحرية على السمكة الشريطية أو الإنقليس الضخم، إلى جانب الكوبرا البحرية والسمكة المجدافية. بل إن شريط الأعشاب البحرية الطويل قد يحسبونه حية بحرية في ظروف بعينها. وفكرة أن الحيات البحرية عظائية(*) وتنفث النار وتخرج دخانًا وأنها بقايا عصر انتهى منذ ملايين السنين هي من اختراع العقل العامي.

ولكي تتعقد الأمور، يصر المعتقد الشعبي على الخلط بين الاثنين، كما يلح على كون الحية البحرية والوحش البحري مخلوقًا قديمًا واحدًا وحسب. وفيما يتعلق بهذا التعريف، يُرجعه المؤمنون به إلى بقايا الميثولوجيا التي كادت تُنسى حيث توجد دودة قديمة من الماضي تقبع على مقربة لقتل الشخص المتهور الذي لا يأخذ حذره، إلى أن يقضي عليها بطل مثل بيوولف(**) .Beowulf

لا تحتكر مجموعة من البشر الإيمان بمثل هذه المخلوقات غير العادية. فهو معتقد عالمي يبدأ من الشرق مرورًا بالهند وأفريقيا إلى اليونان والبحر المتوسط بكامله وصولاً إلى إسكندنافيا. وكانت حكايات عن الحيات والوحوش شائعة حتى بين الهنود الأمريكيين والإسكيمو. ويبدو أن التفكير العلمي يشير إلى أن تلك المعتقدات نشأت في مكان ما في الشرق ثم انتشرت شيئًا فشيئًا في أنحاء أوروبا، إلا أن هناك كذلك احتمالاً بأن تكون هذه المخلوقات، كما بدت للكلتيين والشعب الجرماني، جزءًا من ميثولوجيا شمالية مستقلة كبيرة. وقد يكون الأمر هو أن الجزر المسحورة والبلاد التي تحت البحر وحيوانات الفقمة والفنلنديين والكلبي وسكان البحر هي في واقع الأمر خيوط مهترئة من نسيج ميثولوجيا أعظم بكثير مما نعرفه في الوقت الراهن؛ وهو النسيج الذي ربما كان قديمًا في العصور الحجرية. وقد بقيت أجزاء منه حتى وقتنا هذا بعد أن غيرها التأثير المسيحي تغييرًا كبيرًا.

(*) أي من طائفة الزواحف التي تشمل العظاء، وكانت فيما مضى تشمل التماسيح والديناصورات (المترجم)

(*) البطل الأسطوري لإحدى القصائد مجهولة المؤلف وهي باللغة الإنجليزية القديمة ويعتقد أنها أُلفت في أوائل القرن الثامن الميلادي، وفيها يقتل بيوولف المسخ جريندل، الذي تقول الأساطير إنه من نسل قابيل، وأمه ويصبح ملكًا على الجيت، إلا أنه يموت وهو يحارب التنين (المترجم) .

ويكاد ألا يكون لشيوع الإيمان بهذه المخلوقات فى الدول الاسكندنافية منافس فى العالم، وظلت القصص الخاصة بها تنتعش كأقوى ما يكون الانتعاش فى المنطقة التى يسيطر عليها الفايكنج فى العصور القديمة؛ وهى أماكن من قبيل جرينلاند وجزر الأوركنى وجزر شتلاند وسواحل اسكوتلندا الشمالية. وكان مفهوم الوحوش البحرية فى العصور القديمة من القوة بحيث بلغ الأمر بأهل الشمال أن صمموا سفنهم الطويلة كى تبدو مثل التنين النارى.

يعتمد جزء كبير من معرفتنا بهذه الأفكار القديمة على روايات الأسقف أولاوس ماجنوس **Bishop Olaus magnus** السويدى فى منتصف القرن السادس عشر(١) . وبعد ذلك على ما كتبه الأسقف إيريك بونتوبيدان **Bishop Erick Pontoppidan** الذى كتب "التاريخ الطبيعى للنرويج" فى عام ١٧٥٥، وقد خصص هذان الرجلان صفحات كثيرة للدرو والكراكن(*) واللوياثان والحوت، وهى تبدو جميعًا أسماء مختلفة لموضوعنا. ومما لا شك فيه أن المفهوم الشعبى الخاص بالوحوش والحيات البحرية فى العصور الأحدث يعود إلى المعتقدات التى كان الناس يؤمنون به بقوة فى القرون الأولى من الحقبة المسيحية، وهى تلك المعتقدات التى جعلها ظهور سفن الشماليين الطويلة، التى كانت لها رءوس وذيول على هيئة التنين، ومجاديف كالأرجل، ودروع كالحراشف وأشرعة كالأجنحة، قابلة للتصديق. وعززت ذلك المفهوم الحكايات التى شاعت فى العصور الوسطى؛ وهى حكايات الفرسان والنبلاء الذين يقومون بمهام بحث وتدمير ضد التنين والوحوش حيثما وجدت. والنموذج المثالى فى الفترة المبكرة هو قتل بيوولف للتنين، وفى العصور الوسطى القديس جورج حين طعن التنين بالرمح، وفى وقت لاحق قتل فارس الصليب الأحمر له فى ملحمة إدموند سبنسر الرمزية **.Fairie Queen** وتلك المخلوقات هى ما يكون فى ذهن الشخص العادى حين يتحدث عن الوحوش، وخاصة عن الحيات البحرية.

(*) وحش بحرى فى المأثورات الإسكندنافية كان البحارة يتصورونه مجموعة من الجزر. ويقال إن ظهره طوله ميل ونصف. وحين كان البحارة يقتربون منه تتحول تلك الكتلة إلى عدة رءوس وقرون وأذرع يمكنها الإمساك بأكبر السفن وإغراقها. كما يقال إنه حين يغوص الكراكن يحدث دوامة تبتلع سفينة بكاملها. ويروى أن الأسقف ميداروس وجد كراكن على البر، وظنًا منه أنه صخرة، بنى عليه مذبحًا وأقام القداس. انتظر ذلك المخلوق إلى أن فرغ الأسقف من قداسه ثم انسل فى هدوء إلى البحر (المترجم).

وما من شك كذلك فى أن ما كان يحدث من حين لآخر - من العصور الوسطى حتى القرن الثامن عشر - لاكتشاف عظام متحجرة لمخلوقات ما قبل التاريخ الضخمة لم يبدد تلك المعتقدات. وإذا كانت قد عاشت بالفعل فى يوم من الأيام، ألم يكن من الممكن أنها كانت لا تزال تعيش؛ فى الأعماق البعيدة، أو فى مكان ما بأحد الكهوف، أو فى مكان خفى بعيد من الغابة؟ ألم يكن هناك واحد منها حيًا وبحالة جيدة فى مكان ما؟

إلا أن هذه المخلوقات، بغض النظر عن مدى سحرها لأهل البر، ليست هى على وجه الدقة ما يفكر فيه البحار أو ما كان يفكر فيه طوال قرون كثيرة. وتشير غالبية ما قيل من كلام يتناول الوحوش والحيات البحرية وحسب إلى مخلوق ذى حجم ضخم وصفات غير معتادة قد تبدى العنف نحو الناس وقد لا تبديه. ومن بين الاثنين، نجد أن الحية هى المخلوق الأكثر قولبة. فهى تصور دائمًا على أنها ثعبان ضخم. وهى تتحرك بسرعة بحركات أفقية متموجة، ويتراوح طولها بين أربعين وستين قدمًا، ولها رأس تشبه إلى حد ما رأس الثعبان، وفى أحيان أخرى تكون كرأس السلحفاة أو الأسد أو الحصان. وفى الطرف الآخر فى المؤخرة إما أن يكون لها ذيل الزواحف أو ذيل كذيل السمكة. وعادة ما يكون جسمها مغطى بالحراشف، وغالبًا ما يقال إن لها على رقبتها شعر كشعر الفرس يمتد على الأقل إلى منتصف ظهرها. ومع أنها فى الأزمنة القديمة كانت تهاجم السفن من حين لآخر، فإنها فى العصور الحديثة كانت نادرًا ما تهاجم السفن أو البشر، وكانت تهرب من المطاردة دائمًا. باختصار، فإن أوصافها شحيحة؛ شحيحة شح الأوصاف الخاصة بالأطباق الطائرة، وعدد المرات التى شوهدت فيها الأشياء الطائرة المجهولة فى هذا القرن.

على عكس هذه الحيات البحرية، تتنوع أوصاف الوحوش تنوعًا كبيرًا حتى إنها تتحدى أية محاولة لفهرستها. فالبعض منها قد ينطبق على وصف الحوت أو سمكة القرش الضخمة، وتنطبق أوصاف أخرى على الحبار الضخم، بينما توحى أوصاف غيرها بعظاءة شبيهة بالديناصور. وتصفها بعض الأقوال على أنها تهاجم السفن والبشر، بينما تصفها أخرى بأنها مسالمة. والتعريف المختصر هو: "مخلوق ضخم من

نوع غير معروف، يفترض أنه خطر." ولم يمسك أحد بأى منها بحيث يتولى علماء الأحياء وضع تعريف لها باعتبارها نوعًا معروفًا. ولذلك فإن تلك التى "يمكن الوصول إليها فى الوقت الراهن" ليست وحوشًا.

وحين نبدأ بحث الحقائق الخاصة بالمخلوقات نصل إلى بعض النتائج المدهشة. فقد كانت الحيات والوحوش البحرية كانت تُشاهَد فى أنحاء العالم كافة وبقدر كبير من التكرار حتى الوقت الحالى(٢) حيث نجد أن أكبر عدد فى البحار التى يكثر فيها الضباب فى دوائر العرض الأعلى الأكثر برودة. كما شوهد البعض إلى الجنوب منها، كذلك الذى شاهده القبطان تريلاونى Trelawney ربان السفينة دافنى Daphne من بوسطن فى ٢٠ سبتمبر ,١٨٤٨ فى ذلك الوقت قدر موقعه بأنه دائرة عرض أربع درجات و١١ دقيقة جنوبًا وخط طول ١٠ درجات و١٥ دقيقة شرقًا، وهو ما يجعله على وجه التقريب داخل ميناء مايومبا فى الجابون بأفريقيا؛ وهى منطقة معروفة بهطول الأمطار وتعذر الرؤية (٣)

لا تُرى هذه الوحوش فقط فى المناطق التى غالبًا ما يحد الرؤية فيها الضباب أو المطر أو الثلوج، ولكن يبدو أن لديها ميلاً إلى أماكن معينة. ويقع أحد هذه الأماكن فى المياه الأوروبية على الساحل الشمال لإسكوتلندا والجزر المجاورة له. وفى مياه أمريكا الشمالية يبدو أن المنطقة المجاورة لكيب آن بولاية ماساتشوستس منطقة تردد، وهى شائعة فى كندا ونيوفاوندلاند ولبرادور وكولومبيا البريطانية. ويتذكر جون جوسلين رؤية أحدها فى كيب آن فى القرن السابع عشر حيث كان يتشمس على الشاطئ "وقد تكوم كحبل السفينة" ورأسه كرأس أسد صغير(٤) . وشوهد آخر فى عام ١٧٠٠ على بعد حوالى خمسين ميلاً إلى الجنوب من ذلك قبالة مارثاس فاينيارد Martha's Vineyard. (٥) .

فى كل هذه المناطق المياه عميقة شديدة الانحدار عن الشاطئ، وتندفع المياه بشدة فى اتجاه البحر عند الجزر، وتعوق حركة الماء الصخور الواقعة قبالة الشاطئ التى تغطى الكثير منها الأعشاب.

ومن المناسب هنا نكر حقيقة أنه منذ وقت غير معلوم جرى تكييف العاملين فى البحر على قبول عدد كبيــر من المعتقــدات، كان من بينها الإيمان بالوحوش البحرية أو الحيات البحرية ولا يزال معتقداً حياً. بل إنهم سمعوا أوصافًا حية مفصلة لهذه المخلوقات. ومعروف كذلك أنه خلال فترات الإجهاد أو الضغط الشديد يكون المرء معرضًا للهلاوس، إلا أن تلك الهلاوس تقوم على نوع من الاستجابة المتعلّمة. ولابد أن نتذكر أنه حين حاصرت عاصفة شديدة جوشوا سلوكم Joshua Slocum وهو على متن السفينة "سبراى" Spray ساعده أحد أفراد طاقم السفينة "كولومبس" يرتدى قبعة حمراء، وحين حوصر مانرى Manry فى ظروف مشابهة فى وهو على متن السفينة "تنكربل" Tinkerbell منذ بضع سنوات، رأى كـذلك "الزوار". ولكن زواره كـانوا من الغرب الأوسط، لأنه جرى تكييفه على الحياة البرية، بينما جرت تنشئة سلوكم على الحياة فى البحر.

إذا ما كانت تلك الأشياء فى ذهننا أمكننا فهم كيف أنه حين تكون الأدمغة متعبة، وحين تتعذر الرؤية، وحين يصيب الألم العيون بسبب ضغط البحث عن اليابسة، يكون السهل اعتبار تيار الجزر المندفع فوق صخرة تكسوها الأعشاب، أو بعض الحطام الذى فى الماء، أو أى شىء آخر غير متوقع، حية بحرية أو وحشًا بحريًا.

والنقطة الأخرى التى يجب إدراكهــا هى أنه لأسباب عديــدة - قد تكون القـــاع أو التيارات أو وفرة الطعام - فإن أسماك القرش المستمتعة بالدفء والسلاحف والحيتان والحبار وخنازير البحر غالبًا ما تتجمع فى تلك الأماكن. وليس من غير المعتاد رؤية الحيتان قبالة جلوسستر بولاية ماساتشوستس، أو فى جزر أوركنى حيث كانوا يصطادونها حتى وقت قريب. والحيتان المستمتعة بالدفء أمر شائع على الساحل الغربى من أيرلندا، وجزر هيبريديز، وشمالى إسكوتلندا، ونيوفاوندلاند. فى كل المناطق تكثر خنازير البحر، وهى لها طريقة فى تقويس ظهورها فى الماء الواحد تلو الآخر، حتى إنها قد تبدو فى ظروف تعذر الرؤية إلى حد ما كأنها جسم حية ضخمة متموجة. وفى ظل ذلك يمكن للعقل اختلاق الرأس.

فى عام ١٩٤٨ التقى المؤلف بسلحفاة جلدية الظهر كبيرة جداً فى خليج مين. كان الجو هادئًا والضباب كثيفًا. وقد سُمع ذلك المخلوق فى البداية وهو يصدر شخيراً، وسمعت الأمواج وهى تتلاطم على ظهره، ثم شوهد الحيوان على مقربة من السفينة فى الضباب. وكان رأس السلحفاة - الذى ضخّمه الضباب - مرفوعًا، بينما كانت تتدلى من فكيها كمية كبيرة من الأعشاب البحرية مما يدل على أنها كانت تقتات. كان قدر معين من التمييز العلمى مطلوبًا ليبعدنى عن تخيل أننى أنظر إلى وحش بحرى.

هذه بطبيعة الحال تبريرات لرؤية الوحوش والحيات فى العصور القريبة، أى منذ القرن السابع عشر. أما فى العصور القديمة فربما كانت تلك القصص نوعًا من التفسير الرمزى للظواهر الطبيعية. وقد رأينا بالفعل كيف أنهم كانوا يعتقدون أن دوامة كوريفريكان بيت جنية شريرة تعيش فى البحر، و كان الناس فى شمالى أيرلندا يظنون أن روتن ويل Rooten Wheel منزل ساحرة تشفط المياه فى قاعها(٦) . بينما كانوا يعتقدون أن كلوبوترمان Klobotterman يسكن الدوامة الضخمة الواقعة قبالة النرويج. وبعد ذلك هناك تلك الحكاية الطويلة المعقدة من جزر هيبريديز عن الفتى الرمادى Gray Lad وهى فى الواقع تنويعة على حكاية الشقيقين - التى قدمنا إحدى نسخها فى الفصل السابق. وتستحق بعض جوانب الحكاية أن نبحثها هنا.

كان أحد الحدادين (يقوم الحداد فى الفولكلور الكلتى فى الغالب بدور الوسيط بين الجنس البشرى ومخلوقات العالم الآخر) فقيراً جداً وليس له أطفال إلى أن جمعته الصداقة بعروس بحر وعدته بصيد وفير من الأسماك إن هو وعدها بأن يعطيها أول مولود له. وافق الرجل وبعد قليل وضعت امرأته ثلاثة توائم، ووضعت فرسه ثلاثة أمهار، وكلبته ثلاثة جراء، ونمت ثلاث شجرات فى الفناء. أبعد الحداد أول مواليده بطريقة أو بأخرى عن قبضة عروس البحر إلى أن أصبح فتى قوياً. بعد ذلك خرج الفتى للبحث عن ثروته وكانت له مغامرات عديدة واكتسب ثروة كبيرة وشرفًا. وأخيراً التقى بأميرة أوشك أن يأكلها تنين كان يعيش فى البحيرة loch ( فى إسكوتلندا تعنى كلمة loch بحيرة أو خليج، مثل .Loch Awe ) قاتل الفتى ذلك الوحش فى ثلاثة أيام مختلفة وقتله فى المواجهة الأخيرة. ووصفت المواجهة الأخيرة، التى تتطابق مع المواجهتين السابقتين فيما عدا موت التنين، وصول ذلك المخلوق .

**بعد ذلك أخذ المد يرتفع وتتجمع السحب فى الغرب وهبت العاصفة الداكنة وجرى البحر ناحية الشرق وزاد حجم الأمواج وصار لونها أخضر وأزرق وأسود ...**

**حينذاك رأى التنين يخرج من البحيرة والرذاذ يتطاير، وكان ينفث دخانًا وماءً، ويزأر ويهذى ...**

**خرج التنين على البر ... وجر نفسه على الرمل وألقى بنفسه عليه، وكان كبيراً وثقيلاً.**

بعد ذلك تقاتل البطل والتنين قتالاً شرسًا حتى إن الرمل والطين والحصى كان يتطاير فى كل اتجاه، ولكن ذلك المخلوق قُتل فى نهاية الأمر. "وكان التنين بحيرة من ماء وكومة من رمل."

الذى يهمنا بالقدر نفسه فى هذا المقام هو وصول البطل إلى مسرح الأحداث قبل نشوب المعركة. نظرت الفتاة لأعلى:

**بعد ذلك نظروا غربيًا فرأوا العاصفة، ونظروا شرقًا فرأوا الشىء ذاته. ورأوا فارسًا فى السماء فى ثياب خضر لامعة على حصان أصفر، بنى يميل إلى الذهبى، وفى يمناه سيف ساطع لامع متلألئ من النور، وحين رأوه [ الأربعة عشر جنديًا الذين أرسلهم الملك لحمايتها ] فروا جميعًا إلى مخابئهم كما هو دأبهم.(٧)**

بعد قتل التنين، يهزم الفتى الرمادى طاهى الملك وأفراد حرس الملك الأربعة عشر الجبناء، الذين يدعون قتل التنين، ويتزوج ابنة الملك. وتتواصل مغامراته وتبتلعه عروس البحر، وتنقذه زوجته التى تُبتلع هى الأخرى وينقذها الفتى الرمادى الذى يعثر على قلب عروس البحر داخل بيضة فى جوف سمكة فى جوف بطة فى جوف غزالة داخل الغابة تحت منزل على جزيرة فى بحيرة (٨).

حين نتأمل ما فات لا نجد صعوبة فى رؤية احتمالاتها كأسطورة تفسيرية حول الطقس. فليس هناك شىء فى وصف التنين أو موته لا يمكن ربطه بسهولة بنفث الماء والرذاذ والرياح العالية والبحر الهائج والمد المندفع. وحين يصل الوحش إلى البر يشفط الرمل والحجارة ثم ينهار على هيئة "بركة من الماء وكومة من الرمل". ومن المحتمل جداً

أن يكون وصول البطل الذى يجعل الأربعة عشر جبانًا يفرون مجازًا موسعًا خاصًا بعلامات الطقس التى تشير إلى مساحة منيرة وسط الضباب. وليس من غير المنطقى تصور التنين النارى الصارخ الذى ينفث النار ويلفه الدخان على أنه جبهة جوية قادمة [٩] . (قد يُضاف كذلك أن الناس فى إسكوتلندا مازالوا خلال قرن يقيسون المسافات بجعل مقبرة الوحش نقطة البداية.)

هذا تفسير، إلا أنه يظل هناك تفسير آخر، لأن الحكاية توازى بشدة حدثًا فعليًا. فالبطل فى الحكاية قطع رأسًا من رءوس التنين فى كل يوم من أيام ثلاثة متتالية، حيث قتله بإزالة الرأس الثالث فى اليوم الأخير من المعركة.

فى يوم الإثنين ٢٥ أبريل من عام ١٨٧٥ كانت مجموعة من الأيرلنديين يصطادون السمك فى قارب صغير قبالة الساحل الغربى حين لمحوا حبارًا ضخمًا مستلقيًا على سطح الماء. ومع أن أداة التدمير الوحيدة على القارب كانت سكينًا، فقد قرر الطاقم قتله لأنه كان جيدًا "كطعم للسمك الكبير". ساروا بالقارب فى هدوء وقطعوا ذراعًا. دفع ذلك المخلوق إلى القيام بنشاط كبير وانطلق مبتعدا. وحين توقف اقترب القارب وقطع ذراعًا أخرى. واستمر ذلك التكتيك إلى أن قُطع معظم الأذرع. بعد ذلك سعى الطاقم للحصول على الرأس الذى فصلوه وغاص الجسم. كان طول الذراع ثمانية أقدام ومحيطه خمس عشرة بوصة. وبذلك فإنه من خلال العملية الشعبية يمكن أن تكون قصة الشاب الرمادى رواية مبالغ فيها لتجربة مشابهة حدثت منذ قرون[١٠] .

الأمر اللافت للانتباه إلى حد كبير هو أن روايات كثيرة لمواجهات مشابهة مع حبار ضخم فى نيوفاوندلاند ولبرادور فى أرشيف الفولكلور بجامعة نيوفاوندلاند التذكارية. وتحكى إحدى الروايات كيف أن حبارًا ضخمًا هاجم منذ سنوات عديدة قاربًا صغيرًا وكاد أن يسَحبه إلى تَحت الماء. ويرجع الراوى أفعال الحبار إلى لون قاع القارب، الذى كان أحمر ولذلك لفت انتباهه.

ضاع الجانب الميثولوجى لهذه الحكايات بمرور القرون، ذلك أنه بمجرد وقوع المعتقدات الوثنية فى أيدى المبشرين المسيحيين تعرضت لتغيير كبير. وبما أن المسيح وحواريوه كانوا يسيطرون على الطقس ويهدئون الأمواج على الجليل، فما هو أكثر

طبيعية من أن يكون هناك "قديس" محلى مثل كولومبا يفعل الشيء نفسه؟(١١) وأخيراً بدأ الذيل يحرك الكلب إلى أن قتل القديس جلبرت بسهم واحد شبحاً ينفث النار يسمى Dhub Ginthais بالقرب من لوخ فاين Loch Fyne حين جاء ليحرق دورنوخ Dornoch. وإلى الجنوب من ذلك في إنجلترا وفي نفس الوقت تقريباً كان يشيع اعتقاد بأن القديس جورج قتل التنين Great Orm برمح.

وتأتينا حدوتة على قدر مختلف قليلاً من الأهمية من حافة التاريخ. ففي وقت ما فيما بين عامي ٥٥٠ و٥٩٠ ميلادى كان تشولم سيل Cholm Cille مسافراً في بلاد البكتيين. وحين وصل القديس العظيم إلى نهر بعينه رأى رجلاً يُدفن بعد أن عقره "وحش مائى" أثناء السباحة. ورغم هذه الحقيقة، أمر القديس أحد رجاله بعبور النهر سباحة وإحضار قارب على الضفة المقابلة. سبح الرجل ولكن قبل أن يبلغ منتصف المسافة.

**... كان الوحش الذى لم تكن لديه من قبل شهية كبيرة تجعله يبحث عن فريسة قابعاً في أعماق النهر. ولكنه حين شعر بأن المياه التى فوقه قد أثارتها سباحة لوبن Lupne سبح فجأة إلى السطح واندفع تجاه الرجل السابح في منتصف النهر وقد فغر فاه وأخذ يزار زئيراً شديداً .... رفع الرجل المبارك الذى كان يشاهد ما يجرى يده ورسم علامة الصليب المنقذة في الهواء، ثم أمر الوحش القاسى مستعيناً باسم الرب قائلاً: "لن تتحرك أكثر من ذلك. لا تلمس ذلك الرجل. عد أدراجك بسرعة." وبعد ذلك ... فر الوحش مذعوراً متقهقراً بسرعة كأنما سُحب بحبل، مع أنه كان قبل ذلك قد اقترب من لوبن وهو يسبح لمسافة لا تزيد على طول عمود قصير بين الرجل والوحش (١٢) .**

هذا هو أول ظهور مطبوع لأشهر الوحوش جميعًا، وهو تنين لوخ نس؛ وهو معروف أكثر بوحش لوخ نس (ويسمونه "نيسى" Nessie تدليلاً). وبما أن هذا المخلوق بالنسبة لسائر الوحوش مثل الهولندى الطائر بالنسبة لسائر السفن الأشباح، فمن الواجب أن نتوقف قليلاً لإلقاء نظرة على صفاته.

حتى عصور قريبة كانت لوخ نس بحيرة نائية ليس من السهل على العامة الوصول إليها. وكانت تقع في صدع جيولوجى يكاد يفصل مرتفعات إسكوتلندا عن منخفضاتها.

ويقول التراث إن البحيرة لا قاع لها، وهى فى الواقع شديدة العمق؛ كما أن عرضها يزيد على ستمائة قدم، وطولها حوالى أربعة وعشرين ميلاً. والماء داكن بحيث لا يمكن الرؤية إلا لبضعة أقدام فقط تحت السطح. وفى معظم الأحيان يلفها الضباب أو المطر، والبَرَد أو الثلج، وتأتى العواصف الشديدة مزمجرة من التلال القاحلة الكئيبة المحيطة بها، مما يضاعف عذاب الملاحة فيها. وحتى فى الأيام المشرقة يقع جزء كبير من البحيرة المظلمة تحت ظل التلال المرتفعة الذى يغطيها. وإذا كان هناك ما يلزم لتحسين منظرها الكئيب، فليس مطلوبًا من المرء إلا أن يتذكر واحدة من أخطر جرائم القتل الجماعية التى جاء ذكرها فى حوليات التاريخ الإسكوتلندى، وهى مذبحة جلينكو Glencoe. يخرج من البحيرة نهر صغير، هو نهر نس، ولأنه صغير جداً باعتباره منفذاً لهذا المسطح المائى الشاسع، نشأ عدد من المعتقدات التى تقول إن البحيرة متصلة بالمحيط عن طريق ممرات تحت الأرض وأن قاعها مالح.

هذا إذن هو موطن تنين لوخ نس. ولكى يحمى الناس أنفسهم وبيوتهم وقطعانهم، كانوا يقدمون الماشية والأغنام أضاحى للمخلوق الذى فى العمق منذ أيام تشولم سيل. وهل هناك دليل أفضل على وجوده من عدم عودة الجثث للسطح مرة أخرى؟

هناك بعض الجوانب الأخرى اللافتة للانتباه فيما يتعلق بهذه البحيرة الكئيبة. فالمياه قارسة البرودة، وغرق أناس كثيرون أثناء السباحة فيها ونادراً ما يعثر على جثثهم. ويقول البعض إن الطبقات السفلى من البحيرة تسكنها أسراب من أسماك الإنقليس ذات الأحجام الرهيبة حتى إن قليلاً من الغواصين يمكنهم الغوص إلى هناك، ويعتقد بعض الناس أن أسماك الإنقليس تلك هى التى تلتهم ضحايا البحيرة.

طبقًا لما قاله أحد الإخباريين، فإنه منذ حوالى ربع قرن كان زوجان وأطفالهما يتنزهان فى يقارب على صفحة البحيرة. وكانت المرأة تلبس عقداً قيمته حوالى أربعة آلاف جنيه. ولسوء حظهم غرق القارب واضطرا للسباحة كى ينجوا بحياتهما. وبينما كانا فى منتصف المسافة إلى الشاطئ أدركا أنهما تركا الأطفال، وقالت الأم إنها ستعود إليهم لأنها السبَّاحة الأقوى.

اتضح أن ذلك لم يكن اختياراً موفقًا، ذلك أنها غرقت قبل بلوغ الشاطئ ولم تظهر جثتها قط. وكان زوجها ثريًا، وبدافع من الحب لزوجته، أو بسبب قيمة العقد، استأجر غواصين للبحث عن الجثة فى البحيرة. كان أحدهما غواصًا محليًا، وكان الآخر ألمانيًا. غاص الاثنان ثم صعدا. قال الألمانى "زوجتك موجودة أسفل وإذ كنت تريدها يمكنك إخراجها. فأنا لن أنزل مرة أخرى." صعد الغواص المحلى كذلك ولكنه كان فى حالة أسوأ اضطروا لنقله إلى مستشفى الأمراض العقلية، حيث بقى فيها سنوات كثيرة.

ولكى يزيد الراوى الأمر تشويقًا، أنهى حكايته بقوله إن المتنبئ البراهى Brahan Seer (متنبئ قديم) تنبأ بأن وحشًا ضخمًا سوف يُصطاد فى البحيرة فى القرن الحالى وحين يشق جسمه سوف يعثر فيه على عقد ثمين (١٣).

بغض النظر عما يفعله وحش البحيرة للموتى، فإنه لم يكن يشغل الأحياء حتى عام ١٩٦٩ والواقع أن أسوأ عمل سمعت أنه منسوب إليه هو أنه خرب فى عام ١٩٦٦ الصيد على الصيادين بتطفيشه أسماك السالمون (١٤). وفى ١٩ أغسطس ١٩٦٩ نشرت صحيفة "سكوتش ديلى إكسبريس" Scottish Daily Express الخبر التالى:

**ذكر صياد الليلة الماضية كيف استخدم صديقه بندقية ومجدافين فى معركة مثيرة مع وحش طوله ستين قدمًا ضرب قاربه فى بحيرة مورار فى إنفرنسشاير (١٥).**

**وهما يعتقدان أن العملاق البنى اللون أحدب الظهر قضم قطعة كبيرة من أحد المجدافين ... واختفى تحت المياه المظلمة حين أخافاه بطلقات من البندقية.**

منذ حكاية تشولم سيل القديمة هناك خيط لا ينقطع من الإشارات إلى رؤية وحش البحيرة. وعلى عكس سائر الوحوش التى يبدو أنها توارت، يبدو أن هذا الوحش يتمتع بأكبر شعبية له فى القرن الحالى، وعلى الأخص منذ عام ١٩٣٤ حتى وقتنا هذا، حيث أبلغ المئات من الناس عن رؤيتهم له؛ ومن بين هؤلاء الأطباء والمحامون والمصرفيون والصيادون وغيرهم. وجرى تصويره مرات عديدة، وذات مرة جرى رسم صورة كروكية له باستخدام جهاز لسبر الأعماق على سفينة الصيد الإسكوتلندية "ريفال ثرى" Rival III من بيترهيد Peterhead، كما حدد جهاز الموجات الصوتية موقعه. ومن اللافت للنظر

إلى حد كبير أن الصور والأوصاف الكلامية وتسجيلات جهاز سبر الأعمال تتفق جميعها على الحجم العام للمخلوق أو المخلوقات، وشكله ونشاطه.

ذُكر مرات عديدة أن طول الوحش يتراوح بين عشرين وأربعين قدمًا. وغالبًا ما كان يشاهد فى الصباح الباكر، وفى أغلب المرات بالقرب من أطلال حصن أوركارت Urquhart Castle، إلا أنه شوهد كذلك على البر فى الليل. وسواء أكان فى الماء أم على الشاطئ فهو يتحرك بسرعة كبيرة ويُعتقد أنه يسبح بسرعة تتراوح بين ثمانى عشرة وعشرين عقدة. والذين شاهدوه على البر يصفونه بأنه عظاءة ذات رجلين ثقيلتين قصيرتين فى النصف الخلفى وأخريان أصغر منهما فى النصف الأمامى. وتتفق الروايات المائية على أن له صفات الزواحف البرمائية. وهى تشير إلى أن له رأسًا فى حجم كرة القدم متصلة بعنق طويل. وهناك حدبات على ظهره، وهو يطفو على ارتفاع معقول فى الماء وله ذيل طويل. وتتفق أغلب الروايات على أنه يسير فى تموجات أفقية ويترك خلفه أثرًا صغيرًا جدًا(١٦).

لقد أفلت هذا الوحش حتى الآن من كل الجهود التى تسعى للإمساك به. والواقع أنه يبدو أنه متواطئ مع ربات القدر(*) . ذلك أنه لا يترك أثرًا على الأرض الصخرية، وحين استخدم بعض الأمريكيين غواصة مؤخرًا فى محاولة لقتله، امتلأت الغواصة بالماء وغاصت إلى قاع البحيرة.

مع كل هذه الأدلة التى جُمِّعت عن هذا المخلوق، قد يظن المرء أن العلم سوف يقبل وجوده، إلا أن مراوغته ذاتها جعلته موضع شك. فقد كان هناك شك فى أصالة الصور. وقيل لى إن تسجيل جهاز سبر الأعمال كان حيلة تمت لتضييع الوقت بينما كانت "ريفال ثرى" يحتجزها الضباب فى الميناء. ويشير تشابه الروايات الكلامية إلى احتمال التواطؤ. بل إنه أشير إلى أن شائعة الشبح بمثابة جذب سياحى رائع للمنطقة. وبالإضافة إلى ذلك، يطرح العلماء الكثير من الأسئلة الصعبة. كيف وصل إلى هناك؟ كيف يمكن لمخلوق بهذا الحجم أن يجد ما يقتات عليه فى هذه البحيرة الصغيرة نسبيًا؟ كيف أمكنه البقاء كل هذا الوقت الطويل بمفرده، وإذا كان له وليف، فلم لا يكون هناك

(*) ربات القدر الثلاث فى الأساطير الرومانية هن كلوتو ولاكسيس ونيكس (المترجم)

وحوش كثيرة؟ وهكذا تستعر المعركة. وليس من المحتمل أن يقبل العلم بوجود هذا الشيء إلى أن يوضع ميتًا على طاولة التشريح، وليس من المحتمل أن يوافق المؤيدون لوجوده على أنه غير موجود إلى أن تجفف البحيرة. ولا يبدو أن أى الأمرين محتمل فى المستقبل المنظور.

بغض النظر عما سيثبت في النهاية، فإن باحث الفولكلور شخص يميل إلى النظرية القائلة بأن هناك خطًا رفيعًا جداً بين المعتقد والواقع. فهناك بعض الشك فى أن الكثيرين ممن يقطنون المنطقة، الأميين منهم والمتعلمين، يرون أن الوحش واقع. فهم يتحدثون عنه باعتباره أمراً عادياً وهو يدخل فى نسيج حياتهم كالطقس.

ومع أن لوخ نس هى الأشهر، فهى ليست البقعة الوحيدة التى شوهدت فيها الوحوش البحرية. فقد لوحظت مراراً فى الفترة الأخيرة على ساحل كاليفورنيا، من مونتيرى Montery وجزيرة سان كليمنت فى الشمال إلى كولومبيا البريطانية.[١٧] وقد وصفت جميعها وصفًا يكاد يكون متشابهًا: فهو حية طولها من أربعين إلى سبعين قدمًا، لونها داكن - بنى أو رمادى - على طول عنقها شعر أو على الأقل نتوءات، ولها رأس كرأس الإنقليس أو الثعبان بها عينان شديدتا الجحوظ. وهى تخشى الإنسان بشدة، وتتحرك بسرعة كبيرة، وتترك أثرًا قليلاً أو لا تترك أى أثر بالمرة، وتغوص دون أن تحدث طبطبة. ولم يمسك أحد بأى منها، كما أنها لم تؤذ أحداً. تبقى كلمة أو كلمتان لابد من قولهما عن وحش شوهد قبالة فانكوفر. فقد وصف هذا أوصافًا مختلفة بأن له رأسًا كرأس الجمل والثعبان والفقمة. وذكر أحد المشاهدين أن له زعانف وقال آخر إنه ملتف حول نفسه فى الماء. وأشار ثالث إلى أنه التهم بطة شلت حركتها[١٨].

وظهر مخلوق مختلف إلى حد ما فى تيج كريك Teague Creek فى خليج تشيسابيك منذ سنوات ليست بالكثيرة، إلا أن وصفه بأنه وحش بحرى أو ضرب من الأشباح أمر متروك للمناقشة. فقد لجأت سفينة صغيرة إلى ذلك المكان ذات مساء، وأثناء الليل صعد وحش على متن السفينة. بدا ذلك الوحش وكأنه حية ضخمة، ودخل من كوة التهوية ولم يعثر عليه أحد فى أسفل السفينة. وفى الصباح كانت آثاره الطينية شديدة الوضوح على سطحها [١٩].

إذا كانت مياه ساحل المحيط الهادى قد أصبحت ملاذًا محبوبًا بالنسبة للوحوش البحرية فى هذا القرن، فقد كان هذا هو حال ساحل نيو إنجلاند فى القرن الماضى. والواقع أنه يبدو أن المنطقة تزورها تلك الكائنات منذ أن رأى جوسلين أحدها عند كيب آن وقطع مستر ميتر نراع "غُرانق الماء" فى مين فى القرن السابع عشر. إلا أن أيًا من تلك الحيات لم تحدث تلك الإثارة التى أحدثتها تلك التى شقت الماء فى ميناء جلوسستر فى أغسطس من عام ١٨١٧, وهى لم تشاهد فى الميناء وحسب، بل فى المياه التى قبالته كذلك. وكانت هناك مشاهدات أخرى على مدى السنوات التالية من بروفنستاون حتى ناهانت. والأمر الأكثر لفتًا للانتباه فى تلك الرؤى هو أنه فى معظم المرات لم يكن يشاهد الوحش بحار أو اثنان، وإنما عشرات الناس على البر وفى البحر. بل إن قباطنة البحرية والوزراء والفنانين والمؤلفين ونخبة مجتمع نيو إنجلاند كانوا يشاهدونه [٢٠] .

كان الوحش يحدث اضطرابًا كبيرًا حتى إن عددًا من الشهادات الخطية كانت تؤخذ ممن رأوه. وكانت معظم التعليقات متشابهة، وخاصة فيما يتعلق بالحجم واللون وشكل الرأس. وتغنى رواية واحدة عن الكل:

**أنا سولومون آلن الثالث من جلوسستر بمقاطعة إيسكس وأعمل ربان سفينة أشهد وأقول إننى رأيت حيوانًا بحريًا غريبًا، أعتقد أنه حية، فى ميناء جلوسستر المذكور آنفًا. وأنا أحكم بأن طوله يتراوح بين ثمانين وتسعين قدمًا وهناك زوائد ثقيلة فى حجم نصف البرميل من رأسه حتى نيله. وقد كنت على بعد حوالى ١٥٠ ياردة منه حين حكمت أنه فى حجم نصف البرميل. وكان رأسه أشبه برأس الحية ذات الأجراس، إلا أن حجمه فى حجم رأس الحصان. وكان حين يتحرك على سطح الماء تكون حركته بطيئة، وكان فى بعض الأحيان يدور فى حلقات، وفى أحيان أخرى يتقدم فى خط مستقيم تقريبًا. وحين اختفى كان من الواضح أنه غاص لأسفل مباشرة.... وقد رأيته أيام الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر من أغسطس من عام ١٨١٧ ميلادية [٢١] .**

لم يؤذ المخلوق أحدًا فى القرن التاسع عشر وأفلت من كل محاولات الإمساك به. ويبدو أنه بقى على قيد الحياة ليعود من جديد قبيل الحرب العالمية الثانية. ذلك أنه فى

عام ١٩٦٩ أجرى لورانس جيلر Lawrence Geller من بلايموث بولاية ماساتشوستس مقابلة مع صياد سمك عجوز أخبره فيها أنه رأى مخلوقًا قبل ثلاثين عامًا قبالة هاى باين ليدج High pine Ledge بالقرب من بلايموث وفى منطقة معروفة بكثرة أسماك القرش:

**رأيت حية ذات ثلاثة رءوس بين الأمواج. كان لونها رماديًا فاتحًا. وقد ابتعدت عنا ولذلك لم أستطع رؤية رأسها. كانت كبيرة جداً.... كنت قبل ذلك أضحك حين يتحدثون عن الحيات البحرية، ولكن حين رأيت تلك الحية اقتنعت. كان طولها لا يقل عن ستين قدمًا خارج الماء.... وكان الماء كله مخضراً حيث نزلت (٢٢).**

ليست مخلوقات الوقت الراهن سوى ظلال باهتة وضعيفة لأسلافها التى شاع الإيمان بها فى العصور الوسطى وما قبلها. ولكن ربما كان الكراكن الإسكندنافى، الذى اشتهر فى العصور الوسطى ووصفه ماجنوس وبنتوبيدان وغيرهما، صورة مبالغ فيها للحبار الضخم الذى اتضح أن طوله يزيد على ستين قدمًا (٢٣). ولكن إذا كان الكراكن الإسكندنافى كبيراً، فقد كانت هناك وحوش أكبر؛ إذ كان حجمها من الضخامة ما جعل المؤرخين القدامى مقتنعين بأنها شنوذ بيولوجى، ذلك أنها إذا كانت قادرة على التكاثر لملأت المحيط. وحين كان أحد المسافرين يخرج إلى البحر فى العصور الوسطى لم يكن يعرف متى سيلتقى بأحدها. وكان الوحش الذى يخشاه الناس بشكل خاص هو ما أسماه اليهود اللوياثان ولم يكن مقصوراً على بيئة البحر المتوسط.

ويميل العلم الحديث إلى الربط بين اللوياثان وعائلة الحوت، غير أن حجمه وصفاته كانت من الضخامة بحيث تجعل موبى ديك ممثلاً ضئيلاً للنوع. وقد وصف هذا المخلوق الضخم أوصافًا مختلفة على أنه فى حجم ثلاثة ملاعب كرة قدم وعلى أنه يساوى ما يزيد على أربعة أفدنة. وكان لجلده مظهر خشن محبب، وكانت تنمو عليه النباتات والأشجار. وفى بعض الأحيان كان يرقد تحت سطح الماء وكان البحارة يلقون بالمرساة حين يجدون القاع قريبًا. وكانت شعب المرساة تغرز فى ثنيات الجلد الخشن، الأمر الذى كان يزعج ذلك المخلوق فيغوص آخذاً معه السفينة والطاقم. وكان البحارة يظنونه

خطأً إحدى الجزر فيخرجون "على البر" ويحفرون حفراً ويوقدون النار. وكان ذلك يثير المخلوق ويغوص آخذاً معه كل البحارة. وكان يقال إن رجالاً كثيرين يمكن الوقوف على محجر العين، ويمكن لحصان وفارس أن يجريا على "بلعومه" بلا أية صعوبة. ولسبب ما كان يبدو أن الوحش ينجذب ناحية رجال الدين؛ فأحد الرحالة القدامى الذى قابلته تحت اسم مختلف هو القديس بريندان St. Brendan الذى تعد رحلته نموذجًا للتجارب المعروف أنها حدثت لمعظم المستكشفين الأوائل.

كان بريندان قد رأى فى شبابه أرض المعاد، وبما أن أحد الملائكة أكد له أنه سوف يجدها، فقد خرج مع مجموعة من رهبانه فى قارب كبير. أبحروا شرقًا لمدة أربعين يومًا ووجدوا جزيرة صخرية رسوا عليها حيث حياهم كلب ضخم وقُدِّم لهم الطعام، إلا أنهم لم يروا أى إنسان. وبعد ذلك وصلوا إلى جزيرة خضراء تكثر فيها الغنم الضخمة، حيث الصيف الدائم ولا وجود للشتاء. طلب منهم رجل عجوز أن يبحثوا أكثر ليجدوا "جنة الطيور". ومرة أخرى ينطلقون وسفينتهم

**... أخذت العواصف تدفعها إلى أن شاهدوا أمامهم جزيرة صغيرة نزل عليها الإخوة، إلا أن بريندان توقف فى السفينة. وضعوا سمكة فى قدر وأوقدوا النار ليسلقوها، وما إن حميت النار وبدأت السمكة فى الغليان حتى أخذت الجزيرة تهتز وتتحرك كلها شيء حي. وكان هناك خوف شديد على الإخوة وعادوا إلى السفينة تاركين وراءهم الطعام والقدر، حيث رأوا ما ظنوها جزيرة تسير مسرعة فى البحر وكان بإمكانهم رؤية النار مشتعلة لمسافة طويلة مما أثار دهشتهم.... قال بريندان "إنها سمكة كبيرة، أكبر سمكة فى العالم، واسمها جاسكوين Jas-coyne، وهى تسعى ليلاً ونهاراً كى تضع ذيلها فى فمها، ولا يمكن فعل ذلك بسبب حجمها الكبير."**

بعد ذلك وجدوا جنة الطيور ووجدوا بالفعل أن الطيور ملائكة مطرودة من السماء ولكنها لم تقطع كل الطريق إلى الجحيم. لقد تنبئوا بمستقبل نشاط بريندان، وبعد ذلك اتجهت المجموعة إلى "جزيرة الإخوة الصامتة" حيث أعطى الرب الجميع خبزاً أبيض ليأكلوه. وبعد رحلة عاصفة رسوا هناك وبقوا حتى "الكريسماس الصغير" حيث عادوا إلى البحر من جديد. ومرة أخرى كان الجو عاصفًا فى البحر، ولكن فى عيد الفصح

استطاعوا إقامة القداس بطريقة غريبة، ذلك أنهم "أبحروا إلى حيث ترقد السمكة جاسكوين. ووجدوا على ظهرها القدر الذى كانوا تركوه قبل عام وأقاموا مأدبة القيامة هناك على ظهر السمكة".

هكذا استمرت رحلتهم من جزيرة مسحورة إلى جزيرة مسحورة أخرى، وفى الطريق

**تبعتهم سمكة ضخمة مرعبة كانت تسعى لابتلاع سفينتهم وكانت تنفث كميات كبيرة من الماء من فمها حتى إنهم أوشكوا على الغرق، وكانت السمكة تأتى مسرعة حتى تكاد تلحق بهم. وبعد ذلك تضرعوا ليسوع كى يساعدهم ... وجاءت سمكة أخرى أكبر من الأولى من ناحية الغرب وهاجمتها وتغلبت عليها و ... قطعتها إلى ثلاث قطع.**

بعد ذلك وصلوا إلى جزيرة صغيرة عامرة بالفواكه وحملوا منها مؤنًا تكفيهم أربعين يوماً، وبعد ذلك

**أبحروا خلال العاصفة وخلال الريح. وفجأة اتجه ناحيتهم وحش ضخم وهاجم سفينتهم وكاد أن يدمرها ... والطير الصغير الذى تحدث معهم ... ذهب إلى الوحش ونقر إحدى عينيه فى هجومه الأول والعين الأخرى فى هجومه الثانى، وقضى عليه.**

عقب هذا الهروب أبحروا فى مياه صافية لمدة ثمانية أيام قبل أن تهب ريح جنوبية قوية، وبعد أسبوع آخر وصلوا إلى جزيرة مليئة بالروائح الكريهة والدخان. وبينما كانت السفينة تقترب منها سمعوا صوتًا عاليًا كأنه الرعد. وبعد ذلك بوقت قصير هاجمتهم الشياطين وعلموا أنهم وصلوا إلى حافة الجحيم، ولذلك استمروا فى الابتعاد شمالاً إلى أن لمحوا "تلاً مشتعلاً" فوقه سحب ودخان. وهنا فقدوا أحد الرجال. وبعد ذلك دفعتهم العاصفة جنوبًا لمدة سبعة أيام، حيث قابلوا شبحًا جالسًا على صخرة. كان البحر قد أبلى لحمه كله ولم يترك سوى العظم. كان حول عنقه لسانان وخرقة . كان الرجل هو يهوذا، وكان اللسانان والخرقة يرمزان إلى العملين الطيبين الوحيدين اللذين فى حياته؛ ففى يوم من الأيام أطعم كاهنًا وكسا أبرص.

وصلوا بعد ذلك إلى جزيرة بول الناسك الذى ظل ثعلب الماء(*) يطعمه طوال أربعين عامًا. ومضوا وأقاموا قداسًا مرة أخرى فوق سمكة ودودة، وأخيرًا وصلوا من خلال العاصفة والدمار والضباب إلى أرض المعاد. "كانت صافية ومضيئة ... وكانت الأشجار مليئة بالفواكه ... وكان التفاح ناضجًا كما فى وقت الحصاد ... ولم يكن الجو حارًا ولا باردًا". وأخيرًا وصلوا إلى نهر هو "البرزخ الذى يفصل بين العالمين لأنه لا يحق لإنسان الوصول إلى الجانب الآخر منه وهو مازال حيًا."

بعد أن بلغ بريندان منتهى بحثه هناك فى أرض المعاد، عاد مرة أخرى إلى أيرلندا وفى النهاية رسا هناك بفرح شديد وقد أمضى أربعين عامًا فى السفر بحرًا، وسرعان ما وافاه الأجل (٢٤).

هذا الحكاية خليط غريب من الحقيقة والخيال، ومن الميثولوجيا المسيحية والكلتية. وإذا تغاضينا عن المسارات التى سار فيها ورضينا بتجارب الرحلة، فإن جزءًا كبيرًا منها سوف يصمد عند التمحيص. فربما تقوم جزيرة الصيف الدائم، وحافة الجحيم، والماء الصافى، والصخرة التى فى البحر على تجارب فى المناطق المدارية، حيث كانت البراكين لا تزال نشطة. وقد تعكس مطاردة الوحش وتغلب قوة أخرى عليه مواجهة بين أحد الحيتان وحوت قاتل. بل قد تكون جاسكوين مستمدة من خبرة السحب فى الضباب أثناء الجَزْر شديد الاندفاع. ففى هذه الحالات تبدو الأرض وكأنها تترك القارب وليس العكس.

يأتى الرجل الميت الجالس على الصخرة ومعه آيتاه من الماضى الوثنى، وكذلك ثعلب الماء الذى أطعم بول طوال تلك الأربعين سنة. وبالمثل تأتى من المأثورات الكلتية أرض المعاد بتفاحها الناضج دائمًا وتعبيرها عن كل الآمال الوهمية الخاصة بمن يمضون حياتهم فى المطر والصقيع، والبرد والبؤس، طعامهم الخبز الأسود والأعشاب البحرية؛ بل والقليل من أى منهما. وكان الأيرلنديون فى العصور الوسطى وما قبلها

(*) كان ثعلب الماء فى العصور الوسطى يرمز إلى المسيح، حيث إنه قتل التمساح الشرير بأن دخل من فمه ودمر أمعاءه ثم خرج. وكان أهل العصور الوسطى يرون فى ذلك رمزًا لهبوط المسيح إلى الجحيم لتحرير آدم وجميع الشخصيات المقدسة التى ورد ذكرها فى العهد القديم. (المترجم).

يرون أن رحلة هذا الأوديسيوس الشمالي تثبت واقع تلك الجزر المسحورة التي كانت إلى حد كبير جزءاً من الميثولوجيا الشمالية القديمة.

إن فكرة الجزر المسحورة ملك خاص للشعوب الشمالية لا ينازعها فيه أحد. وهي مثلها مثل الإيمان بالوحوش البحرية شديدة القدم وعالمية في انتشارها. وكان المسافرون يرون تلك الأراضي في كل العصور التي لها سجل لدينا - باستثناء القرن الحالي - وفي الوقت الراهن قد لا نزال نحن نؤمن بها، ذلك أن خريطة جزيرة أنتيكوا Antiqua في جزر الهند الغربية تذكر أنها "تحركت بمقدار ميل ونصف". بل إن بعض الأشخاص المهمين جداً كانت لهم تجارب غريبة معها. فقد جنحت سفينة الإسكندر الأكبر على إحدى تلك الجزر المسحورة وهو في طريقه للاستيلاء على الهند. وقد وجدت تلك الحكايات أرضاً خصبة تنمو فيها بين الكلتيين بما لديهم من إيمان بجزر الموتى والجنة التي وراء البحر. ونذكر أنه حين أُصيب الملك أرثر إصابته المميتة أعاد أولاً سيفه إلى إلهة الماء التي كانت قد أعطته إياه، ثم حُمل على السفينة وساروا به غرباً إلى جزيرة أفالون حيث ينمو التفاح (فاكهة الجنيات) ليبقى هناك ويعالج من جراحه.

يبدو أن أنواع الجزر المسحورة محدود. فنحن أولاً لدينا الجزيرة التي لا يمكن العثور عليها مرة أخرى. وهي عادة ما يلفها الضباب، أو تكون الاتجاهات خاطئة، أو تكون مسحورة، أو تتنقل. ونذكر أن تلك كانت بداية آينيشبوفن، وهي أرض المعاد الخاصة ببرندان. وبعد ذلك لدينا الجزر التي تظهر وتغوص متى شاءت. ثم نقابل جزر الزجاج وجزر الثلج، التي هي على الأرجح الشيء نفسه. وأخيراً لدينا عدد كبير من الجزر التي تسكنها الشياطين أو الأرواح الغريبة، أو تؤوي أحد السحرة، أو تكتنفها الأخطار، أو يمثل جوها خطراً على الإنسان.

من السهل إثبات وجود تلك الأشياء إن نحن قبلنا أطر المرجعية المحدودة الخاص بذلك الزمان. فالبحار أبعدته العاصفة عن مساره. وليس لديه معدات ملاحة. وبعد بضعة أيام يصل إلى أرض تظهر من خلال الضباب. يرسو على البر ويعود إلى دياره مرة أخرى. إن احتمال العثور على تلك الأرض مرة أخرى بعيد.

حتى عصور قريبة إلى حد ما، لم تكن ظاهرة جبال الثلج العائمة مفهومة فهمًا واضحًا ولم يكن ظهورها فى طرق مسافرى العالم القديم (ربما باستثناء الفايكنج) كثيرًا. وحين كانت تُرى كان الضباب يكتنفها عادة، ولم يكن من غير المعتاد وجود مخلوقات غريبة عليها؛ ثعالب قطبية تراقب بقلق جزيرتها وهى تنكمش، ودببة قطبية، وفقمة، وربما طائر كركر(*) أو حتى بومة قطبية. وكانت تُبدى حين يسقط الضوء عليها جمالاً يفوق معظم الأشياء التى فى هذا العالم. وطبقًا لما قاله المراقبون فإن بها

> كل طرز العمارة، من الكاتدرائيات ذات الأعمدة والأقواس والبوابات والأبراج، والصخور المعلقة، وآثار المدينة المسوّرة، والأهرام والمسلات، والقلاع ذات الأبراج والأسوار والتحصينات والجسور.... والأشجار والحيوانات والبشر.... فى البداية كان الواحد منها يبدو كأنه مجموعة من المبانى الصينية، ثم كاتدرائية غوطية من الطراز القديم.... كان غريبًا فى شكله ... الجزء الداخلى منه يكون مرة لونه أزرق ناعم، ثم أبيض يميل إلى الخضرة...ويبدو أن عصرًا من الدمار مر عليه تاركًا فقط منظر الصخور الداخلية، أحدها أبيض لامع والآخر أزرق ... زرقة سماء يوليو. وكان الماء ينساب ... فى جداول صغيرة ... تتلألأ كأنها الزجاج المنصهر. وكانت عروق شفافيتها كشفافية الجواهر، وزرقتها كزرقة الصفير، تقطع الكتلة. وعند الشروق والغروب تتخذ أطرافها هيئة ألسنة اللهب. ويُسمع عند سفحه هدير البحر الكئيب فى الصدوع الجوفاء[٢٥]

الجزيرة المؤهلة على وجه التحديد لأن تكون مسحورة أو تسكنها الشياطين هى بيرمودا، التى نجد لها وصفًا معاصرًا مناسبًا فى مسرحية شكسبير "العاصفة". والواقعة أن الجزيرة تستحق الكثير مما قيل عنها. فهى أولاً تقع على بعد أكثر من أربعمائة ميل عن البر. وهى تبرز بشكل شديد الانحدار من أعماق بعيدة. وكثيرًا ما يلفها المطر، وتنطلق منها العواصف مزمجرة. وموانيها جيدة ولكن مداخلها ملتوية. كما أن ليس بها ماء عذب ولا يسكنها بشر. وهى تعوض ذلك النقص بوجود مخلوقات ونباتات غير عادية عليها، بما فى ذلك عنكبوت وحش ينسج كما يقول جون سميث

(*) طائر شبيه بالنورس. ( المترجم ).

شباكه التى تصلح لأن تصنع منها حبال السفن. وخطر هذا المكان فى العصور القديمة أبعد من الخيال. فالسفينة فى إحدى الليالى الشرسة تجرى مئات الأميال قبالة الشاطئ، ولأيام كثيرة فى المياه العميقة دون أن تكون هناك أراض معروفة بينها وبين سواحل أوروبا. وليست هناك أضواء ولا نيران، ولا تحذير حين تكون هناك شعب مرجانية تحت مقدمتها مباشرة (هى الوحيدة من نوعها فى الجزء الشمالى من العالم) طولها ثمانية عشر ميلاً. وتمسح المنطقة سفينـــة أخـــرى على بعد بضعة أميال شرقًا أو غربًا البحر فى ضوء النهار، ولكنها لا تعثر على أثر للسفينة أو الطاقم.

وكما هو الحال بالنسبة لجزيرة سيرس **Circe's Isle**، كان بيرمودا زاخرة بالخنازير والماعز التى وضعها هناك المستكشفون الأوائل، إلا أنه كما هو معروف لكل بحَّار، هناك صلة سيئة بين الخنازير والماعز وكل من الشيطان والساحرات والسحرة. وربما كانت بحارة مُسِخوا بعد أن أغرقت سفنهم ساحرات مثل كاليبان **Caliban.** وقد حذر سيلفستر جوردان **Sylvester Jourdan** والسير جورج سومرز **Sir George Somers** والقبطان نيوبورت **Captain Newport** ( المدفون جثمانه هناك) وريتشارد نوروود **Richard Norwood** وخوان بيرموديث **Juan Bermúdez** جميعًا من الأخطار، وقدم هاكلويت **Hakluyt** رأى البحارة العقلاء حين كتب:

> **كما يعرف كل إنسان سمع أو قرأ عن جزر بيرمودا، فإنه لم يسكنها قط مسيحيون ولا وثنيون، غير أنها اشتهرت وذاع عنها أنها مكان هو الأكثر اتساعًا وسحرًا، ولا تقدم شيئًا سوى الرياح والعواصف والطقس السيئ، الأمر الذى جعل كل بحَّار يتحاشاها، ... كما يتحاشى الشيطان نفسه.**

علاوة على ذلك فإن الغابات لم يرتدها أحد والجزر نفسها نادرً ما كان يراها أحد(٢٦)

هناك العديد من الأسباب الأخرى القابلة للتصديق بالنسبة للأشخاص الأقل تعليمًا الذين يؤمنون بتلك الجزر الخرافية. فالسُحُب فى البحر، وخاصة فى المناطق المدارية، تشبه الجزر. وقد يشوه السراب شيئًا ما أو يحيله شكلاً غريبًا. فكتلة الأعشاب الطافية على سطح البحر يمكن تشبه الأرض، خاصة فى حال تعذر الرؤية. ويأتى على

رأس ذلك أنه فى أماكن عديدة تظهر المرتفعات الرملية على السطح ثم تغوص مرة أخرى. وقد يجعل عمل المد والجزْر الكبير البحارة غير المعتادين على مثل هذه الظاهرة يؤمنون بالجُزُر العائمة. كما أن البراكين تثور من حين لآخر وتكوِّن جزراً صغيرة، يبقى بعضها ويغوص البعض الآخر.(٢٧) وأخيراً فإنه على طول الساحل الغربى للجزر البريطانية وأيرلندا ـ على امتداد خط الساحل الأطلنطى من أوروبا، فيما يتعلق بهذا الأمر ـ كان الحطام يصل إلى البر تحمله الرياح وتيار الخليج. قطع البعض منه مسافات غير معقولة؛ وكان يضم رمالاً غروية من المرجان فى البحر الكاريبى أو قطعة بامبو. ومن حين لآخر كانوا يلتقطون فى جزر هيبريديز الخارجة جوز ملقا (ويسمى فاصوليا مارى) ويعتبرونه شيئاً ثميناً بعد رحلة من أمريكا الجنوبية. ولأن الناس لم يكونوا يعلمون شيئاً عن القارات الأخرى، فقد كان من الطبيعى أن يفكروا فى الجُزُر(٢٨). ومما لا شك فيه أن تلك الأفكار كانت كامنة فى مؤخرة عقول مستكشفين من قبيل كابتن كوك الذى خرج للبحث عن منطقة خرافية تسمى **Terra Incognita**؛ التى كانت قد انتقلت فى ذلك الوقت إلى الغرب فى المحيط الهادى.

وعلى البر، فى البرك والمستنقعات، اعتاد الناس على رؤية جزر طافية من الأعشاب والقمامة كانت قادرة على تحمل وزن رجل لفترة قصيرة. فلماذا لا تكون هناك جزر أكبر فى المحيط؟ وكان الإيمان بتلك الجزر الطافية الزجاجية المسحورة له غرضان. فقد كان يفسر لماذا كانت أية سفينة تبحر فوق حافة المحيط ولا تعود، كما كان يعطى أملاً لمن فى الوطن بأن أفراد الطاقم ليسوا ميتين بل يخضعون لتأثير السحر، أو يعيشون فى بقعة ما وسيعودون منها فى يوم من الأيام بطريقة ما.

وكان الإيمان بتلك الجزر من القوة بحيث جعلها تظهر على الخرائط التى رسمها أفضل واضعو الخرائط؛ حيث تقع جامرز أور **Gummer's Ore** قبالة ستوكهولم، وآينهالو **Eynhallow** و هيثر بليثر **Heather-Bleather** بالقرب من جزر أوركنى. وقبالة كيليبجز **Killybegs** فى أيرلندا كانت تقع أوبرازيلا **O'Brazila** التى منحها التاج براءة فى القرن السابع عشر. وإلى الجنوب منها وعلى مسافة أبعد من الشاطئ كانت تقع جزر الموتى الخضراء **Green Islands of Dead (Fiddler's Green).** وإلى الغرب منها كانت تقع إل أوف ديموس **Isle of Demos** فى مدخل سانت لورانس **Saint Lawrence.**

قد نضيف إلى تلك الجزر جزيرة سابل Sable Island وبيرمودا الأكثر ثباتًا. وبعض هذه الجزر يحتمل النقاش. فبما أنها تقع فى مناطق مختلفة فهى لا تعكس تنكيراً شائعًا فى العصور المختلفة وحسب، بل الثقافة السائدة فى المنطقة كذلك.

تربط جامرز أور الكراكن الإسكندنافى ومعتقد الجزيرة المسحورة معًا برباط قوى. فقد أفنى رجال حياتهم فى البحث عنها، إلا أن قلة كانوا هم المحظوظين. وكان يمكن للصيادين تحديد مكانها بسبر العمق، ذلك أنها كانت تظهر قبل العواصف القوية، وتأتى معها بأسراب ضخمة من الأسماك. وإذا حدد بحَّار توقيتها بالشكل الصحيح فإنه يحقق ثروة ضخمة من الأسماك، أما إذا بقى أطول من اللازم وخرج الكراكن من البحر، فإنه قد يقضى عليه وعلى صيده وعلى سفينته، ومن المفترض أن يلتهمه هو كذلك. ولهذا فإنه حين كان مسبار الأعماق يصل إلى مستوى معين كان الوقت يحين لمغادرة المكان بسرعة. وحين كان الكراكن يصعد إلى سطح الماء كانت جامرز أور تُرى من على مسافة قريبة على أنها جزر صغيرة ذات شكل مستدير به العديد من القمم المرتفعة (٢٩).

تختلف أينهالو بعض الشىء من حيث كونها جزيرة حقيقية. وبما أنها تقع فى مياه المد والجزر بين جزيرتى روساى Rousay وبومونا Pomona، فإن اسمها يعنى "الجزيرة المقدسة" باللغة النرويجية، وتشير الروايات إلى أنها موقع أحد أقدم الأديرة فى المنطقة. وعلى أية حال فقد كان الناس يظنون أن الجزيرة تخص سكان البحر، وكان من المفترض أنهم يخرجون إلى السطح من حين لآخر. وكان الاعتقاد الشائع هو أنه إذا كان لدى رجل ما الشجاعة وحمل سكينًا فى يده واتجه إلى الجزيرة وهو لا يأبه بأى شىء آخر، فإن المكان سوف يفقد سحره. وقد حاول كثيرون ذلك وفُقدوا فى تيارات الجزر السريعة، إلى أن ركز رجل بصره على الجزيرة حين ارتفعت. لم يأبه بـ"المحيط الهادر"، كما يسمون تيار الجزر السريع، وأمسك السكين، وفاز بالجزيرة واستولى عليها من سكان البحر الذين ما زالوا يجعلون الماء يغلى من حولها (٣٠).

وإلى يومنا هذا يعتقد الناس أنها مسحورة بشكل جزئى. ويقال إنه لا الحديد ولا الصلب يبقى على الجزيرة حتى الصباح، ولا يمكن أن يبقى جرذ على قيد الحياة

فيـها. والواقع أن طينها مـانع للجـرذان، ويوضع ترابها تحت صـوامع الذرة والمنازل الجديدة في الجزر الأخرى لإبعاد الجرذان والفئران.

تقع هيثر بليثر على مقربة منها. وهي كذلك لم تفقد سحرها ولكن ضباب البحر يكتنفها. وذات مرة كانت هناك شابة اختفت من بيتها على الجزيرة ولم يعرف عنها أحد شيئًا بعد ذلك. ومرت السنون ونسيها الناس تمامًا وفُقد أبوها وأخوها في الضباب الكثيف أثناء صيد السمك. وفي النهاية وصل القارب إلى البر وهبطا منه ودخلا منزلاً أبيض حيث اتضح أن سيدة المنزل ليست سوى الابنة التي فقدت منذ زمن بعيد. وبينما كانا هناك وصل زوجها وشقيقه وهما يرتديان جلد الفقمة الذي خلعاه عند دخولهما المنزل. وحين انصرف الأب والأخ أعطتهما المرأة سكينًا حديدية تسمح لهما بالعودة إلى الجزيرة متى شاءا. ومما يؤسف له أن السكين وقع من على القارب وعاد الضباب من جديد، ومرت السنون ولم يذهب أحد إلى هيثر بليثر منذ ذلك الوقت (٣١)

أما أوبرازيلا الواقعة على بعد فراسخ كثيرة إلى الغرب والجنوب فتمثل ما يزيد قليلاً عن تحديث وتجميل الرحلة التي قام بها بريندان إلى أرض المعاد. وتقع هذه الجزيرة إلى الجنوب الغربي من كيليبجز وكان الناس لا يزالون يظنون أنها خاضعة للسحر حتى القرن السابع عشر. وفي الأيام الصافية كان يمكن للناس على البر رؤية الجزيرة في بعض الأحيان في الأفق، إلا أنها عادة ما كان يكتنفها الضباب. وفي النهاية، وبعد أن حاول كثيرون العثور عليها وفشلوا، رأى أحد أفراد طائفة الأصحاب Quakers رؤية للمكان وجهز سفينة جديدة تمامًا للرحلة وانطلق، ولكنه لم يكن محظوظًا، كما قد يشك المرء في أحد أفراد طائفة الأصحاب في أيرلندا، وأخيرًا وفي الثاني من مارس عام ١٦٧٤ اتجه شخص اسمه القبطان نسبيه Captain Nisbet من فرنسا إلى أيرلندا ومعه حمولة مختلطة، ودخل في ضباب كثيف في أعقاب ليلة شديدة البرودة. وبعد ثلاث ساعات انقشع الضباب ووجد رجاله أنفسهم على مقربة من جزيرة دفعتهم العاصفة نحوها. وبناء على ذلك ألقوا المرساة في مياه عمقها ثلاث قامات وذهب أربعة رجال إلى البر. مر الرجال في غابة ووصلوا إلى أجمل واد أخضر حيث شاهدوا مستعمرات الأرانب السوداء وغيرها من أنواع الحيوانات ـ ما عدا الخنازير ـ والفواكه والخضروات، غير أنه لم يكن هناك أحد من البشر أو الكلاب. وعلى البعد كان

هناك حصن جميل، ولكن أحداً لم يكن بداخله. فى تلك الليلة خرج الجميع عدا واحد إلى البر وأوقدوا ناراً لإعداد طعام العشاء، ولكنه علا صوت هدير جعلهم جميعًا يهرعون إلى السفينة. وفى صباح اليوم التالى التقى أفراد الطاقم برجل عجوز قال إن الجزيرة سحرها ساحر، ولكن السحر فُك ويمكن أن يراها الناس بعد ذلك. زود الناس الربان بكل ما يحتاجه وانطلقت السفينة إلى كيليبجز حيث رست محملة بالذهب والفضة. ومما يؤسف له أن الرجل العجوز كان مخطئًا بشأن السحر، ذلك أن أحداً لم ير الجزيرة منذ ذلك الوقت (٣٢).

يفترض أن هذه الجزيرة نفسها، وتحت اسم هاى برازيل Hy-Brazil أو تير نان أوج Tir-n'an-Og، زارها أوسيان(*) Ossian فى وقت سابق. ويقال إن هذا البطل تزوج ملكتها، ولكنه مُنع من الوقوف على صخرة بعينها. ولكنه وقف عليها فى يوم من الأيام وتغلب عليه التفكير فى وطنه. سمحت له الملكة بالعودة إلى أيرلندا ليوم واحد، شريطة ألا ينزل من على حصانه الأسود. نسى أوسيان ذلك ونزل من على الحصان فظهرت عليه آثار السنين. إذ إنه صار على الفور رجلاً فى منتصف العمر، ثم عجوزاً بلغ من الكِبَر عتيًا، ثم قبضة من تراب تناثرت على الطريق(٣٣) . ويحتاج الأمر إلى قليل من الخيال كى نرى الخيوط التى يتكون منها نسيج هذه الحكاية.

إذا كان الناس فى كيليبجز قد نسوا هذه الحكاية، فلا يزال هناك من يذكرها إلى الجنوب من ذلك فى أران Aran وغيرها على طول الساحل. ولسبب ما يشتهر الساحل هناك بكثرة السراب، ولا يرى الناس جزراً ومدنًا فحسب، بل يرون كذلك سفنًا (٣٤) . ويقولون فى أران إن بالإمكان رؤية هاى برازيل كل سبع سنوات. وكانت حكايات الأزمنة القديمة تتضمن قدراً من وصف صفات الشخص وسماته وقدراته يزيد عما فى حكايات الوقت الحالى.

منذ حوالى ثلاثمائة عام كان صيادان يصطادا الأسماك أثناء إحدى العواصف وجرفتهم الريح إلى الجنوب من جرُف ضحل قبالة أران يسمى الجُرُف الأصفر Yellow Bank. فى الصباح الباكر كانا قريبين جداً من إحدى الجزر بحيث أمكنهم رؤية الأغنام

(*) بطل وشاعر غيلى أسطورى من القرن الثالث الميلادى ( المترجم ) .

ترعى عليها، ولكنهم أبيا أن يرسيا عليها ظنًا منهما أنها جزيرة الساحرة. وفي الوقت نفسه تقريبًا كانت هناك سفينة أشد جرأة، وحين اكتشف صيادو الأسماك أنهم أمام جزيرة ليست على الخرائط نزلوا إلى البر. وكان يمكنهم رؤية الساحل الأيرلندى بوضوح كبير من على الجزيرة. أبلغهم رجل أن المكان جزيرة مسحورة فغادروه، ولكن ليس قبل أن يتلقى أحدهما كتابًا عن الطب مع تعليمات بعدم فتحه قبل سبع سنوات. اتبع الرجل التعليمات وصار معالجًا عظيمًا. وهناك قصة مشابهة بدايتها مختلفة. فقد اختطف قاطنو الجزيرة رجلاً اسمه لى Lee وأخذوه ثم سمحوا له بالعودة إلى دياره (٣٥).

على بعد ألفى ميل جنوب غربى كيليبجز يقع خليج سانت لورانس. وطوال قرن قبل زيارة القبطان نسبيه لهاى برازيل كان البحارة فى تلك المنطقة - القريبة من مضايق بيل إل - على علم بجزيرة رهيبة تسمى إيسولا دى ديمونى .Isola de Demoni والواقع أن الناس كانوا يعتقدون فى ذلك الوقت أن ساحل لبرادور بكامله (المعروف محليًا الآن باسم "الأرض التى منحها الرب لقابيل") تتفشى فيه تلك المخلوقات الكريهة مثل الفظ والدب والعنقاء التى تتصارع مع بعضها لتعذيب الإنسان المتحضر، إلا أنه يبدو أن جزيرة الشياطين كانت عاصمتها. وكتب الأب ثيفيت :Father Thevet

**هذا كلام صحيح، ولم أسمعه من شخص واحد، بل من عدد كبير من البحارة والمرشدين الذين قمت معهم برحلات كثيرة، وهو أنهم حين كانوا يمرون من هذا الطريق كانوا يسمعون فى الهواء على الأشرعة العليا أو حول الصوارى، جلبة كثيرة لأصوات رجال مختلطة وغير واضحة، كتلك التى تسمعها من جمع من الناس فى أحد الأسواق. وساعتها كانوا يعرفون أن جزيرة الشياطين ليست ببعيدة.**

ويمضى بعد ذلك ليروى كيف رأى هو نفسه تلك الشياطين وهى تعذب السكان المحليين إلى أن جاءوه يلتمسون منه العون. وبعد أن تلا إنجيل القديس يوحنا استطاع أن يهزم تلك الشياطين التى كانت وسيمة الهيئة ولكنها تضمر القدر الكبير من الحقد حتى إنها طردت كل السكان (٣٦).

حين مر روبرفال Roberval المستكشف من أمام تلك الجزيرة كان معه على متن السفينة ابنة أخ ارتبطت بعلاقة عاطفية بشاب ممن معه، رغم كل ما فعله للحيلولة دون ذلك. أغضب ذلك نائب الملك الذى وضع الفتاة على البر هناك مع مربيتها العجوز وأربع بنادق. وقبل أن يبحر قفز العاشق الشاب من على السفينة ومعه بندقيتان أخريان وبعض الذخيرة وسبح إلى البر. وهناك أجهدتهم الشياطين وهم بمفردهم، ولكن العذراء مريم تدخلت وأبعدت الشياطين. أخذت تلك المخلوقات تصرخ وتهاجم السكان المحليين ولكنها لم تستطع الوصول إلى العاشقين. حملت الفتاة وضاعفت الشياطين من جهودها. ومع ذلك قاومتهم الفتاة، ورغم أنها قتلت ثلاثة دببة بيضاء عذبتها، فإن طلقاتها ما كانت لتصيب الشياطين. وفى النهاية قضت الشياطين على حبيبها ومربيتها وذريتها. ومضى عامان وخمسة أشهر. ومرت سفينة صيد على الجزيرة وشاهدت الدخان فاقتربت ووجدت الفتاة وأعادتها إلى فرنسا [٣٧].

كان البحارة والمسافرون القادمون من أوربا الذين يمرون على هذه المنطقة عموماً يعلمون جيداً بأمر ذلك السحر، وبينما كانوا يعبرون البحار المحيطة بنيوفاوندلاند التى يكثر فيها الدخان، كانوا يرون فى مرات عديدة جزراً مسحورة (من الواضح أن أكثرها كان جبال ثلج عائمة). وكان جون جوسلين من هؤلاء.

**مساء الأول من يونيو، الضباب كثيف جداً، أبحرنا من أمام جزيرة مسحورة ورأينا قدراً كبيراً من القذارة والقمامة طافياً بجوار السفينة، وسمعنا الكودى مودى وطيور النور والغربان (وهى الطيور التى تكثر دائماً عند الشاطئ)، ولكننا لم نر شيئاً بسبب الضباب، الذى كان ينقشع بعد أن يبتعدوا عن الجزر ...**

**الرابع عشر من يونيو، طقس يكثر فيه الضباب، أبحرنا من عند جزيرة من الثلج كانت تقع على الجانب الأيمن من السفينة طولها ثلاثة فراسخ فى ارتفاع الجبال وعلى شكل الأرض. ورأينا كذلك ثعلبين أو ثلاثة ثعالب أو شياطين تقفز عليها [٣٨].**

لا يسع المرء إلا أن يتساءل ما الذى كان جوسلين سيظنه لو أنه رأى المنظر الذى رآه ربان سفينة آخر قبالة كيب هورن فى عصر أكثر استنارة. فقد اصطدمت السفينة ماركو بولو فى أحد جبال الثلج العائمة فى مارس من عام ١٨٦١ حين اصطدمت

السفينة رأى أفراد طاقمها رجلاً كما لو كان نائمًا. كان حاسر الرأس، وكانت بجانبه عصا إشارة، وكان شعره يتطاير مع الريح. وبصورة عامة بدا المشهد تأييداً للمثل الذى يقول إن ما يريده البحر سوف يناله (٣٩).

إذا عدنا ثانية إلى أمريكا الشمالية فسوف نختار جزيرة أخرى، وهى جزيرة حقيقية هذه المرة؛ وهى جزيرة سابل قبالة نوفا سكوشا. إنها على هيئة حبة الخيار، وقد فُقد بحارة كثيرون فى الخور الذى هناك، بينما تعدت سفن أخرى على حرمتها وغرقت فى طقس تتعذر فيه الرؤية أو فى العواصف. وكان الناس يظنون كذلك أن هذه الجزيرة مسحورة وأن عليها أناس خارقون يمكن رؤيتهم على هيئة أضواء متحركة فى الليل. وقد يكون هناك أساس ما لتلك الحقيقة.

فى بداية القرن السادس عشر تقريبًا أبحر الماركيز دى لا روش **Maruis de al Roche** إلى أمريكا. وكان من بين الذين على متن سفينته أربعون شخصًا صدرت ضدهم أحكام بالسجن أنزلهم على جزيرة سابل، حين ذهب للبحث عن مكان مناسب يقيم فيه مستعمرة. أدت الأمور إلى بعضها ولم يعد الماركيز. أقام المحكوم عليهم بالسجن بيوتًا من حطام السفن القديم وصنعوا ملابس من جلد الحيوانات، واتخذوا لأنفسهم طعامًا من الفقمة والأسماك وكل ما أمكنهم الحصول عليه. ومرت خمس سنوات ونقص عدد المحكوم عليهم من أربعين إلى ثلاثة عشر، بعد أن افترسوا بعضهم البعض. وكان ذلك هو العدد الذى أُنقذ وأُعيد إلى فرنسا.

مما قيل عن الوحوش والحيات والجزر الغريبة، يصبح من الواضح نسبيًا أن معظم تلك الأماكن والمخلوقات موجود فى مياه تكون الملاحة فيها خطرة. والواقع أن الكثير من الوحوش والحيات قد يكون لها أساس من الواقع، والبعض يمكن فهمه على أنه أساطير نُسيت بالكامل. وكانت تلك الأساطير فى وقتها تلبى حاجات الناس الذين كانوا يخرجون إلى البحر وتقدم لهم تفسيراً معقولاً لولاه لكان الأمر غير معقول. فقد كانت تؤدى الغرض منها بشكل جيد. وهى اليوم من بقايا الماضى، وما نعرفه منها من السجلات أكثر مما نعرفه من الإخباريين. وقد قال بو **Poe** إن العلم بما له من "عين

فاحصة طرد روح (*) الشجر من الغابة" وتركه بدون حلم تحت شجرة التمر هندى. فالكثير من الأعماق الكبيرة جرى سبرها، كما مُسح جزء كبير من أرضية المحيطة. ووضعت الجزيرة الأخيرة على الخرائط وسُجلت جيولوجيتها وأزهارها وحيواناتها ومناخها وقيمتها الاقتصادية حتى آخر حبة وبرغوث وأقل الأشياء قيمة. وقد تركت مساحة صغيرة ليختبئ فيها التنين البحرى ومساحة أصغر تجد فيها أية جزيرة مسحورة مأوى منعزلاً. فنحن الآن نعلم أن أوسيان لا يمكن أن يعيش أربعمائة سنة، وأنه لا وجود للجنيات. ومع ذلك فإن من الصعب القضاء على خيال الإنسان. ذلك أن لدينا الأطباق الطائرة ولدينا العفريت الجوى(**). وإذا لم يكن لبلاد بريستر جون(***) Prester John وجود هنا على الأرض، ألا يمكن أن تقع أرض المعاد هناك وراء النجوم؟ بل إن حتى علماء الرياضيات يعطون أملاً، فهم يقولون لنا إن قانون الاحتمال يشير بقوة إلى أنه لابد أن تكون هناك حياة فى مكان ما من الكون. فليحيا العلم الوضعى!

(*) مهمة أرواح الشجر Hamadryades فى الميثولوجيا اليونانية الرومانية هى حراسة الأشجار. وترتبط هذه الحوريات بحياة الأشجار التى تحرسها وتعيش فيها وتموت بموتها (المترجم) .

(**) مخلوق خيالى يعزى إليه الأعطال التى تحدث للطائرات (المترجم) .

(***) كاهن وملك مسيحى أسطورى من العصور الوسطى يُعتقد أنه حكم مملكة مسيحية فى الشرق الأقصى وإثيوبيا (المترجم) .

# الفصل الحادى عشر

# الخرافة والعادة والمعتقد

الخرافة هى الصفة التى يبدو أنها متأصلة فى المحيط .

**چيمس فينيمور اكوير**

James Fenimore Copper, The Read Rover-

كثيراً ما قيل إن الرجال الذين يتبعون البحر هم أكثر الناس إيماناً بالخرافات على وجه الأرض(١) . كما قيل كذلك إن الرجل الذى يخرج للبحر بلا سبب قد يذهب إلى قضاء عطلة فى الجحيم.(٢) وقبل أن نقبل العبارة الأولى، ونفهم هذا الفصل فهماً أفضل، لابد لنا من محاولة وضع تعريف واف لـ"الخرافة" **superstition.** ولكى نفعل ذلك لابد كذلك من بيان علاقتها بالعادة والمعتقد.

لتحقيق أغراض هذا الفصل، قد يمكن تعريف الخرافة بأنها إيمان راسخ لا تحده قيود لدى عدد من الناس خلال فترة زمنية ممتدة. وأعنى بكونه لا تحده حدود أن المتأمل للخرافة يُترك له الاختيار؛ فهو إما أن يقبلها أو يرفضها. ولهذا السبب تبدأ الخرافات غالبًا بـ"عندما" أو "إذا" أو أية عبارة توحى بالاختيار. وعادة ما يتوقع الشخص المتبع للخرافة أنه سوف يُكافأ، بينما يتوقع ذلك الذى يتجاهلها أن يُعاقَب. ومن ثم فإن عبارة "فلتر دبوسًا وتلتقطه/ وسيكون الحظ الطيب من نصيبك طوال اليوم" تتبعها عبارة "فلتر دبوسًا وتدعه راقدًا/ وسوف تندم مرارًا طوال اليوم".

السمة الثانية من سمات الخرافة أنها تقتضى القيام بعمل ما من جانب من يؤمن بها. فلابد أن يبصق حين يرى قطة سوداء، ويدق على الخشب إن هو أراد ألا تتحطم آماله، ويرسم على نفسه علامة الصليب قبل أن يمر بجوار جبانة.

وأخيراً فإنه يعبِّر عن الخرافة من خلال نوع ما من وسيلة ما تعين على التذكر، وهي في أغلب الأحيان نَظْم أو قول موجز لا يساعد المرء على التذكر وحسب، بل ربما يُحْدِث الأثر المطلوب كذلك في جعل الخرافة "تفي بالغرض"، كما في حالة النظم.

وعلى عكس الخرافة، نادراً ما يكون المعتقد بلا حدود تحده، وهو لا يتطلب بالضرورة أي عمل من جانب من يؤمن به. ويبدو أنه يهتم بالأشياء الملموسة أكثر من اهتمام الخرافة بها، وليس بالضرورة أن يكون موضوعًا في إطار يعين على التذكر. فقد كان الناس في إسكوتلندا في وقت من الأوقات يظنون أنه من الحكمة رفع تيس إلى أعلى الصاري لجلب الريح.[٣] وفي نيوفاوندلاند كان غطاء الكوة المقلوب يعني الحظ السيئ.[٤] وكان وجود عقدة في الحبل المربوط في مقدمة السفينة يعني رحلة طويلة[٥]. وقد رأينا بالفعل أن معظم البحارة يرون أن الغروب الأحمر يعني نهاراً طيبًا في الغد. وإنزالك التيس وقلبك لغطاء الكوة وفكك للعقدة لا يضمن لك رحلة هادئة أو موفقة أو سريعة. وفي حالة الشمس لا يمكن للبحَّار أن يختار اللون ولم يقل له أحد أن الشمس التي ليست حمراء تعني يوماً سيئًا.

في أغلب الأحيان يصاحب المعتقد فعل ما. فعلى سبيل المثال يعتقد الناس في نيوفاوندلاند أنك إذا بصقت على أول سمكة تصطادها ثم أعدتها للبحر فستكون موفقًا في بقية صيدك. ولكن بمرور الوقت قد يبقى الفعل ويختفي المعتقد وربما ينسى الناس السبب الذي وراء ذلك الفعل. وقليل من البحارة في الوقت الراهن من يعرف سبب تحيتهم لسطح مؤخرة السفينة حين يصعدون على متن إحدى السفن الحربية، أو سبب رفع مكنسة إلى رأس الصاري بعد الصيد الجيد، أو السبب وراء إعطاء الرجل مالاً لأول شخص يقابله بعد حصوله على ترقية، أو سبب الصفارة التي تُطلق عند مغادرة الميناء. وإذا راعى الشخص كل تلك الأفعال بأمانة فلن تصاحبه البركة، كما أنه لن يعاقَب إن هو تجاهلها. إلا أنه يقوم بها وبتلك الأفعال التي أشرت إليها كعادات. والأعراف **customs** قريبة من العادات **habits**.

هناك بطبيعة الحال مناطق رمادية بين تلك التعريفات الثلاثة حيث يحار المرء في تعريف المادة بأنها تنتمي إلى هذه المجموعة أو تلك، ولكن هناك على الأقل قاعدة

وُضعت يمكن الانطلاق منها لتصنيف الأشياء. بل إنه فى حال قبولنا للمفاهيم السابقة الخاصة بالخرافة والعادة والمعتقد، يصبح واضحًا أن البحَّار ليس بحال من الأحوال مؤمنًا بالخرافة بقدر سيطرة المعتقدات عليه.

إن عدد المعتقدات والعادات والخرافات السائدة بين البحارة من الكبر والتنوع والتناقض فى طبيعتها بحيث يبدو لأول وهلة أنه من المستحيل إدراك أى فحوى منطقية لها. إلا أن التمحيص والتدقيق يكشف أنه من الممكن تصنيفها تحت عدد من العناوين. بل إنه ليس من الممكن العثور على أسباب لأصولها وحسب، بل كذلك التعرف على تأثير تلك المفاهيم على الأشخاص المعنيين. وإذا بدا أن بعض النقاط السابقة يتعارض مع بعضه البعض، فإن هذا ليس تعارضًا بقدر ما هو تعديل للمادة كى تتناسب مع بيئة بعينها.

وربما كانت أكبر مجموعة منفردة من المأثورات تتعلق بالخوارق، وبالموتى بصورة خاصة. وبما أن البحار يحيا حياة تكتنفها الأخطار ليس فيها من هو متأكد إن كان سيرى الشمس تشرق فى اليوم التالى أم لا، فمن الطبيعى أنه يهتم اهتمامًا مبالغًا فيه بعالم الأرواح. وهذا الاهتمام تضخمه ظروف البحر، حيث يجعل الضباب والثلج والسراب والإجهاد والطعام السيئ والعزلة عن الحياة الطبيعية الرجل من يرى أشياء لا يعيشها فى العادة غيره من البشر بل إنه يسمعها ويحس بها.

أكدت منذ مدة طويلة على أن الخوف من النسيان كان على الدوام القوة المحركة فى الحياة البشرية، ومن المؤكد أنه كذلك فى المجتمع الغربى. ولكى يتحاشى الإنسان هذه الخطر نسب إلى رفيقه الميت روحًا يمكنها أن تتجول فى أنحاء العالم وتساعد الأحياء أو تعوقهم. وهذه الأفكار يمكن رؤيتها فى الميثولوجيا اليونانية حيث ينقل خارون(*) الموتى عبر نهر ستيكس، ويمكن رؤيتها فى المأثورات الكلتية، ذلك أنه لابد من تذكر أنه بعد معركة الملك أرثر مع موردريد **Mordred** وُضع الملك على سفينة وحُمل

(*) خارون فى الأساطير اليونانية هو المعداوى الذى ينقل الموتى عبر نهر ستيكس الواقع على حدود عالم الموتى وكان اليونانيون القدماء يضعون فى فم الميت قطعة نقود يدفعها لخارون كى يعبر به النهر (المترجم).

بعيداً إلى أفالون كي يعالج هناك من جروحه. وحتى قبل ذلك، كان هناك اعتقاد بأن الصيادين على ساحل بريتاني ينقلون كل ليلة أرواح الموتى عبر البحر إلى إحدى الجزر؛ التى يظن البعض أنها ربما كانت إنجلترا، ويعتقد الأيرلنديون أنها جزر الموتى،(٦) وبالأخص مجموعة من الصخور قبالة ساحل أيرلندا الغربي يطلق عليها الآن أسماء "البقرة" و"العجل" و"العجلة" و"الثور".

وأدين بالفضل لشين أوسوليفان Sean O'Sullivan من لجنة الفولكلور الأيرلندية لترجمته حكاية أيرلندية من القرن السابع عشر عن تلك الجزر. ويبدو أن ملكًا أو إلهًا قديماً يسمى مورجان أراد معرفة كيف مات ربيبه. يخبره شاعر كيف حدث ذلك، ولكن مورجان يرفض تصديقه ويلعنه الشاعر، ولكن الميت جاء من "تاى دون" Tigh Dhuinn ( وهى صخرة الثور الحالية) كي يثبت خطأ الشاعر. وطبقًا لما يقوله أوسوليفان فإنه فى عصور أحدث تُحفظ الأسطورة فى حكاية عن ميت يعود من هناك لتسوية نزاع على وصية.

يقال إن البحارة حين يموتون، وخاصة إذا ماتوا فى البحر، يذهبون إلى دولاب ديفى جونز Davy Jones' locker، وهى تسمية رقيقة للشيطان والجحيم، ولكنهم إذا كانوا أشخاصاً مؤدبين فالاعتقاد أن الحال ينتهى بهم فى جنة عازف الكمان Fiddler's Green، وهى جنة تحت البحر لا تختلف عن أرض الحوريات (وترتبط كلمتا "عازف الكمان" و"جنة" بالجنيات)(٧) . وبالنسبة لهذا الأمر، فهى لا تختلف كثيراً عن المنزل الموجود تحت الماء الخاص بسكان البحر، وبذلك يربط بين المفاهيم المسيحية وما قبل المسيحية من خلال صورة الجنة.

نجد هذا المثال اللافت للنظر لخلط الأفكار فى حكايتين أيرلنديتين طويلتين؛ نرويهما هنا باختصار.

غادر ستة عشر رجلاً الميناء فى سفينة. إلا أن الناس أخذوا يرونهم بعد فترة قصيرة فى أنحاء قريتهم فى الليل. فى البداية كانوا ساكنين، ولكنهم أصبحوا بمرور الوقت أكثر جرأة وأدرك أهل القرية أنهم ليسوا أمواتًا بل أسرى لدى الحوريات. وفى يوم من الأيام اقترب أحد هؤلاء الأسرى من رجل يدعى أوبويل O'Boyle وأخبره أنهم

فى واقع الأمر أسرى الحوريات، ولكن لأنهم لا يريدون أن يصبحوا من السكان الدائمين فى مملكة الحوريات الكائنة تحت الماء، فقد رفضوا تناول أى طعام هناك. وبدلاً من ذلك كانوا يجولون فى القرية ليلاً بحثًا عن طعام بلا ملح وكادوا يهلكون جوعًا. كما أبلغ أوبويل أنه من الممكن إنقاذهم إن هو استجمع ما يكفى من الرجال لمحاربة الجنيات فى ليلة معينة من شهر نوفمبر. ولكى يضمن أهل القرية الانتصار لابد أن يكون كل منهم مسلحًا بسكين ذى مقبض أسود، وأن يدهنوا أنفسهم وأرض المعركة القريبة من قرية كيلجاليجان Kilgalligan بخليط من زبل الدجاج والماء المقدس قبل المعركة، وأن يأتوا معهم بكاهن.

أشاع أوبويل الخبر وحشد مجموعة لا بأس بها تضم كاهنًا أيد المغامرة بكاملها. وقبيل المعركة أثبت الكاهن أنه جبان ورفض الذهاب. وحين رأى كثيرون من المجندين ذلك خارت عزيمتهم وكان لابد من تأجيل الخطة. وجاءت الساعة الموعودة ومضت وشوهد الرجال البؤساء يسيرون على الشاطئ مع الحوريات وهم يبكون بحرقة. وشوهد عدد قليل من الرجال لبعض الوقت فى أنحاء القرية، ولكنهم فى النهاية اختفوا للأبد فى عالمهم الأخضر والذهبى تحت البحر، حيث الزمن مجهول والريح لا تهب(٨) .

**وتأتى الحكاية الثانية من جزيرة صغيرة قبالة الساحل الغربى:**

**فى ليلة من ليالى شهر نوفمبر كانت امرأة من جزيرة شارك عائدة إلى بيتها فى ساعة متأخرة من اليوم فجلست تستريح، وفى الحال جاءها شاب وتحدث إليها.**

**قال: "انتظرى قليلاً وسوف تشاهدين أجمل رقص رأيته فى حياتك، هناك عند سفح التل."**

**نظرت إليه بثبات. كان شديد الشحوب وكان يبدو حزينًا.**

**سألته قائلة: "لماذا أنت حزين وشاحب كما لو كنت ميتًا؟"**

**فأجابها: "انظرى إلىّ جيداً. ألا تعرفينى؟"**

**قالت: "نعم أعرفك. أنت برايان الصغير الذى غرق فى العام الماضى وهو يصطاد. ما الذى جئت من أجله؟"**

**قال: "انظرى إلى سفح التل وسوف ترين لم أنا هنا."**

**نظرت ورأت مجموعة كبيرة ترقص على موسيقى جميلة. وكان بينهم الموتى الذين قضوا نحبهم على مدى ما يمكنها تذكره من زمن؛ رجال ونساء وأطفال، جميعهم يرتدون ملابس بيضاء، وكانت وجوههم شاحبة كضوء القمر.**

**قال الشاب: "والآن فرى بحياتك، ذلك أنه إذا أتت بك الجنيات إلى الرقص فلن يمكنك تركهن بعد ذلك."**

**ولكن بينما كانوا يرقصون جاءت الجنيات ورقصن حولها فى دائرة وقد أمسكن بأيدى بعض. وقعت الشابة على الأرض مغشيًا عليها، ولم تدر شيئًا إلى أن استيقظت فى فراشها فى البيت. ورأى الجميع أن وجهها شاحب شحوب الموت، وعرفوا أن الجنيات مستها. ولذلك استدعوا الطبيب وجرَّبوا كل إجراء لإنقاذها، ولكن دون جدوى، ذلك أنه ما إن أطل القمر فى تلك الليلة حتى سُمعت موسيقى هادئة منخفضة الصوت حول المنزل وحين نظروا إلى المرأة كانت قد ماتت (٩) .**

الفكرة التى عبِّر عنها فى الحكايتين - وهى أن الأموات غالبًا ما لا يختفون اختفاء تامًا - فكرة شديدة الشيوع. فهم كثيرًا ما يعودون فى صورة جسدية ليترددوا على البقعة التى ماتوا فيها(*). وإذا حدث أنهم فُقدوا فى البحر غرقًا أو حدث لهم أى مكروه آخر ولم يُدفنوا الدفن اللائق، فقد يكون من المؤكد تقريبًا أنهم سوف يبقون باعتبارهم أرواحًا فى البقعة التى فُقدوا عندها أو يعودون إليها فى بعض الأحيان كى يخيفوا زملاءهم القدامى على السفن أو غيرهم فى المنطقة القريبة، أو يقدمون لهم العون والمساعدة.

(*) راجع الفصل الخاص بالعفاريت فى "الناس فى صعيد مصر"، وينفريد بلاكمان. ترجمة أحمد محمود، دار عين للدراسات، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٢١١-٢٢٢.

وبسبب الاحتمال الحالى لعودة الأشباح والاستقبال غير المؤكد الذى تستقبل به أصدقاءها، فإن البحارة لا يرغبون فى أى تعامل معها. فى إسكوتلندا مات رجل عجوز على جزيرة مك Muck وظلت جثته ملقاة على الأرض ثمانية أيام إلى أن وجدت سفينة لتنقله إلى الجبانة(١٠) ومنذ سنوات توفى قبطان سفينة فى بيرمودا وكان له طلب غير عادي. فقد كان يحب الجزيرة جداً حتى إنه طلب أن يدفن قلبه فيها بينما يُعاد جثمانه إلى إنجلترا. امتثل ابنه لطلبه فأخرج قلبه ودفنه على الجزيرة. ولعلمه بتردد أفراد الطاقم فى حمل جثمان على السفينة، فقد لجأ إلى حيلة لافتة للانتباه. فقد وضع الجثة فى برميل روم ووضعه على متن السفينة دون أن يعرف الطاقم شيئًا عن هذا الأمر. وفى منتصف الطريق فى المحيط اكتشف شخص ما الروم وأحدث ثقبًا فى البرميل وشرب ما فيه. وصل الميت إلى الديار فى تابوت جاف (١١) .

وفى أجزاء كثيرة من العالم، وعلى الأخص فى الأقاليم البحرية الكندية، كان البحارة يظنون أن مجرد ذكر اسم ميت سوف يأتى به بين الأحياء، ولذلك كانوا يتحاشون الحديث عن رفاقهم الموتى. وحتى حين كان ذلك ضرورياً، لم يكونوا يشيرون إليهم على أنهم موتى. ويضع البحارة فى نوفا سكوشا ونيوفاوند لاند، على سبيل المثال، كلمة "المسكين" دائمًا قبل اسم المتوفى حين يكون الحديث عنه ضرورياً (١٢) .

بالطبع فإن إحدى طرق حماية الأحياء من الموتى هى دفن الجثمان الدفن اللائق مع كل مراسم الوداع المصاحبة لذلك. فالجثمان يُغَسَّل ويُلَبَّس ملابس نظيفة، ويخيط عليه صانع الأشرعة بحرص قماشًا من قماش الأشرعة، كما أوضحنا فى فصل سابق. تربط أثقال فى القدمين ( فى الأزمنة القديمة كانت تربط قنيفة وزنها اثنا عشر رطلاً)، ويوضع الجثمان على منصة ويغطى بالعلم، وتلقى السفينة المرساة. وكان أفراد الطاقم يجمعون عند مقدمة السفينة ويقرأ القبطان أو وكيل القبطان قداس الدفن. وبعد ذلك إما أن يجرى إنزال الجثمان من على جانب السفينة أو ينزلق من على متن السفينة بحيث يكون القدمان فى المقدمة. ولكن الأمور لا تسير دائمًا كما هو مخطط لها. ويتذكر القبطان دين ماكفارلين Dean MacFarlane من كاريكو بجزر الهند الغربية دفنًا بحريًا:

غادرت هنا [كاريكو] متجهًا إلى جويانا. وكان لى زميل على السفينة اسمه سيجيت باتريس Sigette Patrice كان شخصًا يكثر من الشراب. كان يشرب كثيرًا، كثيرًا، كثيرًا. وفى يوم من الأيام جاءنى وطلب منى إن كان معى نقود أن أعطيه كى يشترى زجاجة نوع ما من الشراب ليشربها. إننا فى موضع قول الحق الآن. أعطيته مائة دولار. قلت: "هذه هى كل النقود التى معى. ليس معى فكة." ذهب واشترى زجاجة Seven Seas، تعرفها، وشربها على السفينة وغادرنا إلى جويانا.

كان قد مضى يومان تقريبًا على إبحارنا. كنت تقريبًا عند دائرة عرض باماروون ولكن بالقرب من البر؛ أعنى بعيدًا فى الخارج كما تعرف. فى الليل قال إنه يشعر بتوعك ونهب لتشغيل الطلمبة. إنها طلمبة البخار، وهناك حبل تسحبه لكى تبدأ الطلمبة وبعد أن شغل الطلمبة مشى وعاد إلى المؤخرة. وفى المؤخرة وخلف صندوق العجلة، حيث رقد هناك. نادى الشخص الذى على العجلة وقال "هل العم (كنا نسميه العم سيجيت) يحتضر أم ماذا؟" وعندما ذهبت لأرى ما يجرى كان يتقيأ ولكن القىء كان كله دم. ولذلك استدعيت ابنه. كان ابنه يتولى تشغيل محرك السفينة. استدعيت الابن وقلت له "يا بنى، أبوك يعانى من شىء ما."

جاء الفتى، وفى الوقت الذى جاء الفتى ناداه "ماذا حدث يا أبى؟" وغير ذلك وجلس ووضع رأسه على الفتى. كان ميتًا. لقد مات. كانت ليلة سبت وقررت أن تذهب السفينة إلى جورجتاون، وكنا سنصل جورجتاون فى اليوم التالى. وبعد قليل حدث شىء فى غرفة المحركات. المحرك. أصاب المحرك عطل ما. المحرك تعطل أو شىء كهذا. نزل الفتى. ترك أباه هناك. كان ميتًا هناك، ونزل. وظل الفتى يحاول ولكن المحرك لم يعمل. لم يدر المحرك! وعندما عاد إلى هنا قالوا إنه أبلغ الناس أنه يريد أن يدفن فى البحر. قال الناس صراحة إنه لا يريد إزعاج أحد. إنه يود أن يكون له قبر بحرى.

لم يعمل المحرك ثانية. حدث شىء للمحرك ولم تكن لدينا قطع غيار على السفينة. وجاءت الريح غيرت اتجاهنا ناحية الجنوب. لم استطع تحديد المسار سوى جنوب غرب وقليلاً جدًا. كانت الأمواج هى التى تحرك السفينة. سرت فى اتجاه البر.

بسرت في اتجاه البر ولكن حين لمحت البر رأيت باماروون ولكني لم أر البر معه لأنه في ليلة السبت - الأحد لم نلمح أية أرض، لأن الريح لم تكن تهب والمحرك لم يكن يعمل. ولذلك لم نر البر وكان الرجل - وتعلم كيف يكون الحال - قد بدأ ينتفخ وغير ذلك. ولذلك اتخذت قراري. قلت "إذن يا أولاد، تعلمون أنه لابد أن نفعل شيئًا." طلبت الابن وأبلغته. قلت "ما الذي يمكن أن نفعله يا بني؟ أنا آسف. إنه والدك وقد حاولنا في الواقع أن نقدم له مقبرة على البر، ولكنك ترى أنه لا يمكن أن يبقى هنا. ولا يمكننا أن نفعل شيئًا أفضل من ذلك." كان يبكي ولكنه قال إنه لا يمكننا أن نفعل ما هو أفضل. وكان لدى شخص هولندي على السفينة، وقال هذا الشخص إنه يمكنه تغسيله.

أمسك سكينًا وشق الملابس التي يرتديها وأتى ابنه من حقيبته ببيجامته وألبسوه إياها وكان لدى قماش مرتبة أدخلناه فيه وربطناه برفق وخيطنا عليه قماشًا وغير ذلك وتلا وكيل القبطان شيئًا من كتاب صلواته، وكان وكيل القبطان مستعدًا وكل شيء. وحين كان كل شيء جاهزًا وضعناه في المكان المعتاد وجعلنا السفينة مواجهة للريح. لم يكن هناك الكثير من الريح وتوقفت السفينة. لم يكن هناك سوى همهمة. لم تكن هناك ريح وكانت هناك همهمة وحسب وكان المد شديدًا، وبالطبع عرفت أن المد قوى وربطته ووضعت حبلاً في رأسه ونيله وأنزلته من على السفينة وكان وكيل القبطان يقرأ عليه، يقرأ الموعظة وغير ذلك، وسحبنا الحبل وتركناه يذهب.

لكن هناك غلطة ارتكبتها. ارتكبت غلطة وهي أننا نسينا، بينما كان الجميع شديدي الحزن وكان الكل يبكون عليه. لم أتذكر قط أن أربط ثقلاً فيه. وبعد أن تركوه يذهب لن يغوص في القاع. سوف يطفو. وأخذ الرجال يراقبون وظل يمضي ونحن نراقبه لفترة ثم ذهب. لم نستطع أن نفعل غير ذلك. وهكذا ذهب. لقد دفناه في البحر وقرأ وكيل القبطان كما يقرءون على البر. قرأ موعظة عادية صغيرة وغير ذلك، وأنزلناه ولكن كان يجب علينا في الواقع أن نربط فيه ثقلاً. فحين تدفن رجلاً في البحر لابد أن تربط فيه ثقلاً وحين تتركه يذهب سيذهب. لا يهم إن كان سيهبط إلى القاع أو أين يذهب. لابد أن تربط فيه ثقلاً. لقد رأيناه بعد أن تركناه يمضي وكان ذلك خطأ. كان لابد أن نربط فيه ثقلاً [١٢] .

هناك نقطتان مهمتان لابد من الإشارة إليهما. فالحكاية تعد ملحقًا لأغنية Pappy You Done Dead لناثان فيلبس Nathan Philips، كما أنها تشير بقوة إلى أن فشل السفينة فى الوصول إلى البر يعود إلى روح الميت.

ومع أنه من الواضح أن القبطان ماكفارلين كان يشعر بالضيق من خطئه غير المقصود، فإن تلك الأخطاء تكون فى بعض الأحيان مصدراً لقدر كبير من التسلية. فعلى إحدى الجزر فى مين توفيت امرأة عجوز فى منتصف الشتاء. كانت الأرض صلبة وتردد الرجال فى حفر القبر. بل إنهم اكتشفوا أنه لا يوجد خشب لصنع التابوت، وظلت السيدة العجوز ممدة فى الركن بينما كان الأصدقاء والأقارب يقررون أفضل ما يمكن عمله. وفى النهاية قال أحدهم مقترحاً: "لما لا ندفنها فى شراع السكونة الأمامى؟" كان الرد "إنه أكبر من اللازم." "بالإمكان ثنية إلى نصفين." وبناء على ذلك ثنوا الشراع الأمامى وخيطوه على الجثمان. ولكن قبل أن يفعلوا أى شىء آخر أخذت الحفيدة تبكى بمرارة. "لم أظن قط أننى سأرى اليوم الذى تذهب فيه جدتى العجوز المسكينة إلى الجحيم فى شراع أمامى مطوى." وفى نسخة إنجليزية من هذه الحكاية أُسقطت راكبة إحدى السفن فى البحر وقد رُبط فيها ثقل من الفحم، وكان التعليق على ذلك هو "لم أظن قط أن السيدة العجوز ستأخذ فحمها معها إلى الجحيم"(١٤).

وفى جزر الهند الغربية، حيث تزاحم الأرواح الأحياء فى الحصول على مكان، هناك عادة لافتة للانتباه تتعلق بالربابنة الموتى تشبه من نواح عديدة الممارسة النرويجية الخاصة بالتخلص من ربان السفينة بوضع جثمانه فى سفينته وإضرام النار فيها وتركها تبحر بالجثمان.

فى وقت ما بين السنة والسبع سنوات بعد موت أحد الربابنة، كانت أسرته تقيم "وليمة الحَجَر" stone fête لإقامة شاهد قبره. إلا أن ذلك ما كان ليتم إلا بعد أن يتأكدوا من أن الجثة قد تحللت. وتعد أسرة الرجل وليمة كبيرة يدعى إليها الجميع. وكانوا يجهزون برميلاً كبيراً بالصوارى والأشرعة مثل سفينة الربان وتتصل به سلسلة مرساة. ثم يختارون عريف ملاحين يجمع طاقماً. توضع حمولة ما على السفينة التى "تبحر" إلى مكان معين، حيث تفرَّغ من حمولتها وتوضع حمولة أخرى. ثم تبحر

السفينة من جديد. ويمضي الطاقم الصوري الليلة كلها في شرب الروم وغناء الأغاني وجر السفينة الصورية وسط الجمع. وفي الوقت المحدد ينهالون عليها بالعصي والجنازير إلى أن تتحطم. وبتحطيم البرميل يُطلق شبح الربان المتوفي ويُفترض أنه لن يزعج الأحياء بعد ذلك.

تمشيًا مع الخرافات والمعتقدات الخاصة بالموتى، كانت هناك ممارسة غريبة تُتبع حتى وقت قريب في جزيرة بيكيا في جزر الأنتيل الصغرى. ففي الأيام الخوالي، حين كان النقل على الجزيرة ضعيفًا، كان الموتى يُحملون في الغالب إلى الجبانة بالقوارب. وفي تلك الأوقات كان المراكبية يستخدمون "ضربة الموتى"، حيث تكون ضربة في الماء ثم يجعلون المجاديف في وضع أفقي وتكون الضربة التالية في الهواء. ثم توضع المجاديف في وضع أفقي من جديد وتكون الضربة الثالثة في الماء. وبذلك فإن كلاً من الجسد والروح ينقل إلى أرض الدفن (١٥).

كان الاعتقاد العام والشائع في حال فقدان رجل ما حياته في البحر دون أن تُجرى له أية مراسم دفن، هو أنه سوف يتردد على المنطقة، أو يعود إلى سفينته القديمة حين تمر من المنطقة التي فُقد فيها، أو ربما يصعد على متن سفينة أخرى إن هو أخفق في العودة. وكان ذلك يَصدُق بشكل خاص حين كانت إحدى السفن تجنح بكل طاقمها. لنبحث هذه المأساة التي وقعت منذ قرن مضى، لتوضيح هذه النقطة.

كانت "هاسكل" Haskell سكونة جديدة أبحرت من جلوسستر بولاية ماساتشوستس حين ألقت مرساتها ذات ليلة في مخاضة جورجيز. وكانت ترسو خلفها السفينة "جونستون" Johnston . وأثناء الليل هبت عاصفة وانفصلت هاسكل عن حبالها وارتدت في اتجاه الريح وانحرفت جونستون عن مسارها. وقبل أن يرفع أحد على أي من السفينتين يده ضربت هاسكل منتصفها وغرقت جونستون بطاقمها. ولم يلحق بهاسكل سوى ضرر بسيط وعادت إلى جلوسستر.

بعد ذلك بفترة قصيرة عادت هاسكل إلى جورجيز وألقت مرساتها. وفي وقت ما أثناء نوبة الحراسة الوسطى فزع أفراد الطاقم حين رأوا ستة وعشرين رجلاً مبللين أشكالهم مخيفة يزحفون على درابزينها. لم ينطق أحدهم بكلمة؛ ولكن رجلاً اتجه إلى

العجلة فى المؤخرة، ووقف آخرون عند حبال رفع عوارض الأشرعة. وفك آخرون معدات صيد السمك واصطفوا على الدرابزين ليصطادوا سمكًا شبحيًا. وظلوا هكذا حتى مطلع الفجر حيث اختفوا. وفى كل مرة كانت تذهب فيها هاسكل إلى جورجيز كان الصيادون يصعدون إلى متنها، حتى بات فى النهاية من غير الممكن العثور على بحارة يخرجون عليها، وظلت واقفة على أحد أرصفة جلوسستر حتى تحطمت (١٦).

وفى مناسبة أخرى دفعت الريح أثناء إحدى العواصف سكونة اسمها "نورثرن لايت" Northern Light إلى مخاضة جورجيز. وقبل أن تعرف أين هى كانت تحيط بها مياه بيضاء وبدا أنه من المستحيل أن تنجو السفينة من الغرق. وحين تبدد كل أمل فى إنقاذها تجمع فوقها عشرون بحارًا يقطرون ماء على الدرابزين ثم قادوا الربان وأفراد الطاقم إلى عنبر البحارة وتولوا هم أمر السفينة. كان الصوت الوحيد المسموع هو صوت الريح فى الأشرعة وهدير البحر الذى يتصاعد ماؤه عليها. وفى صباح اليوم التالى أدهشهم أنهم وجدوا أنفسهم على متن السفينة وقد نشرت كل أشرعتها وكانت تسرع فى اتجاه البرجين التوءم على جزيرة تاتشر .Thatcher's Island كان اليوم جميلاً وكانت الريح خفيفة ولم يكن هناك أحد على السطح(١٧).

كما توضح الحكاية السابقة فإن هذه الأشباح مفيدة أحيانًا للبحارة الذين يعانون من الضيق والإجهاد؛ فهى إما تحذرهم من مشكلة وشيكة أو تنقذهم فى وقت شدتهم. ونتذكر أن جوشوا سلوكوم حصل ذات مرة على ذلك العون حين أصابه الإجهاد أثناء عاصفة عاتية. فقد صعد على متن سفينته أحد أفراد طاقم "كولومبس" بقبعته الحمراء وتولى عنه القيادة كى يتمكن هو من أخذ قسط من الراحة (١٨).

كانت "فيستا بيرل" Vesta Pearl، التى تسير بمحاذاة الساحل من سانت جون St. John فى نيو برونسويك New Brunswick، سكونة بنيت فى القرن التاسع عشر. كان على متنها طاقم من خمسة أفراد، ولكن ربانها مات وكان الناس يعتقدون أن على متنها "بولترجايست"(*). ولكن على خلاف هذا النوع من العفاريت، كان هذا العفريت

(*) poltergeist فى الخرافة الألمانية عفريت شرير يحدث جلبة وصخبًا ويقذف الأشياء فى الهواء. (المترجم)

فى كثير من الأحيان مُعيناً، وإن لم يكن أحد يراه إلا من يمسك الدفة. وحين كانت السفينة بحاجة إلى تقصير الأشرعة واستُدعى كل الرجال لذلك، كان الرجل الممسك بالدفة يرى باستمرار خمسة رجال يقصرون الأشرعة. ورغم طبيعة البولترجايست المُعينة كان الناس يخافون منه، وكان أفراد الطاقم ينامون على الشاطئ حينما يمكنهم ذلك (١٩) .

هناك حكاية فى أيرلندا عن بحارين كانا صديقين حميمين. وفى يوم من الأيام وبينما كانا يقفان تحت رأس إيريس، أقسم أحد البحارين أنه فى يوم من الأيام، حيًا كان أم ميتًا، سوف يساعد صديقه فى ساعة الشدة. ومرت سبع سنوات وأُرسل أحد البحارين إلى أعلى ليكون مع بحار آخر فى منصة المراقبة. نظر من أعلى ولدهشته رأى صديقه واقفًا على السطح يحثه على النزول. تردد الرجل الذى أعلى لأنه قد يحاكم عُرفيًا، واقترح الرجل الذى أسفل أن بإمكانه إسقاط سكينه والنزول وراءها دون التعرض لأى أذى. فعل ذلك، وبينما كان فى منتصف الطريق إلى السطح سمع صرخة ونظر لأعلى فرأى منصة المراقبة تسقط عليه. ورغم كل ما فعله أخذه الحطام معه إلى أسفل وسقط على السطح. قُتل زميله، أما هو فأصيب إصابات طفيفة، إذ كان على مسافة أكبر أسفل الصارى ولم يسقط لمسافة بعيدة. لم يكن البحار يعلم أن صديقه الحميم قد مات منذ وقت مضى. فلم يكن الحى هو الذى أوفى بعهده، وإنما الميت (٢٠) .

تأتينا من نوفا سكوشا، حيث كثيراً ما يقابل الناس الأشباح، حكاية لافتة للانتباه ذات طبيعة مختلفة بعض الشىء. فقد كانت سفينة تقوم بالصيد قبالة جورجيز فى يوم عاصف من أيام الشتاء حين قابل أفراد الطاقم غريبًا عند طاولة الخرائط يكتب على لوح إردواز (كانوا يحتفظون به قديمًا كمسودة للسجل). نادى فرد الطاقم المفزوع على القبطان الذى نزل؛ ولكن الرجل اختفى. ولكن لابد أن شخصًا ما كان هناك، ذلك أن لوح الإردواز كانت عليه رسالة: "غير مسارك إلى شمال شمال غرب وفى وقت معين سوف ترى سفينة تنقلب على جانبها وأفراد الطاقم معلقين بها." غُيِّر مسار السفينة بتردد، وبعد الوقت اللازم وصلوا إلى حطام سفينة معلق عليه ستة عشر رجلاً التقطوهم. كان رجلاً واحداً قد فُقد (٢١) .

وإلى الجنوب من ذلك فى تشيسابيك، هناك حكاية مختلفة اختلافًا طفيفًا. شاهد قبطان جمجمة تظهر فجأة على جانب مقصورة القيادة. نادى القبطان المفزوع على وكيله فرآها هو الآخر. غيَّر الربان المسار فى الحال إلى الاتجاه الذى كانت تنظر إليه الجمجمة ووصل فى الوقت المناسب ليلتقط بعض الناجين من سفينة غارقة (٢٢).

نجد نموذجًا للشبح الذى يزور صديقًا أو قريبًا فى حكاية رواها القاضى هادلوك Hadlock من سيل هاربر بولاية مين. فأثناء "عاصفة ٩٨" كان إيمز هانسون Ames Hanson يصطاد السمك فى جرانج بانكس Grang Banks فى سكونة جديدة وكان شقيقه فى سفينة قديمة. وبعد منتصف الليل بقليل ذهب إيمز إلى القبطان وقال "لقد مات شقيقى يا قبطان."

"أنت مجنون! كيف عرفت؟"

"رأيته يمشى فى اتجاهى على الماء وقال لى وداعًا."

"كلام فارغ، فهذا لم يكن سوى حلم."

"لا يا سيدى، لم يكن حلمًا. لقد مات أخى." وهذا ما ثبت أنه حدث بالفعل. فلم يسمع أحد شيئًا عن شقيقه ولا عن السكونة التى يعمل عليها بعد ذلك.

إلا أنهم يعتقدون أنه حتى الموتى الذى يدفنون بالطريقة الصحيحة يظهرون من حين لآخر، إما على هيئة شبح أو بولترجايست، فى بعض الأحيان لمساعدة الأحياء أو لإعاقتهم. فقد سقط ربان قارب الإرشاد فى سندرلاند Sunderland بإنجلترا ميتًا على السطح منذ عدة سنوات، وقيل إن خياله يُشاهَد على السفينة من حين لآخر (٢٣). وقد ابتُلى يختان أحدهما يملكه رجل إنجليزى اسمه ديفيد كايل David Kayll والآخر لقبطان إنجليزى من جزر الهند الغربية بالعفاريت. ففى الحالة الأولى غيَّر المالك الرأس (التواليت) وفتحة السقف. وكانت السفينة قد ابتليت ببكَر وجنازير تصلصل تصحبها طرَقات ووقع أقدام ثقيل على السطح. وفى الحالة الثانية ظهرت المشكلة بعد الاستعاضة عن أشرعة السفينة بتصميم أحدث. وكانوا فى الصباح يجدون حبل رفع الأشرعة ملفوفًا على الصارى فى العالى، بينما لا يزال الشكال مؤمَّنًا ومغلقًا بالسلك.

وكانت حافة الشراع الأمامية ملوية دون رفعها عن الصارى. وبالإضافة إلى أشياء أخرى، كان الطعام يُنقل من مكان ويوضع فى مكان غيره. وفى الحالتين كانت السفينتان قبل ذلك من أملاك وتصميم شخصين شديدى الدقة طلبا أن يكون كل شيء "هكذا بالضبط". وقد اشتريتا وعُدلتا بعد موت المالكين الأصليين. وفى الحالة الأولى حلت المشكلة ببيع السفينة ونقلها هى وطاقمها المتعب لشخص آخر كى يتعامل معهم. وفى الحالة الثانية يعتزم المالك الحالى أن يعيد للسفينة أشرعتها الأصلية وهو متأكد من أن هذا سوف يحل مشكلته. والواقع أنه منذ أن أعلن عما يعتزم القيام به أصبحت زيارات العفاريت أقل بشكل ملحوظ [٢٤].

يعتقد الناس أن الموتى إما يسافرون من البقعة التى قضوا فيها نحبهم للقيام بزيارة سريعة، أو يعودون إلى البقعة التى ماتوا فيها إن كانوا قد دُفنوا فى مكان آخر. و تُروى فى البحر الكاريبى حكايات كثيرة عن قباطنة السفن الذين حملوا دون أن يدروا مثل هؤلاء الأشخاص الذين يسمون [ la jablesse (la diablesse) العفريتة ] من جزيرة إلى أخرى ظنًا منهم أنهم أناس حقيقيون. وحين كانت السفينة تصل إلى الميناء كانت "العفريتة" تدفع الأجرة للربان وتنزل على البر. وبمجرد اختفائها كان القبطان يدرك حمقه. فبدلاً من الأجرة التى ظن أنه تلقاها، يكتشف أن معه كيسًا مليئًا بأوراق الشجر وروث الماعز[٢٥].

وطبقا لما قاله مالكوم ماكدونالد Malcolm MacDonald الذى يتولى تشغيل المحرك على السفينة "جيرل فيفيان" Girl Vivian من فريزربرج بإسكوتلندا، فقد كان كانت هناك جبّانة قديمة تسمى يويج Uig على جزيرة ليويس بجزر الهيبريديز. ومنذ سنوات كانت عادة الناس أن يرعوا ماشيتهم فى الجبانة ليلاً، ويتركوا امرأة عجوز تحرسها. وفى ليلة معينة كانت السيدة العجوز تحرس الماشية وكانت تمضى الوقت فى غزل الخيوط. وفى منتصف الليل (الاعتقاد الشائع أن هذه هى الساعة التى يبدأ فيها الموتى السير) أدهشها إلى حد ما رؤية كل المقابر تُفتح وتخرج منها الأشباح. انطلق الجميع فى اتجاهات مختلفة. وقبل ضوء النهار بقليل عادت الخيالات وأُغلقت المقابر عليها؛ ما عدا قبر واحد ظل مفتوحًا.

قررت المرأة العجوز اكتشاف أين كانت الأرواح ووضعت فلكة مغزلها (وهى على شكل المسيح مصلوباً الذى لا يمكن أن يمر بجواره أى شبح طبقاً للمعتقد الشائع) على المقبرة. ومع بصيص الضوء ظهرت الروح الصغيرة الأخيرة واندفعت نحو القبر، لتجدها تسد عليها الطريق. توسلت للمرأة كى تبعد فلكة المغزل، ولكن السيدة العجوز رفضت أن تفعل ذلك قبل معرفــة أين كانت الــروح، ومن هى، ولماذا تأخــرت. قالت لها الروح:

"أنا ابنة ملك النرويج ومنذ سنوات بعيدة أرسلنى أبى إلى إسكوتلندا. وفى الطريق غرقت السفينة فى عاصفة كبيرة وألقت الأمواج جثتى هنا، ودفنونى فى هذه المقبرة. وفى كل ليلة نحن الموتى لابد أن نعود إلى المكان الذى متنا فيه. والمكان الذى غرقت فيه بعيد جداً عن هنا ولذلك فأنا آخر من يعود. اتركينى أدخل المقبرة وسوف أعطيك هدية قيمة."

أرضى ذلك المرأة العجوز وأبعدت فلكة المغزل. أعطتها الروح الصغيرة حجراً أبيض صافى البياض فيه ثقب واندفعت إلى داخل القبر. وكان ذلك هو الحجر الذى أصبح فى النهاية ملكاً لبراهان سير، الذى يحظى بأكبر قدر من الثناء والتقدير بين الأنبياء الإسكوتلنديين؛ وقد استخدمه ليرى المستقبل. وقبيل موته ألقاه فى إحدى البحيرات. وقد سبق لى الحديث عن سير هذا، وسوف أذكر عنه المزيد فيما بعد(٢٦).

فى نسخة أخرى من الحكاية نفسها، تخبر الروح المرأة أنها إذا رفعت فلكة المغزل سوف تدلها على أين تجد أحد الكنوز. فهى تقول إنه يقع تحت حزمة من الأعشاب البحرية أو شجيرة على الشاطئ. تسرع المرأة العجوز إلى الشاطئ ولكنها لا تعثر على مجموعة الأعشاب الصحيحة (٢٧).

تركز النقاش حتى الآن حول أشخاص فقدوا حياتهم بالصدفة. أما موقف الأموات ممن تسببوا فى وفاتهم فشىء آخر بالمرة. إذ يُعتقد أن أشباح المقتولين مستعدة للانتقام وراغبة فيه وقادرة عليه ، وهى لا تخص عند اختيار ضحاياها. فعلى ساحل كورنوول، حيث يجتذب من يغرقون إلى الأمواج المتكسرة بعرضهم أضواء زائفة ثم يقتلون الناجين من الغرق، لا تزال زيارة موقع غرق السفينة ممارسة ضعيفة جداً. بل

إنهم فى إسكوتلندا لا يقتربون حتى من السفينة المهجورة خوفًا من الأرواح المصاحبة. وطبقًا لما قاله الراحل إف رولنز ماكسويل F. Rollins Maxwell من دكسبيرى Duxbury بولاية ماساتشوستس، فقد كانت هناك مخلوقات تسمى "يو هوز" Yo hos فى كيب كود. وكانت تلك أرواح البحارة الغرقى التى يمكن العثور عليها فى الليالى المظلمة وهى تصرخ "يو هو" فى الضباب، وتعرض ضوءًا. وكان قبطان السفينة الغافل يذهب للإنقاذ، ظنًا منه أن الضوء والصرخة من بحارة فى شدة، ليجد نفسه وقد وقع فى فخ الرمال المتحركة والتيارات المقابلة لذلك الرأس الذى يسميه الفرنسيون كاب ماليبار Cap Malebarre.

قد يكون افتراض سكنى الأشباح المنتقمة للساحل فقط غير صحيح؛ فلا يمكن لإنسان ولا لسفينة أن تذهب إلى هذا الحد لكى تكون بعيدة عن متناول شبح منتقم. وهناك أغنية شعبية اسمها "نجار السفينة" يقتل فيها النجار فتاة قبل أن يخرج للبحر. وبعد وقت طويل، وحين كانت السفينة بعيدة عن البر، دخل ويلى Willie مخزن السفينة وهناك رأى امرأة جميلة. حاول أن يضمها بين ذراعيه، "ولكنه تراجع فى رعب ودهشة / ذلك أن ومضات من الضوء كانت تخرج من عينيها" (٢٨).

الظاهرة الأخرى التى لا تبشر بأى خير، فى أى من العالمين القديم أو الجديد، هى تلك الظاهرة الغريبة المعروفة باسم الجنازة الشبحية. ويذكرها كريتون Creighton وجمعت أنا حكايات عنها من إسكوتلندا وأيرلندا وجزر الهند الغربية. وعادة ما تكون الحكاية أن رجلاً ما يسير فى الطريق، وغالبًا ما يكون فى صحبة صديق، وفجأة يتنحى جانبًا. وحين يُسأل عن السبب يقول إنه يفسح الطريق لموكب الجنازة. وبالطبع لا يرى صديقه شيئًا. وفى أغلب الأحيان يتعرف من خلال تركيبة المشيعين أنها جنازة شخص حى بعينه. ويعتقد الناس عمومًا أن الشخص الذى فى النعش مقدر له الموت وسوف يموت قبل مرور أيام كثيرة.

رست ذات ليلة إحدى بواخر ماكبرين MacBrayne وهى الشركة التى كُتب عنها البيتان "العالم وكل ما فيه ملك للرب/ إلا الجزر الغربية فهى ملك لماكبرين" فى أحد الموانئ ونزل القبطان، وكان رجلاً معتدلاً، للقيام بزيارة قصيرة لزوجته على البر. ولكى

يصل إلى البيت كان لابد أن يصعد سلماً درجه من الحجر، وفى منتصف السلم داهمه فجأة موكب جنازة. حاول أن يبتعد عن طريقه، ولكن قبل أن يتمكن من ذلك كان المشيعون فوقه. أدمى أنفه ومزقت ملابسه وتدحرج على الدرج. وبعد أن أصيب إصابات شديدة وملأه الرعب، تمكن من الزحف إلى بابه ودخل المنزل، حيث لم تتحسن حالته طوال عدة أيام. وقد توقع أن تكون هناك كارثة مريعة فى انتظاره هو أو أحد من لهم صلة به، وهو ما أمَّن عليه أهل القرية. إلا أنه حتى وقت كتابة هذا الكلام لم يحدث له ما يمكن ربطه مباشرة بذلك الحدث (٢٩).

شاع اعتقاد بأن الموتى يتخذون أشكالاً أخرى، وخاصة أشكال الطيور. وكان الناس يظنون أن طيور البحر عموماً، وعلى الأخص طيور النوء والقطرس، أرواح قلقة لبحارة غرقى. وهذا ليس مستغرباً، لأن طيور البحر لا تتصرف كطيور البر. فهى تشرب ماء البحر، ولا تحتاج إلى بقعة جافة كى تجثم أو تنام عليها. ويبدو أن بعض الأنواع لا تخرج أبداً للبر. والكثير منها له صرخة وحشية تعبر عن الحزن. ويمكن للقطرس، أكثر من أى طائر آخر، أن يحوم على ما يبدو للأبد دون أن يحرك ريشة، ويمكن رؤية طيور النوء حتى فى أسوأ طقس وهى تسير على الماء؛ وهو العمل الذى لا شك فى أن كثيرين حاولوا القيام به ولكن لم يقم به سوى المسيح والقديس بطرس، الذى اشتق اسم هذه الطيور من اسمه(*).

كما علم البحَّار القديم Ancient Mariner (**) فإن قتل أحد هذه الطيور يجلب الحظ السيئ، كما أن البحارة يراقبونها لأنها تعتبر مُعينة بأشكال كثيرة. وفى سجل نثرى آخر يكتب القبطان كوجشال Coggeshall، وهو ربان سفينة من القرن التاسع عشر، أنه رأى أربعة عشر طائراً غريباً تتبع السفينة قبيل وصوله إلى كيب هورن، وهو يشير إلى أنها تعقبته طوال الطريق حتى مدخل ميناء بالباريسو Valbaraiso (٣٠) وفى

(*) اسم القديس بطرس بالإنجليزية هو Pete وتسمى طيور النوء بالإنجليزية petrels. ( المترجم ) .

(**) قصيدة للشاعر صمويل كوليريدج كتبها فى أواخر القرن التاسع عشر وهى عبارة عن حكاية راويها هو البحار القديم الذى ارتكب جريمة لم يكن هناك ما يدعو إلى ارتكابها بقتله أحد طيور القطرس. ونتيجة لتلك الجريمة يحكم على البحار بالعيش ميتاً. وبعد أن يتوب تعيد القوى الخارقة سفينته إلى دياره، ولكن يظل عليه أن يعلم الآخرين الدرس الذى تعلمه وهو أن يحبوا ويحترموا ما خلق الله وأحب (المترجم) .

أكثر من مناسبة حالت أصوات طيور النورس على الصخور فى ساعات الصباح الأولى دون جنوح هذا الكاتب على البر فى الطقس الذى تتعذر فيه الرؤية. ومع أنى لا أؤمن بالمعتقد الذى يقول إنه من حسن الحظ أن يتبرز أحد هذه الطيور عليك، كما يظن معظم البحارة، فأنا أتردد فى إيذائها.

تنذر هذه الطيور فى بعض الأحيان بوقوع أحداث، ولكن كما هو حال الأحلام، تكون المشكلة الوحيدة هى تأويل دلالتها.

خرج أحد البحارة فى خليج تشيسابيك يومًا لصيد الطيور ببندقيته فى يوم عاصف فى منطقة مستنقعات. لم يمر عليه وقت طويل فى مكمنه حتى رأى بطة قذرة تطير فوق المكمن فقتلها. وجاءت اثنتان غيرها فقتلهما. سقطت الطيور الثلاثة خلف المكمن على أرض سبخة، فتركها هناك حتى يعود ويأخذها فيما بعد. صطاد زوجًا من طيور أخرى ورأى أن الوقت قد حان للعودة. بحث قدر استطاعته عن البطات الثلاث التى أسقطها خلف المكمن فلم يجدها. افترض أنها إما أنها أصيبت فقط وسبحت بعيداً فى الماء، أو أن أحد المخلوقات المائية سحبها، وفكر لبعض الوقت فى الموضوع. فى تلك الليلة هبت عاصفة رهيبة استمرت ثلاثة أيام. وحين هدأت العاصفة خرج من مكمنه. وهناك فى المياه الضحلة فى الأرض السبخة، تمامًا حيث سقطت الطيور، وجد ثلاث جثث لبحارة غرقى(٣١) .

الأمر اللافت للانتباه إلى حد كبير هو أن هناك حكاية مماثلة تروى فى نيوفاوندلاند. وفى هذه الحالة يقتل الصياد الطيور وحين يذهب ليأخذها يرى الجثث الثلاث تحملق فيه من أسفل(٣٢) .

فى بعض الأحيان يكون للطيور دور فى حياة البحارة أكثر إيجابية من الصراخ وتحذيرهم كى يتقوا الصخور أو يتجنبوا أحداثًا تقع فى المستقبل. وقد روى القبطان جونسون **Captain Johnson** ربان السفينة "إيلين" **Ellen** ما يلى:

**قبيل الساعة السادسة مساء يوم الثانى عشر من سبتمبر عام ١٨٥٧ كنت واقفًا فى مؤخرة السفينة ... بجوار الرجل الذى يمسك بالدفة. وفجأة طار طائر حولى ولمس كتفى الأيمن. وبعد ذلك طار حول السفينة، ثم بدأ يطير من جديد حول**

رأسي. وبعد قليل طار من عند وجهي، حيث أمسكت به وأسرته. وكان الطائر غير أي طائر رأيته من قبل، ولا أعرف له اسمًا. كان لون ريشه هو الرمادي الداكن، وكان طول جسمه قدمًا ونصف، وطول جناحه ثلاثة أقدام ونصف من الطرف للطرف. وكان له منقار طوله ثمانية بوصات كاملة وأسنان مثل أسنان المنشار اليدوي الصغير. وحين أمسكت الطائر عضني عضة قوية في إبهامي، كما عض كذلك اثنان من البحارة كانا يساعداني في ربط ساقيه. ولأنه كان يحاول عض الجميع فقد أمرتهم بقطع رأسه وإلقائه في البحر.

حين طار الطائر إلى السفينة كانت تتجه قليلاً ناحية شمال الشمال الشرقي. وقد نظرت إلى ظهور هذا الطائر على أنه نذير ومؤشر ... إلى ضرورة تغيير مساري. وبناء على ذلك اتجهت إلى الشرق مباشرة. وما كان لي أن أنحرف عن مساري لولا زيارة الطائر للسفينة، ولولا هذا التغيير بالطبع لما التقيت بتسعة وأربعين راكبًا [ من السفينة الغارقة "سنترال أمريكا" Central America ] الذين أنقذتهم لحسن الحظ من موت محقق [٣٣] .

أخيراً، فربما كان الإيمان بالطيور باعتبارها فألاً حسنًا هو الذي جعل الأميرال رودنى Admiral Rodney يعطي اهتمامًا خاصًا بديك البنطم(*) الذي حط على مؤخرة سفينته وضرب بجناحيه وكان يصيح مع كل انطلاق لمدافع السفن في معركة القديسين الشهيرة التي أدى انتصار الإنجليز فيها إلى سيطرتهم على جزر الهند الغربية [٣٤] .

كنت قد ذكرت من قبل حقيقة أن بحارة كثيرين ترددوا في الاقتراب من حطام السفن خوفًا من الأشباح المصاحبة لها. وقد يكون الأمر هو أن حكايات الأشباح والأرواح الشريرة كانت تُخترع لتكون بمثابة رادع لمن يحتمل تخريبهم للسفن أو سرقتهم البحارة المعوزين على الشاطئ. وإذا كان الأمر كذلك، فمن المؤكد أن الحكاية التالية كان لها أثر كبير على المستمعين.

هبت منذ فترة طويلة عاصفة شديدة على شتلاند، وفي صباح اليوم التالي نهض أحد الصيادين من فراشه مبكراً وسار على خط المد ليرى إن هناك شيء مفيد قد وصل

(*) نوع من الدجاج صغير الحجم. (المترجم) .

إلى الشاطئ. وقبل أن يمضى بعيداً جداً وصل إلى حطام سفينة غرقت أثناء الليل. كانت الصوارى والحبال ملقاة بكثرة، وكان رجل يرتدى ملابس جيدة يرقد بعد حد نروة المد بقليل، وهكذا جرده البحار من كل ما هو ثمين معه، وسحب الجثة إلى مستوى أدنى، وعاد إلى بيته وأخفى كنزه الصغير. ثم انضم بعد ذلك إلى زملائه في البحث عن أحياء من السفينة الغارقة. وحين وصلوا إلى المكان الذى كانت فيه الجثة فُزع الصياد حين وجد أنها قد اختفت. خمن سارق الجثث أن الأمواج أعادتها إلى البحر وأمسك لسانه عن الكلام .

فى تلك الليلة جاء إلى منزل الصياد طائر نورس غريب وجميل من نوع لم يسبق له رؤيته. كان الطائر يطلق صرخات غريبة ويضرب نافذته مرات ومرات طوال الليل. ولم يفلح الصياد فى إبعاده. وأستمر الحال على ذلك الليلة تلو الأخرى. جرب الصياد كل حيلة يعرفها لإبعاده أو قتله، ولكنه فشل. فقد ظل الطائر يصرخ ويضرب النافذة إلى أن أُصيب الرجل بالجنون(٣٥) .

الأمر وثيق الارتباط بالموتى والخوارق هو الاعتقاد فى فاعلية الأحلام. وحتى وقت قريب إلى حد ما لم يكن هناك من يظن أنه يفهم مكائد الأحلام، ومازال العامة يرجعونها إلى نوع من العالم الفاصل بين الواقع والخوارق. وفى بعض الأحيان قد تفهم الأحلام بمعناها الحرفى. وفى أحيان أخرى يعتقد الناس أن عكس الحلم هو ما سيحدث؛ فالعُرس مثلاً معناه جنازة وشيكة. إلا أنه فى مناسبات أخرى يكون من الضرورى تفسير الحلم؛ إلى حد الذهاب إلى أحد العرافين أو إحدى الساحرات أو أى شخص آخر ماهر فى تفسير الأحلام.

روى نيل كاميرون **Neal Cameron** من كرينان **Crinan** فى إسكوتلندا حكاية حلم بسيط. يبدو أن الليدى كامبل **Lady Campbell** أمرت شخصاً يُدعى أرشى **Archie** أن يأخذ رزمة من الأوراق إلى حارس فنار فلادا الذى يبعد حوالى خمسة أميال. وكانت عاصفة تهب من الجنوب:

**... كانت من الشدة بحيث لم تكن لدى المرشد الرغبة فى الذهاب، ولكن كلمة أحد أفراد عائلة كامبل كانت قانونًا فى البلاد فى تلك الأيام، واضطر أرشى المرشد**

**الذهاب فى قاربه الصغير "أليرت" .Alert [ كانت عائلة كامبل ولا تزال تحظى بمكانة كبيرة فى المرتفعات. والواقع أن هناك قولاً بشأنهم، وهو أنه "ليس هناك سوى ثلاث آفات فى أرجيلشاير Argyllshire وهى السرخس والأرانب وعائلة كامبل. والسرخس آفة والأرانب بلاء." ] كان الماء عاليًا وكانت زوجته تصنع كعك الشوفان. نظرت من النافذة فرأته، وحين ذهبت لتقلب الكعك وعادت نظرت ثانية فلم تجد شيئًا سوى البحر. ومنذ ذلك الوقت لم يعثر أحد للقارب على أثر.**

**كان جدى شديد الإعجاب بأرشى وحزن حزنًا شديدًا لفقده الذى اعتبر أنه لم يكن هناك ما يدعو إليه. وفى ليلة من الليالى حلم أنه يسير إلى نقطة معينة على الجزيرة التى كان يعيش عليها حيث وجد قبعة أرشى المرشد ومنديله وكل الأشياء ملقاة على إحدى الصخور. عاد للنوم ورأى الحلم نفسه مرة ثانية، وثالثة. كان الحلم أكيدًا حتى إن الرجل العجوز استيقظ مع أول ضوء وذهب إلى المكان الذى رآه فى حلمه، وهناك كان كل ما عُثر عليه من أرشى؛ كانت قبعته ملقاة على الصخرة وسط الأمواج. عاد بها جدى إلى البيت وطوال خمسين سنة كانت معلقة على أحد أعمدة سرير قديم فى بيتنا ورأيتها سنين عدة (٣٦) .**

من الواضح أن هذه الأحلام يمكن أن تحدث لأى شخص. فقد أخبرنى عضو فى النادى الملكى لسباقات المحيط أنه رأى من سنوات عديدة حلمًا غريبًا يعبر فيه المانش سباحة. وحين استدعى لتولى نوبة الحراسة، أبلغ أصدقاءه أنه رأى فى منامه رجلاً يعرفه معرفة سطحية يعانى من مشكلة ما. كان اسمه لوبى لوين **Bobby Lowen**، وكان لوين فى الحلم يدخل ميناء فرنسيًا وحسب. وكان يحيط به ضباب أو دخان، وقد اختلطت سفينة صيد فرنسية فيه بصورة ما. وبعد ذلك اتضح أنه فى نفس ساعة الحلم كان الرجل المذكور يدخل ميناءً فرنسيًا حين انفجر موقده وحبسه أسفل السفينة. وجاءت سفينة صيد فرنسية لمساعدته، ولكنه أطفأ الحريق ودخل الميناء بلا مساعدة (٣٧).

كان يعيش على لسان موراى فى سانت كومبس **St. Coombs** أكبر "نهاش" فى كل إسكوتلندا الشرقية، وهو القبطان جيمى بوخان **Jimmy Buchan** المعروف فى طول البلاد وعرضها ببشاعته وقوته وطريقته المتهورة فى تسيير نفسه وطاقمه وسفينته. وكان

القبطان بوخان يصر على إرجاع نجاحه الكبير إلى حلم. وكان ذلك حلم خاص بالأموات، وهو أبرز الأحلام جميعها.

العادة على الساحل الشرقي من إسكوتلندا هي عدم مغادرة الميناء أيام الآحاد. فلابد من الانتظار دقيقة على دخول صباح الإثنين. وبينما كان القبطان بوخان ينتظر في قمرته فرد جسمه وراح في النوم. وعلى الفور رأى في منامه أن السفينة تسير بكامل سرعتها في أحد الأنهار متجهة نحو البحر. وكانت الشمس تشرق. نظر القبطان خلفه فرأى شقيقة زوجته المتوفاة في قارب وهي تجدف خلفه بقوه. استمر هو في التقدم في خط مستقيم باتجاه الشمس المشرقة لمدة ثمان ساعات، إلى أن صارت التي تجدف بجواره. وقفت شقيقة زوجته في القارب وقدمت له قطعة من كعكة ذهبية كانت قد خبزتها. ولكن ما إن مد يده ليأخذها حتى سقطت في الماء. قطعت شريحة أخرى وقدمتها له، ولكنها سقطت هي الأخرى في الماء. وبعد ذلك قدمت له الكعكة كلها مرة واحدة. أخذها القبطان وقضم منها قضمة، وكانت أحلى كعكة أكلها في حياته وكانت "صفراء كالذهب". كان الطعم لذيذًا حتى إن الربان استيقظ واكتشف أن الوقت قد حان للإقلاع.

دخل القبطان مقصورة القيادة، وما إن خرجوا من مدخل الميناء حتى قال لموجه الدفة "وجهها ناحية الشرق وأعطها كل ما يلزمها." وبعد ثمان ساعات من السير المطرد أعطى أمره الثاني. "أوقفوها يا شباب، واطرحوا شباككم ولا تهن عزائمكم." طرحت الشباك وسحبت، وكانت فارغــة. "لا بأس يــا أولاد. اطرحـــوا شباككم مرة ثانيــة ولا تحزنوا." ومرة أخرى طرحت الشباك، ومرة أخرى خرجت خاوية. "والآن يا شباب، انزلوا وأريدكم أن تأكلوا جيدًا وتشربوا قليلاً، لأننا سوف نطرح الشبك مرة أخرى ولن تكون هناك راحة على هذه السفينة اليوم."

بعد الأكل طُرح الشبك للمرة الثالثة، وهذه المرة خرج ممتلئًا بالسمك الذي احتاج إلى "أربع عشرة رفعة" لتفريغه تمامًا. وعادت السفينة إلى بيترهيد محملة بحمل ثقيل من السمك، حتى إن أي طقس سيئ كان يمكن أن يغرقها. قال القبطان بوخان: "لقد كان أكبر صيد يجرى إنزاله في بيترهيد في يوم من الأيام."

صرفٌ حلم مشابه أمور أثنيل أوليفيير Athneal Ollivierre كبير صيادى الحيتان فى مصايد حيتان بيكيا فى سانت فنسنت بجزر الهند الغربية.

فقد اشتهر عن زوجة أثنيل أن أحلامها تتحقق، وهو ما كان يحدث فى بعض الأحيان. وكان من عادة زوجها أن يستيقظ كل صباح فى الساعة الخامسة والنصف ليحلب البقرة. وبعد ذلك كان يدخل البيت ويتناول فطوره المكون من بيضتين ثم يذهب إلى مصايد الحيتان، حيث يصل إلى هناك فى حوالى السادسة والنصف.

فى ذلك الصباح على وجه التحديد دخل بعد أن حلب البقرة وبدلاً من أن يجد بيضتين كانت هناك أربع بيضات مقلية فى صحنه. سأل زوجته عن السبب فقالت إنه بعد أن ذهب لحلب البقرة غفت قليلاً والتقت بامرأة عجوز (أم أثنيل المتوفاة منذ إحدى وعشرين سنة) أعطتها أربع بيضات وقالت إنها لأثنيل. وبناء على ذلك استيقظت من النوم وطهت أربع بيضات وأصرت على أن يأكلها. وبينما كان يخرج من الباب قالت له "أظن أن حظنا سيكون سعيداً اليوم." وكان كذلك بالفعل، حيث اصطادوا حوتًا فى ذلك اليوم.

ونتيجة لذلك أوَّل أثنيل الحلم على أنه يعنى أنه سوف يصطاد أربعة حيتان فى ذلك الموسم، وكان ذلك بالفعل هو العدد الذى عاد به إلى البر. ولكن دورة الحلم لم تنته عند هذا الحد.

مع اقتراب موسم صيد الحيتان من نهايته بدأ الناس يحكون له أحلامهم؛ ذلك أنهم حلموا أنهم يُحْضِرون له شيئًا أو أن شخصًا ما يُحْضِر له شيئًا. وبعد ذلك رأى أثنيل حلماً بنفسه: فقد كان يقود بقرته على الطريق و

**... بدأت تتصرف بطريقة سيئة فضربتها بالسوط وأوقعت تلك القحبة العجوز أرضًا، ولكن العجل أخذ يجرى فى الطريق ورأيت جوزيف فورد Joseph Ford [مجدف فى قارب صيد الحيتان] آتيًا فناديته كى يعيده وأعاده، وبينما كان يجرى من أمامى ضربته وأوقعته أرضًا.**

في أول أبريل من عام ١٩٧١ وبعد وقت قصير من الحلم، مرض موجِّه القارب أرلنجتون ريتشاردسون Arlington Richardson ورُقِّي جوزيف فورد ليحل محله. لم يكن قد مضى وقت طويل على وجودهم في البحر حين جاءت سفينة صيد مسرعة في اتجاه الريح تحمل خبر رؤية أنثى حوت وصغيرها. ذهبوا لصيدهما ومضى فورد بمهارة إلى الصغير الذى قتله أنثيل. أما أنثى الحوت فكان أمرها مختلفًا. "لقد تصرفت بشكل سيئ جداً" حيث هاجمت قارب صيد الحيتان وأوقعت الصياد من على القارب مرتين. وبعد ذلك حطمت القارب وقفز أنثيل من عليه وعام إلى قارب آخر وصعد عليه وأمسك برمح صيد الحيتان وقتلها بضربة واحدة. "لقد حدث الأمر تماماً كما في الحلم الذى رأيته"(٣٩).

ويبدو أن أحلامًا كثيرة، أو أشياء فيها، تتكرر مرارًا، وهذه الأشياء وضعت لها صيغ ثابتة. ففي إسكوتلندا تُعد رؤية الخروف في الحلم دليلاً على حسن الحظ، بينما تعد رؤية الخنزير، وخاصة إذا كان داخل غرفة، أو رؤية الدم، إنذارًا بالموت (٤٠).

في جزيرة بيكيا يكون عدد الخراف التى يراها صياد الحيتان في منامه هو عدد الحيتان التى سوف يصطادها في الموسم. ومن الغريب إلى حد كبير أن رؤية الشرطي في الحلم تبشر بالخير. ورؤية شيء أخضر في الحلم معناه حسن الحظ، وتشير الغلَّة إلى أن مالاً سيأتي. ورؤية طفل أبيض يسبح في البحر يبشر بالخير، أما رؤية طفل أسود أو أشخاص سود، ولو في أحلام السود أنفسهم، فينذر بوقوع مصيبة (٤١). ولو أعددنا قائمة بالأشياء والأفكار والألوان الحسنة والسيئة في الأحلام فسوف يتجمع لدينا معجم عن هذا الموضوع.

من المادة السابقة يمكننا رسم صورة عن الأهمية التى تحظى بها أحلام البحَّارة. ويبدو واضحًا أنها تقوم بدور كبير في تصريف أمورهم وتصريف مواقفهم للأحسن أو للأسوأ.

الفأل الآخر المتاخم للخوارق هو الاستبصار، أو رؤية ما هو غير منظور، وهو ما يسميه البعض الإدراك فوق الحسي. وهو ما يتخذ شكلين، أحدهما يمكن شرحه بسهولة، بينما يعيي الآخر من يحاول فهمه. فأي بحَّار كفء ينسجم مع زملائه على

السفينة، ومع سفينته، ومع البحر، ومع الطقس، بدرجة لا يفهمها بسهولة من يعملون على البر. فربان السفينة الشراعية يمكنه أن يرقد فى فراشه ويعرف على وجه الدقة من خلال الأصوات الكثيرة التى تحدثها سفينته، وعن طريق حركتها، وعن طريق الريح التى تمر فى الأشرعة، وعن طريق زاوية ميلها، مدى صعوبة دفعها، ومقدار السرعة التى تسير بها. كما يمكنه أن يحس بما لدى طاقمه من قلق، ويمكن النظر إلى السماء والتنبؤ بهبوب الرياح. وتقوم معرفته هذه على الاستبصار الفعلى، إلا أن بات من التعود عليها حد استحالة تصنيفه لها أو حتى الربط بينها. هذا نوع من أنواع الاستبصار.

أما النوع الثانى ففيه يعتقد المرء أنه قادر على التنبؤ بما تكون عليه الأحداث المقبلة. وهو أكثر شيوعًا فى كل من إسكوتلندا، حيث يسمى الذين يجيدونه بطريقة مبالغ فيها "المتنبئون" **seers**، وفى الأقاليم البحرية الكندية، بين الذين جاء أسلافهم من المرتفعات الإسكوتلندية. إلا أن ذلك ليس مقصورًا بحال من الأحوال على تلك المنطقتين.

أعظم شخص بين من يتمتعون بالاستبصار كافة فى إسكوتلندا رجل اسمه كونيتش أودار **Coinneach Odhar** ويشتهر باسم "المتنبئ البراهى". وقد "رأى" من بين أشياء كثيرة رآها حفر القناة الكاليدونية(*) **Caledonian Canal** وإدخال الأغنام فى المرتفعات، وظهور التليفون، وتدمير إحدى الكنائس وانهيار إحدى العائلات. وقد قتلوه حرقًا بسبب تنبؤاته فى عام ١٦٩٢(٤٢) ، لا أنه لو كان هو أعظم المتنبئين فى إسكوتلندا، فهناك الآن الكثيرون الذين يتنبئون بجنس الجنين، وقدوم الأغراب، وموت الأصدقاء والأعداء، وبالأشياء الأكثر فورية والأقل عظمة. وكل مجتمع محلى تقريبًا فيه شخص يعتقدون أنه أكثر موهبة فى هذا السبيل من جيرانه. وإليه يذهب البحارة من أجل كل أنواع النصائح؛ مثل أى السفن يشترون، ومتى وأين يخرجون للبحر. وعادة ما يتبعون هذه النصائح، وكثيرًا ما تقع الكوارث لمن يتجاهلها. وكان هناك رجل كهذا يعيش على جزيرة ساوث ويست **South Uist** فى عام ١٩٦٨ ، وقال إنه أخذ هذه "الموهبة" عن والده وكان يشعر فى بعض الأحيان أنها لعنة. ورغم تردده فى الحديث عن

(*) ممر مائى طوله حوالى ٩٧ كيلومترًا يقطع شمالى إسكوتلندا بميل من لوخ لينهى فى الجنوب الغربى إلى موراى فيرث فى الشمال الشرقى. وقد افتتحت فى عام ١٨٢٢ (المترجم) .

ذلك، فقد اعترف أن أناسًا كثيرين على الجزيرة كان يستشيرونه قبل إقدامهم على أية خطوة مهمة.

وقبل أن التقى به بوقت قصير، كان بعض الصيادين قد جاءوه ليسألوه إن كان ينبغي لهم شراء سفينة معينة أم لا. وبدا أن السعر ـ وهو دائمًا أمر ذو أهمية في إسكوتلندا ـ كان ملائمًا وكانوا هم بحاجة إلى سفينة. ومن المؤسف أن السفينة المذكورة كانت تخص صديقًا مُقَرَّبًا من المتنبئ. في البداية رفض إبداء رأي، ولكن ضميره أجبره في النهاية أن يتحدث، فقال إنه لا ينبغي لهم شراء السفينة بأي حال من الأحوال. ولم يقدم سببًا. اهتم الصيادون بتحذيره ورفضوا شراءها. وحين سألهم البائع عن السبب قالوا "فلان قال لا"، وبذلك جعلوا الصديق الحميم عدوًا. أما المتنبئ فقال إنه "رأى شيئًا ما في السفينة". وبعد ذلك بوقت طويل سمعنا أن السفينة غرقت.

يعتقد الناس أن هذه القدرة ليس موجودة في إسكوتلندا وحدها، بل كذلك في أيرلندا. فمنذ سنوات كان هناك أسطول صيد كبير يخرج من جزيرة آينشبوفن على الساحل الغربي.

كان السابع والعشرين من أكتوبر عام ١٩٢٧ يومًا كثر فيه الضباب واشتدت الأمطار، ولكن كان هناك سمك ماكريل حول الجزيرة ووضحت الرؤية مع اقتراب المساء. وكانت معظم السفن في ذلك الوقت تستخدم شبك الصيد العائم وتفضل الصيد ليلاً. وحين بدا أن الرؤية واضحة، عزم الصيادون على الخروج، وخرجت خمس سفن على كل منها خمسة أو ستة رجال:

**وما إن ألقوا شباكهم حتى سمعوا تلك الضجة الرهيبة المقبلة، وبالطبع شكُّوا في الحال أن تكون هناك عاصفة. كانت آتية بقوة شديدة وتخلص بعضهم من الشبك وواصل البعض الآخر وفقدنا حوالي عشرة رجال. واصلت إحدى السفن طرح الشباك إلى أن هدأت العاصفة ـ التي استمرت ساعتين ـ وعادت في الصباح.... ولكن كل الرجال الذين كان لديهم بُرنُس بقوا على قيد الحياة....**

كان فى كليجان رجل عجوز ـ وكان هو نفسه بحارًا عظيمًا ولم يعجبه الطقس بالمرة، فركب دراجته ـ إذ لم يكن لديهم سيارات فى ذلك الوقت ـ وانطلق ليمنعهم ولكنهم كانوا قد خرجوا وفات الأوان.

**أعرف رجلاً ـ لا يزال على قيد الحياة ـ وهو رجل لا يكذب أبدًا. جاءه صهره فى تلك الليلة ـ وهو الذى خرج للصيد. لم يكن ذلك الرجل قد خرج وجاء إليه بينما كان يهتم بأمر سفينته. كان قد ربط السفينة وابتعد عنها للتو حين جاء ذلك الرجل وربت على كتفه برفق وقال "إنى أغرق" فالتف بسرعة ولم ير سوى كتف الشخص وهو ينصرف عنه. وكان ذلك أحد المفقودين. لقد حدث ذلك بالتأكيد، ولم يكن هو الوحيد تلك الليلة. كان هناك صبى صغير رأى الطاقم، حيث جاء الطاقم الغارق بكامله إلى المطبخ (٤٣)**

على بعد ألفى ميل من جزر هيبريديز، وفى بحيرة برادور Bras D'Or بنوفا سكوشا (وهو فى الواقع ذراع من البحر) كان يعيش رجل اسمه ماكنيل McNeil وفى يوم من الأيام كان يقف على الشاطئ حين اقترب منه شابان يستفسران عن مكان يستأجران منه قاربًا لمدة يوم. نصحهما بألا يفعلا ذلك قائلاً: "إذا خرجتما فلن يعود أحدكما بالمرة والثانى لن يعود تقريبًا." لم يلق التحذير قبولاً لديهما وخرجا إلى البحر. انقلب القارب وغرق أحدهما والتقطت سفينة مارة الآخر، وكان أقرب للموت منه إلى الحياة (٤٤).

ذات يوم فى كيب بريتون كان رجل يسير على الشاطئ حين رأى أمامه فجأة على الشاطئ رجلاً غريقًا يرتدى بدلة زرقاء. وكانت امرأتان تقفان فوق الجثة. نظر ثانية فلم يجد سوى نفسه على الشاطئ. وبعد عامين وفى نفس المكان الذى رأى فيه ذلك، اكتشفت امرأتان رجلاً غريقًا يرتدى بدلة زرقاء (٤٥).

من الواضح أن هذه القدرة يمكن إثارتها فى بعض الأحيان. ففى إسكوتلندا حين كانت سفينة ما تُفقد، كانوا يقنعون فتاة قوية العزيمة بالنوم بينما يراقب أحد الأصدقاء. وكانت روحها تخرج للبحث عن السفينة وتعود بالأخبار. إلا أن الأمر كان

ينطوى على عنصر المخاطرة، ذلك أنه إذا غيرت الريح اتجاهها أثناء بحثها فسوف تصاب بالجنون (٤٦) .

ومع أن القدرة على الاستبصار أقوى ما تكون لدى أناس بعينهم، فمن الممكن أن توهب لأى شخص. فقد دخل أحد البحارة بارًا فى ساوث ويست وشرب كأسًا ثم طلب كأسًا آخر وهم بشربه وامتقع وجهه واندفع خارج الباب. وقد سمعه الناس وهو يتقيأ فى الخارج. وبعد بضع دقائق عاد شاحبًا شحوب الأشباح وقال "لقد رأيت شيئًا ولا أريد الحديث عنه الآن" ثم دفع حسابه وانصرف. خلال ذلك الشهر توفى صاحب البار. وحين سمع الرجل عن ذلك قال: "كان ذلك متوقعًا. فحين قدم لى الشراب فى تلك الليلة شعرت بغثيان. نظرت إليه فلم يكن هو. كان هيكلاً عظميًا يقدم لى الشراب. وحينذاك شعرت بالغثيان"(٤٧) .

ليس الاهتمام بالخوارق مقصورًا بحال من الأحوال على الأحياء والأموات، بل ينسحب كذلك على البحر، وعلى السفن، وعلى الكثير من الأشياء الأخرى. أما البحر، فإن أقل ما يمكن أن يقال عن موقف البحارة منه أنه غريب. ذلك أن البحّار الحقيقى يحب البحر حبًا خالصًا. وهو يؤمن بنوع من النقاء الروحى فى "الكائن" بحر. ولهذا السبب، وكما قلنا من قبل، فهو يخاف السفر مع القاتل، أو الرجل الذى لم يسدد ما عليه، أو اللص، أو أى شخص ليس لديه أى نوع من الالتزام الأخلاقى، أو يبدو أنه كذلك. فالبحر لا يريد أن يروِّع هؤلاء الناس أمنه الهادئ، وقد ينتزع فى نفس الوقت بعض اللحم الجيد الذى يتباهى به فيه. بل إنه يعتقد أن البحر ضد كل هؤلاء الذين يتجاهلون المياه العميقة. وهو يعتقد أن موقف البحر منه يتراوح بين اللامبالى إلى القاسى والشرير، وهو يقبل ذلك. وفى بعض الأحيان يلعن البحّار البحر، وفى أحيان أخرى يحاول التخفيف من شره بالهدايا، لأنه يعلم أن أفضل ما يمكنه الحصول عليه منه هو اللامبالاة.

وحتى فى وقتنا الراهن، وفى المجتمع المستنير، يقل ما نعلمه عن المحيط عما نعلمه عن سائر العالم. وليس أمنه أقل ترويعًا الآن، حتى إنه إذا جف فسوف نجد أن هناك فدادين كثيرة خالية من علب البيرة وزجاجات الكوكاكولا. بل إننا لسنا متأكدين أننا

اكتشفنا كل أشكال الحياة فيه وصنفناها. وبسبب طبيعته هذه، يبدو الإنسان عازمًا على عقلنة المجهول. وتعقلنه العامة من خلال التشخيص والأرواحية(*)، أما المفكرون فيعقلنونه باستخدام العلم. ويعتقد العامة أن العلامات التى على سمكة الحدوق(**) هى أصابع القديس بولس(٤٨) وهم راضون بذلك. أما العلماء فيرون العلامات على أنها تلوين حمائى وهم مطمئنون إلى ذلك. ولحسن الحظ أن أيًا من الفريقين لم يطرح هذا السؤال: "لماذا اختصت سمكة الحدوق بهذا الأمر؟"

وفى أيرلندا وأجزاء من إسكوتلندا لا يزال هناك اعتقاد كان شائعًا فى أنحاء شمال أوروبا حتى عصور قريبة. وهذا هو الاعتقاد بأن "ما يريده البحر سوف يناله". فإذا سقط رجل من فوق السفينة أو غرقت إحدى السفن فإن الناس فى أفضل الأحوال يترددون فى التقاط أى من الناجين، وفى بعض المناطق لا يلتقطونهم بحال من الأحوال. كما أنهم لا يبحثون عن السفن المفقودة. وفقط حين تلقى الأمواج بالجثث على البر (٤٩) . حيث لم يعد البحر راغبًا فيها، يشغلون أنفسهم بالتقاطها و"يشيعونها فى جنازة رائعة".(٥٠) ويبدو أن هذا المعتقد يمتد إلى البحر الكاريبى، حيث نادرًا ما يحدد الصيادون المكان الذى يذهبون إليه أو المدة التى سيقضونها فيه، وحين لا يعودون لا يكون هناك سوى بحث رمزى، إن كان هناك بحث.

بل إنهم يعتقدون أنه إذا أراد البحر شخصًا ما وأنقذوه فإن هذا ليس سوى خلاص مؤقت، ذلك أن البحر سيناله فى النهاية؛ وربما أخذ معه من أنقذه كذلك. ومع أن القول ليس معروفًا إلى حد كبير الآن، فإن تفريعاته تمتد لمسافة بعيدة. وتأتينا إحدى الحكايات من ساحل كارولينا.

فمنذ سنوات بعيدة وصل رجل إلى البر على حطام إحدى السفن فى كيب هاتيراس حيث قرر أن يبقى ويكسب عيشه من صيد السمك. وكان محظوظًا جدًا فى

(*) مذهب حيوية المادة، أى الاعتقاد بأن لكل ما فى الكون، وحتى الكون ذاته، روحًا أو نفسًا (المترجم) .
(**) نوع من سمك القُد. (المترجم).

هذه الصدد، حيث لم يُعرف عنه قط أنه يصطاد سمكًا "زبالة" (غير قابل للبيع) أو أن شباكه يصيبها ضرر. وعندما لم يكن غيره من الرجال يخرجون للصيد، كان يخرج هو بقاربه الصغير ويعود دائمًا بصيد وفير. وكان اسم هذا الرجل كووك Quawk .

فى يوم من الأيام هبت عاصفة، ورغم كل النصائح خرج كووك إلى البحر وعاد بصيد وفير. ظل الناس زمنًا طويلاً يعتبرونه ملحداً، وقد أثبت ذلك فى تلك المناسبة، ذلك أنه سب الرب وقال من بين ما قاله: "بعون الشيطان وحمايته سوف أخرج إلى مصايدى [ من جديد] وسوف أعود بصيد أوفر." وبعد أن قال ذلك خرج للبحر مرة أخرى. "وبينما كان يبحر فى العاصفة سُمعت ضحكة ساخرة ولم يره أحد بعد ذلك".[٥١] .

إذا كان البحر يأخذ البعض لأنه يريدهم، فهو يأخذ غيرهم لأنهم ليسوا أهلاً للسفر على سطحه. وتقوم حكايات وأغنيات بحرية لا حصر لها على هذه الفكرة. ويوجد نموذج نمطى فى مصير القبطان جلين Captain Glen التى تشاجر بسبب امرأة وقتل رجلاً نبيلاً. وقد عفا عنه الملك، ولكن البحر لم يصفح عنه. وفى رحلته التالية أصاب طاقمه المرض، وهبت عاصفة ضخمة، وألقت الريح ببعض أفراد الطاقم من على ظهر السفينة، وكانت السفينة فى خطر مباشر حين أخبر عريف الملاحين أفراد الطاقم بممارسات الربان. وعلى الفور ألقوا بالقبطان من فوق السفينة، وفى الحال "هدأت الريح، وكذلك البحر/ ووصلنا إلى هاى باربارى".[٥٢]

هناك قصة فى أيرلندا عن سفينة أبحرت إلى ميناء أجنبى. وفى الطريق مرت فى طقس سيئ وتكسرت أمواج البحر الهائج على السفينة. وحين أُفرغ الماء منها عثروا على تابوت على السطح. أراد القبطان أن يلقى به من على السفينة ولكنه لم يجرؤ على ذلك، وبذلك ظل موجوداً إلى أن اعتاد عليه أفراد الطاقم .

فى يوم من الأيام راهن أحد أفراد الطاقم على الدخول فيه ليرى إن كان على قياسه أم لا. وعلى الفور ثار البحر وتكسرت الأمواج على السفينة. وحين تحررت السفينة كان التابوت وفرد الطاقم قد اختفيا ولم يرهما أحد بعد ذلك. ولم يعلم القبطان

بأمر فرد الطاقم المفقود والتابوت حتى بلغت السفينة أفريقيا. وكان هناك أمر بالقبض عليه في بلده بتهمة القتل.(٥٣)

بل إن شعبًا بأسره يمكن أن يثير غضب البحر. ومثال ذلك اعتبار الرجال الذين ينتمون إلى جزيرة معينة من جزر هيبريديز خطرًا في البحر. وسبب ذلك لافت للانتباه. ففي يوم من الأيام كان هؤلاء القوم بحَّارة عظامًا، ولكن منذ حوالى مائة عام جنحت سفينة أسبانية هناك. وبدلاً من أن يساعد أهل الجزيرة البحارة المنكوبين أو يتركوهم فى حالهم، قطَّعوا أصابعهم للحصول على خواتمهم وسرقوا كل ما له قيمة فى جثثهم. وبعد ذلك العمل القاسى الخالى من الإنسانية بات الرجال يُفقدون فى البحر ويموتون بسبب السقوط من على الصخور بما يفوق الخسائر التى تعانيها الجزر الأخرى. وبما أن ذلك استمر العام تلو الآخر، فقد انتهى أهل الجزر المجاورة إلى أن سكان هذه الجزيرة ملعونون (٥٤).

ذكرت من قبل أن البحر لا يحب المدينين، وفى شتاء ١٩٧٠ فُزعت حين علمت أن المعتقد لا يزال قائمًا فى جزر ويندورد. فعند الحديث عن سفينة كانت قد غرقت منذ وقت قريب قال الإخبارى "أتعلم أنه فر دون أن يدفع ثمن الحمولة." ولم تدخل عقله حقيقة أن السفينة كانت محملة بما يزيد على طاقتها وأنها كانت متماسكة فقط "بواسطة الديدان التى كانت تمسك بأيدى بعضها".

والشخصية الأخرى التى يبدو أن البحر لا يحبها هى المتباهى. وسبق أن ذكرت السياسة المتعلقة بإنقاذ السفن، ويمكن أن نضيف إلى ذلك قصة الهولندى الطائر (التى نوردها كاملة فى موضع آخر) الذى أقسم، وتباهى إلى حد ما، بأنه سوف يدور حول كيب هورن بغض النظر عن طول الزمن الذى يستغرقه ذلك. وعندما كتب القبطان كوجشال Captain Coggeshall عن الارتباط بين السفينة الأمريكية "ذا كونستتيوشن" the Constitution والسفينة البريطانية "جيريير" Guerriere لم يَعْزُ الانتصار إلى حجم "ذا كونستتيوشن" الأكبر أو حتى إلى مهارة قائدها بقدر ما عزاه إلى حقيقة أن القبطان داكرز Captain Dacres كان يتباه بأن بإمكانه إجبار الأمريكيين على الاستسلام فى أقل من ساعة (٥٥).

وإذا كان البحر يبتلع البعض لأنه يريدهم ويبتلع غيرهم لأنهم غير أهل لأن يكونوا على سطحه، فهناك آخــرون يقضى عليهــم وهــم ليسوا أهلاً للبقاء على سطح البحر أو ظهر الأرض. ولذلك كان القراصنة الذين تصدر ضدهم أحكام يشنقون دائمًا فوق الماء، على أن تمر ثلاثة مدود قبل إنزاله من على المشنقة، وكانوا يدفنون على الشاطئ بين أعلى حد للمد وأدنى حد للجزر.

منذ سنوات كثيرة غرقت سفينة صيد إسكندينافية في لوخ سكيبورت Loch Ski-port في إسكوتلندا ومات أفراد الطاقم كافة؛ ويظن معظم الناس أنهم ماتوا غرقًا، ولكن البعض يظن أنهم ماتوا بسبب عمل شائن. فقد كان الطاقم يتكون من ستة رجال وامرأة. وقد دُفنوا جميعًا في جزيرة صغيرة وتحللت جثث الرجال كلها إلى تراب منذ زمن بعيد. ولكن جثة المرأة لم تبق مدفونة تحت الأرض. وأخيرًا دفنوها فوق الأرض تحت رَجْم(*)، ولكن عظامها خرجت من الرَجْم وقيل لي إنه ربما لا يزال بالإمكان رؤيتها متناثرة في أنحاء الجزيرة (٥٧) .

وتأتي قصة مشابهة من نوفا سكوشا. فقد جنحت سفينة ذات ليلة في جزيرة الطين Mud Island وفي الصباح عُثر على طاقم السفينة وعدده ستة وعشرون رجلاً وامرأة جميلة واحدة موتى على الشاطئ. دفنهم أهل الجزيرة هناك ونسوا الأمر. ومرت السنون وبدأت الجزيرة تتآكل. وفي يوم من الأيام ذهب بعض الصيادين لجمع المحار من هناك وأخرجوا بعض العظام. وبعد ذلك أخرجوا شيئًا آخر؛ كان امرأة لم يتغير فيها شيء عن اليوم الذي دفنوها فيه. كانت محفوظة بطريقة عجيبة حتى إن صيادي المحار عرضوها ليشاهدها الناس إلى أن حملتها الحكومة وأعادت دفنها. وقد أُخرجت مرة أخرى ووضعت للعرض إلى أن أخذتها الحكومة بعيداً ودفنتها في السر (٥٨).

يروي جورج كاري George Carey حكاية مشابهة إلى حد ما من خليج تشيسابيك. وفي هذه الحكاية يقتل قبطان إحدى السفن رجلاً أسود ويدفنه في حفرة في الرمال. وفي المرة التالية التي يمر فيها على هذا المكان يجد الرجل ممداً على

(*) كومة من الحجارة (المترجم) .

السطح، فيعيد دفنه ولكنه لم يتمكن قط من دفنه بالكامل. إذ كان جزء ما، ذراع أو ساق، يبقى في الخارج (٥٩) .

تسمى الشخصيات التي يريدها البحر أو لا يرغب في أن تسافر على سطحه تسمية جماعية هي "يونان"(*) ؛ وهي جماعة تعود إلى العصور التوارتية وتشمل أسماء مبجلة مثل القديس بولس والقائد البحري جون بايرون John Byron ( جد الشاعر الأعرج) الذي مر بأخطار كثير جداً وواجه حيثما ذهب طقسًا من السوء بات يعرف باسم "الطقس السيئ جاك". ويعتقد البحارة أن هؤلاء الرجال يجلبون النحس لزملائهم الموجودين على متن السفينة وكانت العادة قديمًا هي إلقاؤهم من على السفن. أما في الوقت الراهن فلا يفضل أحد مثل تلك الأعمال، إلا أن هذا لا يعني أن المعتقد مات، ذلك أن البحارة يترددون في الإبحار مع "رجل بغيض"، وحين يتأكدون من وجود شخص كهذا على متن السفينة فإنهم ينزلونه على البر.

باستثناء السفن الكبيرة، عادة ما يقوم تشغيل السفن على أساسي عائلي، أو على الأقل على أساس محلي، حيث تدير السفينة بالكامل قومية واحدة وفي الغالب الأعم أشخاص من بلدة واحدة. وفي حال وجود غريب على متن السفينة يكون هذا هو الرجل الذي يعتقدون أنه يجلب النحس. بل إن كون البحّار مقتنعًا اقتناعًا تامًا بالمعتقد الشائع لا يعني أن الناس جميعًا متشابهين، فهو غالبًا ما يلقي باللوم فيما يعاني منه على أي شخص مختلف. وبذلك فهم ينظرون إلى أي شخص مختلف فيزيقيًا عن سائر أفراد الطاقم نظرة شك وريبة. فالسود أو ذوو اللحى الحمراء أو البيض أو أصحاب العيون الزرقاء أو البنية، أو عديمو الذقون، أو أصحاب الرءوس الصغيرة تعتقد الجماعات التي لا تكون فيها تلك الملامح هي السائدة أن الواحد منهم يونان.

(*) هذا اسم يونس كما جاء في العهد القديم. وجاء في سفر يونان: "فأرسل الرب ريحًا شديدة إلى البحر فحدث نوء عظيم في البحر حتى كادت السفينة تنكسر." ولما عرف الرجال أنه "خائف من الرب إله السماء الذي صنع البحر والبر" وأنه "هارب من وجه الرب" قالوا له: "ماذا نصنع بك ليسكن البحر عنا. ... فقال لهم خذوني واطرحوني في البحر فيسكن البحر عنكم لأنني عالم أنه بسببي هذا النوء العظيم عليكم. ... ثم أخذوا يونان وطرحوه في البحر فوقف البحر عن هيجانه."(المترجم) .

من الممكن العثور على سبب مختلف اختلافًا طفيفًا لجعل المشوهين كبش الفداء لسوء الحظ. فالتصور الشائع للشيطان هو أنه أعرج وأحدب، وهناك دائمًا فرصة لأن يكون الأشخاص الذين بهذه الصفات إما متواطئين مع الشيطان، أو يكونون الشيطان نفسه. والرجال الحُول أو ذوو النظرات الشذْرة مختلفون بعض الشيء. فالناس منذ زمن بعيد يظنون أن العين "نافذة الروح"، ولا يزال لدى من هم من أصول أيرلندية أو اسكوتلندية اعتقاد كبير فى "العين الشريرة". وبما أن هذا المعتقد شائع كذلك فى أفريقيا، فليس مستغربًا أنه لا يزال موجودًا فى جزر الهند الغربية.

وأظن أنه يمكن أن يكون هناك بعض الشك فى صحة جزء كبير من هذه المادة. فلا مكان على متن أية سفينة للمعوق جسمانيًا. بل إن فترات العزلة الطويلة، ناهيك عن فاعلية الخبرات الثقافية المشتركة، غالبًا ما تعطى أهمية لقيمة التجانس بين أطقم السفن على أكثر من أفراد الطاقم المتغايرين.

الارتباط الوثيق بـ"ما يريده البحر" هو الفكرة القائلة بأن ما للبحر، أو ما يأتى من البحر، لابد أن يعود للبحر. وفى إسكوتلندا وأيرلندا لا يمكن أخذ صابورة السفينة من البحر، ذلك أن المحيط قد يثور فى أية لحظة ويطالب بها. وللسبب ذاته لا يمكن صبغ الملابس بأصباغ مأخوذة من نباتات بحرية. وفيما يتعلق بالصابورة، من المحتمل أن تكون تلك فكرة جيدة، ذلك أن الأحجار البحرية عادة ما تكون ملساء ومستديرة وتتحرك مع تمايل السفينة، بينما أحجار البر أكثر حدة فى زواياها وحركتها أقل سهولة (٦٠).

إذا كان هناك من يعتبرونهم يونانًا، فهناك آخرون يظن الناس أنهم "محظوظون"، أى أقل احتمالاً لاجتذاب الاهتمام الشرير للبحر. وهناك اعتقاد بين البحارة الأنجلو أمريكيين بأن البحارة الشقر (الذين يُظن أنهم بعيدو النظر) بحارة جيدون. وكما جاء من قبل، فإنه يُظن أن الرجال الذين يولدون فى بُرنُس آمنون من الغرق. ولتحقيق هذه الغاية، كان بالإمكان خلال الفترات القريبة إلى حد ما، شراء البرانس بمبالغ زهيدة. بل إنه حتى فى الوقت الراهن يحمل البحارة فى جيوبهم برانس مجففة لضمان عدم الغرق.(٦١) ونذكر كذلك أن أهل جزيرة مان مؤمَّنون ضد الغرق لأنهم من نسل أهل

البحر. ومثل هذا المعتقد، سواء أكان صحيحًا أم باطلاً، يمكن أن يكون معينًا للبحّار، ذلك أنه بينما ينشغل الآخرون باحتمال السقوط من فوق السفينة يمكنه هو المضى فى عمله وهو آمن فى ظل الاعتقاد بأن حياته لن تنتهى فى البحر.

غير أنه لا يمكن أن يكون كل الرجـــال من جزيرة مان، أو أن يولدوا فى برانس، أو أن تكون لهم عيون زرقاء وبالتالى يكونون محصنين ضد أخطار المحيط. وبالنسبة للسلامة وحسن الحال والرفاهية، يعتمد من هم أقل حظًا على التمائم. وهذه التمائم متعددة ومختلفة بحيث لا يسعنا سوى ذكر القليل منها هنا. ويبدو أنها جميعًا تستمد خواصها الفعالة من قواعد بسيطة إلى حد ما.

يحب البحارة فى المناطق الرومية الكاثوليكية وضع تمائم القديسين المختلفين حول أعناقهم؛ وخاصة القديس إلمو راعى البحر، والقديس كريستوفر، القديس الراعى للمسافرين، والقديس نيكولاس. (وبما أن مرسومًا بابويًا قد ألغى إجازة بعض المقدسين، فإننا نتساءل إن كانت خواصهم الحمائية سوف تختفى أم لا.) ونعلم فى جزر شتلاند أن جلود ثعلب الماء حماية جيدة للبحّار، بينما يشعر البحارة فى إسكوتلندا أن المخلب الأمامى الأيمن للفقمة حين يصنع منه كيس للنقود، وحبة "قاصوليا مريم" (جوز ملقا البرازيلى)، وخاصة فاتحة اللون، والأحجار البيضاء التى بها ثقوب، وأشياء أخرى غيرها، مفيدة. ويحمل الناس فى كل من إسكوتلندا وأيرلندا ترابًا من مقابر قديسين بعينهم كى يجلب لهم الحظ؛ مثال ذلك ما سبق قوله عن الطين الذى يأتون به من مقبرة القديس كامين [٦٢] . ونعلم فى نيو إنجلاند والأقاليم البحرية أن الأحجار الناعمة التى تحيط بها حلقة وتسمى "أحجار الحظ" تجلب الحظ. ويحب البحارة فى منطقة جزر إليزابيث فى ماساتشوستس أن يحملوا "عظام الحظ" (وهى عظام ذكر كابوريا حدوة الحصان) لتجعلهم سالمين فى البحر[٦٣] . ويفضل البحارة فى خليج تشيسابيك الاحتفاظ بجوز الحصان فى جيوبهم، أو عظام بعينها موجودة فى كابوريا المجدف الزرقاء [٦٤] .

سبق أن رأينا كيف أن الناس فى عيد القديس ستيفن بأيرلندا يضربون الشجيرات على طول الطريق لصيد عصافير السُكْسُكة، التى يربطونها فى مكنسة

بالقرب من المدفأة لإبعاد الجنيات. والبعض الآخر منها ينتف ريشه ماعدا أطراف الأجنحة ويؤخذ إلى الكنيسة ويبارك ثم يلقى فى البرد لضمان أن يكون العام سعيداً (بضمان بقاء الجنيات بعيداً)(٦٥) . وفى جزيرة مان يحظى ريش عصافير السُكْسُكة تلك بتقدير كبير ويحتفظ بها البحارة فى أكياس نقودهم(٦٦)؛ وهو ارتباط محتمل آخر بين الاعتقاد فى وجود الجنيات والاعتقاد فى وجود أهل البحر.

ورغم اعتقاد الصيادين فى جزر الهند الغربية فى كل هذه الأنواع من التمائم، فهم يحبون كذلك الحصول على مساعدة السحرة لضمان الحظ السعيد والسلامة فى البحر. وعادة ما يعطيهم هؤلاء السحرة تمائم على هيئة توليفة من الزيوت العطرية التى يدهنون بها أجسامهم والسفينة، أو تميمة قرمزية يربطها الشخص حول وسطه. فأهل جزر الهند الغربية يعتقدون أن الأرواح الشريرة تتأثر بالروائح. ولتحقيق هذه الغاية يلقى القبطان من جزر الهند الغربية فانلته الداخلية القذرة فى اتجاه الريح لمنع حدوث العاصفة (٦٧) .

الشيئان الآخران اللذان يشيعان بين كل البحارة الأنجلو أمريكيين تقريباً أن لهما تأثيراً كبيراً هما السكين، ويفضل أن يكون ذا مقبض أسود وجراب، وإما قطعة نقود فضية فئة الست بنسات أو نظيرتها فئة البنسين. وطبقاً لما يقوله جيمس بوخان، وهو اسكوتلندى، إنه من الأفضل أن يكون أحد قد أعطاك قطعة النقود(*) .

وأخيراً فلابد بالطبع من الإشارة إلى قوة الكاهن والصلاة. فقبل خروج السفينة إلى البحر، غالباً ما كانوا يستدعون الكاهن من أجل صلوات شعب الكنيسة لمباركة جهود من يوشكون على الإقلاع. واليوم فإننا نجد فى المسافة من جزيرة شتلاند فى الشمال إلى توباجو فى الجنوب أن الكاهن يبارك السفينة وطاقمها وعدتها. بل إنه كثيراً ما يُستدعى الرجل المقدس فى أوقات الشدة لدفع المصيبة بالجرس والكتاب والشموع. وتوضح قصتان، إحداهما من جزيرة هاريس والأخرى من بورتسماوث

(*) لاحظ الشبه بين ذلك وبين ممارسة "شحنة" القطع المعدنية من فئة القرش المخروم التى موجودة حتى وقت قريب فى مصر، حيث كانت توضع القروش حول رقبة الطفل (المترجم) .

دومينيكا Portsmouth Dominica، عمر هذه الأنشطة وكذلك الأسلوب الذى اندمجت به الوثنية والمسيحية لمساعدة البشرية فى ساعة الضيق.

يذكر مارتن أنه قديماً فى القرن السابع عشر كان أهل هاريس يقومون بترضية "إله البحر" المسمى شونى Shony فى يوم "المد المقدس" .Hallow-tide

يأتى السكان المحيطون بالجزيرة إلى كنيسة القديس مالافاى St. Malavay وقد حمل كل رجل زاده معه. وكانت كل أسرة تقدم كمية كبيرة من شراب المولت الذى كان يجرى تحويله إلى بيرة. وكان يُختار أحد الرجال كى يخوض فى البحر حتى وسطه حاملاً فى يده كأساً من البيرة حيث يقف ثابتاً فى ذلك الوضع ويصيح بأعلى صوته قائلاً "إنى أقدم لك هذه الكأس من البيرة يا شونى آملاً أن تكون من الطيبة بحيث ترسل لنا الكثير من حطام البحر لإثراء أرضنا فى العام المقبل" وبعد ذلك يسكب البيرة فى البحر. وكان ذلك العمل يتم فى الليل. وعند عودتهم إلى البر كانوا جميعاً يذهبون إلى الكنيسة حيث توقد الشموع على المذبح. وبعد ذلك، وبينما هم واقفون صامتين، يعطى أحدهم إشارة يطفئون عندها الشموع، وعلى الفور يذهبون جميعاً إلى الحقول، حيث يشربون تلك البيرة ويقضون ما تبقى من الليل فى الرقص والغناء وغير ذلك (٦٨).

فى أبريل من عام ١٩٧١ قال كارلتون ماجلورى Carlton Maglorie لى ولزوجتى:

أتذكر أنه فى إحدى المرات كانت هناك سمكة قرش كبيرة فى هذا الميناء، قرش ضخم كبير. إنه كبير؛ نصف هذه السفينة تقريباً، قرش كبير. وكان يأتى دائماً أيام الآحاد؛ حيث يمر من أمام الشاطئ. وفى إحدى المرات قفز على طفل صغير. وقد آذى الطفل. وبعد ذلك ذهب الناس إلى الكاهن وحكوا الموضوع للكاهن. كانوا سيذهبون للساحر ولكنهم التقوا بالكاهن على شاطئ البحر. وبعد ذلك أقام الكاهن قداساً وقال إنه سيأتى إلى هنا حين يعرف أن هذا الشىء موجود. وفى يوم الأحد أعلنوا ألا يستحم أحد فى البحر. وبعد ذلك رأوه آتياً يسير بمحاذاة الشاطئ - حيث يمكن أن ترى النيل وهو يمر - وهو تحت الماء كما تعلم. كان يسبح فى كل مكان وكانت الأمواج تتلاطم وجاء الكاهن. وبينما كانت

**الأمواج تتلاطم عد الكاهن سبع أمواج. عد موجة وهى تتلاطم، اثنتان، ثلاث. وعد أربع، خمس، ثم السابعة وقال "قف". وتوقفت الأمواج عن التلاطم. ثم فتح كتابًا؛ كتابًا كبيرًا وقرأ شيئًا كالصلاة، نوع من الصلاة، وفعل شىء من هذا القبيل. ورسم علامة على البحر وقال "إنى أدعوك إلى الشاطئ: ضع نفسك على الشاطئ." وفجأة رأينا السمكة. قفزت فى الهواء، ونزلت على الشاطئ: ألقت بنفسها على الشاطئ. وقال الكاهن للناس أن يقضوا عليها. وقضوا عليها وأخذ هو قطعة من القرش وأحضرها للساحر وقال له إن السمكة أرسلها شخص ما من أجل طفل عدوه. وذهب الكاهن إلى ذلك الشخص الذى أرسل السمكة وألقى به فى السجن. وبقى فى السجن المزيد ومات.**

حين نتفحص تلك التمائم نكتشف أشياء معينة. فهى نادرة أو يصعب الحصول عليها، وكل ما هو مختلف يظنون أنه يحتوى على خواص سحرية. وتُربط بعض الأشياء بالموتى وعادة ما يعتبرونها قوية فى العالم الآخر. والبعض منها أشياء بحرية بطبيعتها. ويعتقد الناس أنه بامتلاكهم هذه الأشياء سوف تنتقل صفات الشىء إلى مالكه. وفى حالة السكين وقطعة العملة، فإننا نتعامل مع الحديد والفضة، حيث ترتبط هاتان المادتان بعالم الجنيات. وأخيرًا يظن الناس أن الأرواح حساسة تجاه الروائح، لذلك فمن المنطقى الاعتقاد بأن التمائم ذات الروائح القوية إما أنها تطرد الأرواح أو تستبدل الشرير منها بالطيب (إذا كانت الرائحة طيبة).

تستخدم الروائح بالطبع لأغراض تتعدى مجرد ضمان حسن الحظ. فهى تستخدم كذلك لحفظ الصحة الجيدة وعلاج السقم. ويجرى هذا فى الغالب من خلال استخدام السحر التعاطفى أو من خلال فكرة النقل، أو أحيانًا من خلال التناقض. فبما أن أسماك القرش لها الكثير من الأسنان الكبيرة الحادة، فالناس يظنون منذ زمن بعيد أن سن القرش مفيد للأطفال كى يسننون بشكل جيد. ووجود جلد السمك أسفل الأحذية يساعد على تدفئة قدم البحَّار، لأن السمك بارد. وتعمِّر السلاحف البحرية طويلاً، وإذا أكلت لحمها أو احتفظت بقطعة من صدفتها على مقربة منك "فإنها سوف تجعلك قويًا قويًا فى كبرك" (جزر الهند الغربية)، ولكن إذا أكلت رأس السمك فستكون غبيًا، لأن السمك ليس له ما يكفى من العقل كى يسبح خارجًا من الشبكة و"أنت ما تأكله" (٦٩).

وينقلنا هذا مباشرة إلى مجال الطب الشعبى البحرى، الذى يبدو أنه يتبع نفس القواعد التى سبق ذكرها. لا يتعرض البحارة بسبب عزلتهم لعدد كبير من الأمراض التى تظهر على البر. ومع أن لهم أمراضًا أخرى، يبدو أن عللهم الأساسية تنجم عن الغذاء وعن ظروف المعيشة وعن مخاطر عملهم. وربما كانت عللهم الغالبة هى دوار البحر والتمزقات والجروح المتقيحة والأورام والكدمات. والإسقربوط بلاء آخر. ويؤدى التعرض للظروف المبللة والرطبة باستمرار إلى التهاب المفاصل وآلامها والشد العضلى وأحيانًا أمراض البرد والتهابات الجهاز التنفسى.

ومن بين كل الأمراض نجد أن التعامل مع المرض الذى ربما يكون أكثرها إزعاجًا ويمكنه إلى حد كبير قتل الشخص - دوار البحر - أخف ما يكون. فالماء المالح والخبز الجاف والشاى والمخللات والسمك المجفف جميعها علاج مقترح له، ودائمًا ينصحون من يصاب به بالابتعاد عن الحلويات. وفى الوقت نفسه عادة ما يكون على متن السفينة شخص مزَّاح يجعل البحار المستجد يبتلع قطعة من لحم الخنزير المملح المربوطة فى خيط وبعد خمس دقائق يسحبها، أو يقترح عليه أن يضع إصبعه فى حلقه أو يشرب فنجانًا من زيت الديزل.

والإسقربوط قاتل حقيقى على متن السفن، وكان سببه يقتصر على النظام الغذائى، وقد عُثر له على علاج منذ عصر القبطان كوك. وكانت المشكلة هى فقط أن البحَّار ظل زمنًا طويلاً يرفض تناول أى شىء أكثر لذاذة من خبز السفينة الجاف ولحمها المملح. فلم يكن يتناول الكثير من اللحم الطازج أو الفواكه أو الخضروات ويرى أنها غير مستساغة إلى حد كبير. وفى النهاية أقنعوه بتناول البصل والبطاطس وبشرب عصير الليمون **lime juice** ( إلى حد أن البحارة الإنجليز مازالوا يسمون **Limeys** وتسمى سفنهم **Limejuicers** ) .

وكان الإزعاج الكبير الذى يعانى منه البحارة الذين يعيشون فى ملابس مبللة أو رطبة فترة طويلة هو بثور الماء المالح. وكانت الممارسة المتبعة لزمن طويل لمنع ذلك فى نيوفاوندلاند هى لبس أساور من النحاس الأحمر أو الأصفر. وافترض أن الفكرة التى وراء ذلك هى أن البثور تبدأ حيث يغير الاحتكاك لون الجلد، وتغير الأساور لون المعصم

من خلال تفاعل الماء المالح معها. وقد أخبرنى البروفيسور هالبرت **Professor Halpert** من جامعة نيوفاوندلاند أن هذه الطريقة تفلح.

ولضمان الصحة الجيدة والقوة وطول العمر، كان الاعتقاد الشائع هو أنه ينبغى شرب ماء الحديد. وكان قبطان عجوز من جزيرة بوند **Pond Island** بولاية مين فى التسعينيات من عمره وكان يعتزم بلوغ المائة. ولكى يفعل ذلك كان يشرب فنجانًا من الماء الصدئ الذى كان يأخذه من برميل المطر الذى يقلب تقليبًا جيداً مع بعض الصابورة الصدئة الراقدة فى قاع السفينة (٧٠) . وفى نيوفاوندلاند يبتلع البحارة الرش للغرض ذاته (٧١) .

ومع أن ماء المطر يوصف فى بعض الأحيان لإزالة التجاعيد ويرتبط فى كثير من الأحيان بالحوريات، فلم يكن يُنظر إليه نظرة طيبة. فقد كانوا يعتقدون أنه يزيد الديدان وأنه أشد ما يكون ضرراً بالصحة. وإذا أمعن المرء النظر إلى برميل قديم من ماء المطر فسرعان ما يرى المنطق الذى وراء هذا المعتقد.

بالنسبة لمعظم العلل التى تحتاج إلى علاج مُطَهِّر، كانت أفضل ثلاثة أشياء هى الروم والقار والبول. فقد كان الروم يستخدم لإعادة الشعر وتطهير الجروح وتخفيف "البؤس" وقتل الديدان والوقاية من الإصابة بأمراض البرد. واليوم فى جزر ويندوورد يفيد "جاك أيرون" " **Jack Iron** ( برق جيرزى" الخاص بالكاريبى) فى علاج أمراض البرد والالتواءات وتطهير الجروح ولضمان طول العمر. وحين يوضع القار حاراً ويترك حتى يبرد يمنع النزف أو يعمل كلبخة. وحين يمضغ يكون مفيداً للثة. وقديمًا كانوا يحتفظون على متن السفن الشراعية ببرميل بول مربوط فى عنبر البحارة. وكان البحارة يستخدمونه لغسل شعورهم وملابسهم. فقد كان يبيض الملابس ويطرد القمل من شعورهم. وكانوا يتغلبون على الرائحة فى الأسطح السفلى بروائح أشد، بينما كان يوضع على السطح عكس اتجاه الريح.

والأمر اللافت للنظر أن البحَّار ظل زمنًا طويلاً يستخدم الفضلات استخدامًا طبيًا. فهو يظن أن فضلات البقر والدجاج تعد لبخة ممتازة. وقد أخبرونى فى مين أن "شاى برقوق المربية هو أفضل شىء لتحسين أحوالك."

وربما كانت أشكال العلاج الأكثر صموداً والأكثر شعبية هى تلك التى يكون المكون الأساسى فيها هو القاعدة الزيتية. وعادة ما كان الزيت مصدره المخلوقات البحرية، بل إنهم كانوا يستخدمون كذلك شحم الخنزير والكيروسين. وكان الزيت المستخرج من الفقمة وخنزير البحر والحوت والسمك، بل والطيور البحرية، يستخدم فى تخفيف الالتواءات والوقاية من أمراض البرد ووقف الصداع (إلى جانب جلد السمك الذى يلف حول الرأس)، وهى تعمل كملين وتساعد على طول العمر. وكان أفضل زيت فقمة يأتى من الحيوانات الرضيعة وكان يستخرج بطريقتين، إما عن طريق غلى الدهن على النار أو من خلال الاستخراج الشمسى.

كان "مقعد الحياة" يقع على مر القرون فى أماكن عديدة من الجسم؛ وهى القلب والرئتان والمخ. وقد فحصت العلوم الطبية كل عضو بدوره ونُفى هذا الدور حتى كاد مقعد الحياة يترك الجسم ويجد له بيتاً جديداً وغامضاً فى "عنبر العناية المركزة" حيث يقسم وقته بين المؤشرات والقوارير والأنابيب. وفى وقت من الأوقات، منذ زمن بعيد كان موضعه هو الكبد. وهناك حكايات كثيرة تتمحور حول هذا المعتقد على وجه الخصوص. ومن اللافت للانتباه ملاحظة أن صيادى جراند بانكس كانوا يرمون أكباد سمك القد فى برميل حين كانوا يخرجون أحشاء صيدهم. وفى كل صباح كانوا يأخذون فنجاناً من السائل ويشربونه؛ وكانوا يظلون رغم المناخ السيئ فى صحة جيدة وخدودهم متوردة. ومن هنا اكتشفت العلوم الطبية قيمة زيد كبد سمك القد(٧٢) .

ولزيت الحوت خواص تجعله فريداً. ومن بين هذه الخواص حقيقة أنه لا يصيب بالتخمة، وأنه لا يزنخ بسهولة، وأنه مادة حافظة ممتازة. بل إنه يأتى من أضخم حيوان فى العالم يتحرك فى الماء بمرونة الثعبان و"يتحرك بسرعة تزيد على سرعة سمكة الرنجة الصغيرة". كل هذه الأمور تجعله مرغوباً باعتباره دواء يؤخذ من الباطن والظاهر. وفى عام ١٩٦٩ كان أول حوت عنبر ينزله صيادو الحيتان فى بيكيا على جزيرة بيتيت نيفيس **Petite Nevis** منذ ما يزيد على ثلاثين سنة. وطلب رجل عجوز شل التهاب المفاصل حركته بشدة نقله إلى هناك، رغم ما تحمله من نفقات كبيرة ومخاطر وتعب. وقد لفوا حوله حبلاً وغمروه فى الزيت الذى فى رأس الحوت. وبعد فترة طويلة من الغمر سحبوه وذهبوا به إلى بيته وقيل إنه شعر بتحسن كبير(٧٣) .

قبل أن نترك موضع الطب، هناك معتقد أخير لابد من ذكره. فكثيراً ما يصوَّر القراصنة وبحارة العصور القديمة وهم يضعون أقراطًا فى آذانهم بحيث باتت هذه الزينة سمة مميزة للجماعة. ولكن قيمة القرط التزيينية ليست بحجم قيمته العلاجية. فقد كان هناك اعتقاد بين البحارة بأن ثقب إحدى الأذنين يحسِّن الإبصار فى العين المقابلة. ولتحقيق هذه الغاية كان البحارة يثقبون الأذنين لتحسين فائدتهم فى نوبات المراقبة، وكان الربان يثقب الأذن المقابلة للعين التى يستخدمها للنظر فى التلسكوب [٧٤] .

لا يزال البحارة يضعون الأقراط، وفى أمريكا الشمالية والجزر البريطانية يضعها من عبروا حق التاريخ الدورى أو خط الاستواء. ويضعونها فى جزر الهند الغربية فى أذن واحدة عادة، ولم تعد الفكرة هنا هى تحسين الإبصار وإنما ضمان الصحة الجيدة. وقد انتقلت الفكرة إلى البر واتبعها عمال الصلب الذين يقومون ببناء هياكل البنايات المرتفعة فى الولايات المتحدة، حيث يضع الواحد منهم قرطًا بعد نجاته من سقوط خطير.

وبغض النظر عن مقدار صحة الشخص أو الإجراءات الوقائية أو العلاجية التى يتبعها، فإنه من غير المحتمل أن يبقى على قيد الحياة إن هو لم يراقب "العلامات". ومن المؤكد أن الغالبية تتعامل مع الطقس، إلا أن هناك عدداً ضخمًا من الأشياء التى توحى بسوء الحظ أو الكارثة بالنسبة للسفينة والطاقم، وكذلك هناك الشىء الغريب العارض الذى ينبئ بحسن الحظ. وبصورة عامة يؤخذ أى أمر مختلف عما هو متوقع فى العادة من هذا الشىء على أنه ينذر بما سيقع أو يبشر به. ومثال ذلك تؤخذ طيور البر فى البحر، وطيور البحر على البر، والمخلوقات البهقاء على أنها تنبئ بحدوث أشياء ما. ولا ضير من إيراد نماذج سريعة.

ليست الخنازير والكتاكيت والحمام والقطط والأرانب والثعالب والنساء (وخاصة العذراوات والعاهرات والساحرات والعرائس والنساء اللائى يحملن سطولاً فارغة أو الحافيات) والخياطون والقسس والكهنة والكنائس والأزهار وطيور الرفراف(*)

(*) طائر يعيش بالقرب من الأنهار ويقتات الأسماك. (المترجم) .

والكلاب النابحة والأجراس المجلجلة وخشب الآس البرى وأوراق اللعب (الكوتشينة) وزهر الطاولة وعين الجمل والمجانين والدلاء الفارغة والمكانس والخطاطيف التى تشير إلى إحدى السفر والغربان التى تطير أمام سفينة ما والحشرات والعصافير الزرقاء والشهب وأسماك القرش وخنازير البحر والأسماك الطائرة والسالمون والمستخفون على متن السفن والمظلات إلا قائمة ضئيلة لأشياء لا حصر لها لابد أن يلاحظها البحَّار إن كان يريد معرفة ما سيحدث فى المستقبل. إلا أن القائمة تعطى إحساساً بالتنوع. فكل شىء ذُكر هنا له العديد من الحكايات التى توضح قيمته. ويمكننا أن نروى حكايتين فقط منها إلا أنه لابد لنا أولاً من شىء من التحليل.

يمكن أن يقع أى من الأشياء المذكورة ضمن فئة أو أكثر من ثلاث فئات. والأمر الأكثر أهمية أنها تضر السفينة بصورة ما: أوراق اللعب وزهر الطاولة والنساء تؤدى فقط إلى حدوث مشاكل فى البحر. الشىء ليس من العادة وجوده فى البحر - مثال ذلك الغربان والحمام والعصافير الزرقاء - ولذلك يظنون أنه يكون بمثابة تحذير. الأشياء المرتبطة بعالم الخوارق. الثعالب والأرانب والقطط هى الصور التى يمكن أن تظهر عليها الساحرات. وهى تفعل أشياء غير عادية. فالأرانب تصاب بالجنون فى شهر مارس، والثعالب شديدة المهارة، والقطط تحمل كهرباء استاتيكية فى فرائها وترتبط بالشيطان. والقسس والكنائس والأجراس تتصل جميعها بالمسيحية (من المفترض أن يدق جرس السفينة إنذاراً بأنها تغرق). وبما أن البحر ليس مسيحيًا فهو يحاول أن يدمرها. وكلما كثرت الفئات التى يمكن أن ينطوى تحتها شىء من الأشياء كانت قدرة المعتقد على البقاء أكبر.

المعروف أن مين وماساتشوستس كانت بهما ساحرات لزمن طويل. ويسجل جون جوسلين أنه كان هناك عدد من الساحرات "المنتفخات" الضخمات وكن "فى الغالب من طائفة الأصحاب" وكانت تروى عنهن كل أنواع الحكايات. وقد ظهرت إحداهن لبحَّار على بعد عشرين فرسخًا داخل البحر فضربها بالبلطة. وفى نفس اللحظة خرت امرأة، كان الناس يشكون منذ زمن أنها ساحرة، صريعة.

ومنذ فترة قريبة ضايق صياد ساحرة بالقرب من فالماوث Falmouth بولاية مين حيث حذرته بأنه سيندم. وحين ذهب ليخرج بقاربه للصيد كان هناك كلب ضخم يجلس على المقدمة ويرفض أن يتحرك. أخذ الصياد بندقيته وحشاها حشواً مضاعفاً بكلوريد الصوديوم؛ مما نبه ذلك المخلوق فجأة من على بعد. وهناك في القرية كادت المرأة التي سبق أن حذرته تموت من الجروح في بيتها (٧٥) .

وفي عام ١٩٧١ أخبرني صياد في سانت لوشا Saint Lucia أن جارته ساحرة. وكانت تستجدي السمك منه باستمرار، وحين لم تكن تحصل منه على شيء كانت تصيب زوجته بنوبات صرع. خرج الصياد للصيد وعاد بـ"سمكة مليحة". رش في البداية مسحوقاً ساماً عليها. "لم تطلب سمكاً آخر. وخلال يومين أخذ رأسها يصغر ويصغر ويصغر وكان فمها كبيراً وأحمر مثل النار، وماتت. ولم تعد زوجتي تعاني من نوبات الصرع."

عادة ما تكون الساحرات عجائز؛ ومن المؤكد أنهن كذلك الآن. بل إنهن فقيرات. ويمكن التعرف عليهن لأنهن لا يبكين ولا يحيط جلد بأظافرهن، ولا يمكنهن تلاوة صلاة أبانا الذي، ولا ينزفن، ولا يشعرن بوخز الدبابيس التي تغرس في أماكن غريبة. خلاصة القول أنهن يعانين من ضعف الشيخوخة وسوء التغذية والعزلة. وبما أنهن مختلفات عن جيرانهن، فهن ساحرات. وليس هذا صحيحاً دائماً بطبيعة الحال. وفي بعض الأحيان يمكن أن يعمل الرجال، وخاصة في إسكوتلندا، بالسحر. ويقال إن الشابات قادرات على الخروج من أجسادهن لتحري معلومات عن السفن. وكما أشرت من قبل، فإنه لا يمكن تمييزهن كذلك في جزر الهند الغربية، ولكن من المؤكد أن المعلومات السابقة قد تساعد في التعرف على عدد كبير منهن.

إذا كانت الساحرات مكروهات، فكذلك حال أسماك القرش. فهذه المخلوقات تعيش إلى حد كبير على الفضلات وتتبع السفن أميالاً. وقد اكتسبت بين البحارة شهرة كتلك التي يلصقها أهل البر بالذئاب. فإذا مر أحدها على شاطئ من الشواطئ فإن ما يستخرج منه يكون قليلاً، ولكن حين تتبع سفينة بأعداد كبيرة ولفترة طويلة فإنه ينظر إلى ذلك على أنه دليل مؤكد على الموت. ويبذل البحارة جهداً كبيراً للتخلص منها.

منذ سنوات بعيدة ضايق قرش كبير جداً إحدى السفن حتى إنه ما كان ليتركها. ولم تجدى الخطاطيف نفعًا. وفى النهاية عض أحد أفراد الطاقم، وقرر عريف الملاحين المساعدة فى الأمر. فقد أحضر خنزيراً صغيراً وطلب من صانع الأشرعة أن يصنع كيسًا صغيراً من القماش. ملأ العريف جزءًا من الكيس رملاً. وبعد ذلك طلب من الحداد تسخين قنيفة مدفع صغيرة إلى أن يبيض لونها. وبعد ذلك نقل الخنزير الصغير إلى الدرابزين حيث قُتل وأفرغت أحشاؤه. سقط الدم والأحشاء فى الماء واندفع القرش ليشارك فى الوجبة. وفى تلك الأثناء أسقطت القذيفة فى الكيس، ووضع الكيس داخل الخنزير ثم خيطت بطنه. وبعد ذلك ألقوا به إلى القرش الذى ابتلعه مرة واحدة.

اصطف أفراد الطاقم على الدرابزين، ومرت لحظة دون أن يحدث شيء. ولكن فجأة بدأ القرش يتلوى. ثم أخذ يسبح أسرع وأسرع. وبعد ذلك قفز خارج الماء وهبط على ذيله، وأخيراً ألقى بنفسه على البر، مما أذهل السكان المحليين الموجودين على الشاطئ. وذهب أفراد الطاقم بقارب صغير إلى الشاطئ واكتشفوا أن القذيفة قد أحدثت ثقبًا فى بطنه وسقطت فى البحر[٧٦].

كلما طال تناولنا لهذه الأشياء تكثر الحكايات التى نسمعها عنها، وكلما قَصَرْنا الحكايات على التجربة الشخصية كان احتمال سخريتنا منها أقل.

هناك اعتقاد شائع بأن وجود شمسية على متن السفينة يجلب النحس. ومن الواضح أنه ليس معتقداً قديمًا جداً، ذلك أن سجل إحدى سفن المجهود الحربى فى عام ١٨١٢ يحكى عن معاقبة أحد أفراد الطاقم بـ"بيطحه أرضًا وقد فردت ذراعاه وساقاه" لسرقته مظلة الربان. وفى صيف عام ١٩٦٦ أحضرت زوجتى هذا الشىء على متن سفينة فى كوبنهاجن. وكنت قد تركتها على الشاطئ ولكنها أعادتها إلى السفينة. وطوال الصيف كانت تواجهنا العواصف والضباب ومشاكل المحرك والرياح المعاكسة والمرض على متن السفينة. وفى النهاية، وبعد عدد من المصادفات المدهشة، جنحنا فى بحر المانش. وأخذت حالة الطقس تتدهور وبدت التوقعات شديدة السوء. مالت السفينة وسقطت المظلة من عليها. وقد غرزتها فى الرمال المجاورة. ارتفع المد وعامت السفينة واعتدلت الريح وكان الجزء الباقى من الصيف والصيف التالى خاليين من المشاكل.

ليست الأشياء التى أوردناها فى هذا الفصل سوى القليل من على السطح. فقد تركنا المئات من المعتقدات، بل والكثير من الفئات؛ كالمعتقد الخاص بأن أياماً بعينها سعد وأخرى نحس. وأظن أنه من الواضح إلى حد ما أنه إذا لم يكن البحارة يؤمنون بها لما كان لديهم هذا الكم الهائل منها. ومن الواضح كذلك أنها إذا لم تكن تتحقق - لبعض الوقت على الأقل - لكان البحارة قد هجروها. ويمكن القول كذلك أنه فى وجود هذا العدد الكبير من المعتقدات فإنها لابد أن تصيب الهدف. وهذا صحيح بلا شك.

فى الوقت ذاته تشغل هذه الأشياء حيزاً ضخماً فى حياة البحَّار. ويمكن أن يكون هناك بعض الشك فى أن تلك المعتقدات التى لا يمكن إثبات أن لها أى أساس منطقى قد تكون لها قيمة نفسية ضخمة. فلم الصراع إذا كانت النذر سيئة؟ وعلى العكس من ذلك، فإن المرء حين تكون البشائر طيبة تكون لديه فرصة ويستمر فى المحاولة. وحين تفشل كل الوسائل المرئية، قد ينجح الرجل رغم ذلك بتجربته الوسائل غير المرئية. وهى تفلح أحياناً ولا تفلح أحياناً أخر.

احتمت إحدى سفن الصيد ذات مرة فى خليج تشيسابيك من العاصفة عن طريق دخولها فى إحدى القنوات. وظل الطقس على سوئه يومين، وقلَّت المؤن. قال وكيل القبطان للقبطان:

"لابد أن تفعل شيئاً."

"ما الذى تريدنى أن أفعله؟ لقد جربت كل شىء."

"إنك لم تجرب الصلاة."

"وهو كذلك، سأجرب هذا إذن." وظل يصلى لمدة ساعتين قبل أن يؤوى إلى فراشه كى يهدأ الطقس.

وفى صباح اليوم التالى استيقظ الربان وأطل برأسه من الكوة.

"كيف الحال؟"

"تقريباً كما توقعت. أسوأ قليلاً"(٧٧)

لدى البحارة قول مأثور هو "حين تصل إلى نهاية سطر اعقد العزم على تلاوة ما بعده." وهذه الأفكار قد لا تفعل سوى ذلك وتوفر مجالاً إضافيًا يوصل السفينة والحمولة والطاقم بسلام إلى الميناء.

قد لا أنهى هذا الفصل دون بيان أنه حين تثبت فائدة هذه الأشياء لا يكون ذلك بدون بضع نَفْعَات ممن يؤمنون بهـــا. فحين يتحقق حلم ما، فإن احتمال تذكره أقوى مما لو لم يتحقق. وحين لا يتحقق الحلم وتغرق السفينة بكل من عليها من بحارة، من الذى سيعلم بالأمر؟ بل إنه حين يؤمن الناس بهذه الأشياء فإنهم يترددون فى القيام بما هو عكسها، وخاصة حين لا يكلفهم الالتزام بذلك شيئًا. وذات مرة سألت قبطانًا عجوزًا "هل تظن أن يوم الجمعة يوم سيئ لبداية الرحلة؟" "أظن ذلك بالتأكيد." "هل أقلعت ذات مرة في يوم جمعة؟" "أقلع فى يوم جمعة؟ بالقطع لا. من ذا الذى يفكر فى الإقلاع فى يوم جمعة؟"

# الفصل الثانى عشر

## القراصنة وقادة سفن المجهود الحربى والمهربون

« يا إلهى ، إنى أكثرهم براءة ، غير أن
شهود الزور شهدوا ضدى ».

**القبطان ويليام كيد**

إحدى مفارقات التاريخ أنه ينبغى تذكر دور القرصان أكثر من أى من المهنتين الأكثر خطورة فى المحيط؛ وهما قيادة سفن المجهود الحربى(*) والتهريب. بل إن المفارقة المضاعفة هى أن الرجل الذى نتذكر اسمه باعتباره كبير القراصنة - وهو القبطان ويليام William ( وليس روبرت Robert ) كيد Kidd - هو فى واقع الأمر "أكثرهم جميعًا براءة". أما المفارقة المضاعفة ثلاث مرات فهى أن فاسدًا بلغ من السوء مبلغًا، بحيث لا يوجد درك من دركات جهنم على ذلك القدر من الوضاعة الذى يستحق أن تستقر فيه رفاته، قد منح لقب سير على ما قام به من أعمال جليلة؛ وهو السير هنرى مورجان Sir Henry Morgan. غير أن هذا هو القدر حين يدعمه المال والسياسة.

من بين المهن الثلاث نجد أن قائد سفينة المجهود الحربى هو أقلها تذكرًا، ولابد من أن نقول كلمة عن هذه المهنة، وهى أن بعض الرجال المميزين كانوا على قوائمها، كما أن بعض أعظم أعمال الشجاعة والتعامل مع السفن قام بها قادة سفن المجهود الحربى.

على عكس المعتقد السائد، لم يكن قائد سفينة المجهود الحربى قرصانًا a pirate أو لص مواشى reaver كما كان يسمى فى إسكوتلندا، أو مغامر buccaneer ؛ ذلك

(*) سفن مملوكة ملكية خاصة ولكن الحكومة هى التى تتولى تشغيلها وتجيز لها مهاجمة سفن الأعداد والاستيلاء عليها . ( المترجم ) .

أن القرصان pirate كان يغير على السفن كافة، وكان المغامر يغير على السفن كافة إلا سفن بلاده، وكان قائد سفينة المجهود الحربى privateer يغير على سفن الدولة التى فى حالة حرب مع دولته وحسب. بل إنه كان يحمل ترخيصاً للقيام بذلك - كان يشتريه من الحكومة - وكان يسمى "خطاب التفويض والانتقام" a letter of marque and reprisal، وهو ما كان يمكّنه من الخروج للبحث عن سفن الأعداء والاستيلاء عليها إن أمكنه أو تدميرها. وكان ذلك "التفويض" يختلف عن "خطاب التفويض" a letter of marque الذى كان يسمح للسفينة التجارية فقط بحمل المعدات الحربية لحماية نفسها.

فى عصر باتت فيه السلامة وطول العمر الدافع الرئيسى للحياة بالنسبة للكثيرين، أصبحت الحرب وشائعات الحرب لعنة. وقد أدى احتمال الحروب الحديثة التى تشن بالضغط على زر إلى تعزيز وجهات النظر تلك. وإنى أجد لدىّ بعض الجسارة التى تجعلنى أتحدث عن قيادة سفن المجهود الحربى. ومع ذلك فإننا حين نقرأ رواية القبطان جون سميث عن معركة بحرية وقعت منذ زمن بعيد، التى يعتمد فيها على تجارب عديدة، فإن ذلك يساعدنا على تفسير سبب شعور الرجال بالفرح لقيادتهم سفن المجهود الحربى. وما يلى هو فصل كامل من كتابه "أجرومية بحرية" A Sea Grammar الصادر فى عام ١٦٢٧:

كيفية إدارة معركة فى البحر، بالشروط الصحيحة فى معركة أُعلن عنها بصورة كبيرة، وترتيب الأسطول فى البحر.

بالنسبة لدرة هذا العمل، أعترف بأننى قد أحسن صنعًا لو أنى تركته كما هو للتقدير الشخصى لكل إنسان، أو لمن لهم ممارسة أطول أو خبرة أكثر. غير أنه بما أننى رأيت الكثير من الكتب الخاصة بفن الحروب البرية، ولم أر قط كتابًا عن البحر، وحيث إننى أرى الرجال كافة صامتين عن هذه الخدمة الأكثر صعوبة، وهناك الكثير جداً من القباطنة الشبان، وغيرهم ممن يرغبون فى أن يصبحوا قباطنة، الذين يعلمون القليل جداً عن أى غرض من الأغراض، أو لا يعلمون شيئًا بالمرة. ولكى

الكثير من كتب فن الحروب عن البر، وليس هناك كتاب عن البحر.

يتحسن فهم هؤلاء، قطعت ذلك الشوط. وبالنسبة لما سيأتى، فإنى أرجع ما رأيته وفعلته وفكرت فيه من خلال خبرتى القليلة إلى تأويلاتهم الودية وتقديراتهم الحكيمة.

الشراع، كيف تتجه السفينة أو تستقيم، فى اتجاه الريح أو عكس اتجاه الريح، اضبط اتجاه الشراع بالبوصلة. إنه يقف متجهًا للأمام، أو يميل فى اتجاه الريح أو عكس اتجاه الريح، ودع أعلامك ترفرف إذا كان لديك سفينة مرافقة، وإلا فلا. وبعد أن تفرد كل أشرعتك ضع رجلاً ثابتًا على الدفة واجلس عن قرب لتجعل السفينة ثابتة، تعقبه أو أوقفه. فإذا بقى ثابتًا فلا بأس، وإلا فإننا نحتشد عليه. القبطان، يُرفع علمه وراياته، وكذلك ملابسه المستغنى عنها والشريط العلوى، وهو قماشة حمراء طويلة عرضها ثلاثة أرباع الياردة تقريبًا لها حاشية على كل جانب من البفتة أو الكتان الأبيض تلف بها السفينة على الجوانب الخارجية لأجزائها العليا جميعًا فى المقدمة والمؤخرة، وأمام رءوس الجسر، وكذلك حول المنصة التى فى أعلى الصارى الأمامى والمنصة التى فى أعلى الصارى الرئيسى، وكذلك من أجل جانبية السفينة ومظهرها، ولكى يمنع رؤية الرجال، يلف عارضة الشراع الرئيسية ويرفعها، ويدخل الشراع المنشور. وهكذا يحصرون أنفسهم فى الأشرعة القصيرة، أو أشرعة القتال، وهى فقط الشراع الأمامى والشراعان الرئيسى والأعلى، لأنه لا ينبغى لسائر الأشرعة أن تُحرق أو يصيبها التلف. إضافة إلى أن وجودها سيجعل التعامل مع السفينة متعبًا، ويعوق رؤيتنا واستخدامنا لمدفعيتنا. وهو يجعل معاركه الأمامية والخلفية القريبة ممكنة.

التعقب .

الملابس المستغنى عنها .

الشريط العلوى .

أشرعة القتال .

سحب السفينة .

فى البداية أقول كيف تكون المطاردة يا سيدى؟ سوف نقترب منه شيئًا فشيئًا. وحين يستعد الجميع، يذهب كل رجل

إلى عمله المكلف به، رش الماء على شراعك الأعلى تحية للبحر، وارفعه مع ضجيج النفير. من أين جاءت سفينتك؟ من أسبانيا. من أين جاءت سفينتك؟ من إنجلترا. هل أنت سفينة تجارية أم سفينة حربية؟ نحن من البحر. إذا كان يشير لنا ناحية اتجاه الريح بسيفه المشهر، ويدعو بكل قوة لملك أسبانيا، وينطلق مبتعداً، طارده بالمدافع التي على جانب سفينتك، واسبقه بمسافة كافية. أحسنتم، أحسنتم. لقد أُنهك تماماً. لقد أفسدنا عليه تدبيره وهاهو يغير مساره، فغير مسارك أنت كذلك وابق مبتعداً، وكن مستعداً عند الدفة، وتقدم معه بحرص، ووجه له وابلاً من الطلقات الصغيرة، وكذلك مدافع المقدمة ومدافع الجانب كما سبق، ولتبق مبتعداً. إنه يرد علينا الطلقة بالطلقة. سوف نسأله، هل أنت مستعد من جديد. نعم، نعم. أعد ما فعلته معه من قبل.. أحسنتم، أحسنتم. ابق مبتعداً وراجع مدفعيتك من جديد. هل الجميع على استعداد؟ نعم، نعم. تقدم معه بحرص من جديد وابدأ بمدافع مقدمتك، واتل ذلك بمدافع الجانب، وقلل سرعة السفينة، ولكى تطاردها المطاردة التامة، أطلق مدافع الجانب الذى فى اتجاه الريح، وأدر السفينة بحيث يمكن أن تطلق المؤخرة مدفعيتها كذلك، وتعود حبال الشراع إلى سطح السفينة من جديد. أحسنتم، أحسنتم. الريح تغير اتجاهها، والموج يعلو بحيث يدخل الماء السفينة، والماء ينهمر علينا أكثر وأكثر، وبين الريح والماء. استخدم المضخة، وقف بقوة على الدفة. سيدى، دعنا نأخذ نفسنا ونجدد نشاطنا بعض الشيء، وندلى برجل لوقف تسرب الماء. يكون ذلك بلفه من عند وسطه تقريباً بقطعة من قماش الأشرعة وحبل للحيلولة دون غرقه، ويكون ذراعاه حرين، وتكون مطرقة خشبية فى يد وخابور ملفوف عليه جوت مشبع بالقطران فى اليد الأخرى، حيث يقوم

كيفية بدء المعركة.

كيفية الإدلاء برجل من على السفينة .

بدقه بسرعة فى الثقب أو الثقوب التى أحدثتها الطلقات. يا للسعادة يا رفاق، هل تم كل شىء؟ كل شىء على ما يرام، كل شىء على ما يرام، كل شىء على ما يرام. ثم استعد للصمود أمامه من جديد، وأطلق عليه كل قذائفك، الكبير منها والصغير، وفى الدخان اقترب منه عند مقدمة السفينة وعند منتصفها، وإذا لم يمكن هذا فبالقرب من مؤخرتها، أو اجعلوا اشتباكاتكم سريعة إن استطعتم فى معارككم القريبة وابتعدوا. يا قبطان نحن ملاصقون لبعضنا والسفينة شبت فيها النيران، ونقطع أى شىء لنزيد العوائق، ونطفئ النار بالملابس المبللة. فى مثل هذه الحالة سوف يكونون فى الحال أصدقاء، حيث إنهم بمساعدة كل منهم فى إطفاء حريق الآخر سوف يتخلصون جميعًا من العوائق، وإلا فإنهم سيحترقون معًا ويغرقون. أما إذا كانوا كرماء فسيشرب كل منهم نخب الآخر بعد إطفاء الحريق ثم يلقون بأكوازهم فى البحر ويبدءون من جديد.

التوجيه وتوجيه النصح فى المعركة البحرية وكيف يدفنون موتاهم.

لقد انقضى النهار يا سيدى، وحل المساء، ودعنا نستشير. الطبيب يرعى الجرحى، ويكفن القتلى، حيث يعلق فى كل منهم ثقلاً أو قذيفة عند الرأس والقدمين كى يغوصوا فى الماء، وتطلق المدفعية ثلاث طلقات عند جنازتهم، وينظف المساحون السفينة، ويسجل ضابط المحاسبة أسماءهم، وتحرص المراقبة على أن تكون مساحة المناورة الخاصة فى اتجاه الريح لكى لا يضيع منا فى الليل، وينظف المدفعيون عتادك، وينظف الجنود المدافع، ويسد النجارون التسريبات، ويصلح عريف الملاحين وسائر البحارة الأشرعة، ويأتيك الطاهى ليأخذ تعليماتك فى نوبة الصباح، أهلاً يا ولد، أهلا يا سيدى، هل غلا القدر، نعم نعم، ويدعو عريف الملاحين الرجال للصلاة والإفطار.

أحضر يا ولد زجاجات من قبو زجاجاتي، في صحتكم جميعًا في المقدمة والمؤخرة، شجع قلوبي لتوجيه ضربة جديدة، يضرب المدفعيون الجانب الأيسر، ولتأتوا بي من الجانب المواجه للريح إلى الجانب المعاكس لاتجاه الريح، ولنصوب الكثير جداً من المدافع ناحية الجانب الأيسر، لنضربه يا سيدي في الجانب الأيسر من بعيد، الرجال في منتصف السفينة يرون أعلى الصواري وعوارض الأشرعة مجهزة جيداً، بالحجارة، وقدور النار، والسطول النحاسية، لإلقائها عليهم قبل أن ندخل، أو إذا أجلنا ذلك نضربهم بكل طلقاتك الكبيرة والصغيرة، ولندخل في وسط الدخان، وتكون كل فرقة على أكمل وجه، ولتدق الطبول وينفخ النفير، ليحم القديس جورج إنجلترا.

الإعـــداد لضـــربة جديدة .

إنهم يرفعون علم الهدنة، اسحبه من الصاري الرئيسي، أو من القاعدة، أو استولى على علمه، واضرب الأشرعة وعد إلى سفينتك ومعك القبطان وضابط المحاسبة وضابط المدفعية ومعهم تفويضهم أو تصريح الجمارك أو أوراق الشحن. يوضعون في قارب وينزلون من على جانب السفينة ويُحتفى بهم بصيحة جماعية، فليحفظ الله القبطان وكل الفرقة بينما يطلق النفير، استجوبهم كل على حدة، وبعد ذلك توصلوا إلى شروطكم، بوليمة، أو إطلاق سراحهم، أو عقوبة، حسبما تراه مناسبًا. ولكن اعتن بجرحاهم عنايتك بجرحاك، وإذا كانت هناك شابات أو عجائز عاملهم بنبل، فهذه دائمًا هي شيمة الكريم. وختامًا، فإنك إذا فاجأته، أو دخلت السفينة عنوة، يمكنك صف الرجال أو إطلاق النار أو السلب أو النهب وتعلن استيلاءك على غنيمة بحرية(١) .

كيفية استسلام الغنيمة البحرية ، وكيفية الاختفاء بها على طريقة البحارة.

لكى يكون الرجل قائداً عظيماً لإحدى سفن المجهود الحربى كان لابد أن يتمتع بمواهب كثيرة. بدايةً، كان لابد أن يكون لديه قدر ضخم من الشجاعة ويتسم بالكثير من الحكمة والحصافة، وأن يعلم متى يكر ومتى يفر. ولابد أن يكون ممتازاً فى إدارة السفينة، وقادراً على الإبحار بها إلى ما بعد النقطة التى يبدو أن أية سفينة يمكنها بلوغها، ولابد أن يكون قادراً دائماً على المناورة بسفينته بالطريقة التى تمكنه من الإمساك بغنيمة بحرية ونهبها والابتعاد قبل أن تتغلب عليه سفينة أقوى منه. ولابد أن يكون ملاحاً خبيراً، ذلك أنه قد يظل شهوراً فى مياه معادية دون أن يرسو مرة واحدة على البر. ولابد أن يكون نفسانياً ممتازاً قادراً على التعامل مع أفراد الطاقم الجامحين الذين يصيبهم الملل أحياناً من الطواف فى البحر، ويزداد فى بعض الأحيان قلقهم أو خوفهم من القتال. وأخيراً لابد أن يعرف الزمان والمكان المحتمل أن توجد فيه فريسته. وفى عام ١٧٧٨ قال كاتب إنجليزى إن قائد سفينة المجهود الحربى "أهوج مسلح تسليحاً ثقيلاً، ومجموعة متهورة من الكائنات البشرية ... مستعدة لإطاعة أية أوامر ... نصف حصان ونصف تمساح مع مسحة من البرق فى تركيبته، إلى جانب غزارة شعر فَوْدَيه وكأن قوته فى تركيبة شعره"[٢] .

حين يكون ذلك ممكناً، كان قائد سفينة المجهود الحربى يحب أن يصاحب رفيقاً فى السفر. وكان القائد منهم إذا لمح قافلة ما يكشف سفينة لسفن الداورية التى تطارده على الفور. وكان لابد أن تكون الفريسة الوهمية سريعة وقادرة على الإبحار بالقرب من الريح مع عدم الانجراف عكس اتجاه الريح بالقدر الذى يمكنها من الهروب من السفن المصاحبة المسلحة تسليحاً ثقيلاً، وإذا كان يعرف عمله جيداً كان يهتم بأن يبقى خارج المدى الأقصى ولا يزيد مسافته زيادة كبيرة. وكان ذلك يشجع المطارِد، وقبل أن يعرفوا ذلك يكونون على بعد أميال من القافلة. وفى تلك الأثناء كان قائد سفينة المجهود الحربى الأخرى يتحرك للهجوم على السفينة التجارية، إما بمهاجمة السفن هجوماً شرساً من على مسافة بعيدة بمدافع لونج توم Long Tom ( مدافع تقذف كرة يتراوح وزنها بين تسعة أرطال وثمانية عشر رطلاً) أو الإبحار بمحاذاتها وإطلاق مدافع جانب السفينة ثم اعتلاؤها فى الدخان الكثيف.

ويبدو أن قادة سفن المجهود الحربى الأوائل ظهروا أول ما ظهروا فى القرن الثالث عشر فى إنجلترا، إلا أنهم بدءوا فى الانتعاش فى القرن السادس عشر حين شاعت الفكرة بين الفرنسيين والهولنديين(٣) .

بعد ذلك بفترة قصيرة كانت هناك سفينة مجهود حربى فى إنجلترا اسمها "الرهيب" .The Terrible وكان قائدها هو القبطان موت Captain Death وضابطها الأول مستر شبح .Mr. Ghost ومع أنه كان يُستولى عليها فى بعض الأحيان، فقد كانت حياتها العملية سريعة ومبهرة بالقدر الذى يبرر أن تكون هناك أغنية عنها كانت لا تزال شائعة حتى عام ١٨١٤ حين دونها أسير حرب أمريكى فى سجن فورتون Forton بإنجلترا(٤) .

ومع أن قيادة سفن المجهود الحربى بدأت فى العالم القديم، فقد بلغت ذروتها فى العالم الجديد خلال الثورة الأمريكية وحرب ١٨١٢ ، وقد أفرزت أمريكا الشمالية عدداً كبيراً من القراصنة، بسبب عزلتها عن أوربا وكثرة موانيها ووجود سكانها فى أماكن متفرقة تفصلها مسافات كبيرة، ولأن معظم تجارتها كانت تجرى عن طريق البحر. وضماناً لنجاح أى مشروع تجارى كان لابد للسفن البحرية أن تكون سريعة بطريقة معقولة وتكون بها ترسانة من القوة بما يكفى لصد هجمات المغيرين. وكان على كل سفينة تغادر الميناء تقريباً سيف أو سيفان، وبعض البنادق و"مدفع كبير" أو زوج من المدافع المحورية. بل إن أفراد الطاقم كانت لديهم قدرة لا بأس بها على استخدامها. ولأن قوانين التجارة البريطانية كانت تحظر على سفن المستعمرات حمل الكثير من السلع، فقد أصبح التهريب جذاباً. ومن ثم اعتاد الربابنة الأمريكيون على إدارة سفنهم فى الظلام والهدوء ليلاً، وعلى الهروب من مطاردة من يجبون الضرائب، وعلى دخول الموانئ والخروج منها فى الطقس الذى يجعل من شدته أهل البر يؤْثرون البقاء فى فراشهم؛ وهو تدريب ممتاز على قيادة سفن المجهود الحربى.

كان ذلك العمل من الشيوع حتى إنه مع انتهاء الثورة الأمريكية كان هناك ٣ آلاف سفينة مسلحة تابعة للمستعمرات فى البحر. وتشير التقديرات المتحفظة إلى أن تلك القوة كانت تضم حوالى ١٢٠ ألف طن من السلع و٩٠ ألف رجل و١٨ ألف مدفع. وقد

استولت تلك السفن على ما مجموعه ٢٣٧٩ سفينة بريطانية أو دمرتها. وشملت الغنائم التى استولت عليها كل ما يخطر على البال من السلع بدءًا من الأحذية ولحم البقر المملح إلى البارود والعتل، وقد يكون هناك بعض الشك فى إسهام تلك المواد بصورة أساسية فى توفير احتياجات الجيش(٥) .

كان البحارة الأمريكيون يجولون فى المحيطات الأربعة بقيادة ربابنة شجعان مثل جون بول John Paul وميلر Miller وميرفى Murphy وريد Reid وبويل Boyle وبارنى Barney على متن سفن تحمل أسماء غريبة، من قبيل "الصقر الصغير" The Young Hawk و"محسوب جاك" Jack's Favorite و"الطرطان" The Tartan و"الحية ذات الجرس" Rattlesnake و"الدبور" Hornet و"العرسة" The Weasel و"سام الوفى" Loy-al Sam و"أنا أفكر فى نفسى" Thinks I to Myself Thinks I و"الانتقام" Revenge و"المزحة السوداء" Black Joke و"مشروع قانون الحقوق" Bill of Rights. (٦) .

اكتسب هؤلاء الرجال فى حياتهم شهرة كبيرة، حتى إن الأساطير كانت تُتداول حولهم فى أنحاء الواجهات المائية الأمريكية. ولكن ربما لأن أعمالهم كانت غالبًا ما تجرى بعيداً عن الوطن، فقد كانت الحكايات التى تدور حولهم مقصورة إلى حد كبير على الكتب المطبوعة، وبدأ العامة ينسونهم. ذلك أن بإمكاننا الاطلاع على أنشطتهم، ولكننا نجد أن ذلك يتضمن القليل من التعليقات المختصرة عنهم.

كانت حياة جون بول العملية، وهو الإسكوتلندى الذى أضاف جونز إلى اسمه فيما بعد، من الشهرة بحيث يمكن تسجيلها هنا بالتفصيل. فكل تلميذ على علم بمعركته مع السفينة "سيرابيس" Serapis، وبرده حين سئل إن كان قد استسلم - "أنا لم أبدأ القتال بعد" - وبالأسلوب غير اللائق الذى عامله به الساسة الأمريكيون. إلا أن أحداً لا يعرف جيداً أنشطته قبل اشتباكه الشهير مع "سيرابيس" حين عذب البريطانيين فى السفينة "ذا رينجر" The Ranger القديمة وحاول الاستيلاء على إدنبرة بالسفينة "بون أوم ريشار" Bon Homme Richard وما زالت تروى عنه حكايتان فى إسكوتلندا.

يبدو أن ذلك الكلام عن نشاط جونز انتشر على كل الساحل، وحين ظهر قبالة فيرث أو فورس Firth of Force ظنه اللورد صاحب الحصن خطأ سفينة حربية

بريطانية. وبدافع من الشعور الوطنى أو رغبة فى أن تكون له حظوة لدى البريطانيين، أرسل اللورد خادمه فى قارب صغير ومعه برميل بارود ورسالة يطلب فيها من القبطان استخدام البارود المذكور فى القضاء على القرصان الأمريكى. أخذ جونز البارود وكتب رسالة شكر قائلاً إن البارود سوف يستخدم فيما هو نافع، ووقعها وأعاد بها الخادم إلى اللورد(٧) .

وبينما كان ذلك يجرى، بلغت نوايا جونز وموقفه إدنبرة. كانت البلدة فى غم. فلم يكن هناك ما يكفى من العتاد ولا الجنود فى المنطقة لردع القوة الأمريكية، وبدا أن البلدة ستسقط لا محالة. وكان *الشىء الوحيد الذى يمكنه إنقاذ إدنبرة هو الرياح* الغربية الشديدة، وهو الأمر غير المحتمل. وعلى أية حال فقد بلغ أمر المحنة الأسقف العجوز الذى قرر اتخاذ إجراءات صارمة. إذ أمر بكرسى ونزل إلى الشاطئ. كان المد منخفضاً فسار الرجل العجوز على الأرض المستوية حتى ابتلت قدماه. وهناك وضع الكرسى وهناك جلس. أخذ يدعو رافعاً عينيه وقد جهر بصوته "يا إلهى، لقد خدمتك طوال ما يربو على أربعين عاماً. فإما أن ترسل ريحاً شديدة تبعد القرصان الذى أتى ليهاجم بلدتنا أو أجلس هنا حتى أغرق. آمين." وجاء المد. وارتفع الماء حتى كاحلى الرجل العجوز. كان الماء يرتفع والأسقف جالس مهموم يواجه البحر. بلغ الماء صدره. ثم تغير اتجاه الريح إلى الغرب وهبت عاصفة. نهض الرجل العجوز واستعاد كرسيه وعاد إلى الشاطئ(٨) .

كان من الصعب ضرب فيرث أوف فورس بيخت فى جو عاصف. كان ذلك مستحيلاً بالنسبة لجونز. وكانت كل ساعة يؤخرها يمكن فيها للقوات المغيثة أن تقترب أكثر. وبعد يوم وليلة أنهى جون بول جونز وبرميل بارودة الأمر بالشكل الصحيح وانصرف بحثاً عن صيد جديد(٩) .

كان لريان آخر مواجهة مع الإنجليز فى مناخ أكثر دفئاً. فقد أبحر القبطان ميلر فى السفينة "جاكس فيفوريت" **Jack's Favorite** إلى ميناء سانت بارتس **Saint Barts** فى جزر الهند الغربية. ولم يكن قد مضى عليه وقت طويل هناك حين وصلت سفينة حربية بريطانية اسمها "سبتايل" **Subtile.** وبما أن الميناء كان محايداً، فلم يكن بوسع

الإنجليزى أن يفعل شيئًا، ولكنه استشاط غضبًا لوجود "قرصان" أمريكى معه فى نفس الميناء، وأقسم بأنه "سوف يتبع سفينة المجهود الحربى الأمريكية حتى ولو ذهبت إلى الجحيم". لم يعتبر البحارة أن مثل هذا القسم يتسم بالحكمة، ولكن حين غادرت "جاكس فيفوريت" الميناء كانت "سبتايل" فى أعقابها. ولشعور ميلر بأنه لن يكسب الكثير من اشتباكه مع سفينة حربية، فقد نشر كل أشرعته وحاول أن يسبق الإنجليزى الذى فعل الشىء ذاته. وفى تلك اللحظة هبت عاصفة، ولكن السفينتان ظلتا تنشران كل الأشرعة التى يمكنهما سحبها. وبعد أن هدَّئت "جاكس فيفوريت" من سرعتها كانت تبحر فى بحر خال من السفن. وعلى الفور استدار ميلر واتخذ سبيله فى البحر عائدًا، غير أن كل ما وجده من "سبتايل" كان بضع قبعات طافية فى البحر(١٠) .

ارتكب القبطان ستابلز Captain Staples من نيويورك على متن السفينة "يورك" York غلطة قاتلة حين ظن خطأً أن السفينة الحربية البريطانية "لورد سومرز" Lord Somers سفينة تجارية واشتبك معها. ولم يدرك ستابلز خطأه إلا حين أطلقت السفينة مدافعها الجانبية، وساعتها كان الوقت قد فات تقريبًا. تلقت "يورك" نيرانًا رهيبة وهوجمت هجومًا شديداً؛ وقد جُرح ستابلز جرحًا قاتلاً. حملوه إلى أسفل وتولى الطبيب رعايته. وسأل ستابلز إن كان جرحه قاتلاً أم لا. وحين علم أنه كذلك أرسل فى طلب الضابط الأول مستر برش Mr. Burch وأبدى ملاحظة من الملاحظات التى اشتهر بها البحارة من حين لآخر. فقد أبلغ برش الضابط أنه جُرح جرحًا قاتلاً وأن السفينة فى موقف غاية فى الصعوبة. وبعد ذلك أبلغه الأمر قائلاً: "إننى عاجز إلى حد كبير عن الكلام. اهتم بنفسك وافعل ما فى وسعك." وفعل برش ما فى وسعه. فقد خرجت "يورك" سليمة وعادت مترنحة إلى بالتيمور(١١) .

يمكننا رؤية صلابة معادن هؤلاء القادة فى عمل القبطان تشامبلين Champlin من نيو لندن. ففى اشتباك مع فرقاطة قبالة نهر سورينام، أصيبت سفينته "جول بارلو" Joel Barlow بأضرار بالغة (وكذلك الفرقاطة) وأصيب هو بطلقة فى كتفه. وقد أجبره ما فقده من دم على العودة إلى قمرته حيث سمع خلسة ضباطه يقترحون تسليم السفينة. استل تشامبلين مسدسه ورفع زناده. "قل للضباط والجنود إن كان هناك من

يجرؤ على إنزال الأعلام فسوف أطلق النار فوراً على مخزن الذخيرة لنذهب جميعًا إلى الجحيم صحبة".[١٢]

وصلت السفينة "جنرال أرمسترونج" General Armstrong بعد حياة على قدر كبير من النجاح في ظل قائدها صمويل ريد Samuel Reid إلى ميناء فايال Fayal المحايد للحصول على الماء. وبينما كانت العملية تجرى، ظهرت على المسرح وحدة صغيرة من السفن الحربية البريطانية. وكانت الوحدة تشمل السفينتين المسلحتين البريطانيتين "كارنيشن" Carnation و"بلانتاجينيت" Plantagenet والفرقاطة "روتا" Rota. وعندما شك ريد في أنها قد تهاجمه، أمر بتحريك "أرمسترونج" بالمجاديف بجوار الشاطئ وأعد العدة كي يتمكن من تغيير اتجاه سفينته متى شاء. وبينما كان يقوم بذلك هاجمته قوارب من "كارنيشن" فحطمها. وتخوفًا من وقوع هجوم مشابه، قرّب سفينة المجهود الحربي أكثر من الشاطئ وانتظر الأحداث.

ثبتت صحة تقدير ريد للموقف، ذلك أنه في منتصف الليل تقريباً، وفي ضوء البدر، هاجم "جنرال أرمسترونج" اثنا عشر قارباً. وكانت النتيجة مأساوية. فقد أغرقت نيران المدفعية الكثيرين، ومُزِّق من وصلوا إلى سفينة المجهود الحربي وحاولوا صعودها شر ممزق. وبعد أربعين دقيق فر من تبقى من الفرقة المهاجمة.

في صباح اليوم التالي استأنفت "كارنيشن" الهجوم ولكنها أصيبت بأضرار بالغة وأجبرت على التقهقر. في ذلك الوقت بات من الواضح لريد أنه لن يمكنه الهروب. كانت "روتا" و"بلانتاجينيت" تدخلان، وكان العديد من مدافع "جنرال أرمسترونج" لا تعمل. أمر ريد بخرق السفينة وهرب هو طاقمه إلى الشاطئ.

فاز الإنجليز في المعركة، غير أنها كانت واحدة من أكثر المعارك كلفة في حوليات الأسطول البريطاني كافة. وحين انقشع الدخان كانت خسائر الأمريكيين قتيلين وسبعة جرحى (أصيب أحدهم حين انفجرت بندقيته التي حُشيت بكمية أكثر من اللازم من البارود)، بينما كانت خسائر البريطانيين ١٢٠ قتيلاً و٨٠ جريحًا بينهم قبطان "روتا" الذي فقد ساقًا، ولكنه كان يفضل إرجاع ذلك إلى "دهس ثور لها" على الاعتراف بأنها نتيجة لنيران المدافع الأمريكية[١٣] .

من المصادفة أن القبطان بويل كان قد بدأ حياته العملية المتوهجة على السفينة "كوميت" Comet [ الشهاب] وفي عام ١٨١٢ أدار حصار تشيسابيك ذات ليلة عاصفة وحقق تفوقًا قبالة ساحل البرازيل. وواجه قبالة برنامبوكو Pernambuco ثلاث سفن بريطانية وسفينة برتغالية "من الضخامة بحيث يمكن تحميل "كوميت" عليها. وكانت السفن الأربع تحمل على متنها أربعة وأربعين مدفعًا، إلا أن "كوميت" نجحت في تدمير الأسطول بكامله.

انتقل بويل بعد ذلك إلى جزر الهند الغربية، وفر من الفرقاطة "سربرايز" Surprise واستولى على ثلاث سفن كبيرة، ولعب لعبة القط والفأر مع السفينة المسلحة "سواجرر" Swaggerer إلى أن مل اللعبة وتقدم للاستيلاء على سفينة أخرى، ثم عاد بعد ذلك إلى بالتيمور من خلال الحصار.

بعد ذلك تولى قائد سفن المجهود الحربي قيادة السفينة "شاسور" Chasseur [الصياد] التي كانت تحمل مدافع زنة اثنا عشر رطلاً وطاقمًا مكونًا من مائة فرد. وقد طاف بها بحر المانش واستولى على ثمانية عشر غنيمة بحرية قيِّمة في الطريق. إلا أن بويل كان يشعر بضيق شديد من الأميرالين كوشران Cochrane ووارين Warren اللذين أعلنا ساحل الولايات الأمريكية بكامله محاصراً. ولكي يكونوا متكافئين، أصدر بويل إعلانًا مماثلاً صرح فيه بأن "شاسور" تحاصر إنجلترا بالكامل؛ وهو الإعلان الذي وضعه على لوحة الإعلانات في لويدز(*) Lloyds بلندن(١٤) .

لم يكن من بين الرجال الذين أبحروا في ظل خطاب التفويض والانتقام كافة من كان ندًا لجوشوا بارني Joshua Barney في مهارته أو لونه أو نجاحه. إنه رجل مخلوق بكل المقاييس ليكون بطلاً أسطوريًا، وهو يرقد الآن في جبانة في بتسبرج Pittsburgh، حيث توفي بجرح أصابه وهو يدافع عن واشنطن العاصمة؛ وهو يكاد يكون غير

(*) لويدز الآن هو اتحاد شركات التأمين التي تقدم كل أنواع التغطية التأمينية في أنحاء العالم. وقد اتخذت اسمها من مقهى في لندن في أواخر القرن السابع عشر يملكه إدوارد لويد كان يلتقي فيه أصحاب شركات التأمين البحري للقيام بعملهم (المترجم) .

معروف. وصورته معلقة فى أكاديمية الولايات المتحدة البحرية، وسُميت باسمه حارة فى نيوبورت برود آيلاند، وهناك شاطئ قاحل يعرف باسم "بارنيز جوى" .Barney's Joy

حين كان بارنى فى الخامسة عشرة وجد نفسه يتولى قيادة سفينة تجارية كانت تغرق فى المحيط الأطلنطى فى موسم الشتاء. وقد أنقذ السفينة وعاد إلى الديار بربح وفير.

حين اندلعت الثورة انضم إلى البحرية، وباعتباره نائب قبطان السفينة "هورنيت" Hornet كان أول ضابط يرفع العلم الأمريكى. وبعد ذلك خرج ليشارك فى هجوم على ناسو Nassau تحت قيادة إيزيك هوبكنز Ezek Hopkins وبصحبة إسكوتلندى اسمه جون بول جونز. واجهت سفينة بارنى طقسًا سيئًا وعادت إلى بالتيمور، حيث انضم الشاب، وكان وقتها فى السادسة عشرة، إلى السفينة "واسب" Wasp وازدهرت حياته الاجتماعية.

انتصر بارنى عمومًا فى ثلاثين معركة من بين خمس وثلاثين معركة شرسة، بينما سُجن ثلاث مرات وهرب مرتين (تنكر فى إحداهما على هيئة فتاة)، وغرقت سفينته مرتين، وخدم قائدًا فى البحرية الفرنسية، وأخمد تمردًا واحدًا على الأقل. ومن بين هذا كله هناك أربعة أحداث تهمنا فى هذا المقام. أول تلك الأحداث حدث مضحك وقع حين كان على السفينة "روسِّى" Rossi . كان بارنى قد طاف طوافًا ناجحًا، حيث حصل على ما قيمته مليون ونصف المليون دولار من شحنات العدو خلال تسعين يومًا وأبحر إلى نيوبورت لعمل عَمْرة. كان الناس فى تلك البلدة مبتهجين. فقد اصطفوا على الواجهة البحرية يلوحون بمناديلهم ويهتفون. بل إنهم قدموا له تحية بحرية من الحصن. ولكى لا يكون بارنى أقل منهم كرمًا، ولكى يبدى لهم تقديره، أطلق مدافع الجانب، المؤسف أنه نسى أن المدافع كانت محشوة بالقذائف، وكانت النتيجة أن البلدة أصيبت بأضرار بالغة وفقد برىء ممن اصطفوا لتحيته قدمه(١٥) .

فى مناسبة أخرى كان بارنى متجهًا إلى بوردو(*) Bordeaux على سفينة مجهود حربى صغيرة بها حمولة تبغ. وفى الطريق استولى على سفينة عليها حمولة من العتل

(*) فى جنوب غربى فرنسا على المحيط الأطلنطى. (المترجم) .

التي أخذ بعضها إلى سفينته. وبعد ذلك بقليل طاردته سفينة مجهود حربي بريطانية كبيرة اسمها "روزبَد" .Rosebud حاول بارني الفرار منها، ولكن "روزبَد" كانت أفضل منه قدرة على الإبحار وتعدته ببطء حتى بات في مرمى مدافع "روزبد" من طراز لونج توم. وهنا توصل القبطان دنكان Captain Duncan والقبطان بارني إلى اكتشاف. فلم يكن في سفينة بارني مدافع في المؤخرة، وبذلك لن يمكنها الرد على نيران الإنجليزي، وكان كل ما على "روزبَد" أن تفعله هو الوقوف في الخلف وإحالة السفينة الأمريكية إلى قطع.

أمر بارني خلال الليل بعمل فتحة مدفع في مؤخرة السفينة ووضع مدفع عيار ستة أرطال في قمرته. كما أمر بتصميم ساتر من قماش الأشرعة وتثبيته لتغطية فتحة المدفع الجديدة. في صباح اليوم التالي بدأت "روزبَد" من جديد في إطلاق النار من الخلف وسمح لها بارني بأن تكون على مقربة شديدة منه. وفي اللحظة المناسبة أسقط الساتر وأخرج مدفعه وأطلق قذيفة على مقدمة الإنجليزي الواثق من نفسه. بل إن ما جعل الأمور أشد إزعاجًا أنه بدلاً من حشو مدفعه عيار الستة أرطال بالذخيرة التقليدية، حشر فيه العتل. وكانت النتيجة مأساوية. فقد قتل أربعين رجلاً، وطارت الأشرعة، وأُصيب صاري "روزبَد" إصابة شديدة جعلتها توقف المعركة لتنجو بنفسها، بينما مضى بارني إلى بوردو لبيع تبغه(١٦) .

الحادثان الآخران اللذان شارك فيهما بارني كان تدميره للسفينة "جنرال مونك" General Monk في عشرين دقيقة بالسفينة "هيدر ألاي" Hyder Ally، التي اعتبرت واحدة من ألمع المعارك البحرية في حرب ١٨١٢(١٧) ودفاعه عن واشنطن العاصمة، حيث أجبر الجيش البريطاني بكامله على أن يكون في وضع المدافع لمدة ست ساعات.

عاد بارني في مارس من عام ١٧٨٢ من إقامته التي دامت ثمانية عشر شهرًا في أوروبا وعلى الفور تولى قيادة "هيدر ألاي"، التي كان يجرى تحويلها في ذلك الوقت إلى سفينة حربية تحمل مدافع عيار ستة أرطال. وللمساعدة في الحصول على طاقم، كتب فيليب فرينو Philip Freneau قصيدة عن قائدها الجديد؛ وسوف يكتب بعد ذلك بقليل قصيدة أخرى عن عملها الرائع(١٨) .

بدأت فى الثامن من أبريل مرافقة ثمان سفن تجارية فى البحر قبالة ديلاوير كيبس Delaware Capes . ولسوء الحظ غيرت الريح اتجاهها ورسا الأسطول داخل الكيبس. وهناك اكتشفته الفرقاطة "كيبيك" Quebec التى لم تستطع الوصول إليه بسبب غاطسها العميق. وبناء على ذلك صدرت الأوامر إلى القبطان روجرز Captain Rogers على السفينة "جنرال مونك" (وكان اسمها فى الأصل "جنرال واشنطن" قبل الاستيلاء عليها وإعادة تسميتها)، وهى فرقاطة تحمل عشرين مدفعًا عيار اثنى عشر رطلاً وطاقمًا يضم ١٢٠ فردًا، بمهاجمة الأسطول بمساعدة بعض سفن المجهود الحربى. وكان روجرز معروفًا باعتباره ضابطًا رائعًا، حيث استولى على أكثر من ستين غنيمة بحرية وهزم فرقاطة أمريكية. كما أن أطقمه كانت مدربة تدريبًا جيدًا.

رفضت اثنتان من سفن المجهود الحربى الإنجليزية الانضمام إلى ذلك العمل، وميزت أخرى نفسها، وهى "فير أمريكان" Fair American، بالجنوح. شن روجرز هجومًا على "هيدر ألاى" بمفرده عازمًا على الاقتراب منها. وفى تلك الأثناء وقف بارنى عند البوصلة وأصدر تعليماته إلى ماسك الدفة بأن يردد أوامره ثم ينفذ عكسها.

حين كانت "جنرال مونك" قريبة صاح بارنى "در بشدة إلى اليسار" فأدارها ماسك الدفة بشدة إلى اليمين. إلا أنه حين سمع روجرز الأمر، أصدر أوامره إلى ماسك دفته بالتعديل كى يتعامل معها وفوجئ بوجود "هيدر ألاى" فى مواجهته. وقبل أن يتمكن روجرز من عمل أى شىء، كان الأمريكى قد حبس البريطانى فى زاوية يمكنه فيها الاستفادة من مدافعه. وبعد ذلك تقدمت السفينة الأمريكية لتمطرها بقذائف عشرين مدفع جانبى خلال ست وعشرين دقيقة؛ وهو عمل رائع حتى بالنسبة لطاقم محنك. وبعد أن خرقت الطلقات القبعات والمعاطف، ظل بارنى فى موقعه عند البوصلة وفى يده سيف إلى أن أصابت طلقة مستديرة مكمنه وأوقعته. وفى نهاية الدقائق الست والعشرين بدأت "جنرال مونك" هجومًا أسفر عن مقتل وجرح ثلث أفراد الطاقم. وبعد ذلك رفع بارنى الأعلام البريطانية على السفينتين، وبذلك خدع السفينة "كيبيك" وقتًا طويلاً يكفى للسماح له بأن ينسل من أمامها مع غنيمته، وعاد جوشوا بارنى إلى فيلادلفيا واستقبل استقبالاً حارًا(١٩) .

وقع عمل بارنى الأخير على البر خلال حرب ١٨١٢ ، وكان البريطانيون قد بدءوا مسيرتهم التى انتهت بحرق الكابيتول(*) Capitol . وكان الجيش البريطانى قد انكسر وفر فى فزع تاركًا الطريق مفتوحًا أمام واشنطن. مر البريطانيون من مدينة بلادنبرج Bladenburg الصغيرة حيث كان الحر القائظ هو الشىء الوحيد الذى يزعجهم. وعلى بعد ميل تقريبًا خارج المدينة كان هناك تل ينتظرهم فوقه جوشوا بارنى وخمسة مدافع بحرية وستمائة رجل. وكما حدث فى موضوع "هيدر ألاى"، كشف بارنى نفسه، وكان فى تلك المرة على صهوة جواد لعدم وجود صندوق بوصلة. ورغم جرحه الشديد فى فخذه - وهو الجرح الذى أدى إلى وفاته بعد ذلك فى بتسبرج - رفض النزول من على جواده إلى أن قُتل الجواد تحته.

لم يكن بالإمكان زحزحة الستمائة رجل والخمسة مدافع، وأوقف الهجوم على واشنطن بعد ست ساعات. وأخيرًا انهار القائد بسبب فقدان الدم، ونفاد الذخيرة، وأجبر البحارة على الاستسلام.

من الغريب إلى حد كبير أن ما حدث من أمر العتل ظل باقيًا فى التراث الشفاهى، بينما نسى العامة والمؤرخون بصورة كبيرة الأحداث الأخرى التى ارتبط بها بارنى؛ فى الوقت الذى تذكروا فيه رجالاً أقل قدرًا مثل ديفى كروكيت Davy Crockett وإيثان ألن.Ethan Allen (٢١) .

إذا كانت أعمال كتلك التى ذكرناها قد دُفنت فى تراب الزمن، فإننا سوف نتوقع أن يحدث ذلك لرجال أقل قدرًا، غير أن هذا ليس هو الحال. فعلى امتداد الساحل الشرقى كله ترك قادة سفن المجهود الحربى أثرًا قليلاً ولكنه اتسم بالقوة. ففى مين هناك الأماكن التى سبق ذكرها وهى بنكرز كوف وبنكرز ليدج وذا بنكر وبنكرز هو. ويمكن أن نضيف إلى هذه الأماكن موريس ميستاك Morris' Mistake وباونز ليدج Bowen's Ledge؛ وجميعها أسماء مشتقة من أيام قيادة سفن المجهود الحربى ولا تزال الحكايات تروى عنها.

(*) المبنى الذى يضم مجلسى الشيوخ والنواب فى العاصمة الأمريكية واشنطون (المترجم) .

على خلاف بارنى وريد وغيرهما ممن جاء ذكرهم للتو، يبدو أن القبطان بنكر Captain Bunker ركز طاقاته على طول ساحل مين. فهناك كان يمكنه الاختباء خلف إحدى الجزر القريبة ويَنْقَض على السفن التى تسير بمحاذاة الشاطئ أثناء مرورها. وكان المكان المفضل لديه خوراً مخفيًا صغيراً فى جزيرة روك Roque Island. وحين كان ينتظر مرور سفينة، أو كانت تطارده سفينة حربية، كان يلقى مرساته فى ذلك الخور ويجعل مؤخرة سفينته تجاه الشاطئ. وكان يربط أشجار الصنوبر فى صاريه ويظل مختبئًا تمامًا بحيث تمر السفن البريطانية على بعد بضع مئات من الياردات دون كشفه. ويبدو أن حيلة ربط أوراق الشجر فى الصوارى والعوارض كانت كثيرة الشيوع، ذلك أنها كانت تُمارَس فى أماكن كثيرة. ويقال إن دريك كان يمارسها فى دريكس بول Drake's Pool بالقرب من كروسهيفين Crosshaven بأيرلندا، ويقال إن أسطولاً إنجليزيًا اختبأ من الفرنسيين بوضع النخيل على صواريه بينما كان راسيًا فى خليج ماريجوت Marigot Bay فى سانت لوشا. (ويبدو أن حقيقة وجود مكان بالكاد لفرقاطتين فى ذلك الخور لم تخطر ببال أحد.)

كان أعظم أعمال بنكر، والعمل الذى منحه تلك المكانة الأسطورية بين العامة، هو استيلائه على سفينة إمداد بريطانية. فقد كان الناس فى جزيرة ماونت ديزرت Mt. Desert Island أقرب ما يكونون إلى الموت جوعًا، بسبب الحصار الشديد الذى فرضه البريطانيون أثناء الثورة. وجنوبياً فى تينانتس هاربر Tenants Harbor، على مسافة نصف يوم من الإبحار إلى الجنوب الغربى، كانت توجد سفينة بريطانية مكدسة بالطعام. وفى عشية عيد الميلاد أخذ الثلج يتساقط، وجاء بنكر من داخل العاصفة الثلجية (فى قارب صغير ومعه مساعد واحد) ليخرج سفينة الإمداد عن طريقها ويبحر بها إلى ماونت ديزرت؛ حيث وصلت عشية عيد الميلاد وأمدت الجزيرة كلها بعشاء عيد الميلاد، ووجبات عشاء طيبة كثيرة بعد ذلك(٢٢) .

كثيراً ما كان يبدو لى أن التعريف الوافى للقرصان هو أنه خائن ناجح، والعكس صحيح. وتصدق العلاقة ذاتها بين قائد سفينة المجهود الحربى والقرصان. وبالطبع فإن القرصان على وجه الدقة شخص يهاجم كل السفن. غير أن الأمر فى حقيقته ليس كذلك. فقد كان السير فرانسيس دريك قرصانًا فى رأى الأسبان. وفى عام ١٩٢٦

سمي جون بول جونز "قرصانًا" في "الموسوعة البريطانية" التي كانت مطبوعة بريطانية في ذلك الوقت. في الوقت الذي نجد فيه أن هنري مورجان Henry Morgan، ذلك القاتل المصاب بالذهان الذي مارس القتل بكل طريقة يمكن تصورها ضد جنس بشري بكامله، فقد حصل على لقب سير من خلال الاستخدام الحكيم للثروة التي جمعها بالتعذيب والاغتصاب. وقد خفف من وطأة أيام تدهوره بشنق أصدقائه وزملائه وشركائه السابقين الذين لم يكن قد شنقهم بالفعل أو سممهم أو أغرقهم أو قتلهم طعنًا أو بالرصاص أو سحقهم أو ألقاهم على ساحل مهجور أو حرقهم[٢٣] . ومن ناحية أخرى أُعلن وكيل قبطان السفينة "كويدا ميرشانت" Quedah Merchant قرصانًا وقُسِّمت حمولة سفينته بين أعيان ماساتشوستس لتغطية تكاليف محاكمته. وقبيل شنقه حذر الناس من الذهاب إلى بوسطن ومعهم الكثير من المال "خشية أن يشنقوا بسببه". وأخيرًا وبعد مائتي عام اكتُشف أن واحدًا من أسوأ القراصنة جميعًا سمعة كان في واقع الأمر قائد سفينة مجهود حربي بريء شُنق لأنه تعثر في بعض المؤامرات السياسية المحيِّرة. وكان اسمه الحقيقي هو ويليام كيد، إلا أنهم غيروه بعد وفاته إلى روبرت كيد.

كان المفهوم الشائع الخاص بكيد بالنسبة لتلك الفترة هو أنه ملحد، وقاتل، ورجل يستولي على كل السفن في أعالي البحار، وأنه جمع ثروة ضخمة مدفونة في مكان ما (ستأتي المناسبة للتحدث عن ذلك لاحقًا). وربما كانت أحسن طريقة لقياس حجم صورته في عيون العامة هي انتقاء اقتباسات من بعض ما كتب عنه ولا يزال يتسم بالشعبية والفُحش والهجوم.

**اسمي روبرت كيد، حين كنت أبحر، حين كنت أبحر.**

**اسمي روبرت كيد، حين كنت أبحر.**

**اسمي روبرت كيد، إني أمنع قوانين الرب**

**وارتكبت الكثير من الشرور.**

... أبواى علمانى جيداً أن أتحاشى أبواب الجحيم
ولكنى تمردت عليهما ...

... كنت أمسك فى يدى الكتاب المقدس تطبيقًا لأوامر أبى.
إلا أننى دفنته فى الرمال...

... قتلت ويليام مور، وأودعته قبره.
على بعد أميال ليست بالكثيرة من الشاطئ...

... ولكونى قاسيًا فقد قتلت بعد ذلك أيضًا ضابط مدفعيتى
وسال دمه الغالى...

... أصاب وكيلى المرض ومات مما أرعبنى كثيراً
حين دعانى إلى جواره ...

... مرضتُ وكنت على شفا الموت حين أقسمت بكل نفس
أن أسير على نهج يسوع ...

... لم تستمر توبتى طويلاً وسرعان ما نسيت قسمى
فالجحيم هو نصيبى العادل...

... راقبت ثلاث سفن من أسبانيا وأطلقت النار عليها بكل قوة
حتى قتل معظم من فيها ...

... كان لدى تسعون سبيكة من الذهب والكثير من العملات الذهبية
وثروات لا حصر لها ...

... وأخيرًا تغلبوا عليَّ وألقوا بى فى السجن
وصدر الحكم ولابد أن أموت.

... والآن إلى منصة الإعدام حيث يتجمع الآلاف
وسوف يسخر الكثيرون هناك، ولابد أن أموت.

... وهكذا أموت معلقًا فى حبل لأكون مع كل أصدقائى فى أسفل سافلين
حيث يقولون هذا ما وعدناك به يا بيل ...

... فتعالوا جميعًا صغارًا وكبارًا، وأهلاً بكم إلى ذهبى،
فبسببه فقدت روحى ...

... خذوا منى النصيحة الآن ولتتحاشوا سوء الصحبة
وإلا ذهبتم معى إلى الجحيم...[٢٤]

الواقع أن قصة القبطان كيد الحقيقية قصة مأساوية. فلأنه كان قبطانًا مخلصًا وكفئًا وشجاعًا، فقد اختاروه قبطانًا للسفينة "فنشر جالي" Venture Galley والخروج لمطاردة توماس تيو Thomas Tew، وهو صديق وشريك سابق أُعلن قرصانًا وكانوا يعتقدون أنه على مقربة من مدغشقر. وفي الطريق كان مفوضًا بالاستيلاء على السفن المملوكة لأعداء إنجلترا التي يجدها في طريقه. وكان إيرل بلمونت Earl Belmont أحد رعاته في تلك المغامرة، وكان الإيرل يأمل في الحصول على بعض المال.

كانت رحلة كيد منحوسة منذ بدايتها. فلكي يجمع طاقمًا، اضطر للذهاب إلى السجون قبل أن يجد الرجال الذين يديرون سفينته. ولم يمض على وجوده في البحر وقت كبير حتى حدث تمرد بقيادة عريف الملاحين واسمه مور Moore . وضع مور على رأسه دلوًا صغيرًا من خشب البلوط قيمته ستة شلنات. سقط مور في كوة مفتوحة وقُتل. وبعد ذلك قابل أسطولاً من سفن تملكها شركة الهند الشرقية. ولكي تزيد الشركة من أرباحها، أجّرت تلك السفن للعدو وكانت تقوم بأعمال مزدهرة تحت العلم الفرنسي. وحين علم كيد هويتها استولى عليها باعتبارها سفنًا معادية، وهي الضربة التي جعلته ثريًا، وقللت أرباح شركة الهند الشرقية وهددت بفضح الشركة ومؤيديها في أسوا الظروف.

في النهاية عاد كيد إلى نيويورن في رود آيلاند. وهناك علم أنهم أعلنوه قرصانًا، إلا أنه أخبر الحاكم بولومونت Bollomont في بوسطن بوصوله، مدعيًا إخفاءه سفينة محملة بالبضائع في جزر الهند الغربية وأن معه حمولة كبيرة من الذهب. وعده بولومونت بالمساعدة إن هو سلَّم التصاريح الفرنسية التي أخذها من السفن الهندية والذهب. وحينئذ غادر كيد نيويورن، ولكنه عاد بعد ثلاثة أيام بسفينة فارغة وسلم نفسه والتصاريح الفرنسية للحاكم.

تغير موقف بولومونت من كيد حين وُضع في الحبس. وخلال بضعة أيام وجد نفسه في السجن، ثم مكبلاً بالحديد. وفي ذلك الظرف نُقل إلى سجن نيوجيت Newgate Prison في لندن وفي النهاية حاكموه بتهمة قتل ويليام مور. وكان هذا العمل في زمن كيد لا يعتبر عملاً يستحق اللوم، إلا أنه صدر ضده حكم مستعجل وبعد ذلك حاكموه

على القرصنة، ومرة أخرى صدر الحكم بسرعة. وكان كيد قد أقام دفاعه على أساس التصريحين الفرنسيين اللذين أعطاهما لبولومونت، ولكن حين بدأت محاكمته كان التصريحان قد اختفيا، وبدا فقط أن كيد يعرف شيئًا عنهما وحسب.

لم تكن فضيحة كيد قد اكتملت بعد. ففي ٢٣ مارس من عام ١٧٠١ اقتيد إلى منصة الإعدام حيث أعدموه هو وستة من رفاقه. في المحاولة الأولى انقطع الحبل وسقط البائس على الأرض. جاءوا بحبل آخر أثبت أنه متين بالقدر الكافي. وقد شُنق كيد وتُرك معلقًا إلى أن مرت ثلاثة عقود تحت جثته، وذلك قبل أن تتخلص رفاته من الحبل وتوضع في قفص من الحديد. وبعد ذلك علِّق ليكون عبرة لغيره كي يحيوا حياة تتسم بالحكمة والعقل. وكان لا يزال متأرجحًا حين زار بنجامين فرانكلين(*) Benjamin Franklin لندن بعد ذلك بسنوات، ولا تزال ظلال حياته، الحقيقي منها والخيالي، بمثابة نماذج لما يفعله الأشرار من أجل الشهرة والثروة. بل إنه حتى التصريحان الفرنسيان حين اكتُشفا بعد مائتي عام لا يمكن أن يفيدا سمعته كثيراً، ذلك أن وسم القرصان موجود عليه بقوة بحيث لا يمكن إزالته بالحقائق البسيطة(٢٥).

وكان نِد لو Ned Lowe، ذلك القرصان الذي ازدهر في أعقاب موت كيد، شخصية مختلفة تمامًا. ويبدو أنها كان كارهًا للبشر ويكُّن قدراً خاصاً من الكراهية للتطهريين(**) Puritans. وكان كلما أمسك بأي من هؤلاء التعساء يريه من العذاب صنوفًا. فقد كان يقطع آذانهم وأنوفهم شرائح، ويشويها أمام أعينهم ويجعلهم يأكلونها.

وبدلاً من أن يذهب لو في رحلة كبيرة إلى أفريقيا أو ما وراءها، رضي بأعمال القرصنة من جزر الهند الغربية إلى جراند بانكس في نيوفاوندلاند. ولذلك كان معظم نشاطه محصوراً في صيادي السمك أو التجار البسطاء وكانت غنائمه صغيرة. ومع ذلك فقد كانوا يخشون بأسه أكثر من أي قرصان آخر بسبب ما ارتكبه من فظائع.

(*) موظف عام وكاتب وعالم وصاحب مطبعة أمريكي (١٧٠٦-١٧٩٠) كان له دور في الثورة الأمريكية وتفاوض مع فرنسا على دعم المستعمرات وشارك في وضع الدستور الأمريكي (المترجم).

(**) جماعة من البروتستانت الإنجليز كانت تدعو في القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى التمسك بمبادئ الدين المتشددة، إلى جانب تبسيط مراسم كنيسة لندن وعقيدتها (المترجم).

وفى النهاية تخطى حدوده باستيلائه على سفينة من بلوك أيلاند فى رود أيلاند وتقطيعه أوصال أفراد الطاقم قبل أن يضعهم فى قارب النجاة ويتركهم بلا مجاديف أو شراع أو زاد. وفى تلك الفترة كانت رود أيلاند - "موئل الأصحاب والمعمدانيين" - تعد محصنة ضد هجمات القراصنة، حيث كان التعامل فى بضائعهم المحظورة يجرى هناك، وكان يعيش فيها الكثير من القراصنة - من أمثال توماس تيو والأيرلندى والإنجليزى وويليام أفيرى William Avery- وإلى هناك ذهب كيد، لأنه كان يعلم أن السلطات لن تزعجه.

وبدلاً من أن يختفى قارب الصيد بطاقمه مقطع الأوصال، عُثر عليه وعلا ضجيج الاحتجاج. هرب لو ليلقى بعد ذلك رجاله على شاطئ مهجور، إلا أن ستة وعشرين من أفراد طاقمه أُحضروا إلى نيوبورت حيث حوكموا وأدينوا وشنقوا على جزيرة جوت Goat Island بين أعلى درجات المد وأدنى درجات الجزر.

كانت الحكاية لا تزال تُروى على امتداد الواجهة البحرية فى القرن الحالى على أن هؤلاء الرجال الستة والعشرين رمز للشر. فقد ألقى القبض على ستة وعشرين رجلاً، وجيء بهم، وحوكموا وأدينوا بالقرصنة، وصدرت ضدهم أحكام بالشنق. وبعد ذلك وضعوا فى الحبس مكبلين بالحديد وعليهم أقفال مزدوجة. وفى الليلة السابقة للإعدام كان هناك ستة وعشرون سجيناً، ولكن حين جاء الحرس ليأخذوهم، كان هناك خمسة وعشرون فقط. ولم يفتح الباب ولا النافذة عنوة، غير أنه كانت هناك رائحة غريبة للكبريت والدخان فى أنحاء الحبس!"(٢٦).

لم يكن القراصنة كثيرين فى مياه أمريكا الشمالية فحسب، بل كذلك فى أوروبا والجزر البريطانية. وكان أحدهم ألمانياً اسمه شتورتبيكر Stoertebeker . وكان يمارس عمله بجد واجتهاد فى بحر الشمال وبحر البلطيق، غير أن حكايتين ترويان عنه مازالتا موجودتين فى جرينادا(*) . حين ألقى القبض عليه فى نهاية الأمر، ومعه طاقم بالكامل، حوكموا وصدرت ضدهم أحكام بقطع رءوسهم. وكما هى العادة فى ذلك الوقت، أبلغ

(*) تقع جزيرة جرينادا ضمن مجموعة جزر وينورد فى جزر الهند الغربية (المترجم)

القاضى شتورتبيكر أن من حقه طلب واحد قبل أن يموت وأن الطلب سوف يُجاب. وكانت رغبة الربان غير عادية. إذ طلب أن يصطف أفراد طاقمه، وأن يقطع رأسه وهو واقف، وأن يطلق سراح كل الرجال الذين يمكنهم الجرى من أمامهم بعد أن تهوى بلطة الجلاد على رقبته.

فى اليوم الموعود اصطُف أفراد الطاقم وفُصل رأس القبطان عن جسده. ترنح الجذع الخالى من الرأس الذى كان الدم ينبجس منه أمام أربعة عشر من أفراد الطاقم قبل أن يسقط فى النهاية على الأرض.

كانت السلطات قد جربت قبل موته كل ما تعرفه من السبل لاكتشاف المكان الذى خبأ فيه كنزه، ولكن أيًا منها لم يفلح. وبعد موته بحثت عنه دون جدوى. فلم يكن هناك شىء على متن سفينته، ولم تكن هناك خريطة أو دليل يرشد إلى مكانه على وجه التقريب. وأخيراً حين حطمت سفينته عُثر على الذهب داخل الصوارى(٢٧) .

تتجاوز المعايير التى يختار بها العامة الأشياء التى يحتفظون بها فى ذاكرتهم الفهم. فهم يحتفظون بـ"صاح النادل بأعلى صوته فى القاعة /نحن لا نقدم الخبز مع كرة سمك واحدة" بنفس السهولة التى يحفظون بها "سوف تهب الريح خلال عظامه للأبد". والتفسير المنطقى الوحيد هو أن الحدث أو الشخص الذى يتحدثون عنه كانت له فى ذلك الوقت صلة بظروف ذات أثر عاطفى ضخم. وعلى مر السنين كانت بيئة الحدث تُنسى ويبقى الشعر الركيك المسطح. وهذا هو حال حكاية قرصان لوخ بوسديل، التى يعد سبب بقائها فى حين نُسيت حكايات أخرى لغزًا كبيراً.

تقع عند المدخل المؤدى إلى لوخ بوسدال فى ساوث ويست جزيرة صغيرة تسمى كالفاى Calvay . وإذا ما رسا أحد هناك فإنه يجد آثار حصن قديم شيده إيان بريخت Ian Brecht إيان الأرقط؛ "وهو مصطلح يستخدم عادة لوصف البقر، إلا أن هذا الشخص كان قد نجا من الموت بالجدرى" وهناك عاش مع أفراد طاقمه، وكان الكل فى الجزر مرعوبًا منه. وفى يوم من الأيام غادر جزيرته وذهب إلى الجزيرة الرئيسية للتمشية. وفى النهاية وصل إلى مكان لطيف على الطرف الجنوبى من الجزيرة وجلس فى واد صغير وراح فى النوم.

كانت هناك امرأة عجوز ترعى الماشية ولاحظت القرصان وقد غفا في الوادى الصغير. وكان فوقه على بسفح التل جلمود ضخم. زحفت المرأة إليه ودفعته دفعة قوية. تدحرج الجلمود على التل وسحق القرصان حيثما كان نائماً. وهكذا فعلت امرأة عجوز ما عجز عن القيام به سائر المجتمع. "وحتى يومنا هذا مازال هذا المكان يسمى "وادى بريخت"(٢٨) Brecht's Hollow .

تدور سلسلة من الحكايات الأكبر حجمًا حول شخصية قرصان آخر. هذا القرصان امرأة كانت تقيم في غرب أيرلندا اسمها جريس أومالى Grace O'Malley، ولكن اسمها الشائع هو جرانا ويل Grana Weil ( ويكتب كذلك Granny Wale و Granua ile ) ملكة الغرب أو "قرصانة البحر الكبرى".

القرصانات غير معروفات بالطبع. وكانت القرصانتان الشهيرتان هما مارى ريد Mary Reed وآن بونى Anne Bonney ؛ وكلتاهما من نساء الشوارع وتحولت إلى قرصانة من أجل معيشة أفضل، حيث أفلحت في ذلك لبعض الوقت. وقد شُنقت مارى ريد، أما آن بونى فقد حُكم عليها بالشنق ولكن التنفيذ تأجل لحين ولادة طفلها. وقبل أن يلتف حبل المشنقة حول رقبتها كانت قد حملت من جديد، ودأبت على ذلك وأنقذت حياتها. ويمكن قياس شخصيتها كأحسن ما يكون بحدث وقع في السجن. فقد حُكم على زوجها القبطان راكام Captain Rackhm بالشنق لممارسته القرصنة، وكانت أمنيته الأخيرة أن يرى زوجته. قالت له آن بونى: "لو حاربت كرجل ما كنت لتشنق ككلب"(٢٩) .

هناك جانبان في حياة جريس أومالى؛ وهما الجانب التاريخي والجانب الذى حُفظ من خلال التراث الشفاهي. ويستحق الأمر الاهتمام بالجانبين لكى نصل إلى فهم أفضل للطريقة التى يعمل بها العقل الشعبى في خلق الأسطورة. وبما أن الجانب التاريخي هو الأكثر إيجازاً، فإنه يدوّن أولاً مع التعليق من حين لآخر.

يقول البحث العلمى إنها ولدت على جزيرة كلير Clare Island في عام ١٥٣٠ لأبيها دوبدارا (البلوطة السوداء) أومالى Dubhdara O'Malley وهو لورد من منطقة في

كوناخت(*) Connacht تعرف باسم "ذى أولز" The Owles. وبينما كانت لا تزال فتاة صغيرة تسلقت صخرة وقتلت أفراخ النسر الذى كان يتحرش بالأغنام التى على جزيرة والدها. وأثناء الصراع مع الطيور فى عشها أصيبت بجرح شديد فى جبهتها ظل أثره باقيًا عليها بقية حياتها(٣٠) .

تزوجت جريس فى عام ١٥٥٠ دونالد أوفلارتى Donald O'Flaherty الذى قُتل فى معركة على جزر أران Aran ـ بعد أن أنجبت له جريس ثلاث أطفال كان أحدهم اسمه مورو Murrough ـ وكان قد شيَّد حصنًا. وبعد وفاته تزوجت رجلاً يدعى بيرك Burke اشتهر باسم أيرن ديك Iron Dick وكان له هو الآخر حصن صار من أملاك أرملته بعد وفاته. وقد أنجبت أطفالاً من بيرك كذلك، كان أحدهم اسمه تيبوت السفائنى Tibbot of the Ships وقد ولد فى البحر.

كان لجريس اهتمام شديد بالحصون والسفن، حيث جمعت من السفن ما يكفى لأن يكون لديها أسطول وأن تمتلك معاقل عديدة، ورثتها بالزواج أو شيدتها بنفسها. ومن بين العديد من المعاقل شيدت واحداً فى أينشبوفين لحماية أسطولها الذى كانت تحتفظ به فى ميناء هناك. وظلت تلك المرأة التى تنتمى لعائلة أومالى زمنًا طويلاً "قوية فى البحر والبر" وبذلت ما فى وسعها للمحافظة على سمعتها. وطبقًا لما نكره ويليام أوبريان William O'Brien، فإن هذه السيدة "اللطيفة الفاتنة" (رغم أثر الجرح الذى فى جبهتها وحياتها الطويلة فى البحر) كانت قد ولدت ابنها تيبوت حين هاجمتها سفينة تركية. وعلى الفور غادرت فراش ولادتها واندفعت إلى السطح، وفى كل يد من يديها بندقية قصيرة وأبعدت العدو(٣١) .

بعد حياة طويلة من الحرب، بعضها باعتبارها قرصانة، والبعض الآخر ضد إنجلترا، تقاعدت من مهنة الطواف وذهبت لزيارة الملكة اليزابيث Queen Elizabeth وكان ذلك فى عام ١٩٥٣ ، فى ذلك الوقت كان أطفالها وشقيقها فى أيدى الإنجليز، وقدمت نفسها باعتبارها امرأة معدَمة ومفلسة بينما رفعت دعوى لإطلاق سراح عائلتها

(*) فى الغرب الأوسط من أيرلندا (المترجم)

والمطالبة بمعاش لها. استجابت اليزابيث جزئيًا على الأقل لمطالبها وأشارت إلى جريس باعتبارها "امرأة عجوز" (ولكنها كانت أكبر من اليزابيث بثلاث سنوات فقط). ولكن بما أن الإحسان لم يكن قط من شيم الملكة، فهناك شك فى أن جريس أومالى كانت من البؤس بالقدر الذى ادعته، وإلا فإن اليزابيث ما كانت لتعطيها شيئًا.

عند عودتها عاملها أصحاب حصن هاوث Howth بعدم احترام فانتقمت لنفسها باختطاف الوريث. وأخيرا أصبح ابنها تيبوت أمير الإقليم. كان هذا هو الجانب التاريخى، أما الذاكرة الشعبية فهى ما يلى[٣٢].

هناك قول فى غرب أيرلندا معناه أن القانون كله ملك للرب وعائلة أومالى، والرب ليس موجودًا دائمًا. وكانت ابنة البلوطة السوداء فرعًا من الشجرة بالفعل.

ولدت جريس فى البحر وأصيبت وهى طفلة بجرح شديد فى جبهتها بينما كانت تقتل مجموعة من النسور المغيرة التى كانت تخطف الأغنام من على جزيرة كلير. وبعد أن شُفيت من هذا الجرح حاولت الخروج للبحر مع والدها، وعندما رفض تنكرت فى هيئة صبى وذهبت معه. وبعد أن أصبحوا فى عرض البحر كشفت عن هويتها وأبلت بلاء حسنًا مما جعله يسمح لها بالذهاب معه بعد ذلك. (حين ندرك أن تلك الطواقم كانت تتكون فى الغالب من أفراد الأسرة، سرعان ما تصبح هذه الحكاية موضع شك.)

قُتل زوجها الأول دونالد أوفلارتى فى هجوم على جزر أران، إلا أنه كان لها من بعده سلسلة من الأزواج انتهت حياتهم جميعًا فجأة وقبل الأوان، ولكن ليس قبل كتابة وصاياهم التى تجعل أملاكهم من حق جريس. أحد هؤلاء الأزواج، واسمه بيرك، تزوجته بعد أن وافقت على جعله سيد الحصن فى جزيرة كلير بعد فترة متفق عليها. ولكن قبل أن يحين الموعد المتفق عليها أكل بيرك شيئًا لا يتفق معه وأصبحت هى سيدة حصنه فى أكيلبيج Achillbeg المقابل لحصنها فى كلير.

كانت تلك الحصون التى آلت إليها الواحد تلو الآخر تمتد على مساحة كبيرة على ساحل البحر. وكان كل منها يقع على مرأى من الآخر. وفى حال وقوع هجوم ضدها فى أية نقطة من جزيرة أران فى الجنوب تقريبًا إلى جزيرة تورى فى الشمال، كانت نار

الإنذار توقد ويراها الحصن التالى الذى يوقد ناره. وخلال بضع دقائق يكون الساحل كله مشتعلاً. وكانت النيران تُرى من كلير وتندفع سفن جريس ـ التى كانت من القوة بحيث لم تكن الملكة اليزابيث ترغب فى المشاركة فى مهاجمتها ـ للإنقاذ.

أنجبت جريس العديد من الأطفال من أزواجها المختلفين؛ وقد وُلد أحدهم فى البحر وأسمته " Mweedn طفل البحر"، وعاش طبقًا لما قاله الإخبارى حتى أصبح "أميراً عظيماً". إلا أنه لا يبدو أنها كانت أمًا نموذجية. فذات مرة حين كانت تنتقل فى قارب كبير من الحصن الذى فى أكيلبيج إلى ذلك الذى فى كلير، هبت عاصفة وأصبح البحر هائجًا جداً. سقط أحد أبنائها من بيرك فى الماء، إلا أنه أمسك بحافة القارب وبدأ يسحب نفسه ليعود إلى القارب. وسواء أكانت تؤمن بالقول القديم الخاص بـ"ما يريده البحر" أم كانت تخشى أن يقلب المركب الضعيف، أم كانت لديها سبب آخر غير معروف، ولكن ما إن أمسك بحافة القارب حتى قطعت يده. فقال الشاب المذهول "ولكننى كنت عائداً إلى القارب وحسب". فقالت أمه "لو كنت بحق من عائلة أومالى لما سقطت من على القارب فى البداية"، وابتعدت بالقارب تاركة الشاب مبتور اليد يغرق أو ينزف حتى الموت.

وإذا كانت أقسى على أطفالها من معظم الأمهات، فقد كانت مقاتلة بَحَرية أفضل من معظم الرجال. وتحكى إحدى القصص كيف هزمت القرصان الأسبانى دون بوسكو Don Bosco من أينشبوفين، وتزعم حكاية أخرى أنها استولت على أسطول أسبانى قبالة كلير. ومن الصعب إثبات إن كانت جرانا ويل فعلت تلك الأشياء أم لا، ولكن الممكن مطابقة الحقائق التى وراء الحكايات. إذ يقوم حصن أوليفر كرومويل(*) Oliver Cromwell على موقع الحصن الذى شيده بوسكو، الذى لا يعرف عنه سوى أنه كان "قرصانًا أسبانيًا". والحقيقة المعروفة كذلك هى أن بعض سفن الأرمادا(**) Armada المحطمة

(*) شخصية عسكرية وسياسية ودينية إنجليزية (١٥٩٩-١٦٥٨). حقق انتصار البرلمان فى الحرب الأهلية الإنجليزية ودعا إلى إعدام الملك تشارلز الأول وحكم إنجلترا باعتباره دكتاتوراً فعليًا فى الفترة من ١٦٥٣ حتى ١٦٥٨. (المترجم).

(**) الأسطول الذى أرسله الملك فيليب الثانى عاهل أسبانيا لمحاربة إنجلترا فى عام ١٥٨٨ وهزمته البحرية الإنجليزية فيما بعد ثم بعثرته العواصف وحطمته (المترجم).

مـرت من أمـام كلير، وأن إحـدى السـفن غـرقت هـناك، وأن عـائلة أومـالى قـتلت مـئـات الأسـبـان، إلا أنه مـن الصـعب إثبـات إن كـان ذلك كـان على يد جـرانـا ويل أو دودارا أومالى أم لا[٣٣] .

ربما تحقق أعظم انتصاراتها في معركة مع الأسبان قبالة جزيرة شارك بالقرب من أينشـبوفـين. كانت جرانويل لم تعد صـغيـرة وأصـابها التـعب وأوت إلى فراشـها وأرادت أن تنام. كانت المعركة خارج قمرتها قد استعرت وبدأت الغلبة تكون للأسبان. وحين بدا أن الأمور ميئوس منها، أسرع أحد أفراد الطاقم الأيرلندى إلى القمرة وأيقظ قـائدتـه. ومـا إن سـمعت جريس مـا آلت إليـه الأحداث حتـى استلت سيـفها وغدارتها واندفعت إلى سطح السفينة فى قميص نومها وقد تهدل شعرها الرمادى على ظهرها. رأى أسـبـانى، لم يكن يعلم أن هنـاك امرأة على مـتن السـفـينة، هذا الشـبح يحـيط به الدخان قادمًا نحوه وبيده سيف. نشر ذلك الإسبانى الذعر وألقى الأسبان، الذين كانوا مقتنعين أنهم يرون شبحًا، أسلحتهم.

انتشرت شـهرتـها فى الخارج وبلغت مسـامع اليزابيث التى دعتها على الفور إلى بلاطهـا. وهناك ثلاث حكايات تروى عن رد فـعلهـا. تقول إحـداها إنهـا رفـضت الذهاب على أساس أنها أعلى مكانة من اليزابيث. وتقول الحكاية الثانية إنها ذهبت وظهرت فى البلاط عارية حتى وسطها، مما أفزع الملكة العجوز إلى حد كبير. ولكن بما أنها كانت فى الثـالثة والستين فى ذلك الوقت، فمن غير المحتمل أنها وضعت سابقة فى الموضة.) وتقول الحكاية الثالثة إنها ذهبت إلى البلاط، ولأنها كانت فارعة الطول، فقد خططت لأن تضع نفسـها فى موضـع يجبر اليزابيث على أن تنظر لأعلى إليـها؛ الأمر الذى وجدته قاتلة أختها(*) العجوز مزعجًا للغاية.

تقول إحدى الحكايات (من بين حكايات كثيرة) إنها توقفت عند عودتها من زيارة اليزابيث عند حصن هـاوث بالقرب من دبلن لتناول الغداء. رفض البواب السـمـاح لها بالدخول لسبب مـا فانسـحبت سليلة أسرة أومالى غـاضبة. وبينما كانت تغادر الحصن

(*) تآمر المؤيدون إلى وضع مارى ملكة إسكوتلندا التى فرت إلى إنجلترا على العرش الإنجليزى، مما أدى إلى محاكمتها واضطرار الملكة اليزابيث على مضض للتوقيع على قرار إعدامها بعد تعرضها لضغوط شديدة (المترجم)

رأت طفلاً مع مربيته، وظنًا منها أن له صله بحصن هاوث، اختطفته وطلبت فدية للإفراج عنه. اتضح بعد ذلك أنه وريث الحصن، وحين رأى والداه عدم جدوى مهاجمة جريس أومالى فى معقلها، وافقا على دفع الفدية. كانت الفدية التى حصلت عليها جريس هى أن تظل بوابة حصن هاوث منذ ذلك الحين وللأبد مفتوحة وأن يكون هناك مكان إضافى على طاولة الطعام؛ وطبقًا لما قاله الإخبارى لا يزال هذان الأمران متبعين بإخلاص.

وبعد أن ماتت المرأة العجوز فى النهاية دُفنت فى جزيرة كلير ووضع شاهد قبر فى أعلاه مشكاة صغيرة وضعت فيها جمجمتها ويفترض أنها لا تزال موجودة حتى الآن. وخلال القرن الحالى قيل إن بعض العلماء الإنجليز وصلوا إلى الجزيرة لسرقة الرأس. وما إن دخلوا قاربهم حتى هبت عاصفة رهيبة. واستمرت العاصفة حتى عاد الجناة إلى الجزيرة وأعادوا الجمجمة إلى المشكاة.

انزعج أهل كلير انزعاجًا كبيرًا من ذلك العمل، ولكى يحولوا دون وقوعه مرة أخرى أخفوا رأس جريس أومالى وأحلوا محلها جمجمة طفل. واتضح بعد ذلك أنهم كانوا حكماء فى تصرفهم، ذلك أن مجموعة أخرى من الإنجليز سرقت الجمجمة وأخذتها إلى لندن. ومن الطبيعى أن البحر لم يبد أى اعتراض، ووضع السكان مجموعة أخرى من عظام الرأس فى المشكاة.

زادت مكانة هذه المرأة زيادة ضخمة فى غرب أيرلندا. ففى أينشبوفين يقولون إنها شرعت فى بناء حصن، وهناك كومة ضخمة من الأحجار المختلطة ببعضها يشار إليها على أنها بقاياه. ويفترض كذلك أنها مسئولة عن صدع طبيعى ضخم فى الجزيرة، حيث يقول أهل الجزيرة إنها حفرته لعمل قناة ولكنها توقفت عن ذلك فى الوقت الذى توقفت فيه عن بناء الحصن.

لا تزال جرانويل مؤثرة إلى حد كبير، ولكى أجرى حديثًا مؤدبًا يومًا ما فى جالواى **Galway**، سألت سائق التاكسى إن كان قد سمع شيئًا عن هذه المرأة الرائعة.

"جرانا ويل؟ هل تقصد الأم أيرلندا؟"

"لا، بل الأخرى."

"هل تقصد جرانا ويل ملكة الغرب، قرصانة البحر الكبيرة؟"

"نعم هى تلك. ماذا تعرف عنها؟"

"أعرف أنها كانت امرأة عظيمة جداً. فقد دعتها الملكة فكتوريا إلى يوبيلها الماسى وقد جاءت برداء ليس له نصف أعلى."

ولا يزال هناك الكثير من أسطورة جرانا ويل. وأنا أشير إلى كنزها، ولكن قبل الحديث عن هذا الجانب من حياتها لابد من ذكر بعض الكلمات عن الكنز بصورة عامة.

يرى الشخص العادى أن الكنز والقراصنة أمران لا ينفصلان عن بعضهما مثل لحم الخنزير المقدد والبيض. ولكن البحارة والعامة فى مجملهم يرون أن هذه ليست هى الصورة الكاملة. فهو إلى جانب كونه غنيمة القرصان، فهو "كنز" فى بعض الأحيان، وفى أحيان أخرى شىء لفظه البحر أو تسبب فى حدوثه؛ كالعنبر على سبيل المثال أو حطام سفينة غارقة محمل بالأموال أو أية سلعة قَيِّمة أخرى. ويعنى الكنز كذلك المال أو الأشياء القَيِّمة التى أخفيت بغرض حمايتها.

وحين ندرس مأثورات الكنز فإننا نكتشف على الفور أنها مقسمة تقسيمًا مرتبًا إلى أربعة أجزاء. أولاً: مأثورات كيفية الدفن وزمانه. ثانيًا: كيفية اكتشاف أمره. ثالثًا: كيفية الحصول عليه[٣٤]. رابعًا: ما هى نتائج العثور على الكنز. وكل من هذه الجوانب الأربعة له عدد من النماذج المقولبة المثيرة.

من بين الحكايات كافة نجد أن تلك الخاصة بالعنبر أكثرها قولبة. فالعنبر يكاد يُكتشف على الدوام دون أن يتعرف عليه أحد، وهو يُهدر ويُترك ليفسد، أو يؤخذ بالحيلة ممن عثر عليه. فقد حكى لى القبطان ايرلنج توبس **Erling Taubs** عن رجل عثر على مئات الأرطال منه على جزيرته فى المحيط الهادى وأطعمه للدجاج. وحين لم يتبق سوى أوقيه أو اثنتين اكتشف أنه عنبر. ويتذكر أهل بيكيا اكتشاف البعض منه، ولكنهم لم يتعرفوا عليه فى الحال وفسد. وفى نيو إنجلاند ألقى البحر بكتلة كبيرة على الشاطئ وأحرق معظمها السكان الذين لم تعجبهم رائحتها قبل أن يكتشفوا خطأهم. وفى رود

أيلاند عُثر على شيء منه وأُخذ إلى الصيدلاني الذى قال إنها فضلات سوف يتخلص هو منها توفيراً لعناء من عثروا عليها. وبعد ذلك بوقت قصير توقف عن خلط الوصفات وبدأ يعيش بطريقة ظل زمنًا طويلاً يشعر أنه لابد أن يحياها.

وفى أمريكا الشمالية هناك أعداد ضخمة من حكايات الكنز؛ وهى الحكايات التى تتناول الكنوز البحرية وكنوز قُطَّاع الطريق بعيداً عن المحيط. ومن بين القصص جميعًا هناك ثلاث حكايات هى أشهرها وأكثرها تشويقًا، وتلك هى حكايات كنز كيد وكنز لافيت **Lafitte** وكنز جزيرة أوك فى نوفا سكوشا.

حين أبحر كيد إلى نيويورت قال إن معه على متن سفينته كنز كبير من المعدن. وقال إن لديه كنز آخر من السلع القابلة للتلف هناك فى جزر الهند الغربية. وسوف نتذكر أنه غادر نيوبورت لمدة ثلاثة أيام وعاد بسفينة فارغة. ويفترض معظم الناس أنه دفن كنزه الثمين فى مكان ما وأنه لا يزال مخفيًا. وذُكر أن هذا الكنز موجود فى أماكن لا حصر لها من أوك أيلاند فى نوفا سكوشا إلى تشارلستون **Charleston** فى ولاية ساوث كارولينا. ليس هذا وحسب، بل من المفترض أنه مدفون فى مكان ما فى هدسون **Hudson** بين نيويورك وألبانى. وسمعت كذلك أنه دفنه فى شِعب من شعاب الجبال بالقرب من بريستول بولاية فيرمونت؛ وهى منطقة تبعد ثلاثمائة ميل عن البحر ولم يكن أحد قد استكشفها فى زمن كيد. وبين هاتين النقطتين البارزتين يحدد "المكان الدقيق" فى كل مكان يمكن تخيله خارج الطريق فى مين وماساتشوستش وورود آيلاند وكونيتيكت ونيويورك ونيوجيرزى ونوفا سكوشا ونيوفاوندلاند وساحل لابرادور.

إذا كان لكيد كنز ودفنه بالفعل، فإن هناك بعض الحقائق اللوجيستية التى يجب ملاحظتها. أولى هذه الحقائق هى مسألة الثلاثة أيام. فقد كان بإمكان أفضل سفينة فى ذلك الوقت قطع مسافة تتراوح بين حوالى خمسة وسبعين إلى مائة ميل بحرى فى اليوم الواحد. وكان قاع سفينة كيد به عيب. وكان الأمر يحتاج إلى فترة معقولة من الوقت للرسو وتأمين السفينة وحفر الحفرة والعودة إلى السفينة والاستعداد للإبحار. لقد كان أمامه أكثر من يوم للذهاب والعودة، ويوم كامل يقضيه فى دفن الكنز. وبذلك فقد خُبئ الكنز فى مكان لا يبعد كثيراً عن غربى جزيرة جاردينرز **Gardiners Island**

قبالة طرف لونج أيلاند أو شرقى الطرف الأقصى من كيب كود. والواقع أنه ربما يكون مخفيًا فى جزيرة جاردينرز - حيث كان يعيش ليون جاردينر Lion Gardiner أحد أصدقاء كيد المقربين - أو جزيرة الصيادين أو جزيرة بلوك أو إحدى جزر اليزابيث فى خليج بزاردز .Buzzards Bay وجميعها كان سكانها قليلى العدد، وموانيها ملائمة إلى حد ما، ولم تكن بعيدة أكثر من اللازم عن نيويورك.

حفر الباحثون عن الكنز كل شبر فى تلك الجزر، وكذلك جزء كبير من شمال شرقى أمريكا الشمالية. وباستثناء بعض الكنوز التى استعيدت فور إلقاء القبض عليه، لم يعترف أحد حتى اليوم باكتشافه، ولم يظهر أى منها، وهناك احتمال كبير بألا يظهر.

ومن اللافت للانتباه إلى حد كبير أن أسطورة كيد حظيت بقوة دفع كبيرة فى الثلاثينيات، بعد وقت قصير من اكتشاف التصاريح الفرنسية فى مكتب السجلات العامة. فبعد مائتى عام ظهر مكتب وثلاثة صناديق كبيرة تخص كيد. وكان كل منها يحوى جزءًا سريًا، حيث عُثر فى كل جزء على خريطة "أصلية" لما كان يُظن أنها جزيرة الكنز. ومما يؤسف له أن خط الطول ودائرة العرض لم يسجلا بالشكل الصحيح، ولكن المكتوب هو أنها فى بحر الصين؛ وهو ما أدى ببعض الناس، من خلال تدابير العقل البشرى، إلى الظن بأن الجزيرة تقع قبالة ساحل نيو إنجلاند[٣٥] .

وليس كيد بالطبع القرصان الوحيد الذى دفن كنزًا. فمن المفروض كذلك أن ند لو دفن كنزًا حصل عليه من "غليون أسبانى". وهو يقع تحت صخرة مستوية على جزيرة بوند بخليج كاسكو فى ولاية مين. وهو بصورة عامة يضم ثلاث سبائك كبيرة من الفضة وصندوقًا مليئًا بالفضة، وصندوقًا مليئًا بالجواهر. وقد كشف عن موقعه لأحد الباحثين عراف هندى قال إنه لابد أن يقتسمه مع صديق. ولكن البائس الجشع حاول أن يأخذه كله، غير أنه كان هناك ما أخافه فى آخر لحظة.

وبدلاً من أن يكون لكنز كيد موقع مؤقت، كان ذلك الموقع الموجود على جزيرة أوك فى خليج ماهون بنوفا سكوشا محدداً تحديداً دقيقًا. غير أن الوصول إليه كان صعبًا بعض الشىء، وإن ظل الناس يحاولون الوصول إليه طوال مائتى عام. كان الموقع يقوم عليه بستان من أشجار البلوط الحى العتيقة؛ وهى أشجار لا تنمو بشكل طبيعى شمالى

فيرجينا. كما كان هناك نوع من القرنفل الأحمر الذى لا وجود له فى أى مكان آخر من نوفا سكوشا.

انجذب اهتمام المكتشفين الثلاثة إلى إحدى الأشجار، ذلك أن فرعًا كبيراً قد نُشر، وكانت تتدلى بكرة من الجزء المتبقى، وقد خُدش حبل الخشب الميت خدشًا شديداً. وكانت الأرض منخفضة أسفل الفرع المقطوع. وبعد الحفر لمسافة عشرة أقدام وصل الباحثون عن الكنز إلى لوح من الخشب السميك أخرجوه. وكانوا يَصلون كل عشرة أقدام إلى لوح آخر. كان معظمها من الخشب، غير أن أحدها كان من المعجون وآخر من الفحم. وعلى عمق خمسة وتسعين قدماً وجدوا حجراً لم يستطيعوا قراءة ما عليه من كتابة فوضعوه جانبًا واستمروا فى الحفر. كان يوم سبت، وحين عادوا يوم الإثنين كان ارتفاع الماء فى الحفرة ستين قدمًا. ولم تكن هناك جدوى من جهود نزح المياه بالدلاء.

حاول الناس على مر السنين اجتياز هذا المانع من ماء البحر، الذى كان يأتى من شاطئ وهمى بنى على لوح من ألياف جوز الهند، وفشلت المحاولات كافة. وبعد عدة سنوات وضعت بريمة حفرت حتى عمق ١٥٥ قدماً. وعلى عمق ١١٠ قدمًا اصطدمت لقمة الحفارة بلوح أسفله فراغ عمقه اثنتا عشرة بوصة. وبعد ذلك سارت فى أربع بوصات من خشب البلوط ثم طبقة من الحديد، ثم نزلت ٤٠ قدماً واصطدمت بأسمنت. حمل ناتج الحفر ثلاث حلقات من سلسلة ذهبية، وحمل آخر شيئًا جعل الحفار يجرى مسرعًا، وجاء الثالث بقطعة من الرق. ظنوا أن هناك غرفة للكنز أسفل الحفرة؛ وهى غرفة لا يقل ارتفاعها عن ٤٠ قدماً وقطرها عن ١٥ قدمًا مملوءة بالذهب والرق المشبع بالرطوبة[٣٧] .

بعد كل ذلك العمل المكثف ومئات الآلاف من الدولارات، كانت تلك هى الأشياء الثلاثة الوحيدة التى استخرجت من الحفرة، ومع ذلك مازال الناس يحفرون هناك منذ القرن الثامن عشر.

ربما لا يكون اللغز الأكبر ما هو موجود هناك، بل كيف ولماذا وصل إلى هناك. يشعر الكُتّاب أن البلوط الحى وليف جوز الهند يشير إلى أن من وضعوه جاءوا من

الجنوب. وتشير طبقة المعجون والبكر إلى البحارة. وتشير الحفرة العميقة والشاطئ الوهمى وأشغال المياه المعقدة لإغراق الحفرة إلى عملية طويلة قام بها رجال كثيرون يديرهم مهندسون مهرة؛ وهو عمل ماهر لا يكاد يكون ممكنا بالنسبة لطاقم سفينة عادية. وربما يشير الحجر الذى يحمل كتابة والألواح إلى خطة لاستعادة الكنز، مع توجيهات على الكتلة الحجرية. ويسميه السكان المحليون كنز كيد. أما الكُتّاب المتأملون فيشعرون أنه كنز من كنوز الفايكنج.

بالإمكان استبعاد كيد، ولكن من الصعب تخيل أن الفايكنج كان لديهم ذلك القدر الكبير من الأسلاب، أو هذا النوع من المهارة الهندسية، أو الحاجة إلى مثل هذا الدفن المعقد.

يميل الكُتّاب المتأملون كذلك إلى تجميع أشجار البلوط الحى والقرنفل وليف جوز الهند والفرع المنشور وخشب السفينة فى حزمة واحدة. إلا أنه قد يبدو منطقيًا أن نفترض أن أشجار البلوط الحى كانت موجودة قبل الكنز. وما لم يكن قبطان السفينة نوحًا، فلن يتوقع أحد منه نقل بستان من أشجار البلوط الحى وزرعه، بالإضافة إلى هذا الذهب الكثير والليف فى حمولة واحدة! وقد يكون منطقيًا أكثر أن نفترض أن الموقع اختير بسبب الأشجار أو عزلة الجزيرة، وأن كتل الخشب وفرع الشجر والكنز تعود إلى تاريخ لاحق. وكانت البحرية الملكية تتخذ لها مقرًا فى هاليفاكس أثناء الثورة الأمريكية. وكانت تطوف فى خليج المكسيك وأمريكا الجنوبية. وكانت تحصل على غنائم بحرية. وكان على متن سفنها مهندسون عسكريون وكانت بها أطقم كبيرة. ألا يمكن أن يكون هذا كنز يعود إلى زمن الثورة الفرنسية؟

إذا كان أعيان القوم قد سعوا للحصول على هذا الكنز، فإن أهل تشيستر Chester فى نوفا سكوشا يقولون إنه لا يستحق العناء. فالذهب مسكون، وكذلك الجزيرة فى الواقع. فهناك حراس عديدون لحفرة الكنز. أحد هؤلاء الحراس حصان ضخم له عينان ناريتان يصهل ويقطع الجزيرة عدوًا جيئة وذهابًا. والآخر كلب أسود يسيل اللعاب من فمه، يشبه إلى حد كبير الكلب الشيطان الأيرلندى الذى يحوم فى المكان ليلاً. ويقال إن رجلاً يرتدى معطفًا أحمر يقف حارسًا، وهناك قارب به ثمانية

عشر مجدافًا به بحارة أشباح يعس المياه القريبة. ولا تظهر هذه المخلوقات إلا حين يقترب أحد من الكنز. ولذلك فنحن نفترض أن واجباتهم ليست منهكة. وحين يوشك الكنز أن يكشف، يظهر الوهج الأحمر الذى يسبق العاصفة.(٣٨)

قبل عامين من كتابة هذا الكلام، وطبقًا لما جاء فى مقال منشور فى "ذا نيويورك تايمز" The New York Times، كان رجل وأبناؤه يبحثون عن الكنز. وكانوا قريبين جداً، حتى إنهم أبرقوا لأصدقائهم كى يأتوا ويشهدوا الحدث. وحين دخلوا الحفرة لوضع اللمسات الأخيرة لم يخرجوا. وعثرت فرقة الإنقاذ عليهم أمواتًا فى النفق الذى حفروه(٣٩).

قد يكون الكنز المشهور الآخر موجوداً فى خليج توبرمورى Tobermory Bay حيث انفجر غليون أسبانى. وأنا أقول "قد" لأن هناك بعض الشك؛ أولاً: بشأن إذا ما كان هناك غليون فقد فى تلك البقعة أم لا. ثانيًا: إذا كان هناك غليون فُقد هناك، فما هو؟ إذا كان "فلورينشيا" Florencia، ربما يكون هناك كنز. أما إذا كان "سان خوان باوتيستا" San Juan Bautista كما يظن البعض، فلن يكون هناك كنز.

طبقًا لما يقوله أهل جزيرة مول فإن هناك ثلاث حكايات عن حطام الكنز؛ وهو ما يشير إلى احتمال وقوع الحدث. وتقول إحدى الحكايات إن إحدى السفن الهاربة من كارثة الأرمادا، تدفعها الرياح العاتية والحاجة الشديدة إلى الطعام والماء، وصلت إلى توبرمورى لعمل عمرة والتزود بالمؤن. لم يكن الإسكتلنديون راغبين فى تزويد الهاربين بما يحتاجونه إلى أن اكتشفوا أن السفينة على متنها مدافع. وبما أن عائلة ماكلين the Macleans وعائلة ماكدونالد the Macdonalds كانتا فى حرب فى ذلك الوقت، فقد وعدت عائلة ماكلين الغليون بتقديم الطعام والماء مقابل استغلال جنوده. كان ذلك هو الشرط، إلا أن صدعًا حدث بين الإسكوتلنديين وجنود الغليون. أخذت عائلة ماكلين ثلاثة أسرى من الإسبان، وأسر الإسبان شابًا صغيراً من عائلة ماكلين. وحين بدا أنه ليس هناك أمل فيما يتعلق بالمؤن، أعدوا السفينة للرحيل. وحين اكتشف الشاب الذى ينتمى إلى عائلة ماكلين ذلك فجر السفينة وهو معها، وغرقت فى المياه العميقة فى الميناء(٤٠).

هناك كذلك حكاية تقول إنها لم تفجر قط وإنما جردت مما فيها بالسحر؛ فقد استخدمت نفس الساحرات اللاتى من المفترض أنهن أغرقن الأرمادا لتدمير الغليون.(٤١)

وقيل إنه كان على متن الغليون أميرة أسبانية، ومدفع كبير من تصميم ليوناردو دافنشى Leonardo da Vinci، وكمية كبيرة من الذهب، وتاج تلك الشابة التى كان من المفترض أن تصبح حاكمة ألبيون(*) Albion بعد الاستيلاء عليها. وكان حول عنق الأميرة سلسلة بها دلاية، وهى كذلك من تصميم دافنشى.

بقى حطام السفينة هناك قرونًا. وبعد المحاولة الأولى لانتشاله لم يعثر سوى على بعض البقايا؛ كان من بينها مدفع كبير مملوك لدوق أرجيل Duke of Argyll ويفترض أنه الطراز الخاص بدافنشى. وبمرور السنين استقر العملاق فى الطين، ولكن فى بداية القرن الحالى بدأت أعمال الاستخراج، باستخدام خراطيم ضغط الهواء لإبعاد الطمى. ويقال إن غواصًا كان يعمل بأحد تلك الخراطيم حين ضربه شىء ما. لم يمكنه أن يرى شيئًا فى الظلام، ولكنه أمسك بالشىء وصعد به للسطح. كان يمسك بجمجمة عليها السلسلة والدلاية اللذان كانا يتلألآن منذ زمن بعيد(٤٢).

تتعلق حكاية أخرى بهذا الحطام. وهى تقول إن السفينة جاءت إلى توبرمورى وانفجرت. وكانت على متنها أميرة أسبانية قُتلت. إلا أنهم عثروا على الجثة ودفنوها عبر مضيق مول فى جبانة صغير فى كيل Kiel . وبعد ذلك استخرجت الرفات وأُعيدت إلى أسبانيا كى تدفن هناك. إلا أن هناك شبحًا يتردد على المنطقة؛ وهو شبح الأميرة التى تبحث عن عظمة إصبعها التى تُركت سهوًا حين شُحن الهيكل العظمى إلى الوطن. ويبحث الشبح الهائم عن عظمة الإصبع بسب المعتقد القديم الذى يقول إن الجسم الكامل فقط هو الذى يدخل مملكة السماء ويجلس على مائدة الرب.

حكايات الكنز هذه مشهورة. وهناك حكايات أخرى على نفس القدر من الشهرة، ولكنها من الجاذبية بحيث يجب ذكرها. تأتى على رأس هذه الحكايات نادرة تتعلق بجرانويل التى اجتمعت حولها أساطير من الكثرة بحيث يمكن القول بأنها تشكل دائرة.

(*) بريطانيا العظمى ( المترجم ) .

يقول الناس في جزيرة توري إن هناك كنزًا مدفونًا على الطرف الشمالي من الجزيرة بالقرب من هوة كبيرة تعرف باسم سجن بالور Balor's Prison . ويتفق الجميع على هذه النقطة، إلا أن هناك خلافًا في الرأى فيما يتعلق بمن الذى دفنه. يرى كثيرون أن جريس أومالى هى التى دفنته، غير أن كثيرين يظنون أن الذى وضعه هناك هو بالور ذو العين الشريرة. وعلى أية حال فقد ظل مخفيًا سنوات كثيرة إلى أن عثرت عليه امرأة إنجليزية وابنها في القرن الحالى. فقد استخرجاه وأعداه كى يعودا به إلى لندن، ولكنهما مرضا قبل أن يغادرا الجزيرة. لم يعرف أحد ما بهما، ولكنها كانا يزدادان سوءًا كل ساعة واتضح أنهما على وشك الموت. ويقول أهل الجزيرة إن الكنز هو الذى سبب المرض، وفى محاولة يائسة لإنقاذ نفسيهما أعاداه إلى مستقره. خفت حدة المرض بعض الشيء وحُملا إلى بلدهما، غير أن أحدًا لا يعلم إن كانا قد شفيا أم لا. ويظن أهل الجزيرة أنهما ماتا(٤٣) .

كذلك دفنت ملكة الغرب كنزًا (تسعة أطنان) على أينشبوفين، حيث ظل مخفيًا حتى القرن التاسع عشر حين عُثر على بعضٍ منه إلا أن معظمه لا يزال مدفونًا. وما عُثر عليه اكتُشف بطريقة لافتة للانتباه وكان بداية لسلسلة من الأحداث. وطبقًا لما قاله القبطان أوهالوران Captain O'Halloran فقد حدث الأمر بالطريقة التالية:

**بالنسبة للكنز الذى عثُر عليه هنا على الجزيرة، تأكد أن هذا كله صحيح. فهذا الرجل الذى عثر عليه - والواقع أنه ليس هو الذى عثر عليه - بل الغلام الذى يعمل لديه - فى الحقل. كانا يعملان فى الحقل - كانا يعملان بالشوكة أو شيء من هذا القبيل. وكان الغلام هو الذى اصطدم به. حفر حول ذلك الشيء بالجاروف الذى كان يحفر به، ولم يكن يعرف ما هو. ولكنه كان يعرف أنه شيء غريب. كان يعرف أنه ليس حجرًا. وعلى أية حال فقد نادى فى النهاية على سيده وجاء بالطبع. قام الاثنان بالحفر حوله وأخرجاه. بالطبع كان السيد يعرف ما هو. أما الغلام فلم يكن يعرف شيئًا. كان صغيرًا فى ذلك الوقت. وكانت له عائلة كذلك [ السيد] وهكذا فرح كل الفرح بالمال، بالطبع، وخبأه حتى حل الظلام ثم ذهب به إلى البيت ولم يعلم أحد قط أنه أخذه. وهدد الغلام وأمره ألا يخبر أحدًا؛ فقد أخطأ ولم يكن من المفروض أن يعمل هناك وغير ذلك. ولا أظن أن الغلام عرف ما هو على أية حال .**

على أية حال فقد قرر الرجل إرسال ابنه إلى المدرسة لتعلم الملاحة وليجعل منه قبطانًا بحريًا، وقرر حينئذ أن يبنى سفينة. قد يكون وزنها مائة طن أو نحو ذلك؛ ما يقرب من ذلك. سوف تكون سفينة كبيرة إلى حد ما فى ذلك الوقت. وقد بنوها - بناها - هناك حيث كنت أحكى لك [ مشيرًا إلى رأس الميناء ] وحين انتهى بناء السفينة كان هناك نزاع بينه وبين رئيس بناة السفينة بشأن السفينة أظن أنه كان على المال. فلم يكن يريد أن يعطيه ما تبقى من مال إلى أن تقوم السفينة بأولى رحلاتها.

كان كل شىء على ما يرام. فقد صار الابن قبطانًا بحريًا (ولم يكن يريد هو ذلك) وعاد إلى أينشبوفين وجهزت السفينة للإبحار. وفى الليلة التى كان مستعدًا فيها للمغامرة جاءت عاصفة قوية من الجنوب الشرقى. وقال الابن إن الجو ليس مناسبًا للمغامرة مع أنه كان متجهًا إلى جامايكا. كان سيأتى من هناك بحمولة روم أو ما شابه. الروم رخيص هناك وسيحضره إلى هنا ويحقق منه ربحًا وفيرًا، ويضع على السفينة ما تبقى من مال الكنز ليدفع ثمنه.

غادر ذلك الابن وذهب؛ فقد أجبره الأب على الذهاب، والمغادرة، وبذلك ذهب. خرج من هنا ومر من بين جزيرتى شارك وبوفين - من ذلك الطريق - حيث الريح الطيبة. والآن ذهب للتو والأب حزين. فقد أرسل سفينة من الجانب الشمالى للجزيرة - إحدى تلك السفن العادية - من الجانب الشمالى للجزيرة، ظنًا منه أنهم سوف يلحقون به ويعيدونه ويوقفونه. ولكنهم تأخروا ولم يوقفوه وغرق واشتد الظلام وضاع فى تلك الليلة على بلاكسود Blacksod وغرق فى تلك الليلة عند فلات أينشكيج Flat Ineshkeg، غرق. كان معه مبلغ من المال لشراء البضاعة وظل هناك. بعد ذلك بسنوات كان هناك شخص أظن أنه كان يجمع الأعشاب البحرية على جزيرة أينشكيج - تعلم أنهم يستخدمون الأعشاب البحرية كسماد لـ [ الحديقة ] وأظن أنه وجد الذهب - بقية الذهب على أينشكيج. وهكذا انتهى الأمر.

كانوا يظنون أن الرجل الذى بنى السفينة لعنها فى الماء وقال إنه لا ينبغى لها أن تعود (وأظن أنه لم يكن بإمكانها العودة) لأنه لم يعامل الغلام الذى وجد الكنز

المعاملة الصحيحة، ولم يعطه شيئًا. وهم يقولون إنه لم يكن يدرك ذلك إلى حد كبير. كان ذلك هو أول وآخر شيء عنها. كان اسمها "ريفن" Raven [ الغراب ] وأظن أنه كنز جرانا ويل، هم يقولون هذا. وأظن أن جزءًا آخر مدفون هناك كذلك.

أنا أعرف المكان الذى يظنون أنه موجود فيه - بعضه - وسوف يظل هناك رغم ذلك وأظن أنه ربما لا يكون هناك بالمرة. أعرف أماكن نقبوا فيها عنه وهذا الرجل هنا فى الجزيرة رأى حلمًا عن الذهب - المكان الذى فيه - وكان من المفترض أن يتبع جذر نبات العوسج (*). هل تعرف ما هو جذر العوسج؟ إنه قضيب كبير طويل ينمو فى الأرض وهو مفيد جدًا ونحن نسميه جذر العوسج وهناك الكثير منه ينمو هنا على هذه الجزيرة. وكان من المفترض أن يتبع جذر العوسج إلى أسفل وأن يحرص ألاّ يقطعه وأن يأتى معه بشىء حى. أى شىء حى : حتى ولو كان طيرًا أو دجاجة أو ما شابه ذلك، لأنه من المفترض أن يكون هناك دائمًا ثعبان حول هذا الذهب. وعندما يعثرون على الذهب سيكون عليهم إلقاء شىء حى للثعبان للتخلص منه، وبعد ذلك يمكنهم أخذ الذهب.

مضى كل شىء بشكل جيد جدًا وكان هناك شخص عجوز هنا - على الجزيرة - أظن أنه شخص عجوز. كان يبيع القماش. كانوا يسمونهم الباعة الجائلين - أظن أنك لم تسمع هذا الاسم من قبل، بائع جائل. أخذوه معهم؛ بالطبع لم يكن من الممكن أن يسير الأمر بشكل جيد. أخذوه معهم ليلقوه للحية حين يجدون الذهب. ولذلك لم يقولوا له لماذا كانوا يريدونه ولكنهم أخذوه معهم. وكانوا يحفرون عميقًا وكان جذر العوسج موجودًا وكانوا شديدى الحرص. استمروا فى الحفر وكانوا شديدى الحرص. استمروا فى الحفر ونزلوا إلى عمق كبير إلى حد ما ولو لم يقطعوا جذر العوسج بالجاروف لوصلوا إلى غايتهم. بل إنهم حتى لم يجدوا جذر العوسج مرة أخرى بعد ذلك ،فما إن قطعوه حتى انتهى كل شىء.(٤٤)

لا تزال هناك حكاية كنز من أينشبوفين فيها تكرار. وليس هذا كنزًا مدفونًا وإنما كنز بحرى. فمنذ سنوات مضت كانت هناك سفينة ذات ثلاثة صوارى اسمها "رويال

(*) شجيرة اسمها العلمى Erica arborea تنمو فى مناخ البحر المتوسط وتستخدم جذورها الخشبية القوية فى عمل غلايين التدخين (المترجم)

أوك" Royal Oak . ويعتقدون أنها فقدت دفتها فى ليلة عاصفة قبالة الجانب الغربى من الجزيرة. وفى ذلك الجانب هناك خور ضيق وعميق فى حجم سفينة قلبر كبيرة تقريباً. ولم تكن هناك أضواء لتحذير أى شخص، ومن المشكوك فيه فى تلك الظروف أنه كان بالإمكان عمل شيء ما، إن كان هناك ما يمكن عمله. اندفعت السفينة بقوة للأمام إلى داخل منحنى الخور أولاً ثم جنحت، حيث قلبها البحر الهائج على الفور تقريباً. ومن حسن الحظ أن دقلها المائل رشق فى نباتات الجزيرة المتحللة وسار البحارة كافة إلى الشاطئ.

قيل إنه كان على متن "رويال أوك" كنز قيمته كبيرة، وأرسلت الحكومة الغواصين إلى بوفين لانتشاله. وصل الغواصون ونزلوا إلى السفينة الغارقة - التى لم تكن على عمق كبير - ووجدوا الكنز بالفعل ولكنهم وخرجوا على الفور صفر اليدين. وحين خرجوا إلى الشاطئ لم يكن هناك ما يحثهم على العودة إلى البحر، ورفضوا الإفصاح عن السبب، ولم يقولوا شيئاً سوى أن هناك أسفل شيء لا يمكنهم ولا يريدون مواجهته. ويقول أهل الجزيرة إنها حية ترقد على الذهب لتحرسه، ورغم فقرهم الشديد، فإنهم يفضلون الفقر على تحدى الحية(٤٥) .

القرصان الآخر الذى يستحق الاهتمام فى هذا المقام هو جان لافيت Jean Lafitte الذى كان مسئولاً مثل بارنى عن إزعاج البريطانيين، وقد أصبح مثل كيد متورطاً مع الساسة؛ وكان السياسى فى هذه الحالة هو أندرو جاكسون Andrew Jackson الذى حدد ثمناً لرأسه بعد أن بات فى غير حاجة إلى خدماته. ويقال إن لافيت دفن كنزاً كبيراً. ومن الواضح أنه لم يكن مهتماً كثيراً باستعادة الغنيمة، ذلك أنه لو صدقت الحكاية فإن إحدى وسائله المفضلة كانت حشو ماسورة أحد المدافع بالذهب وإلقائه من فوق السفينة.

كان لافيت يدفن الذهب فى بعض الأحيان على البر. وقيل إنه دفن فى إحدى المرات كمية كبيرة من الذهب والفضة بالقرب من جالفستون Galveston . ولكى يعلِّم المكان غرس قضيب المهندس فى الأرض ومضى إلى حال سبيله. (وكان ذلك قضيباً طويلاً من الحديد فى أعلاه كأس توضع به البوصلة). بحث الناس سنين عديدة، ولكن

في الحشائش الطويلة، ولأنهم لم يكونوا يعرفون ما يزيد كثيراً عن أن الكنز قريب من نهر لافاكا Lavacca River فقد كانوا يبحثون بالفعل عن إبرة ثمينة جداً في كومة قش.

وفي يوم من الأيام أرسل صاحب إحدى المزارع صبيًا كي يقود الأبقار إلى المزرعة لحلبها، ولكنها كانت تتجول ووجد بعض الصعوبة في العثور عليها. وحين وصل إليها في النهاية كان الوقت قد تأخر. كانت الأبقار حروناً وبسبب الطبيعة المتأصلة فيها أصرت على الذهاب في الطريق الخطأ. فقد الصبي أعصابه وبحث حوله عن شيء لإثارة اهتمامها بالذهاب إلى الحظيرة. وحين وجد ما يحثهم به التقطه وأخذ يضرب به الماشية بحماس، وسار القطيع بأقصى سرعة إلى المزرعة.

حين وصلت الأبقار لاحظ المزارع أنها تتنفس بصعوبة فالتفت إلى الصبي يسأله عن السبب. فحكى له الصبي ما حدث وقال إنه استخدم قضيباً من الحديد في ضربها وأراه للمزارع. كان قضيب المهندس بالكأس الصغيرة في أعلاه هو ما انتزعه الصبي من الحشائش لحث القطيع على السير. ولأنه كان يجرى هنا وهناك، وكان الليل يرخي سدوله، وكان الريف غريباً بعض الشيء، فلم تكن لديه أدنى فكرة عن المكان الذي عثر عليه فيه(٤٦).

يبدو أن حكايات الكنز بصورة عامة تأتي ضمن سلسلة من الأنماط ليس النمط التالي استثناء منها. فعلى جزيرة بيكيا رأت امرأة حلماً. وفي الحلم قالت لها أمها الميتة إنها إذا نهضت من فراشها وذهبت إلى البحر وسارت على الشاطئ سوف تجد قضيباً من الحديد مدفوناً في الرمل بين أشجار المنجروف. وعادة حين يكشف عن كنز ما في الحلم يحذَّر من رأى الحلم ألا يحكي ما رآه لأحد، ولكن هذا لم يحدث. فقد نهضت من الفراش، وتخوفاً من الأشباح والعفاريت ومخلوقات الليل الخارقة، نادت على شقيقتها كي تذهب معها.

سارت المرأتان على الرمال وشردت إحدى الشقيقتين، وكانت لا تؤمن كثيراً بالأحلام، للبحث عن جوز الهند. أما الأخرى فذهبت إلى أشجار المنجروف، وهناك وجدت أمامها قضيب الحديد مغروساً في الرمل. انتزعته المرأة وبدأت في الحفر. وفجأة بدأ الرمل يفور، وحين تغلب الفرح والخوف على المرأة اندفعت بعيداً لتحكي لأختها ما

حدث وأخذت القضيب معها. عثرت عليها بعد مشقة، وحين حاولتا العودة إلى حيث كان القضيب لم تعثرا على المكان. بذلتا أقصى ما يمكنهما، ولكن المكان الذى كان القضيب مزروعًا فيه راغ منهما، فاستسلمتا فى النهاية(٤٧) .

ومع أن معظم حكايات الكنز تنتهى بالإحباط، فإننا نسمع من حين لآخر عن صيد ناجح. فقد نام رجل على جزيرة بيتيت مارتينيك **Petite Martinique** بجزر ويندورد ورأى حلمًا. ظهرت له فى الحلم امرأة ميتة كانت ترتدى ملابس بيضاء. وقفت عند السرير ونظرت إليه ثم قالت "انهض واتبعنى خلال الشجيرات الشائكة وسوف أريك الكنز." استيقظ الرجل وكان خائفًا، كما كان يخشى من أن يظن جيرانه إن هم رأوه أنه يتسكع بين الأشجار الشائكة مرتديًا رداء النوم فى الساعة الثانية صباحًا. فبقى فى فراشه.

فى الليلة التالية رأى الحلم ذاته. قال الشبح "انهض واتبعنى خلال الشجيرات الشائكة وسوف أريك الكنز، ولكن يجب ألا تخبر أحدًا." ومرة أخرى استيقظ الرجل ومرة أخرى لم يذهب. تكرر الحلم للمرة الثالثة. "انهض واتبعنى مسافة قصيرة خلال الشجيرات الشوكية. وبعد مسافة قصيرة سوف أستدير وآتى ناحيتك. وحين أبتسم احفر وسوف يكون الكنز ملكك. ولن يعرف أحد حتى أنك خرجت إلى الخلاء."

فى تلك المرة نهض الرجل وخرج إلى الخلاء. أخذ جاروفًا واتبع الشبح المتشح بالبياض الذى كان يسير أمامه. ولم يكد يقطع مسافة مائة ياردة حتى توقف الشبح واستدار وابتسم. وعلى الفور أخذ الرجل يحفر وسرعان ما استخرج كنزًا ثمينًا. وقد بنى به سفينة وانتعشت أحواله إلى أن صار واحدًا من أغنى رجال الجزيرة. ولم يظهر له الشبح مرة أخرى(٤٨) .

غالبًا ما يظهر الميت شخصيًا وليس فى الحلم - خاصة فى الجزر البريطانية وأيرلندا - ليقود شخصًا ما إلى الكنز. وهناك ثلاث حكايات على الأقل من إنجلترا: واحدة فى نورثمرلاند **Northumberland** واثنتان من ويلز. فى الحكاية الأولى حاولت امرأة بيضاء حث طفل على الذهاب معها وقدمت له كنزًا مكافأة له. ونتيجة لتلك الحادثة كان الطفل يشعر برعب شديد. وفى ويلز شعرت سيدة بالامتنان لرجل تحدث

إليها وأرشدته إلى كنز ما . وفى حالة أخرى أعطت المرأة البيضاء نصف كنز لرجل لأنه تحدث معها، ولكن حين أراده كله كادت أن تمزقه إرباً(٤٩) .

نُقلت هذه المعتقدات إلى أمريكا الشمالية، حيث يتحدث كريتون Creighton عن بحار يحمل حقيبة ظهر يرشد الناس إلى كنز يمكن الحصول عليه بذبح طفل وجعل الدم يسقط على صخرة بعينها. كما يذكر كريتون كذلك أن الأشباح المتحولة إلى حيوانات تساعد الشخص فى العثور على الكنز(٥٠) .

و يلجأ الناس فى نوفا سكوشا فى بعض الأحيان إلى وسائل أخرى للعثور على كنز مدفون. فهم يستخدمون عصا الاستنباء،(*) ولكن يبدو أنهم ليسوا أوفر حظًا ممن يعتمدون على الأحلام والأشباح. فقد عثر رجل على كنز فى كيب بريتون بهذه الطريقة، ولكن سربًا من الغربان مقطوعة الرءوس يحرس المكان أبعده عنه. إلا أن رجلاً آخر عثر على كنز فى نفس المنطقة. وحين أوشك على سحب كنزه من الحفرة نظر لأعلى واكتشف أن هناك حجر طاحونة فوق رأسه مباشرة معلقٌ بخيط. ويبدو أنه انتظر كثيراً كى يكتشف أنه يدور ألف دورة فى الدقيقة، ولكن بعد أن صار لديه اهتمام شديد من على بعد(٥١) .

وسيلة المساعدة الثالثة للعثور على الكنز التى تشيع بصورة خاصة فى أيرلندا هى الجنيات التى توجد عنها حكايات عديدة، غير أنه لا يبدو أن ذهب الجنيات يأتى من نفس المصدر الذى يأتى منه الذهب الآخر. فعادة ما تتركه كائنات العالم الآخر أو من فعل السحر، ولذلك فهو لا يهمنا كثيراً فى هذا المقام.

أما الطريقة الرابعة والأشهر للعثور على الكنز فهى باستعمال خريطة أو "مخطط" plan ؛ وهو ما يسمون به الخريطة فى جزر الهند الغربية. وحكايات الكنوز التى يُعثر عليها بهذه الطريقة كثيرة جداً ومشهورة بحيث لا تكون هناك ضرورة لرواية أى منها، ولكن من اللافت للانتباه ملاحظة أن كل تلك الخرائط تقريباً يكون الحصول عليها إما فى دُرْج سرى فى مكتب من المكاتب أو فى صندوق يُكتشف بالصدفة، أو عن طريق

(*) عصا يستعين بها البعض لمعرفة وجود الماء أو المعادن فى مكان ما تحت الأرض (المترجم) .

مصادقة عملاق عجوز يختبئ من العاصفة ويعطى من يحسن إليه خريطة ثروة مخفية في فراش موته. ودائمًا تقريبًا يكون هناك عيب ما في الخريطة ويتعلق جزء كبير من الحكاية بجعل المخطط مفهومًا. (وكانت تلك هى الحيلة التى استخدمها جيه فينيمور كوبر(*) J. Fenimore Cooper حين كتب رواية "أسود البحر" The Sea Lions ) .

لابد من خلق الكنز قبل اكتشافه ، وهناك الكثير من المأثورات المرتبطة بخلقه كثرة تلك المرتبطة باكتشافه. وعادة ما يفكر الناس فى الولايات المتحدة فى الكنز باعتباره غنيمة القرصان، ولكن أهل جزر الهند الغربية والناس فى الخارج يشيرون إلى أن أية أموال أو حلى مدفونة لحمايتها هى كنز، ولابد أن يكون إخفاؤها بناء على صيغة ما. وقد قيل لى مرات عديدة فى جزر الهند الغربية إنه لابد من دفنه ليلاً (وهذا منطقى إلى حد كبير) وسراً. ولابد من تقديم أضحية حتى لأصغر المخابئ؛ وعادة ما تكون دجاجة أو عنزة علاوة على الأرز والروم والتعاويذ. ويراق الدم على المكان وغالبًا ما تدفن جثة الضحية مع القدْر.

بالنسبة للمخابئ الكبيرة، مثل حمولة سفينة بكاملها، تكون هناك طقوس أكثر. وفى تلك الظروف تقدم أضاحى بشرية. وغالبًا ما يقطع رأس الشخص الذى يحرس الكنز أو يشنق وتوضع الجثة منبطحة فوق الكنز وينثر الدم بكثرة حوله. وكانت روح هذه الضحية هى التى تحرس الكنز، وقبل أن يستولى عليه أحد، كان لابد من ترضية الحارس؛ غالبًا بالدم. وإن لم يحدث ذلك فإن الحارس قد يلجأ إلى أية وسيلة لضمان بقاء الكنز مدفونًا.

قيل لى على جزيرة بيكيا إنهم كان يجرون قرعة على سفن القراصنة، وكان الرجل سيئ الحظ الذى تقع عليه القرعة يُقتل ويُدفن مع الكنز. وكان بيل والاس العجوز Old Bill Wallace، وهو أحد أهل الجزيرة المشهورين، يشعر بضيق من رجل ظل يحوم حول شجرة معينة بجوار منزله. وأخيراً حفر بيل العجوز الأرض واكتشف هيكلاً

(*) روائى أمريكى (١٧٨٩-١٨٥١) أشهر رواياته "آخر أبناء قبيلة الموهيكان" (١٨٢٦) التى تدور أحداثها فى المناطق القريبة من الحدود (المترجم) .

عظمياً مدفوناً منبطحاً. فحفر أكثر ولكنه لم يجد شيئاً. وبذلك أعاد دفن الهيكل العظمى ووجهه لأعلى ولم يزعجه شيء بعد ذلك.

وحين يدفن الكنز بالطريقة الصحيحة وترسم خريطة صحيحة لمكانه، نكتشف أن هناك كذلك قدراً كبيراً من المأثورات يرتبط بعملية الاكتشاف. أولاً: لابد من اتباع أية توجيهات بوضوح؛ خاصة إذا كانت آتية إلى صياد الكنز فى حلم أو من خلال شبح. وعموماً لابد من الذهاب إلى الكنز بعد حلول الليل، ويفضل فى غياب القمر. وأفضل وقت للعمل هو بين منتصف الليل و الفجر. ومن المفيد استخدام جاروف من الفضة، وغالباً ما تكون هناك حاجة إلى أضحية. والأهم من كل شيء ألا يتكلم أحد؛ وهناك مئات من الحكايات عن أشخاص يتحملون الكثير للحصول على الكنز ويفقدونه فقط بقولهم "وجدته!" عندما يصطدم معولهم بالصندوق أو يكون الوعاء على وشك أن يرفع، يسقط الصندوق حينذاك داخل الأرض ويختفى للأبد. (من المقرر أن أستمع إلى شخص كانت لديه فرصتان للحصول على كنز.)

ومن حين إلى آخر تكون هناك حكاية عن شخص عثر على كنز، ولكن مرات الفشل تفوق فى عددها مرات النجاح. وأحد معوقات الوصول إلى الكنز هو الطمع. والحكاية التالية التى جمعت فى شتاء عام ١٩٧١ توضح الأمرين.

ففى يوم ما قرب انتهاء القرن التاسع عشر أبحر يخت فرنسى إلى جزيرة مايرو Mayero بجزر ويندورد ورسا. ذهب الربان إلى الشاطئ وطلب من صاحب الجزيرة الإذن للتنقيب عن كنز. وقال للمالك إنه سوف يعطيه ثلث الكنز إن هو وافق. رفض المالك، حيث كان يريد النصف، وقال القبطان إن ذلك مستحيل. فقد وجد صعوبة كبيرة فى العثور على خريطة الكنز وجاء من مكان بعيد جداً بحيث لا يجزيه أقل من ذلك. قال إن الكنز كبير جداً بحيث لن تكون هناك طريقة ينفق بها مالك الجزيرة نصيبه فى حياته. أصر مالك الجزيرة على النصف وتم الاتفاق. إلا أن الرجل طلب رؤية الجزيرة قبل عودته إلى السفينة وتجول الاثنان فى أنحائها. وأخيراً طلب القبطان شرب ماء جوز الهند، حيث كان شديد العطش. قدم له مالك الجزيرة ما طلب، وبعد الشرب ألقى الغريب جوزة الهند الفارغة على الأرض، وبعد ذلك عادا إلى الشاطئ وقال الربان إنه

لن يشغل نفسه بالكنز، ذلك أنه لن يجده بحال من الأحوال. أقلعت السفينة واختفت فى الأفق. وفى صباح اليوم التالى اكتشف المالك الجشع حفرة فى المكان الذى ألقى فيه الربان جوزة الهند. وقد تناثرت حول الحفرة بضع عملات ذهبية؛ تُركت كدليل على وجود الكنز بالفعل.

ينقلنا هذا إلى المرحلة الرابعة من الكنز المدفون؛ وهى ما يحدث بعد العثور عليه. فهناك شعور عام بأن هذا الكنز منحوس. فقد سمعت العامة مراراً يقولون "لن أزعج نفسى بالكنز المدفون. فلا فائدة ترجى منه. فهو لا يأتى إلا بالمشاكل." والغريب إلى حد كبير أن هذا الرأى امتد إلى التهريب، بل وإلى التجارة غير المشروعة فى الروم داخل الولايات المتحدة. ويمكن أن يقدم العامة أمثلة عديدة لما حدث للأشخاص - وهم أحياناً من المشاهير - الذين جمعوا ثروتهم بهذه الطريقة.

أسباب ذلك بسيطة جداً. فالحصول على المال بدون جهد أمر مناف للأخلاق المسيحية. بل إن الكنز فى واقع الأمر لا يخص من عثر عليه وإنما الذى دفنه. كما أن جزءاً كبيراً منه جاء بطريقة غير مشروعة. وهو إذا كان يخص شخصاً ما، فهو يخص الشبح الذى يحرسه أو سيده الشيطان. ولهذا السبب تحرس الحية الكنز فى أينشهوفين ويجرى الكلب الذى يسيل اللعاب من فمه على جزيرة أوك.

ولكى يحتفظ الشخص بالكنز ويتمتع به، لابد له من اتباع قواعد معقدة. فعلى سبيل المثال يعتقد الناس فى دومينيكا(*) Dominica أنه إذا عثر أحد على كنز واحتفظ بأى جزء منه، فلابد أن يستثمره كله فى مشروع ما على الفور، وإلا فإن عليه إعادة نصف ما عثر عليه. وفى الحالة الأولى إما أن يكون من عثر على الكنز فى وضع يجعله يحقق أرباحاً كبيرة أو يخسر كل شىء. وفى الثانية سوف يعيش حياة بنصف رغيف أفضل من لا شىء.

ينقلنا هذا إلى دراسة موجزة جداً لابنى عمومة القرصنة؛ وهما التهريب والتجارة غير المشروعة. يرى كثيرون أن التهريب أسلوب حياة. ويشعر المهرب أنه يقدم خدمة

(*) دولة جزيرة فى شرقى البحر الكاريبى عدد سكانها حوالى ٨٠ ألف نسمة (المترجم) .

لمجتمعه لا أنه يرتكب جريمة. فهو على أى الأحوال يوفر لأصدقائه، وبسعر يمكنهم دفعه، سلعًا ما كانوا ليحصلوا عليها لولا ذلك، وإن حصلوا عليها فبأسعار باهظة. ولا تخطر على ذهنه أبدًا حقيقة أنه ينتهك القانون. وحتى إذا فكر فيها فإنه يشعر بأنه يحرم الساسة الذين يعيشون على مسافة بعيدة من جزء من دخلهم، وهو حين يفعل ذلك يساعد جيرانه. وقد يكون محقًا(٥٢) .

ولكى ينتعش التهريب لابد من توفر شروط بعينها. أولاً: لابد من وجود رسوم جمركية حمائية تجعل أثمان بعض السلع باهظة. ثانيًا: لابد أن يكون هناك مصدر لتوفير تلك السلع على مسافة قريبة إلى حد معقول. وأخيرًا: لابد من توفر وسائل لجلب السلع المهربة. وإذا أخذنا كل هذه الأشياء فى الاعتبار لن يكون مستغربًا أن إسكوتلندا وكورنوول وأيرلندا الجنوبية ومين والمنطقة المحيطة بنيو أورلينز هى مسارح الكثير من حكايات التهريب.

من اللافت للانتباه كذلك ملاحظة أن الحكايات التى تدور حول التهريب تنتعش بقدر الشدة التى تنفذ بها القوانين المصاحبة وصرامة العقوبات المتصلة بها. وتزخر إسكوتلندا والولايات المتحدة بالحكايات. ومن ناحية أخرى يمارس التهريب بمعدل كبير فى جزر الهند الغربية. وبالنسبة لإحدى الجزر هناك، يعد التهريب المصدر الوحيد للدخل. وهناك الكثير من القوانين التى تحظر التهريب، غير أنه من النادر تنفيذها، كما أن العقوبات اسمية. وأدت شهور عديدة من البحث المكثف فى المنطقة فقط إلى إخراج الحد الأدنى من الحكايات إلى النور. ولم تُذكر سوى حكاية واحدة تتعلق بالجزيرة.

يبدو أن الإدارة الجديدة كانت قد تولت مهامها فى جرينادا وكانت هناك جهود مكثفة لوقف التجارة غير المشروعة التى كانت منتعشة، وخاصة فى الكحول والتبغ. وأمر مفوض الشرطة مرؤوسيه بالذهاب إلى الجزيرة وتفتيشها وإحضار أية سلع مهربة ومهربين يمكن العثور عليهم. ولسبب أو لآخر بدا أن المرءوسين عاجزين عن "بلوغ" الجزيرة المذكورة. ضاعف المفوض جهوده وذهب إلى جزيرة مجاورة حيث أمر رجال الشرطة بالتقدم إلى وكر المهربين فورًا. قدم رجال الشرطة استقالاتهم. شعر المفوض بإهانة شديدة وغضب جم وقال إنه لا ينبغى إرسال الصبيان لإنجاز أعمال الرجال

وقاد بنفسه قارباً عبر به إلى الجزيرة. وحين ألقى بالمرساة فوجئ بسماع قرع طبول ورؤية حشد كبير على الشاطئ. بل إنه دُهش أكثر حيث انطلق وفد فى قارب صغير وصعد على متن قاربه. وكان الوفد شديد الأدب. فقد سأل عن صحته وقال إن الجزيرة بأسرها تأمل بأن ينزل على الشاطئ ليقدموا له ترفيهًا. وكانوا سيسحقون إن هو لم ينزل. سألهم المفوض عن ماهية الترفيه فقال الوفد إنه جنازة (وهو دائمًا حدث احتفالى على الجزيرة). فمن الذى مات؟ لم يمت أحد بعد. فقد عمل الناس الليل بطوله فى إعداد الاحتفال وهم يحمون الطبول ويحفرون حفرة. كانت بالحجم المناسب للمفوض وكانوا يأملون أنه لن يخذلهم. وهنا سحب سعادته المرساة وعاد إلى جرينادا. وظلت القوانين المضادة للتهريب حبراً على ورق، وعادت البلادة الخاصة بتنفيذها.

وفى سانت لوشا روى رجل عجوز كان يعمل فى يوم من الأيام فى مهنة التهريب حكاية لافتة للانتباه عن حياته العملية. فقد رست سفينة عصابته على جزيرة دومينيكا ذات ليلة وكانت تفرغ حمولتها حين اكتشفتها امرأة. طلبت المرأة أن تُعطى "نصيباً" من البضاعة المهربة، ولكن القبطان أعطاها زجاجتين وحسب وذهبت إلى حال سبيلها. وصلت الشرطة بعد ذلك بوقت قصير. كانت تعرف على وجه الدقة أين تبحث عما تبقى من الحمولة وتجده تحت القلقاس، وألقت القبض على كل البحارة، وصادرت السفينة. ألقى بالقبطان وأفراد الطاقم كافة فى السجن، باستثناء الإخبارى الذى استطاع الهرب.

وبدلاً من أن يهرب من البلاد أو يوكل محام، ذهب إلى أحد السحرة الذى أخبره بكل ما يفعله. بينما كان الكل يقفون أمام القاضى كان عليه أن يقول "الحرية". كما أبلغ الساحر الإخبارى أن الذى وشى بهم هى المرأة التى كانت تريد نصيبًا من الحمولة، وبناء على ذلك حوكم أفراد الطاقم، حيث كان كل منهم يقول "الحرية" حين يقف أمام المنصة، وأطلق القاضى سراح كل منهم. كانت الواشية فى قاعة المحكمة، وأشار راويتى إليها بإصبعه وقال "الحرية". وعلى الفور بدأت شفتها تتورم حتى صارت فى حجم القرعة وكانت من الثقل بحيث مالت برقبتها. لقد صُفى الحساب معها بشفتها الجديد، وكانت واحدة من أقبح الناس على الجزيرة؛ وكانت من القبح بحيث تسمى القرية التى كانت تعيش فيها اليوم **Pays Bouche** [ بلد الفم ] .

يبدو أن عملية إلقاء القبض على المهربين هذه فعلت شيئًا فى القانون، ذلك أنه فى المرة التالية التى كان فيها القبطان وطاقمه فى المنطقة ألقت الشرطة القبض عليهم. فُتشت السفينة ولكنهم لم يعثروا على شىء، وعامل الضباط بحارة السفينة بغلظة شديدة. ومن بين ما فعله رئيس الشرطة أن أخبر المهربين ما الذى يمكن أن يتوقعون حدوثه حين يقبض عليهم. وبعد ذلك طلب طعامًا. لم يتحمل أحد تلك الغطرسة. بل إن ذلك الحماس من جانب رجال الشرطة يمكن أن يقضى على مهنة مربحة جيدة. كان لابد من اتخاذ إجراءات صارمة. ولذلك جىء بقطعة سمك لطيفة وطهيت على الوجه الأكمل ووضعت عليها التوابل بكثرة، كما هو حال طعام جزر الهند الغربية. كما نُثر عليها الكثير من السم. أكل الشرطى ورحل؛ فى رحلة أطول من مجرد الذهاب إلى البر. وقال الإخبارى "بعد ذلك عشنا وقتًا طيبًا لزمن طويل."

منذ سنوات كان هناك سلوب(*) تسمى "أرتفول دودجر" Artful Dodger . وكان من المقرر أن تحمِّل السفينة حمولة من الخمور والتبغ من المارتينيك وتفرغها على إحدى الجزر البريطانية. سارت الأمور جميعًا على ما يرام حتى اللحظة الأخيرة، حين اكتشفوا أن ضابط الجمارك كان مختبئًا تحت قارب تجديف مقلوب على الشاطئ فى انتظار القبض عليهم متلبسين والحصول على مكافأة كبيرة. وما إن اكتشف القبطان ما كان عليه الوضع حتى جعلهم يأخذونه هو ورجل آخر إلى الشاطئ فى قارب. تسللا إلى أعلى قارب التجديف وضربا الدعامات التى أسفله بأقدامهما وجلسا على الصالب، بينما ضابط الجمارك عالق بالداخل. وبعد أن وصلت الحمولة إلى الشاطئ أكرموه بحساب جار. "مائتا سيجارة، وبرميل براندى صغير ..." وبعد أن أنزلت الحمولة بالكامل على الشاطئ وكانت فى سبيلها إلى مقصدها، ثبتوا القارب فى الشاطئ بالحبال المربوطة فى الأوتاد وباشروا عملهم(٥٣) .

تشيع إلى حد ما تلك الحكايات الخاصة بالتحايل على القانون. وقد حدثت الحكاية السابقة فى القرن التاسع عشر. وتُروى حكاية ذات حبكة مشابهة عن زمن تهريب الروم فى رود أيلاند. إذ كان أحد تجار البضائع المهربة قد أنزل للتو حمولة ضخمة على

(*) سفينة شراعية ذات صارى واحد وشراع طولانى (المترجم) .

الشاطئ وكان مشغولاً فى تحميلها على الشاحنات حين اندفع أحد رجاله عائداً. "نائب المأمور هناك عند التقاطع فى انتظارنا." فقال القائد "لا بأس. اذهب إليه واسأله كم يريد لجعلنا نمر. لا أريد أن أقتله إلا إذا اضطررت لذلك، ولكنى لن أدفع أكثر من ثلاثة آلاف." عاد صبيه واقترب من نائب المأمور، الذى قال إنه كان يعرف ما يجرى وإنه يقف هناك للحفاظ على القانون؛ بغض النظر عن كل شىء. سأله المهرب وهو يضع يده فى جيبه "كم تريد لتذهب إلى أى مكان آخر؟" "وهو كذلك، إذا كان الأمر كذلك، فإننى قد أتحرك. هل تظن أن خمسة دولارات مبلغ كبير؟"

وتأتى حكاية شبيهة جداً بحكاية رود أيلاند من كتر روك. فعند رأس خليج ناراجانست Narragansett Bay قبالة لسان يسمى بوبسكواش بوينت Popsquash Point، يقع جُرُف طينى ينكشف عند وصول الجزر إلى أدنى مستوى له. وصل إلى الخليج مهرب يعمل مع جون براون فى عام ١٧٧٢ وأمرته سفينة شراعية سريعة اسمها "جاسبى" Gaspee أن يبقى مرساته. وبما أنه كان على متن سفينة براون حمولة من السلع المهربة وكان معروفاً أنها سفينة سريعة، فقد نشر ربانها أكبر قدر من الأشرعة. ولكن مهما كانت سرعته فلن تكون أسرع من السفينة الحكومية، وكان المجال يضيق عليه بسرعة. ولكن الرجل العجوز كان يعرف الخليج وسار بسفينته على المكان الضحل. أما جاسبى فقد جنحت وظلت حتى المد التالى. وذهب المهرب إلى بروفيدنس(*) Provi-dence، حيث أشاع الخبر. ونتيجة لذلك جهز براون سفينة صيد حيتان وهاجم فى تلك الليلة السفينة البريطانية قبل تعويمها[٥٤].

وطبقاً لما ترويه حكاية لا تزال شائعة، فقد رأى رجل يسمى بكلان Bucklan ضابطاً بريطانياً على سطح مؤخرة السفينة على هيئة ظل أمام القمر. "ناولنى بندقيتى يا تيلى وسوف أقتل ابن الزانية حيثما يقف." هكذا قال، وهكذا فعل. وقد استولوا على جاسبى وأحرقوها، وغالباً ما يسمى هذا الحدث (وأحداث غيره عديدة) معركة الثورة الأمريكية الأولى.

(*) عاصمة رود أيلاند وتقع على الطرف الشمالى الشرقى من الولاية على خليج ناراجانست (المترجم) .

فى زمن تهريب الروم شنُن هجوم نمطى على أولد بُل Old Bull [ الثور الكبير] وهى صخرة ينحسر عنها الماء فى الخليج. فقد طارد أحد زوارق خفر السواحل زورق تهريب روم اسمه "بلاك دَك" Black Duck . وحين وصل "بلاك دك" إلى أولد بُل أطفأ أضواء المؤخرة - وهو ما أهمل القيام به أثناء المطاردة - ودار حول الصخرة وأضاءها من جديد. وكما هو متوقع، ظل قارب حفر السواحل يسير على خط مستقيم. استقر قاع القارب على قرنى الثور الكبير. أما بقية القارب وأفراد الطاقم فقد سقطوا فى المياه العميقة على بعد عدة أطوال للقارب، بينما مضى "بلاك دك" على مهل "أعلى النهر" لتفريغ الحمولة(٥٦) .

ربما كان أحد أكثر أشكال فرار المهربين غرابة هو الذى حدث قبل سنوات كثيرة فى جزر هيبريديز. وقد حدث كما يلى، حسب رواية مارى ماكلينان : Mary Maclennan

**جاء جدى الأكبر من كينتيل Kintail واستقر هنا وامتلك ثلاثة فنادق صغيرة. كان لديه فندق فى جراميسديل Gramisdale حيث يقع شمالى بنبيكولا Benbecula، وآخر فى لوخ أيهورت Loch Eyhort، حيث يقع خارجها بقليل، وثالث فى الطرف الجنوبى من هنا [ ساوث ويست ] وكان يصنع الويسكى الخاص به ويهربه. كان يصنع الويسكى الخاص به فى زمن كينتيل وكان يقضى لياليه فى مراوغة زوارق الجمارك، عبر مينش(*) Minch حيث كان يهرِّب الويسكى، وفى تلك المرة كانت هناك فرقاطة تطارده. كانوا قريبين ولكنهم لم يستطيعوا فى الواقع السير بسرعة كبيرة ولذلك دخلوا لوخ تاربيرت Loch Tarbert؛ لوخ تاربيرت الشرقية فى هاريس Harris . كان هناك خور ضيق فى لوخ تاربيرت وبينما استطاعوا اجتيازه لم تكن هناك مساحة كافية للسفينة الحكومية التى اضطرت للرسو خارجه طوال الليل. وأثناء الليل لم يتمكنوا [ المهربون ] من الخروج من فم لوخ تاربيرت بحال من الأحوال، ولذلك انتظروا [ الذين على متن الفرقاطة ] حتى الصباح. ولكن حين طلع الصبح لم يكن هناك أثر لأية سفينة. لقد اختفى كل شىء، وكان ما حدث هو أن جدى الأكبر ذهب إلى البر ومعه إناء كبير من الويسكى، وجمع حشداً من**

(*) قناة تفصل شمال غربى إسكوتلندا عن جزر هيبريديز الخارجة (المترجم) .

**الأصدقاء وأسكرهم واقترض كل حصان وكل شيء في المنطقة، وهو عنق ضيق جداً جداً من الأرض يفصل لوخ تاربيرت الشرقية عن لوخ تاربيرت الغربية وسحب سفينته بعيداً بما فيها من ويسكي قبل أن يفيق الآخرون(٥٧) .**

كل هذا النشاط ميت الآن. فالقراصنة لا وجود لهم إلا في بحار الصين النائية؛ هذا إن كان لهم وجود. وأصبح قادة سفن المجهود الحربي خارجين على القانون منذ الحرب الأهلية الأمريكية، باستثناء يدعو للتساؤل خاص بالقبطان فون لوكنر Von Luckner والسفينة "سي أدلر" Sea Adler . أما التهريب فما زال مستمراً ولكن بمعدل أقل بكثير، ويجري معظمه الآن باستخدام الطائرات والزوارق ذات المحركات. وضاع الكثير من رومانسية الكنوز المدفونة مع ظهور الطرق الجديدة والمحسَّنة للعثور عليها. وعلى سبيل المثال، ما هي فرصة الشبح الوحيد لحماية كنزه ضد أشعة الليزر أو كراكة الشفط؟ ومن يحتاج إلى خريطة حين يحصل على جهاز لكشف المعادن؟ ومن لا يعرف أن الأحلام ما هي إلا تسجيلات اختلطت ببعضها للتجارب الشخصية؟

ومع ذلك فإن الرءوس الكبيرة تتذكر، والعقول الكبيرة تصدق، وفي المراكز المتقدمة النائية من العالم الناطق بالإنجليزية يستمع أطفالهم، وهؤلاء سوف يصدقون ويتذكرون وربما يعيدون. وحين يعتم الضوء، ويدمدم الرعد في الغرب ويزمجر البحر على حصى الشاطئ، يكون من الصعب إلا تصدق وأنت جالس في قمرة السفينة أو في كوخ على البر وتستمع إلى رجل عجوز يروي هذه الحكايات. الأمر إذن هو أن ذلك العلم البارد والحشد شديد الاهتياج لا تهمه أشياء كثيرة ويمكن للمرء أن يهرب إلى أرض الأحلام؛ أم إنها الواقع؟

# الفصل الثالث عشر

## الأساطير والحكايات

« بالله عليكم دعونا نجلس على الأرض ونروى
حكايات حزينة عن موت الملوك »
**شكسبير**
- SHAKESPEARE, RICHARD II

إلى جانب الغناء والمنحوتات العظمية والمزاح الخشن، كان أحد مصادر الترفيه الضخمة للبحارة هو رواية الحكايات والأساطير. وقد سبق ذكر الكثير من هذه الحكايات والأساطير في مواضع أخرى، إلا أنه من الضرورى تخصيص بعض الوقت لوسيلة قتل وقت الفراغ هذه، لأن البحار يرى أن الحكايات، والأساطير على وجه الخصوص، لها مغزى يتعدى مجرد الترفيه. وكما يقرأ المسيحى الصالح عن ابتلاء أيوب أو بطولات داود، فإن البحار يجد متعة فى حكاياته المسلية. وهو يرى أنها تكاد تحمل مغزى دينيًا. فهو يستمد منها السلوى والتعاليم.

السؤال الذى يبرز على الفور هو ما الحكاية الشعبية وما الأسطورة؟ الحقيقة أنه يصعب الحديث عنهما قبل أن يوضع لهما نوع من التعريف.

الواقع أن هناك ثلاثة أنواع من القصص الشعبية. فعلى أحد الطرفين هناك الخرافة (وهى لا تهمنا فى هذا الفصل)، وعلى الطرف الآخر هناك الأسطورة. وفى الوسط توجد الحكاية. وكل صنف له عدد من المعايير التى يمكن تطبيقها عليه. ومع وجود هذه المعايير فى أذهاننا، يمكننا الحكم على الفئة التى تنتمى إليها القصة، تمامًا

مثلما نقدِّر الغواص بالنقط. فالغطسة الكاملة تستحق عشر نقاط، وما لم ينزل الغواص على لوح القفز، فإن أية غطسة تستحق شيئًا. وكما أن الغطسات نادرًا ما تكون كاملة، فإن الحكايات والأساطير نادرًا ما تستحق كل النقاط.

إن كلاً من الحكاية والأسطورة حقيقية، ولكنه نوع مختلف من الحقيقة. ومع أن المصطلحات قد تكون لها دلالة أوسع فى موضع آخر، فالحكاية فى هذا الفصل تنطوى على حقائق تفسيرية بينما تعنى الأسطورة بالأحداث التاريخية. وفى حين قد تتحدث الأسطورة عن شخص يجرى إغراقه، فإن الحكاية تتحدث عن لماذا تهب الريح.

تتناول الأسطورة والحكاية كلاهما الزمن، ولكن بينما تعنى الأسطورة بـ"زمن الساعة" تعنى الحكاية بـ"الزمن الجيولوجى"؛ إن جاز لى أن أخترع مصطلحًا. وفى هذا الصدد تكون الحكاية أقدم كثيرًا من الأسطورة، وغالبًا ما تكون لها بداية تقليدية من قبيل "كان فيه زمان ..." أو "كان يا ما كان ..." وقصة القرن الحادى عشر الخاصة بالملك كانوت King Canute الذى يحاول صد المد أقدم من أن تكون أسطورة ولكنها أحدث من أن نعتبرها حكاية.

وبينما تكون الحكاية واسعة الانتشار ونادرًا ما ترتبط بمكان ما، تكون الأسطورة مقيدة داخل فضاء بعينه وتعنى بأحداث تقع فى جهة محددة. وحين تكون الحكاية على هذا النحو من التقييد، فإن ذلك يكون بغرض تفسير ظاهرة محلية ما كانت لتُفهم لولا ذلك.

تتناول الأسطورة الشخصيات داخل قالب الزمن، بينما تميل الحكاية إلى رسمها بخطوط أكبر من الحياة. ولكى تحقق الحكاية ذلك فإنها تدمج السحر أو العالم الآخر أو العناصر الخارقة فى القصة. وغالبًا ما تكون الحكايات عن الآلهة وأشباه الآلهة والعفاريت والشياطين. ومن ناحية أخرى يكون الناس داخل إطار الأسطورة أشخاصًا حقيقيين وتكون الأحداث التى شاركوا فيها أحداثًا وقعت بالفعل. قد يحدث بمرور الزمن أن تُعَدَّل التفاصيل الهامشية إلى درجة أننا لا نتعرف على القصة الرئيسية، ولكن خلف المادة الإضافية تكمن الحقيقة الثابتة. وأنا لا أنزعج كثيرًا حين أسمع

أسطورة وأعلم أن المصدر لم "يوثقه مؤرخ مدرب". فهناك الكثير جداً من الأساطير الموجودة الآن التي عجز المؤرخون المدربون عن تفنيدها، وعن جعلي أرفض أسطورة ما لعدم وجود مصدر. من يدري؟ فقد يأتي الدليل غداً[1] .

أثناء الليل الطويل حين يحتمي جزء من نوبة الحراسة تحت جانب السفينة الذي يحرسها من الريح، أو أثناء الوقت الذي يقضونه في أسفل السفينة، يحب أفراد الطاقم أن يرووا الحكايات. ويُعْنَى معظم هؤلاء بالحكايات الشخصية؛ عن العواصف التي خاضها الشخص، أو عن زملاء السفينة الذين قابلهم، أو التجاوزات على البر مع الويسكي والعاهرات. ولم أجد أن السياسة أو الدين أو الأكرويات الفكرية تأخذ جزءاً كبيراً من وقت البحَّار. فبعد تغطية الملاحظات الخاصة بالطقس وأعمال السفينة، يعود عقل البحَّار إلى الماضي أو يتجه إلى الحرية المقبلة حين يقفز إلى الخمارة وإلى الماخور.

لقد وجدت باستمرار أن الحساسية تنتج دائماً عن الدعة والترف. أما حياة البحَّار فلا تسمح بذلك. وما يراه الشخص المتحضر قاسياً غالباً ما يجده البحَّار مضحكاً. ولكن إذا كان البحَّار يفتقر إلى الحساسية ويتسم بالفظاظة والقسوة، فهو كذلك كريم. وهو قاس ولكنه شجاع. وعند الحديث عن ذلك، أبدى البروفيسور هربرت هالبرت Herbert Halpert من جامعة نيوفاوندلاند ملاحظة ثاقبة بقوله: "حين تعلم ما الذي يتحمله الصيادون والأشياء التي يفعلونها في حياتهم، لا يكون للشجاعة معنى."

يبالغ البحارة إذن في تصوير الأشياء نتيجة لحياتهم. فلابد أن تكون تجاوزاتهم في الميناء ضخمة كي تحتفظ بمكان لها في ذاكرتهم. ولأنهم يعيشون بجوار الخطر والموت المفاجئ، فهم يتذكرون فقط تلك الأشياء التي قد تبدو لأهل البر غير قابلة للتصديق لارتباطها بالمخاطر، أو لعنفها، أو لشناعتها. وهناك حكاية توضح ذلك.

كما سمعت فإن الحكاية الأصلية كانت أطول من ذلك، ولكن الجزء الموجود هنا فيه الكفاية. ففي أثناء ضباب كثيف قبالة ساندي هوك(*) Sandy Hook حيث سفينتان

(*) شبه جزيرة شرقي نيو جيرزي عند مدخل خليج نيويورك الأسفل (المترجم) .

بعضهما. يصيح صوت ضعيف "يا سفينة. من تكون هذه السفينة؟" ويأتى الرد بصوت عال متعب مزمجر "الباخرة 'أوشن مونارك' Ocean Monarch . أى سفينة تلك؟" "اليخت 'بتسى آن' Betsy Ann من أين جئت؟" "من بومباى. ومن أين أتيت أنت؟" "من ساج هاربر(*) .Sag Harbor كم مضى عليك فى البحر ؟" "مائة وثمانية أيام. وكم مضى عليك أنت فى البحر؟" "أنا أبحر طوال الليل!" ومن الصعب رؤية الطريقة التى يمكن بها لكل طرف أن يبدى اهتمامه بالآخر. ولكن لنعد إلى عملنا.

فى الماضى كانت الحكايات والأساطير شائعة فى البحر، إن كان لنا أن نحكم على ذلك بالأعداد التى بقيت مطبوعة. إلا أنها تمثل فى الوقت الراهن جزءًا متواضعًا جدًا من ذخيرة الراوى البحرى. (إذا رغب أحد فى الاطلاع على الحكايات القديمة فليس عليه سوى دراسة كتب باسيت Bassett وسكينر Skinner وربابورت Rappaport المذكورة فى الببليوجرافيا.) والواقع أنه مع ظهور وسائل الترفيه الحديثة ومع اختراع المحرك الذى يقصّر أية رحلة تقريبًا بصورة كبيرة، تضاءلت الحاجة إلى وسائل الترفيه المحلية بصورة ملحوظة.

ربما كان أشهر تلك الحكايات هى تلك التى تدور حول مطحنة الملح. فقديمًا كان هناك رجل فقير وزوجته يعيشان فى منزل صغير. كان عيد الفصح قد أوشك ولم يكن بالبيت لحم خنزير مقدد ولم يكن هناك أمل فى الحصول على شىء منه. إلا أن زوجة الرجل كانت مُصِرَّة على تقديم لحم الخنزير فى العشاء. كان ذلك هو الوضع، ولكى يحله الزوج ذهب إلى الغابة كى يفكر فى طريقة للحصول على اللحم. وهناك التقى برجل نحيل صغير الجسم طلب منه طعامًا فأعطاه الرجل. وامتنانًا بذلك سأله الرجل الصغير ما هو أكثر شىء يريده فقال له "لحم خنزير مقدد لأحد عيد الفصح." وحينذاك قال الرجل الصغير لمن أحسن إليه إنه إذا ذهب إلى الجحيم وقدَّم للشيطان بعض لحم الخنزير المقدد فقد يعطيه الشيطان مطحنة معينة تطحن أى شىء يطلبه مالكها. كل ما هو مطلوب منه أن يقول "اطحنى كذا"، وتستمر المطحنة فى إخراج الشىء المطلوب إلى أن يأمرها قائلاً "لا تخرجى المزيد من كذا".

(*) قرية جنوب شرقى نيويورك على الطرف الشرقى من لونج أيلاند (المترجم) .

عاد الرجل الفقير إلى بيته بتلك المعلومات، وأخذ آخر شريحة لحم خنزير مقدد فى البيت وذهب إلى الجحيم. عثر على المكان بعد جهد، وبحث باهتمام عن الوسائل العديدة المستخدمة للتغلب على الشرير. رأى الرجل المطحنة فى الركن والتقى بالشيطان. ولمح الشيطان لحم الخنزير ورغب فيه، فساومه الرجل الفقير بنجاح وحصل فى النهاية على المطحنة المسحورة، التى عاد بها إلى بيته.

قرر الرجل قبيل وصوله إلى بيته أن يرى إذا كانت الآلة الجديد تعمل أم لا. وضعها على الأرض وقال "اطحنى لحم خنزير مقدد." وعلى الفور أخذت المطحنة تطن وخرجت منها قطعة لحم الخنزير السمينة تلو الأخرى. فنطق الرجل وهو راض بالكلمات السحرية فتوقفت المطحنة، وعاد إلى بيته ليفرح زوجته بلحم خنزير عيد الفصح.

وبفضل المطحنة السحرية تحسنت أحوال الرجل وزوجته الرجل تحسنًا كبيراً. وأخيراً أعطاها لأخيه الذى كان مزارعًا. كان أول شىء فعله المزارع هو أن أمر المطحنة بطحن الحساء، وقبل أن يتمكن من إيقافها كان لديه نهر من الحساء يخرج من المطبخ. وبعد ذلك طلب منها أن تفعل أشياء عديدة وسرعان ما أصبح شديد الثراء.

وفى يوم من الأيام جاء قبطان بحرى إلى منزل المزارع ورأى المطحنة تعمل. بهر الرجل بإمكانيات هذه الآلة وقرر الاستيلاء عليها ومعرفة كيف تعمل. سأل القبطان الرجل عن طريقة تشغيلها وأخبره المزارع. وفى تلك الليلة استولى القبطان على المطحنة وأخذها إلى البحر فى رحلة صيد.

وحين وصلوا إلى المصايد اصطادوا عدداً كبيراً من السمك، وبما أنهم كانوا بحاجة إلى الملح لحفظ السمك الذى اصطادوه، أخرج الربان المطحنة وأمرها بأن تطحن ملحًا. بدأت المطحنة تطحن ولم يمض وقت طويل حتى صار لديه كمية كبيرة من الملح. ولكن المشكلة هى كيف يوقفها. فهو لا يمكنه بدون الكلمات السحرية أن يسيطر عليها(*) ملأت المطحنة القمرة ثم درج السلم وأخيراً المخزن بالملح إلى أن غرقت السفينة

(*) لاحظ الشبه بين مصير هذا الرجل ومصير قاسم فى حكاية على بابا حين تجسس على أخيه ودخل مغارة اللصوص (المترجم) .

التى زادت حمولتها عن الحد وأخذت معها المطحنة وطاقم السفينة. وحتى يومنا هذا لا تزال المطحنة فى القاع تطحن ملحًا. وإذا كنت لا تصدق هذه القصة، تذوق ماء البحر.

كادت تلك الحكاية تندثر فى التراث الشفاهى فى العالم القديم، غير أنها لا تزال شائعة فى جزر الهند الغربية، حيث أصبحت قصة تقليدية مرتبطة بسلسلة حكايات أناسى Anasi . وغالبًا ما تتناول هذه الحكايات السحر، وهى تُروى دائمًا بطريقة غريبة. ففى البداية يقول الراوى "كريك" ويرد المستمعين عليه بكلمة "كراك". ولكى يتأكد من أن الجميع يستمعون، فإنه يقطع حكايته من حين لآخر بكلمة "كريك" وإذا كانت المستمعون متيقظين فإنهم يصيحون بصوت عال "كراك". كما أنه عند الوقفات أثناء الحكاية يغنى المتحدث شعراً باللهجة المحلية، حيث يكون ذلك بمثابة فواصل بين أجزاء الحكاية. بل إن هذه القصص تستخدم مفردات غير مستخدمة فى الكلام العادى. وحين تنتهى الرواية، يبين الراوى ذلك بعبارة ثابتة؛ إما "وكانت تلك نهاية الحكاية" أو "السلك ينثنى وحكايتى تنتهى".

فى إحدى الليالى فى كارياكو، وبينما كنت أبحث عن حكايات عن السحر، رويت حكاية عن البراهان سير وكيف أنه ألقى بحجره السحرى فى البحر قبل أن يحرقوه حيًا. وقد دُهشت حين روى الإخبارى، القبطان تشارلى بريستول Charlie Bristol، الحكاية التالية:

**كريك!**

**كراك!**

**هناك رجل، هو ـ آه ـ كان رجلاً مسحوراً. كان عند الرجل مطحنة. هذه المطحنة التى عنده، هه، سرقها وأخذها لنفسه على السفينة ـ على السفينة المليئة بالمسافرين ـ المسافرين على السفينة وكانوا جميعًا متجهين إلى مكان ما. وبينما كانوا مسافرين لم يكن عندهم ملح فلأخذ هو المطحنة ولكنه لم يمكنه السيطرة على المطحنة، لماذا؟ لم يأخذ الكلمة الأخيرة قبل أن تصبح المطحنة ملكه. المطحنة ـ لكى تجعل المطحنة تعمل ،**

Moulez-moi qu'arondé

Moulez-moi qu'arond

[ تغنى تسع مرات، كل مرة أسرع من الأخرى ]

كريك!

كراك!

وهكذا المطحنة، هكذا يقولون، لم يكن لديهم ملح ولكن المطحنة تخرج أى شىء يطلبونه من المطحنة لأن المطحنة تخرجه فى الحال .... طلبوا من المطحنة أن تعطى ملحًا السفينة لطهو الطعام. ليس هناك ملح ولكن الرجل سمع الصوت، "شغل المطحنة ـ هذا moulez-moi qu'arondé ـ . قال للمطحنة إنه يريد الحصول على ملح، إنه سيشغل المطحنة. .Moulez-moi qu'arondé قال للمطحنة إنه يريد ملحًا ولذلك ستخرج المطحنة ملحًا الآن. ذلك أن ماء البحر أو ماء التشغيل سيتحول إلى ملح. لأنهم يريدون فقط إعطاء نكهة للطعام فإنهم يريدون الملح للسفينة. سوف أحكى لك يا سيد. سوف يقول الرجل للمطحنة " Warandez"ـ اسم المطحنة Warandez، ولذلك فإن فى كل مرة يقول " Warandez" لابد أن ترد المطحنة وتعطيه ما يطلب. وبذلك فإن أى شىء يطلبه إذا كان شيئًا كهذا فإن على المطحنة أن تلبيه، لأنها مطحنة سحرية. ولذلك قال المسافر للمطحنة إنه يريد ملحًا وبدأت. طلب من المطحنة أن arondé، moulez-moi qu'arondé [ يغنى الأغنية اثنتى عشرة مرة ] .

كريك!

كراك!

بدأت تلك المطحنة تخرج ملحًا، هه. المطحنة طحنت ملحًا إلى أن أصبحت السفينة محملة بالملح. حين أراد أن يوقف المطحنة لم تكن لديه أية طريقة يوقف بها المطحنة. طحنت المطحنة ملحًا إلى أن غرق وغرق كل فرد مع المطحنة.

**عندما تـأخذ شيئًا ـ تسرق شيئًا ولا تعرف عنه شيئًا، فإنه دائمًا يحدث خطأ للكثيرين الذين لا يعرفون أنهم وقعوا فى الخطأ وبذلك تموت أرواح كثيرة، ولكن أن تعرف طريقة التشغيل أفضل من ألا تعرف طريقة التشغيل.**

**كريك!**

**كراك!**

وهذه نهاية حكايتي.

رغم حقيقة أن البحَّار لديه إحساس قوى بشأن "طهارة" البحر ويعترف بأنه لا يتحمل القتلة والمدينين والمشلولين والمتباهين وأى عدد من الأشخاص غير المرغوب فيهم (ويستثنى من يمارسون المزاح الخشن ومن يذهبون للعاهرات ـ وهذان أمران يكادان يكونان من هوايات البحارة)، وهو يعلم كذلك أن البحر سوف يقتله إن أتيحت له الفرصة. وهو يعزو هذه السمة منذ زمن لا يعلمه أحد إلى كائنات شديدة القوى تعيش فى أعماقه. فى الماضى كانت تلك كائنات مثل بوسيدون Poseidon وشونى Shony، ولكن مع ظهور المسيحية حل محلهما الشيطان والعفاريت.

إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية واحدة فلن نجد أى عدم اتساق فى هذا التشعب. فإذا كان الشيطان يريد الأشرار، فما الذى هو أكثر طبيعية من أن يأخذهم من العنصر الذى ألقاه فيه الرب؟ وإذا كان أثناء بحثه يغرق الطيبين ليأخذ الأشرار، فإن ذلك لا يزيد كثيرًا عما يفعله الطبيب؛ حيث يقطع اللحم الطيب ليصل إلى النسيج الخبيث. ولا يرى البحارة أن حقيقة كون الشيطان وأعوانه يقيمون فى أعماق البحر تغير من شخصية البحر مثلما لا تفسد أمراض الطفولة الأطفال.

وتحيط بمفهوم الشيطان دائرة تكاد تكون كاملة من الحكايات. وهو فى إحداها مرتبط بالهولندى الطائر، ويرتبط فى أخرى بوهج القديس إلمو. وتروى الحكايات عن كيفية إثارة الشيطان للعواصف، وما هو على قدر خاص من الأهمية سلسلة كبيرة من الحكايات الخاصة عن مواجهاته العدائية مع عدد لا يحصى من القديسين الذين

يتغلبون عليه فى النهاية. وهو يُرى فى الأعاصير وفى الغروب. ويقال إنه فى بعض الأحيان تخرج يد ضخمة نفسها من البحر وتمسك بالسفينة وتختفى بالسفينة وكل من فيها وما فيها.

تحتمل إحدى تلك الحكايات عن الشيطان الذى يتعامل مع أحد القديسين أن أرويها بإيجاز. فكما فعل نوح، بنى الشيطان سفينة ضخمة كى يضع فيها الأرواح التى استولى عليها. وقد صنع هذه السفينة من خشب ينمو فى الجحيم. كانت سفينة جميلة، غير أن رائحة الكبريت والدخان كانت تفوح منها؛ وفيها كان يحشد الجحيم بالفعل، فيدمر السفن وينشر المرض ويحمل على متنها الملعونين ويمارس المجون طوال الليل. وكان الفساد والمجون من الشدة بحيث لفتا انتباه القديس إلمو الذى أوقفهما. أولاً: أضرم النار فى السفينة، ولما لم يرضه ذلك كل الرضى، أحدث فى جانبها ثقبًا جعلها تهوى كالحجر، حيث كادت أن تأخذ إبليس معها. ولو لم يكن سباحًا ماهرًا لـ"هوى إلى القاع" ووجه بالتالى ضربة قاتلة للمسيحية. ولكنه سبح إلى البر، ولكن سفينته مازالت حتى الآن تحترق تحت الماء. ويقال إن هذا الاحتراق هو الذى يسبب الوميض الفسفورى فى البحر. كما يقال إن الأضواء الفسفورية هى مشاعل الشيطان وإنه يبحث عن حطام كبريائه ومرحه، لانتشاله على ما يبدو[٢] .

فى إسكوتلندا هناك قدر كبير من المأثورات التى تحيط بكائن غريب هو ملك لوخلان King of Lochlann . وكان "لوخلان" اسمًا قديمًا للنرويج، ولكنه كان كذلك مصطلحًا خاصًا بمنطقة ميثولوجية فى الشمال[٣] . واليوم لا يبدو أن هناك تمييزًا واضحًا بين الممالك الميثولوجية والممالك الحقيقية. ونتيجة لذلك فإن مصائب هذا الملك (أو الملوك) تظهر بصورة كبيرة فى صنع الحكاية والأسطورة فى جزر هيبريديز. وقد رأينا كيف أن ابنه ابتلعته الدوامة كوريفريكان، وتاهت ابنته وهى فى طريقها إلى سكوشا، وتحول عدد من أولاده الآخرين إلى حيوانات فقمة. وكان لدى الملوك أطفال آخرون يبدو أن نصيبهم لم يكن أفضل حالاً. ولابد أن هذه الحكايات كانت فى يوم من الأيام طويلة ومعقدة، أما الآن فهى تعيش بالكاد باعتبارها حواديت. والحكاية التالية رويت لنا فى إحدى الليالى فى جزر هيبريديز الخارجة"

**منذ زمن بعيد كانت الشمس والقمر على نفس القدر من التوهج. وكانت الشمس تحكم بعض الوقت ويحكم القمر ما تبقى، وكان اليوم كله نهار. كان القمر امرأة التقت بملك لوخلان الذى نام معها وأصبح لديهما سرب من الأطفال معظمهم من البنات. ولسبب أو لآخر غارت الشمس من القمر - ربما لأنها كانت لديها ذرية كثيرة - فألقت عليها تعويذة اعتمت وهجها وجعلتها أقل بكثير من الشمس. ولم تعتم الشمس ضياءها وحسب، بل مضت إلى ما هو أبعد من ذلك وحولت كل أطفالها إلى بجعات. وهذا هو السبب الذى يمكن أن يقوله لك أى شخص تقريبًا، وهو أنه حين تنام الطيور يمكن رؤية البجع يسبح أو يطير عبر طريق القمر، أمه.**

وفى أيرلندا يستميت التراث أكثر منه فى إسكوتلندا، ومع أن حكايات ملك لوخلان مشهورة، فإن الحكايات الأيرلندية من ماضيهم هم؛ وهو ماض غنى بالحكايات والأساطير ذات الطول الكبير. ومع أن أطول حكاية جمعتها فى أيرلندا استغرقت روايتها أكثر من ثلاث ساعات وكانت تتناول "زمن العمالقة"، فلا تزال هناك حكايات تستغرق روايتها أربعًا وعشرين ساعة؛ وما يزال هناك من يروونها ومن لديهم الاستعداد لسماعها.

من بين تلك الحكايات القديمة سلسلة تدور حول فيون (فِن) العادل. وكان ذلك الشاب المميز قد ولد فى ظروف صعبة ورُبى فى كنف المخاطر فى البرية، ولكنه شب ليصبح رجلاً قويًا ممتازًا فى كل شىء؛ وخاصة فى القتال. وتتعلق إحدى مغامراته المشهورة بسمكة سلمون، وهى تساعد على فهم كون السلمون دون غيره من الأسماك على هذا القدر من الأهمية بين الشعب الغيلى. (فى إسكوتلندا يعد من النحس ذكر سمك السلمون، بينما نجد أنه محبوب فى أيرلندا لدرجة أنه يُصَوَّر على العملات المعدنية.)

**حينذاك قال وداعًا لكريمل Crimall ومضى ليتعلم الشعر من فينيجاس Finegas، ذلك الشاعر الذى كان يعيش فى بون Boinn. ذلك أن الشعراء كانوا يظنون دائمًا أن الشعر يتكشف لهم على حافة الماء. ولم يعطه اسمه، ولكنه اتخذ لنفسه اسم ديمن Deimne . مضت سبع سنوات على توقف فينيجاس فى بون يراقب**

**السلمون، ذلك أن النبوءة كانت تقول إنه سوف يأكل سمكة سلمون المعرفة التي سوف تأتي إلى هناك، وسوف تكون لديه كل المعرفة بعد ذلك. وحين جاءت سمكة سلمون المعرفة أخيراً أتى به إلى حيث كان فِن، وأمره بأن يشويها، ولكنه أمره بألا يأكل منها شيئاً. وحين أحضر له فِن السمكة بعد قليل قال: "هل أكلت أي شيء منها على الإطلاق يا غلام؟" فرد فِن قائلاً: "لا لم آكل منها شيئاً، غير أني أحرقت إبهامي وأنا أزيل بثرة نتأت على الجلد، وبعد ذلك وضعت إبهامي في فمي." فقال فينيجاس: "ما اسمك يا غلام؟" فقال "ديمن." "لا بل إن اسمك هو فِن، وأنت الذي أُعطي المعرفة في النبوءة ولست أنا." وبذلك أعطى السمكة كلها لفِن، ومنذ ذلك الوقت أصبح لدى فِن كل المعرفة التي جاءت من ثمرات شجرات بندق الحكمة التسع التي تنمو بجوار البئر الموجودة تحت البحر(٤).**

يقع بين هذه الحكايات والأساطير عدد كبير من الحكايات عن القديسين؛ وخاصة في إسكوتلندا وأيرلندا. وليس هناك ما هو أشهر من تلك الحكايات التي تدور حول كولم سيب المعروف باسم القديس كولومبا الذي كان ملكًا في أيرلندا في وقت من الأوقات. وحين كان ملكًا أراد كتاباً مقدساً بعينه وخرج مقاتلاً للحصول عليه(٥). وأسفرت الحرب عن مقتل ثلاثة آلاف شاب، مما أغضب الملك وأصابه بانهيار عصبي، وحين تعافى أقسم أن يصبح رجلاً مقدساً وينشر المسيحية بين أهل الأرض؛ وهو رد فعل لا نجده كثيراً بين الساسة.

بناء على ذلك سافر العاهل الغاضب إلى غرب أيرلندا وركب قارباً مع بعض الرفاق وساروا بمحاذاة الساحل، وعبروا إلى إسكوتلندا وأسسوا دير أيونا. وفي الطريق زاروا معظم الجزر والموانئ في الغرب، ومن أيونا جاب مناطق شاسعة في أنحاء إسكوتلندا. وفي رحلاته كانت له مغامرات كثيرة وأتى بمعجزات كثيرة حفظ بعضها أدومنان Adomnan في كتابه "حياة كولومبا" Life of Columba. (٦) وحفظ كثير غيرها في نقاط عديدة نزل فيها على طول الساحل، وحتى الجزر؛ ذلك أنه هو الذي أمر الدودة الضخمة في لوخ نِس بالتوقف والامتناع عن أكل الناس. وكشأن معظم ما ينقل عن سير القديسين، تُعْنَى بعض الحكايات التي تدور حوله بأعماله، بينما

تكون الحكايات الأخرى بوحي من وجوده. وفي فانيز هول Fanny's Hole بمقاطعة دونيجال County Donigal حكوا لنا عن زيارة الرجل المقدس لذلك المكان. وروت مسز ماكبرايد:

كان كولم سيل رجل حرب ـ كان يحب الحرب ـ ولكنه كان قديسًا وذهب إلى أيونا للتوبة، ولست متأكدة أين تقع، إنني لا أعرف، ولكن ربما تكون في مكان ما من إسكوتلندا. وفي طريقه إلى هناك توقف في خليج ملروى. وكان كولم سيل من دونويل Doonwell حيث توجد بئر مقدسة. وكان الناس يذهبون إلى هناك بالعكازات ويعودون بدونها. ولكن على أية حال كان هناك صيادان في خليج ملروى ورأياه آتيًا. كانا يصطادان السلمون وكان معهما سمكتان في القارب، ولكنهما كانا يعلمان أن كولم سيل هو ذلك الرجل الضخم الذي يستجدى. فقط كان على الدوام يطلب شيئًا، وكانا يعلمان أنه سوف يطلب السلمون؛ وإذا قالا إن لديهما شيئًا فسوف يرغب في الحصول عليه. ولذلك اتفقا كلاهما على أن يقولا له إنه ليس لديهما شيء بالرغم من سمكتى السلمون الكبيرتين اللتين معهما بالفعل في القارب.

وبالفعل جاء وسألهما فقالا: "لا ليس لدينا شيء."

وحينذاك قال القديس كولم سيل "هذا أمر يدعو للأسف الشديد. فإذا لم يكن لديكما شيء فإنكما من الآن سوف تصطادان الكثير في خليج ملروى، ولكن إذا كان معكما شيء فلن تصطادا أنتما ولا غيركما سمك السلمون في خليج ملروى بعد ذلك." وذهب إلى حال سبيله.

ومنذ ذلك الوقت ولمدة عشرين سنة تقريبًا لم يصطد أحد السلمون في هذا الخليج، وحينذاك خرج بعض الرجال في قارب وقفزت سمكة سلمون وأمسك بها أحد الرجال (وكان بروتستانتيًا) وحين أمسكها قال "لقد أخطأ القديس كولم سيل". وساعتها قفزت السمكة من بين يديه وعادت إلى البحر. فقد كان القديس كولم سيل محقًا على أية حال، لأنه لم يصطد أحد السلمون في ذلك الخليج من يوم اللعنة إلى يومنا هذا.

كما ذكرنا من قبل، فقد زار القديس كولم بسيل كذلك جزيرة تورى التى لا تبعد كثيراً عن خليج ملروى، حيث لقى بالور نو العين الشريرة، وهو أحد أسلاف فن، مصرعه. وفى ذلك الوقت كانت الجزيرة مليئة بالوثنيين بقيادة رجل اسمه دوجان Dou-gan، وحين رأوا الرجل المقدس آتياً تجمعوا على الشاطئ ليمنعوه من الهبوط عليه. إلا أن القديس تحدث مع دوجان، وأخيراً قالوا له إن بإمكانه الهبوط دون قتال. ووقتها كان لدى دوجان كلب أسود مخيف اشتهر بطابعه العنيف. وحين هبط كولم بسيل كان الكلب على إحدى الصخور، وما إن بدأ الرجل المقدس يسير إلى الشاطئ حتى قفز الحيوان على رقبته. وكانت القفزة من القوة بحيث غاصت أقدام الكلب فى الصخر وشق نيله جلموداً حين انطلق. لم يفعل القديس القوى سوى أن رفع يده. توقف الكلب الشيطان فجأة فى الهواء وسقط على الصخور التى أسفل منه، وانكسرت رقبته. وبالنسبة لمن فى نفوسهم شك، لا تزال الصخرة المشقوقة وآثار أقدام الحيوان تُرى فى الحجر بجوار مكان الهبوط.

ويوجد على الجزيرة كذلك أخطر حجر ويُعرف باسم حجر اللعن، ولكنه مخفى حتى عن السكان المحليين أنفسهم. فقد تركه القديس الطيب هناك لحماية الناس، حيث لم يكن لديهم أية وسيلة دفاع أخرى، وقد قدم لهم خدمة جليلة. وكان مكتوبًا على الحجر باللاتينية "أدرنى برفق ولا تؤذنى". فإذا تعرض شخص ما بأذى لآخر أو إذا كانت الجزيرة فى خطر، فإن كل ما هو مطلوب عمله هو وضع اليد على الحجر وإدارته مع ذكر اسم المعتدى. وسوف يتدفق الدم من الحجر ويسقط الشخص المعتدى صريعاً. وكانت آخر مرة استخدم فيها الحجر فى ٢٢ سبتمبر عام ١٨٨٤ .

حدث أن تخلفت جزيرة تورى عن دفع إيجاراتها، وأُرسلت السفينة البريطانية "واسب" Wasp وبها مفرزة صغيرة للتحصيل. علم أهل الجزيرة بما كان يجرى وحملوا الحجر إلى الشاطئ . وعند الغروب تماماً شوهدت "واسب" فى عرض البحر ووضع الحجر ليعمل. فى تلك الليلة خيم الضباب، وفى الصباح لم ير أحد "واسب". وفى النهاية ألقت الأمواج بطاقمها جثثًا ولكن أحداً لم يسمع شيئًا عن السفينة قط. وبعد ذلك أصبح تحصيل الإيجارات حدثًا عشوائيًا وأُخفى الحجر، ذلك أنه اعتُبر سلاحًا أخطر من أن يكون متاحاً للجميع.

يبدو أن أحجار اللعن تلك كانت شائعة في أيرلندا في وقت من الأوقات. فطبقًا لما يقوله البروفيسور سيموس ديلارجي Seamus Delargy كان هناك حجران في كيلكُمين رودز Kilcummin Roads بعيداً إلى الجنوب، غير أن الناس كانوا يرهبون قوتهما إلى حد أنهم ألقوا بهما في البحر(٧) .

لم يكن القديسون وحدهم الذين يقفون في منتصف التحول بين الحكاية والأسطورة، كما أن الرب ليس المصدر الوحيد للسحر. كما أن أيرلندا وإسكوتلندا ليس المكانين الوحيدين اللذين تُروى فيهما تلك الحكايات. فقد روى لي الراحل ماك إدوارد ليتش MacEdward Leach الحكاية التالية التي جمعها من كيب بريتون عام ١٩٤٩ . وكما يحدث لمن يقرؤها، فقد أدهشته على الفور سمة العالم الجديد التي اتسمت بها فكرة من أفكار العالم القديم.

منذ سنوات بعيدة كان يعيش في كيب بريتون رجل إسكوتلندي لديه ابن وحيد. توفيت زوجته وتزوج هو من امرأة كان لديها طفلان من زواج سابق جاءت بهما معها حين انتقلت إلى البيت الجديد. كانت المرأة تكره ابن زوجها. لم تكن تطعمه سوى بقايا الطعام وتجعله ينام على مرتبة محشوة بالقش وكانت تكلفه بشتى أنواع العمل الشاق، بينما كانت تعطي طفليها الأحسن من كل شيء.

تصادف أن طفليها كانا يحبان الموسيقى بشدة، وبذلت هي ما في وسعها كي يكونا عازفين جيدين. فقد أتت لهما بزمار ليعلمهما واشترت لكل منهما مزمار قربة ممتاز، ولكن حين أراد ابن زوجها العزف رفضت أولاً السماح له وبعد ذلك أعطته مزماراً صغيراً بائساً لا يكاد يخرج صوتًا.

وفي يوم من الأيام أرسلت زوجة الأب ذلك الصبي إلى الغابة ليقطع خشبًا للمدفأة بينما بقي ابناها في البيت يعزفان على المزمار. وكانت قد أعطته قطعتي خبز ليتغدى بهما.

لم يكن الصبي قد قطع مسافة كبيرة داخل الغابة حين رأى رجلاً عجوزًا جسمه صغير جداً وقد جلس مستنداً على شجرة. قال الرجل الصغير إنه يتضور جوعًا

وسأله شيئًا يأكله فأعطاه الصبى خبزه. أكله الرجل كله وطلب المزيد، فقيل له إن ذلك هو كل ما مع الصبى وإنه كان طعام غدائه فى واقع الأمر.

حينئذ قال الرجل الصغير "ما الذى تريد أن تفعله كأحسن ما يكون فى العالم كله؟" فرد عليه الصبى "أود أن أكون أعظم عازف لموسيقى القرب فى العالم" وحكى للرجل العجوز عن مزماره وحياته الصعبة فى البيت.

قال الرجل الصغير "ضع أصابعك فى فمى وتخيل أنك تعزف الموسيقى" ففعل الصبى ذلك. "والآن عد إلى البيت وغدًا ستكون أعظم زمار فى العالم" .

فى اليوم التالى جاء رجل إلى باب البيت وقال للمرأة إنه من السيرك ويبحث عن زمار ليعزف بين الفقرات. سُرّت المرأة بشدة وجاءت بولديها. عزف الولدان للرجل، وكان عزفهما من الجودة بحيث لم يمكنه اتخاذ قرار. وبينما كان يفكر فى الأمر لمح الصبى. "ما بال هذا، هل يعزف؟ كلا. إنه لا يمكنه العزف بالمرة. فكل ما لديه مزمار صغير بائس" .

"دعيه يجرب على أية حال" .

أخذ الصبى مزماره وعزف أحلى موسيقى سمعها الرجل فى حياته فاستأجره على الفور، وذهبا إلى السيرك حيث أصبح أعظم زمار فى العالم.

تصادف أن دُشنت سفينة جديدة بعد ذلك ببضع سنوات فى سيدنى [ بنوفا سكوشا ] ، وكانوا يريدون زمارًا للترفيه عن المسافرين واستأجروا هذا الصبى.

وفى يوم من الأيام واجهت الباخرة عاصفة رهيبة. فقد حدث بها شرخ وبدأت تغرق. كان ذلك قبل زمن اللاسلكى ولم يعرف القبطان ما يفعله إلى أن ظهر الزمار على منصة الربان. قال له "أدفئ يداى بالنفخ على أصابعى وسوف أنقذك." فعل القبطان ذلك وبدأ الزمار فى العزف. عزف موسيقى حزينة وعزف بصوت من الارتفاع جعل الناس على الشاطئ على بعد ستة وعشرين ميلاً يسمعون عزفه وأرسلوا القوارب وأنقذوا الجميع.

**كان امتنان أصحاب الشركة كبيراً حتى إنهم أعطوا الزمار مكافأة عظيمة وتقاعد هو في واد صغير. وكان اسم الزمار كامبل Campbell ومازال المكان الذى كان يعيش فيه يسمى "وادى الزمار" Piper's Glen .**

ليست أحجار اللعن والمزامير الأشياء الوحيدة التى تدور حولها الحكايات. فكل ما يمكن ذكره تقريباً ربما تدور حكاية عنه في مكان ما، والشيء الذى يتصل به قدر كبير من المأثورات هو الجرَس. ولكن لنتحدث أولاً عن أشياء أخرى تخرج أصواتاً.

منذ أقدم العصور والناس تظن أن عالم الأرواح تحركه الصفارات والشخاشيخ. فى أغلب الأحيان كانت تلك الشخاشيخ تصنع من مواد خاصة (فقد أخبرونى فى كاريكاكو أن "التشاك تشاك" [ الشخشيخة ] الجيدة لابد أن تحتوى على بذور حمراء معينة؛ وهى نفس البذور التى يستخدمها الشخص حين يريد معروفاً من الشيطان). ويرى معظم أفراد المجتمع الشعبى أن الأشباح والأرواح تعيش فى مكان ساكن وتتجول فى نوبات ليلية ساكنة طويلة. ويعتقد العامة كذلك أن الأرواح أشبه بالطيف؛ "إن آتى كما الماء، وكما الريح أذهب." ويحدث هز الشخاشيخ ونفخ الصفارات ضجيجاً لا تطيقه الأرواح. كما أن نفخ الصفارات يستخدم الريح، والأرواح عادة أطياف تتحرك فى الهواء(٨) .

نلتقى بعد الشخاشيخ بالأجراس، وهى أداة أكثر تطوراً من حفنة بذور حمراء داخل قرعة مجففة.

تشيع الأجراس فى الفولكلور منذ زمن بعيد، وهى عادة ما ترتبط بصورة أو بأخرى بالعالم الآخر. فحين يغرق رجل فإن من المفترض أن آخر ما يسمعه صوت جرس. وحين تغرق سفينة ما فمن المفترض أن جرساً يدق قبيل غرقها. وحين يسمع رجل صحيح أجراساً فى أذنه فهو يعرف أن صديقاً مات. وليس من السهل معرفة سبب تتمتع الأجراس بهذا القدر من الأهمية على وجه اليقين، ولكن من الممكن أن نتكهن ذلك السبب(٩) .

ترتبط الأجراس، كما هو حال الشخاشيخ من قبلها، بالطقوس الدينية، وهى تقوم بدور مهم فى الأفراح والجنازات والحَرْم الكنسى. وعادة ما تصنع الأجراس من المعدن،

وخاصة الحديد أو الفضة أو الذهب أو معدن الأجراس. واثنان فقط من هذه المعادن، وهما الذهب والفضة، يعثر عليهما فى حالة المعدن الخالص. وأحدهما أبيض بلون القمر، والآخر أصفر بلون الشمس، وعن طريق عملية التحول القديمة كان العامة ينسبون إلى هذين المعدنين صفات يعتقدون أنها من صفات الشمس والقمر. وبالطبع يُعثر على الحديد فى الطبيعة فى حالته الخالصة فقط على هيئة نيازك جاءت من أرض الخلود Athanasia . بل كان الحديد بمثابة القنبلة الذرية فى عصره، ذلك أنه حين تعلم الإنسان تشكيله أصبح لديه سلاح رهيب يتغلب به على عدوه. ومن الطبيعى أن يكون صوت الحديد على الحديد مثيراً للإزعاج بالنسبة لمن يعتقدون أن الجنيات ومخلوقات العالم الآخر هى فى الواقع أناس أبادهم الغزاة. أو كما قال كاتب قديم، فإن "قرع الأجراس بشكل مبالغ فيه يزعج الأرواح"[١٠] .

ليست الشمندورات ذات الأجراس، والشمندورات ذات الأجراس الكهربية، والشمندورات ذات الصفارات هى الأصوات الوحيدة التى يسمعها البحَّار. فهناك ما هو أكثر من ذلك. فهو يستمع إلى الأجراس السحرية التى تُسمع فى الهواء وتحت الماء لتنبئه بحالة الطقس. وإذا كانت هناك عاصفة ستهب تُقرع الأجراس لإبعاد الريح، أما إذا كان إعصاراً فيُقرع الجرس فى المؤخرة. وكانت الأجراس تُستخدم فى بعض الأحيان كذلك لعلاج الجنون. إذ كانوا يستخدمون لذلك جرساً صغيراً يعلق على شواهد القبور فى إسكوتلندا. وكان الجرس يُربط فى أعلى رأس المصاب بالجنون ويظل فى مكانه. وفى الصباح كانوا يغطسون المريض فى بئر مقدس ويعلنون شفاءه. وكانوا يعتقدون أن جرساً آخر، فى أيرلندا، ممتاز فى تخفيف آلام الوضع. وهذا فى الأصل جرس سقط من الجنة، ولكن قبل أن يهبط فى مقاطعة دونيجال غيَّر لسانه رأيه وعاد إلى الجنة[١١] .

من اللافت للانتباه أننا نلاحظ من حين لآخر أن هناك حكايات متشابهة. وقد ذكرت من قبل جرس جزيرة كاهر العجيب وكيف أنه كاد يقضى على الأشخاص الذين حاولوا انتزاعه. وعلى الساحل الجنوبى الشرقى لإنجلترا كان هناك جرس مشابه يملكه رجل مقدس اسمه القديس جوف St. Gove ؛ وهو صديق البحارة كافة. وكان القديس

جوف يعيش حياة شديدة التقشف، إلا أنه كان يسمح لنفسه بترف جرس فضي جميل. وكان القراصنة قد سرقوا الجرس وهربوا به، ولكن ما إن خرجت مرساتهم من الأرض حتى هبت عاصفة وفُقد البحارة كافة ومعهم الجرس. إلا أن الجرس لم يبق كثيراً في قاع البحر وعاد إلى المكان الذى جاء منه ودفن نفسه في صخره. وحتى يومنا هذا يقال إنه إذا ضرب أحد الصخرة دق الجرس(١٢).

يتناثر في أنحاء مياه العالم عدد من الأجراس التي مازالت تدق؛ وهى عادة ما تحذر من قدوم العاصفة. ويذكر جونز أن حمولة أجراس أُرسلت إلى فورابيرى Forrabury لمنافسة أجراس تنتاجيل Tintagel . تباهى قبطان السفينة بقدرته كبحار وغرقت السفينة. وكذلك في كورنوول، وطبقًا لما ذكره أحد الإخباريين، هناك مدينة غرقت في البحر بسبب شرها، وحتى اليوم تدق الأجراس تحت الماء حين توشك العاصفة على الهبوب.

حين وصل كولمبس إلى العالم الجديد رسا في ميناء كينجستون وربط دفته بشجرة قطن حريرى لإبعاد الإعصار. (حكت لي مسز ويلسون Mrs. Wilson التي تعيش في ذلك المكان هذه الحكاية وأرتني ثلاث حلقات سلسلة في عام ١٩٥٦). ومنذ ذلك الوقت والميناء، الذى يعد واحداً من المراسى المعتدلة القليلة في الجزيرة، تسكنه مجموعة شديدة الشراسة والشغب. وفي ظل قيادة مانسفلت Mansfelt الذى قتله هنرى مورجان Henry Morgan بالسم، وبعد ذلك في ظل قيادة مورجان نفسه، أصبحت مدينة بورت رويال Port Royal واحدة من أشرس الثغور التي عرفها العالم وأكثرها فساداً. فكان القراصنة واللصوص الممتلئة جيوبهم بالغنائم الأسبانية تصاحبهم السبايا ينغمسون في كل أنواع المجون المعروفة في ذلك الوقت. ورغم ذلك كان بالبلدة كاهن وكنيسة كبيرة، وإن لم يكن هناك ما يدل على أن أياً منهما كان لديه عمل كثير. ومع أن الكنيسة لم تكن على جدول أعمال معظم السكان، كان كثيرون منهم يشكون من أن جرس كنيسة القديس بولس غير مناسب ووضعوا مكانه جرساً أكبر منه، ومن المفارقة أن ذلك جرى من خلال إسهام الجمهور.

ومن حين لآخر كان القس وغيره ينبهون الناس إلى إصلاح أسلوب حياتهم، ولكن بلا جدوى. وفي النهاية تدخل الرب. ففي الساعة الحادية عشرة من السابع من يوليو

عام ١٦٩٢ ضربت بورت رويال سلسلة من الهزات الأرضية التى أعقبتها موجة من المد. وبحلول الظهر كان الأمر قد انتهى وكانت بورت رويال ترقد وفوقها "خمس قامات كاملة من الماء". وعلى عكس المعتقد المحلى، هلك ربع السكان فقط، ولكن الكنز الذى هناك يفوق الخيال. وتقول الحكايات المحلية إن المدينة هبطت وهى واقفة وظل الجرس فى البرج. وهناك، وقبل الأعاصير وغيرها من الأحداث المأساوية، يدق الجرس فى الوقت المناسب لتحذير البحارة من الخطر الوشيك. ورغم العثور على الجرس ومعه كميات كبيرة من الكنوز، مازال البحارة فى المنطقة يعتقدون أنه يدق فى أوقات الخطر (١٣).

تقودنا هذه الحكاية بطريقة طبيعية جداً إلى الأسطورة التاريخية فى حد ذاتها، وكذلك إلى مناقشة مصداقية الأساطير والأبطال الأسطوريين. وفى السنوات الأخيرة كان المؤرخون ينظرون بريبة إلى الأساطير التاريخية، وبذل بعضهم جهداً ضخماً لبيان ذلك، لأنه لا يمكن دائماً دعمها بالأدلة. ولأنه مشكوك فيها، ولأنه لا أساس لها من الصحة. والواقع أن الأسطورة واحدة من الوسائل الرئيسية التى كان العامة يتناقلون بها التاريخ.

هناك كذلك شعور سائد بين الباحثين بأن الأسطورة (التاريخ الشعبى) لا أساس لها من الصحة لأنها لا تبرز الأمور الصحيحة أو المهمة فى الماضى التاريخى، ولا تفسرها التفسير اللائق. وإذا استخدم ذلك كمعيار للقياس لعانى الكثير من كتب التاريخ التى كتبت فى الماضى معاناة شديدة. والواقع أن كتاب جيبون **Gibbon** " قيام الإمبراطورية الرومانية وانهيارها" سوف يكون قائماً على أساس غير متين إلى حد ما إن نحن حللناه بهذه الطريقة. ولكن إذا كان التاريخ هو الحافظ للماضى الذى يُفسَّر فى ضوء القيم الثقافية للمؤرخ، فحينئذ يكون العامة قد نجحوا نجاحاً مدهشاً، ذلك أن قيمهم الثقافية مختلفة عن قيم المفكرين الثقافية.

ولكى يظل عنصر بعينه باقياً - شفاهياً على وجد التحديد - لابد أن يكون له مغزى أكبر من غيره. وفى الأساطير، يتجسد هذا فى البطل، سواء أكان إنساناً أم جماداً، قديساً أم خاطئاً. ويرى العامة الأنجلو سكسونيون أن البطل لابد أن يبدى قدراً كبيراً من القوة، ولابد أن يتحمل مشاق شديدة، ولابد أن تكون لديه شجاعة عظيمة. وحين

ينتصر قد يمكنه التباهى بانتصاره، وحين يخسر لابد أن يخسر بشجاعة، حيث يتغلب عليه بحر من المشاكل.

أورد اللورد لاجلان Lord Laglan فى كتابه "البطل" The Hero، الذى يحاول إثبات أن المسيح لم يكن له وجود على الأرض، قائمة بكل الصفات التى يشترك فيها كل الأبطال العظام وأوضح أن ذلك أمر يبعث على الضحك. والحقيقة هى أنه لو لم تكن لهم تلك الصفات لما برزوا بين العامة، تمامًا مثلما لا يمكن للسياسى أن يبرز بين أقرانه بدون الخداع. وسوف أناقش عدداً من الأبطال الشعبيين فى هذا الفصل. وقد كانوا جميعًا رجالاً عظام، وكانوا جميعًا رجالاً أقوياء، وكانوا جميعًا على قدر كبير من الشجاعة، وأنجزوا جميعًا أعمالاً مستحيلة وماتوا - إذا كان الموت جزءاً من حكايتهم - مثل بيوولف Beowulf، وهم يقاتلون فى مواجهة صعاب جمة. ولم يميِّز أحدهم لذكائه أو لثروته أو لصلاته العائلية.

حين يتذكر البحارة رجلاً ما أو حكاية ما، باعتباره رجلاً بارزاً أو باعتبارها حكاية بارزة، لابد أن نعرف أن هذا أمر عادى. وبما أن غرق السفن وعمليات الإنقاذ تمثل شريحة كبيرة من أساطير البحارة، فلابد من تقديم نموذجين مختصرين للاثنين بالترتيب.

منذ عدة سنوات جنحت سفينة شحن فى بلاكووتر بانك Blackwater Bank قبالة الساحل الشرقى من أيرلندا. كانت الريح شديدة وكان البحر الرهيب يندفع للخارج. وحين شاهد أهل روسلير Rosslear السهام النارية تنطلق أنزلوا قارب الإنقاذ واتجهوا نحو السفينة الغارقة. ومما يؤسف له أن البحر قلب قارب الإنقاذ مرتين قبل أن يبتعد كثيراً عن اليابسة. وفى إحدى المرتين فقد رجلين وفى المرة الأخرى فقد رجلاً واحداً. وفى كل مرة كان يعود ليأتى بمزيد من الرجال، وكان المزيد من الرجال على استعداد للذهاب.

وحين ذهب القارب أخيراً إلى سفينة الشحن كان الطقس "شديد السوء" بحيث لم يمكنه الاقتراب منها. كان أفراد طاقم السفينة الجانحة قد صعدوا على الأشرعة ودخل الماء بدن السفينة. درس قائد قارب الإنقاذ الموقف ثم استدار ليكون عند الجانب المواجه

للريح من السفينة وانتظر الفرصة وحين جاءت موجة كبيرة زود سرعة المحرك ومر من فوق السفينة على موجة طويلة، والتقط الأحياء وذهب. فعل ذلك ثلاث مرات قبل أن يعود إلى الميناء بالأحياء كافة. وكان التعليق الوحيد الذى صدر عن الإخبارى بشأن الحكاية هو " لا أفهم ذلك. لابد أن قائد ذلك القارب لم يذهب إلى البحر منذ ذلك اليوم حتى يومنا هذا."

قبل وضع أعمال الإنقاذ فى أيدى مصلحة الإيرادات الداخلية فى الولايات المتحدة كانت الجمعية الإنسانية Humane Society تتولى ذلك. وتحتوى حوليات تلك المنظمة الكثير من روايات الإنقاذ التى تشبه المعجزات. ذات يوم فى شهر يناير قبالة لونج أيلاند، أُنزل قارب البحر وملأه الماء ست عشرة مرة قبل أن يتحرر من الأمواج فى المرة السابعة عشرة. وفى كيب كُد فى يناير ١٨٦٦ جنحت السفينة الشراعية "كريستينا" Christina وعلى متنها طاقم من خمسة أفراد ومخزن ملىء بالفحم فى هوز شول Hawes Shoal . وكان ذلك يوم أحد وكانت هناك عاصفة ثلجية وريح شديدة. وبحلول الليل كان أفراد الطاقم كافة قد صعدوا على الأشرعة وتجمد الربان حتى الموت. ظل وكيل القبطان تولمان Tallman معلقًا وهو يراقب أبراج كنائس مدينته أوسترفيل Oster-ville التى كانت يراها من خلال الثلج. وتجمد أفراد طاقمه الواحد تلو الآخر حتى الموت، وكان آخرهم الخادم. وفى النهاية أصبح تولمان محاطًا بالثلج ومجمدًا فى الشراع. وأخيرًا اعتدل الطقس وأخذه قارب إنقاذ من عليه يوم الخميس. فقد تولمان قدميه وأصابعه، ولكنه بقى على قيد الحياة(١٤) .

تلك هى أنواع الأحداث الشائعة. وأود توضيح تلك الملاحظات بحكايتين، إحداهما من القرن السادس عشر والأخرى من القرن الثامن عشر. وقد تناول الاثنتين "مؤرخون مدربون" وحفظهما العامة كذلك. تتعلق الأولى بالأرمادا الأسبانية، أما الثانية فهى عن غرق سفينة مهمة فى جزر سيلى(*) Scilly Isles .

ابن بيج سايرز Peig Sayers راوى الحكايات الأيرلندى العظيم، صياد السمك السابق، رجل عجوز الآن يعيش فى قرية صغيرة تسمى فيكارزتاون Vickarstown فى

(*) مجموعة جزر تقع جنوب غربى لاندز إند بإنجلترا تضم حوالى ١٤٠ جزيرة.(المترجم) .

دنمور هيد Unmore Head وهى أقصى رأس ناحية الغرب فى أيرلندا. ويقع أمامه لسان بلاسكيت Blasket Sound وقبل ذلك جزر بلاسكيت Blasket Islands حيثما ولد. واسمه هو مايكل جوهين Michael Guhen، وهو واحد من آخر الرواة الأيرلنديين، وقد زرته فى يوم عاصف وروى لى الحكاية التالية :

**هذه هى الحكاية التى سمعتها عن الأمير الذى يسمونه أمير أسبانيا، وكان يحارب فى تلك المرة إنجلترا، يحارب قوة إنجلترا الجبارة. ويقول العجائز إنه كان رجلاً مجنونًا لأنه يحارب الإمبراطورية البريطانية، لأنه يعرف دائمًا أنه لابد أن يستسلم فى النهاية، المجال النهائى، ولكنه أجبر على الذهاب إلى سميرويك هاربر Smerwick Harbour فى بداية العام، فى مستهل العام. فى البداية، فى يناير ربما، أو ربما بعد يناير، وفى الوقت الذى كان فيه الطقس شديد السوء فى ساحل أيرلندا الغربى، البحر هائج، والأمطار غزيرة، والعواصف مستمرة دائمًا. ولكن قبل ذلك آووا إلى سميرويك هاربر وبقوا هناك مع الأيرلنديين بإجمالى القوة التى هناك - عن طريق شخص ما فى ذلك الوقت لا أدرى لماذا ولكنى أسمع أنه كذلك وكان رجاله يحاربون الأسبان. لم يسمحوا لهم بالدخول والنزول على الشاطئ واضطروا للبقاء فى الميناء.**

**ولكن بعد ذلك جاءت أخبار بأن الفرقاطات الإنجليزية تحاصرهم بالكامل خارج الميناء، عند البوغاز. وحينئذ قال الأمير للأميرال إنهم لابد أن يلوذوا بالفرار، أن يندفعوا خارجين ويحطموا الطوق المفروض عليهم عند البوغاز. فهم كما قلت حاصروهم وأماتوهم جوعًا. كان عدوهم فى الداخل أسوأ من عدوهم فى الخارج. طلب الأميرال من الرجال أن يشقوا طريقهم ويخرجوا ولكنهم لم يفعلوا وحينئذ ذهب الأمير إلى سفينة الأميرال، وحين ذهب الأمير تشجع الأميرال وشقوا طريقهم وسط الفرقاطات البريطانية التى كانت عند البوغاز وأبحروا بعيدًا. لم يكن لديهم سوى سفن من نوع القادس، وهى نوع من الفرقاطة كانت تسير بالأشرعة فى ذلك الوقت. لم تكن هناك بواخر ولا شىء كهذا وإنما شراع، وأبحروا خارجين وكانت الريح شمالية شرقية وبدأت تتحرك وكان يحاربون ليخرجوا من بين الفرقاطات البريطانية ولم يتبق بعد المعركة سوى ست سفن فقط.**

بقيت ست سفن أسبانية اخترقت الحصار. وقد جاهدت المد والأمواج والريح إلى أن وصلت إلى لسان بلاسكيت وكان ذلك المكان رهيبًا فى ذلك اليوم وسمعوا [سمعت] العجائز يقولون إنه أسوأ يوم شاهدوه. فقد جاء ذلك الإعصار من الجنوب. الرياح العالية والمراسى والأشجار وكان المكان رهيبًا بسبب الأمواج الطويلة غير المنقطعة. أمواج تصل إلى عنان السماء وزبد. كانت السفن تتأرجح وتهتز وتمزقت أشرعتها وصارت خرقًا بالية إلى أن وصلت إلى شاطئ بلاسكيت.

وحين وصلت إلى شاطئ بلاسكيت كان هناك تيار شديد يمر عبر فجوة صغيرة هناك يسمونه "الجَزْر" وكان مكانًا شديد السوء بالنسبة للرسو وتركوا مراسيهم فى وسط الجَزْر وكان الجَزْر قويًا جدًا وأخذ الماء يجرفهم ناحية البحر واضطروا لترك مراسيهم. ستة مراسى. مرساة صلب، ومرساة من النحاس الأحمر تركتا هناك بين دنمور وجزيرة بلاسكيت. تركوا المرساة وتحطموا إلى فتات على صخرة جوب Goub . ست سفن. واندفع الكبار والصغار من أهل جزيرة بلاسكيت إلى جوب، أقرب رأس إلى دنمور، وكانوا يقفون هناك ومعهم حبال يحاولون إنقاذ بعض أفراد الطاقم، ولكن لم تنقذ أية روح حية. فقد تحطموا جميعًا وغرقوا.

عبرت سفينة الأميرال "كوين أوف ذا روزارى" Queen of the Rosarie شاطئ بلاسكيت كذلك وألقت بمرساتها أيضًا ولكن ذلك لم يكن بالأمر الحسن. فقد انجرفت وكانت ستتحطم بعد دقائق قليلة جدًا على جوب فتاتًا. ولكنهم نجوا وحمتهم من الصخور رمال قليلة واستمروا فى الإبحار متجهين إلى سلاى هيد Slay Head اتجهوا إلى سلاى هيد وكانت هناك صخرة كبيرة وسط مضيق بلاسكيت بين دنمور وجوب، وتلك الصخرة التى هناك بها حجر مستوى قمته عريضة وليس شديد الخطورة على الإطلاق، ولكن حين اصطدمت السفينة بذلك الحجر - يقول العجائز إنها لم تصطدم - لم يحدث الحجر أى ضرر. ولكن عاصفة قوية أتت وانقلبت السفينة رأسًا على عقب وغرق أفراد الطاقم كافة ما عدا صبى صغير فى الثامنة من العمر. كان ابن الأميرال وكان قد ربط نفسه فى حوض - برميل - برميل صغير وربط نفسه بحبل على البرميل وألقت الأمواج بالبرميل على

البر عند كورسا ران نيو Coursa Rahn Neu ـ شاطئ كومينو Comino Strandـ وصل إلى هناك فى الصباح وأخذوه إلى البيت وأطعموه. قدموا له الغذاء والرعاية لمدة يوم أو يومين وبعد ذلك حكى القصة. ولكن كان من الصعب جداً فهمه. فلم يفهموا منه كلمة واحدة لأنه كان أسبانياً ويتحدث الأسبانية وهم لم يكونوا يفهمون الأسبانية فى ذلك الوقت .

ولكنه ذهب بعد ذلك إلى كورك Cork . ذهب هناك إلى المكتب، المكتب البريطانى، وحكى القصة وبعد ذلك بحثوا عن الأمير وبعض الجثث الأخرى، وبعد بضعة أيام عثروا على جثة الأمير بجانب صخرة دنكين Dunquin ووضعوه على ملاءات ولفوه فى الملاءات وبعد ذلك أدخلوه هنا فى حديقة فيكارزتاون Vickarstown ودفنوه هناك وهذا ما يقوله العجائز على أية حال. دفنوه هناك ولكنهم يقولون؛ سمعت من امرأة عجوز فى جزيرة بلاسكيت ـ كان عمرها أربعاً وثمانين أو خمساً وثمانين سنة ـ أنه يمكنها أن تضع إصبعها على المكان الذى دُفن فيه أمير نورماندى. فقد انتهى على جزيرة بلاسكيت حيث كان الحصن، فندق بيرس Pierce's Hotel وهى تعرف أنه كان هناك بحار أسبانى آخر وضع فى المقبرة ذاتها.

ولكن بما أن الناس حولها لم يكونوا يفهمون أية كلمة أسبانية فربما يكون الأميرال قد دُفن هنا فى فيكارزتاون ودُفن الأمير على الجزيرة، ولكنهم لولا الصبى ما عرفوا الأمير. وسيكون الأميرال هناك. وقد روى حكاية حين دُفن أمير أسبانيا فى فيكارزتاون فى قطعة أرض داخل حديقة، حديقة صغيرة، وأن الخبر بعد فترة من الزمن حين دُفن سمعت أمى العجوز تقول إن الناس جاءوا من أسبانيا، سادة محترمون من أسبانيا، لزيارة المقبرة وحين رأوا المكان الذى دُفن فيه، هنا فى دنكين، قالوا إنه دُفن فى أرحب وأجمل مكان يمكن أن يجده، أو يجده أى شخص آخر، وتركوه هناك. لم يأخذوه قط. تركوا عظامه هناك لتتحلل: وتلك هى حكاية أمير نورماندى وقالوا، وسيقول كثيرون الشىء نفسه، إنه كان غبياً فى محاربته [ البريطانيين ] .

كل تلك الأحداث التى فى هذه الأسطورة وقعت بالفعل، وإن حدث خلط بين حادثين كانت بينهما سنوات عديدة. فقد ذهب ريكالدى Recalde إلى سميرويك هاربر

فى رحلة أخرى إلى أيرلندا قبل ذلك ببضع سنوات. واضطر وقتها أن ينفذ بجلده وربما مر من المضيق، لأن المسافة طويلة حول جزر بلاسكيت(١٥) .

هذا ما يقول المؤرخون إنه حدث حين كان الأميرال كلاودزلى Admiral Cloudsly عائداً من رحلة ناجحة على الجنوب ومعه خمس عشرة سفينة: فى يوم الثانى والعشرين من أكتوبر عام ١٧٠٧ وفى طقس سيئ، كان قبالة مدخل البحر الضيق (المانش). دعا إلى اجتماع لتحديد موقفه. وافق الجميع على المسار الذى يبحرون فيه ما عدا ربان السفينة "لينوكس" Lennox الذى كان قد اخترع شكلاً محسنًا من الملاحة. فقد قال إن المسار المقترح سوف يجعل الأسطول يمر على جزر سيلى. ولم تؤد اعتراضاته إلا إلى مضايقة الأميرال الذى اشتهر بالجنوح. جرى توبيخ الربان وأبحرت السفن فى المسار الذى تحدد لها.

ازداد الطقس سوءاً وهبت العاصفة. وبينما كان الأسطول بكامله يندفع أمامها تكوم عند جزر سيلى حوالى الساعة الثامنة مساءً وغرق ما يزيد على ألفى رجل. وكان الأميرال من بين عدد قليل وصل إلى الشاطئ، وقتله أهل الجزيرة على الفور ودفنوه بعد أن قطعوا أصابعه. وبعد ذلك أُخرج من قبره وأعيد دفنه فى كنيسة ويستمنستر(*) Westminister Abbey حيث يمكن للفضوليين رؤية مرقد هذا الرجل المتهور، ويمكن الغوص للبحث عن كنزه؛ الذى حُدِّد مكانه مؤخراً ويجرى استخراجه. كل هذا وثَّقه المؤرخون(١٦) .

أما هذه فهى الطريقة التى يتذكر بها العامة الحدث:

**طبقًا لما جاء فى الحكاية التى رواها كورنوول، فقد حدد كلاودزلى مصيره المحتوم فى السفينة "أسوسيشن" Association حين توجه بحار على متن السفينة كان قد جاء من جزر سيلى إلى المؤخرة وساق حججه المعارضة لرأى قائده، قائلاً إنهم إذا اتبعوا هذا المسار فسوف يجنحون. ثار الأميرال وأمر بشنق الرجل لعصيانه الأوامر.**

(*) اشتهرت كنيسة القديس بطرس فى لندن بهذا الاسم، وهى من أهم آثار بريطانيا التاريخية. وقد بدأ العمل فى بنائها فى القرن الثالث عشر واستمرت الإضافات حتى القرن الثامن عشر حين بنى برجاها الشهيران (المترجم) .

**قبيل شنق الرجل تلا المزمور ١٠٩(*) وقال إن أيًا ممن رأوه لن يعيش ليحكى ما رأى. وتم الشنق كما هو مقرر، ووضعت الجثة فى سرير معلق وربطت فى قدميه طلقة مدفع وألقى بها من على السفينة. وعلى الفور هبت العاصفة وظهرت الجثة ناظرة إلى السفينة التى ظلت تتبعها إلى أن جنحت. ألقت الأمواج بالقبطان عاريًا على الشاطئ على غطاء كوة مع كلب صغير. كان ميتًا ودُفن فى مقبرة رفضت أن تظل مردومة ولم ينبت عليها عشب قط(١٧) .**

روى الراوى حكاية أخرى ليست تاريخية بالمعنى نفسه. إلا أنها تعد نموذجًا لكيفية استمرار التراث القديم نفسه وإعداد للمأثورات الجديدة. كما أنها تبين فى الوقت ذاته كيف أن الظروف المحيطة يمكنها فى بعض الأحيان تشكيل الحكاية. ولتحقيق هذه الغاية هناك بعض الملاحظات المتصلة بالموضوع.

على مقربة من فيكارزتاون على الطريق الساحلى إلى دينجل Dingle يوجد عدد كبير من أكواخ على هيئة خلايا النحل يقال إن الذين بنوها هم النُسَّاك المسيحيون الأوائل. وهى مبنية من الحجر وبها عدد من الحجيرات العميقة فى الأرض. ووراء تلك الأكواخ تُرى جزر الموتى حيث كانوا يعتقدون أن أرواح كل الراحلين تذهب إلى هناك بعد المرور عبر أيرلندا. وهذه شريحة من الحكاية. ويهتم جزء آخر بفكرة أن الموتى يساعدون الناس، مقرونة باعتقاد فى الأشباح وفى القوة الشيطانية للكائنات السفلية. وهناك كذلك مأثور خاص بـ"كلاب الجحيم" (وهى سوداء عادة) المشتاقة إلى أرواح الناس. (لا ينبغى أن يبكى المشيعون على الجثمان وهم يشيعونه، لكى لا تسمع كلاب الجحيم وتأتى وتمزق الروح إربًا.) وأخيرًا تعكس الحكاية هجرة الأيرلنديين الضخمة إلى أمريكا.

**منذ حوالى عشرين سنة كان فلاح يحفر فى حقل أعلى الأكواخ التى على هيئة خلايا النحل حين عثر بالصدفة على نفق ضخم يمتد داخل التل. وقبل أن يتمكن**

(*) يتضمن المزمور ١٠٩ دعاء المظلوم على ظالمه. ومن بين ما يدعو به عليه " لتكن أيامه قليلة ووظيفته ليأخذها آخر. ليكن بنوه أيتامًا وامرأته أرملة. ليتيه بنوه تيهانا ويستعطوا. ويلتمسوا خبزًا من خربهم. ليصطد المرابى كل ماله ولينهب الغرباء تعبه. لا يكن باسط رحمة ولا يكن مترأف على يتاماه (المترجم) .

من استكشافه أخذت الحجارة تتساقط على جانب الجبل واضطر لأن يجرى لينجو بحياته تاركًا النفق مفتوحًا. وبعد ذلك بوقت قصير عثر على رجلين ميتين بالقرب من المكان، وكانت ملابسهما وجسميهما ممزقة إربًا. لقد كانا مشوهين تشويهًا ضخمًا حتى إن الناس كانت تخاف الذهاب إلى هناك بعد حلول الظلام.

مضى عام وقُتل رجل آخر فى نفس المكان. وقال البعض إن اللصوص قتلوه لسرقة ذهبه، ولكن تلك لم تكن هى الحقيقة، وكانت نتيجة القتل أن أحدًا لم يكن يقترب من المكان القريب من النفق بالليل.

وذات مساء كان رجل على قدر كبير من الشجاعة يشرب الخمر فى أحد البارات وقال إنه لا يخاف أى شىء وإنه سيعود إلى بيته مرورًا بالكهف. تجادل صاحب البار معه ورجاه ألا يذهب. بل إنه عرض عليه أن يستضيفه مجانًا فى تلك الليلة ولكن الشاب لم يستمع إليه. قال للشاب "أرجوك أن تنتظر حتى يؤذن الديك" ولكن الشاب رفض مرة أخرى وخرج عائدًا على قدميه إلى بيته.

لم يكن قد قطع مسافة طويلة حين التقى برجل آخر فى الطريق وسارا معًا، ولكن لم ينطق أى منهما بكلمة. وبعد أن قطعا مسافة قصيرة اندهش الشاب الشجاع حين رأى الماء يخرج من حذاء رفيقه وسمع صوت ضغط الماء فى كل مرة يخطو فيه خطوة. كان يرى أن ذلك غريب غير أنه لم يتكلم. وأخيرًا بلغا مكانًا موحشًا تمامًا فى الطريق وتكلم الغريب.

سأله "هل أنت خائف؟"

كان رده "بعض الشىء."

"يجب ألا تخاف. فأنت الآن فى أسوأ مستنقع، ولكنى معك، وما دمت تحت سيطرتى لن يصيبك أذى."

ظلا سائرين وبعد وقت قصير سأل الرجل مرة أخرى إن كان خائفًا. ومرة أخرى قال الشاب "قليلاً". فقال له الغريب إنه يجب ألا يخاف ولكن عليه المحافظة على شجاعته. قال للشاب الشجاع إنهما سرعان ما يصلان إلى مكان فيه كلبان، كلب

على كل جانب من جانبى الطريق وقد يحاولان تمزيقه، "ولكن ما دمت معك ستكون فى أمان."

ومن المؤكد أنهما لم يكونا قد سارا مسافة طويلة حين وصلا إلى الكلبين. كان على أحد جانبى الطريق كلب أبيض ضخم من نوع البولدوج فى رقبته طوق وعلى الجانب الآخر كلب مثله؛ وحين اقتربا غنى البولدوج الضخم أغنية أيرلندية شريرة[١٨] وكذلك فعل الكلب الآخر. وقال الغريب "الآن يجب أن تكون شجاعًا. حافظ على شجاعتك ولا تخف، لأننى معك. تشجع."

حين اقتربا من الكلبين تربصا به وكشرا عن أنيابهما وبديا مرعبين، ولكن الكلبين لم يلمساه وقاده الغريب بسلام، وبعد أن مرا بسلام قال الغريب للشاب إنه شجاع بالفعل وإنه يعرفه منذ أن كان طفلاً صغيراً وإن كان هو لا ينكره. "أريدك أن تخبر والدك أن عمه من أمريكا أنقذك." وكان قد مات فى أمريكا وجاء كل هذه المسافة عبر المحيط لينقذه.

"لقد جئت من مسافة بعيدة لأنقذك. أرسلنى الرب من تلك المسافة البعيدة لأنقذك. وهذا هو سبب وجود الماء فى حذائى."

سأله الشاب إن كان يود الذهاب إلى منزله لتناول كأس. "لا، لقد ذهبت إلى هناك من قبل. فقط قل لوالدك إن عمك هو الذى أنقذك وألا ينتظر المزيد من الخطابات أو النقود من أمريكا لأننى مت."

وبذلك اختفى الرجل ودخل الشاب الشجاع منزله مترنحًا "وراح فى إغماءة وراء إغماءة وراء إغماءة" عند المدخل. ظن أبوه أنه يُحتضر وأرسل فى طلب القس. جاء القس واعترف الرجل له وحكى له القصة كلها. ظل الرجل مريضًا لمدة أسبوعين ولكنه شُفى أخيرًا.

وصل القس إلى المكان الموجود فيه الكهف مرتديًا كل ملابسه الكهنوتية وأقام قداسًا فى الهواء الطلق وأغلق النفق بحجر كبير. ومنذ ذلك الوقت أصبح الذهاب

إلى هناك فى أى وقت من الليل أو النهار مأمونًا. ولكنهم أزالوا بعد بضع سنوات كل الأحجار من النفق واستخدموها في بناء طريق جديد ولم يهتم أحد بعد ذلك.

تشير الحكاية السابقة كذلك إلى أن لدى البحارة ميلاً رومانسيًا إلى طبيعتهم، وهم يحبون الحكاية ذات النهاية السعيدة التى تثبت وجود الرب فى السماء (بعيدًا)، وأن كل شىء صحيح بالفعل فى العالم. وسجل هيو ميلر Hugh Miller هذه الحكاية من إسكوتلندا، حيث ينكر الناس الأخطاء زمنًا طويلاً وتصحح بعد أجيال، إن صُححت.

آوى صيادان متجهان إلى موراى فيرث ذات ليلة عاصفة إلى خور صغير فى أعلاه كهف. شعرا بالضيق حين اكتشفا ثلاثة رجال سبقوهما إلى هناك: ثلاثة رجال كانوا فى عداء شديد منذ سنوات، ذلك أنه بينما أصاب الهزال ويليام بيث William BeTh ( أحد الرجلين ) فى سجن هولندى، تزوجا إيتشين أوف تاربات Eachen of Tarbat أخته واستولى على أملاكه. عاد إيتشين إلى إسكوتلندا وعند وفاة أخته أخرج ايتشين ووليه من أراضيه. ونتيجة لذلك ظلت الدماء تُراق بين العائلتين سنوات كثيرة، وهاهم الآن رفاق فى أحد الكهوف أمام نار وقودها حطام السفن.

وربما لأن بيث وابنه كانا أقل عددًا تلك الليلة، فقد حاولا فض النزاع، ولكن الذكريات ثارت مع ثورة العاصفة، وغادر الرجلان الكهف وناما فى القارب (اتباعًا للمعتقد الإسكوتلندى بأن الشر لن يتبع الشخص إلى داخل البحر) تاركين الكهف لأبناء عائلة تاربات.

وحين طلع الصبح كانت العاصفة قد هدأت وعاد تاربات العجوز إلى بيته ولكن لم يُسمع شىء عن بيث وولده. بل إن الأمواج لم تلق بحطام على الشاطئ. بمرور السنين نسيهما الجميع، إلا أن فتاة صغيرة كانت تحب ابن بيث وأرملته التى ظلت شيئًا فشيئًا تمر بأوقات صعبة إلى أن باتت بعد خمس سنوات على أعتاب الموت. وأخذت تتدهور شيئًا فشيئًا وكذلك تاربات الكبير.

وأخيراً رأت أرملة بيث بعد خمس سنوات حلمًا نزلت فيه إلى قاع البحر ورأت كهفًا فيه عظام وسمعت صوتًا يقول "عودى إلى البيت لأنك سوف ترين ابنك قبل أن تعيشى هنا معى."

فى ذلك المساء زارها إيتشين تاريات وهبت عاصفة كبيرة. كان الرجل فى كرب شديد لأن ولديه كانا فى البحر وكانوا يسمعون طلقات الخطر تنطلق فوق العاصفة. وقرب طلوع الصبح هدأت العاصفة واتجه الرجل إلى البيت ليجد جثتى ولديه على الشاطئ. كانت الصدمة شديدة واستطاع بالكاد الوصول إلى البيت قبل أن ينهار.

وفى اليوم التالى ظهر رجل عند الكوخ ومعه قصة. فقد ألقت العاصف ببيث الكبير وابنه بعيدا فى البحر منذ خمس سنوات وبعد ذلك التقطتهما سفينة متجهة إلى أمريكا الوسطى. وهناك جمعا ثروة من الذهب وهناك مات الأب. عاش الابن وعاد إلى إسكوتلندا إلى أمه وفتاته. وكان الرجل صاحب القصة هو بيث الشاب الذى أراد رؤية إيتشين أو تاريات.

كان الرجل العجوز يهذى وظل يقول إنه لا يمكنه تلاوة الصلوات، وأن روحى بيث وابنه تنتابه. أنكر أنه ساحر وأنه أثار العاصفة منذ خمس سنوات؛ أو أنه فعل أى شىء فيه ضرر لأى إنسان. ولكن أشباح هنيانه كانت لا تزال تنتابه وفى النهاية اعترف بأنه أمر بقطع الحبل الذى رُبط به القارب. وفى تلك اللحظة فُتح الباب ودخل إرنست بيث. نظر الرجل العجوز وصرخ ومات(١٩) .

تأتى من جراند بانكس حكاية تعود إلى القرن التاسع عشر. وهى لا علاقة لها بالأميرالات أو الأساطيل أو الكنز، كما أنها لا تدور حول حدث أو شخص ذى أهمية كبيرة بالنسبة للكاتب أو التاريخ. ومع ذلك فإن حكاية هذا الرجل محفوظة فى أسطورة لأن بها عناصر مشتركة مع الحكايات الثلاث السابقة.

تبدأ الحكاية فى إحدى سفن صيد السمك فى أواخر العام. فى تلك الأيام كان تكنيك صيد السمك كما يلى: فى الصباح الباكر كانت السفينة الأم تتهادى إلى اتجاه

الريح ثم تنزل قواربها الصغيرة الواحد تلو الآخر. وكان كل قارب به رجلان، المراكبى وزميله، وكان القارب به بوصلة وزجاجة ماء وحوض الشبكة ودلو وبعض الطُعم وهراوة وبوق. وبعد إنزال آخر قارب كانت السفينة التى يديرها الربان والطاهى والصبى إما أن تلقى بمرساتها أو تروح وتجىء ببطء عند الطرف المواجه للريح للخط الطويل من القوارب البالغ طول الواحد منها تسعة عشر قدمًا ويمتد على طول الأفق. وفى نهاية اليوم تسير مسرعة على طول الخط وتجمع قطيعها الواحد تلو الآخر وترفعه ليستقر عل متنها.

كان الشىء الرئيسى الذى يلى خوف الصياد من أن تدهسه باخرة هو الطقس. فلو غيرت الريح لتجاهها قد تجد السفينة نفسها على الجانب المعاكس لاتجاه الريح بالنسبة لقواربها وتضطر لفرد أشرعتها والاندفاع نحو الخط، وهى عملية طويلة وبطيئة. أما إذا كانت الريح ضعيفة أو خيَّم الضباب أو انهمر الثلج فجأة، فإنها قد تفقد قاربًا ربما يكون قد "شرد"؛ وهى أثقل كلمة على قلب المراكبى، ذلك أنه يكون على بعد ثلاثمائة ميل من أقرب بر، وضد الريح الغربية السائدة تمامًا.

للحد من هذا الخطر كانت السفينة تجهز ببوق ضخم كانت تطلقه حين تتحرك لالتقاط رجالها، وكانت تطلقه باستمرار فى الطقس الذى تصعب فيه الرؤية. وكانت القوارب بدورها تطلق أبواقها، ولكن كان من الصعب سماع الأبواق فى الطقس العاصف. ويصدق ذلك بشكل خاص على حالة الثلج، الذى لم يكن يكتم الصوت ويعطى اتجاهًا خاطئًا له فحسب، بل كذلك يحجبه عن طريق الهسهسة التى تحدثها كل رقيقة منه حين تصطدم بالماء. وهذا هو ما حدث لهوراد بلاكبيرن Howard Blackburn . أطلق هوارد وزميله بوقهما واستمعا، ولكن كل ما سمعاه هو هسهسة رقائق الثلج وصوت الريح. كانا رجلين وحيدين شاردين فى شمال المحيط الأطلنطى ولم تكن أمامهما فرصة سوى نيوفاوندلاند، ولم يكن ذلك محتملاً على الإطلاق.

ورغم ذلك ألقوا بالصيد ليخففوا حمولة القارب واتجها ناحية نيوفاوندلاند. فى البداية كان هوارد يجدف وزميله ينزح الماء، وبعد ذلك عكسا الأمر. وظلا يجدفان ويجدفان ويجدفان. وبعد فترة استسلم زميله نورى وتجمد حتى الموت. استمر بلاكبيرن

فى التجديف، حيث كان يتوقف لنزح الماء. لم يكن الأمر صعباً فى البداية ولكن الثلج تراكم على قفازيه. وبينما كان ينفض الثلج سقط أحدهما فى الماء، ولكنه ظل يبدل الذى تبقى. ثم فقد ذلك القفاز وبدأت يداه تتجمدان. وحين أدرك بلاكبيرن ما يخبئه له القدر، جعل يديه فى وضع الإمساك بمقبض المجداف وغمسهما فى الماء ثم رفعهما فى الهواء إلى أصبح لديه خطافان متجمدان ينزلقان على مقبضى المجدافين. ظل يجدف فى العاصفة والثلج، وفى الليل والنهار، ورويداً رويداً قلت المسافة التى تفصله عن اليابسة. كان يجدف بجلده، وبلحمه، وبعضلاته. وفى النهاية كان يجدف بعظام يديه المبيضة.

وفى الكريسماس دخل هوارد بلاكبيرن بقاربه الذى يغطيه الثلج فى خور على ساحل نيوفاوندلاند. وهناك وجد كوخاً يتى أعلى الماء فجدف إليه. تأكد من أن زميله قد أُخفى بشكل صحيح وربط القارب فى إحدى الدعامات. زحف إلى داخل الكوخ الذى كان مهجوراً، إلا أنه كان هناك موقد جاهز للاستعمال وبعض الخشب. بل كانت هناك أعواد ثقاب؛ ولكن القدر لم يكن قد أنهى لعبته معه بعد. فلم يكن هوارد بلاكبيرن قادراً على إشعال النار بيديه الكسورتين المتجمدتين، ولذلك استسلم ورقد ليموت.

فى ذلك الوقت تذكر أصحاب الكوخ، الذين كانوا يقيمون على مسافة منه، أنهم بحاجة إلى خشبه وبما أن الكريسماس اقترب فقد قرروا إحضار بعضه من الكوخ. ربطوا الكلاب فى الزحافة وذهبوا إلى المعسكر. كان القارب أول ما شاهدوه، وبعد ذلك وجدوا بلاكبيرن وحملوه إلى البيت.

فقد بلاكبيرن يديه وأصابعه ولكنه بقى على قيد الحياة. ليس ذلك فحسب، بل إنه بنى سفينة وعاد بها إلى إنجلترا ليشارك فى اليوبيل الماسى للملكة فكتوريا، مستخدماً خطافين بدلاً من يديه. كما قدم له أهل جلوسستر حانة تولى إدارتها وأصبح "أعظم مقطر للويسكى فى جلوسستر"، وقد عاش إلى أن أُغلقت حانته بناء على قانون تحريم صنع المسكرات، حيث يفترض أنه مات كسير القلب. وهكذا نجح القانون فيما فشلت فيه الطبيعة(٢-٢).

لا يزال الناس فى نانتاكيت يروون حكاية سفينة صيد الحيتان "إيسكس Essex" التى لا تختلف فى بعض جوانبها عن حكاية هوارد بلاكبيرن.

فمنذ قرن ونصف مضى كانت "إيسكس" تصطاد الحيتان في وسط المحيط الهادى. كانت القوارب تطارد الحوت وكان وكيل القبطان على متن السفينة حين جاء حوت ضخم من حيتان العنبر ونظر إلى السفينة. درسها بسرعة ثم اندفع نحوها بعنف. في المرة الأولى ضرب ألواح حبال الصوارى ولكنه في المرة الثانية قابلها "وجهاً لوجه" وغرقت "إيسكس" قبل يتمكنوا من أخذ أي شيء منها سوى معدات الملاحة.

بعد أن غرقت سفينة صيد الحيتان لم يكن أمامهم سوى محاولة الوصول إلى أمريكا الجنوبية، على بعد ثلاثة آلاف ميل. كان طاقم بكامله مكون من عشرين رجلاً داخل ثلاثة قوارب لصيد الحيتان طول كل منها ٢٥ قدماً وعرضه ستة أقدام وتصقف. اتجهت القوارب ببطء شرقاً بلا طعام ولا ماء تقريباً. وبعد ثلاثين يوماً رست على جزيرة هندرسون Henderson المهجورة القريبة من بتكيرن Pitcairn، ولأنهم لم يكونوا يعرفون أين هم فقد اتجهوا إلى أمريكا الجنوبية. وازدادت محنتهم سوءاً لتتبع أسماك القرش لهم.

وفي اليوم الثامن والأربعين توفي رجل في قارب وكيل القبطان. وتوفي آخر في اليوم الثاني والثمانين، وأكلوه وبقوا على قيد الحياة بعد أن التقطتهم سفينة بعد سبعة وتسعين يوماً في البحر. أما القاربان الآخران فقد كانت ظروفهما أشد سوءاً. فقبيل التقاط الاثنين اللذين بقيا على قيد الحياة قبيل ساحل أمريكا الجنوبية، كانا قد أكلا أربعة من زملائهما. فقد مات أربعة من الجوع، أما الرابع، وهو أوين كوفين Owen Coffin ابن شقيق القبطان، فقد قُتل وأُكل بعد سحب القرعة لمعرفة من يصبح طعاماً.

مع المفارقة الغريبة التي يبدو أنها تصاحب القدر، كانت السفينة التي التقطت القبطان بولارد Captain Polard هي سفينة صيد الحيتان "ديانا" Diana التي خرجت من نانتاكيت وكان ربانها هو زيمري كوفين Zimri Coffin . وتقول الأسطورة إنه والد أوين كوفين.

ولا تنتهي الحكاية عند هذا الحد. فقد تولى القبطان بولارد قيادة سفينة أخرى غرقت بعد اصطدامها بجُرُف في المحيط الهادى. وقد التقط وانتهى به الحال حارساً ليلياً في نانتاكيت. وتقدم وكيل القبطان تشيس Chase في العمر وقيل إنه كان يخبئ

كميات كبيرة من الطعام فى غرفته تحسبًا لأن يجوع فى أى وقت. وقبيل وفاته تقابل مع شاب وسأله إن كان قد عرف أوين كوفين، وهو أحد أسلافه. "أعرفه؟ لماذا أيها الشاب، لقد أكلته"(٢١) .

كانت حكاية "إيسكس" ومعها حكايات أخرى وأجزاء من الفولكلور البحرى جمعها مدرس غريب تحول إلى صياد حيتان وحولها إلى واحدة من أعظم الأساطير البحرية فى كل زمان، وهى "موبى ديك".

ليست الأساطير دائمًا بحجم الأساطير التى أشرنا إليها حتى الآن. فهى فى أغلب الأحيان مجرد نوادر، كتلك النادرة التى رواها جون ليفيت John Leavitt عن طاقم رفض نزح المياه. وبدلاً من الاتجاه إلى الشاطئ كما كانوا يتوقعون، وجه القبطان سفينته ناحية البحر وقال قبل نزوله إلى قمرته: "وهو كذلك يا أولاد، اذهبوا والقوا بيد المضخة فى البحر. إن لدى أصدقاء كثيرين مثلكم فى الجحيم!" .

تدور معظم هذه الحواديت حول شخص بمفرده؛ وهو بطل محلى أو بطل شعبى. وعادة ما يكون هؤلاء الأشخاص منعزلين؛ بمعنى أن يكونوا معروفين فقط فى مين أو خليج تشيسابيك. وهناك كثيرون من هؤلاء، وهو يحققون نجاحًا كبيرًا فى اختبار الزمن. ففى خليج تشيسابيك هناك ليكين بيلى برادشو Lickin' Billy Bradshaw والقس جوشوا توماس Reverend Joshua Thomas وهو أحد الوعاظ القلائل الذين أصبحوا أبطالاً فى نظر البحارة.

يروى البحارة على جزيرة تانجير Tangier Island نوادر كثيرة عن زمن ذلك الرجل العظيم. يحكى أحدهم عن مساعده الذى لم يسمح له جوشوا قط بإلقاء الموعظة. أصاب اليأس الشاب، إلى أن جاء يوم طلب منه فيه رئيسه أن يعد موعظة ليوم الأحد التالى. فرح الشاب وأعد موعظة رائعة وحفظها غيبًا. وتوالت أيام الآحاد ووجد القس الصغير نفسه يومًا على المنبر وقد أصابته حالة من التوتر الشديد.

"اليوم لدى موعظة لكم. إنها موعظة ذات رسالة، وأريدكم جميعًا أن تدرسوا الموعظة وتروا ما يمكن أن تتعلموه منها. والنص هو: "وألقى بسبع مراسى ..." عند هذه

النقطة وجد القس الشاب أن ذهنه فارغ تماماً. أخذ يتطلع حوله ولكن لم يكن هناك من معين. الواقع أن الرب تخلى عنه. "وألقى سبعة مراسى ..." لا شيء. "وألقى سبع مراسى ..." ليس هناك شيء بعد. كرر الشاب العبارة سبع مرات وهو فى حالة من اليأس، وهنا صاح ربان عجوز فى آخر الكنسية "هذا صحيح. لقد فهمنا. هذه تسع وأربعون مرساة أنزلها، ويعلم الرب أنه ما من سفينة تسير بكل هذه المعدات الأرضية"(٢٢) .

وجنوباً فى مين نجد هوراشو ليذرز **Horatio Leathers** الذى كان يعيش بالقرب من بورتلاند، وهو حداد يمكنه رفع برميل سكر على كتفه ويسير به، أو يرفع السندان وذراعه مفرودة. وفى مرة ضرب ثوراً قاوم تركيب حدوة له فأوقعه ساكتاً. وإلى الشرق هناك فريد كارفر **Fred Carver** ربان السفينة "يانكستيبودين" **Yankstebooden** التى تكثر فيها اليرقات وكان يقضم قطع اللحم من "الماشية" (الثيران) حين يكون غاضباً.

وفى الشرق كذلك، "على طريق ماكياس" كان يعيش بارنى بيل **Brney Beal** من جونزبورت **Jonesport** . كان بارنى رجلاً ضخماً يحب الجلوس على كرسى هزاز ويضع راحتى يديه على الأرض. لم يبحث يوماً عن المشاكل، ولكنها حين كانت تأتى كان يتمكن من إيقافها. وذات مرة فى بورتلاند ألقى رجلين من على جانب أحد المنازل حين قاوماه، وقتل حصان جر هناك بلكمة بين عينيه حين أوشك على دهسه.

عاش بارنى تقريباً فى زمن الثورة الأمريكية وحرب ١٨١٢. وفى يوم من الأيام خرج بشبكة صيده حين مرت سفينة حربية بريطانية وأمرته بالصعود على متنها، لأنهم كانوا يبحثون عن رجال للسخرة (وهو النشاط الذى يخبرنا الفولكلور السياسى أنه تسبب فى نشوب حرب ١٨١٢). لم يعر بارنى الأمر اهتماماً وظل يصطاد، ولذلك جهز قارباً باثنى عشر رجلاً كى يذهب ويأتى به هو وطاقمه. وكان كل البحارة مسلحون وأصاب القلق رفاق بيل، ولكن بارنى انتظر حتى اقتربوا بالقدر الكافى وألقى بالشبكة على الوحدة كلها ـ البحارة والقارب والمجاديف والبنادق ـ وسحب الحبال واستولى على كل شيء. وبعد ذلك اتجه إلى البر بحمولة الشبكة كلها وسار بالأسرى إلى سجن توماستون **Thomaston** على مسافة أكثر من مائة ميل.

وبعد تجارب كثيرة لقى بارنى حتفه بطريقة لا يزال مشكوكًا فيها. إذ تقول إحدى الروايات إنه حاول جر قارب عليه حمولة إلى المرسى. وكان قد وصل به حتى رأس اللوح حين انكسر شىء ما داخله وسقط ميتًا. الرواية الأخرى تقول إنه رفع مرساة وزنها ٥٠٠ رطل وانزلق. وفى محاولته للتماسك انكسر شىء ما داخله ومات(٢٢) .

كان الذى يختلف عنه اختلافًا طفيفًا فحسب هو القبطان باركر "ستاترين" هول Parker "Statterin" Hall الذى كان معروفًا من نيويورك حتى إيستبورت Eastport . ولم يكن ستاترين هول ضخمًا ولم يشتهر بالقوة، وإن كان الإنسان والحيوان يخشيان غضبه. ويبدو أن شهرته بدأت لأنه كان يبحر دائمًا بمفرده ولم يكن معه سوى قط، وهو عمل لا يستهان به فى سفينة شراعية كبيرة تسير بمحاذاة الساحل. وتقول الشائعات إنه قضى على تمرد فى شبابه بقتله المتمرد ومن يومها لم يأخذ أحدًا على متن السفينة.

بالإضافة إلى حقيقة أنه كان يحفظ المسار والمسافة بين كل فنار وعلامة من نيويورك حتى حدود كندا، يبدو السبب الرئيسى لشهرته هو سرعة بديهته، وتلعثمه(*) وسلوكه الغريب.

ذات مرة كانت الريح المعتدلة فى نورث إيست هاربر تهب من الشمال الغربى وكان القمر مكتملاً. جاءه شاب وقال له "أظنك يا قبطان هول سوف تبحر إلى الكيب الليلة؟"

فرد عليه القبطان هول "لـ لا."

"لماذا يا قبطان، إنها ليلة جميلة. وربما تحقق رقمًا قياسيًا فى السير فى البحر."

فقال القبطان متلعثمًا "أى أيها الشـ شاب، حين كنت صـ صبيًا فى الكيب كنا نصنع أوعية للمسامير من جماجم الرجال الذى يحاولون تسجيل أرقام قياسية فى السير فى البحر."

وفى جزيرة ماتينيكوس Matinicus Island وقف الرجل العجوز على المرسى وبدأ

(*) تعنى صفة "stattering" المضافة إلى اسمه الحقيقى "المتلعثم (المترجم) .

فى بيع الخضروات والفواكه. فى مؤخرة القارب كان هناك برميل كبير مملوء بالتفاح؛ تفاح العشرين أوقية. اشترى صاحب الدكان الخضروات وطلب بعض التفاح. أخرج الرجل العجوز برميلاً من التفاح الذى يبدو فى حالة سيئة بعض الشيء، وغضب التاجر.

"وماذا عن تفاح العشرين أوقية؟"

"لـ لا، إنه لـ ليس للبيع."

"لم لا؟"

"إنى أحـ أحتفظ به ليكون طـ طُعْمًا."

وفى ليلة من الليالى كان القبطان هول راسيًا فى هولمز هول، التى تعرف حاليًا باسم فاينيارد هيفن **Vineyard Heaven**، حين دخلت سفينة أخرى وألقت بمرساتها بالقرب منه. كانت السفينة التى أتت حديثًا محملة بالحجارة، وكان هول يحمل شحنة من الأخشاب.

حيا القبطانان بعضهما وذهب هول إلى السفينة الأخرى للدردشة، تاركًا السفينة تحت مسئولية قط السفينة؛ وكان مخلوقًا ضخمًا أسود اللون مشاكسًا. ما إن جلس باركر على الركن الخلفى الآخر حتى خرج القط من عنبر البحارة وبعد أن تلفت حوله بحذر تمدد على شحنة الأخشاب المربوطة فى المؤخرة.

لم يعر باركر الأمر اهتمامًا إلى أن عبر المخلوق كومة الأخشاب وأخذ يقفز على الركن الخلفى. كان قد راقب الأمر كله فى السر وحين انحنى القط ليقفز قال القبطان " اذ اذهب أيها اللـ لعين الأسود إلى المقدمة." عاد القط واختفى من جديد داخل عنبر البحارة(٢٤) .

ليس المناخ صالحًا فى الوقت الراهن لحفظ الحكايات والأساطير وخلقها. فمع ظهور الراديو وغيره من وسائل الإعلام تتوالى الأحداث المذهلة وراء بعضها بوفرة بحيث يُدفن كل حدث تحت الأحداث الجديدة فى وعينا تقريبًا قبل أن يكون قد حدث

بالفعل. كما أنه فى ظل الرحلات القصيرة وإضافة اللاسلكى هناك وقت أقل وضرورة أقل للقيام بذلك داخل عنبر البحارة. بل إن المناخ أكثر سوءًا بالنسبة للأساطير، ذلك أن أحد شروط الحكاية الأساسية ـ وهو شرط الاتصال بالسحر والعالم الآخر ـ يتقلص. ففى وقت كان فيه الجحيم وأرض الجنيات فى قاع أحد الآبار، وكانت الجنة خلف السحب مباشرة، كان من السهل الإيمان بوساطة مخلوقات العالم الآخر، أما اليوم حيث حفرنا آلاف الأقدام تحت الأرض وأرسلنا سفن الفضاء إلى مسافات بعيدة فى الفضاء ولم نجد العفاريت ولا الملائكة، أصبح الإيمان بمكونات الحكاية الأساسية أكثر صعوبة.

ومع ذلك فإنه فى المناطق النائية الأقل تنويراً من العالم الناطق بالإنجليزية لا تزال الحكايات تُروى وتُصدَّق. والواقع أن الأساطير لا تزال تُصنع وسيظل البعض منها يُصنع لبعض الوقت.

تحدثت من قبل عن القبطان بوكان، الربان العظيم من فريزربرج. واسمه معروف للبحارة من بيترهيد حتى ستورنواى Stornoway باعتباره قائد سفينة رهيب وصياد سمك محظوظ. وهم يحكون كيف أنه يغادر الميناء فى مواجهة عاصفة شتوية ليكون "فى المصايد" حين تهدأ، وكيف أنه عبر القناة كثيرة المنحنيات ليصل إلى ويزاردز بول Wizard's Pool فى جزر هيبريديز الخارجة ذات ليلة عاصفة فى شهر فبراير. ولكن الحكاية الكبيرة، التى فى سبيلها لأن تصبح أسطورة، هى حكاية الإنقاذ والقطر التى حدثت ذات ليلة قبالة النرويج. لقد سمعت الحكاية وسألت القبطان عنها فى عام ١٩٦٨ .

منذ أربع سنوات كنت أصطاد على بعد ثمانين ميلاً غربى إيجارزوند Eggar-sund، وكانت "ألايانس" Alliance، وهى سفينة أخرى، تصطاد على بعد ستة أميال إلى الجنوب منا.

**فى حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر؛ وكان ذلك هو شهر فبراير وكان الأسبوع الثانى من فبراير. رأينا أن ريحًا شديد ستهب، وبالطبع كانت التوقعات تشير إلى أنها ستكون بقوة عشرة. ولذلك اتصلت بقبطان تلك السفينة وقلت له إننى ذاهب إلى إيجارزوند. وحين وصلت إلى الجهة المعاكسة للريح منها رأيت أنه فى مشكلة**

ولذلك اقتربت منه وسألته عن المشكلة وقال هو إن مروحته تشابكت، فقد لفت الشبكة كلها على المروحة في الواقع. حاول سحب الشبكة إلى ظهر السفينة وانسابت السفينة إلى داخل البحر وتشابكت الشبكة. وكانت تلك ليلة الأربعاء.

ربطناه في سفينتنا وكانت الساعة التاسعة حين بدأنا قطره في ليلة الأربعاء وكان الجو يزداد سوءًا وسوءًا وسوءًا. والواقع أن الريح بلغت قوة أربع عشرة أثناء السحب. بدأنا نقطره بحبل قطر سُمكه تسع بوصات وصمد لمدة أربع ساعات تقريبًا. كان لدينا تسعون قامة من حبل القطر النايلون وفشلت العملية. صمد لمدة أربع، لا سبع ساعات. انقطع حوالى الساعة الثالثة صباحًا. كان الجو شديد السوء في ذلك الوقت. أوصلنا حبل القطر النايلون من جديد وانقطع مرة أخرى وأصبح حبلاً قصيرًا، ثم رأينا أنه لا يصلح من الناحية العملية. جربنا بعد ذلك حبلاً من الأسلاك المعدنية وضعنا في طيته واقيات من المطاط [ إطارات شاحنة ] ليمتص الصدمات . فقدنا مائة وثلاثين قامة من الحبل المعدني مع ثلاثين قامة من سلسلة المرساة. ظننا أنه مع الثقل قد يصمد ولن ينقطع. ولكنه بالكاد ظل مشدودًا.

كما أن الريح كانت بقوة اثنتا عشرة وكان ريحًا شرقية بالطبع واستطعنا أن نراوغ وحسب؛ مجرد مقدار انحراف ثابت من الناحية العملية في الريح. اكتشفنا أن ذلك هو كل ما كنا نفعله. قطرنا بتلك الطريقة ولكن الحبل المعدني انفصل بعد فترة قصيرة. وأتذكر أن الريح وقتها كانت لا تزال بقوة اثنتا عشرة، وكان هناك جُرُف بطول ميلين تحت دفته ورأينا أن علينا أن نفعل شيئًا.

اتصل بي القبطان الآخر وقال إنه ينبغي استخدام حبال من شبكة البحر الكبيرة، والحقيقة أنه لم يكن قد تبقى لدينا الكثير منها؛ وهذا بالضبط هو ما فعلناه. استخدمنا اثنتا عشرة لفة، في كل مرة أربع لفات، استخدمنا لفتين في كل جانب وضاعفناها فأعطتنا كل واحدة مائتين وأربعين قامة في كل جانب للقطر. ولكن كانت أمامنا مشكلة. كان البحر هائجًا ولم يمكننا توصيل الحبال ولم تكن السفينة "ألايانس" في حالة جيدة. كان البحر قد نظفها ولم يكن بها قارب. والواقع أننا فقدنا قاربنا ومعظم معدات الصيد التي سقطت في البحر.

ولذلك بذلت محاولات من جانبه المعاكس لاتجاه الريح كي أوصل الحبال إلى ظهر السفينة وساعتها مرت سفينة روسية ضخمة. رأتنا السفينة وحمتنا من الريح وأوصلنا الحبال إلى ظهر السفينة، ولكننا اصطدمنا ببعضنا ونحن نفعل ذلك وأطحت بجانب السفينة الممتد فوق سطحها العلوى وبعض الأشياء الأخرى، ولكنها كانت أضراراً سطحية فى الواقع. كنت أعرف أنه لا يمكن أن نتركهم، ولو لم نستطع توصيل الحبال أو قطرهم فلابد أن نصطدم بهم ونأخذها عبر المقدمتين لأنه لم يكن لدينا قارب؛ ولو كان لدينا قارب فإنه ما كان ليصمد فى ذلك البحر الهائج. ولكن بمساعدة من الروس نجحنا ورفعنا حبالنا إلى سطح السفينة وبدأنا القطر.

كانت تلك ليلة الجمعة ولم نكن قد قطعنا أربعة أميال وكانت الريح بقوة أربعة عشرة، ولكنها اتجهت أكثر ناحية الشمال؛ وظلت الحبال تنقطع ونحن نستبدل الحبل بإطلاق سهم نارى على سفينته ونثبت الحبال بتلك الطريقة. وبعد ذلك استهلكنا كل سهامنا النارية كلها وقال إنه سوف يستخدم بعضها وفى ذلك الوقت كنا على مسافة قريبة من جانبه المعاكس لاتجاه الريح واقفين على استعداد لسحب الحبل. كان السهم النارى الأول الذى أطلقه من النوع الأخضر؛ فهناك نوعان، نوع أحمر ونوع أخضر. وهو سهم نارى فسفورى بعيد المدى ويطلق من بندقية، وحين أطلقه وضعه فى الكابينة تماماً، ورشق فى الألواح الخشبية التى داخل أحد الأسرِّة. فى البداية خشينا أن يشتعل ولم يكن لدينا على السفينة شىء لإطفاء الفسفور، وحاولنا إخراجه إلا أننا لم نتمكن من عمل أى شىء معه. ولذلك اضطررنا أن نتركه هناك وكنا نظن أنه قد ينفجر فى أية لحظة.

وهكذا ظللنا نقطرهم حتى صباح السبت. كان ذلك من ليلة الأربعاء ولم يتبقى أمامنا سوى ثمانية أميال إلى إيجارزوند. والآن لا يمكننا الذهاب إلى إيجارزوند. كل ما كان يمكننا فى ذلك الوقت هو مواجهة الريح بصورة أو بأخرى ووصلنا فى النهاية إلى فنار كوريرا Correrra Light، قبالة فيرجوزوند Fergusund مباشرة. وكان الجزء الأخير من هذه الحكاية مضحكاً جداً كذلك.

تحركنا بعد العاصفة على ضوء ذلك الفنار وكان من الممكن رؤية الصخور على كل جانب من القنال ولم أجرؤ على الدخول. فكونى سفينة وحيدة كان من الممكن أن

**أدخل ولكنى لم أكن أرغب فى الدخول لكى لا أخالف القوانين النرويجية. ولذلك ذهبنا أسفل الفنار وأطلقنا سهمًا ناريًا وجاءت سفينة صغيرة، سفينة صيد نرويجية، وصعد قائدها على متن سفينتنا وسألته إن كان يفهم الإنجليزية وقال "بالتأكيد. أنا من إيست إند East End فى لندن." "وماذا تفعل هنا إن كنت من لندن؟" "كنت قائدًا هنا أثناء الحرب." وقد تزوج فتاة نرويجية ويعمل فى السفينة "ترافيل لايت" .Travell Light**

**قلت له "هل يمكن أن ترشدنى فى هذا المضيق؟" فقال "هذا الشخص النرويجى إنه سوف يفعل ذلك." كنت سأخاطر بالطريقة التى أراها، ولكنى لا أتخيل قطر سفينة بالجانب. أنا أعرف القوانين هنا، إن كان سيسمح لى بقطر سفينة بالجانب أم من الخلف." وبالطبع جاء ذلك النرويجى وقادنا. ولكى ندخل الميناء واجهنا صعوبة كبيرة بسبب الريح، وكان هناك بالطبع عمال كثيرون جاءوا ليرونا، وقال لنا إن مؤشر سرعة الريح يدل على أنها بلغت مائة وثلاثين ميلاً فى الساعة وكنا نقطر السفينة فى ذلك الطقس. والآن هذه تجربة لا أود أبدًا أن أمر بها مرة أخرى.**

**فقدنا ما قيمته حوالى ستة آلاف جنيه من المعدات والأضرار، ولكن التأمين دفع ذلك وحصلنا كذلك على مبلغ جيد مقابل الإنقاذ[٢٥] .**

إذا كان الناس يذكرون جيم بوكان بسبب هذا العمل الشجاع وفن الملاحة، فسوف يتذكرون كذلك حكاية السبِاحة العظيمة لفترة قليلة مقبلة فى جزر الهند الغربية.

ففى البحر الكاريبى يغرق مئات الأشخاص كل عام، لأن السفن فى أغلب الأحيان قديمة وبها عيوب ومحملة دائمًا بأكثر من طاقتها. إلا أن المياه أدفأ عما هى عليه قبالة النرويج فى الشتاء، والبحار ليست شديدة الهياج، والجزر والصخور متعددة بصورة كبيرة مما يتيح الفرص للسباح الجيد أن ينجو. كما يمكن هناك كسب العيش من صيد السلاحف، أو جمع القواقع، أو صيد الإستاكوزا من على القاع. ولذلك فإن معظم الناس يمكنهم العوم. وفى بعض الأحيان حين ينقلب قارب بكامله أو قارب صيد، فإن أفراد الطاقم يلقون بالصابورة الحجر فى الخارج ويمسكون القارب بأيديهم بينما يذهب أحدهم ويطرد الماء بيديه.

ومن بين أهل الجزر جميعًا يشتهر رجال بيكيا بأنهم أفضل السباحين. فهم يغوصون إلى أعماق تصل إلى ثمانين قدمًا، ويمكنهم السباحة أميالاً بلا مجهود. ولكن من بين كل السباحين واحد يتفوق على سائر السباحين. وقد سمعنا حكاية سباحته تتردد فى أنحاء سلسلة جزر ويندوورد. بل إنه رغم أن الحدث وقع فى الماضى القريب فقد اكتسب الكثير من سمات الأسطورة (قصص الخوارق). وفى بعض الأماكن لا يُذكر اسم السباح، وفى أماكن أخرى تتضارب أسباب سباحته، وتتضمن كل حكاية تقريبًا عنصرًا ما خاصًا به غير موجود فى الروايات الأخرى للحكاية. إلا أنها جميعًا تتفق فى الأمور الأساسية؛ وهو أنه كان على متن سفينة كانت تسير قبالة المارتينيك وسبح لمدة ثلاثة أيام قبل أن يصل فى النهاية إلى الشاطئ، حتى إنه بقى فى المستشفى فترة طويلة، ثم شفى وعاد إلى البحر حيث قام بالمزيد من الأعمال البطولية. ولتحقيق أغراضنا تكفى توليفة من تلك الحكايات.

كان هناك رجل اسمه كينج King وُلد داخل بُرْنُس، وهو ما يجعل الشخص قادرًا على رؤية الأشباح، ومع أنه لا يمنع الموت، فإنه يحمى من الغرق. كان ذلك الرجل سباحًا قويًا جدًا وذهب مع بقية الرجال على سفينة شراعية كبيرة (حوالى ٥٠ طنًا) إلى المارتينيك لإحضار شحنة. والمارتينيك مكان ليس به الإمكانيات الكافية للإقلاع ليلاً منه، ولكن بمجرد تحميل الشحنة أراد وكيل القبطان الإقلاع ولكن القبطان رفض. ورغم ذلك رفعوا المرساة وأبحروا.

مضى كل شىء على الوجه الصحيح إلى أن اصبحوا على بعد ستة وعشرين ميلاً من المارتينيك حيث واجهتهم عاصفة شديدة جدًا. كانت السماء ملبدة بالغيوم بحيث لم ير أحد العاصفة وهى آتية، وحين هبت انقلبت السفينة وغرقت. كان لدى كينج بعض الزعانف على السفينة وحاول الحصول عليها ولكن الوقت لم يسمح بذلك، لأن السفينة غاصت بسرعة وغرق أحد أفراد الطاقم معها وبقى ثلاثة أخذوا يسبحون.

حاول كينج تشجيع الآخرين ولكن بعد فترة قال أحدهم "لا فائدة. لن أتمكن من السباحة." ونام على جانبه وشهداه وهو يغرق. وبذلك بقى اثنان، حيث حاول كينج

تشجيع الشخص الآخر قدر استطاعته، ولكنه غرق بعد فترة وبقى كينج وحده معلقًا على قطعة صغيرة من الخشب طفت من السفينة حين غرقت.

طلع النهار وكان بمفرده وشديد العطش، ثم غلبه النعاس فغفا، ولكن الأمواج وطبطبة مياه الأمواج سقطت على وجهه وأيقظته، وظل يسبح.

فى اليوم الثانى كان شديد التعب والعطش، وكان على وشك الاستسلام حين رآه طير ونزل وبدأ يحط على الماء. مد يده وجذبه ومزقه نصفين وأكله نيًا، وجعله هذا يشعر ببعض التحسن. ولكن أسماك القرش جاءت بعد ذلك، وظن أنها سوف تأكله، ولكن أعقب ذلك وصول سرب من خنازير البحر التى أخذت تضرب أسماك القرش إلى أن صار الماء أحمر من الدم وابتعدت القروش، وأخذت خنازير البحر تدفعه للأمام.

وفى اليوم الثالث كانت هناك امرأة تعمل فى حديقتها حيث وصل إلى البر. وصل عن طريق الأمواج وحمله البحر إلى الشاطئ حيث انهار. نظرت المرأة إلى الشاطئ وشاهدت شيئًا على لوح من الخشب ولكنها لم تعره قدرًا كبيرًا من الاهتمام، إلا أنها حين نظرت مرة أخرى ظنت أنه سلحفاة. وعند عودة زوجها من العمل حكت له الموضوع، ونزل هو إلى الشاطئ ليصطادها. وحين وصل إلى هناك رأى ذلك الرجل راقدًا عريانًا على الشاطئ وظن أنه ميت. نادى على بعض أصدقائه وحملوه إلى المنزل، وكان حيًا ولكنه فى حالة سيئة. وكانت الفترة التى أمضاها فى البحر من الطول حتى أن جلده كله انسلخ وزحفت ديدان البحر إلى داخل لسانه.

أخذوه إلى المستشفى وظل فاقد الوعى ثلاثة أيام، ولكنه استعاد وعيه أخيرًا وعاد إلى بيته لبعض الوقت، ثم رجع إلى البحر حيث كانت له تجربة أخرى. فقد كان يغوص فى توباجو كايز Tobago Cays وكان هناك شخص كندى يغطس هناك. أصاب الكندى برمحه سمكة قُشر وبقى أسفل الماء فترة أطول مما يجب وهو يقاتلها. وحين صعد إلى سطح الماء نزل مرة أخرى. كان مختنقًا. وحين رأى كينج

تلك غاص وراءه وأعاده. وضعه هو وزميله في قاربهما وأسعفاه بالتنفس الاصطناعي وأخذاه إلى كاريكاكو ومن هناك ذهب بالطائرة إلى جرينادا.

وحين استعاد وعيه علم بمن أنقذه وذهب ليرى كينج. كان شديد الثراء ولديه أملاك كثيرة في كندا. قال لكينج إنه يريد أن يعطيه كل ما لديه في العالم، ولكن كينج لم يأخذ شيئًا. واتفقا عقدا صفقة، وفي كل عام كان كينج "عليه الذهاب إلى كندا والعيش مع هذا الشخص لمدة ستة أشهر" ويُعطى له كل شيء. ولم يمكنه أن يفعل شيئًا. "وهذه هي الطريقة التي أجبر بها كينج على الذهاب إلى كندا."

مادام الرجال يتبعون البحر فلا يهم مدى حداثة السفن أو مدى تطور المعدات، فسوف يكونون على الدوام معرضين لخطر فقدان حياتهم. ومادام هناك رجال كهؤلاء، سوف تكون هناك أعمال شجاعة وجلَد كهذه سوف يتطلع إليها من هم دونهم من الرجال. ومادامت للرجال ذاكرة، فلا يهم ما هي الموضة السائدة فيما يتعلق بالشجاعة والإقدام، فسوف يتذكرهم الناس ويتذكرون من هم على شاكلتهم. وأنا أعد نفسي محظوظًا لأنني التقيت بالبعض منهم.

# الفصل الرابع عشر

# السفن الأشباح

« وحينذاك رأيت الهولندي الطائر
آتيا يتهادى عكس اتجاه الريح ».
" Flying Dutchman "
Perlach collection

هناك مجموعة من الأساطير والحكايات من القدم، ومن الأهمية، ومن الصلة الوثيقة ببعضها البعض ما جعلنا ندرجها هنا باعتبارها فصلاً قائماً بذاته. ولنبدأ من القرن الحالي.

في وقت الغسق تماماً غادرت سفينة شراعية تجارية جرينادا في طريقها إلى خليج تاريل Tyrell Bay في كارياكو على بعد حوالي ستة وثلاثين ميلاً. كانت الريح خفيفة واعتدلت أكثر واتجهت أكثر نحو الشمال، مما جعل الرحلة أطول وأبطأ بالنسبة للسفينة. وفي منتصف الليل تقريباً وجدت السفينة نفسها عكس اتجاه الريح من صخرة كيكيم جيني Kick-em Jenny Rock . كان القمر في منتصف السماء وكان البحر معتدلاً. غفا مدير الدفة في سكينة على العجلة. تطلع شخص ما إلى الأمام وصرخ مذعوراً.

كانت سفينة شراعية أخرى قادمة بسرعة وقد قربت أشرعتها كلها وكانت بلا أضواء. وكانت قريبة جداً وفي سبيلها إلى الاصطدام وكانت الطريقة الوحيدة لتحاشي الاصطدام بها هو تغيير مسار السفينة، فانحرفت السفينة وسط الصيحات واللعنات

الموجهة إلى الغريب. وما إن استقرت سفينة الشحن في مسارها الجديد حتى جاءت السفينة الأخرى مندفعة من الاتجاه المعاكس. ومرة أخرى جرى تغيير مسار السفينة، ليجدوا الغريب في مواجهتها. وسواء اتجهت السفينة يميناً أم يساراً كانت تجد السفينة الغريبة أمامها، وكانت في كل مرة مندفعة وقريبة، واستمر ذلك طوال الليل.

طلع النهار ليجد سفينة الشحن، التي تأخرت كثيراً بسبب تغيير الاتجاهات تلك كلها، مازالت عكس اتجاه الريح من صخرة كيكيم جيني، ولكنها كانت تبحر وحدها في بحر خال من السفن. وقال لي الإخباري "توجد سفينة شبح تبحر هناك."

كانت السفن الأشباح تلك تأتي إلى الوجود بعدة طرق. إذا غرقت سفينة دون أن تأخذ معها أياً من أفراد طاقمها أو ركابها، كان الاعتقاد الشائع هو أنها سوف تطفو من جديد وتبحر إلى الأبد بحثاً عن طاقم لتشغيلها. وضماناً لعدم حدوث ذلك، لا يحاول بعض الربابنة في المنطقة إنقاذ كل البحارة حين تفقد إحدى السفن.

والواقع أن هناك سبباً منطقياً لظهور الشبح في هذه الحالة التي ظهرت في كيكيم جيني. فهناك صخرتان تعرفان محلياً بالصخرتين المعاكستين لاتجاه الريح **Leeward Rocks**، وطبقاً لما قاله مستر فورشو **Mr. Forchau** من سانت جورج بجرينادا، فإن تلك الصخرتين تبدوان إلى حد كبير كالسفينة الشراعية التي فردت كل أشرعتها حين تُرى في ضوء القمر. وحين تكون الريح خفيفة يكون هناك تيار يكفي لأن يجعل السفينة التي تغير اتجاهها ثابتة في مكانها وهي تقترب منهما. ولذلك فهي حين ترى إحداهما تغير اتجاهها فتواجهها الأخرى.

ولكن السفن الأشباح لا تقتصر على جزر الهند الغربية. فهي تظهر في كل أنحاء العالم. وقد قطع العلماء شوطاً كبيراً في شرح أسباب ظهورها. ويقول البعض إن سببها سراب البحر(*) . ويبدو أن ذلك يأخذ شكلين: إما قلب الصور أو تشويهها. ويرجع هذا السراب إلى الظروف المناخية وغالباً ما يُشاهد بالقرب من طلوع الشمس أو غروبها، وكثيراً ما يكون قبل وصول عاصفة أو طقس سيئ. كما يعزى

(*) سراب معقد يتميز بعدة تشوهات في الصورة في الاتجاه الرأسي عادة ، حتى إن أجساماً كالصخور والأكواخ تبدو مشوهة ومكبرة إلى قصور عجيبة (المترجم) .

كذلك إلى توليفة من إجهاد العين والتعب والتوتر يحدثها الطقس السيئ وطول النظر إلى البحر.

قد تبدو السفن الحقيقية على أنها أشباح كذلك في الطقس الذى يكثر فيه الضباب. فقبالة لاندز إند، ونانتاكيت شولز وكيب هورن، وغيرها من الأماكن التى غالبًا ما تتجمع فيها السفن لتأخذ استراحة قصيرة في تجولها منفردة، قد يرى السفينة أو جزءًا منها أحد الناظرين بينما لا يراه غيره ولا يسمعها، وقد لا يسمع صوت بوقها سوى شخص واحد؛ مما يوحى بأن ما قابلوها كانت سفينة شبح.

وهناك بعض الشك في أن ساعات القلق التى يقضيها البحارة فى الحملقة فى الضباب والثلج تجعلهم يرون ويسمعون أى شيء يريدون. بل إن الجو الذى يكثر فيه الضباب يميل إلى تشويه الأشياء الحقيقية جاعلاً منها أشكالاً غريبة.

وأتذكر حين أيقظونى ذات صباح كثير الضباب فى مضيق لونج أيلاند وقالوا لى إن أمامنا سفينة غارقة. وحين صعدت إلى السطح بدت أنها سفينة صيد كبيرة الحجم غرق نصفها. وأظهر البحث أنها صندل صغير نصف غارق وله صارى، على مسافة أقل من مائة قدم. وأخيراً فإن هذه المعتقدات تضخمها أحيانًا مقابلة السفن المهجورة فى البحر.

الإيمان بالسفن الأشباح قديم، ويشيع على نطاق واسع، ولا يزال يحظى بالقبول، بغض النظر عن السبب. ويعتبر الهولندى الطائر The Flying Dutchman النموذج الأكثر شهرة من بين السفن الأشباح كافة. ويحتاج سبر غور هذه الحكاية إلى كتاب كامل، غير أنه لابد من بعض الملاحظات فيما يتعلق به، لأن هذه الحكاية من بين الحكايات الشعبية كافة فى العالم تعد واحدة من أعقد الحكايات وأقدمها وأكثرها انتشاراً. بل إن تشعباتها انتشرت انتشاراً كبيراً فى المناطق الداخلية وتغيرت بشكل أوضح من أية حكاية أخرى من نوعها.

ورغم وجود خيوط كثيرة متعددة غُزل منها حبل هذه الحكاية، فإن أربعة منها على الأقل تبدو بارزة. أحدها هو حكاية اليهودى التائه، والآخر حكاية أهازوروس Ahasuerus المسيح الدجال. وقد عولجت هذه الأسطورة المعالجة الصحيحة فى كتاب

لجورج أندرسون George Anderson [١] . ويغض النظر عن الحكايات السابقة القديمة على كثرتها، فقد اشتُهرت القصص بعد وقت قصير من وفاة المسيح وآتت أكلها قبل عام ١٦٠٠ [٢] .

باختصار، يبدو أنه بينما كان المسيح يحمل الصليب متجهًا إلى موضع الجمجمة(*) كان هناك رجل معين(**) يوبخه كي يسرع فى السير. نظر إليه المسيح وقال "أما أنا فذاهب، ولكنك سوف تنتظر حتى أعود". ومنذ ذلك الوقت والرجل يهيم على وجه الأرض لا يمكنه الموت ولا يمكنه أن يستريح. وقد حدث خلط فى العصور الوسطى بين هذا الرجل ورجل آخر هو إسكافى اسمه أهازوروس كانوا يعتقدون أنه المسيح الدجال؛ وهو قائد قوى الظلام الذى كان موجوداً عند الصلب وسوف يتقاتل مع المسيح عند عودته مرة أخرى [٣] .

يأتى الخيط الثانى من الحكاية الجرمانية "المطاردة الوحشية". فى البداية كانت هذه حكاية عن فودن Woden الذى يقال إنه تتبع هو وحاشيته طريدة عبر السماء [٤]. وبعد ذلك تحول هؤلاء إلى طاقم من الأشباح يمتطى خيلاً أشباحاً يتتبع كلاب الجحيم التى يسيل اللعاب من أفواهها وتصرخ فى مطاردة مجنونة لطريدة شبح؛ وهى عادة إما غزال أو خنزير. وفى النهاية أصبحت متصلة بأناس عديدين يبالغون فى قضاء وقت فراغهم فى الصيد. وتحكى رواية إنجليزية للحكاية عن رجل اسمه داندو Dando وهو قس مشغول بالأمور الدنيوية كان يحب الصيد. وذات يوم التقى بالشيطان الذى استولى على صيده ورفض إعادته. أقسم داندو بأن يذهب بحصانه إلى الجحيم إذا اقتضى الأمر لاستعادة الصيد. وعلى الفور وضعوه على حصان الشيطان واندفعوا بالكلاب الصاخبة إلى الجحيم. وهو يعود من حين لآخر ويمكن رؤيته مسرعًا عبر الأرض السبخة فى مطاردة شرسة لصيده [٥] .

يأتى الخيط الثالث من حكاية جريمة قتل غريبة وتوبة من الشمال. فطوال ما يزيد على ستمائة سنة كان هناك شبح يسير على شُرُفات قلعة فالكنبرج Falkenberg وهو

(*) تل خارج القدس القديمة صُلب عليه المسيح (المترجم) .

(**) تقول إحدى الروايات إنه حمال يهودى اسمه كارتافيلوس (المترجم) .

يصيح "جريمة قتل!" ويصاحب الشبح ضوءان. وقديمًا كان شقيقان يعيشان هناك وخطب كل منهما نفس الفتاة التى خطبها شقيقه. تزوجت الفتاة فالديران Walderan مما أصاب شقيقه ريجينالد Reginald بغم شديد. وبعد الزفاف حبس نفسه فى خزانة فى غرفة نوم العروس وانتظر. وبعد وقت قصير دخلت العروس والعريس وقفزا على السرير. وقبل أن تتحقق آمالهما، خرج ريجينالد من الخزانة وقتل العروس. وأثناء الصراع قتل كذلك شقيقه الذى لكمه على خده بيد دامية وهو فى النزع الأخير.

وبما أن الماء لا يمكن أن يزيل العلامة (علامة قايين)(*) ، فقد زار ريجينالد رجلاً مقدسًا فى الغابة قال إن عليه الحج إلى الشمال. وعلى الفور انطلق ريجينالد وذهب مع شبحين؛ شبح أبيض عن يمينه وشبح أسود عن يساره. مضى إلى الشمال مع الشبح والروح إلى أن بلغ نهاية الأرض. وفى عرض البحر كانت هناك سفينة كبيرة، وما إن وصل قاتل أخيه حتى أُنزل قارب صغير من السفينة وحين وصل إلى الشاطئ قال المراكبى "لقد كنا فى انتظارك." ركب قاتل أخيه ورفيقاه وحُملوا إلى السفينة التى تحركت على الفور. نزل الشبح الأسود إلى أسفل حيث أخذ يتقامر مع الشبح الأبيض على روح ريجينالد. ومازالا يتقامران منذ ستمائة سنة، و يؤكد البحارة حتى يومنا هذا أنهم يرون من خلال الرذاذ والزَبَد السفينة وعليها المقامران وريجينالد تتهادى فى اتجاه الريح وقد فردت كل أشرعتها(٦) .

يوجد الخيط الكبير الرابع، وربما الأقدم والأكثر مقاومة للتغيير، فى المعتقد القديم الخاص بقدرة الموتى على المشاركة فى أنشطة الأحياء. ويكمِّل هذا المعتقد، مقرونًا بالمعتقد الذى يكاد يكون عالميًا الخاص بسكن كائنات خارقة فى المياه المضطربة حول الألسن، الخيوط والحبل، حيث تظهر حول كيب هورن ورأس الرجاء الصالح أضخم السفن الأشباح.

(*) قايين (أو قابيل فى التراث الإسلامى) هو ابن آدم الذى قتل أخاه هابيل. وجاء فى سفر التكوين "وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله كل من وجده". وكان قايين قد قال قبل ذلك للرب "إنك طردتنى اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفى وأكون تائهًا وهاربًا فى الأرض" (المترجم) .

وتظهر حكايتنا بأشكال وصور عديدة، غير أن ثلاثًا منها تضم أصل الحكايات الأخرى كافة. الأولى هي قصة ذَهُل Dahul وهو اسم عربي معناه المنسي(*) الذي يظهر أحيانا قبالة كيب فينيستر Cape Finisterre . وكان ذلك الرجل قرصانًا وكان معه شريكه الرئيسي شخص ليس أقل من الشيطان الذي صعد خلسة على السفينة. وفي يوم من الأيام لطم الشيطان لطمة رهيبة وأوقعه في الماء. وبعد ذلك بقليل استولى على سفينة وجد على متنها عائلة أسبانية وقسًا. أمر ذَهُل بصلب القس وذبح ابن الأسباني. وبعد ذلك أخذ يسخر من معاناة القس. وفجأة اسودت السماء وكان هناك صوت ضخم من البحر: "سوف تهيم على وجهك يا ذَهُل حسب مشيئة الرياح، وتحت رحمة الأمواج. سوف يجهد أفراد طاقمك أنفسهم في كد لا ينقطع. وسوف تهيم على كل بحر حتى نهاية القرون. وسوف تتلقى على متن سفينتك كل غرقى العالم. ولن تموت ولن تقترب يومًا من الشاطئ، وكذلك تفر من أمامك دائمًا السفن التي تراها."

ومنذ ذلك اليوم والسفينة تهيم. لا أحد ينام ولا أحد يأكل. فليس بها ماء ولا أمل. وهي تُرى دائمًا قبل العاصفة وفي الجو الهادئ شبه المضيء الذي ينذر بهبوب عاصفة كبيرة. وهي تسير بالقرب من الصخور القريبة من سطح الماء، وبدنها الأسود نصف مدفون في الزَبَد الكثيف(٧) .

وتتعلق الحكاية الثانية بقبطان هولندي ضخم اسمه برنارد فوكه Bernard Fokke كان يقود سفنه بطريقة تفوق قدرة البشر. ولكي يتأكد من أن صواريه سوف تتحمل الضغط كان يُجلِّدها بأشرطة من الحديد. وكان قاسيًا على رجاله وكان كثير السب واللعن. وكانت رحلاته التي تستغرق تسعين يومًا من باتافيا Batavia إلى هولندا على قدر كبير من السرعة والانتظام، مما جعل البحارة يعتقدون أنه عقد اتفاقًا مع الشيطان. إلا أن الوقت يعني المال، حتى في البحر، وكان أصحاب السفن التي يقودها يحبونه. وفي النهاية لم يستطع العودة وكان الظن الشائع هو أن الشيطان استدعاه

(*) في باب ذهل في لسان العرب ، الذهْل هو تركك الشيء تتساه عن عمد أو يشغلك عنه شغل، تقول: ذهلت عنه وذهلت وأذهلني كذا وكذا عنه. والاسم المشتق من هذا الفعل في هذا الباب هو ذُهْل بضم الذال وتسكين الهاء (المترجم) .

إلى بيته، وربما لا يزال يراه البعض قبل العاصفة الآتية وهو يقود سفينته حول رأس الرجاء الصالح(٨) .

القصة الأخيرة لها روايتان. تقول الرواية الأبسط إن قبطانًا هولنديًا اسمه فاندرديكر Vanderdecker ( المحجوب)(٩) ، كان يبذل ما في وسعه لأن يدور حول كيب هورن ولكنه لم يفلح. وفي النهاية أقسم أنه لن يتوقف حتى يدور حول الكيب مهما استغرق منه ذلك. وسوف يصبح "ملعونًا" إن هو فعل ذلك. فقد كان ذلك بالطبع تطاولاً على الرب، ومازال منذ ذلك الوقت يجاهد من أجل التقدم في اتجاه الغرب.وكان سكان كيب هورن العجائز يرونه قبل العواصف على مقربة من خليج تيبلُ Table Bay، و كانوا يعرفون حين ظهوره أن أمورًا رهيبة توشك أن تقع(١٠) .

أما حكايتنا الأكثر تعقيداً فتقول إن الرب تجلى لفاندرديكر وهو يحاول شق طريقه حول كيب هورن وطلب منه التوقف. سحب الهولندي العنيد مسدسه وأطلق النار على السيد، ولكن الرصاصة ارتدت ودخلت في يده. حاول فاندرديكر ضرب الرب، ولكن ذراعه خارت قواها ولعنه أبوه. فحق عليه منذ ذلك اليوم أن يهيم في كل المحيطات لا يرسو قط في ميناء، وأن يشرب المُر، ويمضغ الحديد المصهور، ولا ينام أبدًا، ويعيش في طقس سيئ على الدوام، وأن تصاحبه العواصف، ويصبح جسمه مشوهًا، ويكون شيطان البحر الذي يبغضه الكل. وأخيراً فإنه حين تراه سفينة مارة تكون الكارثة مصاحبة لمرورها. وبعد أن ألغى الرب الرحيم كل أمل وبهجة يسعى إليهما البحارة، عاد إلى السماء. وكان كل ما قاله القبطان الشجاع هو "إني أتحداك" ومنذ ذلك الوقت وهو مضطر لتحمل العقوبات في سفينته "فولتيجور" .Voltigeur

ظهرت معظم حكايات الهولندي الطائر من خلال تضفير هذه الحكايات الأساسية الثلاث ببعضها. وتتجمع حول هذه القصص الثلاث معتقدات كثيرة لا تقل من شهرة ذَهُل أو فوكه أو فاندرديكر. وهم لا يجلبون العواصف فحسب، بل إن سفنهم تجلب كذلك الطاعون والجنون. ولا يمكن لأحد الصعود على متنها. وهي مبهرة، إن دققت فيها ضعت. وتُرى على متنها أشباح تتقامر على الأرواح. وهي لا تحدث صوتًا. على مقدمتها جمجمة وتتجمع الأشباح على عوارضها. ويمكنك سماعها من على بعد فراسخ

عدة. وإن كنت تشك فى صدق وجودها، فقد شاهدها من لا يقل عددهم عن ابنى أمير ويلز Prince of Wales! (١١).

لقد أصبحت فكرة الهولندى الطائر من الجاذبية بحيث ذهبت إلى البر وأصبحت جزءًا من الجهدين الشعبى والفكرى، حيث ظهرت كأوبرا لفاجنر Wagner وكموضوع للعديد من القصائد والروايات التى كتبها سكوت Scott وماريات Marryat وكوبر Cooper على سبيل المثال. ومن بين السوابق الشعبية الكثيرة "بيتر راج Peter Rugg، الرجل المفقود" الذى يتردد على طريق بوسطن بوست فى نيو إنجلاند، وشبح الأوتوستوب المنتشر حول المدن الكبرى من فيلادلفيا إلى سان فرانسيسكو، والعربة الشبح فى القرن التاسع عشر، والأوتوبيس الشبح أو الشاحنة الشبح أو السيارة الشبح الأحدث عهدًا المجبَرة على أن تهيم فى الطرق السريعة المشهورة فى الولايات المتحدة.

أخبرنى روبرت فلوز Robert Flaws الذى عمل عامين راعيًا للأبقار فى الغرب أن هناك عجلاً يقود القطيع. فكما هو الحال بالنسبة لعنزة يهوذا التى تقود الغنم إلى الذبح، هناك كذلك عجل يهوذا الذى يقال إنه يقود الماشية فى رحلة طويلة إلى كشك الهامبرجر. وكان ذلك العجل دون راميريث Don Ramírez وهو عجل طويل القرن قُدِّر له الهرب من الجزار كى يهيم فى البرارى، نحيلاً يشع منه الضوء، ويفزع الماشية لتهرب قبل العواصف وحرائق البرارى.

يجدر بنا قبل الانتهاء من هذا الموضوع الإشارة إلى أن شبح فاندرديكر دخل قاعة المحكمة أثناء إحدى المحاكمات الشهيرة فى سان فرانسيسكو قبل قرن مضى.

ففى عام ١٨٥١بنت شركة ويليام ويب William Webb السفينة "تشالينج" Challenge . وقد خططت الشركة أن تحقق بها رقمًا قياسيًا فى السرعة إلى كاليفورنيا وجعلت القبطان روبرت إتش (بولى) ووترمان Robert H. (Bully) Waterman ربانًا لها. وكانت سفينة ضخمة وكانت تحمل فى ظل قائدها الجديد حوالى ١٢٠ ألف قدم مربع من الأشرعة؛ وهى مساحة لا يمكن لقائد غيره أن يجعلها تحمله.

وإذا كانت السفينة رائعة، فلم يكن أفراد طاقمها كذلك. فقد جُمعوا من أحط الأماكن في نيويورك. كما أن ما كان يهمهم هو الأجر وليس السفن والأرقام القياسية. ويبدو أنهم لم يكونوا على علم بشهرة ووترمان ولم يحثهم على ذلك قوامه البالغ خمسة أقدام ، ثمانية بوصات. ويبدو أن أياً منهم لم يُحَمِّل نفسه مشقة ملاحظة رؤيته الثاقبة.

لقد أُختير ووترمان للقيادة لعدة أسباب. فقد كان معروفًا عنه أنه لا يخاف، وكان أكثر حملة الأشرعة كافة تهوراً في عصر كان الشعار بين القباطنة هو "ما لا يمكنها حمله يمكنها جره". بل إنه حقق أرقاماً قياسية للرحلات السريعة من الشرق. فحين كان قبطاناً للسفينة "ناتشيز" Natchez قطع المسافة من الصين إلى نيويورك في ثمانية وسبعين يوماً. وقد دار حول العالم في أقل من تسعة أشهر. وقطع مسافة ٣٨٥ ميلاً في أربع وعشرين ساعة على السفينة "سي ويتش" Sea Witch، وقطع المسافة من كانتون إلى نيويورك في أربعة وسبعين يوماً. ولكي يحصل ووترمان من السفينة على أقصى ما يمكن، كان يضع أقفالاً على حبال الأشرعة في أعلى الصواري (لضمان عدم إنزال أي شخص للأشرعة) وكان يقف في مؤخرة السفينة صارخاً في الرب كي يتجرأ على قلب سفينته. وبالنسبة لأفراد طاقمه، كان يخشاهم قدر خشيته من الرب، وكان يوقع أول متهاون أو متهرب من العمل بضربة من "المُقْنِعة" البالغ طولها أربعة أقدام التي كان يربطها في رسغه. وكان حرياً بأفراد طاقم "تشالينج" أن يدرسوا ما عليهم القيام به دراسة جيدة.

حين كانت السفينة تدور حول كيب هورن فقد خمسة رجال وقعوا في البحر من على إحدى العوارض، وفي ١٧ أغسطس تربص أفراد الطاقم لوكيل القبطان "بلاك" دوجلاس " Black" Douglas وطعنوه بسكين. تدخل ووترمان بدون مساعدة من أحد وأنقذ الوكيل بالمُقنِعة، ولكنه أصاب الطاقم بالعجز. سارت الأمور بشكل سيئ منذ ذلك الوقت، ووصلت "تشالينج" إلى سان فرانسيسكو بعد رحلة استمرت ١٠٨ أيام. قفز من استطاع القفز من أفراد الطاقم واتهموا ووترمان بالمعاملة غير الإنسانية والقتل. وفي الوقت نفسه اتهم ووترمان أفراد الطاقم بالتمرد.

أثناء المحاكمة التي تلت ذلك حاول محامي البحارة خلق جو سيئ لووترمان. فقد أشاروا إلي أرقامه القياسية السابقة من الشرق، وعودته السريعة إلي البحر، وتحديه للرب، وأكدوا أنه لكي يجعل سفنه تحمل المزيد من الأشرعة كان يغلف صواريها بالصلب. والواقع أنهم حاولوا بيان أن ووترمان، شأنه شأن الهولندي الطائر، كان إما ملعونًا من الرب أو متحالفًا مع الشيطان.

حكم القاضي ببراءة ووترمان، ولكن حياته العملية دُمرت مثلها مثل حياة القباطنة الأشباح الثلاثة. وقد تقاعد في مزرعة صغيرة وتوفي بسبب إصابته بالتهاب الغشاء البريتوني(١٢) .

مع أن حكاية الهولندي الطائر هي أشهر حكايات السفن الأشباح كافة وأكثرها تطورًا، فهذه السفن من الوفرة على سواحل أمريكا الشمالية والجزر البريطانية وجزر الهند الغربية بما يجعلها خطرًا على الملاحة.

وهناك أشياء بعينها تشترك فيها كل الحكايات التي تدور حول السفن الأشباح. فهي تظهر بمظاهر معينة، على هيئة سفن من نار أو سفن طائرة - وعادة ما تطير في هذه الحالة فوق الأرض وعبر الألسن - أو على هيئة سفن عادية تقوم بأشياء غريبة أو تتسم بسمات غريبة. فهي تبحر للخلف، وتختفي عند اقترابها من اليابسة، وتفرد كل أشرعتها في الوقت الذي تضطر فيه سائر السفن إلى السير بلا أشرعة، وهي تسير مباشرة في اتجاه الريح وقد فردت كل أشرعتها، وتسير بسرعة في وجود صخور قريبة من سطح الماء في حالة عدم وجود ريح حاملة معها ريحًا حية. وفي بعض الأحيان تكون ألواحها قد سقطت ولم يتبق سوى هيكلها الذي تُرى الشمس من خلاله، وتكون أشرعتها مهترئة أو منتهية تمامًا ولم يتبق منها سوى الأضلاع العمودية وحواف الأشرعة والحبال المخاطة على جوانبها. لا أحد يقف على الدفة وأحيانا يكون أفراد الطاقم هياكل عظمية، وفي أحيان أخرى لا يكون لهم وجود. وفي الغالب الأعم تكون مضيئة وتمر في صمت تام.

ويبدو أن لكل سفينة من تلك السفن غرض ما؛ وهي عادة ما تكون بمثابة نذير لتحذير من يرونها من حدث رهيب وإعدادهم له. وفي أغلب الأحيان يراها الناس قبل

العواصف الشديدة وتظهر عند الغسق، وفي الضباب أو الثلج أو البرد أو المطر أو الطقس الرطب حين تكون الزجاجة(*) منخفضة. (مما يجعلنا نقبل أنها بالفعل سراب.) والسفن النارية هي الأكثر شيوعًا بين تلك السفن التي تتنبأ بحالة الطقس. كما أنها تشاهَد قبل وقوع كارثة؛ مثل حالة وفاة في الأسرة أو فقدان إحدى السفن.

في كل حالة تقريبًا تكون هذه هي السفن التي انتهت نهاية مفاجئة أو مأساوية؛ وخصوصًا إذا كانت قد فقدت نتيجة لفعل مشين. والسفن التي تصبح سفنًا أشباحًا هي في أغلب الأحيان السفن المحطمة، والسفن التي غرقت بسبب حدوث ثقب فيها، والسفن التي وقع على متنها تمرد وجريمة قتل أو ارتكبت أفعال مشينة. وقد تصبح السفن التي تحطمت مع حدوث خسائر في الأرواح - وخاصة إذا كان ذلك عن طريق الإهمال أو عدم الكفاءة - سفنًا أشباحًا، أما السفن التي تُهجر أو يجرى التخلص منها أو "تُقطر وهي في حالة سيئة جدًا" كي تتحلل على جُرُف طيني فلا تخضع للقاعدة. وليس مستغربًا إذن أن نجد تلك الأشباح بصورة أشد كثافة حيثما تحطمت السفن أو حيثما ينشط من ينشلون حكام السفن؛ عند بوغاز سانت لورانس، وفي جورجيز بانك، وكيب هاتيراس، وجزر هيبريديز وساحل كورنوول.

قد يكون أحد الأشباح الأكثر إبهارًا التي علينا تناولها هو السفينة النارية. ونجد أنه مع ظهورها في أماكن أخرى، فإن موطنها الأكثر احتمالاً هو أمريكا الشمالية. ويظهر عدد منها في منطقة خليج سانت لورانس، غير أنه من الصعب القول إن كانت سفينة واحدة تظهر في مواضع مختلفة أم أنها سفن شتى كل منها يظهر في مكان مختلف. يذكر البروفيسور أيفز Professor Ives سفينة في خليج كمبرلاند Cumber-land Bay وهي سفينة "مكتملة الأشرعة" تحترق بتوهج بينما أفراد الطاقم يجرون على سطحها، إلا أنه يرى أنها "سكونة ذات صاريين" و"باخرة"؛ وكلتاهما ليست "سفينة مكتملة الأشرعة". وقد أبلغه أحد إخبارييه أنها سفينة الكنز الخاصة بكيد تعيد تمثيل ساعاتها الأخيرة(١٢).

(*) مقياس الضغط الجوى الزئبقي (المترجم).

ويتحدث كاتب آخر عن "سكونة صغيرة" تظهر عند كاو هيد Cow Head ويقول إن لها أضواءً متدفقةً مبهرةً. وكل عشرين عامًا تتكوم على أحد الجروف وتختفي ويعتقدون أنها سفينة الكنز الخاصة بالقبطان كيد. ومع أن الكاتب لا يقول إن السفينة تحترق، فإن القصتين تبدوان قريبتين جداً بحيث تجعلانا نتساءل إن كنا نسمع عن نفس السفينة من مصدرين أم لا(١٤).

وتظهر سفينتان ناريتان أقل إثارة للجدل في خليج ما هون Mahone Bay بالقرب من تشيستر في نوفا سكوشا، وفي جزيرة بلوك برود آيلاند. وسبق أن تحدثنا عن الأولى بإيجاز، إلا أن قصتها الكاملة تحتمل الرواية.

خلال حرب ١٨١٢ كانت هناك سفينتا مجهود حربي أمريكيتان تحملان اسم "تيزر". كانت "تيزر" الكبيرة قد استُولي عليها بعد إرسالها ما لا يقل عن غنيمة بحرية قيمتها خمسين ألف دولار. وكانت حين استُولي عليها تحت قيادة رجل اسمه جونسون Johnson . وكان ذلك الرجل قد أطلق سراحه مقابل تعهده بعدم الهرب ولم يكن بإمكانه حمل السلاح مرة أخرى ضد التاج البريطاني إلى أن يُستبدل به أسير. وفي حال عدم التزامه بشرط الإفراج وأسره يشنقه البريطانيون.

لم ينتظر القبطان جونسون الاستبدال وانضم إلى السفينة "يانج تيزر" Young Teazer وخرج في رحلة إلى نوفا سكوشا. كانت الأمور هناك سيئة واستولوا على بلدة تشيستر الصغيرة ولكنهم حصلوا على القليل من الغنائم؛ فقد سبق نهب البلدة. وقد حاولوا ذلك في وقت لاحق وأوقعتهم سفينة حربية في شرك داخل خليج ما هون. استدعى القبطان وارين Captain Warren ضباطه في مؤخرة السفينة ليروا إن كان بالإمكان وضع خطة للإفلات من العدو، إلا أن القبطان جونسون، ربما تفضيلاً منه لأن يشنق مثل أي مجرم عادي واعتقاداً منه باستحالة الهرب، نزل أسفل السفينة وقتل كل البحارة ما عدا ستة رجال.

وقد قال القبطان كوجشال عن جونسون عند مناقشة هذا الأمر:

**لو كان القبطان جونسون بذل جهداً أكبر في التفكير، أو ربط مدفعًا حول عنقه وألقى بنفسه في الماء، فمن المحتمل أن البعض كانوا سيحزنون عليه وما كان**

**ليعيبه أحد. وهو فى كل الأحوال لم يكن أحد أكثر الأحياء قبولاً، بل العكس هو الصحيح. فلابد أن ذلك البائس اليائس يلبسه شيطان، حيث بعث بهذا العدد الكبير من الكائنات البشرية إلى العالم الآخر دون لحظة إنذار واحدة[١٥] .**

ويبدو أن "يانج تيزر" قد تناثرت على مساحة كبيرة من الخليج، وذلك أنه حتى عام ١٩٤٨ كان الصيادون ينتشلون قطعًا منها باعوها للسياح بأثمان جيدة. وهى تخرج من مقبرتها وتعيد تمثيل لحظاتها الأخيرة. وقد تكرر ذلك كثيراً حتى إن السكان المحليين لا يولونها سوى اهتمام قليل لا يتعدى قولهم "إنها "تيزر" تحترق من جديد".

وهى عادة ما تظهر فى الضباب أو الطقس الذى تتعذر فيه الرؤية على هيئة وهج داخل البحر. وحين يبحث المحبون للاستطلاع الأمر يخبو الوهج عند اقترابهم، ليعود إلى الظهور فى مكان آخر. وعادة ما يستمر هذا الوهج دقائق كثيرة وحين يحدث فإن الناس عموماً ـ وليس دائمًا ـ كانوا يظنون أنها نذير بطقس سيئ.

وفى يوليو ١٩٤٨ تصادف وجودى فى خليج ماهون ورأيت وهجًا فى الضباب وقيل لى إن "تيزر" تحترق من جديد، وأنذرونى بعاصفة وشيكة. ووصلت العاصفة فى اليوم التالى.

وعلى عكس معظم السفن الأشباح، يبدو أن هذه السفينة تخدم سيدين. فهناك الكنز الموجود على جزيرة أوك الذى يحميه الحصان الشبح وكلب الجحيم. وحينما يقترب شخص من هذا الكنز يشاهَد الكلب يعدو مسرعًا على الجزيرة، ويظهر الحصان ويقال إن "تيزر" تحترق بأشد قدر من التوهج فى عرض البحر[١٦] .

تقع جزيرة بلوك على بعد عدة مئات من الأميال إلى الجنوب الغربى من خليج ماهون. وكانت هذه الجزيرة الصغيرة مسرحًا لمآسٍ وأعمالٍ شريرة كثيرة بدأت حين قتل الهنود القبطان أولدام Captain Oldham فى القرن السابع عشر[١٧] . وكان هناك اعتقاد بأن القراصنة يدفنون الذهب هناك واشتُهر السكان فى يوم من الأيام بأنهم ينهبون حطام السفن، وحتى فترة قريبة كان هناك اعتقاد فى رود أيلاند بأن الأغراب يمكن أن يفقدوا أى شيء تقريباً هناك، ما لم يكن مربوطًا جيداً وعليه حراسة واعية.

وفى القرن الثامن عشر فقدت هناك سفينة اسمها "بالاتاين" Palatine فى ظروف غير عادية ومحيرة. وتقول إحدى الحكايات إنها كانت سفينة تقل مهاجرين ألمانًا ومنشقين دينيين إلى هذا البلد. وكانت السفينة قد قطعت مسافة طويلة ونفد منها الطعام والماء وضلت طريقها ثم وصلت أخيراً إلى جزيرة بلوك. رست السفينة وألقت بمرساتها وطلبت الغوث. وكان الركاب والطاقم فى ضيق شديد وأصيبت امرأة بلوثة. وبينما كان أهل السفينة على البر أضرمت المرأة المجنونة النار فيها وماتت محترقة داخلها.

الحكاية الثانية هى أن الباحثين عن حطام السفن فى الجزيرة اجتنبوها بالطريقة القديمة الخاصة بإطفاء الفنار ووضع ضوء مزيف حول رقبة حصان أعرج يسمحون له بالرعى على الصخور. جنحت السفينة، وضرب السكان المحليون الأحياء على رءوسهم وأضرموا النار فيها، وكانت على متنها امرأة مجنونة. فك المد المرتفع السفينة المحترقة التى انسابت إلى البحر وغرقت.

ويقال إن السفينة تظهر منذ ذلك الوقت وتحترق قبل العواصف الضخمة وكذلك يوم السبت الذى بين الكريسماس ورأس السنة إحياء لذكرى ضياعها[١٨] .

تخرج من هاتين الحكايتين حكاية أخرى جُمعت من الجزيرة قبل سنوات عديدة. استخدم أهل الجزيرة الأرباح التى حققوها من هذا الحطام وغيره فى بناء سفينة وحملوها بشحنة إلى جزر الهند الغربية. وكان الطاقم يتكون من أبناء جزيرة بلوك وكان الربان أحد أبناء جزيرة بلوك المشهور بقدرته على السير بسرعة. أبحرت السفينة ووصلت إلى جزر الهند الغربية وباعت شحنتها وحمِلت شحنة أخرى وأبحرت عائدة. تم ذلك كله فى وقت قياسى ووصلت قبالة الجزيرة قبل أسابيع من موعد وصولها المتوقع. فقد نظر السكان عند الغسق ورأوا شراعًا فى عرض البحر، فأطفئوا الفنار وأوقدوا الضوء الزائف. كان الظلام حالكًا. وصلت السفينة إلى البر واصطدمت بالشاطئ وتولى ناهبو الحطام أمر القليلين الذين بقوا على قيد الحياة واستطاعوا السباحة على الأمواج. وحين طلع الصبح اكتشفوا أنهم أغرقوا سفينتهم وقتلوا أبناء جلدتهم[١٩] .

ليست كل السفن المسببة للعواصف بالضرورة سفنًا نارية. فالواقع أن السفن النارية لا تظهر فى أغلب الأحيان فى المياه البريطانية أو الأيرلندية. وطبقًا لما يقوله القبطان بوكان فإن سفينة نقل جنود تحمل على متنها القوات العائدة كانت تدخل ستورنوواى Stornoway بعد الحرب العالمية الأولى. كان اليوم هادئًا وكانت الريح لطيفة فى اتجاه ستورنوواى (فلم تكن ريحًا شديدة). لم يكن هناك أى سبب لحدوث مأساة، ولكن الباخرة اصطدمت بصخرة فى الميناء وغرقت مخلفة خسائر كبيرة فى الأرواح. ومنذ ذلك الوقت كثيرًا ما تُشاهَد باخرة بيضاء آتية قبل العاصفة الوشيكة.

وعلى امتداد ساحل كورنوول، حيث يكثر غرق السفن، المتعمد والعفوى، تغص المياه والجو والبر بالسفن الأشباح. وهى تتباين فى الشكل من اللَّجَر(*) التى تظهر على إحدى البحيرات إلى القارب المتهالك الذى تقوده ساحرة كانت تثير العواصف، والآن لابد لها أن تطفو باستمرار على مياه المحيط جزاء ما اقترفته من أعمال شريرة[٢٠]. ويقال إن بعض هذه السفن تجلب العواصف، وبعضها الآخر يعقبها. كما أن بعضها مجرد علامات أو رسائل من الموتى. ومنها ما يأتى لبعض الأشرار أو ليتأكد من أن الوعود التى قُطعت منذ زمن بعيد وخُلفت أوفى بها من قطعوها على أنفسهم أخيرًا. وبعضها كذلك نذر يرسلها العالم الآخر لإعداد المجتمع لخبر فقدان سفينة معينة. وهناك ما يكون عازمًا على الانتقام.

يقال إنه منذ سنوات بعيدة رسا قرصان فى كورنوول حيث ترك القرصنة واتجه إلى أعمال التهريب الأكثر احترامًا. وسرعان ما أصبح هذا مملاً فوجَّه مواهبه إلى نهب حطام السفن. كان على قدر كبير من المهارة فى هذه المهنة وكان يجتذب الكثير من السفن إلى الشاطئ ويقتل الأحياء قبل أن يجمع الأسلاب. وفي النهاية أدركه الهِرَم ورقد على فراش الموت، ولكن هذه النهاية لم تكن سهلة. فقد ظل الشيطان يدخل الغرفة ويخرجه الجيران مرارًا وتكرارًا إلى أن دخل على هيئة ذبابة فاستسلموا. وفجأة سمع من يراقبونه فى الغرفة صوت أمواج وصاح صوت ضخم "لقد آن الأوان ولم يأت الإنسان." وفي الخارج نظر الناس لأعلى ورأوا سحابة سوداء آتية من ناحية البحر.

(*) سفينة شراعية ذات شراع مربع الأضلاع أو أكثر (المترجم) .

كانت سفينة في سواد الفحم وقد فردت كل أشرعتها. اندفعت السفينة بخفة فوق الأرض والمنزل والتقطت روح الرجل البائس وهي تمر.

وبعد ذلك الحادث قرر الجيران أنه لابد رغم ذلك من عمل جنازة لائقة للرجل. وضعوا الجثمان في نعش واتجهوا إلى الكنيسة. وفي الطريق انضم لموكب الجنازة خنزير أسود ضخم، وما إن بلغوا الكنيسة حتى أحرقت النعش صاعقة(٢١) .

ومن اللافت للنظر إلى حد كبير أن هناك قصة تكاد تكون متطابقة في لابرادور. فما إن مات القرصان الذي تحول إلى نهاب لحطام السفن ومهرب، سمع الموجودون في الغرفة هدير الأمواج وصوتًا يقول "حلت الساعة ولم يأت الرجل". وفي تلك اللحظة ظهرت سفينة تبحر على سحابة وحملت روح الرجل. وقد حُذفت الأجزاء الخاصة بالخنزير والنعش(٢٢) .

الواقع أن عدداً كبيراً جداً من مكونات هذه الحكايات موتيفات شائعة بين البحارة، وهو ما تدل عليه الحدوتة التالية.

في ليلة من الليالي كان صياد يسير بين إنفيرنس وكرومارتي Cromarty في إسكوتلندا. وحين ارتقى أحد التلال رأى أمامه رجْمًا عتيقًا. كان القمر يظهر ويختفي بين السحب، وبينما كان يطالع حدث أمر غريب. فقد أصبحت الأرض المعشوشبة الكئيبة بحراً هائجًا وملأ أذنيه هدير الأمواج المتكسرة، رغم وجوده على بعد ثلاثة أميال من البحر وكانت الليلة هادئة. وقد رأى أمام عينيه الرجم يتحول إلى صخرة عالية، وجاءت عبر البحر الذي يفور سفينتان كبيرتان أخذتا تدوران وتدوران حول الرجم(٢٣).

ألا تساعد هذه الحكاية في تفسير الحكايتين الأخريين؟ فالضباب على الأرض المعشوشبة يشبه الأمواج، ومن الممكن أن "هدير" البحر الذي كان في أذنيه هو أن كون الجو هادئًا سمح له بسماع تكسر الأمواج على البعد. فالأمور ببساطة تتخذ، حين تكون الظروف مواتية، نسبًا ضخمة، وتنتشر على نطاق واسع، وتستمر وقتًا طويلاً.

منذ سنوات كثيرة كان هناك ميناء جيد في أورفورد بالقرب من أورفورد نِس Orford Ness، وكان يعتبر واحداً من أكثر الأماكن خطورة على الساحل الإنجليزي.

ولسبب أو لآخر (يقول البعض إن عروس بحر غاضبة هى السبب) أقيم حاجز على البوغاز وأصبح المرفأ جيبًا مسدودًا. وطبقًا لما قاله القبطان بوب روبرتس Bob Roberts فإن السفن التى تحاول الدوران حول أوكسفورد نس كثيرًا ما تجد نفسها معرضة لمشاكل. و تشاهَد فى هذا المكان سفينة شراعية صغيرة على مسافة قريبة متجهة إلى أورفورد. وبدلاً من أن يتبع ربانها غير الحريص المثل القائل "حين تتنابك الشكوك ابق فى الخارج" تجده يتبع عكس ذلك، وهو "أى ميناء فى العاصفة" ويتبع الغرباء فى الدخول، لكى يتحطم وحسب على الحاجز(٢٤) .

من بين كل حكايات السفن الأشباح، لا تضاهى أية حكاية منها ذلك الرعب الشديد الذى تحكى عنه تلك الحكاية التى تُروى فى جزر شولز Shoals Islands. وقد يمكن القول بأنها حكاية عن الأحياء وليس الأموات، غير أنه لو كان الأمر كذلك فمن المؤكد أنها تجسد قدرًا كبيرًا من مأثورات السفن الأشباح فى تركيبتها. وهى حكاية جيدة تستحق أن نسجلها هنا، ذلك أن لها خلفية متميزة، وأنا أعتقد أن هناك نوعًا ما من الحقيقة التى يمكن بيانها وراء الفولكلور كله.

كشأن الكثير من الجزر المنعزلة، نجد أن لجزر شولز تاريخًا طويلاً من العنف. إذ يمكننا اليوم أن نرى هنا مقابر أطفال صغار دفنهم آباؤهم وتركوهم منذ سنوات مضت. وهنا خنقت أم طفلها لكى لا يبكى ويكشف للهنود المعادين عن وجودها. ويسير على الشاطئ شبح الكونستابل باب Constable Babb، ويقال إن راهبًا يلبس قلنسوة يهرول على الشاطئ حين تهب الريح شرقًا. وتقف إحدى زوجات بلاكبيرد(*) Black-beard على صخرة وتلوى يديها المتشابكتين ألمًا. ويقال إن قرصانين شبحين يتقاتلان فى علِّية الكنيسة. فقد فقدت سفن كثيرة هنا. وفى بعض الأحيان كان أفراد الأطقم ينجحون فى الوصول إلى الشاطئ، وفى إحدى المرات تجمدوا حتى الموت على بعد خمسين قدمًا من بيت مريح دافئ. ومنذ سنوات خرج رجلان فى سفينة صغيرة من نيو هامبشاير New Hampshire و شوهدا فى يوم الكريسماس يدخلان الميناء من فوق

(*) هو إدوارد تيتش Edward Teach المعروف باسم بلاكبيرد [ اللحية السوداء] وكان قرصانًا إنجليزيًا اتخذ من ساحل نورث كارولينا قاعدة له بعد عام ١٧١٣، حيث مارس أعمال القرصنة قبالة سواحل المستعمرات البريطانية وفى البحر الكاريبى. وقد قتلته القوات البحرية البريطانية عام ١٧١٨ (المترجم) .

المخاضات، ولكنهما لم يلقيا بالمرساة. ولا تزال السفينة تشاهَد فى الليالى المقمرة قبل هبوب العواصف الثلجية على الميناء. وقد وقعت هنا واحدة من أفظع جرائم القتل فى القرن التاسع عشر[٢٥].

فى مارس من عام ١٨٧٣ وجد رجل اسمه واجنر Wagner فى بورتسماوث بنيو هامبشاير نفسه مفلساً. وكان قد أقام من قبل مع عائلة هنتفِت Huntvet على جزيرة سماتى نوز Smutty Nose Island (وهى إحدى جزر المجموعة). وحين اكتشف أن ذكور عائلة هنتفِت بعيدون عن البيت سرق قارباً بمجدافين وسار به مسافة عشرة أميال فى البحر الذى يكتنفه الظلام ووصل فى منتصف الليل وأخذ يفتش المنزل ليجد ما يسرقه. وبينما هو مشغول فى ذلك فوجئ بالنساء فضرب اثنتين بفأس فأفقدهما الوعى وبعد ذلك خنقهما على مهل بوشاح. أما الثالثة فجرحها ولكنها هربت فى رداء النوم واختبأت وسط الصخور التى يغطيها الثلج. تناول واجنر وجبة مشبعة وطارد الشاهدة المتبقية مطاردة غير موفقة ثم عاد أدراجه إلى بورتسماوث. وبعد ذلك أُلقى القبض عليه وحوكم وصدر ضده حكم بالسجن لمدة طويلة[٢٦].

فى عام ١٩٥٣ سمعت القصة التالية من صياد على سفينة صيد رأسية هناك. وقد بدأ بلفت نظرى إلى حقيقة عدم وجود ما يعرف باسم "سفن الجينى"(*) Guinea boats (وهو نوع من السفن من بوسطن ليس له سمات محددة تديرها فى الغالب أطقم إيطالية أو برتغالية) فى الميناء. وبعد ذلك أوضح أنها كانت تستخدم فى السابق بأعداد كبيرة وكانت تبقى هناك لمدة شهر فى المرة الواحدة للصيد حول الجزيرة بالنهار. وفى المساء كان الصيادون يتجمعون حول برميل نبيذ ويتبادلون الحكايات.

وفى إحدى الليالى سكِر أحد أفراد الطواقم وذهب إلى الشاطئ. وهناك تحرش بزوجة أحد الصيادين المحليين، وعندما لم تفعل ما أراده منها قتلها بسكين وعاد إلى السفينة، وفى صباح اليوم التالى عاد إلى بوسطن.

(*) كلمة guinea مصطلح عامى يقصد به الإيطالى أو الشخص المنحدر من أصول إيطالية (المترجم).

اكتُشفت الجريمة واتهم أهل الجزيرة زوجها بارتكاب الجريمة. وعند عودته أُلقى القبض عليه. ورغم حجج براءته ألقت به الشرطة على إحدى السفن المنتظرة كى يذهب إلى سجن بورتسماوث. وهبت عاصفة عنيفة فى ذلك المكان. ولم يحاول أحد قط العبور لبعض الوقت، ولجأ أفراد الشرطة إلى أحد المنازل مع سجينهم.

بلغت العاصفة أوجها بحلول منتصف الليل ، وفى تلك اللحظة قفز المتهم من أحد النوافذ وهرب إلى الشاطئ وأنزل قاربًا صغيرًا وسار به فى تلك الليلة العاصفة. ومع أنهم بحثوا فى كل الجزر والصخور من جلوسستر حتى كيب اليزابيث **Cape Elizabeth** فلم ير أحد الرجل ولا قاربه بعد ذلك.

فى وقت لاحق عاد أسطول سفن الجينى إلى الجزيرة وعلم بأمر الجريمة. شكوا فيما حدث ولكنهم لم يقولوا شيئًا عن شكوكهم للعالم الخارجى.

ومرت بضعة أسابيع وفى إحدى الليالى "كان الضباب كثيفًا"، وكانت كل سفن الجينى واقفة فى الميناء لقضاء الليل. وحوالى الساعة الثانية صباحًا سُمعت صرخات رهيبة من عنبر إحدى السفن. أسرع الجميع لمعرفة ما حدث. أوقد الضوء فكان القاتل راقدًا هناك، وقد قطعت يده اليمنى من عند الرسغ. كان الفزع من هذه الجريمة من الشدة حتى إن رجلاً نسى أن يذكر أنه سمع صوت المجدافين على حَكَمَتيهما، ونسى آخر أنه شاهد شخصًا يرتدى ملابس مشمعة فى قارب صغير يجدف بعيدًا فى الضباب.

وبعد ذلك لم تكن أية سفينة من سفن الجينى آمنة هناك. فكان إذا اشتد الضباب أو كان الطقس عاصفًا، كانت الصرخات تُسمع على متن إحدى السفن وكانوا يعثرون على رجل وقد شُوِّه بطريقة أو بأخرى؛ كانت الأذنان تقطعان، أو القدمان تبتران، أو الأنف يُجدع، أو العينان تقلعان. وكانوا على الدوام يرون فى الظلام شكل رجل أشبه بالشبح يرتدى ملابس مشمعة صفراء يشق طريقه فى قارب صغير. وفيما بين هدير الأمواج أو هزيم الرعد كان مجدافاه يسمعان على حَكَمَتيهما. ولم يكن يراه أحد أو يسمعه حين يأتى، ولكن كان هناك من يسمعه ويراه وهو ينصرف.

استمرت تلك الهجمات ثمانية عشر عاماً، ولكنها كانت ضد صنف واحد فقط من الصيادين. وفى النهاية توقف أسطول الجينى عن الذهاب إلى الجزيرة، وحينئذ توقفت الهجمات. وأبلغنى الإخبارى أنهم لم يأتوا إلى هناك بعد ذلك خوفًا من الصيادين، وبالفعل لم أشاهدهم قط فى كل المرات التى توقفت فيها فى الجزيرة(٢٧) . ويبدو لى أن تطور هذه الحكاية يشرح نفسه.

يقال إن سفينة خطيرة أخرى موجودة بالقرب من سولواى فيرث Solway Firth، وهو موضع اشتهر بسفنه الأشباح. وفى هذه الحال خرج عريس وعروسه إلى البحر. وكما هو معروف، فمن سوء الطالع أن تؤخذ عروس إلى البحر،(٢٨) وربما كان هذا هو السبب فى أن الفتاة وزوجها قُتلا وألقيا فى البحر. وبعد ذلك بوقت قصير غرقت السفينة وكل بحارتها لتعود إلى الظهور من جديد. وإذا رآها أحد علم أنها نذير شؤم، ذلك أن كارثة رهيبة فى سوف تحدث لسفينته بعد ذلك بقليل(٢٩) .

توجد فى أنحاء العالم الناطق بالإنجليزية سفن أشباح تنذر بالموت. وقد تكون أشهر هذه السفن - ربما لأنها خُلدت فى قصيدة للشاعر ويتيَر Whittier الذى كان مهتماً بإلغاء الرق وبالخوارق - كانت سفينة شبح من هاربسويل Harpswell بولاية مين.

كانت هناك سفينة مجهود حربى اسمها "داش" Dash إبان حرب ١٨١٢ ، ويعتبرونها فى بعض الأحيان أولى سفن القلبر بسبب خطوطها الحادة، رغم ظهورها قبل ربع قرن من ظهور السفينة "آن ماكيم" Ann McKim . وكان "داش" من الضيق بحيث لم يكن بها مكان للمخازن؛ وهو ما يعنى أنه لا يمكنها البقاء طويلاً فى البحر، غير أن سرعتها الكبيرة عوضت ذلك وكانت سفينة مجهود حرب ناجحة، وإن كان هناك ما يدفع إلى الشك فى كونها ضعيفة بعض الشيء.

ذات مساء بعد الحرب تراهن ربانها مع قبطان آخر على أن "داش" يمكنها أن تسبق سفينته فى أى وقت. وبناء على ذلك نُظِّم سباق حول جورجيز بانك والعودة، على أن تكون السفينة التى تصل أولاً هى الفائزة. انطلقا وكشفت "داش" العجوز عن معدنها. وفى الوقت الذى كانتا تقتربان فيها من المخاضات كانت تتقدم بطول كامل وكانت تسير تحت سحابة من الأشرعة. وفى تلك اللحظة هبت عاصفة شديدة، وحين

انقشعت اتضح أن "داش" اختفت للأبد. ولا أحد يعلم إن كانت فقدت في مياه المخاضة، أم انقلبت.

وبعد ذلك بوقت قصير ظهرت "داش" في خليج كاسكو. فقد شوهدت وقد نشرت كل أشرعتها عند الغسق، حيث كان الضباب يقترب، وكانت تبحر للخلف في اتجاه بلدة هاربسويل حيث موطن معظم أفراد طاقمها. وقبل وصولها إلى الميناء اختفت في الهواء الرقيق. ويقال إنه بعد ذلك بوقت قصير توفي أحد أفراد عائلة بحَّار من طاقمها. ومذ ذلك الحين كانت تظهر على فترات غير منتظمة، ودائمًا عند بداية الليل، وباستمرار كانت أجراس الكنيسة تدق بعد مرورها معلنة وفاة شخص من أقارب أفراد طاقمها. وفي النهاية أشيعَ، أو كان يعتقد، أنها سوف تظل تظهر كنذير بالموت إلى أن يصبح كل أقارب أفراد طاقم "داش" في الجبانة، أو كما يقول ويتيَر "وحيثما تبحر سفينة الموت، سوف تسير سفينة الدفن بطيئة"(٣٠) .

في بعض الأحيان تكون السفينة الشبح سفينة رحمة تختلف كل الاختلاف عن سفينة أورفورد نِس. فذات مرة أقلعت سفينتان صغيرتان معًا من برودسي **Broadsea** إلى أبردين **Aberdeen** . ولم يمض وقت طويل عليها في البحر حتى تعرضتا لعاصفة شديدة وانفصلتا عن بعضهما. وفي النهاية هدأت العاصفة وظلت إحدى السفينتين في طريقها إلى أبردين. وكانت ميناءً يصعب دخوله إلى حد ما. وحين وصلت قبالة مدخل الميناء سرها أن تجد شكل رفيقتها أمامها في الظلام وتبعتها بشكل طبيعي إلى داخل الميناء دون ضرر أو خطر. ولم تدرك إلا بعد ربط حبالها في الرصيف أن السفينة الأخرى لم تكن أمامها، وأن أحدًا لم يرها في الواقع منذ العاصفة(٣١) .

تظهر معظم هذه السفن مرة واحدة فقط. وهذه في بعض الأحيان، وليس دائمًا، رسل من العالم الآخر يزورن الأحياء ليعرفوا ما آل إليه أصدقاؤهم. وحين تحطمت السفينة البريطانية "نبتيون" عند جويثيان **Gwithian** قيل إنها شوهدت كشبح عند سانت أيفز على بعد ميل ونصف. وكانت قد فُقدت في اليوم السابق قبالة كورنوول. وخرج لها قارب عليه مرشد ووقف بجانبها. وقف المرشد ومد يده ليستند على بدنها قبل أن يصعد إليها، ولكنه قبض على هواء رقيق ووقع في البحر(٣٢) .

وُجدت أهم تلك السفن التي تظهر في أمريكا الشمالية في مضيق لونج أيلاند في زمن البيورتانيين (التطهريين). فقد كان القبطان لامبرستون **Captain Lamberstone** يقود سفينة جديدة ولكنه شعر أنها من المحتمل أن تنقلب وكان يخشى على سلامتها. وعلى أى الأحوال، فقد أخذ على متنها في شهر يناير من عام ١٦٤٧ مجموعة من البيورتانيين واختفى من عالم الأحياء. اشتد الذعر بين البيورتانيين المتدينين وتُليت الصلوات من أجل عودتها السريعة. و(ربما) استجيب لتلك الدعوات في شهر يونيو، أى بعد ستة أشهر. ففى أعقاب إحدى العواصف شوهدت السفينة تأتى ميتة فى عين الريح وقد نشرت كل أشرعتها قبل ساعة من حلول الظلام. وما إن اقتربت حتى أمكن تمييز أفراد طاقمها، وبعد ذلك تفسخت أشرعتها وصواريها وعوارضها والسفينة ذاتها ولم يعد لها وجود(٣٣).

في الوقت ذاته تقريبًا غادرت سفينة أخرى من سالم **Salem** بولاية ماساتشوستس. وكان على متنها شاب وفتاة جميلة. وكان طاقم الباخرة ممتعضًا من وجودهما، واختفت السفينة. ولا ندرى إن كان حالها مثل حال تلك السفينة التى تحدثنا عنها في سولواى فيرث أم لا. فقد ظهرت وهى تبحر فى اتجاه الريح وشوهد أحد أفراد طاقمها بوضوح وهو يشير إلى شيء ما - الواقع أنها كانت تتمتع بكل مؤهلات السفينة الشبح - إلا أن كاهنًا بيوريتانيًا طردها بالرقى والصلوات ولم يرها أحد منذ ذلك الوقت.

نحن نتحدث حتى الآن عن سفن هى أشباح فى البحر. وهناك مثلها فى المياه العذبة (يذكر ويليام باسيت اثنتين على البحيرات الكبرى **Great Lakes** ويتحدث هانت عن لجر صغيرة على بحيرة فى كورنوول). وهناك كذلك سفن أشباح تطفو أو تطير فى الهواء بأكبر قدر من السهولة، ويُعتقد أن هذه السفن نذر بالعواصف أو الموت. ويذكرها باسيت في مجموعة الجزر البريطانية، وتتضمن مجموعة كيرى **Carey** فى ميريلاند قصة واحدة على الأقل عن سفينة تطير فوق شقة ضيقة من الأرض فى خليج تشيسابيك.

فى هذه الحالة كانت امرأة قد كبست بُرنُس مولود وحفظته لكى تتمكن من رؤية ما سوف يحدث فى المستقبل، وقد نالت ذلك مرات عديدة. ففى الساعة الخامسة من مساء يوم من أيام الشتاء نظرت من نافذتها ورأت سفينة نشرت كل أشرعتها تبحر فوق قمم الأشجار. وعلمت بعد ذلك أن زوجها غرق فى نفس اللحظة(٣٤) .

هناك سفينة أخرى تشاهَد فى منطقة نيوفاوندلاند. وهذه السفينة باخرة بيضاء كبيرة (ليست كتلك التى فى ستورنواى). وهى تشاهَد عادة فى عرض البحر محاولة دخول ميناء أصغر من أن يستوعبها. ورغم ذلك، تدخل الميناء بكل قوة وتخرج إلى الشاطئ وتظل تسير "عبر الأراضى"(٣٥) .

وكثيراً ما تظهر سفن دون أن يكون هناك سبب محدد لظهورها. ويبدو أن هذا يصدق بشكل خاص فى إسكوتلندا وفى غرب أيرلندا. ودائمًا تُرى السفن متجهة إلى الشاطئ أو تقوم بالصيد أو مبحرة وحسب، ويديرها بحارة أو تكون بلا بحارة يديرونها. ورغم شيوع هذه المناظر، فإن السفينة وأفراد الطاقم أنفسهم لا يعاودون الظهور مرات كثيرة(٣٦) .

كانت سفينتان شبحان مفزعتان ولكنهما غير ضارتين تخصان قرصانين. كانت إحداهما سفينة كيد القديمة التى شوهدت وهى تشارك فى معركة مميتة مع سفينة أخرى فى مضيق لونج أيلاند. وهناك سفينة قرصان أخرى - قد نظن أنه من بين كل السفن قد يشير شبح سفينة القرصان إلى حدوث أسطورة فى المستقبل - من الواضح أنها غير ضارة ظهرت مراراً فى خليج جالفستون Galveston وفى المياه المجاورة له فى القرن الماضى؛ إنها السفينة "فيم" Fame، وهى سكونة سوداء البدن ثقيلة التسليح تخص جان لافيت. ومن المفترض أن "فيم" غرقت وعلى متنها سبعة ملايين دولار من الجواهر والذهب بعد وفاة لافيت. وكان أفراد الطاقم سُكارى وغرق معظمهم معها. وقد شوهدت فى مناسبات عديدة وساعدت ذات مرة فى عام ١٨٦٤ سفينة اختراق حصار فى دخول ميناء تشارلستون. وكان أشهر ظهور لهذه السفينة فى عام ١٨٩٢ حين شاهدتها سفينتان. فقد أفاد قبطان إحداهما بأنها كانت على وشك أن تصطدم بها وكان أفراد الطاقم يبدون كموتى أحياء. وأفاد رجل آخر، هو ربان السفينة النرويجية

"فير هيلدا" Fair Hilda بأن بوصات معدودات كانت بينها وبين الاصطدام بسفينته، ولم يعر أفراد طاقمها ذلك أدنى قدر من الاهتمام. وكان أبرز شيء بالنسبة لها هو أنها كانت مضيئة وأنها حين مرت لم يكن لها ظل.

من الواضح أن هذه السفينة واحدة من السفن التى تجوب المحيط، ذلك أنه أفيد بعد وقت قصير بأنها شوهدت قبالة أمريكا الوسطى[٣٧] .

وكان الأقل روعة عن "كويداه ميرشانت" (سفينة كيد) أو "فيم" هو شبح السفينة القلبر القديمة "تينيسى" Tennessee التى قيل منذ سنوات عديدة إنها شوهدت تشق طريقها إلى داخل خليج سان فرانسيسكو لتختفى قبل بلوغها الميناء[٣٨] . وكذلك الحال بالنسبة لسكونة جلوسستر "أليس مار" Alice Marr . وقد سميت باسم خطيبة القبطان (وهو فأل سيئ) وذهبت إلى جراند بانكس ولم تعد قط. وفى الذكرى السنوية لإبحارها أفيد برؤيتها خارج ميناء جلوسستر ولكنها لم تصل إلى الميناء. وكان من المفترض خروجها من القاع فى كل ذكرى لإبحارها وظهورها قبالة جلوسستر، ولكن لا أحد يعلم الغرض من ذلك؛ ما لم يكن توفير بعض الراحة لمن كانت ستصبح عروساً وارتدت فى النهاية فستان زفافها ليكون كفناً لها[٣٩] .

كل السفن التى تحدثنا عنها حتى الآن لها سفن حقيقية هى أصلها. وهناك مجموعة أخرى من السفن الأشباح التى تحتاج إلى نظرة عابرة. تلك هى سفن الموت أو سفن الشيطان التى تعود بداياتها إلى عصور أقدم من عصر الهولندى الطائر والسفن المصاحبة لها. ولحسن الحظ أو لسوئه، أصبحت هذه السفن فى حالات كثيرة من التخفيف بحيث لم تعد سوى حكايات مضحكة يصعب تصديقها وحسب. ولسنا بحاجة إلا إلى تذكر فكرة رحلة الموت البحرية وملاحظة أن الإغريق كانوا يرون أن هذه الرحلة تتم فى سفينة خارون؛ وهى سفينة بُنيت باستخفاف حتى إنها كانت تكاد تغرق حين يصعد على متنها إنسان حى. بل إنه يبدو أن هذه السفينة بُنيت للمعداوى العجوز ولم تكن النتيجة القائمة على المصادفة لفقدان سفينة صيد عليها حمولة من السردين.

كان لدى الشعوب الكلتية والجرمانية سفن كسفينة خارون غير أنها كانت أكبر حجماً وكانت تسير فى البحر وليس عبر نهر كنهر ستايكس. وكانت إحدى هذه السفن

تقف قبالة الساحل الغربي من أيرلندا، وكان واجبها أن تحمل على متنها كل موتى العالم وتنقلهم إلى الجنة. وكان مطلوبًا من سفينة أخرى مسح بحار العالم ومحيطاته لالتقاط البحارة الغرقى، بينما كانت سفينة ثالثة تطوف البحار الشمالية الباردة لنقل الموتى الكلتيين إلى مقرهم الأبدى.

هذه السفن جميعها كبيرة؛ بل هى أكبر من سفينة نوح البالغ طولها ٥٢٥ قدمًا، ويبدو أن طولها وعرضها يشيان بآراء صانعيها الخاصة بالموتى التى كانت تتخيل الروح البشرية بنسب أشبه بتلك الخاصة بالحياة، بعكس المعتقد المسيحى الذى يجعل الروح متناهية الصغر. ومن ثم كان من الضرورى تصميم حظيرة عائمة بالضخامة الكافية لاحتوائهم.

ومع ظهور العقيدة المسيحية تغيرت تلك السفن تغيرًا جذريًا أو اختفت. ذلك أنه رغم حقيقة أن المسيحية نشرها الرسل الذين كانوا صيادين، فإن المسيحية دين زراعى وليس بحريا. وكان أحد تعديلات الشكل القديم هو أنه من المفترض أن الشيطان بنى سفينة ضخمة خاصة به. وكان الشيطان يطوف بهذه السفينة ليجمع الموتى الذين لم يُحَلّوا بالاعتراف من خطاياهم من أجل أغراضه السيئة، إلى أن أغرقه القديس إلو.

أفترض أنه من الممكن التعامل بجد مع هذه الحكايات، أما النوع الآخر من الحكايات الذى انحدرت إليه تلك الحكايات القديمة فيشبه الفارص **farce** أو الحكاية التى يصعب تصديقها. وفى هذه الحكايات يكون التركيز على جزء ضخم من السفينة المعنية، وكل الحكايات التى تدور حولها تقريبًا هى فى الواقع صور مجازية موسعة تحاول زيادة كل من الطول والعرض، وكل من المجرد والملموس. ولتحقيق هذه الغاية هناك أبدال من الخيل على ظهر السفينة تجرى حاملة الرسائل والأوامر. ويقال إن الصوارى من الارتفاع بحيث يطلعها الأطفال وينزلون منها وقد صاروا شيوخًا ذوى لحى طويلة. والمطاعم موجودة فى بكراتها بحيث لا يموت أفراد الطاقم جوعًا فى أعلى الأشرعة. والسفينة من الضخامة بحيث لا يمكنها المرور من بحر المانش، حتى ولو كانت تحت القيادة الواثقة للبحار العملاق الماهر سترومالونج **Stromalong**، وكانت تترك أثر طلائها على صخور دوفر **Dover**، جاعلة إياها بيضاء. وكانت تحتاج إلى مائة عام كى

تغير اتجاهها وكانت تسير بأسماء كثيرة في دول كثيرة: "سكيدبالدنر" Skidbaldner و"لا جراند شوس" La Grande Chausse و"فوندر" Fondre و"ماننجفيوال" Manningfu-al و"ريفانو" Refanu و"روث رامباك" Roth Rambach و"ريب لوسيرن" Rape Lucerne والإنجليزية "ميرى دان أوف دوفر" Merry Dun of Dover (٤١) .

إلا أن وراء ما هو مضحك لا يزال هناك اعتقاداً في سفن الشياطين تلك. وحين يتحدث العامة عن السفينة العفريت أو السفينة الشبح فمن الواضح أنهم يعنون الشيء نفسه. وحين يتحدثون عن سفينة الشيطان أو سفينة الأرواح فإنهم يقصدون شيئاً آخر.

يحتوى أرشيف الفولكلور في جامعة نيوفاوندلاند كل أنواع الحكايات الخاصة بالسفن الأشباح، بما في ذلك سفينة شبح يقطرها زورق شبح، وهو حسب علمي أمر فريد. وهناك حكايات قليلة تتناول سفن الشياطين والأرواح. ويمكن التعرف على هذه السفن بأنوار تحديد الموقع، حيث تكون أحمر وأزرق وليس أحمر وأخضر. وقد رأى رجل إحداها ذات ليلة وتعرف عليها في الحال. ولذلك لم يندهش أن يرى الأشباح تسير على سطحها حين اقتربت منه. وعلى عكس معظم الربابنة، تعمد هو الاصطدام بالسفينة وفعل. وحين اصطدمت السفينتان اختفت السفينة الشبح في الهواء، وكذلك أفراد الطاقم والجميع، ولم يرها أحد مرة أخرى. والأمر الغريب أنه حين ارتطمت السفينتان ببعضهما لم ينتج عن ذلك أى صوت. إلا أن السفينة الحقيقية شعرت بالأثر وعلى الفور مالت بشدة(٤٢) .

ولا يزال مفهوم سفينة الأرواح موجوداً في جزر الهند الغربية، رغم أنه لم يعد له شكل محدد بصورة أكبر مما عليه الحال حتى في نيوفاوندلاند. وقد روى مورجان ماكلارين Morgan McLaren من ويندوورد في كارياكو حكاية تبين بجلاء الفرق بين نوعين من المعتقد. فقد قال إنه كان يبحر ذات ليلة ضوء القمر فيها لا بأس به حين نظر أمامه فرأى شيئاً في الماء قرر بعد التدقيق أنه حوت. وحين أراه لسائر أفراد الطاقم لم يشاركوه الرأى فيما يتعلق بهويته، ولكنهم قالوا إنها سفينة شيطان. وعلى الفور جمعوا القدور والطاسات وبدءوا يحدثون ضجة رهيبة، وهو ما أدى على ما يبدو إلى اختفاء ذلك الشيء. وأظن أنه تجدر الإشارة إلى أن هذا الشبح لم يكن يشبه سفينة حقيقية

كما هو الحال بالنسبة لسفينة الأرواح. بل إنه من الواضح أن سفينة الشيطان تعتبر خطيرة ولكن لا يمكن إبعادها بإحداث جلبة بالدق بالملاعق على أحواض غسل الصحون.

هناك بالطبع فئة أخرى من السفن الغريبة التي لابد من تناولها تناولاً سريعاً، لأنها كثيرة العدد. وهذه هي ما أود تسميتها بالسفن الغامضة. فمن حين لآخر يقابل البحارة سفناً تسير بمفردها في البحر. فليس هناك بحَّار على الدفة ولا يوجد أفراد طاقم على متنها.

وعموماً هناك تفسير لما حدث. فربما جنحت السفينة وتركها البحارة ثم طفت وأبحرت. وربما مات أفراد الطاقم لإصابتهم بمرض ما. وربما شب حريق في السفينة أو حدث بها تسرب وهجرها أفراد الطاقم وتوقف التسرب بعد ذلك وانطفأ الحريق وظلت السفينة تسير بمفردها. بل إن البعض منها ربما يكون القراصنة قد أفرغوه ممن فيه، أو أوقعهم البحر الهائج في الماء. ولكن هناك في العادة أدلة على متن هذه السفن تبين ما حدث؛ مثل وجود ماء في المخزن أو حطام أو مخازن سوَّدها الحريق أو غير ذلك.

غير أن القليل منها ما يُعْجِز الباحث عن الكلام ويرعب البحَّار. وهذه هي السفن التي لا تبدو عليها أي علامة تدل على وجود مشاكل، ومع ذلك فقد اختفى أفراد الطاقم في الهواء. وأشهر هذه السفن هي "ماري سيليست" Mary Celeste، إلا أن حكايتها أشهر من أن أرويها هنا. وتكفي الحكاية الأخرى، وهي ليست بنفس القدر من الشهرة، لبيان هذا النوع من السفن.

كان صباح يوم صيف لطيف من يوليو عام ١٧٥٠ في نيوبورت برود أيلاند. كان بعض الصيادين في إيتونز بيتش يعملون بمعداتهم حين لاحظوا سفينة شراعية صغيرة ذات صاريين في عرض البحر تقف مواجهة للبر. حلت السفينة محل رف بوينت Rough Point وقبيل اصطدامها بالأمواج المتكسرة غيرت اتجاهها وأبحرت في اتجاه الصخور على الشاطئ الآخر. ومرة أخرى غيرت اتجاهها بالقرب من الأمواج المتكسرة وأبحرت في اتجاه البر على الشاطئ الرملي.

صعد الصيادون الذين أصابهم الفزع على متنها ووجدوا كلبًا وقطة. وكان قدر الماء يغلى على الموقد وكانت المائدة معدة لتناول الطعام الذى كان ساخنًا على الموقد. لم يكن هناك ما يدل على العنف أو الفوضى، ولكن أفراد الطاقم اختفوا ولم يُعثر لهم على أثر قط. ومن المفارقة أن السفينة والربان كانا من البلدة وكانا قد توجها إليها من هندوراس حين وقع ذلك الأمر.

أعيد تعويم السفينة وأعيد تسميتها لتصبح "بيتش بيرد" **Beach Bird** وظلت سنوات تحمل الشحنات إلى أن حولها البريطانيون إلى سفينة مسلحة أثناء الثورة(٤٣).

هذا إذن هو شكل السفينة الشبح. ومن اللافت للانتباه ملاحظة أن القليل منها بواخر وأن القليل منها ظهر إلى الوجود منذ فترة قريبة. ولتأييد ذلك قد نلاحظ أنه لا "أندريا دوريا" **Andrea Doria** ولا "مورو كاسل" **Morro Castle** ولا "نورماندى" **Normandie** قد بنيت عليهم حكايات. وكل عام تصبح أقل من العام الذى قبله وتموت المأثورات القديمة وينتقل البحارة العواجيز إلى العالم الآخر. إلا أننا إذا نظرنا إلى كل الأمور معًا لوجدنا أنها بقيت فى العصور الحديثة بصورة جيدة جدًا.

وفى دومينيكا، حيث الأرواح فى كثافتها كالغابة الاستوائية، يقول الناس "سوف ترحل الأشباح". وحين تسأل عن السبب تعلم أنها لا تحب الدخان، وبصورة خاصة التبغ وعادم المحركات. فهل من المحتمل أنه لا تزال هناك مناطق فى البحر فيها من النقاء بما يكفى لدعم حياة الأشباح؟

# خاتمة

تبقى هناك بضع كلمات بشأن الصفحات السابقة. فعلى عكس السفينة التى تقلع فى رحلة على مياه المحيط متجهة إلى ميناء بعينه وإما أن تغرق أو تصل إليه، لا ينتهى الكتاب دائماً بالطريقة التى بدأ بها. فحين فكرت فى وضع هذا الكتاب كان المقصود به أن يكون ملخصاً تاريخياً عاماً للفولكلور البحرى. ولكن حجم المعلومات أصبح ضخماً. ولذلك ضاقت الرؤية، وكان المتوقع هو دراسة مشابهة تعتمد على الناطقين بالإنجليزية.

بدأت فى تنفيذ هذه الخطة، ولكنى اكتشفت فى وقت مبكر جداً أن لدى حكايات كثيرة من الأحياء بحيث لم يكن هناك مكان للموتى؛ أو لكثير من الأحياء بالنسبة لهذا الموضوع. وبناء على ذلك عدلت الكتاب للمرة الثالثة، وكانت النتيجة أن تكون كل مادة من مواده موجودة فى التراث الحى خلال الثلاثين سنة السابقة للكتابة. وفى بعض الأحيان تكون الرواية الحديثة مختلفة اختلافاً واضحاً عن سابقاتها. وفى بعض الأحيان بذلت جهداً لبيان ذلك، وأمضيت وقتاً طويلاً فى البحث عن الأسباب التفسيرية للمادة المقبولة للشخص الحديث، وآمل أن تكون كذلك للشخص نصف المثقف.

وظهرت مشكلة أخرى تتعلق بالكتاب عند محاولة تقرير ما الذى أُضَمِّنه فيه وما الذى أستبعده منه، ذلك أنه عندما حان وقت الكتابة كانت أمامى مواد أكثر بكثير مما يمكن أن يوجد بشكل منطقى بين دفتى كتاب، بل كذلك بعض الفئات التى كانت تلح علىّ، وإن كنت أتمنى ألا تكون كثيرة. وحين كنت أقرأ الورقة ثم أتذكر الكلية البيئية لكثير من هذه الحكايات تصبح ساحرة من جديد، وكان من الصعب استبعاد حكاية وتضمين أخرى. فلابد أن نتذكر أن الفولكلور ليس مادة وإنما تجربة.

ولكى يكون الفولكلور فى أحسن أحواله، فإنه يتطلب راوياً وبيئة. وحين ينظر المرء إلى الحدوتة الموجودة فى صفحة مطبوعة تكون كئيبة جداً، ولكن حين تستخدم التذكر

ويسبح وجه الراوى أمامك، وكذلك الطقس والرائحة والكثير من الأشياء الصغيرة الأخرى، تتكون لها دلالة ومكانة تفوق القيمة المطبوعة. وحين يكون الراوى والوقت مواتيين يمكن أن تصبح الحدوتة متوسطة القيمة حكاية عظيمة.

ومنذ سنوات قالت سارة أورن جويت(*) Sarah Orne Jewett إن الشئ الوحيد الذى يستحق الكتابة عنه هو ذلك الذى لا يمكن أن تتساه. ومن قبلها كتب وردزورث Wordsworth قصيدة The Daffodils [ النرجس الأصفر ] مشيراً إلى أنه يمكنه أن يقول شيئًا لافتًا للانتباه على أية حال. ومن بعده قالت ويلا كاثر(**) Willa Cather ما معناه أن كل الخبرات البشرية تكتمل حين يبلغ الشخص العاشرة من عمره. والمعنى الذى يرمون إليه جميعًا هو أن المادة الجيدة لابد أن تصمد أمام اختبار الزمن، وكان ذلك العامل الأساسى فى اختيارى. فالمادة التى تذكرتها بأكبر قدر من السهولة كانت لها الأولوية.

ذات مرة سألت صياداً عجوزاً عن حكاية من الحكايات. فكر برهة ثم قال بصوت بطيء مجهد: "سمعت ذلك منذ زمن بعيد. لا أستطيع أن أتذكره على وجه الدقة. ربما كان على سفينة صيد، فى مكان ما، فى وقت ما." وتقود هذه الملاحظة إلى مشكلة أخرى، وهى المصدر. فالباحثون الفولكلوريون يهتمون بالتفاصيل الخاصة بإخبارييهم؛ الاسم والعمر والمهنة وغير ذلك من المعلومات الموجودة داخل ملف الشرطة والسجل الصحى. وأنا لم أشعر قط أن من المهم جداً معرفة ما إذا كان بيل أو فريد جونز هو الذى روى الحكاية، ويعتزم قليل من القراء السياحة إلى جزر فارو(***) Faroe Islands لإجراء مقابلة مع أحد الإخباريين. ومن المؤسف أنى بدأت جمع الفولكلور قبل أن أعرف ما هو الفولكلور، ولابد أن أعود للوراء أربعين سنة لاسترجاع الكثير من تلك الحكايات.

(*) كاتبة أمريكية (١٨٤٩-١٩١٩) تميزت برواياتها وقصصها المتعلقة بمسقط رأسها مين. وتعتبر روايتها The Country of the Pointed Firs أفضل أعمالها (المترجم).

(**) كاتبة أمريكية (١٨٣٧-١٩٤٧) كانت تكتب عن الحياة على الحدود وحصلت روايتها One of Ours على جائزة بوليتزر (المترجم) .

(***) مجموعة من الجزر البركانية شمالى المحيط الأطلنطى وجزر شتلاند كانت تسكنها فى الأصل شعوب كلتية ثم أصبحت جزءًا من الدنمارك عام ١٣٨٠ (المترجم) .

احتفظت بأسماء الإخباريين جميعًا لمن يهمهم ذلك. وقد استخدمتها بحذر فى هذا الكتاب لسببين. فمن الممكن أن البعض لن تعجبه فكرة ذكر اسمه فى وثيقة عامة خاصة بما يعتبره "المتعلمون" كلامًا فارغًا، وفى الوقت ذاته قد يغضب الإخبارى نفسه حين يجد اسمه محذوفًا بينما اسم غيره متضمن. الأسماء متاحة للباحثين المسئولين؛ رغم أن بعض الحكايات موجودة لدى منذ فترة طويلة.

حين تطالعون المادة الموجودة فى هذه الصفحات تصبحون على وعى بأن مأثورات القوارب الصغيرة أكثر من مأثورات السفن الكبيرة؛ وهو ما أقصد به أنها جُمعت من أشخاص على صلة بالمراكب الصغيرة. والظن الشائع أن السفينة القلبر كانت الحامل العظيم للفولكلور البحرى والمبدع له. ربما كانت السفن القلبر ناقلاً ممتازًا للأغانى البحرية، ذلك أن العمل كانت يتطلبها، ولكن الأطقم كانت تتكون من حفنة مخلطة من الرجال الذين يُختارون بأية وسيلة من الحانات ومن الطبقات الدنيا فى مجتمعات كل العشوائيات التى ترسو عندها السفن الكبيرة. وكان الكثير منهم موجودًا على متن السفينة لرحلة واحدة، ثم غادر السفينة بنفس الجهل الذى كان عليه تقريبًا حين دخلها. بل إن الباخرة الحديثة ليست بأفضل حالاً، حيث يديرها الميكانيكيون بمعرفة قليلة عن البحر أو بلا معرفة، وبقدر أقل من الاهتمام بها.

إن فولكلور البحر يكمن بالأحرى داخل بحَّار المركب الصغير، أو قارب الصيد أو السفينة التى تسير بمحاذاة الساحل، الذى وُلِد والبحر فى أذنيه، ويتبعه طوال حياته، ويموت مع تحول المد. هنا تصنع المأثورات، وهنا تحفظ. وهؤلاء الناس هم الذين وجهت إليهم جل جهدى للحصول على المعلومات.

وحين ننظر إلى المادة المعروضة هنا يتضح على الفور أنها تنبع من ثلاثة مصادر: العالم القديم، وأمريكا الشمالية، والبحر الكاريبى. ومادة كل من جزر الهند الغربية وأمريكا الشمالية مشتقة من العالم القديم. ومادة العالم القديم هى الأكثر اكتمالاً، والأكثر إمتاعًا من الناحية الجمالية. وتقوم مأثورات جزر الهند الغربية بدور فى طريقة معيشتهم أكثر شمولية من المادتين الأخريين، والأفكار أقدم إلى حد ما. وفى الوقت ذاته تختلف هذه المادة اختلافًا واضحًا عن المادتين الأخريين. وقد يرجع ذلك إلى حد

ما إلى البيئة، ولكن من المحتمل أن يعود بشكل كبير إلى تطبيق المواقف الأفريقية على معتقدات العالم القديم.

من بين هذه المناطق الثلاث نجد أن المادة الخاصة بالولايات المتحدة هى الأكثر تشظياً. وهو ما قد يرجع إلى حد ما إلى العزلة المعاشة هنا، مع الاعتماد المتزايد على العلم وطرق الاتصال، وأسلوب الحياة الأكثر تغيراً. ومثال ذلك أننى التقيت فى أيرلندا بإخبارى كان يعيش فى منزل تشغله عائلته منذ ألف وخمسمائة سنة، والتقيت براوى حكايات يمكنه أن يروى حكاية تستغرق روايته أربعًا وعشرين ساعة. ومن المستحيل حدوث ذلك فى الولايات المتحدة مهما كان الحال.

لابد ألا ننسى فى الوقت نفسه أن الولايات المتحدة مرت خلال ثلاثة قرون بنفس التطور العرقى الذى مر به أهل الجزر البريطانية على مدى ألفى سنة. وربما كان هذا هو السبب فى أن مأثورات هذه المهنة - العمل فى البحر - على وجه التحديد هى التى صمدت على مدى القرون وخلال التغير المادى الضخم هى التى يمكن أن تكون بمثابة المعمل لبيان التغييرات التى حدثت حين تكون الثقافات فى حالة مواجهة. وبمقارنة المادة الأمريكية بالمادة الموجودة فى الخارج قد يمكننا قياس الشكل الذى كانت عليه الثقافة هناك منذ زمن بعيد وربما نتنبأ بما سيكون عليه الحال فى المستقبل.

اشتكى أحد الأشخاص الذى تكرم بقراءة مخطوطة هذا الكتاب من أنه لم يكن هناك تفريق كاف بين ما هو قابل للتصديق وما هو غير قابل للتصديق. بالنسبة لأهل البر هناك قدر من الفرق بين حكاية عن غرق سفينة حدث فى زمان ومكان معينين وحكاية أخرى عن الشبح الذى يطارد إحدى السفن فى العاصفة. وآمل أن يكون هذا الكتاب قد كُتب وفى الذهن وجهة نظر البحَّار. فهو يرى أن الخط الفاصل بين ما هو حقيقى وما هو غير حقيقى رفيع جداً، وهو على استعداد لتصديق ما هو غير قابل للتصديق. فقد عودوه على قبول فكرة أن عالم الأرواح يتدخل فى عالم الواقع. ولذلك فهو لا يفرق كثيراً بين العالمين.

وإلى حد ما، ربما كان هناك قدر مما هو قابل للتصديق فيما هو غير قابل للتصديق أكبر مما نود الاعتراف به. إن العقل يستجيب للمثيرات. وحينما يكون ذلك

ممكنًا، فإنه يستجيب بلغة الاستجابة العليمة. ولذلك فإنه إذا كان رجل ما البحر فى دمه بالفعل، فإنه يشعر بقدوم العاصفة دون أن يعرفها. فالمعرفة يبينها رجل ميت آت من فوق مقدمة السفينة بسفينة شبح فى عرض البحر. قد تكون هذه أمور لا يمكن تصديقها من الناحية العلمية، غير أن ردود الأفعال التى تولدها قابلة للتصديق؛ كطى الأشرعة، والاتجاه نحو الشاطئ، وتغيير المسار.

لم يُكتب هذا الكتاب لكى يكون دراسة لعلم نفس الخوارق أو كان هذا هو القصد منه، مع أن البعض سيتمكن بلا شك من العثور على بعض التفسيرات الإباحية للمادة. لقد كان المقصود هو بيان أثر العادة والمعتقد على رد الفعل البشرى، وهو ما حظى باهتمام عميق من جانبى زمنًا طويلاً. هل الإيمان بمعتقد ما يوفر حبة متناهية الصغر من الثبات أو اليأس التى توصل الرجل إلى الميناء أو تبعث بكل البحارة إلى القاع؟ باختصار، هل تفلح هذه المعتقدات على المستوى الواقعى أو المستوى النفسى؟ ربما عشت زمنًا طويلاً معها، ولكنى أظن أنها تفلح.

كلمة أخيرة. ربما ما سأقوله لا يخص هذا الكتاب فى واقع الأمر، ولكن جمع الفولكلور بالنسبة لى ليس مجرد متعة، بل هو أسلوب حياة ساحر. فقد سار بنا أميالاً كثيرة إلى موانئ عديدة فى بلدان مختلفة. وقد عرضنا لخبرات كثيرة، ولقيم حياة عديدة، ولتفسيرات شتى للواقع. لقد التقينا بأناس طيبين وبأناس أشرار، ولكنهم قليلون. ومن خلال جمع الفولكلور سُمح لنا بالمشى مع رجال عظام.

# الهوامش

## الفصل الأول

1. Statement purported to have been made by John Paul Jones. Capt. Robert J. Bulkley, *At Close Quarters, PT Boats in the United States Navy*, Naval History Division, (Washington, D.C., 1962) n.p.

2. Folklore and Language Archives, Memorial University of Newfoundland.

3. Alan Villiers, *Captain James Cook* (New York, 1967), p. 78.

4. Personal collection. For comments on the cowhorn, see Ethel C. Ritchie, *Block Island Lore and Legends* (Providence, Rhode Island, 1967) and "Block Island Cowhorn," 70.763, G. W. Blunt White Library (Mystic, Connecticut, 1971).

5. For an excellent discussion of seventeenth-century shipbuilding, see Captain John Smith, *A Sea Grammar* (London, 1627).

6. Personal collection.

7. According to Benwell and Waugh, there are several analogues to this story. In Cromarty Firth, almost across the bay from Buckie, was a famous mermaid who granted a boatbuilder three wishes: that he build unsinkable boats, marry the girl of his choice and a third wish which was never revealed. On the Mull of Kintyre on the west coast of Scotland a man named Mackenzie was also granted favors by a mermaid–to build boats that would not sink and from which no one would be lost. Gwen Benwell and Arthur Waugh, *Sea Enchantress, The Tale of the Mermaid and her Kin* (New York, 1965), p. 172.

8. Horace P. Beck, *Folklore of Maine* (Philadelphia, 1957), p. 129.

9. Frances Kay, *This–Is Grenada* (Trinidad, 1966), pp. 130–131.

10. Carey Archives, University of Maryland.

11. *Ibid.*

12. Personal collection. The beginning of ship construction is, generally speaking, analogous to house construction with one serious exception. More care is taken with the ship than the house, for should the house fall upon evil days the inmates have a better chance to escape than the seaman who finds himself overboard on a dark night because some careless person has failed to propitiate some spirit.

13. Personal collection.

14. Personal collection. This bell is but one of a number of "vanishing" objects held in awe by the Irish. One is the Cursing Stone of Tory Island, and another is the magic rock on Caher Island which has the ability to raise storms. Still another is the skull of Grace O'Malley on Clare Island (see Chapter XII).

15. Personal collection.

16. Personal collection.

17. See Peter F. Anson, *Fisher Folklore* (London, 1965), pp. 70, 83, for interesting analogues to this idea.

18. See Marion V. Brewington, *Ship Carvers of North America* (Barre, Massachusetts, 1962).

19. See Richard Lebaron Bowen, "Maritime Superstitions of the Arabs," *American Neptune*, 15:5–48, 1955.

20. See Brewington, *op. cit.*, Chapter III, "Frigates and Packets."

21. See John G. Lockhart, *Peril of the Sea* (London, 1924); see *Celeste*.

22. See Bruce Procope, "Launching a Schooner in Carriacou," *Caribbean Quarterly*, IV (1955), p. 123.

23. See Kay, *op. cit.*, for further details.

24. All the above material is from my personal collection, and both time and place have been made deliberately obscure.

25. Anson, *op. cit.*, states that if a vessel were launched stern first in Brittany, she would steer badly.

26. George S. Wasson, *Sailing Days on the Penobscot* (New York, 1949), pp. 117–121, has an amusing account of lubberly launchings in Maine during World War I, when shipbuilding was revived in the state after remaining dormant for a number of years.

27. Anson, *op. cit.*, p. 94.

28. Personal collection.

29. James P. Duggan, *The Great Iron Ship* (New York, 1953), p. 153.

30. Fletcher M. Bassett, *Legends and Superstitions of the Sea and of Sailors*, (Chicago and New York, 1885), p. 400.

## الفصل الثانى

1. George W. Stewart, *Names on the Land* (Boston, 1969), p. 292.
2. Horace P. Beck, *Folklore of Maine* (Philadelphia, 1959), p. 16.
3. *Ibid.*, p. 14.
4. Narrated by John Lorne Campbell, Isle of Canna, July 5, 1969.
5. Beck, *op. cit.*, p. 13.
6. Personal collection.

7. Beck, *op. cit.*, p. 15.

8. Richard Bauman, "Three Legends from the Ayrshire Coast," *Scottish Studies*, Vol. 8, Pt. 1 (1964), p. 33.

9. Stewart. *op. cit.*, pp. 176–82.

10. David Thomson, *People of the Sea* (Barrie and Rockliff, London, 1965).

11. Beck. *op. cit.*, pp. 18–19.

12. Alan Walker Read, "Folklore Factor in the Etymologizing of Place Names," lecture delivered before American Folklore Society, November, 1969.

13. Personal collection.

14. Patrick L. Fermor, *The Traveller's Tree* (New York, 1950), p. 185.

15. A. B. Taylor, "The Name 'St. Kilda,'" *Scottish Studies*, 13 (1969), pp. 145–58.

16. Personal collection.

17. Personal collection. This tale is remarkably like the tale of the Red Hand of Ulster—popular throughout Ireland and narrated to me by Sir Thomas Lipton many years ago to explain why a flag had a red hand on it. In Sir Thomas' version, however, the race was for prize money.

18. *Irish Coast Pilot* (London, 1954), p. 177.

19. Seaton Gordon, "Distinguished Scarba and its Whirpool," *The Times* (London, November 5, 1966).

20. Lt. Col. the Hon. Arthur Murray, *St. Columba and the Holy Isle of the Garvellaches—The Whirlpool of the Corrie Vreckan* (Edinburgh, 1950), p. 26.

21. Martin Martin, *A Description of the Western Islands of Scotland* (London, 1703; 4th edition, Stirling, 1934), p. 271.

22. Murray, *op. cit.*, records a somewhat similar story, p. 29.

23. MacEdward Leach, "Celtic Tales from Cape Breton," *Studies in Folklore in Honor of Distinguished Service Professor Stith Thompson*, ed. W. Edsen Richmond (Bloomington, Indiana, 1957), p. 43.

24. Personal collection. For a detailed account of Balor see Alexander H. Krappe, *Balor o the Evil Eye*, Studies in Celtic and French Literature (New York, 1927).

25. Thomas H. Mason, *The Islands of Ireland* (Cork, 1936), p. 58.

26. Obviously these stories are now fragmentary. There is little doubt that originally this tale was longer and connected to the numerous stories of magical cows like the one stolen by Balor of Tory Island from MacKineeley, on the mainland. See Alexander H. Krappe, *Balor of the Evil Eye*, New York, 1927.

27. Erwin G. Gudde, *California Place Names* (Berkeley, 1960), p. 243.

28. Mason, *op. cit.*, p. 60.

29. Personal collection.

30. Beck, *op. cit.*, pp. 178–80.

31. George F. Dow, and John H. Edwards, *The Pirates of the New England Coast, 1630–1730* (Salem, 1923), p. 376.
32. Charles H. Whedbee, *Legends of the Outer Banks* (Winston-Salem, N.C., 1966), pp. 44–56.
33. Back, *op. cit.*, pp. 17–18.
34. Personal collection.
35. Carleton Mitchell, *Isles of the Caribees* (Washington, 1966), pp. 72–75.

## الفصل الثالث

1. Joseph Conrad, *Mirror of the Sea* (New York, 1906), pp. 18–21.
2. *Ibid.*, p. 3.
3. Ernest Hemingway, *The Old Man and the Sea* (New York, 1952), pp. 32–33.
4. Jack London, *Jack London: Short Stories*, ed. Maxwell Geismar (New York, 1960), p. 76.
5. Carey Archives, University of Maryland.
6. *Ibid.*
7. William G. Saltonstall, "Just Ease Her When She Pitches," *American Neptune*, Vol. I, XV, 1955, p. 258.
8. Carey Archives.
9. Folklore and Language Archives, Memorial University of Newfoundland.
10. *Ibid.*
11. Personal collection.
12. Carey Archives.
13. *Ibid.*
14. Personal collection. See also Joanna C. Colcord, *Sea Language Comes Ashore* (New York, 1945), p. 5.

## الفصل الرابع

1. Horace P. Beck, Personal collection.
2. Joanna C. Colcord, *Songs of American Sailormen* (New York, MCMXXXVII), p. 173. See also A. L. Lloyd, and MacColl, *Blow Boys Blow*, Traditional Records (New York) TLP, 1026.
3. R. Inwards, *Weather Lore* (London, 1898), p. 123.
4. *Reed's Nautical Almanac*, ed. Captain O. M. Watts (London, 1969), p. 815.
5. Frank E. Hartwell, *Forty Years of the Weather Bureau* (Bolton, Vt., 1958), p. 83.

6. Thiselton F. Dyer, *English Folk Lore* (London, 1878), p. 251.

7. *Ibid.*, p. 262.

8. Hartwell, *op. cit.*, p. 66.

9. *Reed's*, op. cit.

10. W. Richard, *Weather Lore* (London, 1839), p. 92.

11. *Reed's, op. cit.*

12. Inwards, *op. cit.*, p. 87.

13. Carey Archives, University of Maryland.

14. Beck, *op. cit.*, pp. 191–92.

15. Personal collection. For an English version, see *Reed's, op. cit.*

16. Personal collection.

17. Folklore and Language Archives, Memorial University of Newfoundland.

18. *Ibid.*

19. Personal collection.

20. Inwards. *op. cit.*, pp. 99–100.

21. John Josselyn, *An Account of Two Voyages to New England* (London, 1674), pp. 99–100.

22. See Chapter XIII.

23. F. Colón. *The History of the Life and Actions of Admiral Christopher Columbus*, in Pinkerton's *Voyages* (London, 1812), XII, p. 58; *The First Voyage Around the World by Magellan*, translated by Lord Stanley (London, 1874), p. 42.

24. Henry W. Longfellow. *The Golden Legend* (Boston, 1851), pp. 254–56.

25. William Falconer, *The Shipwreck: A Poem* (London, 1868), p. 145.

26. Richard Henry Dana. *Two Years Before the Mast* (New York, 1911), Chapter 39.

27. Personal collection.

28. George Gourlay, *Fisher Life: or The Memorials of Cellardyke and the Fife Coast* (Cupar, Fife, 1879), p. 26.

29. Richard Folkard, *Plant Lore Legends and Lyrics*, 2nd ed. (London, 1892), p. 494.

30. Beck, *op. cit.*, p. 202. 203.

31. Margaret A. Murray, *The God of the Witches* (London, n.d.), pp. 150–51.

32. From the rendering of Duncan McQuarrie, Tobermory, Island of Mull. See also John MacCormick, *The Island of Mull* (Glasgow, 1923), pp. 8–9, and *History of the Island of Mull* (Greenville, Ohio, 1923).

33. Personal collection. For an analogue see Thomas Hannah, *The Beautiful Isle of Mull* (Edinburgh, 1933), pp. 128, 131.

34. John G. Campbell, *Witchcraft and Second Sight in the Highlands and Islands of Scotland* (Glasgow. 1902), pp. 15–46.

35. *Ibid.*, pp. 15–16.

36. George Lyman Kittredge, *Witchcraft in Old and New England* (Cambridge, Massachusetts, 1929). p. 159.

37. *Ibid.*, p. 158.

38. Personal collection.

39. Folklore and Language Archives, Memorial University of Newfoundland. Also included in these archives is a story about a man who lost his ship in a gale brought on by throwing a five-cent piece overboard.

## الفصل الخامس

1. Jordan Silvester, *A Discovery of Bermuda* (New York, 1940), p. 8. Quoted from George Carey, "Enchanted Island Traditions," *American Neptune*, Vol. 29, No. 4, (October, 1969), p. 276.

2. Horace P. Beck, *Folklore of Maine* (Philadelphia, 1956), pp. 138–40.

3. Personal collection.

4. William Snaith, *Across the Western Ocean* (New York, 1966), p. 63.

5. William Falconer, *Dictionary of the Mariner* (London, 1782), "Lead Line." See also Stanton A. King, *A Bunch of Rope Yarns* (Boston, 1903), "The Lead Line," pp. 141–55.

6. Personal collection.

7. Carey Archives. University of Maryland.

8. Personal collection.

9. Personal collection.

10. Personal collection.

11. Folklore and Language Archives, Memorial University of Newfoundland.

12. For a complete version, see Thompson, Harold W., *Body, Boots and Britches* (Philadelphia. 1939), p. 194.

13. The above two rhymes may be found in *Now Is the Time for Fishing*, songs and speech by Sam Larner, collected and edited by Ewan MacColl and Peggy Seegar, Folkways Records, F.G. 3507.

14. Norman Duncan, *Dr. Grenfell's Parish, The Deep Sea Fisherman*, 4th ed., (New York, 1905), p. 35.

15. The translation of this is that there is grass or brush on the Head, not on the Souls. There is timber on the point but none on the Pole (Rocks).

16. Harry M. Lyndenberg, *Crossing the Line* (New York, 1957), p. 47.

17. Henning Henningsen, *Crossing the Equator* (Munksgaard, 1961).

18. Lyndenberg, *op. cit.*, pp. 15, 16.

19. *Ibid.*, pp. 15–18.

20. Henry N. Coleridge, *Six Months in the West Indies* (London, 1832), pp. 31–35.

21. Fletcher Bassett, *Legends and Superstitions of the Sea and of Sailors* (Chicago and New York, 1885), pp. 410–21.

22. Personal collection. For analogues, see William Doerflinger, *Shantymen and Shantyboys* (New York, 1951), p. 160.

23. Stan Hugill, *Shanties from the Seven Seas* (London, 1961), p. 535.

24. Falconer, *op. cit.*, "Punished," p. 362.

25. T. G. Wilson *The Irish Lighthouse Service* (Dublin, 1968), p. 57.

26. This story was told by a person living in Cohasset Harbor in 1948. Although it differs somewhat from the facts in the case, it is sufficiently close to the actual events to be counted a reasonable version of what happened. For a more accurate account, see E. R. Snow, *Stórms and Shipwrecks of the New England Coast* (Boston, 1946), pp. 122–38.

27. Personal collection.

28. Personal collection. See also D.D.C. Pochin Mould, *West-Over-Sea* (Edinburgh, 1953), pp. 270–72.

29. For an excellent version of this story, see Robert Southey, "The Inchcape Rock." See also Alexander Hislop, *The Book of Scottish Anecdote* (Edinburg, 1883), p. 12.

30. Personal collection.

31. Personal collection.

32. Horace P. Beck, "Tales of the Banks Fisherman," *American Neptune*, Vol. XV. (1955), p. 129.

## الفصل السادس

1. For excellent discussions of the chantey, see Stan Hugill, *Shanties from the Seven Seas* (London, 1961); Frederick P. Harlowe, *Chanteying Aboard American Ships* (Barre, Massachusetts, 1962); Joanna C. Colcord, *Roll and Go, Songs of American Sailormen* (Indianapolis, Indiana, 1925); William M. Doerflinger, *Shantymen and Shantyboys, Songs of the Sailor and Lumberman* (New York, 1951).

2. This idea is supported by Roger Abrams of the University of Texas in a text of a forthcoming book.

3. Doerflinger, *op. cit.*, p. 51.

4. For full discussions of this aspect of chanteying and of chanteying as a whole, see Stan Hugill, *Sailor Town* (New York, 1967); Harlowe, *op. cit.*; and Richard Dillon, *Shanghaiing Days* (New York, 1961), as the best sources.

5. See Hugill, *op. cit.*

6. This is but one of many links connecting West Indian maritime lore with that of the Canadian Maritime Provinces. In Newfoundland and Nova Scotia a term often used when a vessel was carrying more sail than she could reasonably bear was, "Drive her, byes, drive her."

7. This is a popular rowing song on the island of Bequia, where whaling is still practiced, and dates from many years ago when there were several "fisheries" on the island, one of which, now defunct, was the St. Hillary fishery.

After some inquiries, I learned that the song was thought to have been composed about an ancient whaleman, Moses Osborne, who was still living on the island. I sought him out hoping to learn the particulars of the song. "I done meet up with that when I was first going in the fishery"—i.e., he learned the already popular song over sixty years ago. He had no knowledge of who had composed it or when or why.

8. Beside being an excellent account of an accident and sea burial in the West Indies this is a peculiar combination of chantey and fo'c'sle song. The spoken last line is most common in New England and the Maritimes.

9. Gale Huntington, *Songs the Whalemen Sang* (Barre, Mass., 1964), pp. 34–36.

10. MacEdward Leach, *The Ballad Book* (New York, 1955), pp. 697–98.

11. Charles Nordhoff, *Whaling and Fishing* (New York, 1895), pp. 1–11.

12. Of this song Professor Kittredge* says, "By far the most interesting thing in it is Allan's addressing his ship and the ship's intelligent behavior." Beyond this he makes little comment. The great ballad scholar, Professor Child,† is also puzzled by the "intelligent" ship. Obviously the rest of the song is equally puzzling to them, for neither man makes much comment on the story.

I have noted elsewhere that seamen to this day believe their ships to possess a kind of life—admittedly usually a perverse one—and they expect the vessel to respond to kind words or angry epithets. (Sometimes it seems as if they do.)

The song is obviously from the east coast of England and Scotland, between Peterhead and the Wash, and deals with the coal trade. The cog, translated by Kittredge as "boat," is in all probability a cobh, a small vessel extremely popular in the area.

Young Allan finds himself in trouble, probably because of his boast. An easterly gale springs up and he looks for a haven. Realizing his predicament, the crowds gather on the shore and, in the absence of lighthouses and signal towers, fire canon, beat drums, etc., to warn him that the harbor entrance is too dangerous to enter. Allan keeps the gale on his quarter but still the ship is badly strained and begins to break up. To prevent her sinking he passes canvas around her hull to stop the leaks—a device known as frapping.

If Allan is in desperate straits, other vessels are worse off, for he passes flotsam—mattresses that remain afloat after the vessels have been torn apart. In the darkest hour Allan calls for help and the cabin boy takes the helm. Professor Child feels that this is an indication of inadequacy on the part of Allan, but there are many tales and stories about vessels being saved by young boys. This youth, however, may well be a supernatural being, for his vision is remarkable and he says that he has never had shoes on his feet or gloves in his hands.

Even with the superhuman efforts of the lad, things look dark indeed until the ship is promised a refit, including new golden rivits—at which time she displays interest and roars off into a safe harbor.

There is little in this song that is any way unusual to the seaman's eye.

•*English and Scottish Popular Ballads*, ed. by Helen C. Sargent, George L. Kitteridge, (Cambridge, Mass., 1932), p. 547.

†*The English and Scottish Popular Ballads*, ed. by Francis J. Child, (Dover edition, New York, 1965), "Young Allan" Version C., Vol. IV, pp. 375–83.

13. Personal collection.

14. Sung by Mr. Sidney Luther of Pittsburg, New Hampshire. Recorded by Kidson in Yorkshire, England, from a sailor's daughter. (Words on broadsides. Kidson's tune seems hymn—not like Luther's.) *Helen Hartness Flanders Collection*, September 17, 1942, M. Olney, Collector, Disc. #640.

This song shows most clearly the affinity between the West Indies and New England and the Maritime Provinces. See also MacEdward Leach, *op. cit.*, pp. 196–97.

15. On July 10, 1777, the sloop-of-war *Ranger* was launched near Portsmouth, New Hampshire. Captain John Paul Jones took command and carried her to England, where she raided British shipping and engaged in amphibious attacks ashore. However, she proved a dull sailor and Jones did not remain in her very long. It is ironic that her turn of speed should be recalled at this late date and puzzling to know why her name was changed. As mentioned before, it is startling to note the accuracy of the navigation recalled in the song.

I collected a fragmentary version of this song in Dingle, County Kerry, in 1969—the first time that it has been collected outside of North America as far as I am aware. See H. P. Beck, *Folklore of Maine* (Philadelphia, 1957), pp. 173–74.

16. Fannie H. Eckstrom, and Mary W. Smythe, *Minstrelsy of Maine Folk-Songs and Ballads of the Woods and the Coast* (Boston and New York, 1941).

17. Elizabeth B. Greenleaf, and Grace Yarrow Mansfield, *Ballads and Sea Songs from Newfoundland* (Cambridge, Mass., 1933), pp. 230–31.

18. H. P. Back, *op. cit.*, pp. 204–05. See also MacEdward Leach, *Folk Ballads and Songs of the Labrador Coast* (Ottawa, 1965), p. 244–5.

19. Personal collection. Collected in Dingle, County Kerry, in 1969, this is typical of songs popular among fishing fleets to this day.

20. Personal collection. I first heard this song from Dr. Jeoffrey Bolt during a transatlantic passage in 1966. In England the Thames barges were similar to the American coaster of yesteryear. Although great cargo carriers in their day, they were nonetheless the butt of considerable amusement for deepwater men.

21. Collection of Helen Hartness Flanders. Hanford Hayes of Staceyville, Maine, sang this to Helen Hartness Flanders September 25, 1940. It begins on a phrase of the tune "The Dying Nun." Repeat the last two lines of each verse. See also H. P. Beck, *op. cit.*, p. 176.

## الفصل السابع

1. Jean Lipman, *American Primitive Painting* (New York, 1942), and John Wilmerding, *A History of American Marine Painting* (Boston, 1968), p. 28.

2. Herman Melville, *Moby-Dick* (Garden City, 1928), p. 12.

3. For an excellent discussion of these aspects, see Marius Barbeau, "All Hands Aboard Scrimshawing," *The American Neptune*, Vol. XII, No. 2 (April, 1952), pp. 99–122; see also Clifford W. Ashley, *The Yankee Whaler* (New York, 1942), pp. 111–16.

4. Rear Admiral Gerald Wells, *Naval Customs and Traditions* (London, 1930), p. 136.

5. Barbeau, *op. cit.*

6. *Ibid.*, p. 116.

7. *Ibid.*

8. Arthur C. Watson, *The Long Harpoon. A Collection of Whaling Anecdotes* (New Bedford, 1929), pp. 155–64.

9. Edouard A. Stackpole, *Scrimshaw at Mystic Seaport* (Mystic, Connecticut, 1966), p. 21.

10. William Falconer, *A New Universal Dictionary of the Marine, being a copious explanation of the Technical Terms and Phrases usually employed in the Construction, Equipment, Machinery, Movements and Military as well as Naval Operation of Ships: with such parts of Astronomy, and Navigation, as will be found useful to practical Navigators. To which is annexed a Vocabulary of French Sea Phrases and Terms of Art* (London, 1815), p. 79.

11. C. W. Ashley, *Book of Knots* (Garden City, N.Y., 1956), p. 148.

12. *Ibid.*, p. 2.

13. Edward Driver, *Indians of North America* (Chicago, 1964).

14. W. D. Hambley, *The History of Tattooing and its Significance* (London, 1925).

1. See George A. England, *Vikings of the Ice* (London, 1924), for an excellent account.
2. *Ibid.*, p. 174.
3. *Ibid.*, pp. 313–23.
4. Personal collection.
5. England, *op. cit.*, pp. 54–59.
6. *Ibid.*, p. 218.
7. David Thomson, *People of the Sea, A Journey in Search of the Seal Legend* (London, 1965), p. 167.
8. Personal collection. See also David Thomson, *People of the Sea* (London, 1954), pp. 64–65.
9. Thomson, *op. cit.*, p. 167.
10. See A. W. Brógger, *Ancient Emigrants* (Oxford, 1929), p. 5.
11. Karl Blind comes to a similar conclusion, but he bases his feeling on the fact that the Norse incorporated sealskins in their clothing. "Scottish and Germanic Water Tales," *Contemporary Review*, 40:186–208, 1881.
12. John G. Campbell, *Superstitions of the Highlands and Islands of Scotland* (Glasgow, 1900), pp. 283–84.
13. Alexander Carmichael, *Carmina Gadelica, Hymns and Incantations with Illustrative Notes on Words, Rites, and Customs, Dying and Obsolete: Orally Collected in the Highlands and Islands of Scotland* (Edinburgh, 1941), Vol. IV, pp. 14–17.
14. Otta F. Swire, *The Highlands and Their Legends* (Edinburgh, 1963), pp. 265–67.
15. Francis J. Child, *The English and Scotish Popular Ballads* (Dover edition, New York, 1965), Vol. II, p. 494.
16. Personal collection.
17. Thomson, *op. cit.*, pp. 103, 123–27.
18. *Ibid.*, pp. 80–84.
19. *Ibid.*, pp. 81, 131–33.
20. For further detail, see Gwen Benwell, and Arthur Waugh, *Sea Enchantness* (New York, 1965), pp. 163, 180–81, 183–84.
21. J. G. Campbell, *op. cit.*, p. 285.
22. Thomson, *op. cit.*, p. 68.
23. Personal collection.
24. Alexander Hislop, *The Book of Scottish Anecdote, Humorous, Social Legendary, and Historical* (Edinburgh, 1883), p. 524.
25. *Journal of the English Folk Dance and Song Society*, Vol. VI, No. 3.

26. Folklore and Language Archives, Memorial University of Newfoundland.

27. *Ibid.*

28. Natural History, Vol. 89, #3 (March, 1970), pp. 56–63.

29. James Wallace, *An Account of the Isles of Orkney* (London, 1700), p. 60.

30. J. R. Tudor. *The Orkneys and Shetland, Their Past and Present State* (London, 1883), pp. 341–42.

31. Jessie M. Saxby. *Shetland Traditional Lore* (Edinburgh, 1932), pp. 88–96.

32. A. T. Cluness. *The Shetland Isles* (London, 1951), pp. 107–08.

33. Fletcher Bassett. *Legends and Superstitions of the Sea and Sailors* (Chicago and New York, 1885).

34. Richard Henry Dana. *Two Years Before the Mast* (New York, 1947), pp. 35–36.

35. C. S. Forrester. *Commodore Hornblower* (Boston, 1945), pp. 57–58.

36. John Spense, *Shetland Folklore* (Lerwick, 1899), pp. 20–26.

## الفصل التاسع

1. Sabine Baring-Gould, *Curious Myths of the Middle Ages* (London, 1868), pp. 48–50.

2. *Ibid.*, p. 258.

3. Dr. A. S. Rappaport, *Superstitions of Sailors* (London, 1928), p. 190.

4. Baring-Gould, *op. cit.*, pp. 230–58.

5. Rappaport, *op. cit.*, pp. 172–73.

6. John Josselyn, *An Account of Two Voyages to New England* (London, 1674), p. 228.

7. Gwen Benwell, and Arthur Waugh, *Sea Enchantress, The Tale of the Mermaid and Her Kin* (New York, 1965), p. 99.

8. *Ibid.*, p. 121.

9. Arthur K. Davis, Jr., *Traditional Ballads of Virginia* (Cambridge, 1929), p. 526 of Child #289.

10. Peter F. Anson, *Fisher Folklore* (London, 1965), p. 43.

11. Rappaport, *op. cit.*, p. 194ff.

12. Robert Hunt, *Popular Romances of the West of England* (London, 1865). pp. 163–83.

13. *Ibid.*, pp. 185–86.

14. *Ibid.*, pp. 187–89.

15. Baring-Gould, *op. cit.*, pp. 206ff.

16. Roger Loomis, "Morgan la Fee and the Celtic Goddess," *Speculum*, Vol. 20, (April, 1945), pp. 183–203.

17. Raphael Patai, "Lillith," *Journal of American Folklore*, Volume 77, #306, (1964), pp. 294–312.

18. Karl Blind, "Scottish, Shetlandic and Germanic Water Tales," *Contemporary Review*, Volume XL (1881), p. 190.

19. For a further consideration of the development of these stories on Shetland into the now famous ceremony of the Up-Helly-Aa, wherein a mock ship is burned, see H. R. Ellis Davidson, "The Chariot of the Sun," *Folklore*, Volume 80.

20. One must remember that in Ireland and Scotland "loch" refers to salt-water bays and fresh-water lakes with equal facility.

21. Isabel Cameron, *A Highland Chap Book* (Stirling, Scotland, 1928), pp. 120–28.

22. Helen Drever, *Lure of the Kelpie* (Edinburgh and London, 1937), pp. 66–71.

23. Cary Archives, University of Maryland. See also Cameron, *op. cit.*, p. 126, for an identical tale.

24. Drever, *op. cit.*, pp. 87–89. One cannot help but remark on the similarity of this tale to the ones about the nuggle in the Shetlands.

25. For the complete text, see Francis J. Child, *English and Scottish Popular Ballads* (Boston, 1881–1889), p. 243.

26. Benwell and Waugh, *op. cit.*, p. 176.

27. John F. Campbell, *Popular Tales of the West Highlands*, (Edinburgh, 1860), Volume IV, pp. 330–35.

28. Except, perhaps, in belief held by the Aran Islanders. See Lady Augusta Gregory, *Visions and Beliefs in the West of Ireland*, pp. 15–30.

29. John Gregorson Campbell, *Superstitions of the Highlands and Islands of Scotland* (Glasgow, 1900), pp. 199–200.

30. Martin Martin, *A Description of the Western Isles of Scotland* (Stirling, Scotland, 1934), p. 107.

31. Benwell and Waugh, *op. cit.*, p. 173.

32. Campbell, *op. cit.*, p. 199.

33. David MacRitchie, *Fians, Faeries and Picts* (London, 1895).

34. It has been further suggested that the Picts deliberately sought to control the sea routes between the Outer Hebrides and the mainland. If such was the case, they would be remembered, if at all, as a warlike group. See F. T. Wainwright, *The Northern Isles* (Edinburgh, 1964), pp. 82–83; see also Stuart S. Piggot, *The Prehistoric Peoples of Scotland* (London, 1962).

35. John L. Campbell, *Stories from South Uist* (London, 1961), p. 122.

36. Fletcher Bassett, *Legends and Superstitions of The Sea and of Sailors*, (Chicago and New York, 1885), Chapter IV.

37. Benwell and Waugh, *op. cit.*, p. 74.

38. Bassett, *op. cit.*, p. 184.

39. Hunt, *op. cit.*, p. 157.

40. Rappaport, *op. cit.*, pp. 177–78. Wrens are often associated with faeries and are killed in Ireland on St. Stephen's Day, December 26. The dead birds are put on brooms and kept in the kitchen to drive out faeries.

41. Carey Archives, University of Maryland.

42. Hunt, *op. cit.*, pp. 72–85.

43. John F. Campbell, *op. sit.*, Volume I, pp. 71ff.

44. Horace P. Beck, "Old World Tales Among the Mohawks," *Journal of American Folklore*, July–September, 1950, Vol. 63, #2, pp. 285–308.

45. Personal collection.

46. Fannie H. Eckstorm, *Old John Neptune and Other Maine Indian Stories* (Portland, 1945), pp. 83–89.

47. Abby L. Alger, *In Indian Tents* (Boston, 1897), pp. 65–71. For further references, one should examine *Jesuit Relations*, Volume LVII, and Dwight Kelton, *Indian Names of Places Near the Great Lake* (1888), pp. 34, 52.

48. Samuel B. D. Purchas, *Hakluytus Posthumus* or *Purchas His Pilgrims* (Glasgow, MCMVII, Vol. XIX) p. 439.

49. Fletcher M. Bassett, *op. cit.*, pp. 195–6.

50. Nicholas Denys, *Works* (Ottoman Edition), p. 80.

51. Bassett, *op. cit.*, pp. 196–97.

52. Harriet Beecher Stowe, *The Pearl of Orr's Island* (Boston, 1862), pp. 127–28.

53. Benwell and Waugh, *op. cit.*, p. 145.

54. *Ibid.*, p. 145.

55. *Ibid.*, p. 145.

56. F. H. MacArthur, *Legends of Prince Edward Island* (Charlottetown, n.d.), p. 49.

57. Mary L. Fraser, *Folklore of Nova Scotia* (Toronto, 1932), pp. 92–93.

58. *Ibid.*, pp. 94–95.

59. *Ibid.*, p. 99.

60. Personal collection.

61. Letter from Dr. Donald Hill, Department of Anthropology, Indiana University.

62. G. J. Afolabi Ojo, *Yoruba Culture* (London, 1966), pp. 162–66.

63. Elsie C. Parsons, *Folklore of the Antilles, French and English in Memoirs of the American Folklore Society*, New York, 1933, Volume XXVI, Pt. 1, pp. 83, 247.

64. Personal collection.

65. Parsons, *op. cit.*, Pt. 2, p. 293.

66. H. B. Meikle, "Mermaids and Fairymaids or Water Gods and Goddesses of Tobago," *Caribbean Quarterly*, 5 (1958), pp. 103–08.

67. Personal collection. In still another version of the tale the brother kills the "fish" and the girl is forced to eat her lover Oshun when he is served on the table, after which she dives into the water and turns into a mermaid. One should also note that Oshun is the name of a Nigerian river in which lives a water god similar to a mermaid. See M. G. Smith, *Dark Puritan* (Kingston, Jamaica, 1963), p. 137.

68. Personal collection. Obviously the mermaid has some sort of connection with the darker side of the otherworld, for the two stories called to mind a series of these tales.

69. Newbell N. Puckett, *Folk Beliefs of the Southern Negro* (New York, 1969), pp. 136–37.

70. Alexander Marshack in "The Baton of Montgaudier," (*Natural History*, Volume LXXIX, #3), examined art sketched on a reindeer's hôrn at least twelve thousand years old: a great serpent, two seals, a strange animal, a salmon and a small plant. He suggests that we may learn more about ancient peoples through a study of art and stories than through many other more "respectable" media. If this be true, the symbols on that bone may tie in with stories of mermaids, sea monsters, salmon and faeries told here or yet to be revealed.

## الفصل العاشر

1. Olaus Magnus, *A Compendious History of the Goths, Swedes and Vandals, and Other Northern Nations* (London, 1658), *passim*.

2. Heuvelmans' book alone lists at least 525 separate written accounts of sightings between 1634 and 1964. See Bernard Heuvelmans, *In the Wake of the Sea Serpents* (London, 1968), pp. 575–85.

3. It has been suggested by some scholars that this was a hoax (see Heuvelmans, *op. cit.*, p. 202). He also mentions one being sighted in latitude 24° south, longitude 12° east in cloudy, blustery weather.

4. Richard M. Dorson, *America Begins* (New York, 1950), pp. 28–29.

5. Joseph C. Allen, *Tales and Trails of Martha's Vineyard* (Boston, 1938), pp. 229–30.

6. Personal collection.

7. J. F. Campbell, *The Celtic Dragon Myth with the Geste of Fraoch and the Dragon*, translated with introduction by George Henderson (Edinburgh, 1911), pp. 67–69.

8. *Ibid.*, p. 80.

9. *Ibid.*, pp. XXI–XXII.

10. Bernard Heuvelmans, *op. cit.*, p. 66.

11. Alan O. Anderson and Marjorie O. Anderson, *Adomnan's Life of Columba* (London and New York, 1961), p. 551.

12. Anderson, *op. cit.*, pp. 387–89.

13. The Scots take pains to point out the great accuracy of this man's visions.

14. Personal collection.

15. This lake is popularly believed to have underground connections with Loch Ness.

16. See F. W. Holiday, *The Great Orm of Loch Ness* (London, 1968), for complete details; see also Tim Dinsdale, *Loch Ness Monster* (London, 1966).

17. Ivan T. Sanderson, "Don't Scoff at Sea Monsters," *Saturday Evening Post* (March 8, 1947).

18. Heuvelmans, *op. cit.*, p. 465.

19. Carey Archives, University of Maryland. This tale recalls one told by Heuvelmans, wherein a great snake crawled into a boat via the rudder port and coiled itself by the mast before being chased overboard. (Heuvelmans, *op. cit.*, p. 85.)

20. Gershom Bradford, "Sea Serpents? No or Maybe," American Neptune, Vol. XIII (October, 1953), pp. 268–74.

21. Lawrence D. Geller, "Notes on Sea Serpents of Coastal New England," *New York Folklore Quarterly*, Vol. 26, No. 2 (June, 1970), p. 154.

22. *Ibid.*, pp. 158–59.

23. Heuvelmans, *op. cit.*, Ch. II.

24. Lady Augusta Gregory, *A Book of Saints and Wonders* (London, 1920), Book Six.

25. J. W. Van Dervoort, *The Water World* (New York, 1886), pp. 72–73.

26. "A discovery of the Barmudas, otherwise called the Isle of Divils; by Sir Thomas Gates, Sir George Sommers and Captayne Newport, set forth by Fil. Jourdan," in Richard Hakluyt, *Voyages and Discoveries of the English* (London, 1812), Vol. V, p. 556.

27. George G. Cary, *Folk Motifs in the Writings of John Josselyn* (unpublished master's thesis, Indiana University, 1962), Ch. II.

28. See Sabine Baring-Gould, *Curious Myths of the Middle Ages* (London, 1868), pp. 259–65.

29. Bassett, p. 299; Heuvelmans, p. 50.

30. Hugh Marwick, *Orkney* (London, 1951), pp. 110–11. See also Garry Hogg, *The Far Flung Isles, Orkney and Shetland* (London, 1961), p. 27.

31. John Gun, *The Orkney Book* (London, 1909), pp. 393–94.

32. George Carey, "Enchanted Island Traditions of the Sixteenth and Seventeenth Centuries," *American Neptune*, Vol. 29, No. 2 (October, 1969), pp. 275–81.

33. Harry P. Swan, *Highlights of the Donnegal Highlands* (Belfast, 1958), pp. 97–98. It might be added that a similar fate overtook the Irish hero Cuchulainn after his sojourn of four hundred years in Faeryland.

34. Francis Parkman, *Pioneers of France in the New Yorld* (Boston, 1880), p. 173.

35. See Lady Augusta Gregory, *Visions and Beliefs in the West of Ireland* (London, 1920), "Sea Stories," pp. 15–30.

36. P. A. O. Siochain, *Aran Islands of Legend*, 3rd ed. (New York, 1967), pp. 55–57.

37. Parkman, *op. cit.*, pp. 173–75, 202–06.

38. John Josselyn, *An Account of Two Voyages to New England* (London, 1674), p. 218.

39. Stanley Rogers, *Sea-Lore* (London, 1934), p. 185.

## الفصل الحادى عشر

1. For a typical statement see C. J. S. Thompson, *The Hand of Destiny* (London, 1932), p. 193.

2. Personal collection.

3. W. Carew Hazlitt, *Faith and Folklore of the British Isles* (New York, 1965), Vol. II, p. 639.

4. Folklore and Language Archives, Memorial University of Newfoundland.

5. Horace P. Beck, *Folklore of Maine* (Philadelphia, 1956), p. 68.

6. Wilbur Bassett, *Wander-Ships* (Chicago, 1917), pp. 122–24.

7. Frank Shay, *A Sailors Treasury* (New York, 1951), pp. 58–59, 167.

8. Jane C. Beck, *Ghostlore of the British Isles and Ireland*, unpublished PhD. dissertation in folklore, University of Pennsylvania (1969), pp. 240–41.

9. *Ibid.*, p. 185.

10. Personal collection.

11. *Ibid.*

12. *Ibid.*; also Folklore and Language Archives, Memorial University of Newfoundland.

13. *Ibid.*

14. H. P. Beck, *op. cit.*, p. 73.

15. Personal collection. Whether this was a local custom or a holdover from old world practice, I have been uable to determine.

16. H. P. Beck, *op. cit.*, pp. 203–04.

17. *Ibid.*, pp. 201–07.

18. Joshua Slocum, *Sailing Alone Around the World* (New York, 1900), pp. 59–62.

19. Helen Creighton, *Bluenose Ghosts* (Toronto, 1957), pp. 135–36.

20. J. C. Beck, *op. cit.*, pp. 283–84.

21. Creighton, *op. cit.*, pp. 130–31. See also H. P. Beck, *op. cit.*, pp. 190–91, for a similar story.

22. Carey Archives, University of Maryland.

23. Personal collection.

24. *Ibid.*

25. *Ibid.*

26. *Ibid.*

27. *Ibid.*; see also D. D. C. Pochin Mould, *West-Over-Sea* (Edinburgh, 1953), pp. 181–83.

28. Personal collection; see also MacEdward Leach, *Folk Ballads and Songs of the Lower Labrador Coast* (Ottawa, 1965), pp. 74–75, for bibliography, discussion and a variant.

29. Personal collection.

30. George Coggeshall, *Voyages in Various Parts of the World* (New York, 1851), pp. 135, 138, 142.

31. Carey Archives, University of Maryland.

32. Folklore Archives, Memorial University of Newfoundland.

33. William F. S. A. Jones, *Credulities Past and Present* (London, 1880), pp. 12–13.

34. *Ibid.*, pp. 12–13.

35. Thomas Henderson, "Traditions and Tales," *Shetland Folk Book*, Vol. 1 (1947), pp. 54–55.

36. Personal collection.

37. *Ibid.*

38. *Ibid.*

39. *Ibid.*; see also Lowry C. Wimberly, *Folklore in the English and Scottish Ballads* (New York, 1928), p. 66.

40. Personal collection.

41. *Ibid.*

42. *Ibid.*

43. For details, see Alexander MacKenzie, *The Prophecies of the Brahan Seer* (Stirling, 1946).

44. Personal collection. from the narration of Captain Paddy O'Halloran, July 1968.

45. Creighton, *op. cit.*, p. 70.

46. Mary L. Fraser, *Folklore of Nova Scotia* (Toronto, 1932), p. 140.

47. Personal collection.

48. John MacInnis, "The Oral Tradition in Scottish Gaelic Poetry," *Scottish Studies*, 12:29–43 (1968), p. 41.

49. Personal collection; also Folklore Archives, Memorial University of Newfoundland.

50. Personal collection; see also J. R. Tudor, *The Orkneys and Shetlands* (London, 1883), p. 167.

51. Personal collection.

52. Charles H. Whedbee, *Legends of the Outer Banks* (Winston-Salem, 1966), pp. 57–63.

53. For discussion and text, see MacEdward Leach, *The Ballad Book* (New York, 1955), p. 697.

54. Personal collection; see also Fletcher M. Bassett, *Legends and Superstitions of the Sea and of Sailors* (Chicago, 1885), pp. 459–61. It is interesting to note that in the West Indies, according to my informants, being born with the caul allows the person to see the future and to see ghosts.

55. Personal collection.

56. George Coggeshall, *History of the American Privateers* (New York, 1861), p. 31.

57. Dunbar M. Hinrichs, *The Fateful Voyage of Captain William Kidd* (New York, 1955), p. 139.

58. Personal collection.

59. Personal collection, from the telling of the late MacEdward Leach.

60. Carey Archives.

61. Personal collection.

62. *Ibid.*

63. *Ibid.*

64. *Ibid.*

65. Carey Archives.

66. Hazlitt, *op. cit.*, pp. 665–66.

67. Bassett, *op. cit.*, pp. 275–76.

68. Personal collection.

69. Martin Martin, *A Description of the Western Islands of Scotland* (Stirling, 1934), p. 107.

70. Personal collection.

71. Folklore Archives, Memorial University of Newfoundland.

72. Personal collection.

73. Folklore Archives, Memorial University of Newfoundland, and Personal collection.

74. Personal collection.

75. *Ibid.*

76. H. P. Beck, *op. cit.*, p. 72.

77. Gerald Averill, *Ridge Runner* (Philadelphia, 1948), pp. 29–40. I heard this identical story during World War II from Robert Davidson. This time it was flank steak instead of shoat and a boiled pumpkin instead of a hot shot.

78. Carey Archives.

## الفصل الثانى عشر

1. Captain John Smith, *A Sea Grammar* (London, 1627), pp. 59–62.

2. Edgar S. Maclay, *A History of American Privateers* (New York, 1899), p. 13, a quote.

3. G. W. Allen, *Massachusetts Privateers of the Revolution* (Cambridge, 1927), pp. 3–5.

4. See Maclay, *op. cit.*, pp. 13–16.

5. G. W. Allen, *A Naval History of the American Revolution* (New York, 1962), Vol. I, pp. 45–47.

6. For a more extensive list, see G. W. Allen, *op. cit.*, and William Sheffield, *Rhode Island Privateers* (Newport, 1883).

7. Personal collection.

8. *Ibid.*

9. Folklorists who read this account will recall that identical tactics to those of the Bishop had already been tried successfully by King Canute nearly a millennium before. See also Samuel E. Morison, *John Paul Jones, A Sailor's Biography* (Boston, 1959), pp. 216–19. Here the story is given somewhat differently.

10. George Coggeshall, *History of the American Privateers, and Letters-of-Marque, During Our War with England in the Years 1812, '13 and '14, Interspersed with Several Naval Battles Between American and British Ships-of-War* (New York, 1861), pp. 67–68.

11. John P. Cranwell and William B. Crane, *Men of Marque: A History of Private Armed Vessels out of Baltimore During the War of 1812* (New York, 1940), pp. 261–65.

12. Coggeshall, *op. cit.*, p. 108.

13. *Ibid.*, pp. 370–84.

14. *Ibid.*, Chapters VI and X.

15. Cranwell and Crane, *op. cit.*, p. 68.

16. This story was related to the author by the late Captain George Barney Wright of Newport, Rhode Island. See also Ralph D. Paine, *Joshua Barney* (New York, 1924), pp. 98–100.

17. James Fenimore Cooper, *History of the Navy of the United States of America*, 2nd ed. (Philadelphia, 1840), pp. 206–08.

18. Philip Freneau. *The Poems of Philip Freneau*. ed., Fred L. Pattee, Vol. II (Princeton, N.J., 1903), pp. 149–53.

19. Paine, *op. cit.*, pp. 162–88. See also Cooper, *op. cit.*, Vol. I, p. 208.

20. Cooper, *op. cit.*, pp. 217–18.

21. Horace P. Beck, "The Making of the Popular Legendary Hero," in W. D. Hand, ed., *American Folk Legend A Symposium* (Berkeley, 1971), pp. 121–33.

22. Horace P. Beck, *Folklore of Maine* (Philadelphia, 1956), pp. 20–21.

23. For a good account of Morgan, see John Esquemeling, *Buccaneers of America* (London, n.d.), pp. 119–215.

24. Personal collection. See also Joanna Colcord, *Songs of American Sailormen* (New York, 1938), pp. 141–44. The opinions expressed in this song were still espoused by competent historians as late as 1934; see Philip Gosse, *The History of Piracy* (New York, 1934), pp. 175–86.

25. There are numerous biographies of Kidd. For an early account, see Captain Charles Johnson, *A General History of the . . . Pirates* (New York, 1926), pp. 386–96; for his voyage and trial, see Dunbar M. Hinrichs, *The Fateful Voyage of Captain Kidd* (New York, 1955); for his life, see Willard H. Bonner, *Pirate Laureate* (New Brunswick, 1947).

26. Personal collection. Actually, the number was fourteen and all fourteen "danced at the end of a rope"; see Edward Peterson, *History of Rhode Island and Newport in the Past* (New York, 1853), pp. 84–65. For a history of Lowe, see Anon., *The Pirates Own Book* (Philadelphia, 1839), pp. 228–36.

27. Personal collection.

28. *Ibid.*

29. Johnson, *op. cit.*, pp. 130–40.

30. Petrel Fulmar, *Grania Waile* (London, 1895), pp. 11–13.

31. William O'Brien, *A Queen of Men* (Dublin, 1958), p. 13.

32. The two most available sources of information on Granuaile are O'Brien, *op. cit.*, especially pp. 10–17, and Petrel, *op. cit.*

33. H. P. Beck, "The Prince of Spain," *Journal of the Folklore Institute*, Vol. VIII, #1, 1971, pp. 48–56.

34. Points two and three refer particularly to buried or hidden treasure.

35. Rupert Furneaux, *The Great Treasure Hunts* (New York, 1969), pp. 9–23.

36. William Haynes, *Casco Bay Yarns* (New York, 1916), pp. 21–42.

37. Charles B. Driscoll, *Doubloons: The Story of Buried Treasure* (New York, 1930), pp. 3–35.

38. Personal collection.

39. Helen Creighton, *Bluenose Ghosts* (Toronto, 1957), pp. 57–59.

40. Furneaux, *op. cit.*, pp. 38–45.

41. See Chapter XI, herein.

42. Driscoll, *op. cit.*, pp. 42–43.

43. Personal collection.

44. *Ibid.* Note that the first part of this story is almost identical to a story told on Carriacou Island in the Caribbean. Captain MacFarlane of Windward said a young boy was "forking the land" and discovered a treasure. He took it to the owner who upbraided him for finding it; told him he must not mention it to anyone and kept if for himself. Unlike the Irish story, this man prospered like the proverbial green bay tree.

45. *Ibid.*

46. For a more detailed study of the factual points of this story, see Charles B. Driscoll, *op. cit.*, pp. 1–35; Rupert Furneaux, *The World's Strangest Mysteries* (London, 1961), Chapter 1. The folk material on the treasure was collected in Chester, Nova Scotia, in June 1948, from a family of shipwrights named Stevens.

47. Personal collection.

48. *Ibid.*

49. One is immediately reminded in this case of Stoertebeker cramming his loot into his masts.

50. Creighton, *op. cit.*

51. Mary L. Fraser, *Folklore of Nova Scotia* (Toronto, 1932), pp. 79–81.

52. For an interesting discussion of this attitude, see George Washington Cable, "Jean Ah Poquelan," in *Old Creole Days* (New York, 1937).

53. Hesketh J. Bell, *Obeah; Witchcraft in the West Indies* (London, 1889), pp. 177–85.

54. George Howe, *Mount Hope: A New England Chronicle* (New York, 1959), p. 87. See also Richard B. Morris, *Encyclopedia of American History* (New York, 1953), p. 80.

55. Personal collection.

56. *Ibid.*

57. *Ibid.*

## الفصل الثالث عشر

1. The foregoing definition is intended to distinguish between these two types as they are used within the present work. For a more detailed and general evaluation, see Stith Thompson, *The Folktale: Stories Men Tell from Egyptian Myth to Uncle Remus* (New York, 1946).

2. Wilbur Bassett, *Wander–Ships* (Chicago, 1917), pp. 52, 98.

3. For a detailed study of this material, see T. C. Letherbridge, *Herdsmen and Hermits: Celtic Seafarers in the Northern Seas* (Cambridge, 1950), pp. 140–43, and Reidar T. Christiansen, "The People of the North," Lochlann, *A Review of Celtic Studies*, Vol. II (1962), pp. 137–64.

4. Lady Augusta Gregory, *Gods and Fighting Men* (Gerrands Cross, 1970), p. 141. See also T. W. Rolleston, *Myths and Legends of the Celtic Race* (London, 1911), pp. 252–308, and Eileen O'Faolain, *Irish Sagas and Folktales* (London, 1954), pp. 125–34.

5. John Ryan, *Ireland from the Earliest Times to A.D. 800* (Dublin, n.d.), pp. 130–38.

6. Alan O. Anderson and Marjorie Anderson, *Adomnan's Life of Columba* (New York and London, 1961).

7. Stories about cursing stones are not only popular in Ireland but in Scotland as well. See D.D.C. Pochin Mould, *Irish Pilgrimage* (Dublin, 1955), p. 81.

8. Hence we discover the folk are here using sympathetic magic, a favorite device to ward off evil.

9. For further information and stories, see William Bottrell, *Traditions and Hearthside Stories of West Cornwall, Penzance, 1873*, 2nd Series, pp. 276–79; see also W. Carew Hazlitt, *Faith and Folklore of the British Isles* (New York, 1965), Vol. I, pp. 40–43.

10. Hazlitt, *op. cit.*, p. 42.

11. *Ibid.*, p. 42.

12. William F. S. A. Jones, *Credulities Past and Present* (London, 1880), pp. 12–13.

13. For a complete and detailed account of this occurrence, see Robert F. Marx, *Pirate Port: The Story of the Sunken City of Port Royal* (New York, 1967).

14. Edward R. Snow, *Great Sea Rescues* (New York, 1958), pp. 141–51. For further accounts of wreck and rescue, see Birse Shepard, *Lore of the Wreckers* (Boston, 1961); Cyril Noall and Graham Farr, *Wreck and Rescue Round the Cornish Coast* (Truro, Cornwall, 1965).

15. For a detailed discussion of this story, see Horace P. Beck, "The Prince of Spain," *Journal of the Folklore Institute*, Vol. VIII, #1, June 1971, pp. 48–56.

16. For a good summary, see Roger Jefferis and Kendall MacDonald, *The Wreck Hunters* (London, 1966), pp. 59–74.

17. Bottrell, *op. cit.*, pp. 231–33.

18. The mastiffs' song was considered to be a "bad song" because at one time the hell hounds had tried to prevent a priest from giving absolution to a dead man by attempting to delay him in listening while they sang "Cailín Deas Crúite na mBō." From that day forward it had been known as a "bad song."—Jane C. Beck, *Ghostlore of the British Isles and Ireland*, unpublished PhD. dissertation, University of Pennsylvania (1969), p. 283.

19. Hugh Miller, *Scenes and Legends of the North of Scotland* (Edingburgh, MDCCCLIII), pp. 174–90.

20. This story was told to me by Captain Ben Pine of Gloucester, master of the schooner *Gertrude Thibeault*, in the summer of 1940. See also J. B. Connolly, *Out of Gloucester* (New York, 1902).

21. Edouard A. Stackpole, *The Sea Hunters: The New England Whalemen During Two Centuries 1635–1835* (Philadelphia, 1953), pp. 317–37.

22. Carey Archives, University of Maryland.

23. For a more detailed account of the exploits of Barney Beal, see Richard M. Dorson, *Buying the Wind* (Chicago, 1964), pp. 40–54.

24. Horace P. Beck, *Folklore of Maine* (Philadelphia, 1956), pp. 140–44.

25. This story was told twice. The first time Captain Buchan included the bit about the Russian, the collision and the plans for taking off the crew of the *Alliance*. At the second telling into the microphone, he overlooked these items until after he had finished the story. I have taken the liberty of including them in the story as they belonged.

## الفصل الرابع عشر

1. George K. Anderson, *The Legend of the Wandering Jew* (Providence, 1965).

2. *Ibid.*, p. 11.

3. *Ibid.*, pp. 11–31.

4. *Ibid.*, p. 5.

5. Funk and Wagnalls' *Standard Dictionary of Folklore, Mythology and Legend*, Maria Leache, ed., Vol. II (New York, 1949), p. 1177.

6. Benjamin Thorpe, *Northern Mythology*, Vol. III (London, 1852), pp. 294–95.

7. Wilbur Bassett, *Wander-Ships* (Chicago, 1917), pp. 38–45.

8. Dr. Angelo S. Rappaport, *Superstitions of Sailors* (London, 1928), pp. 233–34.

9. It is worth recalling that Ahasuerus always appeared in a long cloak; see Anderson, *op. cit.*

10. Bassett, *op. cit.*, p. 51.

11. For a fairly detailed discussion, see Wilbur Bassett, *op. cit.*, "Dahul," pp. 35–63.

12. Richard H. Dillon, *Shanghaiing Days* (New York, 1961), pp. 66–127.

13. Edward A. Ives, "The Burning Ship of Northumberland Strait: Some Notes on That Apparation," *Midwest Folklore*, Vol. VIII, #4 (1958), pp. 199–203.

14. F. H. MacArthur, *Legends of Prince Edward Island* (Charlottetown, P.E.I.), pp. 69–71.

15. George Coggeshall, *History of the American Privateers and Letters-of-Marque, During Our War with England in the Years 1812, '13, '14, Interspersed with Several Naval Battles Between American and British Ships-of-War* (New York, 1861), p. 125.

16. Personal collection. See also Charles B. Driscoll, *Doubloons* (New York, 1930), p. 31. For an abbreviated account, see Helen Creighton, *Folklore of Lunenburg County, Nova Scotia* (Ottawa, 1950), p. 12.

17. Horace P. Beck, *The American Indian as a Colonial Sea Fighter* (Mystic, Conn., 1959), p. 22.

18. For a complete discussion of the material on the *Palatine*, see George G. Carey, "Folklore in the Writings of John Greenleaf Whittier," doctoral dissertation (Indiana University, 1966), pp. 125–30. See also Ralph Childs, dissertation, "Phantom Ships of the Northeast Coast of North America," *New York Folklore Quarterly*, Vol. II, No. 2, (1946), pp. 160–81; E.C. Ritchie, *Block Island Lore and Legend* (Block Island, 1955), pp. 75–76; Samuel Livermore, *History of Block Island* (Hartford, 1877), pp. 124–25; John Kobler, "The Mystery of the Palatine Light," *Saturday Evening Post* (June 11. 1900), p. 55; Albert Mathand, "The Word Palatine in America," *Publications of the Colonial Society of Massachusetts*, VIII, p. 217 ff.; Benjamin A. Botkin, *Treasury of New England Folklore* (New York, 1947), pp. 296–97; John Greenleaf Whittier, *Complete Poetical Works* (Boston, 1894), p. 257.

19. Personal collection. See also Ritchie, *op. cit.*, p. 81.

20. Fletcher Bassett, *Legends and Superstitions of the Sea and of Sailors* (Chicago and New York, 1885), p. 372.

21. William Bottrell, *Traditions and Hearthside Stories of West Cornwall*, 2nd Series (Penzance, 1873), pp. 247–49.

22. George A. England, *Vikings of the Ice* (1924), p. 219.

23. Hugh Miller, *Scenes and Legends of the North of Scotland*, 3rd edition (Edinburgh, 1853), pp. 22–23.

24. Personal collection.

25. Horace P. Beck, *Folklore of Maine* (Philadelphia, 1956), pp. 146–51.

26. Edmund Pearson, *Murder at Smutty Nose and Other Murders* (London, 1927), pp. 1–70.

27. Beck, *op. cit.*, pp. 148–52.

28. Frank C. Brown, *North Carolina Folklore* (Durham, 1952), Vol. 1, p. 625.

29. Allen Cunningham, *Traditional Tales of the English and Scottish Peasantry* (London, 1822), p. 288.

30. John Greenleaf Whittier, *op. cit.*, p. 310. For a detailed analysis of the facts, see George Carey, *op. cit.*, pp. 130–33.

31. Wilbur Bassett, *op. cit.*, p. 72.

32. *Ibid.*

33. Henry Wadsworth Longfellow, "The Phantom Ship," in *Complete Poetical Works* (Boston, 1902)), p. 230. See also Cotton Mather, *Magnalia Christi Americana.*

34. Carey Archives, University of Maryland.

35. Memorial University of Newfoundland Folklore and Language Archives.

36. Lady Augusta Gregory, *Visions and Beliefs in the West of Ireland* (Garrands Cross, 1920), pp. 15–31.

37. Ralph Childs, *op. cit.*

38. Henry W. Splitter, "New Tales of American Phantom Ships," *Western Folklore*, Vol. IX (1950), pp. 204–09.

39. *Ibid.*

40. Ralph Childs, *op. cit.*, pp. 160–61.

41. Wilbur Bassett, *op. cit.*, pp. 11–24, 92–105.

42. Memorial University, *loc. cit.*

43. Edward Peterson, *History of Rhode Island* (New York, 1853), pp. 63–64.

## المؤلف فى سطور:

## هوراس بيك

– ولد فى نيوبورت بجنوب شرقى رود آيلاند بالولايات المتحدة عام ١٩٢٠ وتوفى بها فى ١ يوليو ٢٠٠٢ .

– عبر المحيط الأطلنطى ٢٨ مرة على متن السفن المختلفة.

– عمل أستاذا للأدب الأمريكى لمدة ٢٧ عاماً فى ميدلبيرى كوليدج فى فيرمونت.

– كان يقضى العطلات الدراسية فى العمل على سفن الصيد التجارية وسفن صيد الحيتان، التى عمل عليها لمدة ١٠ سنوات، حيث تمكن من جمع أغانى وحكايات البحارة العاملين عليها.

– كتب أكثر من اثنى عشر كتاباً منها

**The American Indian as a Sea Fighter in the Colonial Time**

**The Folklore of Main**

**Cape Breton Nicknames and Tales**

## المترجم فى سطور

## أحمد محمود

– حاصل على ليسانس الآداب – قسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة عام ١٩٧٣ ودبلوم الدراسات العليا – قسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة، ١٩٨٧، وهو حاليًا رئيس قسم الترجمة بمجلة "كل الناس" وعضو اتحاد الكُتَّاب وعضو نقابة الصحفيين. وحصل المترجم على جائزة محمد بدران عن ترجمة كتاب "طريق الحرير" وله مقالات مترجمة فى مجلتى "وجهات نظر" و"الثقافة العالمية".

– نشرت له ترجمات الكتب التالية :

* الناس فى صعيد مصر، وينيفريد بلاكمان، دار عين، القاهرة ١٩٩٥
* طريق الحرير ، إيرين فرانك وديفيد براونستون، المشروع القومى للترجمة، القاهرة ١٩٩٧
* عالم ماك، بنجامين باربر، المشروع القومى للترجمة، القاهرة ١٩٩٨
* التراث المغدور، روبرت دنيا وجون فاين، المشروع القومى للترجمة، القاهرة ١٩٩٩
* العولمة – النظرية الاجتماعية، رونالد روبرتسون، المشروع القومى للترجمة، القاهرة ١٩٩٩ (بالاشتراك مع نورا أمين)
* تشريح حضارة، بارى كيمب، المشروع القومى للترجمة، القاهرة ٢٠٠٠
* صناعة الثقافة السوداء، إليس كاشمور، المشروع القومى للترجمة، القاهرة ٢٠٠٠
* صناعة الخبر– فى كواليس الصحف الأمريكية، جون هاملتون وجورج كريمسكى، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠١
* التحالف الأسود ـ وكالة الاستخبارات المركزية والمخدرات والصحافة، الكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير، المشروع القومى للترجمة، القاهرة ٢٠٠٢ (ط ١) ٢٠٠٣ (ط٢)
* الاقتصاد السياسى للعولمة، تحرير نجير وودز، المشروع القومى للترجمة، القاهرة ٢٠٠٣
* أساطير بيضاء ، روبرت يانج ، المشروع القومى للترجمة ، القاهرة ٢٠٠٣

# المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

# المشروع القومى للترجمة

| | | |
|---|---|---|
| ١ – اللغة العليا (طبعة ثانية) | جون كوين | ت : أحمد درويش |
| ٢ – الوثنية والإسلام | ك. مادهو بانيكار | ت : أحمد فؤاد بليع |
| ٣ – التراث المسروق | جورج جيمس | ت : شوقى جلال |
| ٤ – كيف تتم كتابة السيناريو | انجا كاريتنكوفا | ت : أحمد الحضرى |
| ٥ – ثريا فى غيبوبة | إسماعيل فصيح | ت : محمد علاء الدين منصور |
| ٦ – اتجاهات البحث اللسانى | ميلكا إفيتش | ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد |
| ٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة | لوسيان غولدمان | ت : يوسف الأنطكى |
| ٨ – مشعلو الحرائق | ماكس فريش | ت : مصطفى ماهر |
| ٩ – التغيرات البيئية | أندرو س. جودى | ت : محمود محمد عاشور |
| ١٠ – خطاب الحكاية | چيرار چينيت | ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى |
| ١١ – مختارات | فيسوافا شيمبوريسكا | ت : هناء عبد الفتاح |
| ١٢ – طريق الحرير | ديفيد براونيستون وايرين فرانك | ت : أحمد محمود |
| ١٣ – ديانة الساميين | روبرتسن سميث | ت : عبد الوهاب علوب |
| ١٤ – التحليل النفسى والأدب | جان بيلمان نويل | ت : حسن المودن |
| ١٥ – الحركات الفنية | إدوارد لويس سميث | ت : أشرف رفيق عفيفى |
| ١٦ – أثينة السوداء | مارتن برنال | ت : بإشراف / أحمد عتمان |
| ١٧ – مختارات | فيليب لاركين | ت : محمد مصطفى بدوى |
| ١٨ – الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية | مختارات | ت : طلعت شاهين |
| ١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة | چورج سفيريس | ت : نعيم عطية |
| ٢٠ – قصة العلم | ج. ج. كراوثر | ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح |
| ٢١ – خوخة وألف خوخة | صمد بهرنجى | ت : ماجدة العنانى |
| ٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين | جون أنتيس | ت : سيد أحمد على الناصرى |
| ٢٣ – تجلى الجميل | هانز جيورج جادامر | ت : سعيد توفيق |
| ٢٤ – ظلال المستقبل | باتريك بارندر | ت : بكر عباس |
| ٢٥ – مثنوى | مولانا جلال الدين الرومى | ت : إبراهيم الدسوقى شتا |
| ٢٦ – دين مصر العام | محمد حسين هيكل | ت : أحمد محمد حسين هيكل |
| ٢٧ – التنوع البشرى الخلاق | مقالات | ت : نخبة |
| ٢٨ – رسالة فى التسامح | جون لوك | ت : منى أبو سنه |
| ٢٩ – الموت والوجود | جيمس ب. كارس | ت : بدر الديب |
| ٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢) | ك. مادهو بانيكار | ت : أحمد فؤاد بليع |
| ٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامى | جان سوفاجيه – كلود كاين | ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب |
| ٣٢ – الانقراض | ديفيد روس | ت : مصطفى إبراهيم فهمى |
| ٣٣ – التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية | أ. ج. هوبكنز | ت : أحمد فؤاد بليع |
| ٣٤ – الرواية العربية | روجر آلن | ت : حصة إبراهيم المنيف |
| ٣٥ – الأسطورة والحداثة | بول . ب . ديكسون | ت : خليل كلفت |

| | | |
|---|---|---|
| ٣٦ – نظريات السرد الحديثة | والاس مارتن | ت : حياة جاسم محمد |
| ٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها | بريجيت شيفر | ت : جمال عبد الرحيم |
| ٣٨ – نقد الحداثة | ألن تورين | ت : أنور مغيث |
| ٣٩ – الإغريق والحسد | بيتر والكوت | ت : منيرة كروان |
| ٤٠ – قصائد حب | أن سكستون | ت : محمد عيد إبراهيم |
| ٤١ – ما بعد المركزية الأوربية | بيتر جران | ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد |
| ٤٢ – عالم ماك | بنجامين باربر | ت : أحمد محمود |
| ٤٣ – اللهب المزدوج | أوكتافيو باث | ت : المهدى أخريف |
| ٤٤ – بعد عدة أصياف | ألدوس هكسلى | ت : مارلين تادرس |
| ٤٥ – التراث المغدور | روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين | ت : أحمد محمود |
| ٤٦ – عشرون قصيدة حب | بابلو نيرودا | ت : محمود السيد على |
| ٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ١ | رينيه ويليك | ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد |
| ٤٨ – حضارة مصر الفرعونية | فرانسوا دوما | ت : ماهر جويجاتى |
| ٤٩ – الإسلام فى البلقان | هـ . ت . نوريس | ت : عبد الوهاب علوب |
| ٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير | جمال الدين بن الشيخ | ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى |
| ٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية | داريو بيانوييا وخ. م بينياليستى | ت : محمد أبو العطا |
| ٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى | بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل | ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش |
| ٥٣ – الدراما والتعليم | أ . ف . ألنجتون | ت : مرسى سعد الدين |
| ٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح | ج . مايكل والتون | ت : محسن مصيلحى |
| ٥٥ – ما وراء العلم | جون بولكنجهوم | ت : على يوسف على |
| ٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١) | فديريكو غرسية لوركا | ت : محمود على مكى |
| ٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢) | فديريكو غرسية لوركا | ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى |
| ٥٨ – مسرحيتان | فديريكو غرسية لوركا | ت : محمد أبو العطا |
| ٥٩ – المحبرة | كارلوس مونييث | ت : السيد السيد سهيم |
| ٦٠ – التصميم والشكل | جوهانز ايتين | ت : صبرى محمد عبد الغنى |
| ٦١ – موسوعة علم الإنسان | شارلوت سيمور – سميث | مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى |
| ٦٢ – لذّة النّص | رولان بارت | ت : محمد خير البقاعى . |
| ٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٢ | رينيه ويليك | ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد |
| ٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة) | آلان وود | ت : رمسيس عوض . |
| ٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى | برتراند راسل | ت : رمسيس عوض . |
| ٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية | أنطونيو جالا | ت : عبد اللطيف عبد الحليم |
| ٦٧ – مختارات | فرناندو بيسوا | ت : المهدى أخريف |
| ٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى | فالنتين راسبوتين | ت : أشرف الصباغ |
| ٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين | عبد الرشيد إبراهيم | ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى |
| ٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية | أوخينيو تشانغ رودريجث | ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد |
| ٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى | داريو فو | ت : حسين محمود |

| | | |
|---|---|---|
| ٧٢ – السياسي العجوز | ت . س . إليوت | ت : فؤاد مجلي |
| ٧٣ – نقد استجابة القارئ | چين . ب . توميكنز | ت : حسن ناظم وعلي حاكم |
| ٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر | ل . ا . سيمينوڤا | ت : حسن بيومي |
| ٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية | أندريه موروا | ت : أحمد درويش |
| ٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي | مجموعة من الكتاب | ت : عبد المقصود عبد الكريم |
| ٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣ | رَينيه ويليك | ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد |
| ٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية | رونالد روبرتسون | ت : أحمد محمود ونورا أمين |
| ٧٩ – شعرية التأليف | بوريس أوسبنسكي | ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي |
| ٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع» | ألكسندر بوشكين | ت : مكارم الغمري |
| ٨١ – الجماعات المتخيلة | بندكت أندرسن | ت : محمد طارق الشرقاوي |
| ٨٢ – مسرح ميجيل | ميجيل دي أونامونو | ت : محمود السيد علي |
| ٨٣ – مختارات | غوتفريد بن | ت : خالد المعالي |
| ٨٤ – موسوعة الأدب والنقد | مجموعة من الكتاب | ت : عبد الحميد شيحة |
| ٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية) | صلاح زكي أقطاي | ت : عبد الرازق بركات |
| ٨٦ – طول الليل | جمال مير صادقي | ت : أحمد فتحي يوسف شتا |
| ٨٧ – نون والقلم | جلال آل أحمد | ت : ماجدة العناني |
| ٨٨ – الابتلاء بالتغرب | جلال آل أحمد | ت : إبراهيم الدسوقي شتا |
| ٨٩ – الطريق الثالث | أنتوني جيدنز | ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين |
| ٩٠ – وسم السيف (قصص) | نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية | ت : محمد إبراهيم مبروك |
| ٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق | باربر الاسوستكا | ت : محمد هناء عبد الفتاح |
| ٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر | كارلوس ميجيل | ت : نادية جمال الدين |
| ٩٣ – محدثات العولمة | مايك فيترستون وسكوت لاش | ت : عبد الوهاب علوب |
| ٩٤ – الحب الأول والصحبة | صمويل بيكيت | ت : فوزية العشماوي |
| ٩٥ – مختارات من المسرح الإسباني | أنطونيو بويرو باييخو | ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف |
| ٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة | قصص مختارة | ت : إدوار الخراط |
| ٩٧ – هوية فرنسا (المجلد الأول) | فرنان برودل | ت : بشير السباعي |
| ٩٨ – الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني | نماذج ومقالات | ت : أشرف الصباغ |
| ٩٩ – تاريخ السينما العالمية | ديڤيد روبنسون | ت : إبراهيم قنديل |
| ١٠٠ – مساءلة العولمة | بول هيرست وجراهام تومبسون | ت : إبراهيم فتحي |
| ١٠١ – النص الروائي (تقنيات ومناهج) | بيرنار فاليط | ت : رشيد بنحدو |
| ١٠٢ – السياسة والتسامح | عبد الكريم الخطيبي | ت : عز الدين الكتاني الإدريسي |
| ١٠٣ – قبر ابن عربي يليه آياء | عبد الوهاب المؤدب | ت : محمد بنيس |
| ١٠٤ – أوبرا ماهوجني | برتولت بريشت | ت : عبد الغفار مكاوي |
| ١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع | چيرارچينيت | ت : عبد العزيز شبيل |
| ١٠٦ – الأدب الأندلسي | د. ماريا خيسوس روبييرامتي | ت : أشرف علي دعدور |
| ١٠٧ – صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر | نخبـة | ت : محمد عبد الله الجعيدي |

| | | |
|---|---|---|
| ١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي | مجموعة من النقاد | ت : محمود علي مكي |
| ١٠٩ – حروب المياه | چون بولوك وعادل درويش | ت : هاشم أحمد محمد |
| ١١٠ – النساء في العالم النامي | حسنة بيجوم | ت : منى قطان |
| ١١١ – المرأة والجريمة | فرانسيس هيندسون | ت : ريهام حسين إبراهيم |
| ١١٢ – الاحتجاج الهادئ | أرلين علوي ماكليود | ت : إكرام يوسف |
| ١١٣ – راية التمرد | سادي پلانت | ت : أحمد حسان |
| ١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع | وول شوينكا | ت : نسيم مجلي |
| ١١٥ – غرفة تخص المرء وحده | فرچينيا وولف | ت : سمية رمضان |
| ١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق) | سينثيا نلسون | ت : نهاد أحمد سالم |
| ١١٧ – المرأة والجنوسة في الإسلام | ليلى أحمد | ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال |
| ١١٨ – النهضة النسائية في مصر | بث بارون | ت : ليس النقاش |
| ١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق | أميرة الأزهري سنبل | ت : بإشراف/ رؤوف عباس |
| ١٢٠ – الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط | ليلى أبو لغد | ت : نخبة من المترجمين |
| ١٢١ – الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية | فاطمة موسى | ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال |
| ١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان | جوزيف فوجت | ت : منيرة كروان |
| ١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية | نيقل الكسندر وفنادولينا | ت: أنور محمد إبراهيم |
| ١٢٤ – الفجر الكاذب | چون جراي | ت : أحمد فؤاد بلبع |
| ١٢٥ – التحليل الموسيقى | سيدريك ثورپ ديڤي | ت : سمحه الخولي |
| ١٢٦ – فعل القراءة | ڤولفانج إيسر | ت : عبد الوهاب علوب |
| ١٢٧ – إرهاب | صفاء فتحي | ت : بشير السباعي |
| ١٢٨ – الأدب المقارن | سوزان باسنيت | ت : أميرة حسن نويرة |
| ١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة | ماريا دولورس أسيس جاروته | ت : محمد أبو العطا وآخرون |
| ١٣٠ – الشرق يصعد ثانية | أندريه جوندر فرانك | ت : شوقي جلال |
| ١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي) | مجموعة من المؤلفين | ت : لويس بقطر |
| ١٣٢ – ثقافة العولمة | مايك فيذرستون | ت : عبد الوهاب علوب |
| ١٣٣ – الخوف من المرايا | طارق علي | ت : طلعت الشايب |
| ١٣٤ – تشريح حضارة | باري ج. كيمب | ت : أحمد محمود |
| ١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء) | ت. س. إليوت | ت : ماهر شفيق فريد |
| ١٣٦ – فلاحو الباشا | كينيث كونو | ت : سحر توفيق |
| ١٣٧ – مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية | جوزيف ماري مواريه | ت : كاميليا صبحي |
| ١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف | إيڤلينا تاروني | ت : وجيه سمعان عبد المسيح |
| ١٣٩ – پارسيڤال | ريشارد ڤاچنر | ت : مصطفى ماهر |
| ١٤٠ – حيث تلتقي الأنهار | هربرت ميسن | ت : أمل الجبوري |
| ١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية | مجموعة من المؤلفين | ت : نعيم عطية |
| ١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل | أ. م. فورستر | ت : حسن بيومي |
| ١٤٣ – قضايا التنظير في البحث الاجتماعي | ديريك لايدار | ت : عدلي السمري |
| ١٤٤ – صاحبة اللوكاندة | كارلو جولدوني | ت : سلامة محمد سليمان |

| | | |
|---|---|---|
| ١٤٥ – موت أرتيميو كروث | كارلوس فوينتس | ت : أحمد حسان |
| ١٤٦ – الورقة الحمراء | ميجيل دي ليبس | ت : على عبد الرؤوف البمبي |
| ١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة | تانكريد دورست | ت : عبد الغفار مكاوي |
| ١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية) | إنريكي أندرسون إمبرت | ت : على إبراهيم على منوفى |
| ١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس | عاطف فضول | ت : أسامة إسبر |
| ١٥٠ – التجربة الإغريقية | روبرت ج. ليتمان | ت: منيرة كروان |
| ١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١) | فرنان برودل | ت : بشير السباعي |
| ١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى | نخبة من الكُتاب | ت : محمد محمد الخطابي |
| ١٥٣ – غرام الفراعنة | فيولين فانويك | ت : فاطمة عبد الله محمود |
| ١٥٤ – مدرسة فرانكفورت | فيل سليتر | ت : خليل كلفت |
| ١٥٥ – الشعر الأمريكي المعاصر | نخبة من الشعراء | ت : أحمد مرسي |
| ١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى | جي أنبال وآلان وأوديت فيرمو | ت : مي التلمساني |
| ١٥٧ – خسرو وشيرين | النظامي الكنوجي | ت : عبد العزيز بقوش |
| ١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢) | فرنان برودل | ت : بشير السباعي |
| ١٥٩ – الإيديولوجية | ديفيد هوكس | ت : إبراهيم فتحي |
| ١٦٠ – آلة الطبيعة | بول إيرليش | ت : حسين بيومي |
| ١٦١ – من المسرح الإسباني | اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا | ت : زيدان عبد الحليم زيدان |
| ١٦٢ – تاريخ الكنيسة | يوحنا الأسيوى | ت : صلاح عبد العزيز محجوب |
| ١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١ | جوردون مارشال | ت بإشراف : محمد الجوهري |
| ١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور) | چان لاكوتير | ت : نبيل سعد |
| ١٦٥ – حكايات الثعلب | أ . ن أفانا سيفا | ت : سهير المصادفة |
| ١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل | يشعياهو ليفمان | ت : محمد محمود أبو غدير |
| ١٦٧ – في عالم طاغور | رابندرانات طاغور | ت : شكرى محمد عياد |
| ١٦٨ – دراسات في الأدب والثقافة | مجموعة من المؤلفين | ت : شكرى محمد عياد |
| ١٦٩ – إبداعات أدبية | مجموعة من المبدعين | ت : شكرى محمد عياد |
| ١٧٠ – الطريق | ميغيل دليبيس | ت : بسام ياسين رشيد |
| ١٧١ – وضع حد | فرانك بيجو | ت : هدى حسين |
| ١٧٢ – حجر الشمس | مختارات | ت : محمد محمد الخطابي |
| ١٧٣ – معنى الجمال | ولتر ت . ستيس | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء | ايليس كاشمور | ت : أحمد محمود |
| ١٧٥ – التليفزيون في الحياة اليومية | لورينزو فيلشس | ت : وجيه سمعان عبد المسيح |
| ١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية | توم تيتنبرج | ت : جلال البنا |
| ١٧٧ – أنطون تشيخوف | هنري ترويا | ت : حصة إبراهيم منيف |
| ١٧٨ – مختارات من الشعر اليوناني الحديث | نخبة من الشعراء | ت : محمد حمدى إبراهيم |
| ١٧٩ – حكايات أيسوب | أيسوب | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ١٨٠ – قصة جاويد | إسماعيل فصيح | ت : سليم عبدالأمير حمدان |
| ١٨١ – النقد الأدبي الأمريكي | فنسنت . ب . ليتش | ت : محمد يحيى |

| | | |
|---|---|---|
| ١٨٢ - العنف والنبوءة | و . ب . ييتس | ت : ياسين طه حافظ |
| ١٨٣ - چان كوكتو على شاشة السينما | رينيه چيلسون | ت : فتحى العشرى |
| ١٨٤ - القاهرة .. حالمة لا تنام | هانز إبندورفر | ت : دسوقى سعيد |
| ١٨٥ - أسفار العهد القديم | توماس تومسن | ت : عبد الوهاب علوب |
| ١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل | ميخائيل أنوود | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ١٨٧ - الأرضة | بُزُرْج علَوى | ت : علاء منصور |
| ١٨٨ - موت الأدب | ألفين كرنان | ت : بدر الديب |
| ١٨٩ - العمى والبصيرة | پول دى مان | ت : سعيد الغانمى |
| ١٩٠ - محاورات كونفوشيوس | كونفوشيوس | ت : محسن سيد فرجانى |
| ١٩١ - الكلام رأسمال | الحاج أبو بكر إمام | ت : مصطفى حجازى السيد |
| ١٩٢ - سياحت نامه إبراهيم بك جـ١ | زين العابدين المراغى | ت : محمود سلامة علاوى |
| ١٩٣ - عامل المنجم | بيتر أبراهامز | ت : محمد عبد الواحد محمد |
| ١٩٤ - مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى | مجموعة من النقاد | ت : ماهر شفيق فريد |
| ١٩٥ - شتاء ٨٤ | إسماعيل فصيح | ت : محمد علاء الدين منصور |
| ١٩٦ - المهلة الأخيرة | فالنتين راسبوتين | ت : أشرف الصباغ |
| ١٩٧ - الفاروق | شمس العلماء شبلى النعمانى | ت : جلال السعيد الحفناوى |
| ١٩٨ - الاتصال الجماهيرى | إدوين إمرى وآخرون | ت : إبراهيم سلامة إبراهيم |
| ١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية | يعقوب لانداوى | ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد |
| ٢٠٠ - ضحايا التنمية | جيرمى سيبروك | ت : فخرى لبيب |
| ٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة | جوزايا رويس | ت : أحمد الأنصارى |
| ٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤ | رينيه ويليك | ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد |
| ٢٠٣ - الشعر والشاعرية | ألطاف حسين حالى | ت : جلال السعيد الحفناوى |
| ٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم | زالمان شازار | ت : أحمد محمود هويدى |
| ٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات | لويجى لوقا كافاللى - سفورزا | ت : أحمد مستجير |
| ٢٠٦ - الهيولية تصنع علماً جديداً | جيمس جلايك | ت : على يوسف على |
| ٢٠٧ - ليل إفريقى | رامون خوتاسندير | ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف |
| ٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى | دان أوريان | ت : محمد أحمد صالح |
| ٢٠٩ - السرد والمسرح | مجموعة من المؤلفين | ت : أشرف الصباغ |
| ٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى | سنائى الغزنوى | ت : يوسف عبد الفتاح فرج |
| ٢١١ - فرديناند دوسوسير | جوناثان كلر | ت : محمود حمدى عبد الغنى |
| ٢١٢ - قصص الأمير مرزبان | مرزبان بن رستم بن شروين | ت : يوسف عبد الفتاح فرج |
| ٢١٣ - مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر | ريمون فلاور | ت : سيد أحمد على الناصرى |
| ٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع | أنتونى جيدنز | ت : محمد محمود محى الدين |
| ٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بك جـ٢ | زين العابدين المراغى | ت : محمود سلامة علاوى |
| ٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم | مجموعة من المؤلفين | ت : أشرف الصباغ |
| ٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان | صمويل بيكيت | ت : نادية البنهاوى |
| ٢١٨ - رايولا | خوليو كورتازان | ت : على إبراهيم على منوفى |

| | | |
|---|---|---|
| ٢١٩ – بقايا اليوم | كازو ايشجورو | ت : طلعت الشايب |
| ٢٢٠ – الهيولية فى الكون | بارى باركر | ت : على يوسف على |
| ٢٢١ – شعرية كفافى | جريجورى جوزدانيس | ت : رفعت سلام |
| ٢٢٢ – فرانز كافكا | رونالد جراى | ت : نسيم مجلى |
| ٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر | بول فيرابنر | ت : السيد محمد نفادى |
| ٢٢٤ – دمار يوغسلافيا | برانكا ماجاس | ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد |
| ٢٢٥ – حكاية غريق | جابرييل جارثيا ماركث | ت : السيد عبد الظاهر عبد الله |
| ٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى | ديفيد هربت لورانس | ت : طاهر محمد على البربرى |
| ٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر | موسى ماريديا ديف بوركى | ت : السيد عبد الظاهر عبد الله |
| ٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن | جانيت وولف | ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن |
| ٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد | نورمان كيمان | ت : أمير إبراهيم العمرى |
| ٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر | فرانسواز جاكوب | ت : مصطفى إبراهيم فهمى |
| ٢٣١ – الدرافيل | خايمى سالوم بيدال | ت : جمال أحمد عبد الرحمن |
| ٢٣٢ – مابعد المعلومات | توم ستينر | ت : مصطفى إبراهيم فهمى |
| ٢٣٣ – فكرة الاضمحلال | أرثر هيرمان | ت : طلعت الشايب |
| ٢٣٤ – الإسلام فى السودان | ج. سبنسر تريمنجهام | ت : فؤاد محمد عكود |
| ٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١ | جلال الدين الرومى | ت : إبراهيم الدسوقى شتا |
| ٢٣٦ – الولاية | ميشيل تود | ت : أحمد الطيب |
| ٢٣٧ – مصر أرض الوادى | روبين فيدين | ت : عنايات حسين طلعت |
| ٢٣٨ – العولمة والتحرير | الانكتاد | ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد |
| ٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى | جيلارافر – رابوخ | ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق |
| ٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار | كامى حافظ | ت : صلاح عبد العزيز محمود |
| ٢٤١ – فى انتظار البرابرة | ك. م كويتز | ت : ابتسام عبد الله سعيد |
| ٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض | وليام إمبسون | ت : صبرى محمد حسن عبد النبى |
| ٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١) | ليفى بروفنسال | ت : مجموعة من المترجمين |
| ٢٤٤ – الغليان | لاورا إسكيبيل | ت : نادية جمال الدين محمد |
| ٢٤٥ – نساء مقاتلات | إليزابيتا أديس | ت : توفيق على منصور |
| ٢٤٦ – قصص مختارة | جابرييل جرثيا ماركث | ت : على إبراهيم على منوفى |
| ٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر | وولتر أرمبرست | ت : محمد الشرقاوى |
| ٢٤٨ – حقول عدن الخضراء | أنطونيو جالا | ت : عبد اللطيف عبد الحليم |
| ٢٤٩ – لغة التمزق | دراجو شتامبوك | ت : رفعت سلام |
| ٢٥٠ – علم اجتماع العلوم | دومنيك فينك | ت : ماجدة أباظة |
| ٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢ | جوردون مارشال | ت بإشراف : محمد الجوهرى |
| ٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية | مارجو بدران | ت : على بدران |
| ٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية | ل. أ. سيمينوفا | ت : حسن بيومى |
| ٢٥٤ – الفلسفة | ديف روبنسون وجودى جروفز | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٢٥٥ – أفلاطون | ديف روبنسون وجودى جروفز | ت : إمام عبد الفتاح إمام |

| | | |
|---|---|---|
| ٢٥٦ – ديكارت | ديف روبنسون وجودى جروفز | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة | وليم كلى رايت | ت : محمود سيد أحمد |
| ٢٥٨ – الفجر | سير أنجوس فريزر | ت : عُبادة كُحيلة |
| ٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى | نخبة | ت : فاروچان كازانچيان |
| ٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٣ | جوردون مارشال | ت بإشراف : محمد الجوهرى |
| ٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود | زكى نجيب محمود | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٢٦٢ – مدينة المعجزات | إدوارد مندوثا | ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف |
| ٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن | چون جريبن | ت : على يوسف على |
| ٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة | هوراس / شلى | ت : لويس عوض |
| ٢٦٥ – روايات مترجمة | أوسكار وايلد وصموئيل جونسون | ت : لويس عوض |
| ٢٦٦ – مدير المدرسة | جلال آل أحمد | ت : عادل عبد المنعم سويلم |
| ٢٦٧ – فن الرواية | ميلان كونديرا | ت : بدر الدين عرودكى |
| ٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢ | جلال الدين الرومى | ت : إبراهيم الدسوقى شتا |
| ٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١ | وليم چيفور بالجريف | ت : صبرى محمد حسن |
| ٢٧٠ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢ | وليم چيفور بالجريف | ت : صبرى محمد حسن |
| ٢٧١ – الحضارة الغربية | توماس سى . باترسون | ت : شوقى جلال |
| ٢٧٢ – الأديرة الأثرية فى مصر | س. س. والترز | ت : إبراهيم سلامة |
| ٢٧٣ – الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط | جوان آر. لوك | ت : عنان الشهاوى |
| ٢٧٤ – السيدة بربارا | رومولو جلاجوس | ت : محمود على مكى |
| ٢٧٥ – ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً | أقلام مختلفة | ت : ماهر شفيق فريد |
| ٢٧٦ – فنون السينما | فرانك جوتيران | ت : عبد القادر التلمسانى |
| ٢٧٧ – الجينات : الصراع من أجل الحياة | بريان فورد | ت : أحمد فوزى |
| ٢٧٨ – البدايات | إسحق عظيموف | ت : ظريف عبد الله |
| ٢٧٩ – الحرب الباردة الثقافية | فرانسيس ستونر سوندرز | ت : طلعت الشايب |
| ٢٨٠ – من الأدب الهندى الحديث والمعاصر | بريم شند وآخرون | ت : سمير عبد الحميد |
| ٢٨١ – الفردوس الأعلى | مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى | ت : جلال الحفناوى |
| ٢٨٢ – طبيعة العلم غير الطبيعية | لويس ولبيرت | ت : سمير حنا صادق |
| ٢٨٣ – السهل يحترق | خوان روافو | ت : على البمبى |
| ٢٨٤ – هرقل مجنوناً | يوريبيدس | ت : أحمد عتمان |
| ٢٨٥ – رحلة الخواجة حسن نظامى | حسن نظامى | ت : سمير عبد الحميد |
| ٢٨٦ – سياحت نامه إبراهيم بك ج٣ | زين العابدين المراغى | ت : محمود سلامة علاوى |
| ٢٨٧ – الثقافة والعولمة والنظام العالمى | أنتونى كينج | ت : محمد يحيى وآخرون |
| ٢٨٨ – الفن الروائى | ديفيد لودج | ت : ماهر البطوطى |
| ٢٨٩ – ديوان منجوهرى الدامغانى | أبو نجم أحمد بن قوص | ت : محمد نور الدين |
| ٢٩٠ – علم اللغة والترجمة | جورج مونان | ت : أحمد زكريا إبراهيم |
| ٢٩١ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١ | فرانشسكو رويس رامون | ت : السيد عبد الظاهر |
| ٢٩٢ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢ | فرانشسكو رويس رامون | ت : السيد عبد الظاهر |

| | | |
|---|---|---|
| ٢٩٣ – مقدمة للأدب العربى | روجر آلان | ت : نخبة من المترجمين |
| ٢٩٤ – فن الشعر | بوالو | ت : رجاء ياقوت صالح |
| ٢٩٥ – سلطان الأسطورة | جوزيف كامبل | ت : بدر الدين حب الله الديب |
| ٢٩٦ – مكبث | وليم شكسبير | ت : محمد مصطفى بدوى |
| ٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسريانية | ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى | ت : ماجدة محمد أنور |
| ٢٩٨ – مأساة العبيد | أبو بكر تفاوابليوه | ت : مصطفى حجازى السيد |
| ٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية | جين ل. ماركس | ت : هاشم أحمد فؤاد |
| ٣٠٠ – أسطورة بروميثيوس مج١ | لويس عوض | ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين |
| ٣٠١ – أسطورة بروميثيوس مج٢ | لويس عوض | ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى |
| ٣٠٢ – فنجنشتين | جون هيتون وجودى جروفز | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٣٠٣ – بـوذا | جين هوب وبورن فان لون | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٣٠٤ – ماركس | ريـوس | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٣٠٥ – الجلد | كروزيو مالابارته | ت : صلاح عبد الصبور |
| ٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطى للتاريخ | چان – فرانسوا ليوتار | ت : نبيل سعد |
| ٣٠٧ – الشعور | ديفيد بابينو | ت : محمود محمد أحمد |
| ٣٠٨ – علم الوراثة | ستيف جونز | ت : ممدوح عبد المنعم أحمد |
| ٣٠٩ – الذهن والمخ | انجوس چيلاتى | ت : جمال الجزيرى |
| ٣١٠ – يونج | ناجى هيد | ت : محيى الدين محمد حسن |
| ٣١١ – مقال فى المنهج الفلسفى | كولنجوود | ت : فاطمة إسماعيل |
| ٣١٢ – روح الشعب الأسود | وليم دى بويز | ت : أسعد حليم |
| ٣١٣ – أمثال فلسطينية | خايير بيان | ت : عبد الله الجعيدى |
| ٣١٤ – الفن كعدم | جينس مينيك | ت : هويدا السباعى |
| ٣١٥ – جرامشى فى العالم العربى | ميشيل بروندينو | ت :كاميليا صبحى |
| ٣١٦ – محاكمة سقراط | أ. ف. ستون | ت : نسيم مجلى |
| ٣١٧ – بلا غد | شير لايموفا – زنيكين | ت : أشرف الصباغ |
| ٣١٨ – الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة | نخبة | ت : أشرف الصباغ |
| ٣١٩ – صور دريدا | جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس | ت : حسام نايل |
| ٣٢٠ – لمعة السراج لحضرة التاج | مؤلف مجهول | ت : محمد علاء الدين منصور |
| ٣٢١ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج١) | ليفى برو فنسال | ت : نخبة من المترجمين |
| ٣٢٢ – وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى | دبليو. إيوجين كليتباور | ت : خالد مفلح حمزة |
| ٣٢٣ – فن الساتورا | تراث يونانى قديم | ت : هانم سليمان |
| ٣٢٤ – اللعب بالنار | أشرف أسدى | ت : محمود سلامة علاوى |
| ٣٢٥ – عالم الآثار | فيليب بوسان | ت : كرستين يوسف |
| ٣٢٦ – المعرفة والمصلحة | جورجين هابرماس | ت : حسن صقر |
| ٣٢٧ – مختارات شعرية مترجمة | نخبة | ت : توفيق على منصور |
| ٣٢٨ – يوسف وزليخة | نور الدين عبد الرحمن بن أحمد | ت : عبد العزيز بقوش |
| ٣٢٩ – رسائل عيد الميلاد | تد هيوز | ت : محمد عيد إبراهيم |

| | | |
|---|---|---|
| ٣٣٠ – كل شيء عن التمثيل الصامت | مارفن شبرد | ت : سامي صلاح |
| ٣٣١ – عندما جاء السردين | ستيفن جراي | ت : سامية دياب |
| ٣٣٢ – رحلة شهر العسل وقصص أخرى | نخبة | ت : علي إبراهيم علي منوفي |
| ٣٣٣ – الإسلام في بريطانيا | نبيل مطر | ت : بكر عباس |
| ٣٣٤ – لقطات من المستقبل | آرثر س. كلارك | ت : مصطفى فهمي |
| ٣٣٥ – عصر الشك | ناتالي ساروت | ت : فتحي العشري |
| ٣٣٦ – متون الأهرام | نصوص قديمة | ت : حسن صابر |
| ٣٣٧ – فلسفة الولاء | جوزايا رويس | ت : أحمد الأنصاري |
| ٣٣٨ – نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند | نخبة | ت : جلال السعيد الحفناوي |
| ٣٣٩ – تاريخ الأدب في إيران جـ٣ | علي أصغر حكمت | ت : محمد علاء الدين منصور |
| ٣٤٠ – اضطراب في الشرق الأوسط | بيرش بيربيروجلو | ت : فخري لبيب |
| ٣٤١ – قصائد من رلكه | راينر ماريا رلكه | ت : حسن حلمي |
| ٣٤٢ – سلامان وأبسال | نور الدين عبد الرحمن بن أحمد | ت : عبد العزيز بقوش |
| ٣٤٣ – العالم البرجوازي الزائل | نادين جورديمر | ت : سمير عبد ربه |
| ٣٤٤ – الموت في الشمس | بيتر بلانجوه | ت : سمير عبد ربه |
| ٣٤٥ – الركض خلف الزمن | بونه ندائي | ت : يوسف عبد الفتاح فرج |
| ٣٤٦ – سحر مصر | رشاد رشدي | ت : جمال الجزيري |
| ٣٤٧ – الصبية الطائشون | جان كوكتو | ت : بكر الحلو |
| ٣٤٨ – المتصوفة الأولون في الأدب التركي جـ١ | محمد فؤاد كوبريلي | ت : عبد الله أحمد إبراهيم |
| ٣٤٩ – دليل القارئ إلى الثقافة الجادة | آرثر والدرون وآخرين | ت : أحمد عمر شاهين |
| ٣٥٠ – بانوراما الحياة السياحية | أقلام مختلفة | ت : عطية شحاتة |
| ٣٥١ – مبادئ المنطق | جوزايا رويس | ت : أحمد الأنصاري |
| ٣٥٢ – قصائد من كفافيس | قسطنطين كفافيس | ت : نعيم عطية |
| ٣٥٣ – الفن الإسلامي في الأندلس (هندسية) | باسيليو بابون مالدونالد | ت : علي إبراهيم علي منوفي |
| ٣٥٤ – الفن الإسلامي في الأندلس (نباتية) | باسيليو بابون مالدونالد | ت : علي إبراهيم علي منوفي |
| ٣٥٥ – التيارات السياسية في إيران | حجت مرتضى | ت : محمود سلامة علاوي |
| ٣٥٦ – الميراث المر | بول سالم | ت : بدر الرفاعي |
| ٣٥٧ – متون هيرميس | نصوص قديمة | ت : عمر الفاروق عمر |
| ٣٥٨ – أمثال الهوسا العامية | نخبة | ت : مصطفى حجازي السيد |
| ٣٥٩ – محاورات بارمنيدس | أفلاطون | ت : حبيب الشاروني |
| ٣٦٠ – أنثروبولوجيا اللغة | أندريه جاكوب ونويلا باركان | ت : ليلى الشربيني |
| ٣٦١ – التصحر : التهديد والمجابهة | آلان جرينجر | ت : عاطف معتمد وآمال شاور |
| ٣٦٢ – تلميذ بابنبرج | هاينرش شبورال | ت : سيد أحمد فتح الله |
| ٣٦٣ – حركات التحرر الأفريقي | ريتشارد جيبسون | ت : صبري محمد حسن |
| ٣٦٤ – حداثة شكسبير | إسماعيل سراج الدين | ت : نجلاء أبو عجاج |
| ٣٦٥ – سأم باريس | شارل بودلير | ت : محمد أحمد حمد |
| ٣٦٦ – نساء يركضن مع الذئاب | كلاريسا بنكولا | ت : مصطفى محمود محمد |
| ٣٦٧ – القلم الجريء | نخبة | ت : البرّاق عبد الهادي رضا |

| | | |
|---|---|---|
| ٣٦٨ – المصطلح السردى | جيرالد برنس | ت : عابد خزندار |
| ٣٦٩ – المرأة فى أدب نجيب محفوظ | فوزية العشماوى | ت : فوزية العشماوى |
| ٣٧٠ – الفن والحياة فى مصر الفرعونية | كليرلا لويت | ت : فاطمة عبد الله محمود |
| ٣٧١ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ٢ | محمد فؤاد كوبريلى | ت : عبد الله أحمد إبراهيم |
| ٣٧٢ – عاش الشباب | وانغ مينغ | ت : وحيد السعيد عبد الحميد |
| ٣٧٣ – كيف تعد رسالة دكتوراه | أمبرتو إيكو | ت : على إبراهيم على منوفى |
| ٣٧٤ – اليوم السادس | أندريه شديد | ت : حمادة إبراهيم |
| ٣٧٥ – الخلود | ميلان كونديرا | ت : خالد أبو اليزيد |
| ٣٧٦ – الغضب وأحلام السنين | نخبة | ت : إدوار الخراط |
| ٣٧٧ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٤ | على أصغر حكمت | ت : محمد علاء الدين منصور |
| ٣٧٨ – المسافر | محمد إقبال | ت : يوسف عبد الفتاح فرج |
| ٣٧٩ – ملك فى الحديقة | سنيل باث | ت : جمال عبد الرحمن |
| ٣٨٠ – حديث عن الخسارة | جونتر جراس | ت : شيرين عبد السلام |
| ٣٨١ – أساسيات اللغة | ر. ل. تراسك | ت : رانيا إبراهيم يوسف |
| ٣٨٢ – تاريخ طبرستان | بهاء الدين محمد إسفنديار | ت : أحمد محمد نادى |
| ٣٨٣ – هدية الحجاز | محمد إقبال | ت : سمير عبد الحميد إبراهيم |
| ٣٨٤ – القصص التى يحكيها الأطفال | سوزان إنجيل | ت : إيزابيل كمال |
| ٣٨٥ – مشترى العشق | محمد على بهزادراد | ت : يوسف عبد الفتاح فرج |
| ٣٨٦ – دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى | جانيت تود | ت : ريهام حسين إبراهيم |
| ٣٨٧ – أغنيات وسوناتات | چون دن | ت : بهاء چاهين |
| ٣٨٨ – مواعظ سعدى الشيرازى | سعدى الشيرازى | ت : محمد علاء الدين منصور |
| ٣٨٩ – من الأدب الباكستانى المعاصر | نخبة | ت : سمير عبد الحميد إبراهيم |
| ٣٩٠ – الأرشيفات والمدن الكبرى | نخبة | ت : عثمان مصطفى عثمان |
| ٣٩١ – الحافلة الليلكية | مايف بينشى | ت : منى الدروبى |
| ٣٩٢ – مقامات ورسائل أندلسية | فرناندو دى لاجرانخا | ت : عبد اللطيف عبد الحليم |
| ٣٩٣ – فى قلب الشرق | ندوة لويس ماسينيون | ت : زينب محمود الخضيرى |
| ٣٩٤ – القوى الأربع الأساسية فى الكون | بول ديفيز | ت : هاشم أحمد محمد |
| ٣٩٥ – آلام سياوش | إسماعيل فصيح | ت : سليم حمدان |
| ٣٩٦ – السافاك | تقى نجارى راد | ت :محمود سلامة علاوى |
| ٣٩٧ – نيتشه | لورانس جين | ت :إمام عبد الفتاح إمام |
| ٣٩٨ – سارتر | فيليب تودى | ت :إمام عبد الفتاح إمام |
| ٣٩٩ – كامى | ديفيد ميروفتس | ت :إمام عبد الفتاح إمام |
| ٤٠٠ – مومو | مشيائيل إنده | ت : باهر الجوهرى |
| ٤٠١ – الرياضيات | زيادون ساردر | ت : ممدوح عبد المنعم |
| ٤٠٢ – هوكنج | ج . ب . ماك ايفوى | ت : ممدوح عبد المنعم |
| ٤٠٣ – ربة المطر والملابس تصنع الناس | توبور شتورم | ت : عماد حسن بكر |
| ٤٠٤ – تعويذة الحسى | ديفيد إبرام | ت : ظبية خميس |
| ٤٠٥ – إيزابيل | أندريه جيد | ت : حمادة إبراهيم |
| ٤٠٦ – المستعربون الإسبان فى القرن ١٩ | مانويلا مانتاناريس | ت : جمال أحمد عبد الرحمن |
| ٤٠٧ – الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه | أقلام مختلفة | ت : طلعت شاهين |
| ٤٠٨ – معجم تاريخ مصر | جوان فوتشركنج | ت : عنان الشهاوى |
| ٤٠٩ – انتصار السعادة | برتراند راسل | ت : إلهامى عمارة |

| | | |
|---|---|---|
| ٤١٠- خلاصة القرن | كارل بوبر | ت : الزواوى بغورة |
| ٤١١ – همس من الماضى | جينيفر أكرمان | ت : أحمد مستجير |
| ٤١٢ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج٢) | ليفى بروفنسال | ت : نخبة |
| ٤١٣ – أغنيات المنفى | ناظم حكمت | ت : محمد البخارى |
| ٤١٤ – الجمهورية العالمية للآداب | باسكال كازانوفا | ت : أمل الصبان |
| ٤١٥ – صورة كوكب | فريدريش دورنيمات | ت : أحمد كامل عبد الرحيم |
| ٤١٦ – مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر | أ. أ. رتشاردز | ت : مصطفى بدوى |
| ٤١٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٥ | رينيه ويليك | ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد |
| ٤١٨ – سيامات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية | جين هاثواى | ت : عبد الرحمن الشيخ |
| ٤١٩ – العصر الذهبى للإسكندرية | جون مارلو | ت : نسيم مجلى |
| ٤٢٠ – مكرو ميجاس | فولتير | ت : الطيب بن رجب |
| ٤٢١ – الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى | روى متحدة | ت : أشرف محمد كيلانى |
| ٤٢٢ – رحلة لاستكشاف أفريقيا جـ١ | نخبة | ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم |
| ٤٢٣ – إسراءات الرجل الطيف | نخبة | ت : وحيد النقاش |
| ٤٢٤ – لوائح الحق ولوامع العشق | نور الدين عبد الرحمن الجامى | ت : محمد علاء الدين منصور |
| ٤٢٥ – من طاووس حتى فرح | محمود طلوعى | ت : محمود سلامة علاوى |
| ٤٢٦ – الخفافيش وقصص أخرى من أفغانستان | نخبة | ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب |
| ٤٢٧ – بانديراس الطاغية | باى إنكلان | ت : ثريا شلبى |
| ٤٢٨ – الخزانة الخفية | محمد هوتك | ت : محمد أمان صافى |
| ٤٢٩ – هيجل | ليود سبنسر وأندرزجى كروز | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٤٣٠ – كانط | كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٤٣١ – فوكو | كريس هوروكس وزوران جفتيك | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٤٣٢ – ماكيافللى | باتريك كيرى وأوسكار زاريت | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٤٣٣ – جويس | ديفيد نوريس وكارل فلنت | ت : حمدى الجابرى |
| ٤٣٤ – الرومانسية | دونكان هيث وجودى بورهام | ت : عصام حجازى |
| ٤٣٥ – توجهات ما بعد الحداثة | نيكولاس زربرج | ت : ناجى رشوان |
| ٤٣٦ – تاريخ الفلسفة (مج١) | فردريك كوبلستون | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٤٣٧ – رحالة هندى فى بلاد الشرق | شبلى النعمانى | ت : جلال السعيد الحفناوى |
| ٤٣٨ – بطلات وضحايا | إيمان ضياء الدين بيبرس | ت : عايدة سيف الدولة |
| ٤٣٩ – موت المرابى | صدر الدين عينى | ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب |
| ٤٤٠ – قواعد اللهجات العربية | كرستن بروستاد | ت : محمد الشرقاوى |
| ٤٤١ – رب الأشياء الصغيرة | أرونداتى روى | ت : فخرى لبيب |
| ٤٤٢ – حتشبسوت (المرأة الفرعونية) | فوزية أسعد | ت : ماهر جويجاتى |
| ٤٤٣ – اللغة العربية | كيس فرستيغ | ت : محمد الشرقاوى |
| ٤٤٤ – أمريكا اللاتينية : الثقافات القديمة | لاوريت سيجورنه | ت : صالح علمانى |
| ٤٤٥ – حول وزن الشعر | پرويز ناتل خانلرى | ت : محمد محمد يونس |
| ٤٤٦ – التحالف الأسود | ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير | ت : أحمد محمود |

| | | |
|---|---|---|
| ٤٤٧ – نظرية الكم | ج. پ. ماك ايفوى | ت : ممدوح عبد المنعم |
| ٤٤٨ – علم نفس التطور | ديلان ايفانز – أوسكار زاريت | ت : ممدوح عبد المنعم |
| ٤٤٩ – الحركة النسائية | مجموعة | ت : جمال الجزيرى |
| ٤٥٠ – ما بعد الحركة النسائية | صوفيا فوكا – ريبيكارايت | ت : جمال الجزيرى |
| ٤٥١ – الفلسفة الشرقية | ريتشارد أوزبورن / بورن ڤان لون | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٤٥٢ – لينين والثورة الروسية | ريتشارد إبجنانزى / أوسكار زاريت | ت : محى الدين مزيد |
| ٤٥٣ – القاهرة : إقامة مدينة حديثة | جان لوك أرنو | ت : حليم طوسون وفؤاد الدهان |
| ٤٥٤ – خمسون علمًا من السينما الفرنسية | رينيه بريدال | ت : سوزان خليل |
| ٤٥٥ – تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥) | فردريك كوبلستون | ت : محمود سيد أحمد |
| ٤٥٦ – لا تنسنى | مريم جعفرى | ت : هويدا عزت محمد |
| ٤٥٧ – النساء في الفكر السياسى الغربى | سوزان مولر اوكين | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٤٥٨ – الموريسكيون الأندلسيون | خوليو كارو باروخا | ت : جمال عبد الرحمن |
| ٤٥٩ – نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية | توم تيتنبرج | ت : جلال البنا |
| ٤٦٠ – الفاشية والنازية | ستوارت هود – ليتزا جانستز | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٤٦١ – لكان | داريان ليدر – جودى جروفز | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٤٦٢ – طه حسين من الأزهر إلى السوربون | عبد الرشيد الصادق محمودى | ت : عبد الرشيد الصادق محمودى |
| ٤٦٣ – الدولة المارقة | ويليام بلوم | ت : كمال السيد |
| ٤٦٤ – ديمقراطية القلة | ميكائيل بارنتى | ت : حصة منيف |
| ٤٦٥ – قصص اليهود | لويس جنزبرج | ت : جمال الرفاعى |
| ٤٦٦ – حكايات حب وبطولات فرعونية | فيولين فانويك | ت : فاطمة محمود |
| ٤٦٧ – التفكير السياسى | ستيفين ديلو | ت : ربيع وهبة |
| ٤٦٨ – روح الفلسفة الحديثة | جوزايا رويس | ت : أحمد الأنصارى |
| ٤٦٩ – جلال الملوك | نصوص حبشية قديمة | ت : مجدى عبد الرازق |
| ٤٧٠ – الأراضى والجودة البيئية | نخبة | ت : محمد السيد النتة |
| ٤٧١ – رحلة لاستكشاف أفريقيا ج٢ | نخبة | ت : عبد الله الرازق إبراهيم |
| ٤٧٢ – دون كيخوتى (القسم الأول) | ميجيل دى ثربانتس سابيدرا | ت : سليمان العطار |
| ٤٧٣ – دون كيخوتى (القسم الثانى) | ميجيل دى ثربانتس سابيدرا | ت : سليمان العطار |
| ٤٧٤ – الأدب والنسوية | بام موريس | ت : سهام عبد السلام |
| ٤٧٥ – صوت مصر : أم كلثوم | فرجينيا دانيلسون | ت : عادل هلال عنانى |
| ٤٧٦ – أرض الحبايب بعيدة : بيرم التونسى | ماريلين بوث | ت : سحر توفيق |
| ٤٧٧ – تاريخ الصين | هيلدا هوخام | ت : أشرف كيلانى |
| ٤٧٨ – الصين والولايات المتحدة | ليو شيه تشنج ولى شى دونج | ت : عبد العزيز حمدى |
| ٤٧٩ – المقهى (مسرحية صينية) | لاوشه | ت : عبد العزيز حمدى |
| ٤٨٠ – تساى ون جى (مسرحية صينية) | كو مو روا | ت : عبد العزيز حمدى |
| ٤٨١ – عباءة النبى | روى متحدة | ت : رضوان السيد |
| ٤٨٢ – موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية | روبير جاك تيبو | ت : فاطمة محمود |
| ٤٨٣ – النسوية وما بعد النسوية | سارة جامبل | ت : أحمد الشامى |
| ٤٨٤ – جمالية التلقى | هانسن روبيرت ياوس | ت : رشيد بنحدو |

| | | |
|---|---|---|
| ٤٨٥ – التوبة (رواية) | نذير أحمد الدهلوى | ت : سمير عبد الحميد إبراهيم |
| ٤٨٦ – الذاكرة الحضارية | يان أسمن | ت : عبد الحليم عبد الغنى رجب |
| ٤٨٧ – الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية | رفيع الدين المراد آبادى | ت : سمير عبد الحميد إبراهيم |
| ٤٨٨ – الحب الذى كان وقصائد أخرى | نخبة | ت : سمير عبد الحميد إبراهيم |
| ٤٨٩ – هُسّرل : الفلسفة علماً دقيقاً | هُسّرل | ت : محمود رجب |
| ٤٩٠ – أسمار البيغاء | محمد قدرى | ت : عبد الوهاب علوب |
| ٤٩١ – نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى | نخبة | ت : سمير عبد ربه |
| ٤٩٢ – محمد على مؤسس مصر الحديثة | جى فارجيت | ت : محمد رفعت عواد |
| ٤٩٣ – خطابات إلى طالب الصوتيات | هارولد بالمر | ت : محمد صالح الضالع |
| ٤٩٤ – كتاب الموتى (الخروج فى النهار) | نصوص مصرية قديمة | ت : شريف الصيفى |
| ٤٩٥ – اللوبى | إدوارد تيفان | ت : حسن عبد ربه المصرى |
| ٤٩٦ – الحكم والسياسة فى أفريقيا جـ١ | إكوادو بانولى | ت : مجموعة من المترجمين |
| ٤٩٧ – العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط | نادية العلىّ | ت : مصطفى رياض |
| ٤٩٨ – النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث | جوديث تاكر ومارجريت مريوذر | ت : أحمد على بدوى |
| ٤٩٩ – تقاطعات : والأمة والمجتمع والجنس | نخبة | ت : فيصل بن خضراء |
| ٥٠٠ – فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية) | تيتز رووكى | ت : طلعت الشايب |
| ٥٠١ – تاريخ النساء فى الغرب | أرثر جولد هامر | ت : سحر فراج |
| ٥٠٢ – أصوات بديلة | هدى الصدّة | ت : هالة كمال |
| ٥٠٣ – مختارات من الشعر الفارسى الحديث | نخبة | ت : محمد نور الدين عبد المنعم |
| ٥٠٤ – كتابات أساسية ج١ | مارتن هايدجر | ت : إسماعيل المصدق |
| ٥٠٥ – كتابات أساسية ج٢ | مارتن هايدجر | ت : إسماعيل المصدق |
| ٥٠٦ – ربما كان قديساً | آن تيلر | ت : عبد الحميد فهمى الجمال |
| ٥٠٧ – سيدة الماضى الجميل | بيتر شيفر | ت : شوقى فهيم |
| ٥٠٨ – المولوية بعد جلال الدين الرومى | عبد الباقى جلبنارلى | ت : عبد الله أحمد إبراهيم |
| ٥٠٩ – الفقر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك | آدم صبرة | ت : قاسم عبده قاسم |
| ٥١٠ – الأرملة الماكرة | كارلو جولدونى | ت : عبد الرازق عيد |
| ٥١١ – كوكب مرقّع | آن تيلر | ت : عبد الحميد فهمى الجمال |
| ٥١٢ – كتابة النقد السينمائى | تيموثى كوريجان | ت : جمال عبد الناصر |
| ٥١٣ – العلم الجسور | تيد أنتون | ت : مصطفى إبراهيم فهمى |
| ٥١٤ – مدخل إلى النظرية الأدبية | چونثان كولر | ت : مصطفى بيومى عبد السلام |
| ٥١٥ – من التقليد إلى ما بعد الحداثة | فدوى مالطى دوجلاس | ت : فدوى مالطى دوجلاس |
| ٥١٦ – إرادة الإنسان فى شفاء الإدمان | أرنولد واشنطون – ودونا بوندى | ت : صبرى محمد حسن |
| ٥١٧ – نقش على الماء وقصص أخرى | نخبة | ت : سمير عبد الحميد إبراهيم |
| ٥١٨ – استكشاف الأرض والكون | إسحق عظيموف | ت : هاشم أحمد محمد |
| ٥١٩ – محاضرات فى المثالية الحديثة | جوزايا رويس | ت : أحمد الأنصارى |
| ٥٢٠ – الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع | أحمد يوسف | ت : أمل الصبان |
| ٥٢١ – قاموس تراجم مصر الحديثة | أرثر جولد سميث | ت : عبد الوهاب بكر |

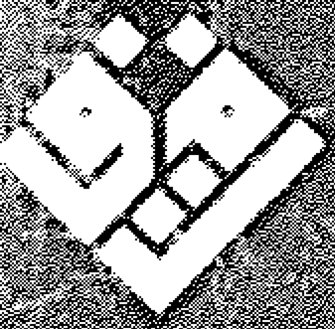
| | | |
|---|---|---|
| ٥٢٢ – إسبانيا فى تاريخها | أميركو كاسترو | ت : على إبراهيم منوفى |
| ٥٢٣ – الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن | باسيليو بابون مالدونادو | ت : على إبراهيم منوفى |
| ٥٢٤ – الملك لير | وليم شكسبير | ت : محمد مصطفى بدوى |
| ٥٢٥ – موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى | دنيس جونسون رزيفز | ت : نادية رفعت |
| ٥٢٦ – علم السياسة البيئية | ستيفن كرول ووليم رانكين | ت : محيى الدين مزيد |
| ٥٢٧ – كافكا | ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب | ت : جمال الجزيرى |
| ٥٢٨ – تروتسكى والماركسية | طارق على وفل إيفانز | ت : جمال الجزيرى |
| ٥٢٩ – بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى | محمد إقبال | ت : حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى |
| ٥٣٠ – مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية | رينيه جينو | ت : عمر الفاروق عمر |
| ٥٣١ – ما الذى حَدَثَ فى حَدَثِ ١١ سبتمبر؟ | چاك دريدا | ت : صفاء فتحى |
| ٥٣٢ – المغامر والمستشرق | هنرى لورنس | ت : بشير السباعى |
| ٥٣٣ – تعلُّم اللغة الثانية | سوزان جاس | ت : محمد الشرقاوى |
| ٥٣٤ – الإسلاميون الجزائريون | سيڤرين لابا | ت : حمادة إبراهيم |
| ٥٣٥ – مخزن الأسرار | نظامى الكنجوى | ت : عبد العزيز بقوش |
| ٥٣٦ – الثقافات وقيم التقدم | صمويل هنتنجتون | ت : شوقى جلال |
| ٥٣٧ – الحب والحرية | نخبة | ت : عبد الغفار مكاوى |
| ٥٣٨ – النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى | كيت دانيلر | ت : محمد الحديدى |
| ٥٣٩ – خمس مسرحيات قصيرة | كاريل تشرشل | ت : محسن مصيلحى |
| ٥٤٠ – توجهات بريطانية – شرقية | السير رونالد ستورس | ت : رؤوف عباس |
| ٥٤١ – هى تتخيل وهلاوس أخرى | خوان خوسيه مياس | ت : مروة رزق |
| ٥٤٢ – قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث | نخبة | ت : نعيم عطية |
| ٥٤٣ – السياسة الأمريكية | باتريك بروجان وكريس جرات | ت : وفاء عبد القادر |
| ٥٤٤ – ميلانى كلاين | نخبة | ت : حمدى الجابرى |
| ٥٤٥ – ياله من سباق محموم | فرانسيس كريك | ت : عزت عامر |
| ٥٤٦ – ريموس | ت.ب. وايزمان | ت : توفيق على منصور |
| ٥٤٧ – بارت | فيليب ثودى وآن كورس | ت : جمال الجزيرى |
| ٥٤٨ – علم الاجتماع | ريتشارد أوزبرن وبورن ڤان لون | ت : حمدى الجابرى |
| ٥٤٩ – علم العلامات | بول كوبلى وليتاجانز | ت : جمال الجزيرى |
| ٥٥٠ – شكسبير | نيك جروم وبيرو | ت : حمدى الجابرى |
| ٥٥١ – الموسيقى والعولمة | سايمون ماندى | ت : سمحه الخولى |
| ٥٥٢ – قصص مثالية | ميجيل دى ثربانتس | ت : على عبد الرءوف البمبى |
| ٥٥٣ – مدخل الشعر الفرنسى الحديث والمعاصر | دانيال لوفرس | ت : رجاء ياقوت |
| ٥٥٤ – مصر فى عهد محمد على | عفاف لطفى السيد مارسوه | ت : عبد السميع عمر زين الدين |
| ٥٥٥ – الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين | أناتولى أوتكين | ت : أنور محمد إبراهيم ومحمد نصر الدين الجبالى |
| ٥٥٦ – چان بودريار | كريس هوروكس وزوران جيفتك | ت : حمدى الجابرى |
| ٥٥٧ – الماركيز دى ساد | ستوارت هود وجراهام كرولى | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٥٥٨ – الدراسات الثقافية | زيودين ساردار وبورين ڤان لون | ت : وفاء عبد القادر |
| ٥٥٩ – الماس الزائف | تشا تشاجى | ت : عبد الحى أحمد سالم |

| | | |
|---|---|---|
| ٥٦٠ – صلصلة الجرس | نخبة | ت : جلال السعيد الحفناوى |
| ٥٦١ – جناح جبريل | محمد إقبال | ت : جلال السعيد الحفناوى |
| ٥٦٢ – بلايين وبلايين | كارل ساجان | ت : عزت عامر |
| ٥٦٣ – ورود الخريف | خاثينتو بينابينتى | ت : صبرى محمدى التهامى |
| ٥٦٤ – عُش الغريب | خاثينتو بينابينتى | ت : صبرى محمدى التهامى |
| ٥٦٥ – الشرق الأوسط المعاصر | ديبورا . ج. جيرنر | ت : أحمد عبد الحميد أحمد |
| ٥٦٦ – تاريخ أوربا فى العصور الوسطى | موريس بيشوب | ت : على السيد على |
| ٥٦٧ – الوطن المغتصب | مايكل رايس | ت : إبراهيم سلامة إبراهيم |
| ٥٦٨ – الأصولى فى الرواية | عبد السلام حيدر | ت : عبد السلام حيدر |
| ٥٦٨ – موقع الثقافة | هومى . ك . بابا | ت : ثائر ديب |
| ٥٧٠ – دول الخليج الفارسى | سير رويرت هاى | ت : يوسف الشارونى |
| ٥٧١ – تاريخ النقد الإسبانى المعاصر | إيميليا دى ثوليتا | ت : السيد عبد الظاهر |
| ٥٧٢ – الطب فى زمن الفراعنة | برونو أليوا | ت : كمال السيد |
| ٥٧٣ – فرويد | ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى | ت : جمال الجزيرى |
| ٥٧٤ – مصر القديمة فى عيون الإيرانيين | حسن بيرنيا | ت : علاء الدين عبد العزيز السباعى |
| ٥٧٥ – الاقتصاد السياسى للعولمة | نجير وودز | ت : أحمد محمود |
| ٥٧٦ – فكر ثربانتس | أمريكو كاسترو | ت : ناهد العشرى محمد |
| ٥٧٧ – مغامرات بينوكيو | كارلو كولودى | ت : محمد قدرى عمارة |
| ٥٧٨ – الجماليات عند كيتس وهنت | أيومى ميزوكوشى | ت : محمد إبراهيم وعصام عبد الروف |
| ٥٧٩ – تشومسكى | چون ماهر وچودى جرووز | ت : محيى الدين مزيد |
| ٥٨٠ – دائرة المعارف الدولية | چون فيزر وبول سيترجز | ت : محمد فتحى عبد الهادى |
| ٥٨١ – الحمقى يموتون | ماريو بوزو | ت : سليم عبد الأمير حمدان |
| ٥٨٢ – مرايا الذات | هوشنك كلشيرى | ت : سليم عبد الأمير حمدان |
| ٥٨٣ – الجيران | أحمد محمود | ت : سليم عبد الأمير حمدان |
| ٥٨٤ – سفر | محمود دولت آبادى | ت : سليم عبد الأمير حمدان |
| ٥٨٥ – الأمير احتجاب | هوشنك كلشيرى | ت : سليم عبد الأمير حمدان |
| ٥٨٦ – السينما العربية والأفريقية | ليزبيث مالكموس وروى آرمز | ت : سهام عبد السلام |
| ٥٨٧ – تاريخ تطور الفكر الصينى | نخبة | ت : عبد العزيز حمدى |
| ٥٨٨ – أمنحوتپ الثالث | أنييس كابرول | ت : ماهر جويجاتى |
| ٥٨٩ – تمبكت العجيبة | فيلكس ديبواه | ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم |
| ٥٩٠ – أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية | نخبة | ت : محمود مهدى عبد الله |
| ٥٩١ – الشاعر والمفكر | هوراتيوس | ت : على عبد التواب على وصلاح رمضان السيد |
| ٥٩٢ – الثورة المصرية | محمد صبرى السوربونى | ت : مجدى عبد الحافظ وعلى كورخان |
| ٥٩٣ – قصائد ساحرة | بول فاليرى | ت : بكر الحلو |
| ٥٩٤ – القلب السمين | سوزانا تامارو | ت : أمانى فوزى |
| ٥٩٥ – الحكم والسياسة فى أفريقيا جـ٢ | إكوادو بانولى | ت : نخبة |
| ٥٩٦ – الغضب وأحلام السنين | نخبة | ت : إدوار الخراط |
| ٥٩٧ – مسلمو غرناطة | خوليو كاروباروخا | ت : جمال عبد الرحمن |

| | | |
|---|---|---|
| ٥٩٨ - مصر وكنعان وإسرائيل | دونالد ريدفورد | ت : بيومى على قنديل |
| ٥٩٩ - فلسفة الشرق | هرداد مهرين | ت : محمود علاوى |
| ٦٠٠ - الإسلام فى التاريخ | برنارد لويس | ت : مدحت طه |
| ٦٠١ - النسوية والمواطنة | ريان فوت | ت : أيمن بكر وسمر الشيشكلى |
| ٦٠٢ - نحو فلسفة ما بعد الحداثة | جيمس وليامز | ت : إيمان عبد العزيز |
| ٦٠٣ - النقد الثقافى | آرثر أيزابرجر | ت : وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى |
| ٦٠٤ - الكوارث الطبيعية | باتريك ل. آبوت | ت : توفيق على منصور |
| ٦٠٥ - مخاطر كوكبنا المضطرب | إرنست زيبروسكى الصغير | ت : مصطفى إبراهيم فهمى |
| ٦٠٦ - قصة البردى اليونانى فى مصر | ريتشارد هاريس | ت : محمود إبراهيم السعدنى |
| ٦٠٧ - قلب الجزيرة العربية جـ١ | هارى سينت فيلبى | ت : صبرى محمد حسن |
| ٦٠٨ - قلب الجزيرة العربية جـ٢ | هاردى سينت فيلبى | ت : صبرى محمد حسن |
| ٦٠٩ - الانتخاب الثقافى | أجنر فوج | ت : شوقى جلال |
| ٦١٠ - العمارة المدجنة | رفائيل لوبث جوثمان | ت : على إبراهيم منوفى |
| ٦١١ - النقد والأيديولوجية | تيرى إيجلتون | ت : فخرى صالح |
| ٦١٢ - رسالة النفسية | فضل الله بن حامد الحسينى | ت : محمد محمد يونس |
| ٦١٣ - السياحة والسياسة | كولن مايكل هول | ت : محمد فريد حجاب |
| ٦١٤ - بيت الأقصر الكبير | فوزية أسعد | ت : منى قطان |
| ٦١٥ - عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد | أليس بسيرينى | ت : محمد رفعت عواد |
| ٦١٦ - أساطير بيضاء | روبرت يانج | ت : أحمد محمود |
| ٦١٧ - الفولكلور والبحر | هوراس بيك | ت : أحمد محمود |

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٨٨١٧ / ٢٠٠٣




# الفولكلور والبحر

كتاب له خصوصيته العلمية في دراسات الفولكلور بما يزخر به من مادة غزيرة متنوعة من عادات وتقاليد ومعتقدات شعبية وأساطير وحكايات خوارق وكائنات بحرية ومغامرات ربابنة وقراصنة ومعارك بحرية بين رجال السلطة والمهربين وقصص لها واقع، وإن كان للخيال فيها دور يجمع بين التراث الشفاهي والمأثور الشائع وبين الحدث الواقعي والتصور الحالم، وأغان يترنم بها البحارة فرادى وجماعات، ومواقف إنسانية وأخرى ساخرة، وتزاوج بين عالم الجان وعالم الإنسان، وعلاقات خرافية يصنعها الإنسان من خلال الوهم والخوف أحيانًا، أو من أجل أن يثير الطمأنينة في نفسه وسط الضباب وعواصف البحر وثورات موجه أحيانًا أخرى. وتتسم معلومات الكتاب بثرائها الخاص وبطبيعتها المعرفية النادرة، وبمكوناتها الثقافية التي ترتبط بعادات وتقاليد ومعتقدات وطقوس وممارسات وشعائر تخرج عن إطار الفعل الاجتماعي والمعتقد الديني إلى مجال السحر ومخاطبة كائنات مغايرة للكائن الإنساني، ومسميات لمكونات من الطبيعة إلى مكونات تفوق عالم الطبيعة وعوالم الحياة. والكتاب ليس وصفًا، بل هو كشف عن حيوات لها خصوصيتها في الثقافة الإنسانية لم نعرف عنها الكثير، بل إن ما نعرفه عنها محدود، وما استلهم من عناصرها في مجال الأدب والفن جزء صغير، بل في منتهى الصغر. فحياة البحر حياة متقلبة، وهي تموج بالأعاصير وغرائب الموجودات وعجائب الطبيعة. وهي حياة كل ما فيها في حركة دائمة بين مد وجزر، وصعود وهبوط، وأمطار وسكون، وبرد قارص وهدوء يثير الأوهام، ورؤية واضحة وغموض مخيف، وضوضاء صاخبة وأصوات غريبة رهيبة وصمت عميق تقشعر منه الأبدان. والبحّار على علم تام بما يحوط حياة البحر من أخطار، وما في الأعماق الرهيبة من مخلوقات قابعة، وما تحمله العواصف من قسوة وموت ودمار للسفن. والمادة التي أوردها المؤلف في هذا الكتاب عايشها واحتفظ بها في ذاكرته، وجمعها من رواة حفظوا ما عرفوا، وحفظها هو كذلك وحافظ عليها على مدى ثلاثين عامًا تم خلالها بالجمع والتدوين والدراسة، بالإضافة إلى خبرته الشخصية، وإلى جانب المعرفة المنقولة من الكتب والمراجع والدراسات التي استعان بها.

LORE & THE SEA

HORACE BECK

تصميم: وائل أحمد